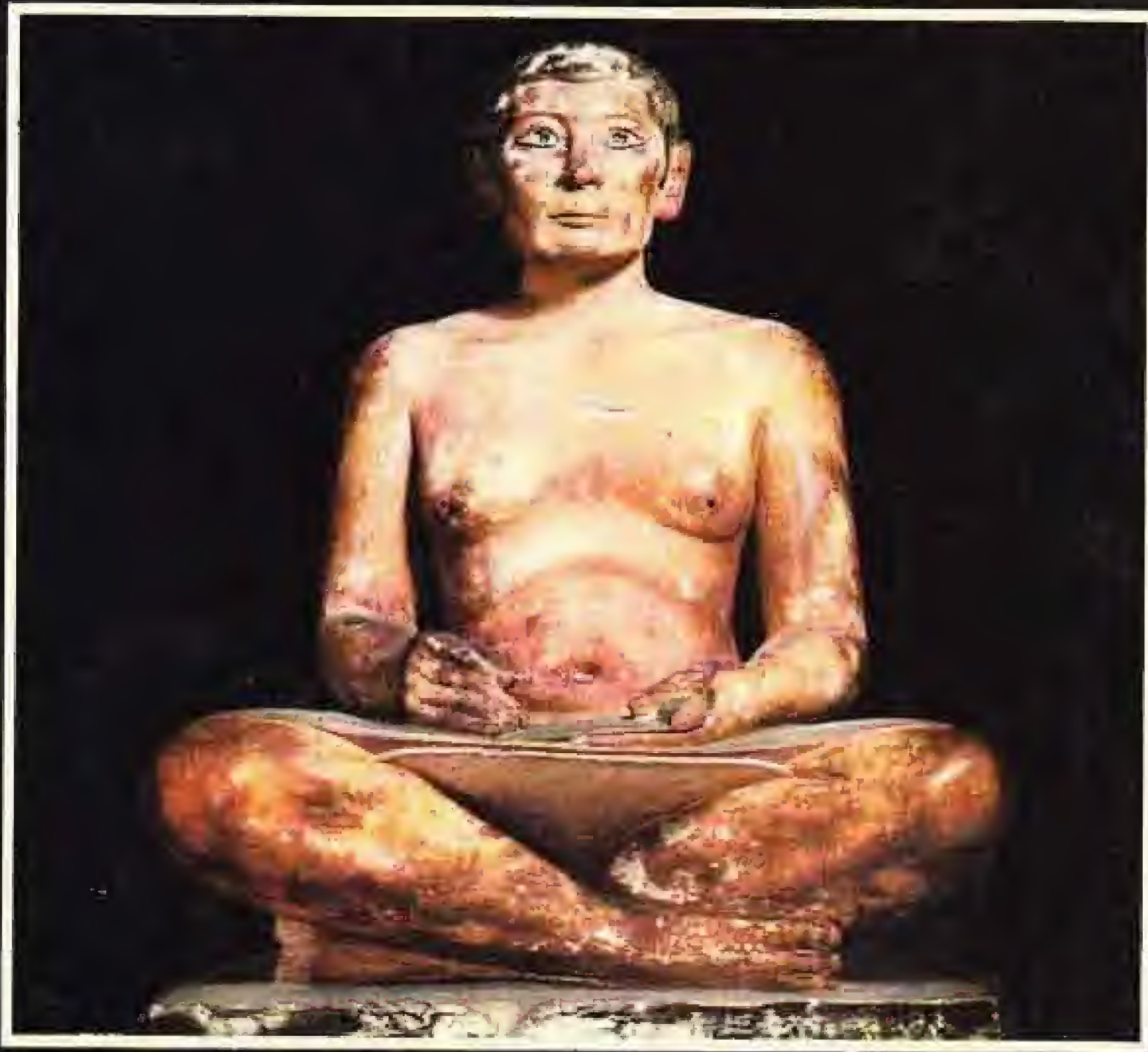


بَحْثُ الْمَعْرِفَةِ

موسوعة علمية مصورة



المجموعة الثانية

٣

مَسِيرَةُ الْخَفْضِ كَارَةٌ

مجلد أول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بهجة المعرفة
موسوعة علمية مصورة

مسيرة الحضارة

مجلد أول

المجموعة الثانية

٣



جميع الحقوق محفوظة
للشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان



The Joy of Knowledge Encyclopaedia
© Mitchell Beazley Encyclopaedias Ltd. 1976

The Joy of Knowledge Encyclopaedia Colourpaedia
© Mitchell Beazley Encyclopaedias Ltd. 1976

Derived from the Joy of Knowledge «TM» Services

The Publishers declare that an important part of
the illustrations was derived from the I. V. R.
Artwork Bank © 1974

هيئة تحرير الموسوعة :

إشراف : الصادق النيوم
رئيس قسم التحرير : الدكتور كريم عزقول
المدير الفني : فاروق البقيلي

ساهم في إعداد هذا المجلد :

ترجمة :

الدكتور ماجد فخري
- دكتور بالفلسفة من جامعة أدنبره .
- أستاذ الفلسفة العربية والغربية في جامعة لندن
وجامعة جورجيتاون بواشنطن سابقا .
- أستاذ الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت .
- رئيس دائرة الفلسفة في الجامعة الأمريكية في
بيروت سابقا .

دراسات خاصة :

نخبة من أئمة الجامعات العربية .

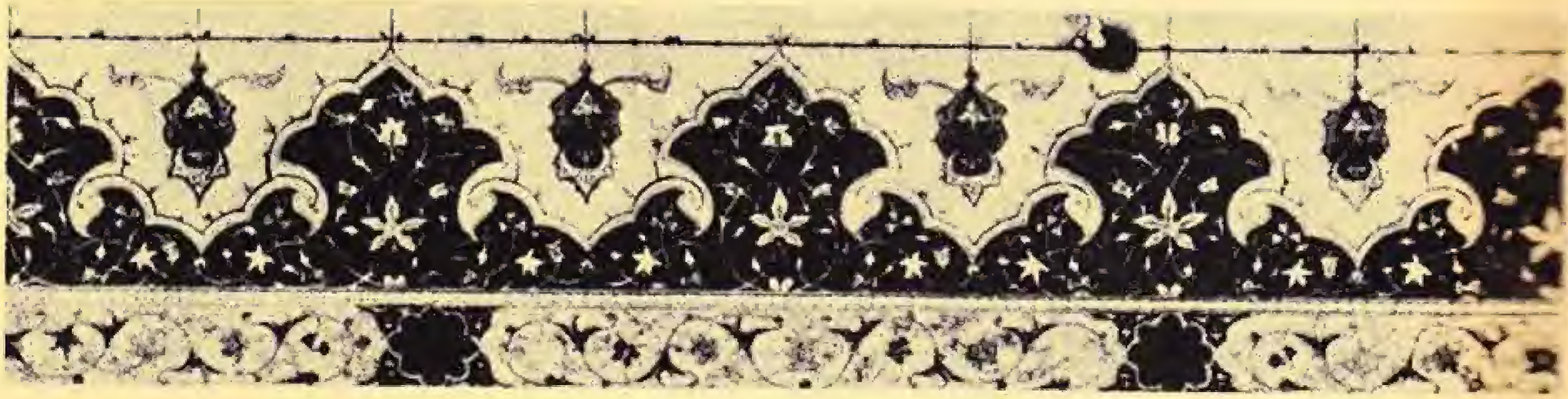
مراجعة : الدكتور شاكرم مصطفى

التنفيذ الفني : أوصاف البقيلي

فهرس

١٥٠	المجتمع اليوناني الكلاسيكي
١٥٤	الأدب والمسرح اليونانيان
	الفن اليوناني (١)
١٥٨	« ١١٠٠ - ٤٥٠ ق . م . »
	الفن اليوناني (٢)
١٦٢	« ٤٥٠ - ٣١ ق . م . »
١٦٦	العلم اليوناني
١٧٠	قرطاجة واليونان في شمال افريقيا
١٧٤	الاسكندر المقدوني
١٧٨	خلفاء الاسكندر (١) البطالمة
١٨٢	خلفاء الاسكندر (٢) السلوقيون
١٨٦	الاسكندرية في العصر الهلنستي
١٩٠	الكلتيون
١٩٤	الأترسكيون
١٩٨	روما المبكرة
٢٠٢	روما الجمهورية
٢٠٦	الحياة الرومانية
٢١٠	من الحروب الأهلية الى قيصر
٢١٤	روما الامبراطورية
	الفن الروماني (١)
٢١٨	« بين ٢٧ ق . م . و ١١٧ م . »
	الفن الروماني (٢)
٢٢٢	« بين ١١٧ - ٥٥ م . »
٢٢٦	قرطاجة وروما
٢٣٠	شمال افريقيا والاستعمار الروماني
٢٣٤	المشرق وروما
٢٣٨	المنسيح
٢٤٢	الأدب الروماني
٢٤٦	الأباطرة الجنود
٢٥٠	العلم الشرقي والغربي القديم
٢٥٤	المسيحية في العالم العربي
٢٥٨	المشرق العربي وبيزنطة

٢٠	وسائل التاريخ
٢٤	علم الآثار
٢٨	فن ما قبل التاريخ
٤٢	بدايات الزراعة
٤٦	الشرق القديم
٥٠	الحضارة السومرية
٥٤	الساميون الأوائل
٥٨	البابليون
٦٢	أفريقيا في العصور الأولى
٦٦	المملكتان القديمة والوسطى في مصر
٧٠	الهند القديمة « حتى ٥٠٠ ق . م . »
٧٤	الحضارة المينوية
	بلاد اليونان
٧٨	« بين ٢٨٠٠ - ١١٠٠ ق . م . »
٨٢	الصين « حتى سنة ١٠٠٠ ق . م . »
	أمريكا في العصر الكلاسيكي
٨٦	« حتى ٣٠٠ م . »
٩٠	مصر « من سنة ٥٧٠ الى الاسكندر »
٩٤	أفريقيا ، كوش وأكسوم
٩٨	الحثيون « ١٧٠٠ - ١٢٠٠ ق . م . »
١٠٢	الفينيقيون « ١٥٠٠ - ٣٣٢ ق . م . »
١٠٦	الأشوريون
١١٠	الآراميون
١١٤	العبرانيون
١١٨	العرب الأقدمون (١)
١٢٢	العرب الأقدمون (٢)
١٢٦	امبراطورية الاخمينيين الفارسية
١٣٠	الهند « من ٥٠٠ ق . م . حتى ٣٠٠ م . »
١٣٤	بوذا والبوذية
١٣٨	أوروبا « بين ١٢٠٠ - ٥٠٠ ق . م . »
١٤٢	اليونان حتى ظهور أثينا
١٤٦	اليونان الكلاسيكية



٢٧٤	التعليم والمدارس في الاسلام	٢٦٢	شمال أفريقيا بين روما وبيزنطة
٢٧٨	القرآن والحديث والفقه	٢٦٦	دول عرب الجنوب
٢٨٢	العلوم اللسانية والكتابة العربية	٢٧٠	حضارة عرب الجنوب
٢٨٦	الأدب العربي	٢٧٤	دول عرب الشمال
٢٩٠	العلوم الانسانية	٢٧٨	حضارة عرب الشمال
٢٩٤	التعريب وتمازج الثقافات	٢٨٢	الهند « من ٣٠٠ الى ١٢٠٠ م »
٢٩٨	العلوم الطبية عند العرب	٢٨٦	الفن الهندي حتى المغول
٤٠٢	الفلك والرياضيات عند العرب		الصين
٤٠٦	الكيمياء والفيزياء عند العرب	٢٩٠	« بين سنة ١٠٠ ق. م. و ٦٨٨ م. »
	الفلسفة عند العرب (١)	٢٩٤	كونفوشيوس والكونفوشية
٤١٠	القضايا الفكرية	٢٩٨	اليابان « بين ٢٠٠ ق. م. و ١١٨٥ م. »
	الفلسفة عند العرب (٢)	٣٠٢	نشأة العالم المسيحي الغربي الوسيط
٤١٤	الفلاسفة	٣٠٦	غزوات الشعوب الجرمانية
٤١٨	التصوف في الاسلام	٣١٠	أطراف الجزيرة العربية قبل الاسلام
٤٢٢	الفن الاسلامي (١) النجارة	٣١٤	العرب قبيل الاسلام
٤٢٦	الفن الاسلامي (٢) الرسم والتزيين	٣١٨	عالم الرسول
٤٣٠	الفن الاسلامي (٣) الفنون الصغرى		الفتوحات الاسلامية (١)
٤٣٤	الموسيقى العربية	٣٢٢	في المشرق
٤٣٨	شارلمان		الفتوحات الاسلامية (٢)
٤٤٢	الفايكنغ	٣٢٦	في المغرب
٤٤٦	الامبراطورية الرومانية المقدسة	٣٣٠	الاسلام في عصره الذهبي
٤٥٠	التوسع الأوروبي شرقاً	٣٣٤	الخلافة
٤٥٤	الفن الرومانسكي في القرن ١١	٣٣٨	الأحكام السلطانية
	الحروب الصليبية (١)	٣٤٢	تصدع الامبراطورية
٤٥٨	« بين سقوط القدس وتحريرها »		شمال أفريقيا العربي
	الحروب الصليبية (٢)	٣٤٦	« بين الفتح والقرن ١١ م. »
٤٦٢	« في القرن الثالث عشر »	٣٥٠	الأندلس (١) عصر الامارة
	اقتصاد أوروبا الغربية	٣٥٤	الأندلس (٢) عصر الخلافة والطوائف
٤٦٦	« بين سنتي ٨٠٠ - ١٢٥٠ م. »	٣٥٨	الجيش والأسطول
	الفن القوطي	٣٦٢	المجتمع الاسلامي
٤٧٠	« بين ١١٤٠ - ١٢٠٠ م. »	٣٦٦	المدينة الاسلامية
٤٧٤	النظام الاقطاعي	٣٧٠	التجارة العالمية والنقود

هذه الموسوعة

لأول مرة في لغتنا العربية .
لأول مرة في تاريخنا بأسره ، تصدر عندنا موسوعة
مصورة ومعدة فعلاً على مستوى العمل الموسوعي .
لم يكن بوسعنا أن نتجاهل هذا النقص في مكتبتنا
العربية ، ولم يكن من خطتنا أن نوفيه بأي عمل لا
يجاري مستويات الموسوعات الحديثة في أكثر لغات
العالم تقدماً . وقد انفقنا بعض الوقت ونحن نبحث
جاهدين عما يدعى عادة باسم « الحل الوسط » ،
لكن البحث نفسه لم يعلمنا شيئاً سوى أنه ليس ثمة
حل وسط لأداء أي عمل جدي .
وذهبنا الى القمة .

اتصلنا بدور النشر شرقاً وغرباً ، وفحصنا
أعمالهم بكل ما في حوزتنا من رغبة في التدقيق ،
واختارنا أفضل - واحد - عمل بينها ، ثم اندفعنا
نفاوض على حقوق نشره في ملحمة مرهقة ، وغريبة
بعض الشيء عن عالم منتجتي الموسوعات في
الغرب . فلم نكن نفاوض على الثمن ، بل على
حقنا في تنقيح المادة ، وكان ذلك الطلب يدهشهم -
أحياناً - أكثر مما نتمنى .

بالتدريج تعلمنا أن نشرح لهم موقفنا .
بالتدريج بدأنا نقنعهم بأننا لا نريد أن
ننقل عملهم الى اللغة العربية ، بل نريد
ان نعدّ لانفسنا موسوعة عربية تخصنا ،
وتعكس روحنا وبيئتنا وذوقنا ، وترى
الاشياء من وجهة نظرنا ، اذا كان لا بد أن
تراها من وجهة نظر أمة ما .

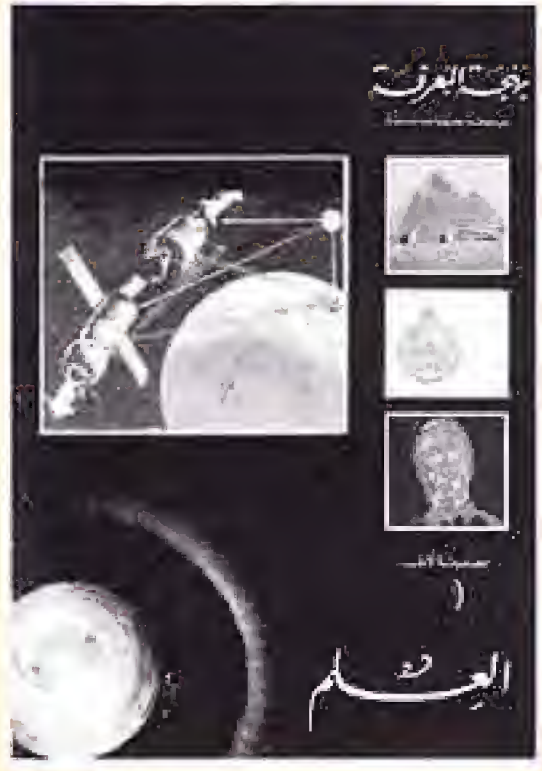
وتقبلوا فكرتنا في دار ميتشل بيزلي ذات
الدور الرائد في ابتكار الموسوعات
المصورة ، وانفتح الباب الذي ظل مغلقاً
طوال تاريخنا القديم والحديث على حد
سواء ، وبدأنا بالعمل لتقديم اول انتاج
موسوعي متكامل في لغتنا العربية ، بعد
ان تقرر خطة التنفيذ خلال جلسة شبه
عائلية بين ثلاثة من المسؤولين عن
التنفيذ .

في تلك الجلسة تقرر اولاً اننا سنواجه
مشكلة صعبة في نقل المصطلحات الى حد
قد يدعونا احياناً الى استعمال الكلمة

اللاتينية حرفياً . وبالنسبة لهذه النقطة ،
كان الحل الوحيد لدينا هو أن نوكل الترجمة
الى اساتذة جامعيين في المادة نفسها ، وليس فقط الى
مجرد مترجمين ، في محاولة حافلة بالتوقعات لحمل
الخبر العربي على مواجهة مشاكل لغته المعاصرة ،
واشراكه في مسئولية البحث عن الكلمة الأفضل
والاكثر قرباً الى روح ثقافتنا وشخصيتنا .

ابعد من ذلك لم يكن بوسعنا - ولم يكن من حقنا
أصلاً - أن غمضي شبراً واحداً . فنحن لا نتصدى
لكتابة لغة جديدة للعرب ، بل لتسجيل معلومات
جديدة في لغتهم ، وهي اقصى مهمة تستطيع أية
موسوعة أن تؤديها .

في تلك الجلسة تقرر أيضاً أن الترجمة على أي حال
ليست هي وحدها كل المشكلة . فمنهج التحرير
نفسه في تغطية مواد الموسوعة الانجليزية منهج لا
يلبي جميع احتياجاتنا . أنه مهيء لنا مادة علمية ممتازة
العرض والتنسيق في مجلدات « الكون »
و « الأرض » و « الحياة » ، لكن اهتماماته في مجلدات
اخرى مثل « الانسان والمجتمع » ، و « مسيرة



من مواضيع المجلد :

- النظرية الذرية
- الحرارة والضوء والتصور
- الكهرباء
- الكيمياء . . .

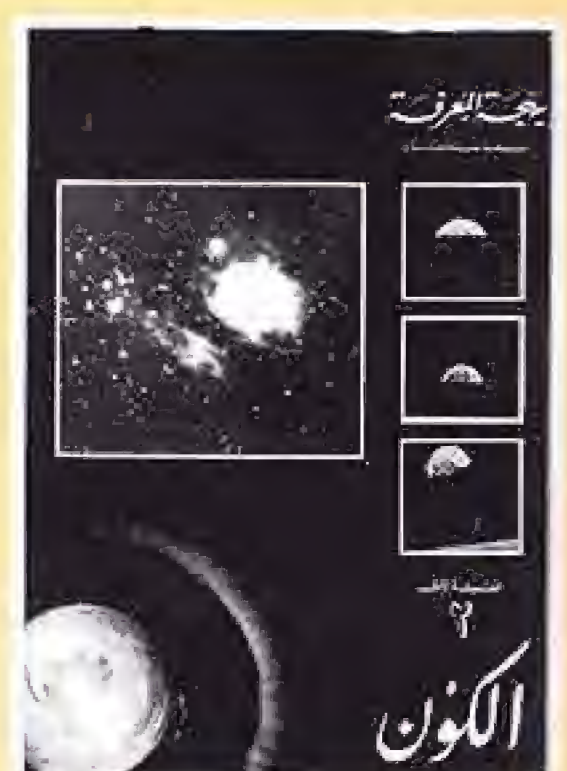
الحضارة » ، لا تغطي كثيراً مما يهمنا نحن في الدرجة الأولى .

بالنسبة لهذه النقطة كان الحل لدينا هو أن نعيد اخراج الموسوعة بأسرها في مجموعتين : -

المجموعة الأولى موجهة لتغطية ميادين العلوم الطبيعية المعاصرة في المجلدات الخمسة التالية :

- ١ (العلم
- ٢ (الكون
- ٣ (الأرض
- ٤ (الحياة
- ٥ (الاداة والآلة

وصفة هذه المجموعة انها تتعامل مع حقائق علمية مجردة . ودورنا فيها هو اننا



- وسائل النقل
- الأسلحة
- الهندسة
- الصناعات الكيميائية . . .

- كيف بدأت الحياة ؟
- النباتات
- الحشرات والسمك
- الطيور والثدييات . . .

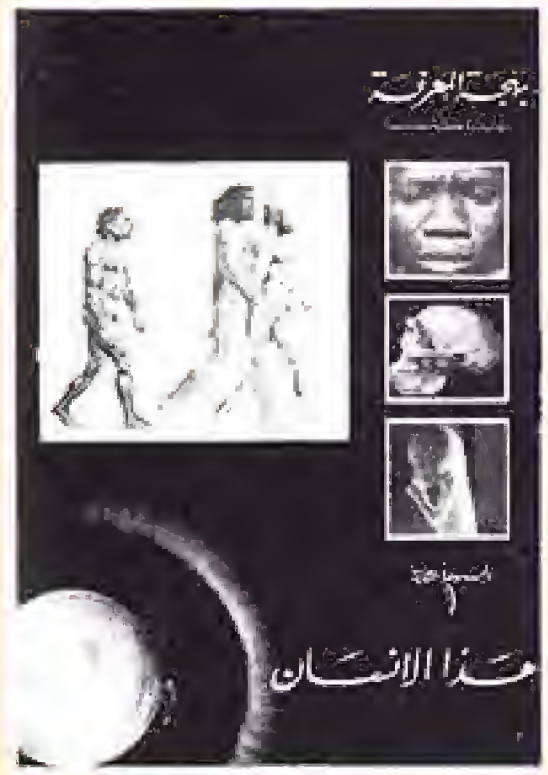
- تركيب الأرض
- البحار والمحيطات
- المناخ والطقس
- مصادر الغذاء والطاقة . . .

- علوم الفضاء
- المجموعة الشمسية
- النجوم وخرائط النجوم
- الإنسان والفضاء . . .

جانبين مختلفين في وقت واحد . فمنهج المحرر الاوربي هو أن ينظر الى ميادين العلوم الانسانية في أوربا ، ويركز بحوث النص على قضايا المجتمع والتاريخ فيها ، مقابل أن يكتفي بتغطية شبة عامة لمعظم ما يقع خارج هذا الاطار . ومشكلتنا نحن في الطرف الاخر أن هذا المنهج يلزمنا بتفاصيل لا نحتاج اليها عن أوربا ، ويحرمنا معلومات اساسية نحتاج اليها اكثر عن مجتمعاتنا وتاريخنا وطبيعة قضاياها التي نتعامل معها . وكأن الأمر كله بالنسبة لنا مجرد دعوة للاختيار بين أن ننقل المجموعة الى اللغة العربية وبين أن نعد لانفسنا مجموعة عربية تخصنا . هذه المرة لم تكن مشكلتنا ان نجد حلاً ، بل أن نتفق على اتخاذ قرار . وقد اعترانا التردد ، وارتفعت اصواتنا بعض الشيء ، ونحن نعدد لانفسنا انواع المصاعب والاحتمالات ، لكن ذلك فيما يبدو مجرد

نقلنا جميع معلوماتها بأمانة ودقة . وما نتوقعه منها هو أن تسد الثغرة الهائلة - والشديدة الوضوح - في مكتبتنا العربية في ما يخص حقل المعرفة المصورة بالذات . المجموعة الثانية موجهة لتغطية ميادين العلوم الانسانية في خمسة مجلدات اخرى هي :

- (١) هذا الانسان
 - (٢) الانسان والمجتمع
 - (٣) مسيرة الحضارة مجلد اول
 - (٤) مسيرة الحضارة مجلد ثان
 - (٥) مسيرة الحضارة مجلد ثالث
- وصفة هذه المجموعة أن خطة تحريرها بحكم طبيعة العلوم الانسانية نفسها خطة لا يمكن اداؤها من

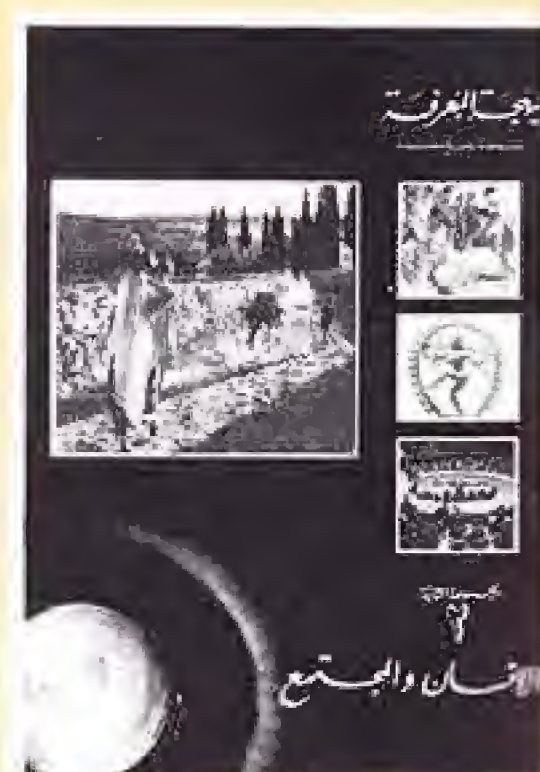
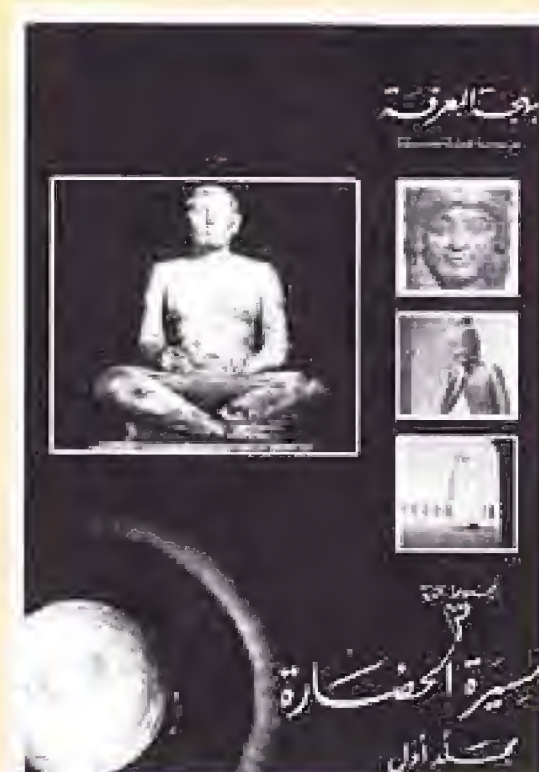
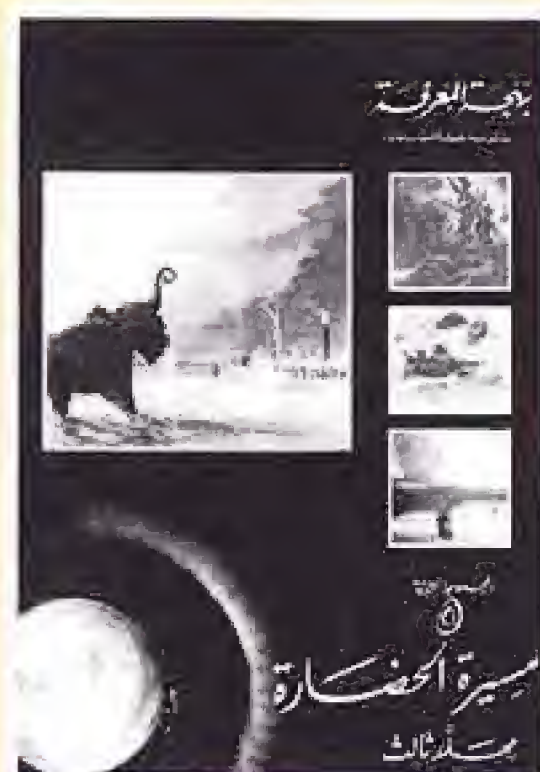


من مواضيع المجلد :

- قصة التطور
- كيف يعمل جسدك وينمو؟
- الصحة والمرضى
- مراحل العمر المختلفة . . .

جزء متوقع من أية جلسة مخصصة لاتخاذ قرارات صعبة . فقد انتهى الأمر بيننا بالاتفاق على أي حال ، واتفقنا جميعاً على اختيار الطريق الأطول والأكثر تعقيداً . رأينا أن نعيد توزيع النص . أن ن تدخل لتنقيح المادة . أن نحذف . أن نضيف . ورأينا أن ذلك يعني في الواقع اننا سنعدُّ كثيراً من فصول هذه المجموعة بأنفسنا ، مما يتطلب بدوره أن نلتزم أيضاً بالمستوى الرفيع - والمبتكر - لاجترار النص في نسخته الاصلية . فماذا فعلنا ؟ قمنا بتقسيم مواد المجموعة الثانية الى ثلاثة اقسام :

القسم الأول : دراسة علمية منفصلة من مجلدين ، احدهما يضم معظم المعلومات المتوفرة الآن عن الانسان وتطوره ، ووظائف اعضائه وتشرح



- استعمار العالم العربي
- الحرب العالمية الاولى
- حركات التحرير في العالم العربي
- الحرب العالمية الثانية ...

- اوربا في القرن الرابع عشر
- اكتشاف امريكا
- العثمانيون
- مطلع عصر الاستعمار ...

- نشأة المجتمعات
- امبراطوريات العالم القديم
- ظهور الاسلام
- المفلول في بغداد ...

- عن الموت والحياة
- الانسان والدين
- السياسة
- القانون ...

واحد ، يتبعه في وقت لاحق اطللس تاريخي
للوطن العربي ، ومنذ بداية هذا القسم
كنا قد افترقنا كثيراً عن النص الاجنبي ،
وكنا نعرف على وجه اليقين اننا هذه المرة
لا بد أن نعد معظم المادة بأنفسنا .
فماذا فعلنا ؟

سؤال بديهي حقاً ، لكن اجابته
الصحيحة لا تقع في نطاق هذه المقدمة
وحدها او هذا الكتاب كله . انها تقع في
عشرة مجلدات ، تضم اربعة الاف صفحة
تقريباً ، وأكثر من عشرة آلاف صورة ،
وجهد خمسمائة محرر ورسام طوال أربع
سنوات كاملة .

لصارح المنصوم

جسده وصفاته ، ومشاكله العقلية
العامية . والآخر يتعرض لموقع الانسان في
المجتمع ، والتركيبات الجماعية المعروفة في العالم ،
وقضايا الشخصية والنمو العقلي . وفي هذا المجلد
كان دورنا أن نساند معظم الدراسات الاصلية التي
تركزت بحوثها على مجتمعات اخرى بدراسات
جديدة عن مجتمعنا العربي ونوع قضايا ذات الطابع
المختلف . وقد بلغت حصيلة اضافاتنا مائة صفحة
تقريباً مخصصة كلها لتحديد ابعاد الصورة الأخرى
التي تسود مجتمعاتنا في العالم العربي .

القسم الثاني : دراسة تاريخية من مجلدين
يعرضان قصة الحضارة منذ عصور ما قبل التاريخ الى
نهاية العصور الحديثة . وفي هذا القسم تجاوزت
اضافاتنا حدود المائة صفحة ، ووقع علينا عبء
اعداد الفصول الخاصة بتاريخ الاسلام والعرب
بالذات لتغطية النقص الظاهر في اصل الموسوعة .
القسم الثالث : دراسة للتاريخ المعاصر من مجلد

خطة التحرير

كلمة موسوعة في اللغات الاوربية تعني تقريبا ما تعنيه كلمة « حلقة الدرس » في لغتنا . انها تجميع للمعارف طبقا لخطة اخراج خاصة من شأنها ان تضع حصيلة ضخمة من المعلومات بين يدي القارئ المتخصص والقارئ العادي على حد سواء .

ثمة خطتان لتحرير الموسوعات :

الاولى : ان تتبنى الموسوعة اسلوب التجميع حسب الحروف الابجدية ، وتعمل على تقسيم معلوماتها في خانات ترتبط بنوع الحرف وليس بطبيعة الموضوع . مشكلة هذه الخطة انها قائمة على تفكيك الوحدة الى فقرات مبتورة او مكررة ، مما يجعل الموسوعة نفسها مجرد قاموس مطول ، قد يرضي حاجة قارئ يبحث عن اجابة معينة لسؤال معين ، مثل « من هو قلب الاسد ؟ » ، او « متى عاش صلاح الدين ؟ » ، لكنه لا يسد حاجة من ينشد المعرفة الحقيقية بظروف هذين الرجلين وظروف العصر الذي شهد لقاءهما .

الخطة الاخرى : ان تتبنى الموسوعة اسلوب تجميع المعلومات حسب وحدة الموضوع ، بحيث تقدم عرضا شاملا له ، بغض النظر عن حروفه الابجدية . فالقارئ هنا لا يتلقى معلومات متفرقة عن قلب الاسد او صلاح الدين تحت حروف ابجدية متباعدة ، بل يشاهد حياتهما بمجملها وعصرهما بكامله ، ويتعرف على الظروف والاحداث التي احاطت بهما ، في عرض واحد مفصل تحت عنوان « الحروب الصليبية » . ان هذه الخطة ، بكل ما تقتضيه من التحرر من مراعاة الشمول والدقة ، هي التي رأيناها جديرة بتحرير موسوعة كبرى مثل « بهجة المعرفة » .

بهجة المعرفة ؟ نعم ، فهذا الاسم بالذات ليس مجرد اختيار عابر من جانبنا ، بل هو المنهج ذاته المتبع في اعداد مواد الموسوعة وفي توزيعها ايضا .

لم نكثرث للفكرة القائلة بان المعرفة التي تكتسب بيسر لا بد ان تكون معرفة سطحية او غير نافعة . الواقع ان مثل هذا الزعم ليس خياليا وبعيدا عن مفهوم التربية فحسب ، بل انه مفسد ، اذ من شأنه ان يسد كل طريق ممكن الى المعرفة . لقد تعمدنا ان نتجاهله ، وصممنا على ان نمضي في الاتجاه الاخر ، عازمين على تأكيد ايماننا بان المعرفة في حد ذاتها هي اول لذات الحياة واكثرها اثارة للبهجة .

استعملنا الرسوم . استعملنا الجداول واللوحات والخرائط . اتجهنا لتطوير طريقة

عرض المادة بحيث يسقط الضوء على كل موضوع من ثلاث زوايا مختلفة في وقت واحد :
زاوية النص العام الذي يتولى مهمة شرح الموضوع وتحديد اطاره ؛ زاوية الصور
التي تواكب فقرات النص بمثابة شروح او وثائق ؛ زاوية التعليق على الصور ، وهو نص
آخر قائم بذاته ، لإضافة مزيد من المعلومات الى النص العام او شرح تفاصيله .
هذا المنهج في تغطية جميع وحدات الموضوع من عدة زوايا في وقت واحد هو الذي قاد
المشرفين على اخراج الموسوعة في اللغة الانجليزية الى ابتكار نظامهم البارغ - والمفيد -
لتجميع كل موضوع على حدة في قطاع واحد من صفحتين .

نظام القطاع : اصطلاح « القطاع » يمثل هنا الوحدة الاساسية لجميع المجلدات ، وهو صفحتان في الاصل الاجنبي ،
واربع صفحات في النسخة العربية ، نظراً لاختلاف حجم المجلد من جهة ، وصغر انماط
الحرف اللاتيني من جهة اخرى .
كل قطاع يضم نصاً رئيسياً يقع في ٧٥٠ كلمة تقريباً على امتداد النصف العلوي من
الصفحات الاربع ، تضاف اليه الصور والرسوم الملونة التي تغطي مع شروحاتها اكثر من
نصف المساحة . وقد اخترنا للشروح اصغر نمط متاح للحرف العربي ، لكي نفسح مجالاً
كافياً لحشد مزيد من التفاصيل ، دون ان تصبح القراءة صعبة او مرهقة .
نقل القطاع من اصله الاجنبي الى النسخة العربية تم بنجاح ، رغم الاختلاف
الظاهر بين حجم المجلد في كلتا الموسوعتين . لقد التزمنا اصلاً ، في القطاعات التي قررنا
نقلها بحذافيرها الى اللغة العربية ، بنشر جميع الصور في احجامها الاصلية وجميع
النصوص والشروح التي يضمها القطاع على اربع صفحات بدلاً من اثنتين .

لمن « بهجة المعرفة » ؟ في الدرجة الاولى نحن نتوجه الى القارئ المدرب الذي تلقى تعليماً منظماً يعادل -
على الاقل - مرحلة التعليم الاعدادي . فقراءة موضوعات الموسوعة من دون المام بأوليات
المعرفة قد لا تكون امراً مشوقاً . فيما عدا ذلك ، نعتبر « بهجة المعرفة » « حلقة درس »
حقيقية مفتوحة فعلاً لجميع الاعمار .

لقد ضمناها ثلاثة مصادر للمعرفة ، تمثل مستويات المعارف المختلفة : مصدراً
يعالج معلومات اساسية قد يحتاج اليها كل قارئ ، مثل المواد الخاصة بوظائف الجسم

وتربية الطفل وامور الصحة والمرض ؛ ومصدراً يعالج معلومات مفيدة وممتعة معا ، من شأنها ان تشد انتباه كل قارئ بين الاعدادي وبين الجامعة ، لأنها تهيم له مرجعا علميا موثوقا به لجميع المعارف التي يتلقاها طوال سنوات دراسته ، مثل الاهد الخاصة بالتاريخ والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلك ؛ ثم مصدراً ثالثاً يعالج معلومات متخصصة لا يحتاج القارئ الى مطالعتها فقط ، بل الى مراجعتها ايضا بين حين وآخر ، بحثاً عن الحل او المشورة ، مثل المواد الخاصة باستعمال الآلات او موضوعات غذاء الطفل ورعاية الحامل .

كيف تقرأ ؟ نظام القطاع مصمم خاصة لتحويل الموسوعة الى مكتبة امام كل قارئ لا يرتبط بمنهج بحث معين . انه يستطيع ان يقرأ كل كتاب على حدة - او حتى كل قطاع على حدة - ويستطيع ان يضمن لنفسه فيضاً زاخراً من المعلومات النافعة دون ان يخسر شيئاً من متعة التشويق والتباين . لكن نظام القطاع قد يقدم خدمة اكبر للقارئ المدرب الذي يستعمل الموسوعة طبقاً لمناهج محددة في البحث .

فهذا القارئ ، سواء كان طالباً او باحثاً متخصصاً ، تمده الموسوعة بمرجع قريب وسهل التداول ، يكفيه مشقة البحث الطويل بين المصادر ، ويكفيه في الدرجة الاولى مشقة تجميع المصادر نفسها . كل ما يحتاج اليه هنا هو ان يراجع في « اقرأ ايضاً » ارقام صفحات القطاعات المترابطة في كل مجلد على حدة ، لكي يكتشف بنفسه ان كل قطاع يعمل تلقائياً بمثابة خلية واحدة في جسم واحد ، وان كل قطاع يقود الى الآخر في نسج متواصل النمو والتشابك مثل المعرفة الحية نفسها .

كيف تبحث ؟ الخطوة الاولى ان تحدد لنفسك المجلد الذي يتعامل مع موضوعك . فما يخص الانسان مثلاً تبحث عنه في « هذا الانسان » ، وما يخص الفضاء تبحث عنه في مجلد « الكون » . ومجلدات الموسوعة مقسمة عمداً الى مجموعتين لتسهيل هذه المهمة بالذات . الخطوة الثانية ان ترجع ، في « هذا الانسان » مثلاً ، الى الصفحة الثامنة عشرة ، حيث تجد خارطة مفصلة للكتاب ، تحدد لك اين تجد موضوعك ، وموقعه من المادة بأسرها . فاذا كنت تبحث عن امر يتعلق بالجهاز الهضمي مثلاً ، فسوف ترشدك الخارطة الى القسم الثاني المخصص للجسم البشري في بنيته وفي وظائفه . بعد ذلك ، كل ما تحتاج اليه هو ان تلقي نظره على فهرس المحتويات لكي تعرف الصفحة التي تحتوي على موضوعك .

الدكتور كريم عزقول

نظام القطع

النص الرئيسي هو عرض لموضوع قائم بذاته ، من ٧٥٠ كلمة تقريباً ، يملأ الجزء الأعلى من صفحات القطاع الرابع .

الرسوم والصور هي رسوم وصور ومخططات ولوحات وجدول وخرائط تضيف طابعاً حسيّاً على تفاصيل الموضوع وتجسّده ماثلاً امام عينيك .

نموذج للقطاع بمختلف عناصره المتأزرة لجعل موضوع في المعرفة الشاملة العامة متكاملًا ومشوّقًا وحياً .

الهوامش هي كلمات - عناوين لاجزاء الرسوم والصور او ارقام تدلّك الى شروحيها في التعليقات .

التعليقات هي شروح للرسوم والصور تستخرج معانيها وتوضح دقائقها وتزودك بمعلومات تفصيلية اضافية عن الموضوع .



اقرأ ايضاً هي قائمة بالابحاث التي تتناول نواحي اخرى من الموضوع ذاته والتي يمكنك مطالعتها في هذا المجلد . وقد افرد لها باب خاص في آخر المجلد .

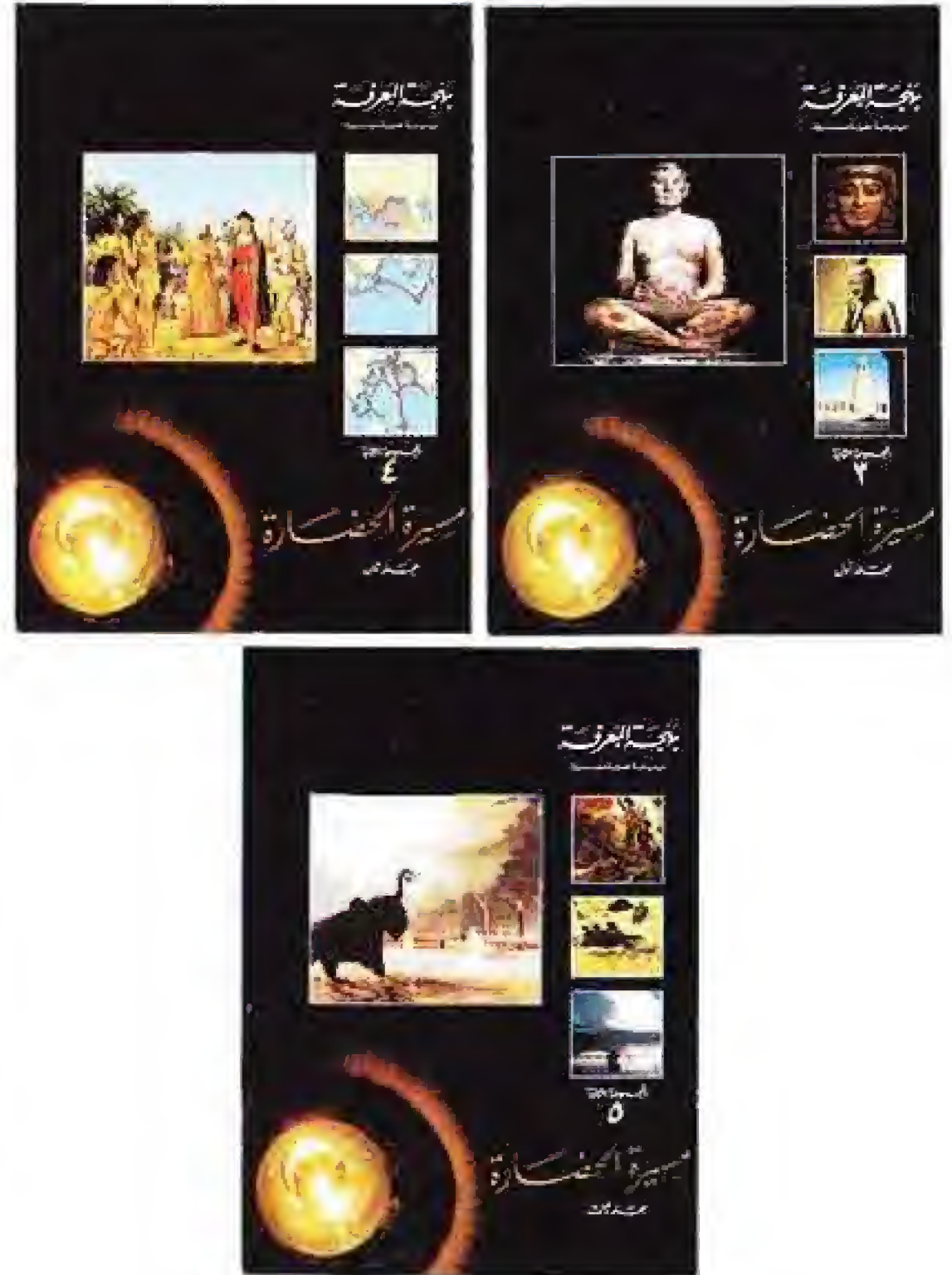
مدخل

في النص الأجنبي ، التزمت خطة التحرير بمنهج المفكرة في اعداد مجلدات الحضارة الثلاثة ، وهو منهج تطور اصلا على أيدي المؤرخين العرب ، واشهر خصائصه ان مادته مبوبة طبقا لوحداث زمنية محددة ، وليس طبقا لوحدة الأحداث .

ميزة هذا المنهج انه يتيح للمحرر تجميع معلومات وفيرة وسهلة الترتيب عن مسيرة الحضارة من عصر الى عصر . لكن مشكلته انه قاصر عن تجميع ابعاد الصورة النهائية في اطار أخير واحد ، وهو نقص يهمننا أن نوفيه في النسخة العربية بالذات .

فمسيرة الحضارة بالنسبة لنا ، نحن سكان الوطن العربي ، انحرفت الى طريق وعر في مطلع القرن الحادي عشر ، عندما استأنف الأوروبيون غارة الاستيطان المسلح على اراضيهم للمرة الثالثة منذ هجوم الاسكندر ويوليوس قيصر خلال الالف الأولى قبل الميلاد . وصادفت الغارة هذه المرة عصرا تميز بسباق بحري عالمي للسيطرة على المحيط . لقد خسرنا ذلك السباق .

ورغم ان الأوروبيين ارتدوا مؤقتا عن اراضي الشرق تحت ضغط الكتلة العظمية من الهلال الاسلامي ، فان عملياتهم العسكرية على اطرافه القصوى في الاندلس كانت تجري ضد جبهة هشة معزولة عن طرق الامدادات ، ما لبثت ان تحطمت نهائيا قبل مطلع القرن السادس عشر .



واذ ذاك أغلق الاسبان مضيق جبل طارق .
واصبح البحر المتوسط زنزانة . ان تاريخنا لا
يدخل المحيط .

تقف خارج دائرة الاحداث . نصبح شعبا
قديما في العالم القديم . يستأثر الأوروبيون
بالمحيط . وينفردون بشعوب قاراته النائية في
حرب مستحيلة بين قبائل مسلحة بسهام العصر
الحجري . وبين جيوش نظامية تقاتل بالاسلحة
الفتاكة التي طورها صراع الحضارات في البحر
المتوسط .

يباد الهنود . يباد سكان استراليا . يباد
سكان الجزر . تمحي آلاف اللغات . تندثر
حضارات وشعوب بأسرها . يصبح «العالم
الجديد» مستوطنة اوروبية . ان الأوروبيين
الفقراء الذين عرفهم وطننا خلال الغارة الصليبية
على المشرق يرثون فجأة كنوز عالم بأسره .
يختل ميزان القوى . يتغير وجه العالم .
تنقلب قوانينه الى حد يبرر تقسيمه شرعيا الى
ثلاث عوالم مرة واحدة :

عالم غني واسع تقطنه شعوب غرب أوروبا
المطلية على المحيط . وهي الشعوب التي قامت
بتنفيذ الغارة . واستوطنت امريكا الشمالية
والجنوبية وجنوب افريقيا واستراليا بالإضافة
الى قارة انترتيكا . وجميع الجزر وممرات
التجارة الدولية .

عالم يعيش على الكفاف . تقطنه شعوب
وسط أوروبا واطرافها الشرقية البعيدة عن

المحيط . وهي شعوب لم تتمكن من المشاركة
في الغارة لكنها ايضا لم تسقط فريسة لها بفضل
قدرتها المستمرة على الاحتفاظ بموقع الردع في
سباق التسلح .

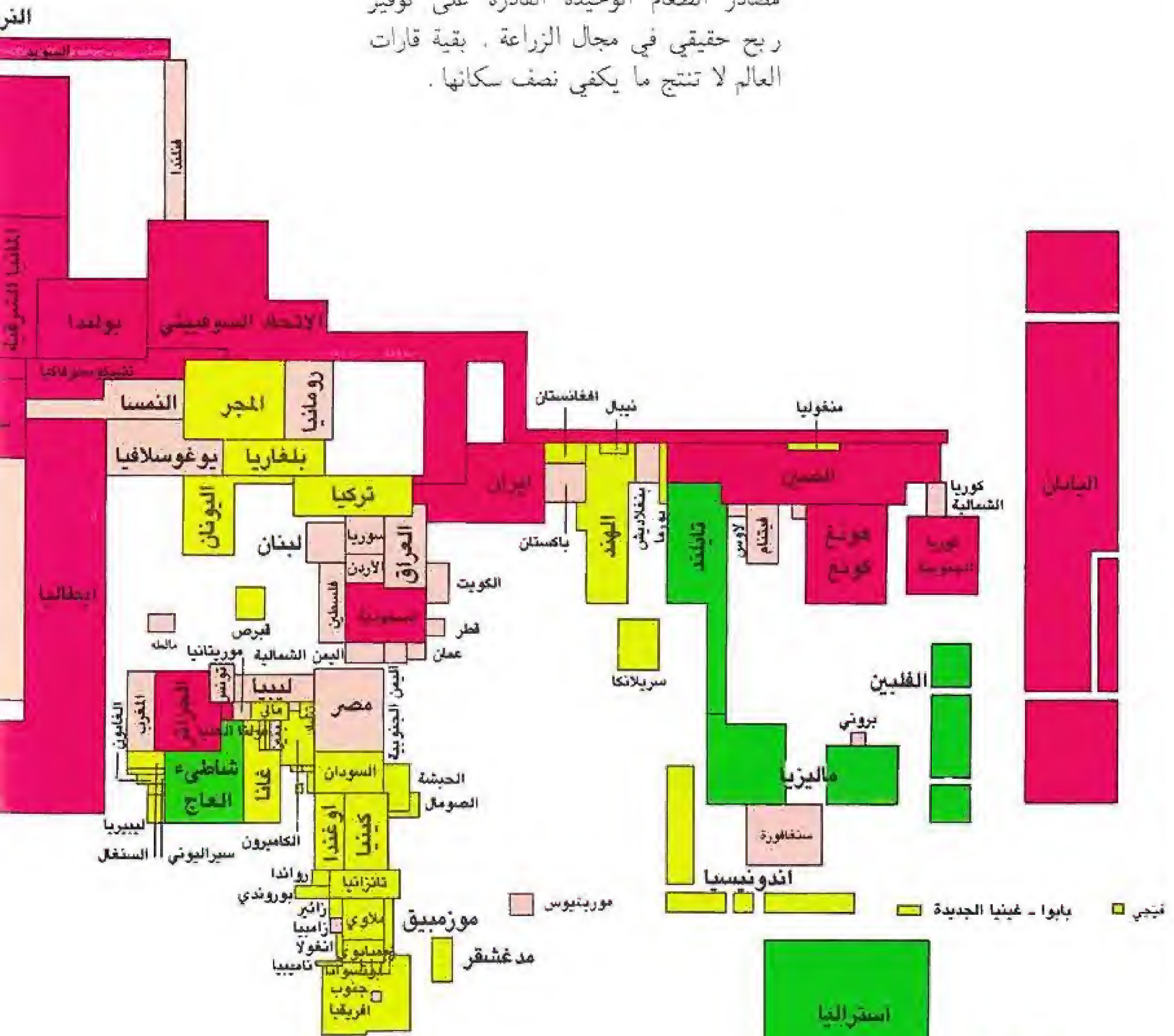
عالم فقير مزدحم في افريقيا وآسيا . تعرض
للاحتلال أو الابداء . واستنزف الأوروبيون
موارده بقوة جيوشهم النظامية وشركاتهم الضخمة
حتى اصبح أمر اعادة بنائه مشروعا محفوفًا
بالشكوك .

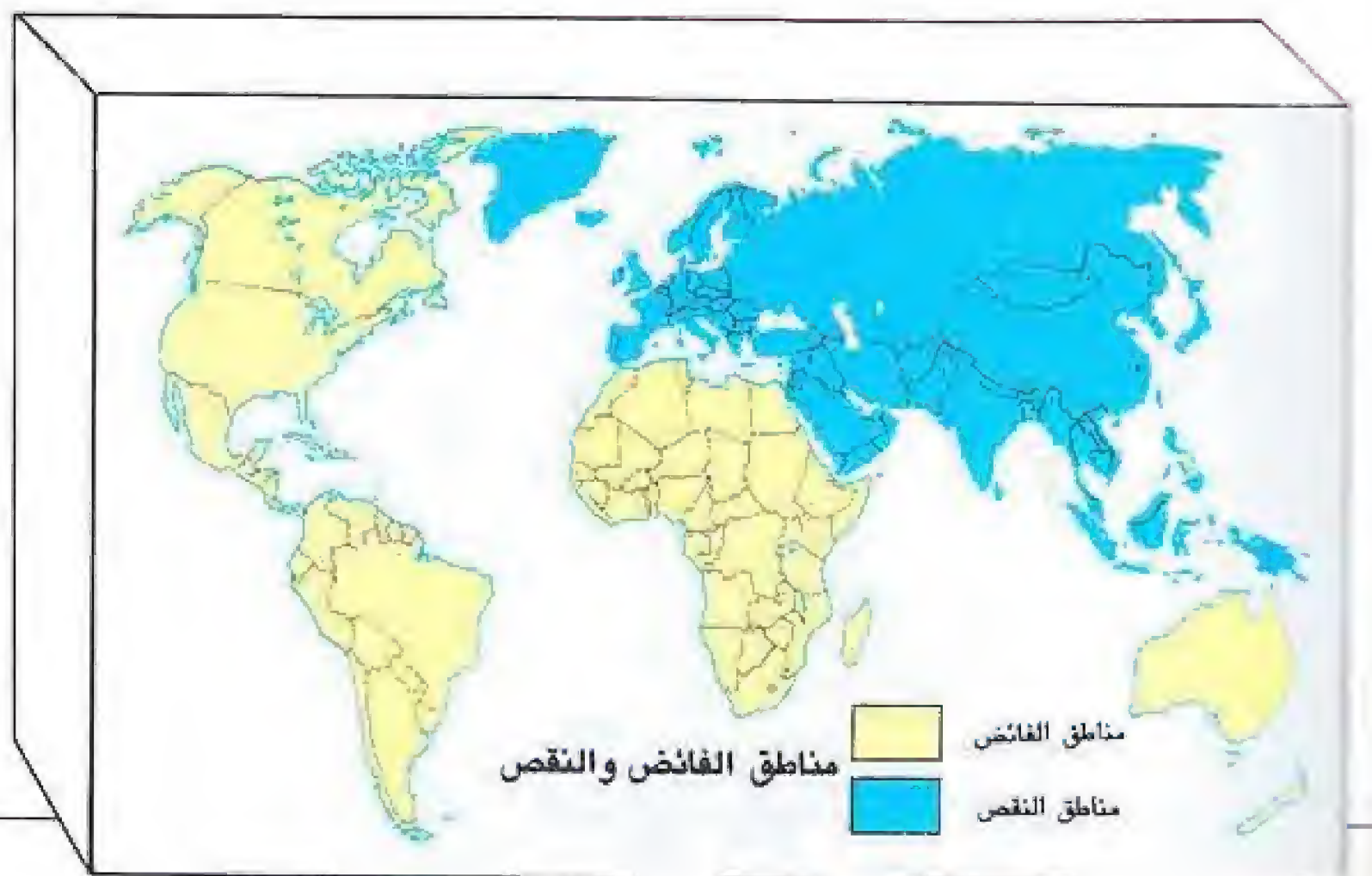
تتضاعف الفروق . تتسع الهوة بين عالم
وعالم . تقف لغتنا العربية عند جبل طارق .
يقف تاريخنا عند جبل طارق . تنتشر ثلاث
لغات اوروبية في المستوطنات الواسعة
الجديدة . هي بالذات لغات قادة الحروب
الصليبية . الاسبان والفرنسيين والبريطانيين .
وفي هذه اللغات تولد ثقافة العصر الحالي
وعلموه . وقيمته الاخلاقية . ان الحضارة التي
بدأت مسيرتها من وطننا قبل ان يستوطن
الأوروبيون أوروبا نفسها . قد انحرفت بالنسبة
لنا في مسار مفجع حقا .

واذا كانت هذه النهاية قد بدت مؤقتة . أو
قابلة للتغيير خلال العصر الذي شهد مطلع الغارة
الأوروبية على قارات المحيط الهادئ . فانها
الآن - بعد أربعة قرون من تنفيذ الغارة - تبدو
بمثابة القرار الأخير الحاسم في مصير الحضارة
بأكملها . اننا نحيل الحديث عن هذه الحقيقة
الى جداول الاحصاء .

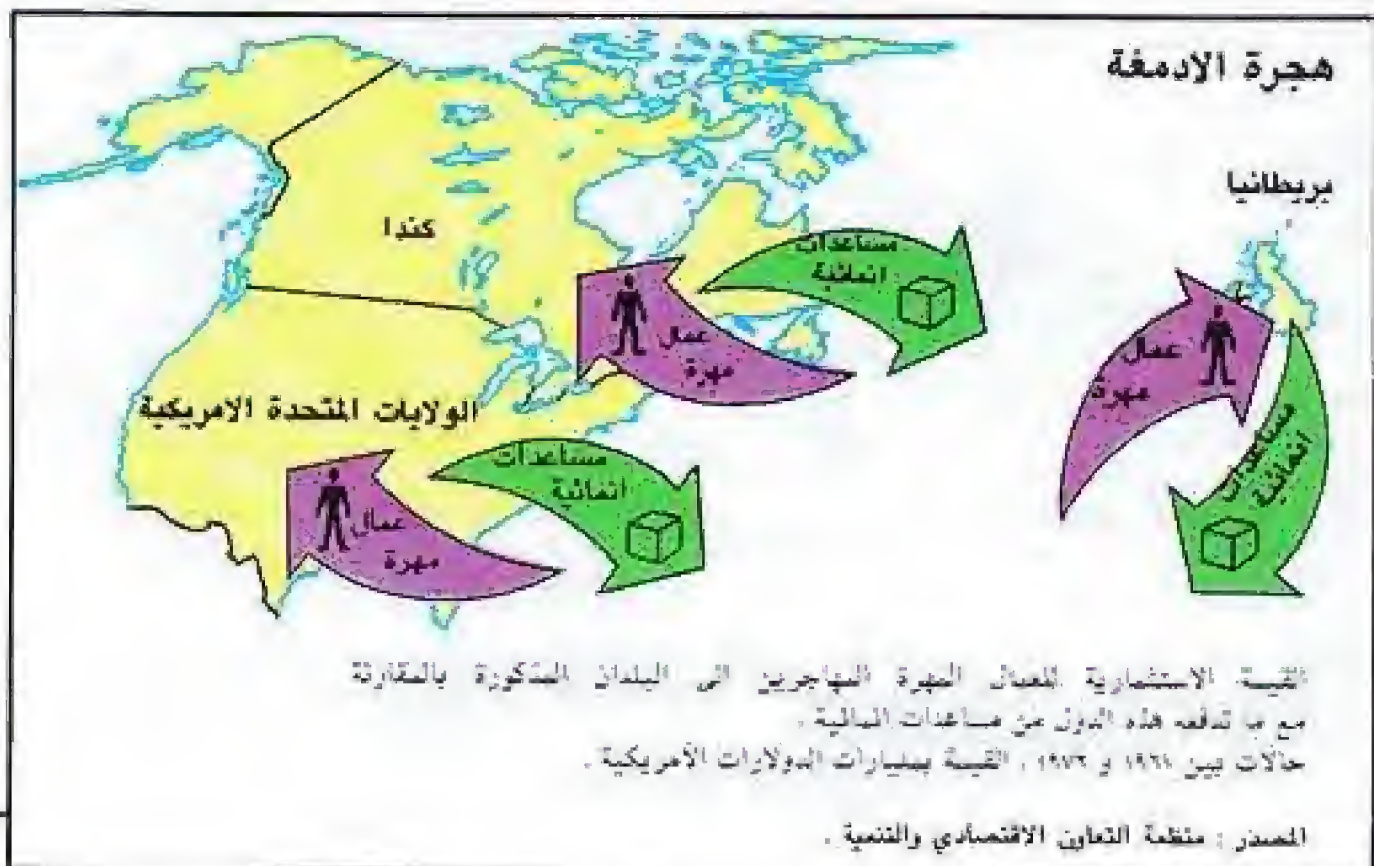
سلطة الطعام

باستثناء ماليزيا وساحل العاج . فإن جميع الأراضي الزراعية الخصبة على كوكب الأرض تقع في قارات العالم الجديد . وهي مصادر الطعام الوحيدة القادرة على توفير ربح حقيقي في مجال الزراعة . بقية قارات العالم لا تنتج ما يكفي نصف سكانها .





احتفظت شعوب أوروبا الشرقية والاتحاد
السوفييتي بموقع الودع في سباق التسلح قبل
الحارة وبعدها وما تزال حتى الآن طرفاً في
السباق التثقيفي المصاعق الذي يغير وجه عالمنا
المعاصر . بقية شعوب الأرض ما تزال خارج
الحلبة . فيما عدا مستوطنات الأوروبيين
واليهود في فلسطين .

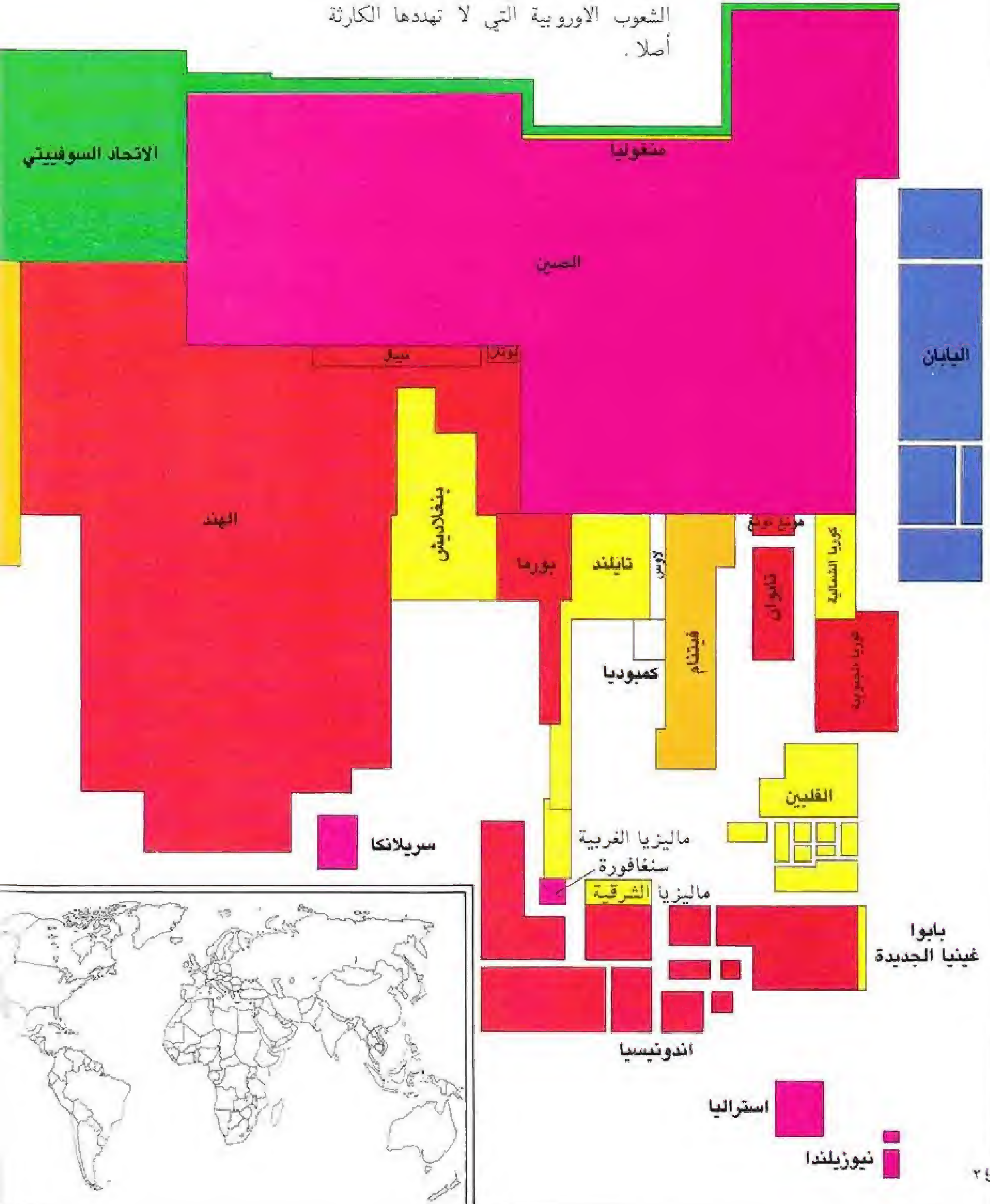


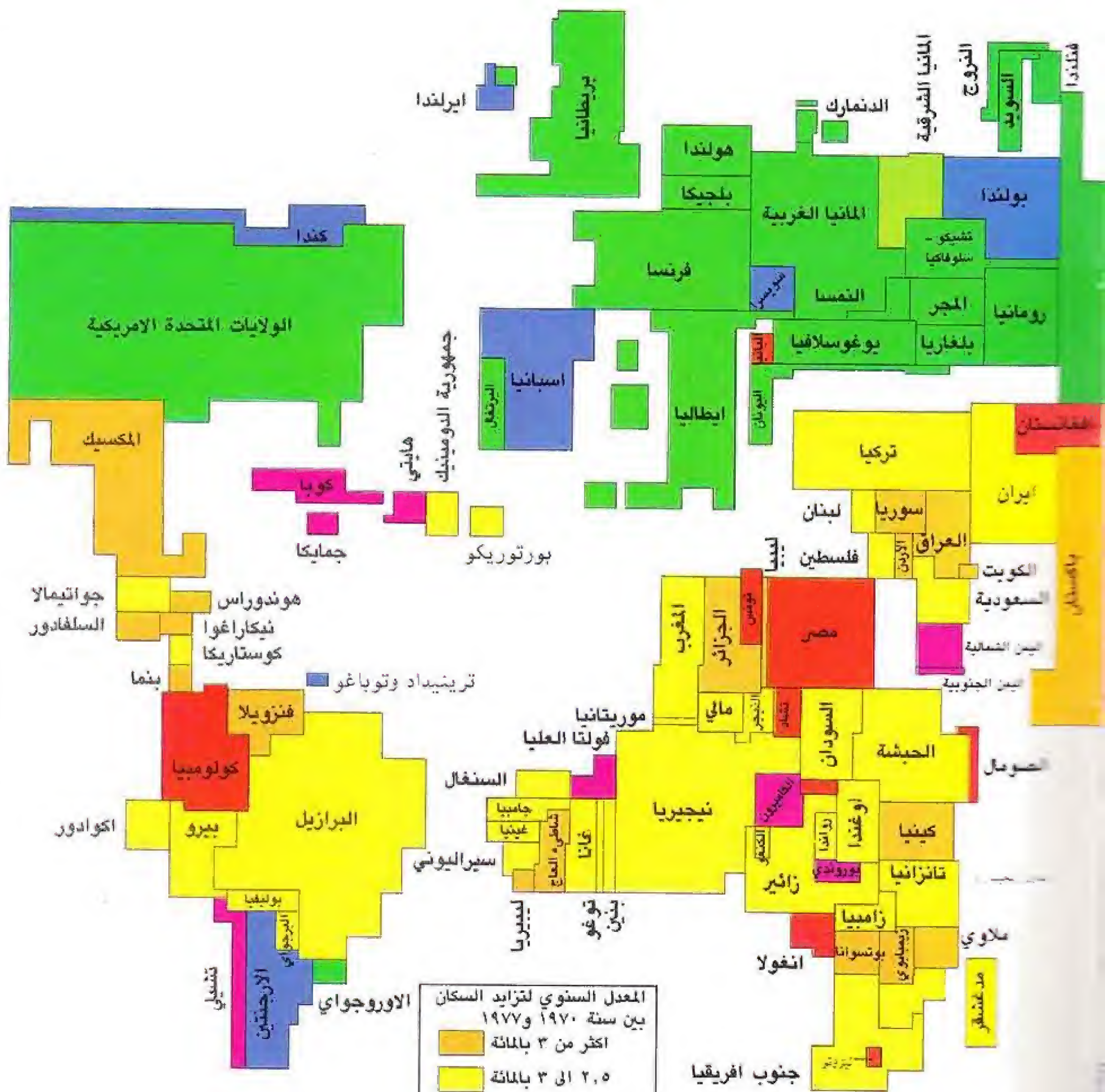


المصدر : الكتاب الإحصائي السنوي لمنظمة الاونيسكو ١٩٧٧
الكتاب السنوي الديموغرافي للأمم المتحدة ١٩٧٦ - ١٩٧٧

تحت التهديد

بالإضافة الى أزمة الطعام والتقنية يواجه العالم القديم كارثة انفجار سكاني قد تتسبب في تخريبه لمئات من السنين . ان الشعوب التي تمكنت من حل هذه المشكلة هي الشعوب الأوروبية التي لا تهددها الكارثة أصلا .





المصدر : اطلس البنك الدولي ١٩٧٩

أبعاد الصورة النهائية مفاجئة ومربكة وخطيرة . ولا يمكن تحديدها من زاوية واحدة طبقاً لأي منهج جاد . لهذا السبب ذكرنا هنا ان خطة التحرير في النص الأجنبي لا تغطي احتياجات النسخة العربية . وان تحديد الاطار النهائي لمسيرة الحضارة العالمية أمر يتطلب تغيراً جذرياً لزاوية الرؤية في كل لغة على حدة . لقد رأينا أن نلتزم بالزاوية التي تخصصنا . أعدنا ترتيب المادة التاريخية في أربعة مجلدات . ثلاثة منها تغطي قصة الحضارة منذ بداياتها المبكرة ، الى منتصف القرن العشرين ، وهي فترة شهدت صعود وطننا الى موقع الصدارة في حضارة البحر المتوسط ، وشهدت تطوير السفينة على يد ملاحيه من وسيلة نقل نهريّة الى سلاح تعبوي معد للسيطرة على البحار . ثم شهدت عصر السباق على المحيط الهندي الذي انتهى بسجن حضارتنا داخل البحر المتوسط ، وحصر جبهة الصراع الدولي بين الأوروبيين وحدهم .

اضافاتنا في هذا القسم تجاوزت حدود المائة فصل ، وتركزت على تغطية مسيرة الحضارة في وطننا العربي بالتفصيل نفسه الذي وفرته خطة التحرير في النص الاجنبي لتغطية أحداث المسيرة في أوروبا . وقد رأينا ان نعيد تبويب المادة بحيث ينتهي المجلد الثالث بوقائع الحرب العالمية الثانية التي رسمت آخر خارطة لوطننا كما نعرفه الآن .

في المجلد التالي ، وهو المقدمة العامة لمجموعة الكتاب السنوي . اخترنا أن نعالج المادة من زاوية أخرى . فخطة التحرير هنا لا تهدف الى تسجيل الأحداث ، بل الى تحديد نتائجها النهائية كما تشكلت حالياً في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي فترة تخرج من نطاق التاريخ الى نطاق الواقع اليومي المعاش .

مادة هذا المجلد تم اعدادها في لوحات احصائية موزعة بين قسمين . أحدهما يغطي الصورة العامة على نطاق العالم بأسره ، والآخر يغطي الصورة الجزئية في الوطن العربي . وقد رأينا أن نلتزم بأخر الاحصائيات الصادرة حتى عام ١٩٨١ . لكي نحفظ بالرؤية من أقرب زاوية الى أرض الواقع .

خطة اخراج هذا المجلد تقوم على استبدال النص بالصورة ، وتهدف الى تركيز الضوء في بؤرة ضيقة يسهل تحديد أبعادها . وهو هدف سعينا لتحقيقه لكي نختم مسيرة الحضارة بلوحة مركزة واحدة عن نتيجة المسيرة عند آخر محطة . أما تفاصيل الأحداث خلال فترة ما بعد الحرب ، فقد تم ادراجها في جداول ملحقه بالمجلد لكي لا يتسبب زحام هذه المادة في حجب ملامح الصورة الأساسية .

هيئة تحرير الموسوعة

مِيسِرَةُ الحَضَارَةِ

المجلد الأول
من بدء التاريخ الى سقوط بغداد (١٢٥٨)

المجلد الثاني
من سقوط بغداد الى مؤتمر فيينا (١٨١٥)

المجلد الثالث
من مؤتمر فيينا الى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥)

المجلد الرابع
العالم المعاصر

خطة الكتاب

بدايات التحضر الانساني (من صفحة ٣٠ الى صفحة ٤٢)

الحضارات القديمة (من صفحة ٤٦ الى صفحة ٢٦٢)

(من صفحة ٢٦٦ الى صفحة ٢٧٨) - عرب الجنوب

- عرب الشمال

- أطراف الجزيرة

العرب قبل الإسلام

نهضة العرب الاسلامية (من صفحة ٣١٨ الى صفحة ٣٧٠)

- مصادر الفكر الاسلامي

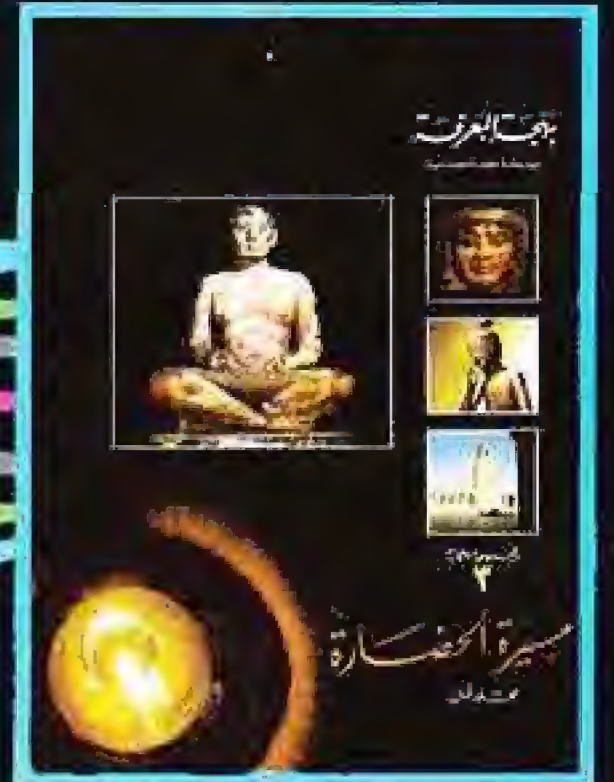
- العلوم

(من صفحة ٣١٤ الى ٤٣٤) - الفنون والآداب

الثقافة العربية الاسلامية

التطورات الاسيوية (من صفحة ٢٨٢ الى صفحة ٢٩٨)

أوروبا في القرون الوسطى (من صفحة ٤٣٨ الى صفحة ٤٧٤)



- فن ما قبل التاريخ

- وسائل التاريخ

- علم الآثار

- الشرق الاوسط وأوروبا

- الشرق الأقصى والهند

- افريقيا وأمريكا قبل كولومبوس

- ظهور وانتشار الاسلام

- تطور الامبراطورية

- المؤسسات الاسلامية

- المجتمع

- الهند وفنونها

- الصين الكونفوشية

- اليابان

- الامبراطورية الرومانية المقدسة

- التطورات الحضارية

- الصراع الغربي الشرقي

وسائل التاريخ

بناء الأمس ؟ مؤرخو العصور الحديثة ، ولا سيما المعاصرة منها ، محظوظون . انهم في عصر تدفق المعلومات . لديهم كل أنواع الامكان التسجيلي لهذا « الزمن » التاريخي الذي يفرق ثمانية ثمانية من يدي الانسان . لديهم الصور والوثائق والسجلات والاحصائيات والتسجيل الصوتي والمرئي وشهود العيان بالالاف والكتابات ، ولديهم الى هذا وذاك مناهج التحليل ، والمعطيات التي لا تنفذ من

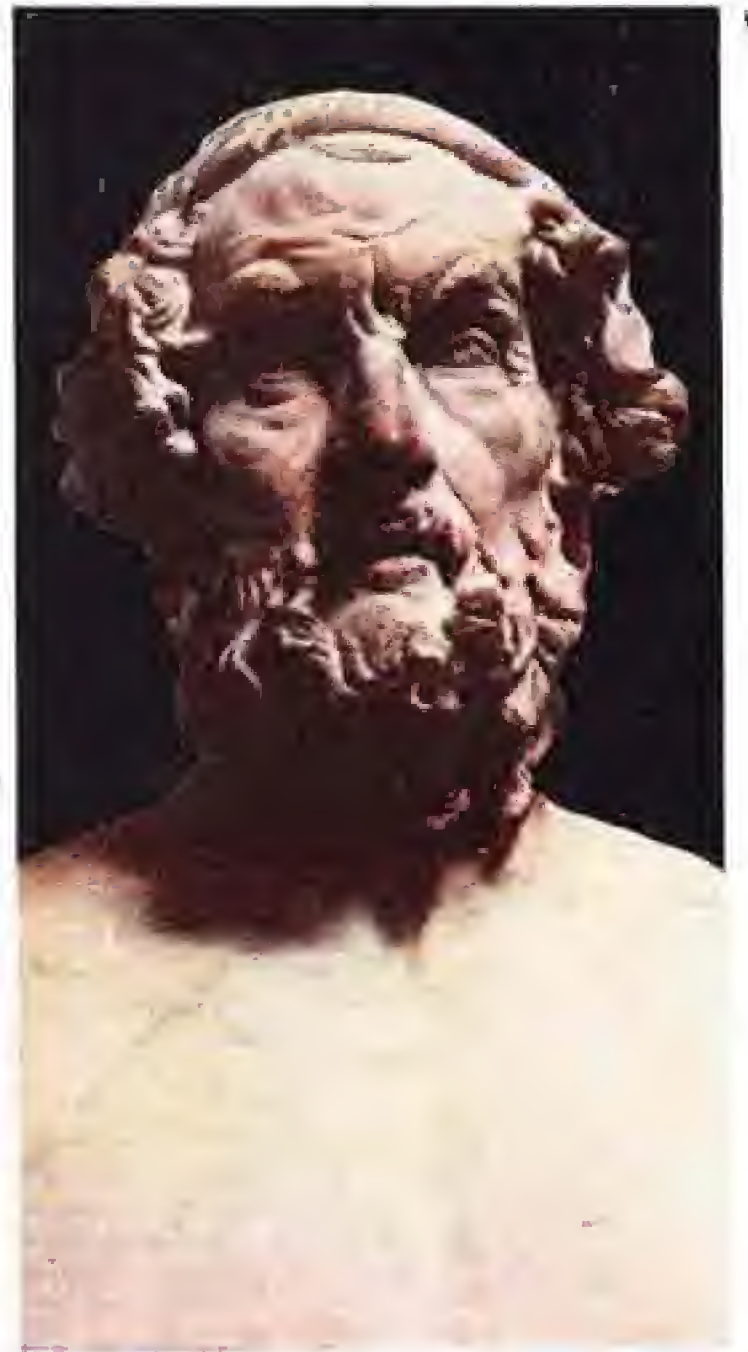
لكل علم مادته المتوفرة بين يديه الا التاريخ ، فان مادته هاربة باستمرار مع الزمن الهارب . انها الماضي . ولكن كيف يلتقط التاريخ هذا الماضي الذي لن يعود أبدا ؟ ما هي وسائله في ذلك ؟ كيف يعيد المؤرخ



ت



١٢



١



ث



ب

الفخاريات (ث) ومثلها كثير في مختلف الحضارات . كل هذه وتلك من الأدوات والحلى واللقى الأثرية . هي من أدوات التاريخ . المؤرخ ، من خلال مادتها ، اتقانها الفني ، معناها ، مكان وجودها ... يبني هيكل المعرفة التاريخية . عليه من خلال هذه الفتات الميت أن يبني مسيرة الحضارة والحياة .

(٢) - الأدوات التي يعيد الأثريون بناءها . كراس القيثارة الذهبية هذه (أ) التي وجدت في أور ويرجع عهدها الى حوالي سنة ٢٦٠٠ ق . م والموجودة حاليا في المتحف البريطاني . والعقود (ب) وقص الخاتم الذهبي (ت) التي وجدت منذ أمد قريب في بعض الحفائر في كريت من الحضارة المينوية . وهذه

الأشعار . منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم طرحت مئات الفرضيات حول تاريخ الأعمال الشعرية التي تنسب اليه . وحول صحة نسبتها وحول عماء . الاغريق يعتقدون ان الآلهة توجي للعميان ، فمعظم شعرائهم كذلك . من المظنون انه ليس بصاحب التراث الشعري الذي ينسب اليه . ولكنه كان الراوي له .

(١) - هوميروس . الشاعر الاغريقي الضريع . كان من أهل القرن السابع أو السادس ق . م . ينظر اليه على انه مؤلف الملحمتين المشهورتين الايلياذة والأوديسة . تتنازع سبع مدن يونانية شرف ولادته فيها . ليس يعرف شيء عن تاريخ حياته . القصص المتوارثة تصوره شيخا أعمى يطوف من مدينة الى أخرى منشدا

تناقص وسائل التاريخ

ان هذا الامكان يتضاءل طردا كلما عدنا
السنين القهقري . ويشتد ضيقه حين نجتاز
حاجز جوسمبيرج واختراع الطباعة في القرن
الخامس عشر . ثم يشتد هذا الضيق جدا حين
نجتاز حاجز « الورق » وانتشاره في القرن
الثامن . واذا وصلنا عصر اكتشاف الابدجية
في القرون ١٦ - ١٨ ق . م ، صرنا نتلمس
الطريق بالرموز . واذا تجاوزنا عصر اكتشاف

انتاج مادي وفني وعمراني ومكتوب . ولديهم
الى هذا كله ، الانتقال المكاني السهل الممكن
والعلوم المساعدة العديدة . وثائق المؤرخ
الحديث للوصول الى الحقيقة موفرة راهنة ،
بل انها ضخمة متعددة للدرجة التي تفرقه ،
وتجعل امكانياته في استيفاء الاحاطة والالمام
الشامل ضيقة محدودة ، كما تجعل الدراسة
الواسعة عملا مرهقا ، ضخما يحتاج الى
مجموعات متعاونة من الدارسين .

(٣) - ندر أن تحدث العظمى والنوادر الغريبة . هنا
المؤرخون ، قبل العصور تأتي الصور الأثرية والمنحوتات
الحديثة ، عن الحياة العامة وعن لتسد الثغرة وتكشف طرق
تقاليد المجتمع وأساليب الزراعة العيش المجهولة في العصور
أو شكل الملابس أو طرق الأولى ، الفرقة الموسيقية
تصنيف الشعر . كان الناس المصورة (أ) في مقبرة
يمارسون ذلك دون أن أمتنحت في طيبة (الأسرة ١٨)
يجلوه . اهتماماتهم كانت ولوحة الصيد (ب) من فسيفاء
تنصب على المعبودات والملوك القرن الثالث الميلادي في
والأمراء والنكبات والأحداث توغا .



الكتابة والقرون ٣٠ - ٣٥ ق . م . تجاوزنا التاريخ ودخلنا ما قبل التاريخ وأصبحنا نتلمس المعرفة بالقرائن وبقايا الأدوات والأساطير .

هكذا لا تتماثل وسائل التاريخ بين عصر وعصر ، أو بلد وبلد . فكل بلد ، في كل عصر من العصور ، مصادر التاريخ المختلفة حسب الظروف التي حفظت تلك المصادر . المؤرخ ينطلق من البقايا المتوفرة ليعيد بناء

الماضي . وهذه البقايا متفاوتة في الشكل والقيمة ، وفي الكمية والوجود ، وفي مقدار الثقة التي يمكن أن نمنحها لها . فللرواية في التاريخ جانب وللآثار جانب آخر .

التاريخ في الرواية :

١ - هناك أولا الرواية الشفهية ، وهي مادة التاريخ الأولية والدائمة . فقبل أن يعرف الانسان الكتابة وتنتشر طرائقها وأدواتها

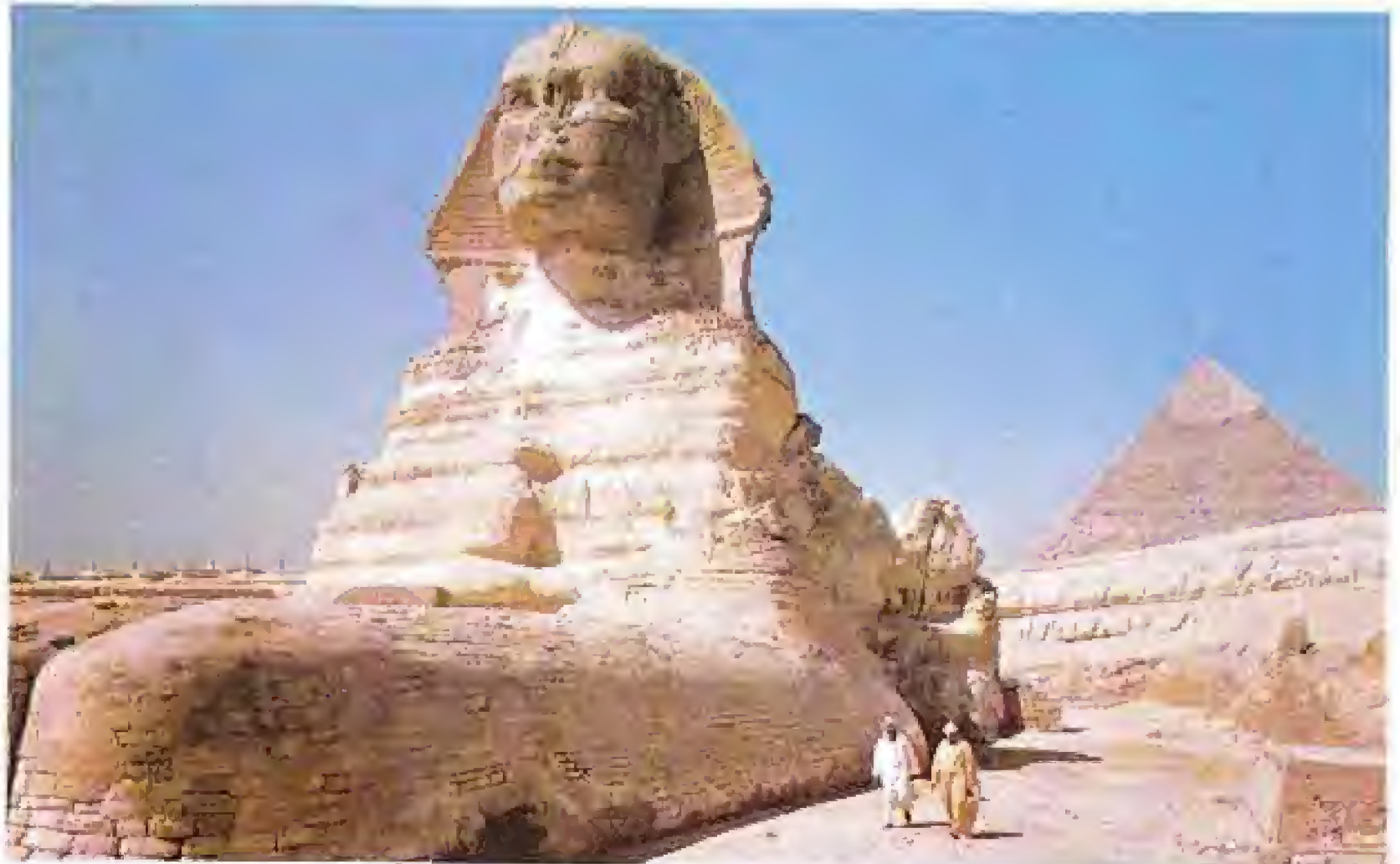
مهمة حتى اكتشف حجر رشيد سنة ١٧٩٩ (ب) وعليه ٣ كتابات (في ٣ لغات) هي الهيروغليفية واليونانية والديموطيقية . النص يسجل مرسوما بتكريم بطليموس الخامس . استطاع شموليون الفرنسي ، بمقارنة نصوص الكتابتين المعروفتين مع الثالثة المجهولة ، أن يكتشف سر الكتابة الهيروغليفية ويضيف أكثر من ٣ آلاف سنة الى تاريخ الانسانية .

(٥) - كانت الآثار على الدوام تحديات للجماعات البشرية التي تعيش بينها . وغالبا ما كانت موادها تستخدم لمأرب أنية أخرى . النقوش الكتابية التي كانت تحملها - كما في مصر والشام واليونان والهند ، كانت تحمل مع الأيام معاني البحر والظلام . هكذا كان الناس يبنون للآثار تاريخا من الوهم والأسطورة يفسر وجودها . وبخاصة حين تكون ضخمة مثل الأهرام وأبي الهول وآثار تدمر . لدينا عدد من المؤلفات عن « عجائب الأهرام » وعشرات الأخبار عن الجن الذين بنوا تدمر لسليمان . وعن الأسوار التي بناها الآلهة في اليونان ،



كتبت بها . كما اشتهرت الهيروغليفية . الكتابتان أساسهما تصويري . وكتب بهما كل تاريخ الشرق القديم قبل اكتشاف أبجدية أوغاريت . ظلت الهيروغليفية ظلام

(٤) - اشتهرت الكتابة المسمارية (أ) في الشرق القديم لأن عدة لغات لعدة شعوب



السهلة ، كان أيضا يروي تاريخه ، ويروي شفهيا . وتأخذ الرواية مع القرون شكل الاساطير . والمؤرخ اليوم يلجأ الى بقايا هذه الاساطير لمعرفة الماضي الأول الذي اندثر . هكذا مثلا يستنطق المؤرخون ملحمتي الاللياذة والاوديسة عن المجتمع اليوناني الأقدم (١) . ويستخرجون من ملاحم المهابهاراتا والرامايانا والبورانا وكتب الفيدا في الهند ملامح تاريخها الأول . لأن الاساطير تحاك حول نواة من الواقع ، والتخيلات فيها تبنى من معطيات أولية مأخوذة من عصورها .

٢ - وهناك الرواية المكتوبة ، وهي مادة التاريخ الاساسية منذ وجدت الكتابة . المؤرخون الأقدمون هم الذين سجلوا في الواقع الشهادات والروايات الشفهية المتداولة التي اضحت أول سطور التاريخ . قوافل المؤرخين الى اليوم انما امجادهم هي تلك الكتب التي سجلوا فيها ما رأوا وسمعوا وقرأوا عن عصورهم والعصور السالفة .

التاريخ في الآثار والوثائق

٣ - الآثار ، ويزداد شأنها في التاريخ كلما أوغلنا رجوعا في الزمن ، لتصبح في بعض الاحوال ، وفي العصور القديمة خاصة ، مصادر التاريخ الوحيدة . فالشعوب كلها ، بدافع من العقائد الدينية في الغالب ، او من رغبات الملوك او من الحاجات الحياتية الاخرى ، تركت آثارها على الارض التي عرفتها . وعلى هذه الآثار نبني معارفنا مثلا عن حضارات امريكا قبل كولومبوس ، وحضارات الهند والصين والفراعنة والرومان والأتروسكيين وشعوب افريقيا الزنجية ، ونكتشف كل يوم جديدا . وبعض النكبات الصاعقة ، كاندثار

بومبي تحت رماد فيزوف (٧٩ م) أو تدمير نينوى الكامل (٦١٢ ق . م) ، تعطي الأثرى والمؤرخ فرصته الذهبية للوصول الى الكنوز من المعارف التاريخية . وتتراوح الآثار بين الابنية ، وبين القطع الاثرية الفنية (٢) (تماثيل ، نقوش ، حلى) ، أو أدوات العمل والحياة (آنية ، أسلحة ، أدوات ، نسيج ، نقود ، بردي) . وكلها مادة للتاريخ الانساني . بالاضافة الى ما تكشف عنه بعض الصور الأثرية من ملامح الحياة العامة التي لا يسجلها في العادة أحد من القدماء (٣) .

٤ - الكتابات الاثرية ، وهي وثائق العصور القديمة . فمعظم الحضارات السالفة سجلت على آثارها ما تريد قوله . بكتابات شتى (٤) . حين حل شموليون رموز الهيروغليفية ، أضاف الى التاريخ ثلاثة آلاف سنة (٤) . والكتابات التي استعصت على الحل (مثل كتابة كريت) ما تزال تحتفظ بأسرار التاريخ . قبل حل رموز الكتابات القديمة ، كان الناس يخترعون التاريخ اختراعا بالاساطير والوهم حول الآثار (٥) .

٥ - الوثائق ، وهي تجمع السجلات والصكوك والمراسلات . واذا كانت نادرة في العصور القديمة أو قليلة نسبيا في العصور الوسطى ، فهي فيض هائل لدى المؤرخ الحديث .

عدا هذا كله ، يستفيد التاريخ الآن من كشف الانثروبولوجيا والسيكولوجيا وعلم الاجتماع واللغويات وعلوم الاقتصاد والاحصاء والفولكلور والطب وغيرها من العلوم . ان التاريخ يحاول بذلك كله أن يحتضن الانسان بكل أبعاده شريطة أن يعرف المؤرخ كيف يستنطق تلك الوسائل وهذه العلوم .

علم الآثار

نفسها على الناس الذين كانوا ينسجون لها تاريخا اسطوريا ، في الغالب ، يفسر وجودها ، او يحاولون الكشف عن اسرارها السحرية او هويتها . نابونيد آخر ملوك بابل مثلا أمر بالحفر في الأحجار الاساسية لهيكل كان يسبق عهده ب ٣٢٠٠ سنة ليعرف مبلغ قدمه . وقد وجدت اشارات أثرية لدى المؤرخ توكيديس (٤٦٠ - ٣٩٥ ق . م) ولدى بعض مؤرخي اليونان ، اهتم بها الامبراطور

اذا كان التاريخ الحديث يستند بصورة اساسية الى الوثائق ، فالتاريخ القديم يجد مستنداته في علم الآثار وما يتصل به . ومع ان الاهتمام بالآثار لم يأخذ المنحى الجدي الا في العصور الحديثة ، فانها كانت تفرض



(١) - ظلت طروادة ، المدينة التي تدور حول فتحها ملحمة الالياذة المشهورة ، مدينة اسطورية حتى اكتشف موقعها وآثارها العالم الألماني شليمان بين سنة ١٨٧٠ و سنة ١٨٩٠ وتبين أنها حوالي تسع طروادات طبق بعضها فوق بعض . لكن تاريخها كان قد تلفف بالأساطير لدرجة الاعتقاد بأن الآلهة هي التي بنت أسوارها الشاهقة (أبولون وبوسايدون) ، فلما رفض ملكها دفع الأجر أرسلت عليه الغرباء ووحش البحر ، وأنبأه العرافون ان المعبودات لا ترضى الا بتقديم فتاة لها كأضحية سنوية ... وتمضي الاساطير بعد ذلك واحدة بعد الأخرى حتى تنتهي باختطاف باريس ابن ملك طروادة لهيلين الاغريقية المنسوبة للآلهة . وحصار الاغريق عشر سنوات لطروادة التي لم تفتح الا بحيلة : هي الحصان الخشبي الضخم الذي كمن في قلبه المحاربون ، حتى اذا هدم الطرواديون جانبا من الاسوار لدخاله خرجوا لهم .

لأنها تحكي تاريخ الانسانية في وادي النيل خلال خمسين قرنا . كشفت أبنيتها وصورها وكتاباتها وأدواتها عن

معلوماتها وأسرارها منذ قرون وبعض القرن . وصار لها الآن علم خاص بها يسمى « ايجيبتولوجيا » .

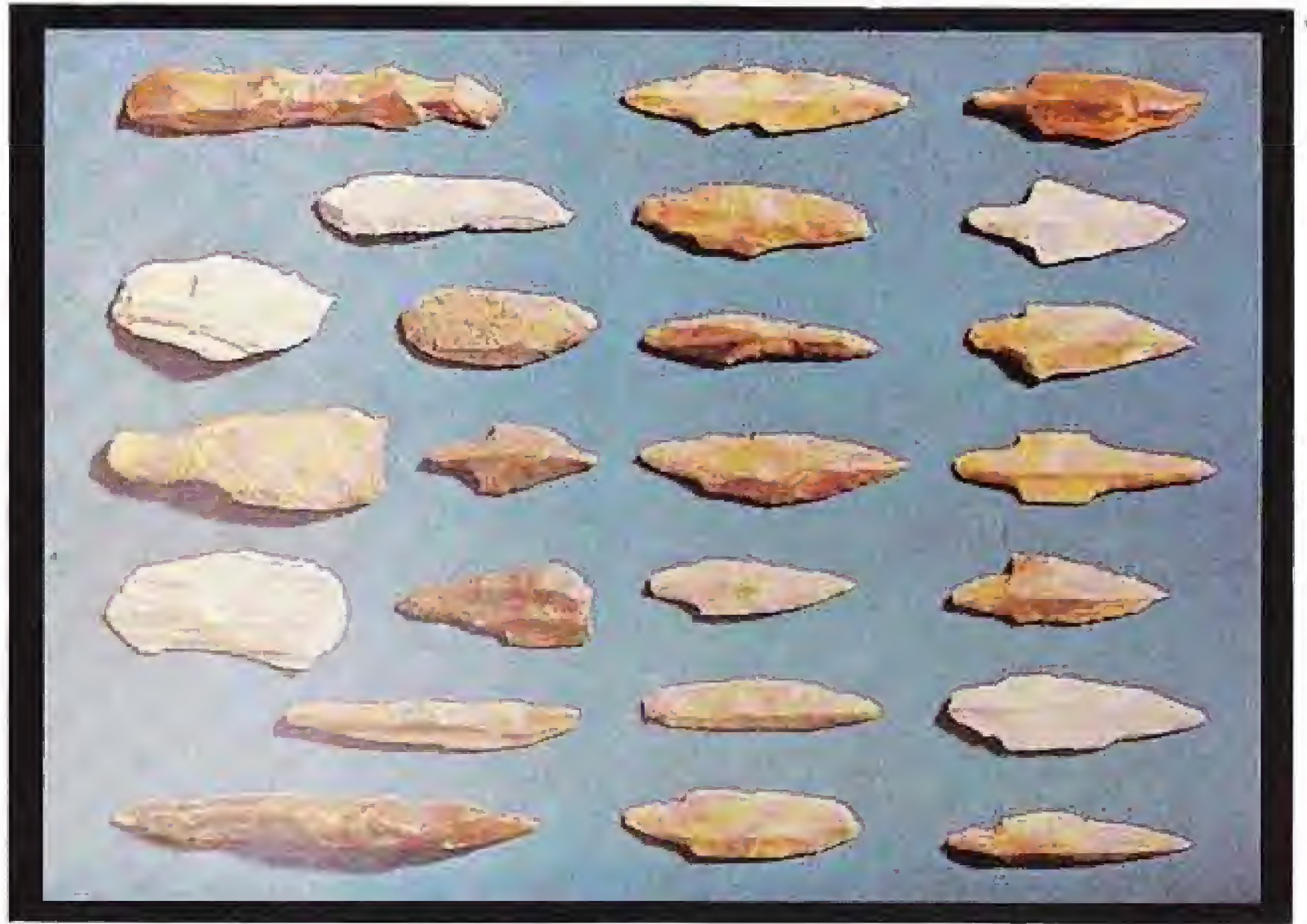
(٢) - باستثناء مجموعتي الآثار الاسلامية واليونانية

وجوده من كنوزها السحرية الخبيثة .

الآثار لدى مؤرخي الاسلام

مع ذلك اهتم عدد من المؤرخين المسلمين بالآثار القديمة . لكنهم لم يتعدوا وصفها ، ومحاولة القراءة الوهمية او الوعظية لكتاباتهما ، ونسبتها احيانا الى الجن او سليمان او قوم عاد (ومن هنا تسميتها بالعاديات) . من هؤلاء المؤرخين مثلا ابن

هارديان . لكن الآثار لم تكن بصورة عامة محترمة ، لا بسبب عدم تقدير قيمتها التاريخية فحسب ، ولكن بسبب النظر اليها في العصر المسيحي ، ثم الاسلامي من بعده ، على انها بقايا وثنية لا تستحق الاحترام والحفظ ، ان لم يكن من المستحب تهشيم انوفها ، او الاستفادة من حجارتها . يضاف الى ذلك عمليات السطو الذي لم ينقطع ، منذ القديم ، على ما يجده الناس ، أو يتوهمون



(٥) - قناعان جنائزيان سريعا العطب صنعاً لشخصين ماتا قبل حوالي ٤ آلاف سنة في بلاد النوبة . أعيد تركيبهما من الفتات الذي وجدته البعثة الفرنسية الأثرية الى السودان النوبي في مدفن قلعة ميرجيسا على الشلال الثاني من النيل . الأقنعة الملونة صنعت من قالب أخذ عن وجه الميت . وهو يجري اعداده للفائف المومياء .

(٤) - هذه الفك لانسان ما قبل التاريخ المعروف « بالانسان الماهر » وجدها في وادي اولدوفاي في تنزانيا العالمان الاثريان لويس وماري ليكي . كان من شأن عمل هذين العالمين واتساعه على يد ابنيهما ريتشارد ليشمل آثار بحيرة رودولف انه أرجع عمر الانسان (في فترة عشرين عاما) من أقل من مليون سنة الى خمسة ملايين سنة تقريبا .

(٣) - هذه الطران الحجرية (يظهر سطحها الأعلى وأحد جانبيها) أرسلها أحد العلماء الاثريين الى جمعية الآثار في سفلوك سنة ١٧٩٧ . مؤكدا انها قديمة جدا « حتى انها قد تعود الى زمن سابق لعمر الكون المعروف » . يعكس موقف هذا العالم النظرة الحديثة الى الجيولوجيا والى قدم وجود الانسان على الأرض .



(كابين وصيف شاه ، وابن فضل الله العمري ، ومحمد الوطواط) ، كما ألف آخرون في آثار اليمن (الهمداني) وآثار فارس (حمزة الاصبهاني) وآثار مكة (الازرقى والفاسي) .

الآثار في العصر الحديث

اهتم الاوروبيون ، في عصر النهضة ، بالآثار اليونانية والرومانية ، لأنها موجودة

عساكر وابن العديم وابن شداد والمقرئزي وابن الجوزي . ونجد الاهتمام نفسه لدى الجغرافيين العرب ، كالمقدسي وابن رسته والادريسي ، ولدى الرحالين الذين كانوا يصفون ما يمرون به من الاوابد . وقد دعا بعض العلماء الى حفظ هذه الآثار ، ومن هؤلاء عبد اللطيف البغدادي وابن خلدون . واستأثرت آثار مصر بالذات باهتمام عدد من المؤرخين ، فالفوا في عجائب مصر واهراماتها



وفي النسيج وفي البناء . دمرها الفاتحون الاسبان بقيادة (بيسارو) سنة ١٥٣٣ ، ونسيها الناس فغطتها النباتات الكثيفة . اكتشف هذه « المدينة الضائعة » الرحالة الامريكي حيرام بنغهام سنة ١٩١١ . بذلت جهود ضخمة لازالة الأدغال التي تغطيها ولتظهر من جديد عاصمة أقوى وأكبر امبراطورية في أمريكا الجنوبية قبل عصر الاكتشافات .

(٧) - أطلال هذه المدينة ماتشو بيتشو تقوم في البيرو بأمريكا اللاتينية في مرتفعات جبلية تزيد على ٨ آلاف قدم . شعوب الأنكا ، صاحبة تلك البلاد قبل كولومبوس بقرون طويلة ، أقامت عاصمة المملكة هذه بين قمتين جبليتين . كانت لها حضارتها الرائعة ومواردها الضخمة من الزراعة وأقنية الري الممتدة في الجبال آلاف الأمتار ، ولها فن رائع في صياغة الذهب خاصة والفضة

معه في قبره الذي ظل تحت الرمال في وادي الملوك ٣١ قرنا . كان من حظه ان اللصوص لم يسرقوه بسبب خفاء مكانه . في نوفمبر سنة ١٩٢٢ عثر العمال على جائط المدخل صدفة . ضمن حفريات يقودها العالم هوارد كارتر بتمويل جماعة منها اللورد كارنافون . حين فتح باب المقبرة بهر الجميع كما بهر العالم . وما يزال - لما فيها من كنوز أثرية تشع الذهب .

(٦) - توت عنخ آمون (١٣٤٨ - ١٣٢٧ ق . م) ، الذي يرى في الصورة المأخوذة عن ظهر عرشه الملكي متحدثا الى زوجته . ليس أكثر من ملك شاب من أواخر الأسرة ١٨ توفي في الثامنة عشرة ودفن لأسباب غير معلومة تماما على عجل في مقبرة ملكية صغيرة . نحتت غرفها أسفل مقبرة أخرى . بعد ان اضيفت الى كنوزه الجنائزية بعض مقتنيات الملك سمخ كارع ، وتغير الاسم عليها لتوضع

حولهم . ولأنها العصر الكلاسيكي بالنسبة اليهم . ولأن العودة اليها كانت سمة من سمات ذلك العصر . بتأثير التاريخ المسيحي . بعد ذلك . والتوسع الاستعماري . امتد الاهتمام الى الشرق . عمل على ذلك الفرنسيون اولاً ثم الانجليز . شاركهم بعض الاوروبيين الآخرين . قبل ان يأتي الالمان في القرن التاسع عشر . كان بين هؤلاء الهواة المولعين بالآثار دبلوماسيون وعلماء ورجال دين وضباط وتجار . كانت كتابات هؤلاء وما يحملون الى بلادهم من الآثار تزيد في الاهتمام الاثري في الغرب . كما تزيد في منح الشرق طابع الكنوز الاسطورية .

كان القرن التاسع عشر قرن النشاط الاثري الواسع لأكثر من سبب . فهناك التوسع الاستعماري . وانتشار الأفكار الانسانية الموسوعية . وتوفر المال في أوروبا للانفاق على البحوث والبعثات . وظهور النظريات في قدم الارض وقدم الانسان عليها . وإعادة الاعتبار للحضارات السابقة للديانات الموحدة . يضاف الى ذلك ما رافق الكشف الاثري من مادة علمية جديدة ومن كسب مادي ومن اعجاب عام . وبخاصة بعد ذبوع الاخبار عن هر كولانوم (سنة ١٧١٩) وبومبيي (سنة ١٨٤٧) وتدمر (سنة ١٧٥٣) وبعلبك (سنة ١٧٥٧) وبطرا (سنة ١٨١٢) . وبعد ان حل شامبوليون الرموز الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ وكشف سليمان (سنة ١٨٢٢ - ١٨٩٠) عن مدينة طروادة الاسطورية (١) . وقام التنافس الشرس على نهب آثار اليونان وما بين النهرين (٢) بين الانجليز والفرنسيين في أواسط القرن . ونشرت أخبار مأرب سنة ١٨٧٠ وكشفت كنوسوس في كريت سنة ١٩٠٠ .

علم الآثار الحديث

خلال ذلك كانت المكتشفات في حقل ما قبل التاريخ والعصور الحجرية (٣) تزداد . وبخاصة بعد النظريات التي احدثت ثورة في الجيولوجيا (تشارلز ليل سنة ١٨٣٣) . وفي الأنواع الحية (كتاب أصل الأنواع لداروين سنة ١٨٥٩) . وإعادة تنظيم العصور الانسانية قبل التاريخ (٤) . بين هذا وذاك تحول الاهتمام بالآثار من الهواة الى العلماء . ومن الطمع بنهبها للزينة . الى محاولة دراستها واقامة تطور الحياة الانسانية على اساسها . وولدت ضمن علم الآثار عدة علوم حسب المناطق الاثرية (مصر ، آشور ، يونان ...) . وحسب نوع الآثار (فخار ، نقوش ، بردي) . بينما كانت المكتشفات الاثرية تفاجئ الانسان كل يوم بجديد مدهش يزيد في شحذ همته وفي قيمة العمل الاثري . مثل مقبرة توت عنخ آمون (٦) ومدينة ماتشوبيتشو (٧) .

في القرن العشرين . جاءت التقنيات الحديثة الى هذا العلم . وبالتالي الى التاريخ . بمعونات كبيرة . كالتصوير الجوي لكشف الحقول الاثرية . والتصوير بالابعد (فوتوغرامتري) . والتنقيب الجيوفيزيائي والاستراتيجرافي (حسب الطبقات) . وتحديد التواريخ الاثرية بقياس التلف الاشعاعي . هكذا صار لعلم الآثار اليوم مؤسساته واختصاصيوه في التنقيب والحفظ والترميم (٥) . وصار يشمل في الزمان ملايين السنين . وفي المكان جميع بقاع الارض . وبقايا الانسان . أهم من ذلك كله انه أخذ مكانه الوطيد بوصفه بعدا اساسيا من أبعاد المعرفة بالانسان .

فن ما قبل التاريخ

النياندرتالي « بطرده أو باحتوائه . تقتصر الفروقات الهامة بين هذين الفرعين من الكائن البشري ، على ان الهيكل العظمي كان أكثر ضخامة عند الانسان النياندرتالي ، الذي كان مع ذلك منتصباً ، كبير الدماغ ، على شاكلة الانسان الحديث . الا ان بينات علم الآثار تدل على فوارق أخرى في السلوك ، والتكيف مع البيئة . أحد هذه الفوارق هو القابلية لخلق أشكال فنية .

يبدو ان حس الانسان الجمالي كان قد توصل الى التعبير عن نفسه ، في أشكال بدائية معينة ، قبل حوالي ٣٠.٠٠٠ سنة ، عندما أخذ الانسان الحديث ، أي « الانسان العاقل العاقل » يقضي على « الانسان العاقل



موقع من الحقبة الجرافاتية في النمسا ، الى ما بين ٢٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ سنة . الثدييان والبطن والأرداف الضخمة شواهد على هذا الشكل من الفن المتحرك .

(٤) - هذان الرجلان الراكضان مرسومان على الصخر . في هضبة تاسيلي في الجزائر ، وذلك في قلب الصحراء ، صُورا بالالوان الخالصة . لكن رُكز الاهتمام على ابراز الزينة التي تغطي جسميهما واعضائهما ، ويرجح ان هذه الزينة تمثل

الفن الحجري القديم . الحصانان متراكبان مما يدل بوضوح على انهما رسما في حقبتين مختلفتين ، ولكن ليس معروفا هل كان يفصل بينهما ساعات أو قرون . ثمة رسوم لأيد أنجزت بنفخ شيء من الدهان المسحوق حول يد وضعت على الحائط .

(٣) - يرقى هذا الشكل الصغير المصنوع من حجر الجير ، والمعروف باسم (فينوس) فيلندورف ، وهو

هي من الثور البري (الأرخص) أو الجاموس الأوروبي الذي انقرض في بولونيا في القرن السابع عشر . وقد رُسمت بحيث تبدو للعيان القوائم الاربع والقرنان .

(٢) - حصانان مرقطان ، على جدران كهف بيش ميرل في فرنسا ، وحولهما مزيد من البقع ومن الرؤوس والرقاب المرسومة بليون خالص . الأجسام ممثلة بالأعضاء نحيلة . وذلك من مميزات الكثير من

(١) - الرسوم الشهيرة للحيوانات في كهف لاسكو هي من طراز شبيه بالفن الجداري الموجود في عدد من المواقع الأخرى في منطقة الدوردوني بفرنسا . اكتشف هذا الكهف بالصدفة في سنة ١٩٤٠ ، بواسطة فريق من الاولاد الذين كانوا يتنزهون مع كلبهم ، وهو من أحدث مكتشفات فن الكهوف العائدة الى العصر الحجري القديم . معظم الحيوانات ، الظاهرة في هذا الجزء المصور من رسوم لاسكو ،

« طفولة الفن »

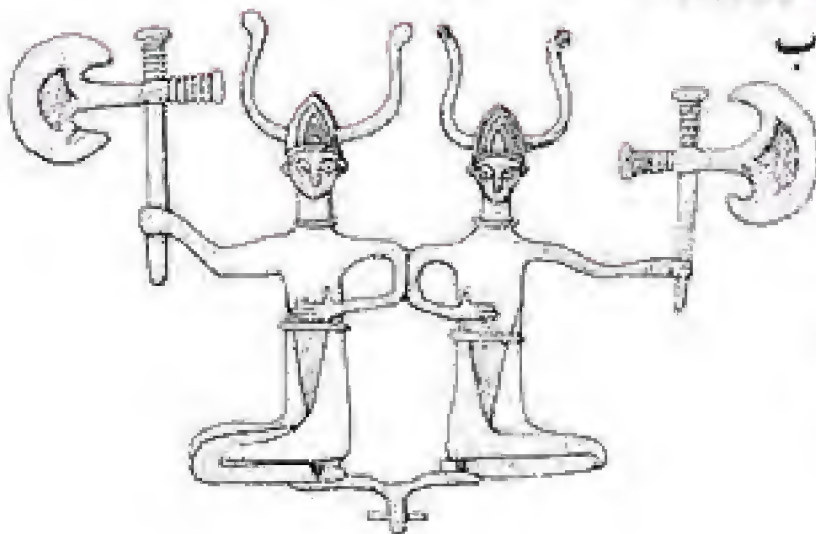
مع بعض الاستثناءات ، يقتصر الفن العالمي ، في أقدم أشكاله ، بالاقتماد القائم على القنص عند « الانسان العاقل العاقل » (١) فقد اهتم الإنسان النياندرتالي الى الطقوس ، وربما الى الدين ، كما عرف أيضا كيف يحتفل بدفن موتاه . لكنه لم يكن قد استحدث بعد طريقة للتعبير عن نفسه ، بالرسم على مادة ثابتة . مع ذلك ، كانت

أقدم أشكال الفن التي عثر عليها ، في الكهوف في جنوب غربي فرنسا ، وشمال شرقي اسبانيا ، على بعض التعقيد . وعندما اكتشف فن هذه الحقبة القديمة من العصر الحجري القديم (٣٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ سنة) في عام ١٨٧٥ ، تلقاه العلماء بشيء من الدهشة . فقال عالم أثري فرنسي شهير « ان تلك هي طفولة الفن ، وليست فن طفل من الاطفال » . وبقي الكثيرون ينظرون اليه برية حتى عام ١٩٠٠ .



٣ طلي الأجسام بأصباغ طبيعية ، على غرار ما يمارسه أهل التوبة في السودان حتى يومنا هذا . من المحتمل ان فن طلي الأجساد كان معروفا في العصر الحجري القديم .

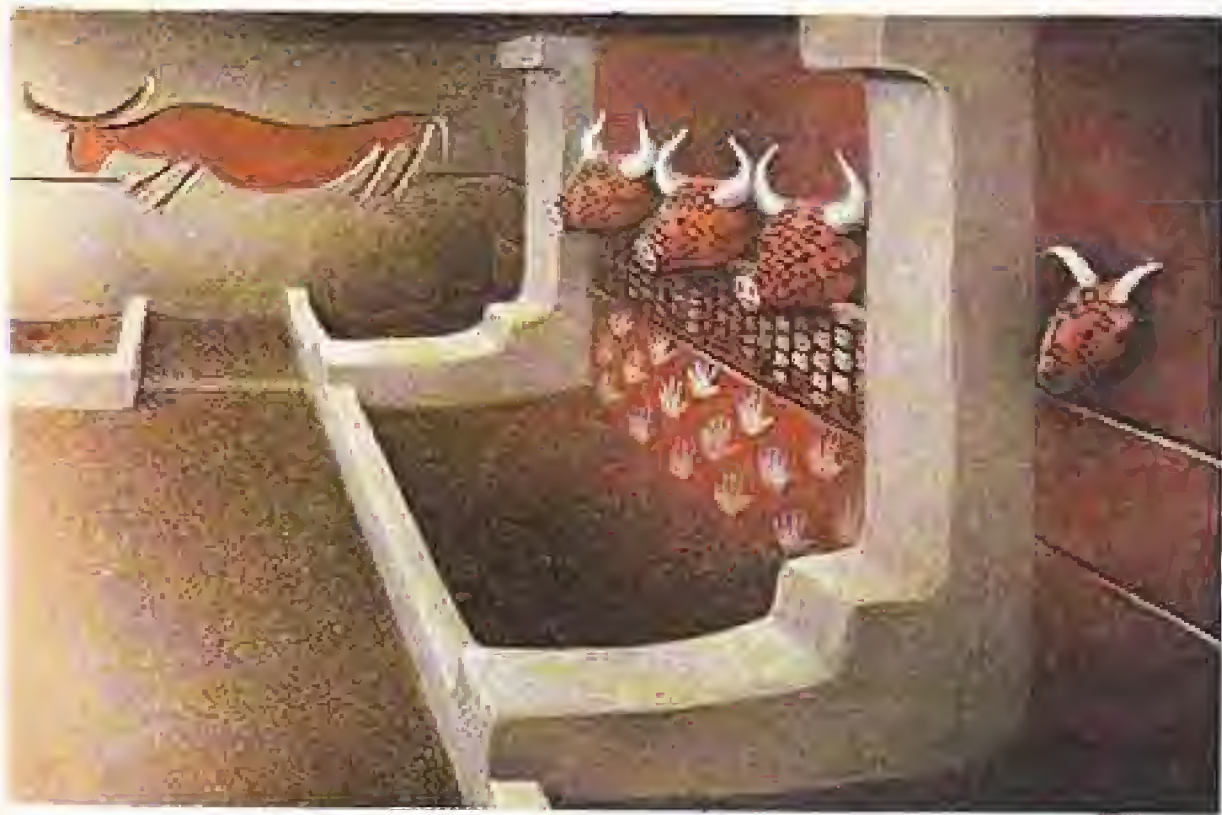
(٥) - هذه المنقوشات الصخرية السكندنافية ، التي وجدت في الدنمرك ، تشبه من حيث التقنية منقوشات وادي كامونيك ، لا بل حتى منقوشات متأخرة عن ذلك التاريخ . وهي تمثل سفينة مستطيلة (أ) فيها ثلاثة اشكال بشرية أو ربما صار ، ومجداف للقيادة . أما (ب) ، فتمثل محاربين يعتمران



خوذتين عظيمتين ذواتي قرون . وقد امتشقا بلطتين . لقد شكل وجود صخور ملساء تحدياً لا يقاوم لمصورى ما قبل التاريخ ، في أنحاء أوروبا وآسيا الصغرى .

وقد اتهم مرشليانو دي ساوتولا المتوفى سنة ١٨٨٨ بتزوير الرسوم . وهو الرجل الذي اكتشف قاعات التاميرا الكبرى في شمالي اسبانيا . ولم يضطر المشككون الى التراجع عن اتهاماتهم ، حتى اكتشفت رسوم أخرى في الموقعين الفرنسيين في بير - نون - بير ولا موت ، وقد غطتها رواسب حضارية أخرى ، ترقى الى العصر الحجري القديم . أما الرجل الذي برهن ، آخر الأمر ، على

وجود فن العصر الحجري القديم ، فهو الأب هنري بروي (١٨٧٧ - ١٩٦١) . تكاد الأدلة المتعلقة بفن العصر الحجري الأول تقتصر على أوروبا الغربية ، مع انه توجد بعض المواقع المنعزلة مثل كابوفا في جبال الاورال بروسيا ، ولفنسو في صقلية . وبلديبي وبلباسي في تركيا ، كما توجد آثار كثيرة من فن الصخور التقليدي . في افريقيا الشمالية والصحراوية ، في أماكن مثل تاسيلي



أحمر خالص قافلة من الجمال - وناقيها . وتشتمل الجمال على حيوانات كبيرة محملة . بالإضافة الى ما يظهر في الجانب



الأسفل من الرسوم ، الى اليسار ، ويبدو كأنه يمثل جمالا صغيرة .

(٧) - ضريح - مزار يرقى هذه الى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ سنة قبل المسيح ، وقد أعيد بناؤه في

موقع في الاناضول في تركيا . يعود الى العصر الحجري الجديد ويدعى كاتال هويوك . وهو من أقدم المدن في العالم . وقد بلغ عدد سكانه عدة آلاف نسمة . عثر اثناء الحفريات على أضرحة حيوانات عديدة أقيمت من أجل القطعان التي كان الاقتصاد يعتمد عليها . وقد زينت برسوم مفصلة ونقوش نافرة نموذجية . ويبدو ان المداخل الى المزارات ومعظم البيوت كانت من السقف .

(٨) - هذه المنحوتات الصغيرة من الكهرمان . بما في ذلك نموذج لدب . جاءت من

سيبيريا . يوجد الكهرمان . وهو أحفور متحجر ، على سواحل بحر البلطيق بالدرجة الاولى . وقد استعمله الانسان منذ العصر الحجري المتوسط الذي يرقى الى ١٠٠٠٠ سنة .

(٩) - ترقى النقوش الصخرية التي عثر عليها في وادي كامونيك . في شمالي ايطاليا ، الى العصر البرونزي . تمثل بعض هذه المنقوشات الواقعة في الهواء الطلق والمحفورة في سطوح الصخر المتجلد الملساء مشاهد مشغولة باتقان . يظهر في هذا النموذج ثلاثة وعول وشكلان بشريان رمزيان . أما مغزى هذه المشاهد ، فمجهول .

(٦) - دام الفن التاسيلي حتى العصر الحجري الجديد او ما بعده ، أي حتى بعد ترويض الجمال . كما يتبين من هذا المشهد المرسوم على جدار أحد الكهوف في هضبة تاسيلي . تمثل الاشكال المرسومة بلون

(٤ ، ٦) . وقد استمر ذلك الفن حتى العصر الحجري الجديد (قبل ٥٠٠٠ سنة) .

يقسم علماء الآثار فن العصر الحجري القديم الى قسمين رئيسيين : جدرانى ، ويتألف من رسوم ونقوش ومنحوتات على سقف الكهوف وجدرانها وارضيتها لا يمكن نزعها ؛ ومتحرك ، ويتألف من أشياء صغيرة منقولة . ولكل من هذين النوعين ، في نظر عالم الآثار ، ميزات ونواقصه . ففن الكهوف ، مع انه كثيرا ما لا يحمل تاريخا معينا ، يوجد في موضعه وبيئته الطبيعيين ، أما الفن المتحرك ، فكثيرا ما يوجد في طبقات أثرية واضحة التواريخ ، ولكن دون أدلة تلقي ضوءا على أوجه استعماله . يتألف الفن المتحرك من رسوم مفردة ومنعزلة ، بينما يتألف فن الكهوف من عدة رسوم متلاصقة وأحيانا ذات صلة بعضها ببعض .

انتشار فن الكهوف

يقتصر فن الكهوف على منطقة صغيرة في فرنسا واسبانيا ، وادي الدوردوني وجبال البيرينيه العليا والجبال الكتالونية . تم التعرف على أكثر من مائة كهف تشتمل على مواقع شهيرة ، مثل « لاسكو » (١) ، « ألتاميرا » ، « الأخوة الثلاثة » ، « مونتسان » « وفون دي غوم » . لكن لا يمكن تحديد التاريخ الا بالنسبة الى عدد قليل منها . والفن الموجود في روفنيك ما زال موضع شك منذ زمن طويل .

على أساس الأدلة الحالية ، يبدو ان أقدم موقع هو موقع لا فيراسي ، حيث عثر على صخور مرسومة ، تنتمي الى مراحل الحضارة الاورنياشية العائدة الى ما قبل حوالي ٢٩٠٠٠

سنة . وقد عثر على رسوم ونقوش ومنحوتات بارزة أخرى ، تنتمي الى مراحل اورنياشية أقدم ، وهكذا تبين ان اساليب الفن الجدرانى الرئيسية الثلاثة وجدت منذ أقدم العصور .

هناك حضارة أخرى ظهرت ايضا ، في منطقة فن الكهوف ذاتها ، هي الحضارة الصولوتريّة القصيرة الأمد ، التي تميزت بأعمالها الصوانية الرائعة ، ففيها نماذج فنية في « صخرة سير » المعروفة . كذلك ترك لنا طُور أخير من العصر الحجري القديم ، هو العصر المجدلاني ، الذي قام على صيد الوعول في أوروبا الغربية ، رسوما متعددة الألوان مذهشة في ألتاميرا . وقد اعتقد البعض ان معظم مواقع فن الكهوف ترقى الى هذه الحقبة المتأخرة .

أما نماذج الفن المتحرك فقد أخذت تظهر ابتداء من الطور الاورنياشي . أشهر نوع من منحوتات هذا الطور هو التماثيل الصغيرة « للزهرة » (فينوس) ، وهي عبارة عن تماثيل اناث ، برزت أردافها وبطونها ، وتحولت رؤوسها وأفخاذها الى أجذال ، ومن أطرفها « فينوس » فيلندورف (٣) .

فن أم سحر ؟

طُرحت تفسيرات شتى لفن الكهوف ، أبسطها انها فن من أجل الفن . وكانت نظرية بروي ، التي تبناها الناس لسنين عديدة ، ان هذا الفن متصل بفكرة رسم الطريدة لاحتراز سيطرة سحرية عليها ، وبفكرة الترابط الطوطمي بين النوعين الانساني والحيواني . أعطيت مؤخرا تفسيرات قائمة على الجنس ، الا انها لم تحظ بقبول عام .

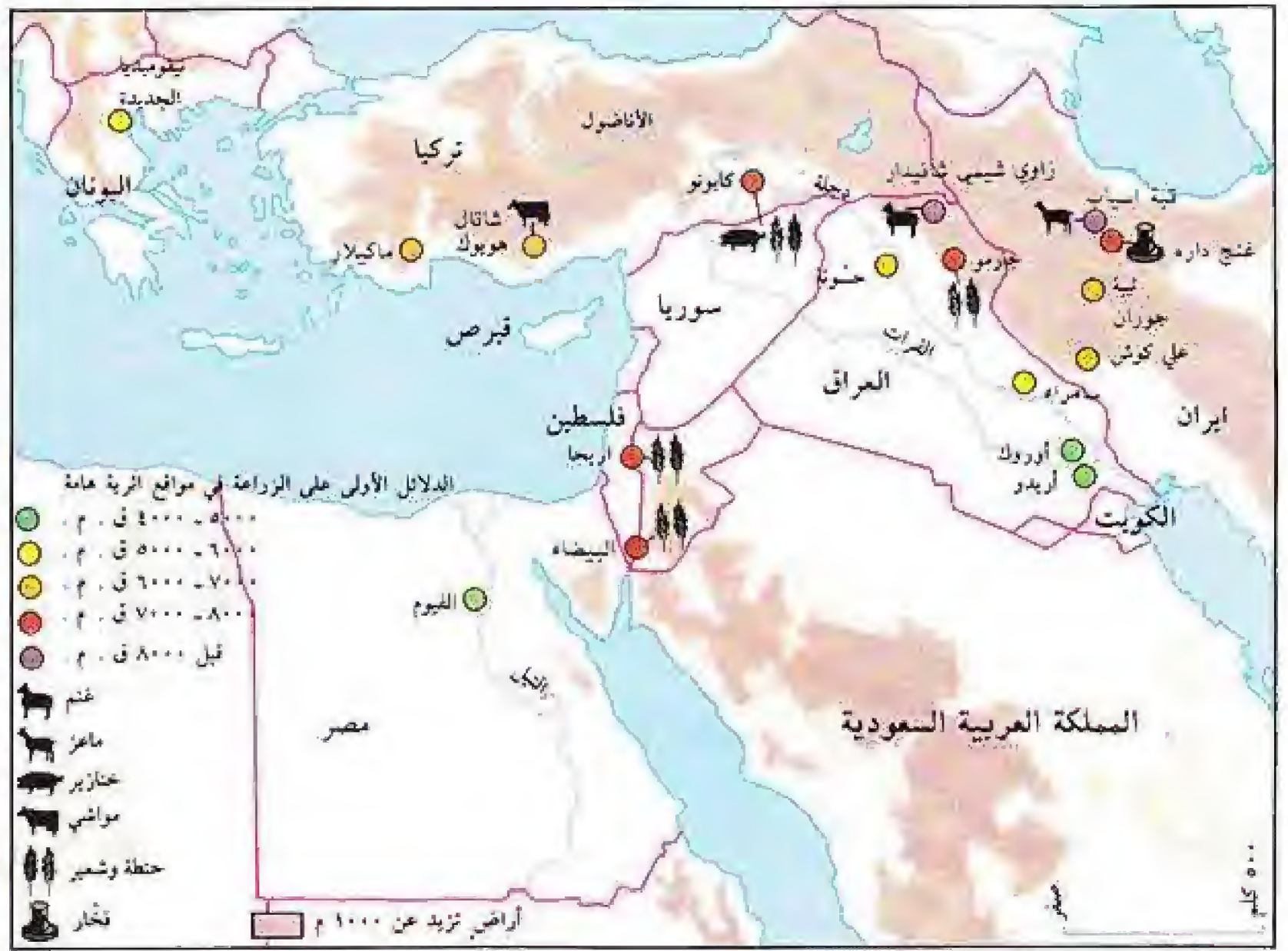
بدايات الزراعة

النبات . الى رعاية المواشي . الى اقامة المزارع . ومع ان الانتقال من الاعتماد التام على قطف الغذاء الى بداية انتاج الغذاء كان تطوراً تدريجياً . فقد كانت آثاره ثورة . اذ تم في هذا العصر تدجين كل النباتات والحيوانات الصالحة للغذاء اليوم .

حتى بداية العصر الحجري الجديد . لم يكن تدجين النباتات والحيوانات معروفا الا على نطاق ضيق . فالزراعة قد تطورت مع الازمنة على وتائر متنوعة في أماكن مختلفة . فاتخذت لها اشكالا متفاوتة . من زرع

المزارعون والرعاة الأول

في اوائل الألف الثامن قبل المسيح .



شبه المنحرف (كما في الصورة) كان مألوفاً أيضاً . يبدو ان بعض البيوت الطويلة كانت تقسم الى قسمين . ولكن لا نعلم اذا كان الغرض من ذلك فصل غرف السكن عن غرف التخزين . كانت البيوت تبنى ضمن اطار من الخشب .

(٣) - ما زال البزل . وهو الجد البري للماعز المدجن . يعيش على جبال آسيا الجنوبية

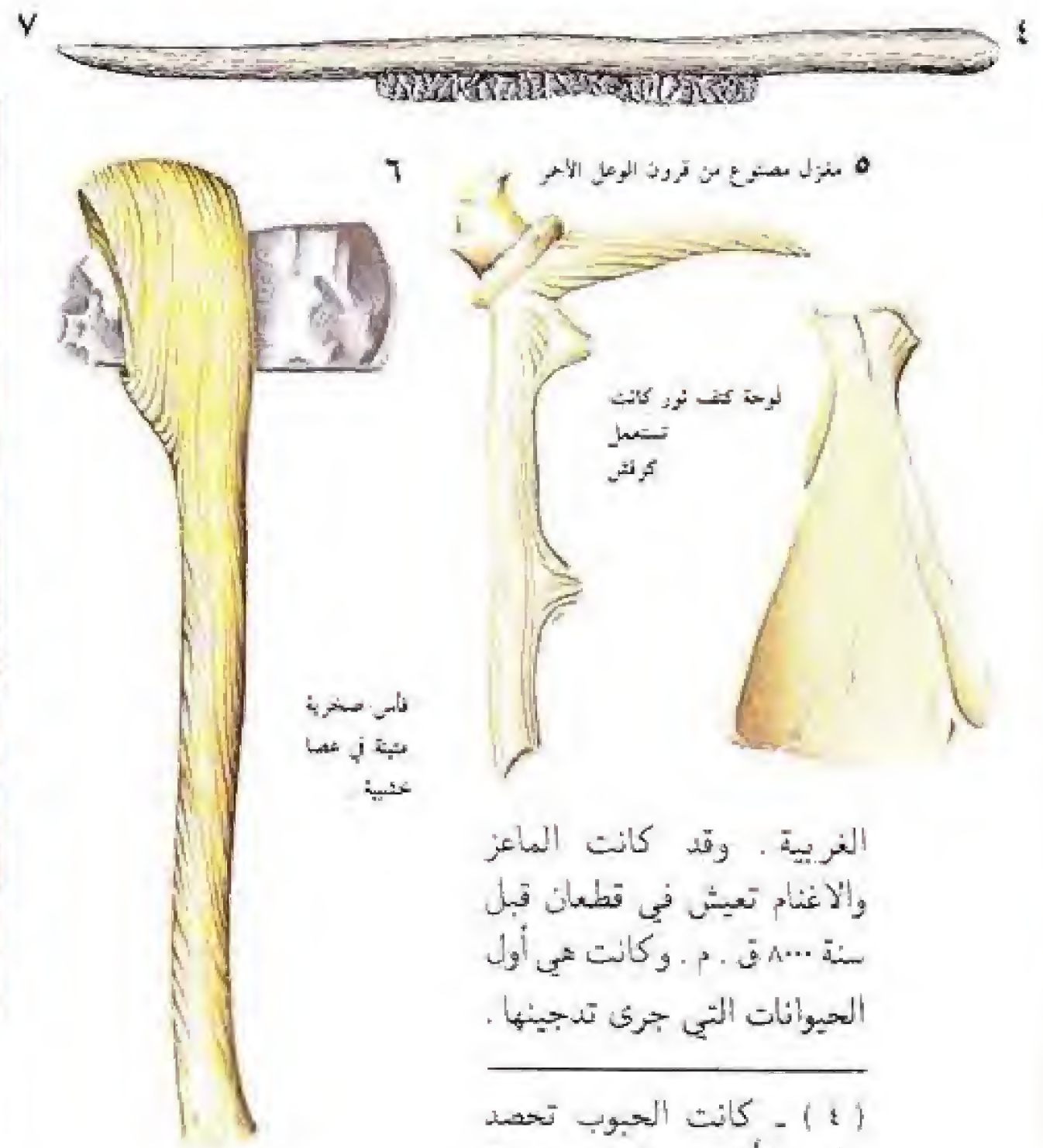
(٢) - البيوت المستطيلة في أوروبا الوسطى واسكندنيا في ترقى الى النصف الاولى من الألف الخامس ق . م . أعيد بناء البيت الظاهر في الصورة استنادا الى آثار مكتشفة في ديرنجسن روبلوه في وستفاليا . بالمانيا . كان طوله يزيد على ١٦ م وعرضه حوالي ٨ أمتار . وكذلك كان ارتفاعه . كانت البيوت الطويلة السائدة على شكل مستطيل . الا ان الشكل

(١) - كانت مناطق انتاج الغذاء تمتد من جبال زاغروس بين ايران والعراق . حتى جبال طوروس في الاناضول . وحتى غور الأردن . توجد اوائل الأدلة على رعاية القطعان في ايران . حوالي عام ٨٥٠٠ ق . م . شاع الري في حوض دجلة والفرات حوالي ٥٠٠٠ ق . م . بحيث اصبح من الممكن زراعة الارض التي يغمرها الطمي .

ظهرت زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات في منطقة الشرق الاوسط ، بين خطي العرض ٣٠ و ٤٠ درجة شمالا ، على مساحة تمتد على طول ألف ميل ، من بلاد الاناضول حتى ايران (١) . كانت تعيش في هذه المنطقة انواع مختلفة من النباتات والحيوانات البرية القابلة للتدجين . فقد شاهد الانسان القديم الحنطة والشعير تنمو على المرتفعات ، والماعر (٢) والغنم ترعى على المنحدرات .

لا بل ان التنوع الكبير في المناطق العامرة بالمياه والموارد الطبيعية كان كافيا وحده لجعل القناصين ، وصيادي الاسماك ، وقاطفي الثمار يعيشون عيشة شبه مستقرة ، حتى بعد انتهاء العصر الجليدي الأخير ، حوالي عام ٨٠٠٠ قبل المسيح .

في البدء كان نمو الزراعة ورعاية المواشي بطيئا وعشوائيا . كانت الحبوب البرية تلتقط وتلقى بجوار موقع الاستيطان ،



الغربية . وقد كانت الماعز والاعنام تعيش في قطعان قبل سنة ٨٠٠٠ ق . م . وكانت هي أول الحيوانات التي جرى تدجينها .

(٤) - كانت الحبوب تحصد بآدمي الأمر بمناجل مصنوعة من حجارة مثبتة في عصا من العظم أو الخشب . هذا النموذج (في الصورة) من الفيوم في مصر .

(٥) - كانت عظام الحيوانات وقرونها تستعمل في صناعة استخراج الصوان . وكانت صناعة هامة في أوروبا

الغربية . ابان العصر الحجري الجديد . ففي مقبرة جرايمر في نورفوك ، كان يجري تثبيت العصي في الكلس ، ويصار الى حفر اقنية للوصول الى الصوان .

(٦) - كانت الفؤوس الحجرية المصقولة ، المثبتة في عصي خشبية ، تستعمل لثق الطرق في الغابات ، وللنجارة . وكانت قطع الصوان ، والصخور الأخرى التي تستعمل لصنع هذه الادوات الفعالة جدا ، تنحت في معامل الفؤوس ، يتبثنا مصدرها بالشيء الكثير عن الطرق التجارية .

(٧) - تحتوي تاسيلي (في منطقة الحجار بليبيا) وهي هضبة طولها ٨٠٠ كلم من الحجر الرملي المفتت ، على عشرات من الرسوم والنقوش الصخرية . فقد رسمت فيها بصورة رائعة المواشي والحيوانات البرية التي ازدهرت في ذلك المناخ المناسب حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م .



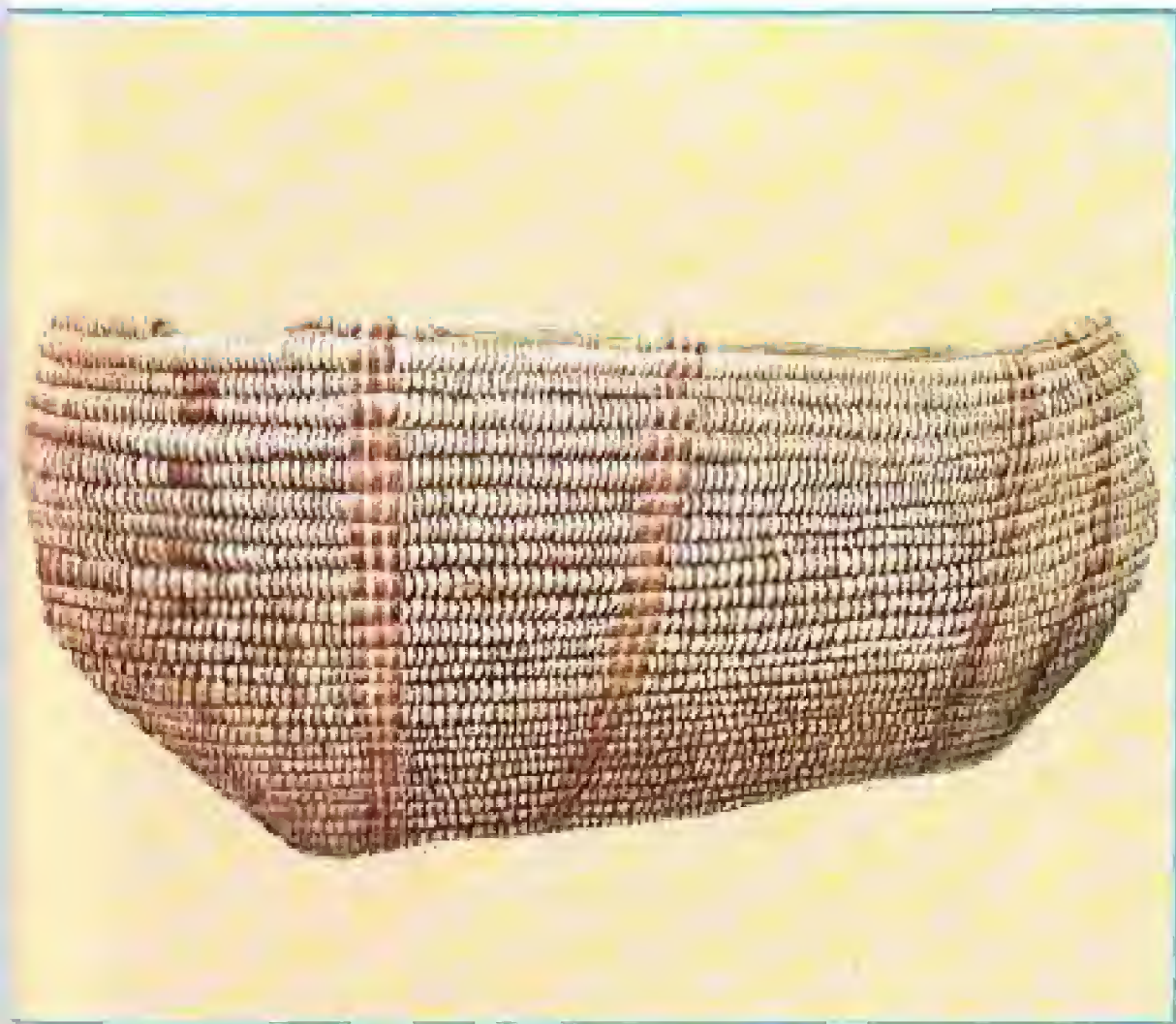
وكان الصيادون ، على الأرجح ، يقبضون على بعض الحيوانات الصغيرة ويحملونها معهم الى المنزل . وليس من السهل في هذه المراحل الباكرة من الزراعة ، التمييز بين البرّي والداجن من الحيوانات والنباتات . فقد أخذت الحيوانات بعد تدجينها تتطور تدريجيا لتصبح ذات أشكال أصغر ، كما حدثت تغيرات تدريجية أخرى في حجم القرون وشكلها مثلا . ويبدو من كمية

العظام المكتشفة في زاوي شيمي شانيدار في شمالي العراق ، ان قطعان الاغنام كانت ترعى على الهضاب منذ سنة ٨٥٠٠ ق . م . وان قطعان الماعز لم تلبث ان لحقت بها بعد ذلك بقليل من الوقت .

أما الأدلة على زراعة الحبوب ، فهي أصعب منالا ، اذ لا تحفظ الحبوب الا في ظروف استثنائية . فالأدلة الوحيدة الباقية لا تتعدى ، في غالب الأحيان ، الحبوب



٨



٩

(٨) - احتل الرعاة والصيادون سكارا بري ، في جزر الاوركنيني ، حوالي سنة ١٨٠٠ ق . م . ونظرا لعدم توفر خشب في الجزيرة ، صنعت البيوت والاثاث من الحجارة ، تحتوي احدى القرى على ثمانية اكواخ متصلة بعضها ببعض ، وفي كل منها موقد وبلاطتان تستعملان كسريرين وخزانة في الحائط .

١٠ الحبوب معروفة في مصر . صنعت هذه السلة (وطولها ٤٠ سم) من الكتان المطوي ، وربما استعملت من أجل البذار . وقد اكتشفت في حفرة لتخزين الحبوب في الفيوم .

(١٠) - نموذج من الفخار لعربة (حوالي ١٩٠٠ ق . م) مأخوذ من مقبرة في المجر ، وهو أول دليل على عربة تسير على عجلات في أوروبا . وقد اخترعت العجلات في منطقة ما بين النهرين ، قبل هذا التاريخ بحوالي ٢٠٠٠ سنة .

(١١) - هذا الابريق الفخاري وهو من النماذج الشائعة في فن اللوتجشان في شانتونج ، في العصر الحجري الجديد (حوالي ٢٠٠٠ ق . م) ، يبدو وكأنه يقلد الفن البرونزي .

(٩) - كانت الحنطة والشعير الغذائين الرئيسيين ، في اقتصاد العصر الحجري الجديد في الشرق الاوسط . وفي حدود سنة ٤٥٠٠ ق . م . كانت هذه



١١

المتفحمة نتيجة للحريق ، أو الانطباعات
الباقية على افران الطين أو في حفر
التخزين .

المستوطنات الأولى

في العصر الحجري الجديد

معظم المواقع التي ترقى الى اوائل العصر
الحجري الجديد تقع بالقرب من الينابيع .
من المواقع التي حظيت بأكثر قسط من
الاستقصاء « تل السلطان » في أريحا . في
فلسطين ، الذي أقام فيه ما يناهز ٣٠٠٠ نسمة
خلال العصر الحجري الجديد السابق لعصر
الفخار . حوالي سنة ٧٠٠٠ ق . م . أما موقع
شاتال هويوك في الاناضول ، الذي كان أكبر
مركز تجاري معروف في زمانه ، فقد بلغ
حجمه أربعة اضعاف حجم أريحا خلال الألف
السادس ق . م .

بلغ فن الفخار والحياكة ، وسواهما من
الفنون والصناعات ، مستوى عاليا . وكانت
المعتقدات الدينية الوثنية تدور على عبادة
ربة الخصب ، التي كانت ترسم في نقوش
ناتئة من الجص ، وعلى تقديس الأموات .

بعد أن أصبح السكان ، في العصر
الحجري الجديد ، يعتمدون على الاقتصاد
الزراعي لمعيشتهم ، أخذوا يتكاثرون بسرعة .
ومع ظهور الري ، الذي يحتمل ان يكون قد
استحدث في أريحا ، غدا من الممكن لهم
الانتشار باتجاه سهول بلاد ما بين النهرين .
فهناك مستوطنة واقعة في حسونة الى الشمال
تعود الى ما قبل سنة ٦٠٠٠ ق . م . وبعد ذلك
بألف سنة جرى استغلال سهول دجلة
والفرات ، الغنية بالطمي في اريدو في
الجنوب . حينذاك ، أصبحت بلاد ما بين

النهرين مركز حضارة العصر الحجري
الجديد ، وأرست القواعد لقيام الحضارة
السومرية .

في اثناء ذلك ، انتشر انتاج الغذاء من
بلاد الاناضول الى اليونان ، ومنها الى
اوروبا . وقد تمكن المزارعون ، في الاراضي
الغاية التي مهدها القطع او الحريق من
استغلال تربة حوض الدانوب الخصبة . كما
كان البناء بالحجارة الضخمة يطوفون ، في
تلك الفترة بالذات ، حول سواحل أوروبا
الغربية .

المحاصيل الرئيسية للحضارات المختلفة

قامت حضارة آسيا الغربية واوروبا على
الحنطة والشعير ، اللذين تلائمهما المناطق
المعتدلة وما تحت المدارية ، فيما كانت
المناطق المدارية أكثر ملاءمة للدخن والرز
والذرة . بدأت زراعة الرز في الهند قبل
الصين التي كان الدخن محصولها الأكبر ،
والخنزير حيوانها الداجن الرئيسي حتى
حوالي ٢٠٠٠ ق . م . أما في مناطق افريقيا
الواقعة وراء الصحراء ، فربما سبقت زراعة
النباتات الجذرية زراعة الحبوب (أي الدخن
والذرة) مع انه ليس لدينا أدلة أثرية قاطعة
على ذلك . لكن الأدلة المستمدة من عدد من
الرسوم الصخرية ، تدل على ان الرعاة كانوا
يجدون حوالي ٣٠٠ ق . م . مراعي على
امتداد الصحراء (٧) ، في الحقبة التي سبقت
تحول المنطقة الى صحراء جرداء . وكانت
الذرة البدائية تزرع في المكسيك في حدود
عام ٥٠٠٠ ق . م . لكن لم تستقر الجماعات
البشرية في مواطن ثابتة في امريكا قبل
العام ١٥٠٠ ق . م .

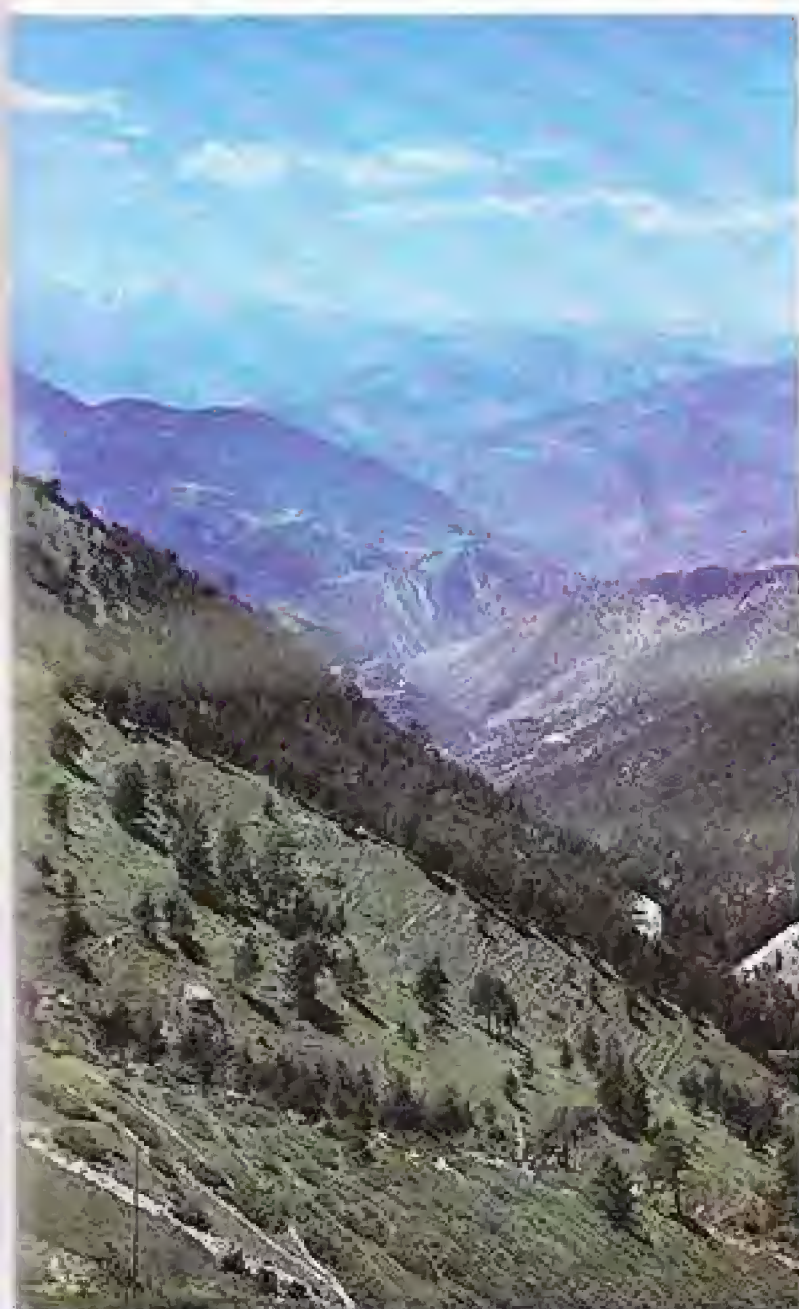
الشرق القديم

المنطقة . على التوالي . بصره خاصة .
السومريون فالبابليون فالأشوريون فالفرس .
ولما سقطت دولهم ، عفا النسيان على الكثير
من هذه الحضارات القديمة . وبقيت الحال
كذلك مدى عصور الظلمة . وتأخرت طويلا
اعادة الكشف عنها على يد الغربيين .

تطور الكتابة

جاء التقدم الحثيث . في ميدان معرفة

التاريخ القديم لآسيا الغربية يسمى في
الاصطلاح تاريخ الشرق القديم . ويشمل
الحضارات العديدة التي ظهرت في آسيا
الصغرى وسورية والعراق والجزيرة العربية مع
الخليج وايران . احتل وسط المسرح في هذه



التاسع ق . م . وهو يحمل
النقش التالي . المطبوع في
الطين على الظهر . بالخط
المسماري الاشوري : « أدخل
أيها الروح الميمون ، وأخرج
أيها الشيطان المنحوس » .
كانت هذه التماثيل الصغيرة
توضع في مربعات الاساس
المصنوعة من الفخار والتي
توجد عادة في الزوايا
وبالقرب من قائمة الأبواب .
في المباني الاشورية الكبرى
في الألف الأول ق . م .

روافدهما . والماء الذي كان
يحول منهما بواسطة الأقنية .
على قيام مدن الامبراطوريتين
العظيمتين بابل وآشور . اللتين
رسمتا . بسلطتهما وحروبهما .
الاطار العام لتاريخ زمانهما .
حتى تقهقرهما في القرنين
السابع والسادس قبل الميلاد .

(٢) - تمثال صغير من الفخار
المجفف بالشمس . وُجد في
قصر واقع في نمرود . شمالي
العراق . ويرقى الى القرن

(١) - تركز تاريخ منطقة
غربي آسيا القديم حول السهول
النهرية . والتلال والجبال
المجاورة . الواقعة بين البحرين
الاسود والمتوسط والخليج
العربي . كان نهرا دجلة
والفرات يتحكمان بهذه
المنطقة . وتدعى المنطقة
الواقعة بينهما بلاد ما بين
النهرين . الا ان هذه اللفظة
تستعمل بتصرف للدلالة على
منطقة أوسع محيطة بالنهرين .
ساعد الطمي الناتج عنهما وعن

الحضارات القديمة ، في اواسط القرن التاسع عشر ، على أثر فك رموز الخط المسماري الفارسي القديم (٨) . فان نقوشه الثلاثية اللغات (الفارسية القديمة والبابلية والعلامية) أمدت العلماء بمفتاح لقراءة تلك المكذسات الهائلة من النصوص الاشورية والبابلية والسومرية ، المكتوبة بخط مسماري أصعب .

انبثق الخط المسماري عن الكتابة

التصويرية التي كان السومريون يستعملونها اصلا في جنوبي بلاد ما بين النهرين ، في اواخر الألف الرابع قبل المسيح .

وعندما صارت لغتهم الى النسيان الى حد بعيد ابتداء من اوائل الالف الثاني انتقل الخط المسماري الذي كانت تكتب به الى ورثائهم السياسيين والثقافيين ، البابليين الذين أخذوا به لكتابة لغتهم السامية ، المعروفة بالأكادية ، مع انها كانت تختلف كثيرا عن



(٣) - تؤدي طريق رئيسية من طرابزون والمنطقة الساحلية الشرقية للبحر الأسود في الجانب التركي الى مصر زيجانا في الجنوب ، الذي يبلغ ارتفاعه ٢٠٠٠ م ، وهو يبقى سالكا معظم أيام السنة . تستمر الطريق مرورا ببلاد جبلية عالية حتى أرضروم وتبريز وطهران ، فتخدم كبوابة شمالية غربية لأرمينيا وبلاد فارس .

كذلك خدعت كطريق تجارية ، تصل بين هذه البلدان والأمكنة التي يمكن الوصول اليها بحرا من طرابزون ، اما الطريق الملكية الفارسية بين سوسا في بلاد فارس وسارديس في الغرب ، فقد كانت تخترق منطقة أبعد الى الجنوب ، عبر ديار بكر وانقره ، حيث كان السير أسهل .

(٤) - هذا الخزان الحجري الضخم المصنوع من البازلت ، يرقى الى عهد سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) وقد أعيد تركيبه من قطع صغيرة . تبلغ مساحته ٣.٢ مترا مربعا ، ويبلغ ارتفاعه مترا واحدا . تظهر في زواياه اشكال اربعة ، تمثل المعبود إيا يحمل زجاجة لرش الماء ، وكذلك الاشكال الاربعة المواجهة للناظر ، في وسط كل

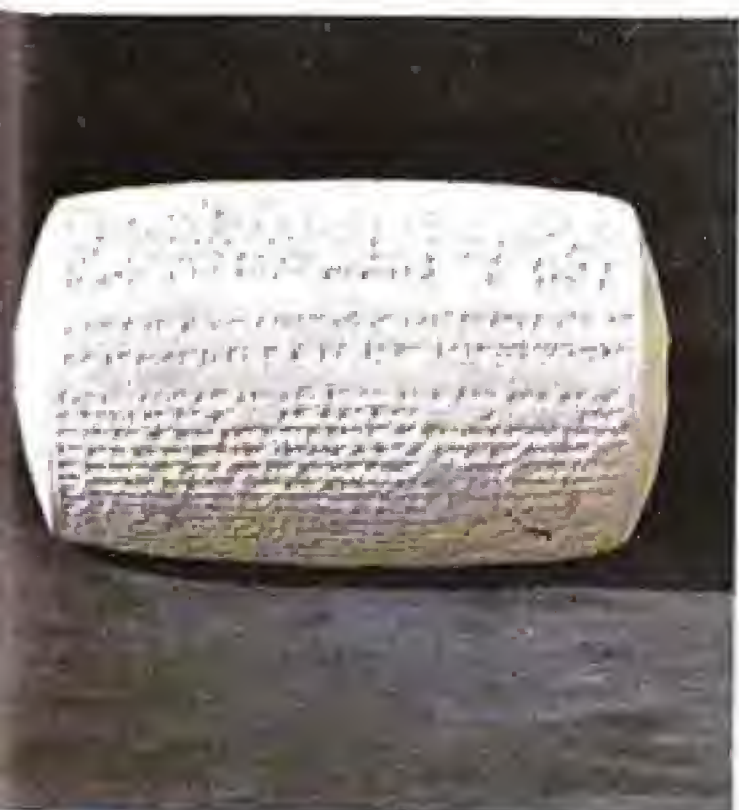
من الجوانب الاربعة . ويظهر ايضا كاهنان يرتديان ثيابا على شكل اسماك . وهما يلتفتان الى كل من هذه الأشكال . ويحمل جانبان اثنان من الخزان نقشا لأسم الملك ، ليس لدينا تفسير ثابت لهذه الرموز ، الا ان مغزى عنصر الماء واضح ، فإيا ، وهو معبود اليم قد يكون وسيطا بين السماء والأرض .

القديم الأبسط للامبراطورية الأخمينية ، وفي
كتابة الخط الأبجدي لدى الفينيقيين .

فك رموز النقوش

ما كاد يعلن ، سنة ١٨٧٢ ، ان نسخة
أشورية عن قصة الطوفان ، الواردة في
التوراة ، عثر عليها في لوحة في نينوى في
شمال العراق قد فكت رموزها ، حتى اشد
الحماس للحفريات ولدراسة اللوحات

السومرية . واقتبس ناطقون بالأكادية ،
ولاسيما الآشوريون ، الخط المسماري أيضا .
وقد استعمل هذا الخط ذاته ، مع بعض
التعديلات الطفيفة نسبيا ، في مناطق أخرى
من غربي آسيا ، لكتابة لغات أخرى مختلفة
كلها ، كالحثية والعيلامية والهورية
والأورارتية . واستعمل المبدأ نفسه ، وهو عبارة
عن مجموعات من نقوش مسمارية مختلفة
شبيهة بالاسافين ، في كتابة الخط الفارسي



تحتوي . على الأرجح ، على
مزيج من الشمع والصباغ ،
بشكل قاعدة لنص مسماري ،
تحمل هذه اللوحة اسم سرجون
وعنوانا لكتاب بشائر مستمدة
من الأرصاد الفلكية .

(٧) - كان الآشوريون
يستعملون أحيانا براميل
اسطوانية الشكل ، من الأجر ،
لتدوين نصوص مسمارية ،
تشير هذه الاسطوانة ، وهي
حوالي ١٧ سم بـ ١٠ سم ، الى
أسر حدون ، وتعطي موجزا
عاما لفتوحاته وانجازاته ، وتشير
ايضا الى قصر جديد كان هذا

فان . ومع ان عددا من المباني
الشهيرة قد بنيت دون اية
استعانة بالعجلة ، بما في ذلك
الأهرام ، فقد ساعد ظهورها
الزراعة ، والنقل الى حد كبير ،
وساهم اسهاما كبيرا في تطور
حضارة ما بين النهرين
وانتشارها .

(٦) - عثر على قطع من ألواح
العاج ، كل واحدة منها ٣٣ سم
بـ ١٥ سم ، مغمورة بالنوحل ، في
قعر بئر في أحد القصور الملكية
في نمرود . كانت اللوحات
مطوقة بهامش بارز يحيط
بقطعة منخفضة كانت

(٥) - اخترعت العجلة على
الأرجح في بلاد ما بين
النهرين خلال الألف الرابع
ق . م . في ذلك الزمان ، لم
تكن تصنع من حلقات شعاعية ،
بل من اقراص مستديرة صلبة
من الخشب ، مشدودة معا
باطار من المسامير العريضة
الرؤوس المثبتة في الظرف
الخارجي ، لم تظهر الشعاعات
الا فيما بعد ، ولكن أقدم نماذج
العجلة ما زال موجودا في بعض
المناطق النائية . فهذه العجلة
(الظاهرة في الصورة) توجد
في قرية صغيرة ، في شرقي
تركيا ، بالقرب من بحيرة

الملك قد بناه ، وصنع سقفه من
خشب الأرز المستورد من جبال
امانوس . وابوابه من خشب
السرو الذكي الرائحة . ترقى
اللوحة الى حوالي ٦٧٠ ق . م .

المسمارية والنقوش المماثلة . ساعد الطابع السامي للغة الأكادية ، التي كتب بها الكثير من هذه النقوش ، على فهم النقوش المسمارية الأخرى التي كانت تنتمي على درجات متفاوتة الى عدد من اللغات المعروفة كالآرامية والعربية والعبرية .

الخلفية الجغرافية

ثمة اختلافات جغرافية كبيرة بين

المعنى	بابلي جديد	اشوري	بابلي قديم	سومري قديم	سومري بسيط	سومري اسلي
سكة						
نور						
حمام						
حنطة						
نار						
شمس / نهار						
بروزع / بحر						
بيت						
انسان						

وهكذا أدى التمثيل الصوتي الى تطور رموز كتابية للغات بكاملها . أقدم كتابة تصويرية معروفة وجدت في كيش على حجر يعود الى حوالي ٢٥٠٠ ق . م . وعليه من الجانبين رسوم منها رأس ويد وقدم . وعصا ثقيلة لدرس الحبوب ، وبعض الترقيم .

(٨) - تطور الخط السومري . على الأرجح ، نتيجة لاحتياجات الاقتصاد والادارة العاميين ، ومع نمو المدن ، باتت سجلات البضائع الداخلة الى المدن ، والخارجة منها ضرورية . كانت أشرطة من الطين او الجبس تعلق بالأشياء ، بادىء الأمر . وتحمل سمة خاتم تدل على صاحبها . وتلا ذلك رسم الاشياء بواسطة خطوط ، ثم بُسّطت الرسوم وحُوّلت الى رموز . فيما بعد ، استعمل الرمز الخاص بكلمة شائعة مثل تي (أي سهم) للدلالة على جميع اصوات تي بصورة عامة . (وتعني تي أيضا الحياة) .

المناطق التي تشملها حضارات آسيا الغربية القديمة . فسواحل البحر الاسود والمتوسط تنحسر ، بسرعة متفاوتة ، أمام هضبة الاناضول في اواسط تركيا ، التي تروي المناطق المحيطة بصحرائها الوسطى انهار تجري باتجاه هذين البحرين .

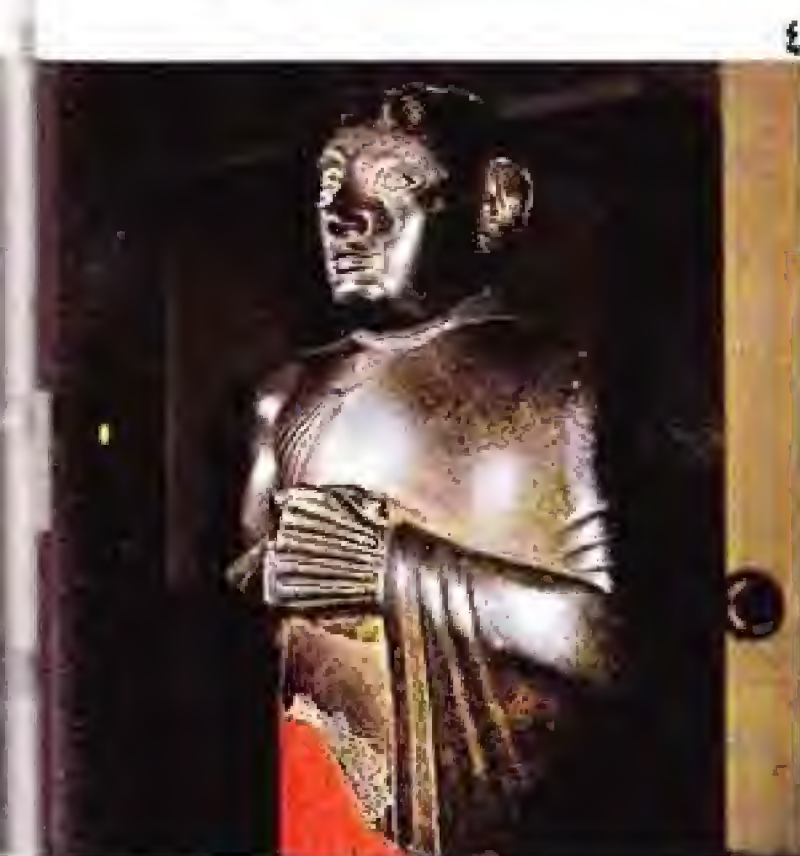
أما في الجنوب ، فتعترض سلسلة جبال طوروس الطرق المؤدية الى سهول كيليكيا ، فيما تقوم الهضاب المرتفعة التي تشمل جبل أارات (٥١٨٥ م) الى أقصى الشرق والشمال الشرقي بالحد من سهولة الحركة . هذه الهضاب تحتضن منابع نهري دجلة والفرات ، اللذين ، بعد اتجاههما غربا ، ينعطفان جنوبا ليشكلا معظم الهلال الخصيب ويرويا سهول ما بين النهرين ، حيث بنيت عواصم امبراطورياتها الكبرى ، لاسيما بابل وأشور ونيوى (١) . الى غربي بلاد ما بين النهرين تقع الصحراء ، وأبعد من ذلك غربا وادي نهر الأردن والعاصي ، وآخر الأمر سهول البحر المتوسط الساحلية ، أما الى شرقي بلاد ما بين النهرين ، فتتعرج الأودية بين جبال زاغروس الوعرة (٢) حتى هضبة ايران الجافة ، مع العاصمة العيلامية سوسا ، والعاصمتين الفارسييتين باسارجادا وبرسيبوليس ولكن بما ان القدرة على انتاج الحبوب في منطقة أهلة بالسكان هي عامل رئيسي في تقدمها ، فقد أدت خصوبة دجلة والفرات ، لاسيما بعد تطوير أقية الري فيها من هذين النهرين ، ومن روافدهما الرئيسية ، (الخابور والزاب الأعلى والأدنى وديالة) الى جعل حضارة منطقة ما بين النهرين والسهول الجنوبية أكثر الحضارات ازدهارا في منطقة غربي آسيا .

الحضارة السومرية

المدن الخمس الموجودة قبل الطوفان . اما
حقب الاستيطان السابقة لعهد السلالات
المالكة . والتي تمتد طوال الالف الرابع
ق . م . فكانت تسمى باسم المواقع الخاصة
بها . وهي تل العبيد وأوروك (الوركاء)
وجمدة نصر .

يبدو ان بعض المساكن الاولى في أريدو
كان من اكواخ القصب . وبعضها من بيوت
من الطين . وتعاقبت الحقب السابقة

كشفت الحفريات الجزئية لمدينة أريدو .
في جنوبي العراق . عن أولى المستوطنات
التي اكتشفت حتى الآن . في بلاد ما بين
النهرين . فأيدت التقليد السومري القائل
بقدم هذه المدينة . اذ كانوا يعتبرونها أولى



(١) - كان جوديا اللجشي
الظاهر في الصورة . صهرا
لأوربابا . وقد جلب لمدينته
ثروة طائلة مكتنتها من القيام
بأعمال انشائية واسعة . كذلك
تولى الاشراف على مدرسة
للنحاتين . توصلوا الى صنع
اروع النماذج بالحجر الصلب .
وقد خلف جوديا نفسه نقوشا
تصف الطقوس الدينية والحياة
اليومية في زمانه . كما عُدَّ
الاخشاب وحجارة الزينة
المستعملة في اعادة بناء بيت
صنمه نينجيسو . الذي
أنفق عليه كل ثروته
تقريبا .

بلغ من تشویش هذه الملحمة
ان سيرة الملك غدت فيها
غامضة الى حد بعيد . مع ان
بعض الروايات قد تكون
مستمدة من الواقع . والارجح
انه اصلح معبدا في نيبور . ومن
الثابت تقريبا انه بنى جدار
مدينة اوروك .

(٢) - كانت امبراطورية
سرجون الأكادي اول
امبراطورية كبرى في العالم .
لكن اتساعها كان كبيرا الى
درجة انه أدى . بسرعة وبشكل
حتمي تقريبا . الى قيام
الثورات .

(١) - قد لا يكون ملك أور
المدعو اورنامو (ملك ٢١١٣ ق . م .
٢٠٩٦ ق . م) والذي أهدي اليه
هذا الختم السومري . محاربا
شهيرا . ولكنه نشر بعض
التشريعات التي تتعلق بعضها
بالاعتداءات الجنسية .
وبالمخالفات المقرفة بحق
أراضي الآخرين .

(٢) - روي عن جلجامش ملك
أور من الاساطير ما يفوق ما
روي عن أي بطل من أبطال
التاريخ البابلي . انبثقت
ملحمة جلجامش الاشورية .
التي وصلتنا . من مجموعة اكبر
من الاساطير السومرية . وقد

(٥) - عثر على الراية الملكية
التي ترقى الى حوالي ٢٦٠٠
ق . م . في احدى أعظم

إذا كان السومريون قد جاؤا بها معهم الى
تلك البلاد ، أو انهم كانوا هنالك من قبل ،
بل الأكيد حتى الآن انهم هم الذين اخترعوا
هذا الفن .

تشتمل لائحة ملوك سومر على عدد من
الملوك الذين جاؤوا قبل الطوفان ، مع ان
تسلسلهم الزمني وتاريخهم ليسا معروفين .
كذلك ، ليس من الثابت ما اذا كان الطوفان
المذكور في الكتب السماوية وفي التقليد

للسلالات المالكة ، فانتجت على التوالي
الفخار الملون ، فمراكب صيد الأسماك ،
فمقاليع الصيد بالحجارة والفؤوس ذات
الرؤوس الصوانية والمناجل المشوية بالنار ،
فالكثابة ، فدولاب الخزاف ، فالمحراث
والعربة ، فالنحت ، فأواني الفضة والنحاس
والرصاص .

ظهرت الكتابة في مرحلة أوروك قبل
سنة ٣٠٠٠ ق . م بقليل ، ولكن ليس ثابتا ما



(٤٧ سم ب ٢٠ سم) مما يجدر
برمز العظمة الملكية .

على قفاها مشاهد عائلية مختلفة
(ب) . اذا صح انها كانت
راية ، فنكون أصغر

عربات ذات عجلات اربع
بكامل رجالها . مما قد يشير
الى انتصار ما (أ) ، كما تظهر

المقابر في أور . يبدو انه كان
يحملها مرافق يرتدي غطاء
للرأس غريبا . تظهر فيها

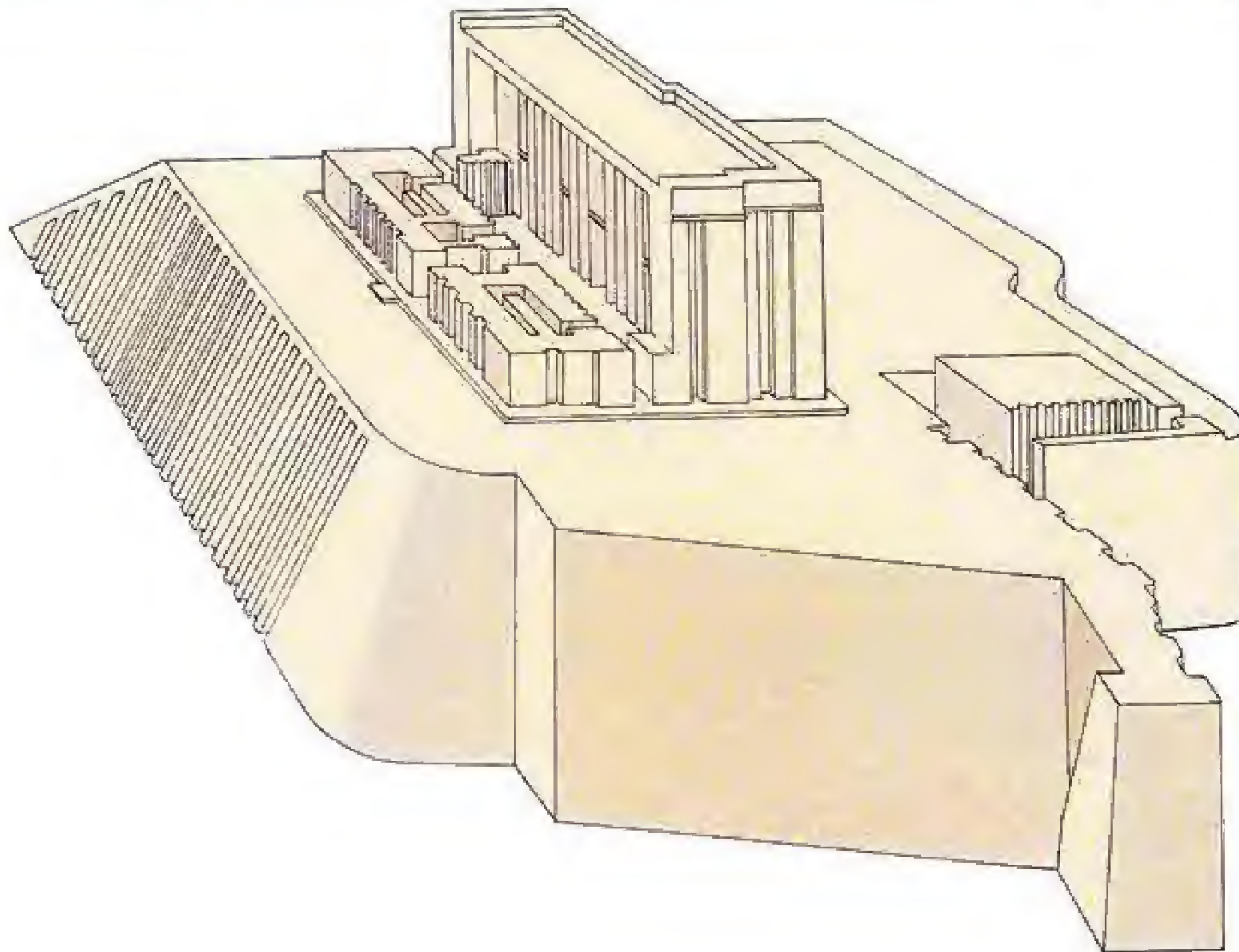
السومري يتمثل في طبقات الطمي الجرداء الموجودة في اور وكيش وشورباك . وقد اشتهر رجل من شورباك قيل انه نجا من الطوفان وان اسمه زيو سدر (واسمه الاصلي أوتو نابشتم) . وقامت شهرته على ورود ذكره في ملحمة جلجامش بوصفه الرجل الذي حافظ على بذور الكائنات الحية . لكن كيش هي المدينة التي شهدت « عودة نظام الملوك الى الأرض » في حقبة ما بعد الطوفان .

السلالة الحاكمة الأولى في أور لا نعلم الكثير عن الملوك الأوائل . لكن الزعامة انتهت ، بعد معركة حاسمة ، الى الملك الشهير جلجامش ملك اوروك (٢) . ثم انتقلت ، من خلفائه فيها ، الى السلالة الأولى في أور . ترقى اسماء بعض الملوك التاريخيين الى هذه الحقبة . وكذلك على الأرجح المقبرة الملكية الفخمة .

حفظت هذه المقابر ومقابر أخرى



(٦) - تكون معظم الهلال الخصيب من أحواض الأنهار السورية ومن البطاح المنخفضة لنهري الفرات ودجلة . كانت الأجزاء الشمالية لهذه المنطقة تنعم بمقدار من المطر والخصب الطبيعي . أما سهول سومر وأكاد في الجنوب الشرقي ، فقد ساعد طمي الأنهار ومشاريع الري المعقدة فيها على انماء المحاصيل .



(٧) - يمثل الهيكل الأبيض في اوروك أفضل تمثيل فن عمارة الهياكل ، التي ترقى الى حوالي آخر الألف الرابع ، وهو آخر هيكل باق من طراز بنائي غير منتظم الشكل ، سبق على الأرجح طراز الزقورات الأشد انتظاما . بُني الهيكل الأبيض . المحاط بثلاثة منحدرات . من الأجر المجفف ، وكان مطليا بدهان أبيض ومدعوما وفيه مذبح للعبادة . كانت زوايا البناء تواجه نقاط البوصلة ، قد تكون الزقورة . وهي هيكل متعدد الطوابق ، محاولة لردم الفجوة بين الإنسان والمعبودات . كان الناس يعتقدون ان على الإنسان ان يوفر مسكنا للمعبودات .

كنوزا لا تقدر بثمن ، من بينها : قيثارات ذهبية ، وكنارات عليها رؤوس ثيران ، وخنجر ذو غمد مشبك ، وامشاط ذهبية وفضية مزينة برسوم أزهار ، وأكواب ذهبية ، وأقراط ضخمة على شكل مراكب ، وألوف من المسابح المصنوعة من الذهب والفضة والعقيق ، وكثير غيرها ، بالإضافة الى راية أور الملكية .

لم تصلنا معلومات موثوق بها تذكر عن تاريخ الحقبة التي تلت السلالة الأولى في أور . أما في مدينة لجش ، فقد استهل اورنانشي سلسلة الملوك ، وتشهد على قوته عدة مبان ومصنوعات فنية ، ونقوش تشتمل على اشارات الى شحنات من الخشب قادمة من الخليج العربي ، وقد بلغ حفيده إناتوم مرتبة عليا في سومر وفتح ماري على ضفاف الفرات ، وربما سوبور الى الشمال . وقد وطد سلطة لجش ابن اخته انميمينا .

أما تاريخ باقي اجزاء الحقبة السلالية الباكرة في لجش ، بل في سائر بلاد سومر ، فهو لا يستند الى بينات وافية ، الا ان اوروكاجينا (ملك ٢٣٧٨ - ٢٣٧١ ق . م) أدخل اصلاحات اجتماعية تدل على نضج سياسي مدهش ، كان الغرض من بعضها فيما يبدو تخفيف الاعباء التي كان يفرضها الحكام والكهان على الشعب ، وقد غلبه لوغال زاجيزي من مدينة اوما ، الذي انهزم بدوره ، بعد حكم فعال وناجح ، امام سرجون الكبير ملك أكاد (ملك ٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق . م) (٣) .

سرجون الكبير ، ملك أكاد

خرج سرجون فجأة من الظلمة وسطع اسمه بقره لوغال زاجيزي واستيلائه على سائر سومر وسوريا وربما جزء من آسيا

الصغرى وعلى جزء كبير من المنطقة الجبلية من ايران الجنوبية الغربية . لكن يبدو ان الثورات لم تلبث ان انفجرت بعد ذلك . غير ان حفيده نارام سين حكم حكما مجيدا طيلة ٣٧ سنة . سقطت سلالة سرجون حوالى سنة ٢٢٣٠ ق . م أمام هجمات قبائل الجوتيين القادمة من الشمال أو الشمال الشرقي . وقد طرد اوتو خيجال هذه القبائل من أوروك . لكن يبدو ان نائبه في اور ، واسمه أور - نامو (١) ، غلبه على أمره وأسس سلالة جديدة في أور .

السلالة الحاكمة الثالثة في أور

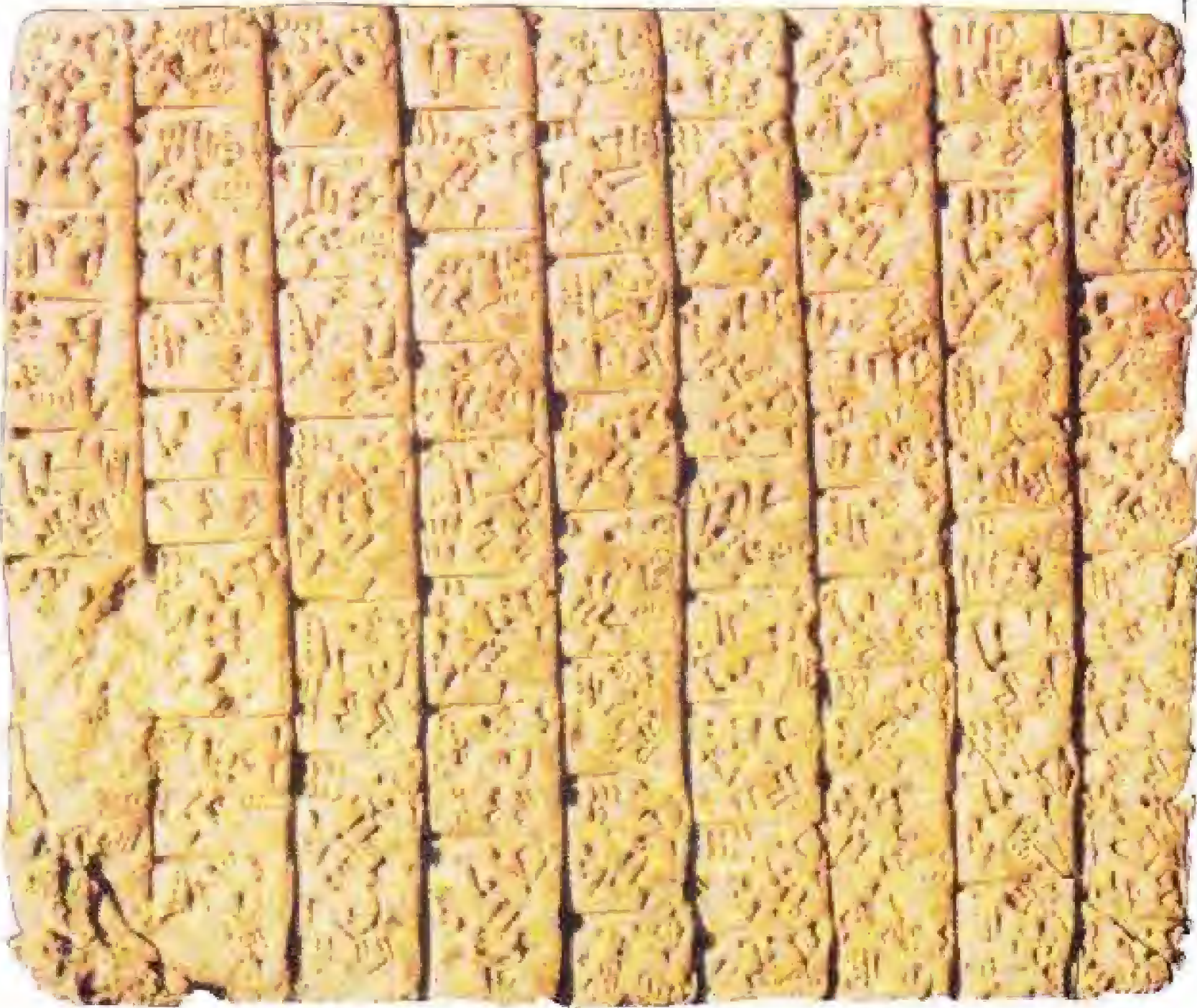
لم يتخذ اور - نامو لقب « ملك الاقاليم الاربعة » ، بل اتخذ لقباً جديداً هو « ملك سومر وأكاد » . كان عهده ، الذي امتد ١٨ عاما ، حقبة ثراء ومنعة بارزين ، كما يتبين من انجازاته الكثيرة في حقل البناء التي من اهمها اعادة المواصلات المائية المباشرة مع الخليج العربي . ترك لنا اثرا ادبيا في رسائله وانشيده الملكية ، وقد ادعى انه كان لاعبا حاذقا على ثماني آلات موسيقية . وسع خلفه شولجي « ملك ٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق . م » ممتلكاته في الشمال الشرقي والشرق ، متعاملا مع الجوتيين والخوريين وسواهم .

لكن خليفته الثاني شو - سين (ملك ٢٠٣٨ - ٢٠٣٠ ق . م) واجه خطر الغزو من الغرب . أما إبي - سين ، (ملك ٢٠٢٩ - ٢٠٠٦ ق . م) فيبدو انه انتصر على اولئك العموريين الذين كانوا بأمرة إشبى - إيرا من ماري ، لكنه شهد فيما بعد سقوط مدينته أمام العيلاميين .

الساميون الأوائل

التقارب الذي وجده بين اللغات العربية والعبرية والجعزية الحبشية ، لأن الشعوب التي تتكلم هذه اللغات تنسب في التوراة الى سام بن نوح . ثم صار الغربيون يستعملون الكلمة بالمعنى العرقي ليدلوا بها على هذه الشعوب وعلى غيرها من سكان الهلال الخصيب القدماء وقد شملوا بها : الأكاديين والعموريين والبابليين والكنعانيين والفينيقيين والاشوريين والآراميين والعبريين والعرب

كلمة سامي لا تحمل علميا أي مفهوم اثنولوجي . وهي تدل على صفات لغوية حضارية أكثر بكثير مما تدل على الصلات العرقية . العالم اللغوي الالماني شلوتسر استخدمها أول مرة سنة ١٧٨١ ليعبر بها عن



(١) - كمية الرقم الأثرية الطينية (أ) التي وجدت مؤخرا في ايبلا تشكل تحديا كبيرا للآثريين الذين سوف يقضون السنين الطويلة قبل الانتهاء من قراءتها وادخال ما فيها ضمن معلومات التاريخ القديم الذي كان يجهلها تمام الجهل . الرقم التي وجدت (والصورة نموذج منها) تزيد على ١٥ ألفا ، كانت منسقة في مكتبات خشبية بالقصر الملكي . كتبت بالسمارية وبلغة سامية شبيهة بالاكادية . تتناول مختلف المواضيع التجارية والاقتصادية والادارية والتاريخية والأدبية والدينية . وفيها أصول لعدد من المعلومات التوراتية تسبقها بحوالى ١٦ - ١٨ قرنا . كما ان فيها الأوامر والتقارير الملكية والمعاهدات والألواح التعليمية . وتتضمن ايضا أقدم معجم لفظي يرجع الى حوالى سنة ٢٣٠٠ ق . م . وهو ثنائي اللغة بين السومرية واللغة الايبلائية . جفف الحريق الذي أصاب القصر الملكي سنة ٢٢٥٠ ق . م . هذه الرقم وجعلها صلبة مما ساعد على حفظها الى اليوم . عثر في



ايبلا عدا القصر الملكي والرقم التي فيه على ثلاثة معابد وعلى عدد كبير من التماثيل للمعبودات وعلى عدد كبير من الأواني الفخارية (ب ، ث) عدا أطلال المنازل للسكن (ت) . ثروة المعلومات التي كشفت عنها ايبلا أضافت الكثير الى معلوماتنا أيضا عن مدن وممالك الشرق الأدنى .

تسرب الساميون الأولون . ثم تكاثروا في أرض الرافدين حتى شمال الشام ، اثناء الفترة السومرية . سماهم السومريون بالعموريين (أي الغربيين) . لكنهم دخلوا المسرح السياسي للمنطقة منذ أواسط الألف الثالث بظهور دولة ايبلا أولا في شمال سوريا (على ٦٠ كم من جنوب حلب) . ثم ظهور الاكاديين . بعد قرن آخر . في جنوب العراق بعد الغاء الدولة السومرية .

والاثيوبيين . السؤال عن المهد الذي خرجت منه هذه الشعوب هو احدى مشاكل التاريخ القديم . وتدور حوله نظريات عديدة . أرجحها لدى العلماء النظرية التي ترد أصلهم جميعا الى الجزيرة العربية وتجعل خروجهم منها في هجرات دورية اعتبارا من أواخر الألف الرابع ق . م بنتيجة التكاثر والجذب . وثمة دلائل كثيرة على أنهم استخدموا الجمال والحمير في الهجرة .



ت



١٢



متحف حلب . فيمثل امرأة واقفة بثوب طويل متموج تتدلى منه بعض الخطوط المتعرجة رمزا لتموج الماء ومجري الأنهر . وقد رسم عليه بعض السمك . الاناء في يدها رمز للحياة والخصب . وعلى رأسها نوع من العمامة . التمثالان يعودان الى أواخر الألف الثالث ق . م . أما التمثال الثالث (ت) . فهو لسادة المعبد ويعود الى القرن ١٨ (٩) ق . م . وهو في متحف دمشق .

(٢) - أورنيانا هي مغنية معبد المعبود شمش . وتمثالها الحجري (أ) موجود في المتحف الوطني بدمشق تجلس فيه على وسادة مزركشة وترتدي ثوبا شبيها بالسروال وشعرها مرسل على ظهرها . حيث كتب اسمها . كانت تشرف على الغناء والرقص في المعبد . يعد تمثالها من أنفس وأندر مجموعة التماثيل التي وجدت في ماري . أما تمثال ربة الينبوع (ب) الموجود في



ب



مملكة ايبلا

عرفت ايبلا وحضارتها الزاهرة منذ عهد قريب فقط . نتيجة الحفريات الأثرية التي أجريت ما بين ١٩٦٤ و ١٩٧٥ في تل يعرف بتل مردوخ . فقد كشف عن القصر الملكي فيه وعن كنز أثري هام جدا هو مكتبته الضخمة المؤلفة من آلاف الرقم الطينية المكتوبة بالمسمارية (١) .

لم تقرأ بعد معظم هذه الرقم . لكن ما

قرىء مؤخرا منها كشف عن الملك اغريس حليم الذي أنشأ القصر الملكي سنة ٢٤٠٠ ق . م . والملك آرانيوم (٢٣٤٠) الذي أخضع بلدة ماري . والملك اييريوم (ابراهيم) الذي عاصر سرجون الاكادي وانهزم امامه . كما كشفت الرقم ان ايبلا عرفت عهدين من الازدهار . الأول ما بين ٢٤٠٠ و ٢٢٥٠ ق . م . وكانت تحتل فيه المركز الثالث في الشرق الأدنى بين مصر وما بين النهرين . ثم



(٤) - مشهد من تقديم أضحية للآلهة . وهو من رسوم ماري الجدارية الملونة . هذه القطعة الأثرية موجودة في متحف اللوفر في باريس . وهي جزء من صورة واسعة في القصر الملكي بقيت بعض أجزائها .

(٥) - نسر من الذهب والحجر الكريم (اللازورد) وجد بين اللقى الأثرية في ماري . وهو من الهدية الملكية التي أرسلها ملك أور الى ملك ماري أوائل الألف الثاني ق . م .



(٣) - تماثيل ماري تتميز بإصرار الفنانين فيها على إبراز العيون التي يحفر موضعها أحيانا لينزل فيه الصدف أو العاج ثم تكحل بالسواد أو القار لتكون واضحة قوية النظرة . التمثالان المصوران نموذج لذلك . الأول (أ) هو للمعبودة عشتارات . والثاني (ب) هو لسليم شقيق الملك . والتمثالان من الألف الثالث ق . م . ويمثلان أكمل التمثيل فن ماري .

اصطدمت مع الاكاديين بسبب التجارة وهزمتهم . ثم استطاع نارام سين الاكادي حوالي سنة ٢٢٥٠ ق . م أن يفتحها ويهزم ملكها ابي سيش ويجعلها خرابا بالحريق الذي ما تزال بعض آثاره واضحة .

على ان ابيلا استردت بالتدريج مكانتها ما بين ٢٠٠٠ و ١٨٥٠ ق . م . أي في الوقت الذي برز فيه العموريون البابليون ، (شعب حمورابي) . من ملوك هذه الفترة الثانية ابي زيكو (١٨٥٠ ق . م) المعاصر لحمورابي . يَنتِ الرقم ان ابيلا شكلت امبراطورية سيطرت على ما بين وادي الفرات حتى مدينة جبيل على الساحل السوري . كما سيطرت على بلاد اشور قبل أن تدمر . وكانت حروبها تجارية تستهدف السيطرة على طرق التجارة المائية والبرية واحتكار تجارة المعادن من الاناضول والاشخاب من جبال لبنان وصناعة النسيج .

مملكة ماري

برزت مع ابيلا في فترة ازدهارها الاولى ثم بعد تدميرها سنة ٢٢٥٠ ق . م مملكة (مدينة) ماري التي بدأ اكتشاف آثارها على حوض الفرات الأوسط (قرب أبو كمال) منذ سنة ١٩٣٣ م وما يزال مستمرا . قراءة نقوشها الاثرية اوضحت ان ماري قديمة تتكون من تطبق عدة مدن . عرفت بدورها مرحلتين ازدهار أولاهما في الالف الثالث قبل عهد سرجون الاكادي ، والثانية في الالف الثاني ق . م .

لعل مؤسس السلالة الملكية الاولى في ماري هو آنسور (حكم مع خلفائه الستة ١٣٦ سنة) . ثم أعقبه حتى أواسط القرن ٢٥ ق . م

أربعة ملوك آخرين منهم ايكو شمش ولامجي ماري ، ثم جاء الملوك المعاصرون للعهد الاكادي منذ ميجير داغان . ونعرف منهم حوالي ٢٠ ملكا استمر عهدهم حتى القرن الحادي عشر بعد الميلاد أيام توكولتي - مير . ومن أبرزهم زميري ليم (٢) .

ثم دمرت المدينة تحت ضربات ملك اوروك لوجالزاكيزي . لكن الموقع التجاري الهام لماري سمح لها ان تعاود ازدهارها . وان خضع ملوكها لسيطرة حكام جدد هم ملوك أكاد . قبل أن تنفصل عنهم . لكنها في النهاية ضربت الضربة القاضية على يد حمورابي حوالي ١٧٥٠ ق . م الذي قتل سكانها وساق الباقي عبيدا ...

بالرغم من ان المدينة عادت موقعا تجاريا وذكرت في النقوش الاشورية ، فانها لم تستعد ابدا مكانتها الاولى ، واندثر ذكرها مع نهاية نينوى ثم بابل . وان ظهرت أيام السلوقيين كقرية سلوقية .

حضارة ماري

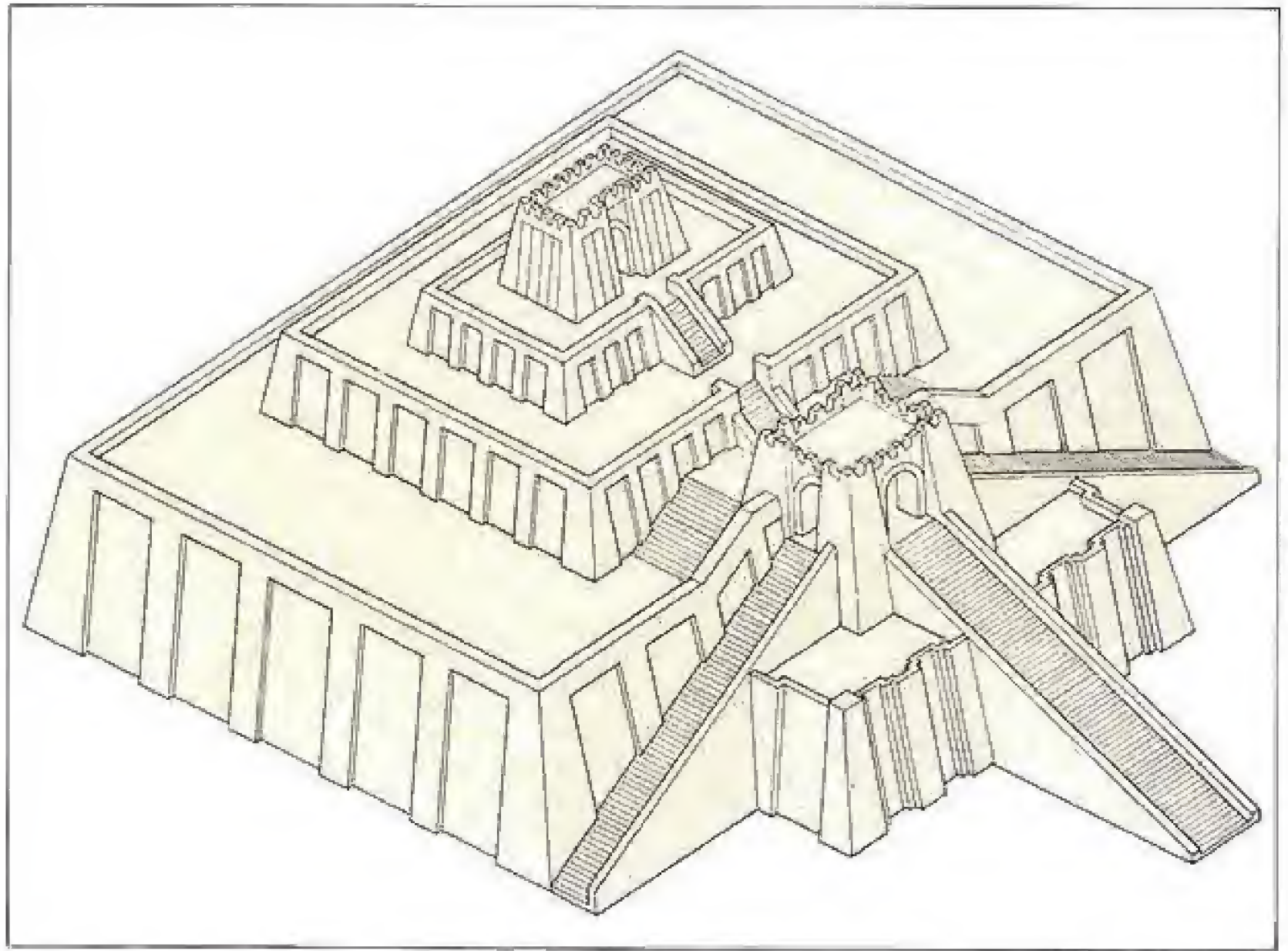
حضارة ماري فيها الكثير من المؤثرات السومرية . الطابع الغالب على معظم التماثيل واللقى والاختام والقبور والنحوت البارزة التي وجدت هو الطابع الديني . ثم المشاهد الحربية . لكنها تعبر عن مستوى فني رفيع . أبرز المعبودات هي عشتار (٣) وشمش وداغان . كانت في ماري زقورة قديمة . ولعل قصر زيمري ليم الواسع . الذي كان اشهر القصور في عصره . هو أهم الكشوف المعمارية التي كشفت في ماري . كما ان النقوش المكتشفة فيها (٢٥ الف نقش) هي من أهم وأكبر مجموعات النقوش الأثرية في العالم (٤) .

السَّبَابِلِيُّونَ

العربية . تمكن العموريون ، تحت لواء إشبى
ايرا ، من تأسيس سلالة قوية في إيسن
حكمت أكثر من قرنين . قبل ذلك بسنوات
قليلة كانت قد قامت في لارسا سلالة أخرى
ناطقة بالسامية . دام حكمها أكثر من ذلك
بقليل . حكمت السلالتان في وقت واحد
بلاد بابل طيلة قرن كامل ، حتى قامت في
بابل في مطلع القرن التاسع عشر ق . م .
وبدون مقاومة منهما دولة ثالثة ، كانت مؤلفة

تدمير أور وسقوطها سنة ٢٠٠٦ ق . م .
سمحا للعموريين بالظهور على المسرح
السياسي للهِلال الخصيب . لغتهم السامية هي
أحدى الدلائل على أنهم هجرة خرجت عن
طريق الخليج ووادي الفرات من الجزيرة

٢



١



الغزاة العيلاميين . ربما في
القرن الثاني عشر . وحمله معه
الى سوسا . حيث عُثر عليه في
شتاء ١٩٠١ - ١٩٠٢ . على رأس
النصب رسم نافر يظهر فيه
حمورابي . وهو يتسلم الأمر
بكتابة الشرائع من « شمس »
وهو المعبود الشمس أو معبود
العدالة . يبدو ان العيلاميين
ازالوا بعض اجزاء النص ، الا ان
معظمه ما زال موجودا في
نسخ اخرى من التشريع . وله

اصح السلم باضافة درجات
جديدة فوق القديمة . ورفع
مستوى الشرفة . لكن اكبر
زُقُورة معروفة (تبلغ ١٠٠ متر
مربع) هي التي بنيت في
دور - اونشاش في عيلام
بالقرب من سوسا . وهي
تختلف من عدة وجوه عن
زُقُورات ما بين النهرين .

(٢) - هذا النصب الصواني
لحمورابي نقله من بابل أحد

(١) - حسب رواية الملك
نابونيد (ملك ٥٥٥ -
٥٣٩ ق م) . بدأ أورنامو
(ملك ٢١١٣ - ٢٠٩٦ ق . م)
ببناء الزُقُورة العظيمة للمعبود
القمر في أور . على انه قد
يكون أشاد اس هذا الهيكل
على أنقاض برج قديم . من
عهد ما قبل السلالات . يقول
نابونيد ان شولجي ابن
اورنامو تابع البناء ولكنه لم
يكمله . اما نابونيد نفسه فقد

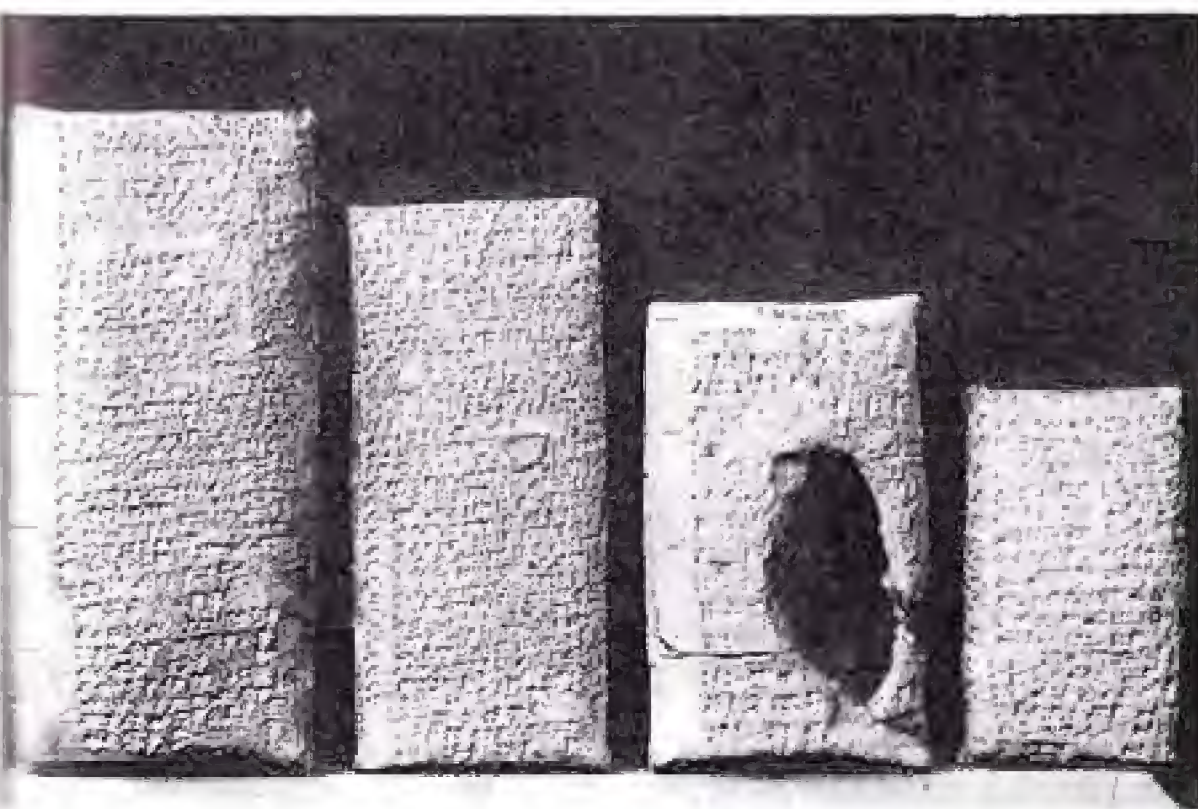
بالإضافة الى تأسيس هذه الامبراطورية التي لم تدم طويلا جدا ، قامت شهرة حمورابي بالدرجة الأولى على مجموعة الشرائع (٢) المنسوبة اليه . والمكتوبة باللغة الأكادية (٧) . وهي لسان سامي أصبح في تلك الحقبة ، انسجاما مع التطورات السياسية ، اللغة الرئيسية لبلاد ما بين النهرين . لكن اللغة السومرية بقيت وقفا على الاستعمال الديني بالدرجة الأولى ، مع

ان الحضارة التي عبرت عنها آلت الى الساميين . وواصلت ازدهارها معهم . كان حكم خلفاء حمورابي طويلا ومستقرا . ومع انه ورد ذكر الكاشيين الدخلاء في بابل في اواخر القرن الثامن عشر ق . م (القادمين على الأرجح من الجبال الواقعة في الشمال الشرقي) ، فمن الأكيد ان حملة الملك الحثي مرسيليس الأول سنة ١٥٩٥ ق . م أو بعدها بقليل ، هي التي أدت الى



٦

٧



٨

الأكادي منتصرا على الملك العسراقي الشرقي للولسوبي . شكلت ثلاثه السامية فترة متوسطة في التاريخ السومري فمهدت السبيل لسيادة البابليين الساميين . تمثال انتصاراته في متحف اللوفر .

(٧) - تبرز لوحات الآجر الباكورة أهمية الغنم والماعر في اقتصاد المجتمعات السومرية الأولى . وهي تستعمل الرموز اندالة على كلمات « تاجر » « وماشية » « وحمار » . أدخلت الحقبة الأكادية تحسينات على نوعية اللوحات الاولى في أول تدوين من نوعه للغة سامية . أي الأكادية القديمة . أما تطور تلك اللوحات الى لوحات بابل (اللوحات المصورة هنا بابلية قديمة) وآشور فقد بلغ ذروته في خط الكتابة ، في مكتبة آشور بانيبال في نينوى .

(٨) - يصور هذا النصب نارام سين (٢٢٥٤ - ٢٢١٨ ق . م)

(٦) - تحمل قاعدة قصر شلمنصر الثالث ، التي عثر عليها في نمرود . نقشا على سطحها الأفقي . يشتمل على فقرة منفصلة تشير الى حملتي الملك في بابل سنتي ٨٥١ و ٨٥٠ ق . م اللتين أعان فيهما الملك البابلي على حماية عرشه من الثورة . ويظهر في هذا الحفر النافر . على سطحها الغربي العمودي . شلمنصر (الى اليمين) وربما الملك البابلي (الى اليسار) . ومع كل منهما مرافق . وتظلل الجميع مظلة . يلفت النظر في هذا الرسم ان الملكين يظهران فيه وهما يتصافحان . وهو نادر في هذا الفن .

تدمير بابل الشهيرة وسقوط سلالة حمورابي .
يصعب ان يكون مرسيليس قد طمع بفتح
دائم . لذلك ملأت الفراغ فيما بعد سلالة
كاشية يقال انها حكمت مدى ٥٧٦ سنة .

عصور بابل المظلمة

امتصت بلاد بابل الكاشيين . وطيلة
عصر مظلم يزيد على ٢٠٠ سنة ، نكاد لا
نسمع عنهم شيئا يذكر . لكن في منتصف
القرن الرابع عشر ق . م تزوج الملك الكاشي
ابنة ملك آشور ، الا ان هذا الزواج أدى الى
سلسلة من الحروب ، انتهت باجتياح الملك
المحارب الاشوري البارز توكولتي نينورتا
الأول سنة ١٢٣٥ ق . م لبلاد بابل واحتلالها .
في الواقع احتفظ الكاشيون ببابل ، ولكن
سلاتهم سقطت أمام العيلاميين سنة
١١٥٧ ق . م .

لكن العيلاميين خسروا سيطرتهم السياسية
على بابل قبل نهاية القرن ، اذ انتقلت منهم
الى سلالة ايسن الثانية ، التي وضعت حدا في
عهد نبوخذ نصر الأول (ملك ١١٢٤ -
١١٠٣ ق . م) للتدخل العيلامي . ثم سقطت
سلالة ايسن بعد فترة من الاستقرار السياسي
دامت أقل من مائة سنة ، تلاها عصر من
القلق والاضطراب السياسي ، وضعت حدا له
سلالة بابل الثامنة سنة ٩٧٧ ق . م التي
عرفت كيف تحافظ ، طوال قرن كامل ، على
علاقات وثيقة مع دولة اشور النامية .

استنجدت بابل بشلمنصر الثالث ملك
اشور (٦) (ملك ٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م)
لمساعدتها على قمع فتنة فيها ، في حقبة
بدأت تظهر فيها القبائل الكلدانية القوية في
جنوبي بابل . وقد سبقت الحروب مع اشور

والفوضى في الداخل قيام تغلت بيلصر
الثالث (ملك ٧٤٤ - ٧٢٧ ق . م) كملك بارز
لأشور ، لم يلبث ان اعتمر التاج البابلي .
وقد حكم خليفته شلمنصر الخامس (ملك
٧٢٦ - ٧٢٢ ق . م) على كلا البلدين طوال
خمس سنوات . لكن كلا من سرجون الثاني
(ملك ٧٢١ - ٧٠٥ ق . م) وسنحاريب (ملك
٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) وجدا في الكلدانيين اعداء
الداء لهما .

تقلبت أحوال بابل تقلبا عظيما في القرن
السابع ، حتى ظهور « ابن أبيه » المجهول
الهوية نابو بولصر (ملك ٦٢٥ - ٦٠٥ ق . م)
الذي دشن عهدا عظيما من الحضارة البابلية
في ظل السلالة الكلدانية .

ظهور البابليين المستحدثين

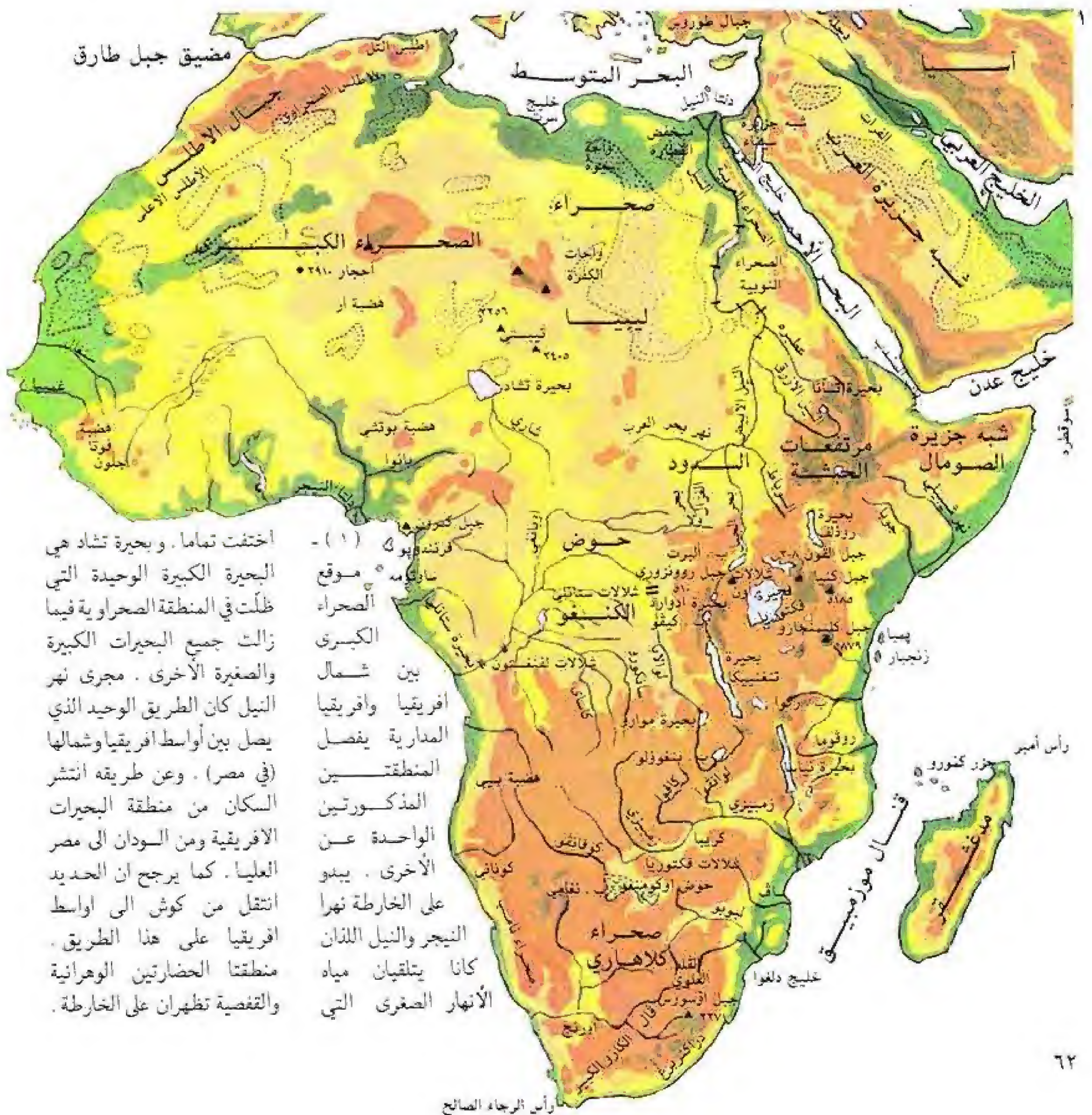
أعانت بابل الميديين على دحر نينوى
والاشوريين سنة ٦١٢ ق . م ، ودمر قائدها
العظيم نبوخذنصر الثاني (ملك ٦٠٤ -
٥٦٢ ق . م) القدس وسبى أهاليها ، وأقام
أنصابا ومباني جعلت من بابل احدى عجائب
الدنيا السبع ، وهذه هي حقبة الجنائن المعلقة .
اغتيال ابن نبوخذنصر ، وأخذ انحلال
بابل يتفاقم في عهد نابونيد التقي والمولع
بالآثار (١) ، وهكنا سقطت بابل ، وبدون
مقاومة ، أمام هجمات الملك الاخميني
الفارسي قورش الكبير (حوالي ٦٠٠ -
٥٢٩ ق . م) ثم دمرها احشورش جزئيا سنة
٤٨٢ ق . م . وكان من الممكن أن يعيد
الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) بناءها
لو لم يمت هنالك . ومنذ ذلك الحين أسدل
ستار التاريخ عليها ، مع ان مدارسها الفلكية
بقيت حية في الحضارات التي تلتها .

افريقيا في العصور الأولى

شواطئ البحر الأحمر حتى الأطلس بعرض ١٦ درجة تقريبا (١٠ - ٢٦) ، وهي لا تفصل جغرافيا فقط قسمها المطل على حوض البحر المتوسط عن باقي القارة ، ولكنها أيضا تفصلها عرقا وحضارة وتاريخا بعضها عن بعض . فشمال افريقيا كله من مصر حتى المغرب جزء من منطقة الحضارات القديمة (١) ، بينما افريقيا فيما وراء الصحراء قارة أخرى ظلت في عتمة التاريخ حتى العصور

اسم افريقيا أطلقه الرومان في القرن الثاني ق . م على ما بين طرابلس وأواسط الجزائر حاليا ، ثم صار اسما للقارة كلها في العصور الحديثة .

الصحراء الكبرى تخترق افريقيا من



الحديثة ، وان كانت لها تطوراتها البشرية والتاريخية الخاصة والمستمرة عشرات الالوف من السنين .

دلت الأبحاث والآثار الطبيعية والانسانية ان هذا الحاجز الصحراوي الاعظم لم يكن موجودا او على الاقل لم يكن منطقة جفاف ورمال قبل عشرة آلاف سنة ، وان قصة الانسان في هذه القارة كانت مختلفة عما قد توحى به الالوضاع الجغرافية والبشرية اليوم .

بقايا الصور التي تركها الانسان القديم في الصخور الصحراوية (موقع تسيلي مثلا وموقع جبارين) (٢) ، وآثار الوديان التي جفت ، وحتى البحيرة التي لا تزال قائمة (بحيرة تشاد) والتي تتقلص باستمرار (٥) ، كلها شواهد على حداثة عمر الصحراء .

افريقيا مهد الانسان

قبل مئات الالوف من السنين ، وجدت



ب



١٢



ت

(٢) - عثرت بعثة هنري لوث الفرنسية قبل حوالي ثلاثين سنة على عدد من الرسوم والنقوش الصخرية في منطقة الحجر والايير في الصحراء الكبرى ترجع في تاريخها الى الفترة الممتدة من ٦٠٠٠ الى ٢٠٠٠ ق . م . ثم توالى اكتشاف الرسوم في مئات المناطق المتناثرة في حزام عريض يمتد من جنوب وهران حتى الواحات المصرية . تمثل رسوم الكهوف والصخور الحيوانات التي كان الانسان يعتمد عليها في حياته وتنقله . كما يرى في بعضها الانسان وهو يقوم بالاهتمام بها . اختلف الباحثون في تحديد تواريخ دقيقة لهذه الرسوم . هناك تقسيم تقريبي يجعلها في خمسة ادوار ، قديم من عصر الصيد ، ورسومه

الى ٦٠٠ قبل الميلاد . ويرى فيه الأيل ذو القرون الطويلة (الحيرم / الودان) ، في (ت) حفر يمثل زرافات ضخمة في جبال الايير يعود الى حوالي ٢٠٠ قبل الميلاد .

هو من منطقة جبارين (تسيلي حجار) ويعود الى ٣٥٠٠ ق . م . وترى فيه الأبقار ترعى في تلك المنطقة وعدد من الرجال يحاول حصرها في مكانها . في (أ) رسم حفر في جسيرات أيضا من منطقة تسيلي . يعود

منحوتة ، وثان ملون ينتهي قبل حوالي ٨ آلاف سنة ، وثالث من عصر الرعاة بين ٥ آلاف الى ٢٠٠٠ ق . م . ورابع ظهرت فيه صورة الحصان (حوالي ٧٥٠ ق . م . وخامس فيه صورة الجمل بدأ مع عصر الميلاد . رسم (ب)

في انحاء القارة وبخاصة في شرقيها وشمالها مجموعات بشرية الملامح . الأدلة والبقايا الكثيرة التي وجدها العلماء رجحت لدى معظمهم ان افريقيا كانت مهد الانسان . وان الانسان المنتصب ظهر فيها قبل حوالى ستين الف سنة . وان الانسان العاقل انتشر فيها فيما بين ٢٠ و ١٥ الف سنة . قبل ذلك وخلالها . عرف الانسان الافريقي استخدام الصوان (٤) . ثم سكنى الكهوف . وصيد الغذاء . واستخدام النار .

٣



٤



٥



(٣) - أبقار الجرمنيتين التي ذكر هيرودوت ان لها قرونا طويلة منحنية الى الامام مما يجعلها تسير الى الخلف عند رعيها . يبدو انه وصف مبالغ فيه عند مقارنتها بما تبرزه رسوم الكهوف القديمة في جنوب ليبيا . وذلك كما يظهر في لوحة بكهف جبارين في تسيلي بالصحراء الكبرى .

(٤) - كاشطة حجرية من العصر الحجري الحديث عثر عليها في ليبيا . هذه هي الأدوات التي كان يعتمد عليها انسان العصر الحجري في صيده

منذ سبعة او ثمانية آلاف سنة . حين بدأت العناصر البشرية . التي كانت تمارس جمع الطعام والصيد . في الافول . وتنتشر بدلا منها الجماعات المتجهة الى الاستقرار من أجل زراعة الغذاء وتربية الحيوان لاستغلاله . كانت هناك أربع جماعات عرقية أفريقية قد وطدت اقدامها في هذه القارة . هي : البوشمن الأولون في الأجزاء الجنوبية والشرقية .

وقنصه وقطع الأخشاب والحف . وقد عثر على هذه الكاشطة مع غيرها فريق من رجال الآثار الليبيين في منطقة جرمنت في الفزان .

(٥) - بحيرة التشاد هي البحيرة الوحيدة التي لا تزال موجودة في الصحراء الكبرى . وقد تقلص حجمها وضاعت مساحتها خلال الآلاف الستة الماضية . لا تعرف هذه البحيرة حدودا معينة . فمساحتها تتبدل بنسبة هائلة حسب غزارة المياه . وترافق ارتفاع المياه فيضانات على نطاق واسع .

الأقزام الأوائل في الاقاليم الغابية من حوض الكونغو وساحل غانا .

الهاميون - القوقازيون الذين انتشروا في الشمال والشمال الشرقي ، دخلاء على القارة .
الزنوج ، وهم الأقدم ، انتشروا في المناطق الباقية وعلى هامش المناطق الغابية الاستوائية ، ثم توغلوا فيها منذ حوالي ٨ - ٩ آلاف سنة ، واختاروا المناطق الرطبة والقريبة من المياه في الغرب .

الصحراء الفاصلة :

زادت أعداد الجماعتين الأخيرتين حتى طغت على الجماعات الباقية وفصلت بينهما وبين هذه الجماعات الصحراء الكبرى التي كانت تتسع بالتدريج تحت ضغط تطورات المناخ وانسحاب العصر المطير . الخط الوحيد تقريبا الذي ظل يربط بين الجماعات الحامية والقوقازية والزنجية هو وادي النيل .
التحديات التي لقيها سكان هذا الوادي اضطرتهم الى استغلال الارض ، وتنظيم الري ، وتطوير نظام اداري يضمن الامر من منذ الالف الخامس والرابع ق . م . ولم يلق الزنوج هذه التحديات لقلّة عددهم وكثرة الغذاء المتاح ، فلم يلجأوا الى الاستقرار ولم تتطور لديهم مستويات مماثلة من الحضارة .
قبيل القرون الميلادية بقليل ، عرفت افريقيا تطورين هامين ، هما :

١ - انتشار جماعات البانتو ، وهي اخلاط من الزنج والهاميين تكونت في مناطق البحيرات الافريقية ، ثم انساحت نحو الغرب والجنوب والشرق من القارة ، حاملة معها طرائق الزراعة ونتاج الغذاء .

٢ - دخول افريقيا عصر الحديد ، وربما

دخلها عن طريق وادي النيل وحضارة كوش .
فقد كان الحديد قد وصلهما في القرنين الثامن والسابع ق . م . بعد أن شاع في الشرق الأدنى حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م .

الشمال الافريقي

القسم الشمالي الشرقي من افريقيا ، وبخاصة مصر ، جزء من الحضارات المتوسطية القديمة . أما باقي الشمال الافريقي فقد عرف ما بين ٥٠ - ٢٠ ألف سنة ق . م . انسان النياندرتال ، صاحب الحضارة العتيرية (عتير بجنوبي تونس) . ثم أخذ يختفي ليحل محله الانسان العاقل . ونرى بقايا عصره الحجري القديم في الحضارة الضبعانية (نسبة لكهف الضبعة في ليبيا) . ما بين ١٠ و ١٢ ألف سنة ق . م . انتشر جنس البحر الأبيض المتوسط . العصور الحجرية والمتوسطية تكشف من آثاره :

١ - الحضارة الوهرانية (حوالي ١٥ ألف سنة ق . م) ، في السواحل والتلال المجاورة لها . عثر على آثارها في كهف هوا الفتايح والجبل الأخضر في ليبيا .

٢ - الحضارة القفصية : التي ظهرت بين ٩ و ٥ آلاف سنة شرقى جبال اوراس ، ويبدو انها أثرت في الحضارة الوهرانية .

بين الألف الثالث والثاني ق . م . وفد على المغرب جماعات عرف أشهرها في النقوش المغربية باسم / ليو / (ومنها اسم ليبيا) ، امتزجت بصانعي الحضارتين السابقتين ، وتنتج عن هذا المزيج مجموعة البربر ، وهي المجموعة البشرية واللغوية التي أهلت الشمال الافريقي في العصور التاريخية .

المملكتان القديمة والوسطى في مصر

مكنت الآثار الموجودة في مصر العليا من تحديد هوية حضارات متعاقبة ، تعود الى ما قبل التاريخ ، أطلق عليها اسم حضارة البداري « وتقاذا الأولى » « وتقاذا الثانية » . لكن ندرة وجود الآثار في مصر السفلى تجعل من

الصعب اصدار أي حكم تاريخي صحيح . يبدو ان مملكتين مختلفتين قد نشأتا في مصر العليا ، ومصر السفلى (٢) ، وان توحيد البلاد كان نتيجة انتصار الأولى على الثانية حوالي ٣١٠٠ ق . م . لكن استمر سكان مصر القديمة في دعوة بلادهم بالقطرين (مصريم = جمع مصر) .

ملوك السلالة الأولى المتألهون
يعرف أول ملوك السلالة الحاكمة الأولى



- ▲ اهرام
- مملكتان
- مملكتان
- الحد الأقصى لامتداد
- الامبراطورية المصرية (المملكة الجديدة حوالي ١٤٥٠ ق . م)
- المناطق الخصبة

الأراضي ، بالإضافة الى طبقة من الطمي الرسوبي الخصيب . وكان ازدهار مصر الزراعي يعتمد على تقلبات أحوال النهر التي كان من الممكن التنبؤ بها .

(٢) - كانت نظرة الناس الى الملك في عهدي المملكتين القديمة والوسطى تختلف كل الاختلاف . وهذا ما كان ينعكس في التماثيل الملكية . فهذا التمثال للملك منقرع من السلالة الرابعة (أ) برفقة الملكة هو عبارة عن تصوير مثالي للملك المتأله . لكن الحقبة التالية للعصر الأوسط شهدت ظهور طراز أعمق وأكثر واقعية . كما يتبين من التمثال الخاص بسنوسرت الثالث (ب) .



(١) - جاء توحيد مصر نتيجة للحرب . وقد دونت انتصارات الحكام الأولين على لوحات طقسية . كهذه اللوحة التي تصور مينا ، أول حاكم من حكام مصر بكاملها .

(٢) - تنقسم مصر بصورة طبيعية الى منطقتين : مصر السفلى التي تتألف من منطقة دلتا النيل . وحوض النيل الضيق الطويل المعروف بمصر العليا والذي تحيط به الصحراء من كلا الجانبين . كان فيضان النيل السنوي يجلب الماء لري

وفاتح مصر السفلى تقليديا باسم مينا (١) ، وينسب اليه تأسيس العاصمة القومية ممفيس ، الى الجنوب من دلتا النيل . كان الملك الجالس على العرش يعتبر التجسيد الحي للمعبود الصقر حورس . في عهد السلالتين الأولى والثانية ، أخذ المزارعون يستعملون المحراث على نطاق واسع ، وأدخل الري على الأرجح ، كما قامت حكومة قومية ، واستنبطت الكتابة التصويرية .

مع قيام السلالة الثالثة ، بدأت الحقبة المعروفة بالمملكة القديمة (٢٦٨٦ ق . م - ٢١٨١ ق . م) . كان أبرز ملوك السلالة الثالثة زوسر ، الذي من أجله بني مجمع الهرم المدرج (٧) . في عهد سنفرو ، مؤسس السلالة الرابعة ، بُني أول هرم بالمعنى الصحيح ، واتقن فن بناء الأهرام في عهد خلفائه خوفو وخفرع ومنقرع . كان بناء الأهرام (٨) يتطلب تكاليف باهظة



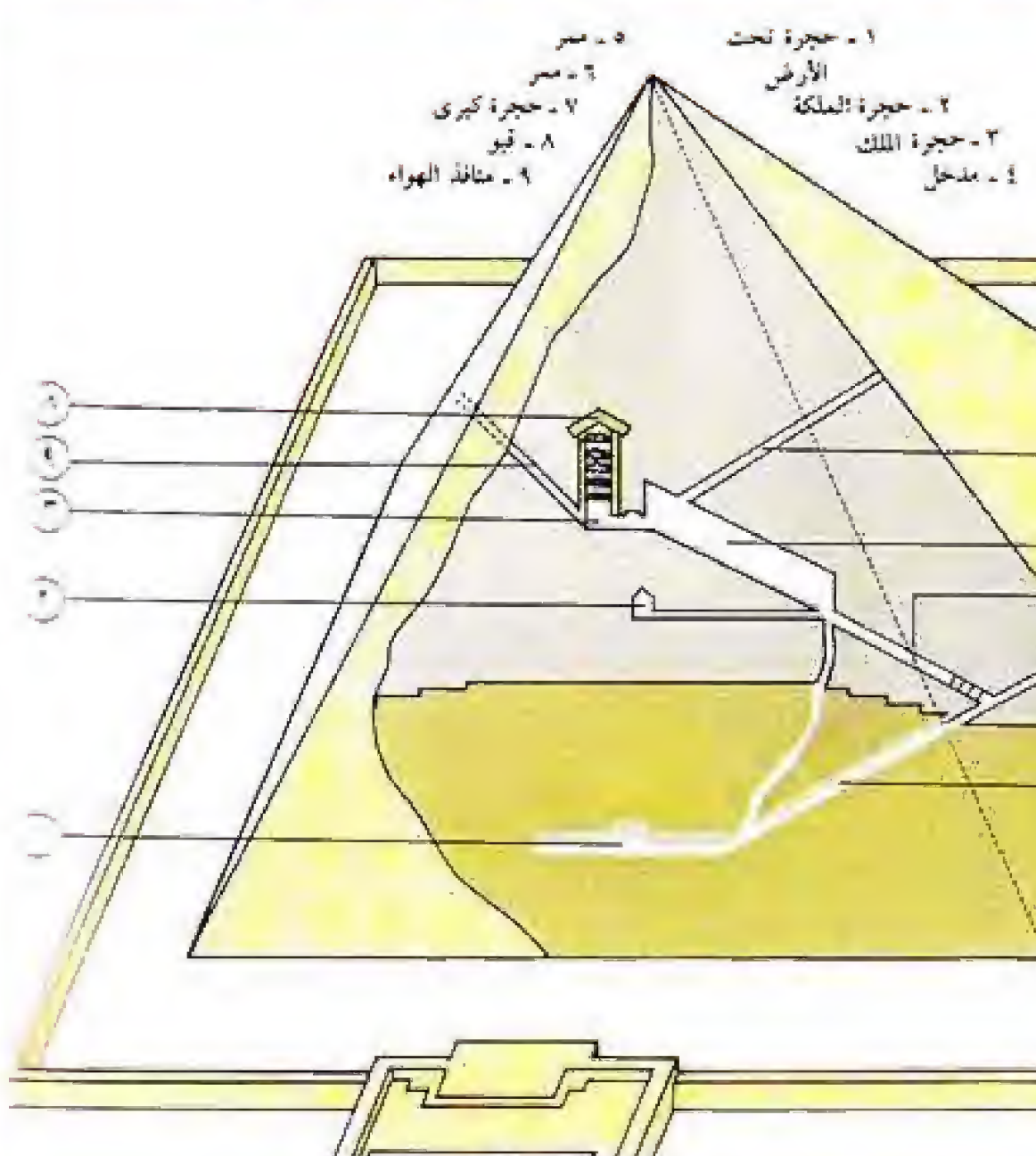
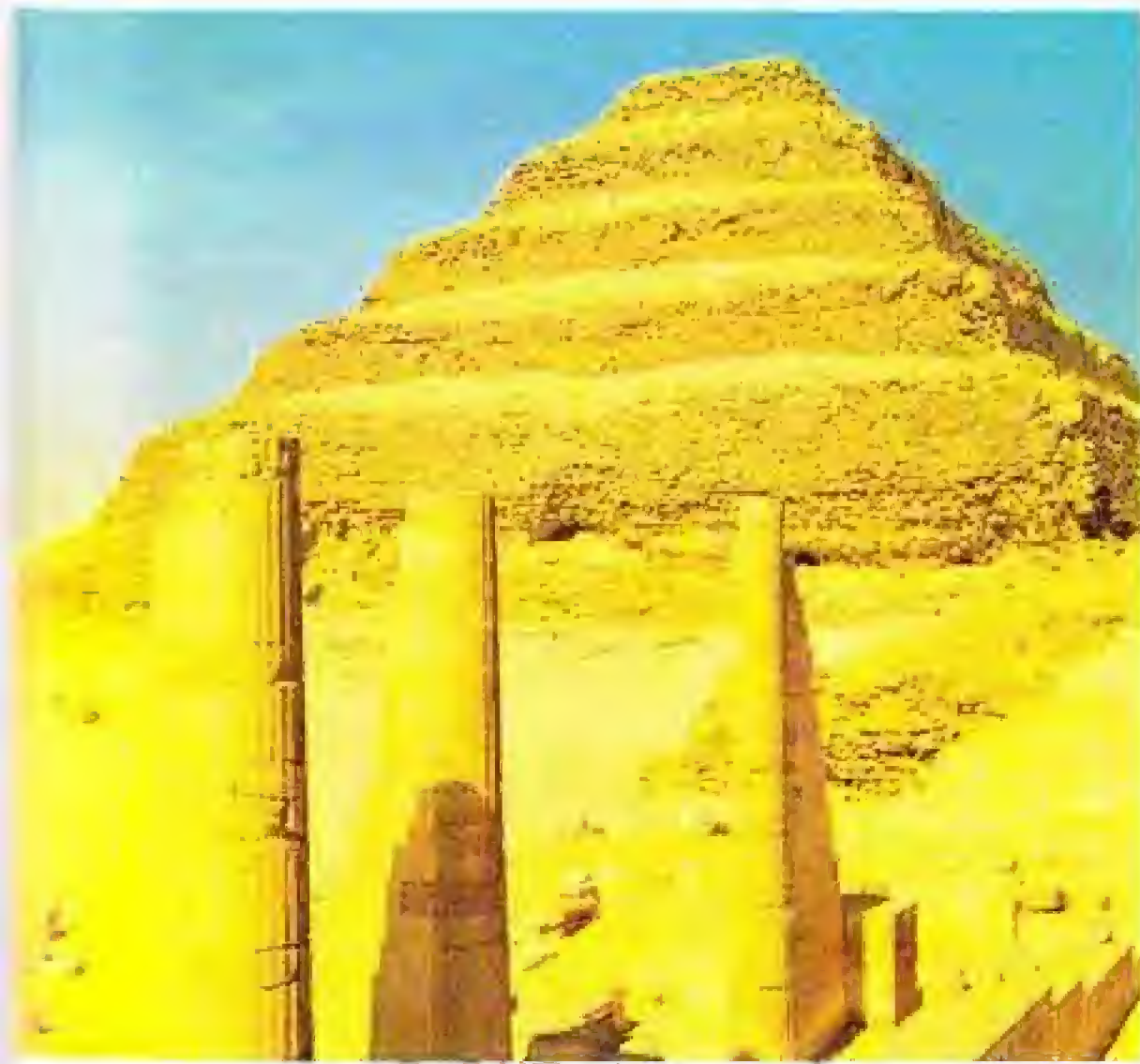
(٤) - كان الكتبة ، كهذا الذي يظهر في تمثال عائد للمملكة القديمة ، حجر الاساس في الادارة المصرية وعملها المنظم . كان البردي يستعمل لتدوين الحسابات اليومية ، الا انه لم يبق من هذه الحقبة الا قطع محدودة العدد جدا من بقاياها .

(٥) - يظهر الملك منتو حوتب الثاني وقد عانقه رع الرب الشمس في رسم نافر من معبد الملك الجنائزي في الدير البحري . وقد أعد الملك ايضا أضرحة أخرى من أجل نفرو ، أخته وملكته ، ولعدد من جواريه . بنى ملوك لاحقون هياكل مشابهة تجاه طيبة على الضفة الغربية من النيل .

وتنظيماً محكماً . لذلك أدى ضعف سلطة الملك . في اواخر السلالة الرابعة . الى التخلي عن التقنيات الباهظة التكاليف .

ابان عهد السلالة الخامسة . استعادت عبادة الرب الشمس رع مكانتها على الصعيد القومي . وباشرا الحكام بناء هياكل شمسية لعبادته . في اواخر السلالة الخامسة . نُقشت نصوص على جدران المدافن في الاهرام الملكية . لضمان انتقال روح الحاكم بأمان

الى العالم الآخر . وفي عهد السلالات الرابعة والخامسة والسادسة . جُردت حملات ضد أفراد القبائل في شبه جزيرة سيناء . وأُرسلت قوات كبيرة الى بلاد النوبة لاقتزاز العاج والذهب وسواهما من المواد النفيسة . او الاتجار بها . في نهاية عهد السلالة السادسة . أدى نمو سلطة الحكام الاقليميين (أو الملوك) الى تدهور سلطة الهيئة الحاكمة في ممفيس . فظهرت سلالات مناوئة في هرقلوبوليس



امحوتب الذي جرى تاليه فيما بعد .

(٨) - الهرم الأكبر الذي بناه خوفو .

الملوك الثاني من السلالة الرابعة .

في الجزيرة . هو نموذج مثالي لفن بناء الأهرام . أقيم الهرم من كتل من الحجر الكلسي الأبيض .

(٦) - كان من المعتقد ان الأشياء التي يحتاج اليها المرء في هذه الحياة هي ذاتها . التي يحتاج اليها في الحياة الأخرى . لذلك كانت توضع في القبور أشياء عادية . تشمل حتى تماثيل للخدم والحراس . كهؤلاء الجنود الظاهرين في الصورة .

(٧) - كان هرم الملك زوسر المدرج في سقارة بممفيس أول بناء حجري ذي شأن في مصر . يقال ان مصممه هو وزيره

وطيبة مما أغرق البلاد في حروب أهلية .
واستغل رجال القبائل في سيناء هذه الفوضى
للتوغل الى مناطق الدلتا الخصبة .

انتهاء فترة من الفوضى

تعرف هذه الحقبة المضطربة وغير المؤثقة
بأسم المملكة الوسطى الأولى (حوالى ٢١٨١ -
٢٠٥٠ ق . م) . تغلب أمير طيبة منتوحوتب
الثاني من السلالة الحادية عشرة (٥) على
منافسيه ووحيد مصر تحت حكمه . تاركا
للولاة المتعديدين سلطاتهم الواسعة . وودشن
المملكة الوسطى في مصر (حوالى ٢٠٥٠ -
١٧٨٦ ق . م) . بنى منتوحوتب الثاني
هيكلا وقبرا جنائزيا لنفسه في الدير
البحري . على الضفة الغربية من النيل . تجاه
طيبة . خلف منتوحوتب الرابع حفيد
منتوحوتب الثاني وزيره امنمحات الأول
في ظروف غامضة فأسس السلالة الثانية عشرة
حوالى ١٩٩١ ق . م .

أراد امنمحات الأول ان تكون له عاصمة
جديدة فجعلها في لشت . الى الجنوب من
ممفيس . لأن طيبة كانت تبعد كثيرا الى
الجنوب . مما يمنع قيامها بمهام عاصمة
فعالة . ولكي يوطد سلطته على العرش .
روج نبوءة زائفة حول توليه الحكم وعين ابنه
سنوسرت الاول شريكا له في الحكم . على
الرغم من هذه الاحتياطات . اغتيل امنمحات
الاول بعد ثلاثين سنة من الحكم . الا ان ابنه
استطاع ان يحتفظ بالعرش . وفي عهد
سنوسرت الثالث . قُضي على شوكة أشراف
المناطق الذين كان من شأنهم أن ينافسوا
الملك على السلطة . كان امنمحات الأول قد
بدأ اجتياح بلاد النوبة . فأكمل هذا التوسع

في عهد سنوسرت الثالث الذي أقام الحدود
الجنوبية عند سمنا . وباستثناء حملة واحدة
معروفة جنوب فلسطين . يبدو انه لم تتخذ
أية خطوات لممارسة سيطرة مباشرة في
فلسطين او سوريا . الا ان الروابط التجارية
بقيت متينة . كذلك تبنى حكام السلالة
الثانية عشرة برنامجا واسعا لاستصلاح
الاراضي في منطقة الفيوم .

تميزت المملكة الوسطى الثانية (حوالى
١٧٨٦ - ١٥٧٠ ق . م) بانحسار سلطة الحكومة
المركزية . ففي عهد السلالة الثالثة عشرة
اقتحم غزاة قادمون من الشمال الشرقي
التحصينات المصرية وتسللوا الى الريف . وقد
دُعي هؤلاء عموما بالهكسوس . مع ان هذه
اللفظة ينبغي ان تطلق على زعمائهم فقط .
سيطر الهكسوس مع مرور الزمن على معظم
انحاء البلاد . بفضل المعدات العسكرية
الجديدة . كالعربات مثلا . وأسسوا السلالة
الخامسة عشرة (حوالى ١٦٧٤ - ١٥٧٠ ق . م) .
مع انه من المستبعد جدا ان يكونوا قد مارسوا
الاشراف المباشر على طيبة والجنوب . لكن
من الأرجح ان تكون طيبة قد اضطرت الى
الاعتراف بسلطة الحاكم الهكسوسي في
عاصمته الجديدة أواريس في الدلتا .

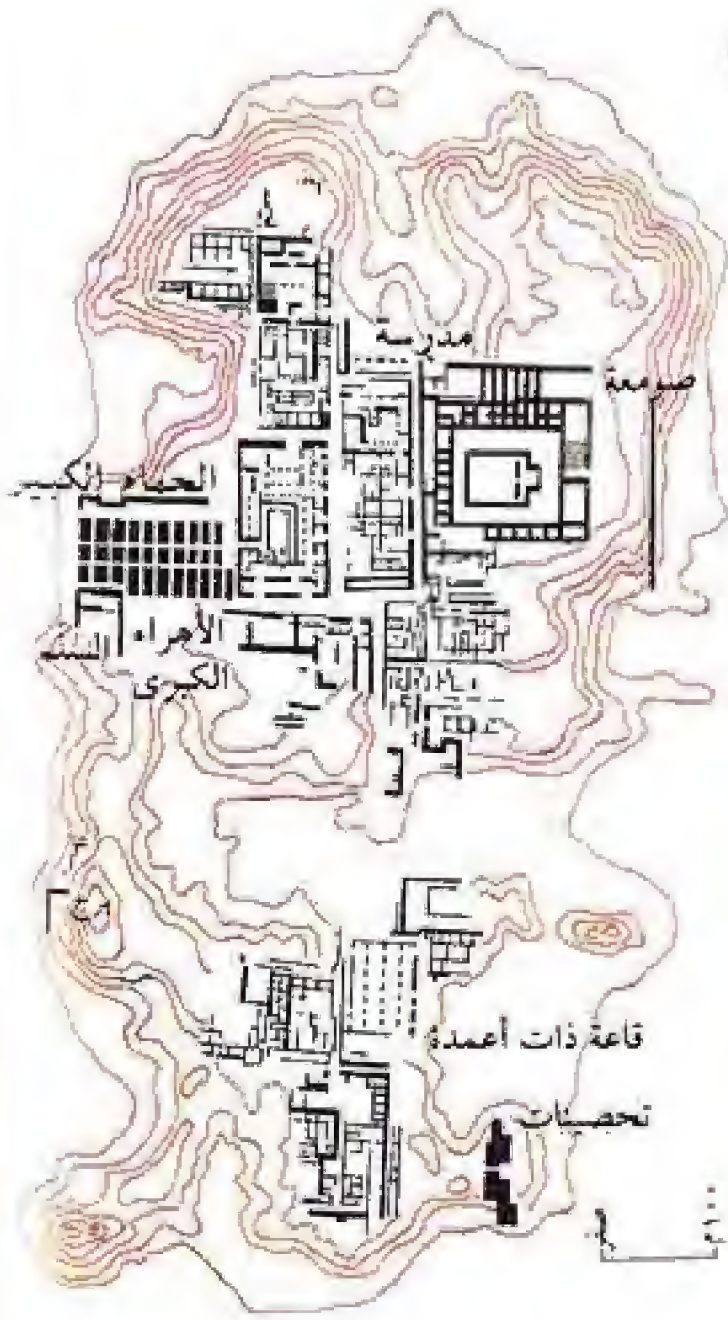
طرد الغزاة

لم يحكم الهكسوس كغرباء . بل تبنوا
الالقب المصرية والحضارة المصرية . لكن
عندما ضعفت سلطتهم . تجزأ أمراء طيبة
المنتمون الى السلالة السابعة عشرة على رفض
حكمهم . وبعد عدة حملات . نجح كاموس
وخليفته واخوه أحمس في الاستيلاء على
عاصمتهم أواريس وطردهم من البلاد .

الهند القديمة « حتى ٥٠٠ ق.م. »

للحضارة الهندوسية أو الهَرَبِيَّة (نسبة الى مدينة هَرَبَا) في وادي الهندوس الواقع معظمه اليوم في الباكستان ، الا ان تلك الحضارة امتدت غربا حتى الحدود الايرانية ، وشرقا الى ما وراء دلهي ، وجنوبا الى خليج بروتش (١) . كانت مدنها الرئيسية هي : هَرَبَا في البنجاب ، وموهنجو - دارو في السند ، ولكن كان لها ايضا عدد من المدن الصغرى ، كميناء لوثال مثلا .

أقدم الدلائل على ظهور حضارة ذات كتابة في الهند تعود الى حوالي عام ٢٣٠٠ ق . م . وذلك عندما خرجت حضارة نهر الهندوس (= السند) من عصور ما قبل التاريخ ودخلت التاريخ . كانت المراكز الرئيسية



عن المنطقة السكنية . تبين هذه الخريطة لموهنجودارو شبكة البلد في القسم الاسفل من المدينة . والمنازل التي تختلف كثيرا من حيث الحجم . فمنها ما يتألف من غرفة واحدة . ومنها ما يضم أكثر من عشرين غرفة .

(٣) - بنيت المدينة الهندوسية القديمة موهنجودارو وفقا لتصميم منظم ، مع شوارع

قلعة على مرتفع ، تقوم حوله مساكن الأهلين ، ممتدة الى شرقي القلعة . كانت القلعة مركزا لمعظم المباني العامة الكبرى . ففي قلعة موهنجودارو مثلا ، نجد الحمام الكبير ، ومخازن الحبوب وبساتين . يحتمل انها مدرسة بحكم شكلها (فهي عبارة عن مجموعة من الساحات والممرات والحجرات المنفصلة) . أما المدينة السفلى ، فكانت عبارة

كانت حضارة الهندوس متجانسة ، مما يوحى بسيطرة مركزية ، كانت طبيعة المنطقة تسهل السيطرة السياسية ، اذ ان هذه الحضارة ازدهرت في المناطق الجافة نسبيا . (خلافا للغابات الاستوائية الممطرة) التي كان من الممكن زراعتها بدون ادوات حديدية .

(٢) - كانت مدن نهر الهندوس الكبرى ، جميعها ، تتألف من

(١) - تبين المناطق الملونة باللون البني على الخارطة انتشار حضارة نهر السند التي امتدت من الجنوب الشرقي باتجاه الساحل الى ما وراء خليج بروتش ، وشرقا الى ما وراء دلهي الحالية . أما الانتشار غربا باتجاه بلوشستان ، فلا يظهر في الصورة . على امتداد هذه المساحة الضخمة ، (تبعد روبرار عن لوثال حوالي ١٦٠٠ كلم)

طبيعة المستوطنات

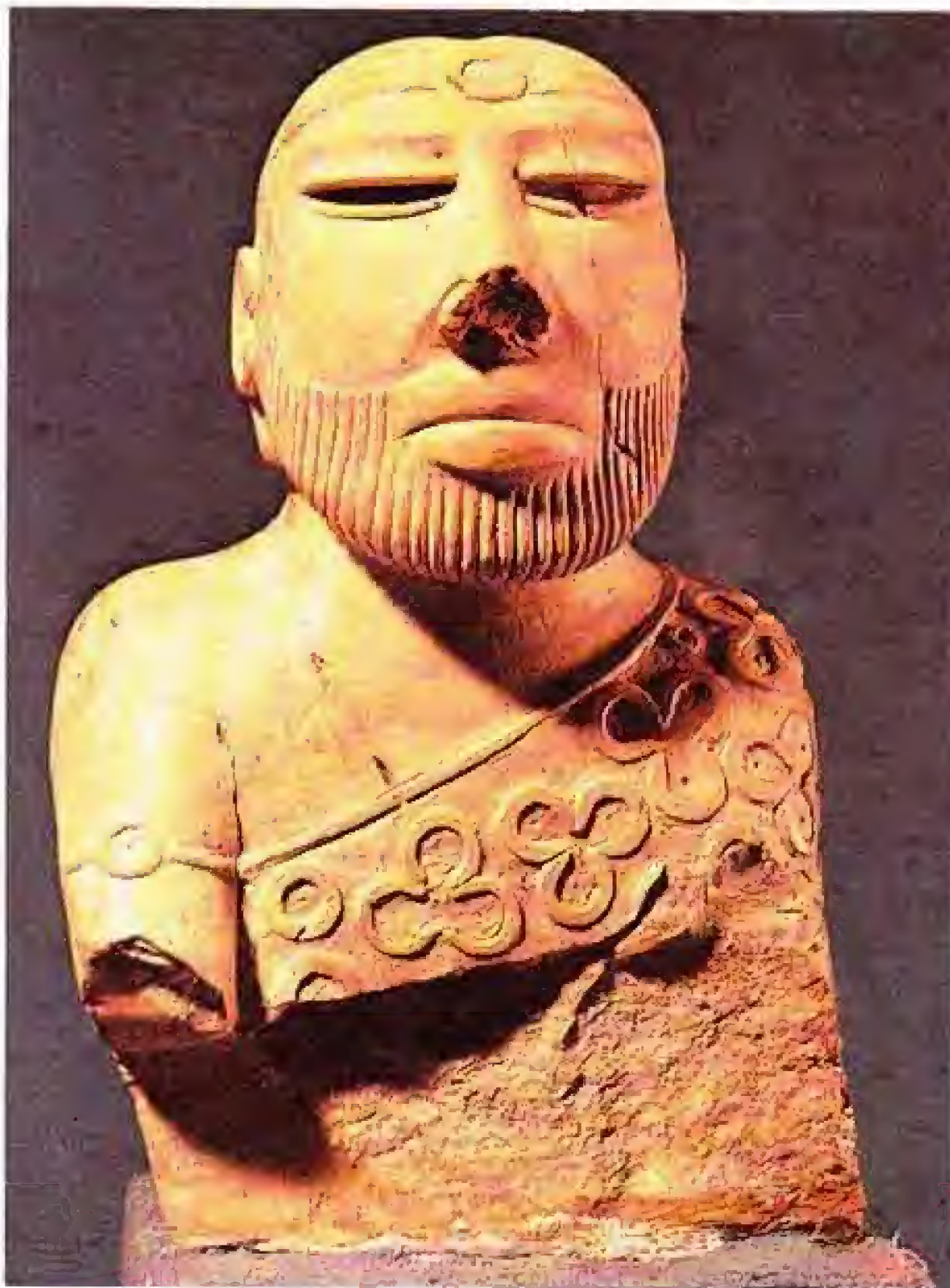
تدل هذه المدن على تصميم مدني متقدم . وتشير الآثار الباقية الى حضارة مادية راقية ومتنوعة (٣) .

من البديهي القول ان مثل هذه الحضارة المتقدمة كانت تحتاج الى نوع من الكتابة . وقد عثر على الآلاف من الأختام المصنوعة من حجر الطلق (أو حجر الصابون) (٧) والتي احتوت ، بالإضافة الى رسوم الحيوانات

والناس والمعبودات ، على كتابات قصيرة بخط تصويري لم تفك رموزه بعد .

نهاية حضارة نهر (الهندوس)

معلوماتنا عن نهاية حضارة نهر الهندوس هي أقل حتى من معلوماتنا عن نشأتها . فبعد ان ازدهرت لمدة خمسة أو ستة قرون (٢٣٠٠ - ١٧٥٠ ق . م) دون ان يطرأ عليها أي تغير يذكر ، تلاشت تماما عقب فترة



(٤) - هذا التمثال من الحجر الكلسي هو أحد المنحوتات القليلة التي وصلتنا من حضارة نهر الهندوس . يبلغ



ارتفاعه ١٩ سم ويقدم لنا تمثال شخص ذي لحية وجبين منخفض مرتد الى الوراء وعينين مستطيلتين ، وشفتين كثيفتين . تم المنحوتة عن ذوق وفن رفيعين .

متقاطعة على زوايا قائمة ، ومنازل تطل على الشوارع . عثر ايضا على مخازن حبوب متطورة .

(٥) - تظهر في معظم الأختام الآتية من موهنجودارو رسوم حيوانات ، بعضها طبيعي والآخر مركب أو خيالي . يبين هذا الختم معبودا ذا ثلاثة رؤوس وقرون . يجلس بوضع يذكرنا

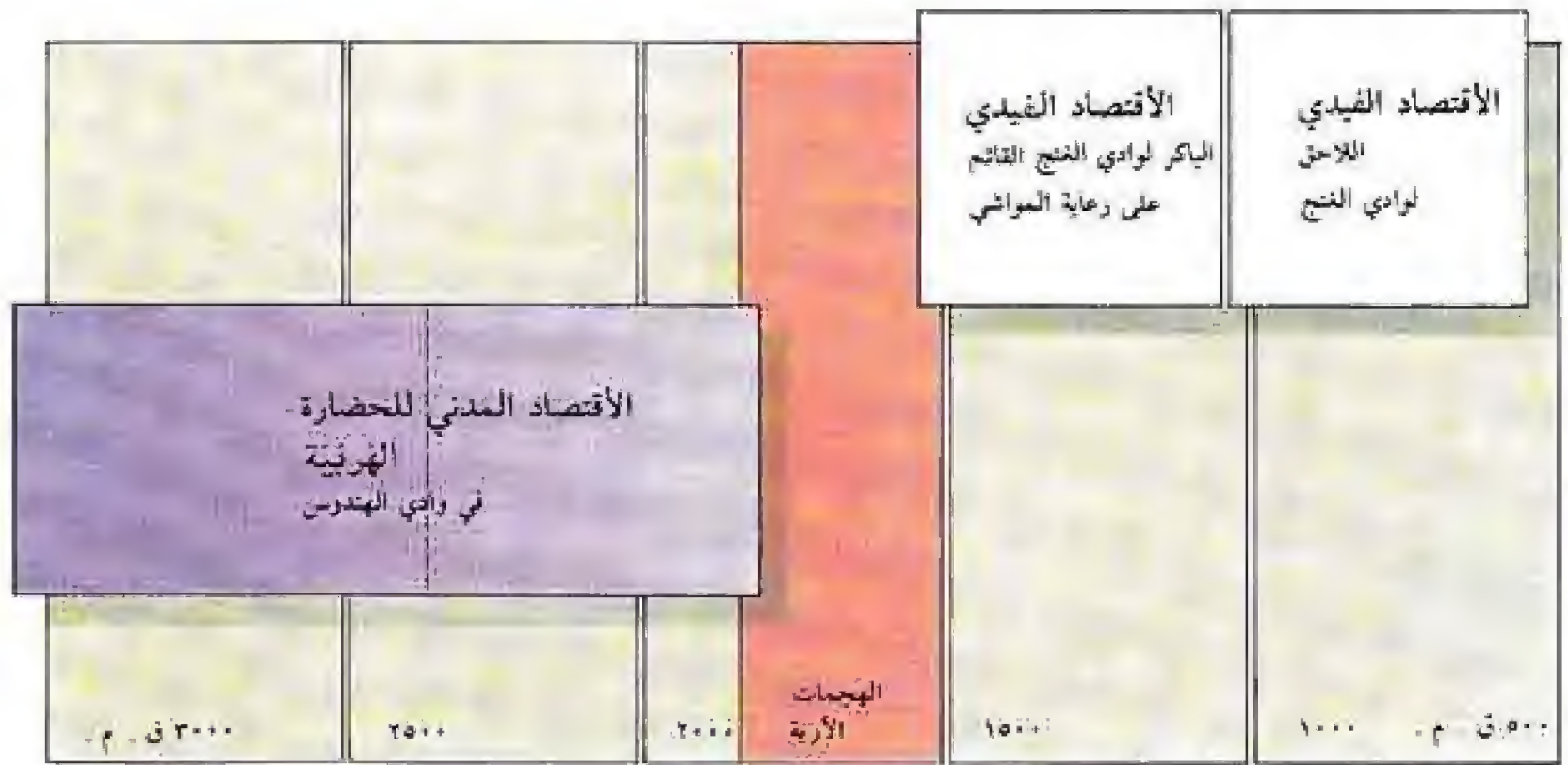
بأوضاع اليوجا (أزانا) في العصور اللاحقة . يحيط بالمعبود عدد من الحيوانات ، هذا . بالإضافة الى ملامح أخرى . يعيد الى الأذهان تمثيلات المعبود شيفا .

قصيرة من الانحطاط . ومع اننا لا نستطيع استبعاد عامل الكوارث الطبيعية كليا ، يبدو اليوم ان مدن نهر الهندوس خضعت أولا ، في حدود سنة ٢٠٠٠ ، لسيطرة العناصر الهندية التي تعرف بالدرافيدية والتي تابعت حضارتها ، حتى تعرضت المنطقة كلها لاجتياح خيالة رُحِّل في القرن الثامن عشر ق . م . قيل انهم كانوا من شعوب هندو - آرية . الا ان ذلك غير مؤكد .

مع حلول القرن الثالث عشر ق . م . كان الهندوآريون قد احتلوا البنجاب ، بعد ان انقسموا الى قبائل تحاربت فيما بينها بالشراسة نفسها التي قاتلت بها السكان الاصليين .

تعود مجموعة كبيرة من الترانيم الدينية المكتوبة بلغة سنسكريتية قديمة ، عنوانها الريشما فيدا = (المعرفة) الى هذه المرحلة المبكرة (حوالي ١٤٠٠ - ١٠٠٠ ق . م) . وقد نشأ

الغانج ، (كما يظهر بوضوح من مخلفات الأدب الفيدي (اللاحق) . واتخذت الديانة الهندوسية القديمة شكلها المعروف .



(٧) - هذه القوالب الثلاثة المأخوذة عن اختام عشر عليها في موهنجودارو تعطينا معلومات قيمة عن المدينة الهندوسية القديمة . باطلاعنا مثلا على ان الماشية كانت قد أصبحت أليفة في ذلك الوقت . تمثل هذه الأختام ثورا يأكل من معلق وفيلا ووحيد قرن . أما الكتابة فهي تصويرية لم يستطع أحد فك رموزها بعد .

الهندوس قد تصدعت . استقر الهندوآريون في القرى في البنجاب ، وكانوا ينقسمون الى قبائل ، نعرف عنها بعض الشيء من الريشما فيدا . ثم امتدت الحضارة الهندوآرية ما بين ١٠٠٠ و ٥٠٠ ق . م على طول وادي

تجاوزت ستة قرون ، دون أن يطرأ عليها أي تغيير يذكر . ويظهر ان نهايتها المفاجئة كانت نتيجة لهجمات هندوآرية . الا انه يبدو أقرب الى الاحتمال ان هذه الهجمات حدثت عندما كانت حضارة نهر

(٦) - يبدأ أقدم تاريخ حقيقي لشبه القارة الهندية الباكستانية بعد منتصف الالف الثالثة ق . م عندما نشأت مدينة راقية في وادي نهر الهندوس وحوله . ازدهرت هذه الحضارة الهندوسية لمدة



عن النصوص الفيدية الأربعة ، وأهمها ريشما فيدا (= معرفة الحكماء) . عدد من الشروح والتعليقات أشهرها جميعا الأَبَشْد (= الدروس) . كان الهنود عادة يتصورون المعبودات ، كالمعبود اندرا ، مجسمين على شكل بشر ، إلا أن بعض الملامح التي أصبحت فيما بعد من مميزات الهندوسية أخذت بالظهور في ذلك الوقت ، كالتأمل والتفكير في حقيقة طبيعة الذبائح .

خلال الحقبة الفيدية المتأخرة (حوالي ١٠٠٠ - ٥٥٠ ق . م) انتشر الهندوآريون ، (وقد راحوا يستعملون الأدوات الحديدية الفعالة آنذاك) ، حتى شمالي الهند ، بما في ذلك وادي الغانج ، مخترقين الغابات ، لكي يتمكنوا من زراعة الأراضي الخصبة . يتبع هذا الانتشار التدريجي بواسطة نوع خاص من الفخار ، هو الآتية الفخارية الرمادية الملونة . لم يكن هؤلاء الأقوام قد تعودوا كالهزبيين على حياة المدن ، لكنهم أثناء انتشارهم اختلط أبناءهم بقبائل الغابات ، ممن كانوا قد سبقوهم إلى الاستيطان ، وتعرفوا على الحصان ، فتغيرت طريقة حياتهم من شبه رحل يرعون المواشي إلى مزارعين مستقرين .

كان لهذا التغير جوانب سياسية وثقافية هامة . فقد حلت محل الوحدات القبلية ممالك لم تعد قائمة على صلة الرحم ، بل على اقتطاع الأراضي . وأخذت تسيطر على الممالك طبقات محاربة (الكشترية) يرأسها ملك ، ويعاونها أعضاء طبقة الكهنة الوراثية (البراهمة) ، ذات النفوذ الكبير . كانت هاتان الطبقتان الحاكمتان تسيطران على الأحرار من الفلاحين والتجار والصناع الذين

كانوا يؤلفون الطبقة الثالثة (فيشيا) ، بالإضافة إلى شبه العبيد من العمال والصيادين والقناصين المتحدرين ، جزئيا ، من قبائل الغابات ، والذين كانوا يؤلفون الطبقة الدنيا (الشودرا) . وكان بعض هؤلاء ، لاسيما أولئك الذين كانت طريقة حياتهم تعتبر نجسة أو كريهة من قبل الهندوآريين ، يُدرجون في عداد المنبوذين . كانت تلك بداية نظام الطبقات المغلق المعقد .

نشأة المدن الكبرى

نشأت ، خلال هذه الحقبة ، المدن الكبرى ، للمرة الأولى منذ تقهقر مدن حوض الهندوس . كانت أكثر هذه المدن أهمية هاستيناपुरا على نهر الغانج شرقي مدينة دلهي اليوم ، ومدينة راجير التي أنشئت حوالي ٥٠٠ ق . م في بهار الجنوبية ، وتميزت بأسوارها الضخمة ، في هذه الحقبة ذاتها ، أخذت معظم المفاهيم الأساسية للديانة الهندوسية تتكون ، ليس مفهوم الطبقة وحسب ، بل أيضا الإيمان بتناسخ الأرواح ، وباللاعنف ، وبقدسية البقر ، أي جميع تلك المفاهيم التي غدت الملامح الثابتة للحضارة الهندية . وبينما بقيت التضحية الفيدية مستمرة لا بل أصبحت أكثر تعقيدا ، ظهرت ردة فعل في صفوف أولئك الذين شعروا بالتبرم تجاه الديانة الرسمية ، وراحوا يبحثون عن قيم عليا في التأمل . فأخذ أبناء الطبقات الحاكمة يعكفون على الانقطاع إلى حياة التأمل في الغابات . عندما لم يعد أولادهم بحاجة اليهم ، وعلى هذه الأسس أنشأ سیدارتا جوتاما (٥٦٣ ؟ - ٤٨٣ ؟ ق . م) الديانة البوذية .

الحضارة المينوية

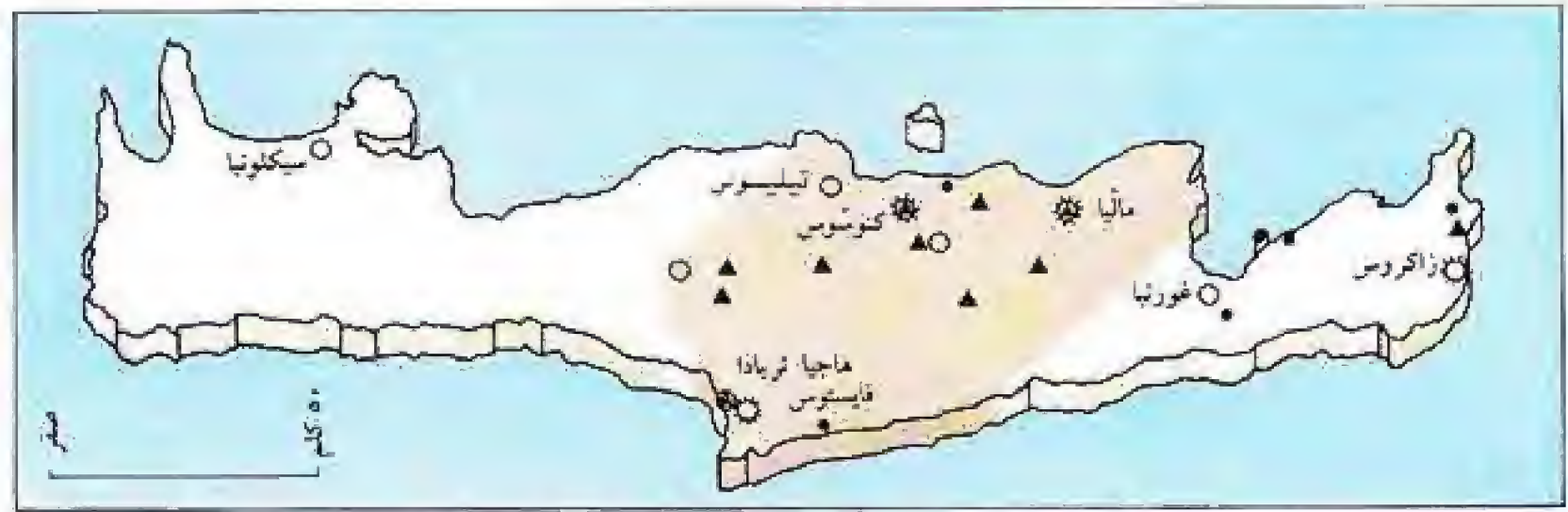
تفوق في تميزها وتقدمها أية حضارة أوروبية قديمة أخرى اكتشفت حتى ذلك الحين . منذ ذلك التاريخ ، اكتشفت قصور أخرى مماثلة ، في فاistos على يد الايطاليين ، وفي ماليا على يد الفرنسيين ، وحدثا جدا في زاكروس على يد اليونانيين .

بينما كان آرثر ايفنس (١٨٥١ - ١٩٤١) ، عالم الآثار البريطاني ، يقوم بالحفريات في كنوسوس بجزيرة كريت من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٣٦ ، عثر على قصر فخم الزخرفة ، هو رائعة معمارية تدل على حضارة مبكرة ،

بداية الحضارة المينوية

يظهر المينويون (نسبة الى مينوس ،

(١) - كانت جزيرة كريت الضيقة المستطيلة الشكل موطن الحضارة المينوية ، وهي اولى الحضارات في اوروبا . ليس ثمة ما يعلل ظهور الحضارة في هذه الجزيرة بجبالها المنتشرة في الداخل ، كجبل ايدا الذي يربو ارتفاعه على ٢٤٠٠ م وساحلها الجنوبي الوعر الذي لا يتخلله سوى سهل ميسارا وراء فاistos . ولكن ساحلها الشمالي اكثر لطفاً ، وهو غني بأشجار الزيتون والكرمة . كما ان البحار المحيطة بالجزيرة تساعد على التجارة والاتصال بمناطق واسعة بعيدة . لقد عرف المينويون كيف ينمون ثروتهم الزراعية وتجارتهم الخارجية في أن واحد .



(٢) - بعد تطور طويل وغير مرموق ، أحرز الفخار المينوي شهرة بادية الأمر بفضل

ملك كنوسوس الاسطوري) ، كما دعاها آرثر ايفنس ، في تلك الجزيرة فجأة في مطلع العصر البرونزي ، حوالي ٣٠٠٠ ق . م . ولعلمهم كانوا مهاجرين من بلاد الأناضول ، أو كما دلت بعضهم حديثا ، من فلسطين . تبين محتويات قبورهم المستديرة ، التي تكثر خاصة في سهل ميسارا ، انهم كانوا على اتصال بالعالم الخارجي ، وان اتصالاتهم أدت تدريجيا الى قيام شبكة تجارية كبرى عبر



اواني كاماريس التي تعود الى حوالي ١٨٠٠ ق . م . هذه الاواني كانت تُصنع اشكالها الأنيقة بواسطة الدولاب . وقد جاءت بعض الكؤوس فائقة الجمال . توحى الطبقات المشاهدة على ظهر هذا الابريق من فايتوس بيرافي مقبض نموذج معدني . كما يوحى بذلك ايضا الصقل الأسود اللامع . الا ان الزخرفة الطلائية . والشكل الجريء المجرد ذا الخطوط المنحنية ، لا يمكن ان يكونا قد صدرا الا عن تقليد عريق في صنع الخزف .

(٣) - تتجلى اناقة الشكل ، بصورة أوضح ، في الحقبة المينوية المتأخرة ، ابتداء من ١٥٠٠ ق . م . فقد تحول الاسلوب الشائع في هذه الحقبة الى الطلاء بالأحمر على الأصفر ، وشاع استعمال المشاهد الطبيعية . مع ان بعض العناصر

شرقي المتوسط (١) .

مع حلول عام ٢٠٠٠ ق . م تقريبا ، كان التقدم الاقتصادي والاجتماعي قد أدى بفن العمارة الى تحقيق انجازات بارزة ، وهي القصور القديمة . لقد طمست تفاصيلها الزيادات والتغييرات اللاحقة ، ولكن ما بقي منها في كنوسوس وماليا ولاسيما تحت الساحة الغربية في فايتوس يكفي للدلالة على ان البناء كان قد بدأ في هذه الحقبة



التجريدية بقيت . كانت المواضيع المفضلة في الزخرفة هي الزهور (لاسيما الزنبق) والحيوانات البحرية . كالأخطبوط والنوطل ، والأصداف بين الصخور والعشب البحري .

(٤) - يبين عقد ذهبي من ماليا حب الطبيعة ذاته ، لكن في تقنيات مختلفة تماما . تقف نخلتان (اوريما دبوران) على حبة توت أو قرص عسل . يبلغ عرض العقد ٤,٦ سم ويعود الى حوالي ١٥٥٠ ق . م .

(٥) - هذا الاناء الرائع المصنوع من الحجر ، والمستعمل للسكب على المذبح ، وجد في قصر زاكروس الذي دُمّر حوالي ١٤٥٠

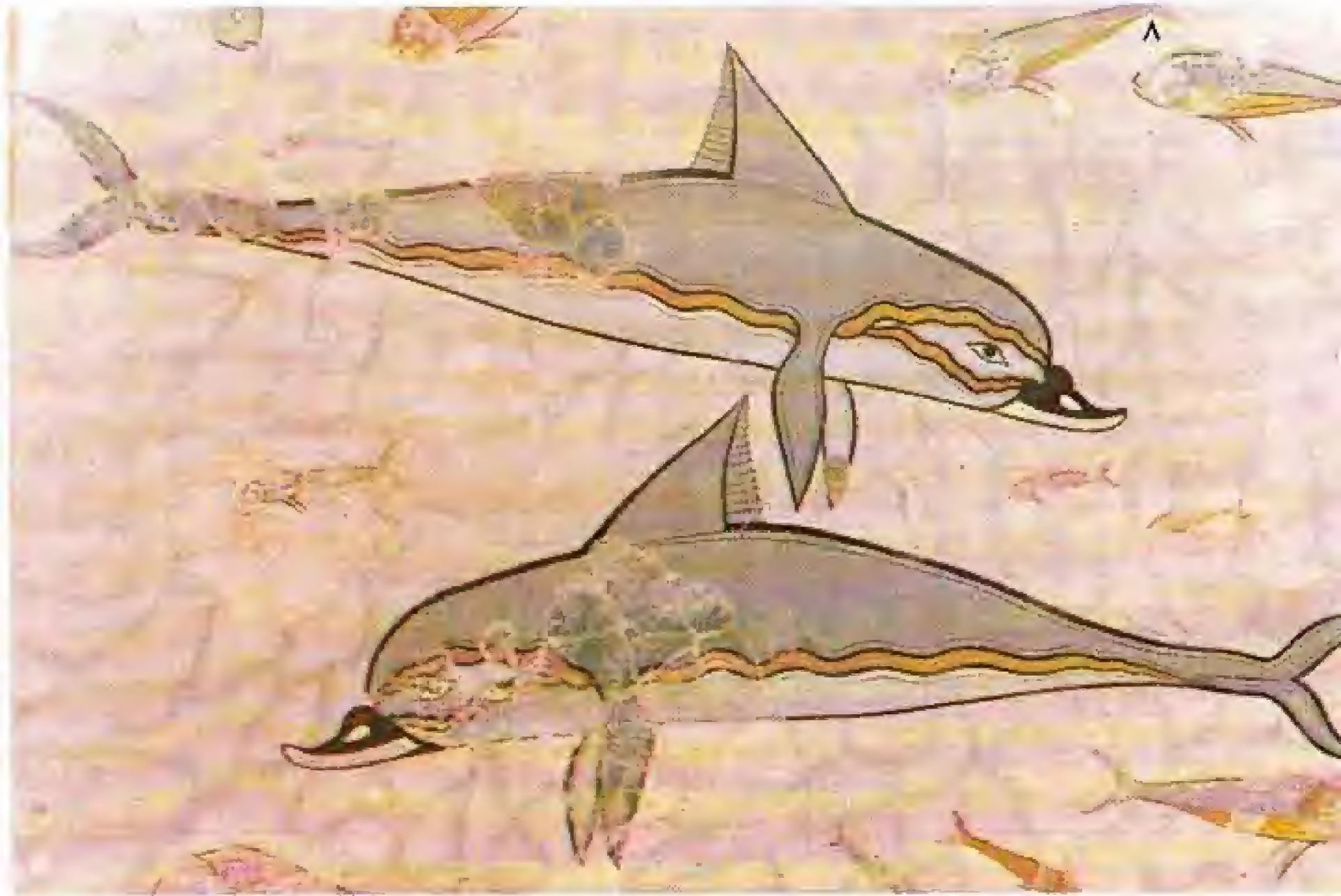
ق . م . وهو يبين معبدا (في الوسط الى اليسار) على قمة جبل . وماعزا على سطح المعبد ، ويطير عصفور على مقربة من وعاءين كانا يستعملان عند تقديم الذبيحة .

(٦) - نشاهد على نقش هذا الخاتم . الذي يبلغ قطره ٢,١ سم ، فارسين يقومان بأعمال يهلوانية ، في حقل مليء بالأزهار .

(٧) - هذا الخاتم الذي يكاد لا يزيد على ١,٥ سم يدل على مهارة النقاشين المينويين ، وهو مصنوع من العقيق الأزرق .

على نطاق واسع . ان ما يهمنا من هذا التقدم هو ما يكشفه عن التنظيم الاجتماعي ، أكثر مما يكشفه عن مهارات البنائين التقنية . انه يدل على ان المينويين قد أقاموا حضارة . من أسطح الأدلة على ذلك استخدام الكتابة . توجد أقدم الكتابات القصيرة المنقوشة على الأختام في كريت ، حيث يظهر ان الرسوم الرمزية تدخل في اطار الكتابة التصويرية . وتدل لوحات الأجر التي

عثر عليها ، في القصر القديم في فاistos ، على ان كتابة مقطعية أبسط من الهيروغليفية (المصرية) كانت قيد الاستعمال العام في تلك الحقبة . ومن المحتمل انها كانت تكتب بصورة رئيسية على نوع من انواع الورق او الرق ، الا انه لم يصلنا شيء من هذه المواد . لم يتقدم أحد بعد بترجمة مقنعة لهذه النصوص ، التي عرفت « بالكتابة الخطية نوع آ » ؛ لذا بقيت لغتها مجهولة .



(٨) - كان الرسم الجداري فنا مينويا رائعا . مع انه لم يصلنا عموما الا في قطع صغيرة . هذا المشهد الذي يمثل دلافين واسماكاً كان يزين ما يعرف بقاعة الملكة . في جناح الخدم . في كنوسوس . وتبين رسوم أخرى طيوراً وأزهاراً ونباتات وحيوانات وبشراً .

(٩) - تتجلى في هذا التمثال الصغير الخزفي الأناقة الراقية التي كانت تتميز بها الحضارة المينوية في كريت . في العصر البرونزي . يبلغ طوله ٢٩.٥ سم . وقد عثر عليه في كنوسوس . حيث كان مدفوناً منذ حوالي ١٥٠٠ ق . م . كثيراً ما تظهر

على الأختام وفي اللوحات الجدارية صدرية ضيقة وقد انفتحت لآظهار الثديين ، ومئزر (مريول) مطرز وإزار (تنورة) طويل مزركش . لكن اللبوة الظاهرة فوق القبة . اذا صح انها لبوة ، والأفعوان في اليدين هما أقل شيوعاً وينمان عن شؤم غير اعتيادي . ومن المحتمل ان صاحبة التمثال هي معبودة الأرض التي تشهد على انتشار عبادتها المعابد . وسرايب الأقبية في الآثار المينوية وفي الكهوف والأماكن المقدسة الموجودة على قمم التلال . في جميع أنحاء كريت . يلاحظ ان المعبودة تحمل بيدها أفعى وفي تاجها تمثال فهد صغير .

من الصعب كشف طبيعة التنظيم السياسي للجزيرة بدقة . لكن القدرة الكبيرة في القصور على اختزان الحاجات المنزلية كالأواني الفخارية (٢) و (٣) ، والأغذية كزيت الزيتون . توحى بأنها كانت مراكز اقتصادية وإدارية في آن واحد ، تسيطر على مختلف مناطق الجزيرة .

ذروة الحضارة المينوية

قد تكفينا معالم التجارة الخارجية ، التي كانت تتعاطاها كريت ، لتفسير ثروة هذه الجزيرة في هذه الحقبة . فهناك قطع الفخار المينوي التي وجدت في أماكن نائية مثل مصر ؛ وهناك المستعمرات التي أقيمت على عدة جزر في بحر إيجه ؛ وهناك المقتبسات العديدة عن حضارة البر اليوناني .

يبدو أنه بعد وقوع بعض الكوارث الطبيعية حوالي ١٧٠٠ ق . م أعيد بناء القصور بأسراف كبير ، وأثار هذه القصور هي ما يمكن رؤيته اليوم . كان البناء يُشيد من الحجر الكلسي داخل بنية من الاطار الخشبي ، مما كان يؤمن للمباني شيئا من المرونة المفيدة ، وإن تكن غير كافية لاحتمال هزات الزلازل التي كانت كريت عرضة لها . لكن ذلك كان يزيد أيضا في خطر الحرائق . كانت صفوف من الغرف تطل على الساحة الوسطى الكبرى . وكانت تضيء مجموعات الحجر الداخلية أنفاق انارة حسنة التنظيم . كانت الجدران الداخلية مطلية بالجبس ، وفي غالب الأحيان مزخرفة برسوم مغرقة في الحذلقة والتلوين (٨) . وكانت الأرض مغطاة في الغالب ببلاط المرمر . ولكن لعل ما يدعو الى أشد الدهشة هو نظام

تصريف المياه في هذه الجزيرة ، الذي كان من الرقي بحيث يضارع أي نظام تصريف سابق للقرن الثامن عشر الميلادي . إن الانطباع العام الذي تعطيه هذه المدينة هو الاهتمام بالنور والهواء والحرية .

الجدل حول نهاية هذه الحضارة العظيمة هو أشد وطيسا من الجدل حول بدايتها ، ولعل ذلك لوجود أدلة أوفر وأكثر تعقيدا عن تلك النهاية . لكن الرواية الأكثر شيوعا اليوم عن النهاية ، وإن لم تكن هي الوحيدة ، تذهب الى القول بأن انفجارا مدمرا وقع في جزيرة ثيرا البركانية ، التي تبعد أكثر قليلا من ١٠٠ كلم عن ساحل كريت الشمالي ، وذلك حوالي عام ١٤٥٠ ق . م ، فطمر رماده السام جزءا كبيرا من كريت . كما غمرت الباقي امواج الصدمات الناجمة عن الانفجار ، والأمواج المذية الكبيرة .

الانهلال والهزيمة

يبدو أن كنوسوس كانت الوحيدة بين المواقع الرئيسية التي استعادت نشاطها بعد هذا الدمار ، وهنا نجد عدة أدلة على حدوث تغير عميق . فالحكام الجدد أصبحوا محاربين ، وأخذوا يستعملون « الكتابة الخطية نوع ب » التي تعتبر الآن تطورا « للكتابة الخطية نوع أ » لكتابة شكل مبكر من اللغة اليونانية . ويبدو أن كل ذلك يشير الى غزو الجزيرة من قبل سكان البر الميكانيين الذين اغتنموا فرصة انفجار ثيرا لينتزعوا من المينويين سيطرتهم على الخطوط البحرية الجزيلة الأرباح . وهكذا حل ميكانيو الأرياف محل مينويي المدن ، وطوى الزمن صفحة القصور .

بلاد اليونان

« بين ٢٨٠٠-١١٠٠ ق.م »

البطولي الذي يعود الى حوالي ١٨٠٠ - ١١٠٠ ق. م. الى ان اكتشف هاينريش شليمان (١٨٢٢ - ١٨٩٠) ، وهو عالم آثار الماني ، في طروادة وميكينية (منذ عام ١٨٧٤) بقايا تدعم تلك الاساطير .

تسرد ملحمتا هوميروس (الياذة) و « الاوديسة » ، اللتان كتبتا بين ٨٠٠ و ٧٠٠ ق. م. انتصارات ابطال يونانيين اسطوريين في عصر حروب طروادة . لكن على مر القرون ، أحاط الشك بوجود هذا العصر

بداية العصر البرونزي

بدأ العصر البرونزي اليوناني ، ومركزه البر اليوناني ، باستعمال المعدن الذي كان ذا



شأن في انعاش التجارة ، وفي كسب الثروة المادية . في حوالى هذا الوقت أيضا ، أخذ يحل محل الاقتصاد المقتصر على الحبوب وحدها ، في سهول تساليا والشمال ، اقتصاد قائم على الحبوب والزيتون والكرمة . وحوالى ٢٥٠٠ ق . م ، كان أحد البلاطات يعتمد على هذا الاقتصاد ، وهو « دار الأجر » في ليرنا الواقع في سهول أرغوس . ولكن في حوالى ٢٢٠٠ ق . م . دُمِر ليرنا وسواها من

المستوطنات المعاصرة العديدة غزا قادمون من الشمال الشرقي ، كانوا ، على الأرجح ، أول السكان الذين أخذوا يتكلمون لغة ذات طابع يوناني معروف . في هذه الحقبة استُحدث دولاب الخزاف السريع ، والقاعة الرحبة ذات الأعمدة . وبعد ذلك بقليل ، أخذت تظهر أدلة على تأثر تلك الحضارة بحضارة معاصرة لها ، هي حضارة كريت المينوية (٧) .

غزالا ، فيما يهرب اثنان آخران . يبلغ طول هذا الخنجر ٢٣.٥ سم . وهو أحد الكنوز التي اكتشفها شليمان ، عالم الآثار الألماني ، في القبر النفقي الرابع .

على تجارة المينويين البحرية . امتد نفوذهم الى الجزر والسواحل المحيطة ببحر إيجه وما وراءها . هذه المقاطعات الشاسعة لم تؤلف قط دولة موحدة . بل كانت على الأرجح تؤلف مجموعة من الممالك المتحالفة .

(٤) - جاءت بعد القبور النفقية في ميكينيا قبور مقببة مبنية من الحجر ، وأجملها البناء المدعو « خزينة اترىوس » الذي يعود الى حوالى ١٣٢٠ ق . م . يؤدي ممر ذو جدران الى بوابة ضخمة جدا واقعة في التل . وفي الداخل ، تغطي قبة مزخرفة حجرة مستديرة . نهبت الجثث والموجودات الخاصة بالقبر منذ زمن بعيد ، لكنه عثر على قبور أخرى أصغر من ذلك .

(٢) - من الموجودات الصغيرة الجميلة في ميكينيا هذه المنحوتة العاجية التي لا يتجاوز ارتفاعها ٦ سم ، والتي تمثل امرأتين وطفلا . يظهر التأثير المينوي بوضوح في كل من الثوب والحفر .

(٥) - قد يكون لهؤلاء المحاربين الميكينيين جانب مضحك في نظرنا ، الا ان التحصينات والاسلحة والدروع التي اكتشفت تدل على ان الحرب كانت عاملا هاما في حياة ذلك العصر .

(٣) - تشهد الخناجر البرونزية التي وجدت في قبور نفقية تعود الى حوالى ١٥٥٠ ق . م على مهارة فنية فائقة في الترصيع بالذهب والفضة والنيل . بعضها يمثل حيوانات بحرية ، لكن أحد الخناجر يمثل بأسلوب مينوي « هرا صيادا » له ملامح البر القوية ، وثمة أسد يهاجم

(١) - كان موطن الميكينيين هو البيلوبونيز واجزاء اليونان المجاورة ، المحيطة بمنطقة ارغوس وميكينيا ذاتها . هنا انشأوا الشكل الخاص بهم من الحضارة التي كانت مزدهرة آنذاك في كريت ، وباستيلائهم



مع مرور الوقت ، نشأت مدن قوية ، مثل ميكينيا . الا ان الأدلة الحقيقية الأولى على ازدهار حضارة البر اليوناني تتجلى في القبور النفقية في ميكينيا ذاتها ، التي يعود معظمها الى القرن السادس عشر قبل الميلاد . وهي تحتوي على ثروة حقيقية ضخمة من ذهب وفضة وبرونز وبلور ومرمر وأجر ويمكن الافتراض انها كانت مدافن لأسرة من الأمراء وربما من الملوك أيضا تحكم مجتمعا غنيا

وموحدا . ويكشف الكثير من الموجودات (٣ ، ٢) تفاوتاً بين صناعة مصقولة ومتقدمة ، كريتية الملامح ، وبين صناعة غير كريتية ، هي صناعة الأسلحة والدروع وما أشبه (٥) .

أصبح هؤلاء اليونان القدماء ملاحين أيضا . وربما كانت بعض الموجودات في القبور النفقية ، من صنع مصري ، وصلت الى اليونان عن طريق التجارة ، بدلا من ان



٦



٧



٨

ان لم تكن قد صنعت في كريت نفسها .

(٨) - جاء الخط المقطعي من كريت . كانت الكتابة السطرية « نوع ب » تستعمل على نطاق واسع في كتابة الوثائق التجارية ، كما يتبين من لائحة الاعشاب هذه التي وجدت في ميكينيا . واللغة المستعملة كانت شكلا مبكرا من اليونانية .

(٦) - يبين هذا القناع الذهبي شخصا ميكينيا من حوالي عام ١٥٥٠ ق . م . عليه سيماء التكبر . وقد عثر عليه هاينريش شليمان عام ١٨٧٦ في القبر النفقي الخامس .

(٧) - تأثر الميكينيون كثيرا بالمينويين . فهذه الكأس الذهبية من فافيو قرب اسبرطة هي من صنع محترف من البر اليوناني ربما كان قد تدرب على الاسلوب المينوي .

تكون كريتية أو يونانية . اذ ان اليونانيين كانوا حريصين على الحصول على المزيد من السلع التجارية من الخارج ، فأقدموا بفضل ثروتهم الزراعية على المغامرات في البحر .

امتداد الحضارة الميكينية

الا انهم وجدوا فرصتهم الكبرى عندما انهارت قوة المينويين ، وربما كان ذلك في اعقاب انفجار بركان ثيرا المدمر ، حوالى ١٤٥٠ ق . م . فقد حرر ذلك طرق البحر المتوسط التجارية الغنية التي كان الكريتيون يسيطرون عليها حتى ذلك الوقت . استغل سكان البر اليوناني ، الذين لم تمسهم الكارثة نسبيا ، الوضع الجديد استغلالا كبيرا . ففي الشاطئ الشرقي للمتوسط وفي مصر ، ارتفع سعر أواني الفخار التي كانوا يصنعونها ، والتي كانت تطلب لذاتها ، ومن أجل الزيت المعطر الذي كان يُصدّر فيها ، وتقدر أيما تقدير مثلا في تلّ العمارنة عاصمة اخناتون المصرية الحديثة التي بنيت حوالى ١٣٥٠ ق . م . وكانت سفنهم تحمل ايضا النحاس القبرصي . وقد نشأ مرفأ تجاري هام باتجاه الغرب في تاراتو ، بايطاليا الجنوبية ، لنقل المزيد من النحاس من سردينيا وجبال الألب لشرقية ، والكهرمان من البلطيق النائي . الى ان احتل الميكينيون كريت نفسها ، فأعادوا بناء القصر في كنوسوس كمركز لسلالتهم الجديدة .

مارس الصنّاع في مدن اليونان حرفهم المختلفة ، وانتجوا المصنوعات المعدنية والفخار والسلع السريعة العطب . وأصبحت لمن ذاتها أكبر وأقوى وأنسب موقعا . فزُفعت الجدران ووُسّعت ، وأنشئت أنظمة

لتأمين مد المياه بصورة مضمونة . وأخذت القصور التي كانت تُبنى على أساس تصميم القاعة الكبرى القديم تزخرف بدقة برسوم من الجص .

ولتسهيل هذا المستوى الرفيع من التجارة والصناعة والادارة ، كان لا بد من الكتابة . كان المينويون في كريت قد استنبطوا كتابة مقطعية خاصة بهم لم تفك رموزها بعد . وُجد هذا الخط منقوشا على لوحات ، ودعاه علماء الآثار بالكتابة السطرية « نوع آ » . تبنى الميكينيون هذه الكتابة بصورة فظة ، ولكنها مضبوطة ، لكتابة لغتهم اليونانية . فعرفت بالكتابة السطرية « نوع ب » (٨) .

حضارة البر اليوناني تتقهقر

يصعب فهم المراحل النهائية من تاريخ اليونان في العصر البرونزي . لكن احدى الروايات تقول ان غزاة أشداء قدموا من الحدود الشمالية الغربية ، هم الدوريون ، واجتاحوا مدن الجنوب فدمروها جميعا ، باستثناء اثينا . وتقول رواية أخرى ان الميكينيين فقدوا حماسهم التوسعي حوالى ١٢٠٠ ق . م واشتبكوا في حرب أهلية (تمثلت في حصار طروادة) ، حتى دمروا انفسهم بأنفسهم .

في البر اليوناني ، لم يعرف العصر اللاحق الا القليل عما كان قد جرى قبله . فحلّت محل المدن المزدهرة قرى فقيرة ، ومحل القبور العظمى حفر بسيطة ، ومحل الروائع المصنوعة من الآجر والفضة والذهب أوانٍ رخيصة . أما التقدم الوحيد الذي تحقق في هذا العصر القاتم ، المدعو أحيانا بالعصر المظلم ، فقد كان التعرف الى صناعة الحديد .

الصِّين

« حتى سنة... ا. ق. م. »

تبلغ ثقافتهم القديمة نهايتها ، كما انتهت
ثقافتا مصر واليونان القديمتان . بل استمرت
تتطور منذ ٢٥٠٠ ق . م . حتى الآن .

أقدم المخلوقات البشرية
أقدم البقايا البشرية التي تم اكتشافها
حتى الآن في الصين هي بقايا انسان
بكين . وانسان لانتي إيين ، اللذين يعودان
الى ما يربو على نصف مليون سنة . كانا من

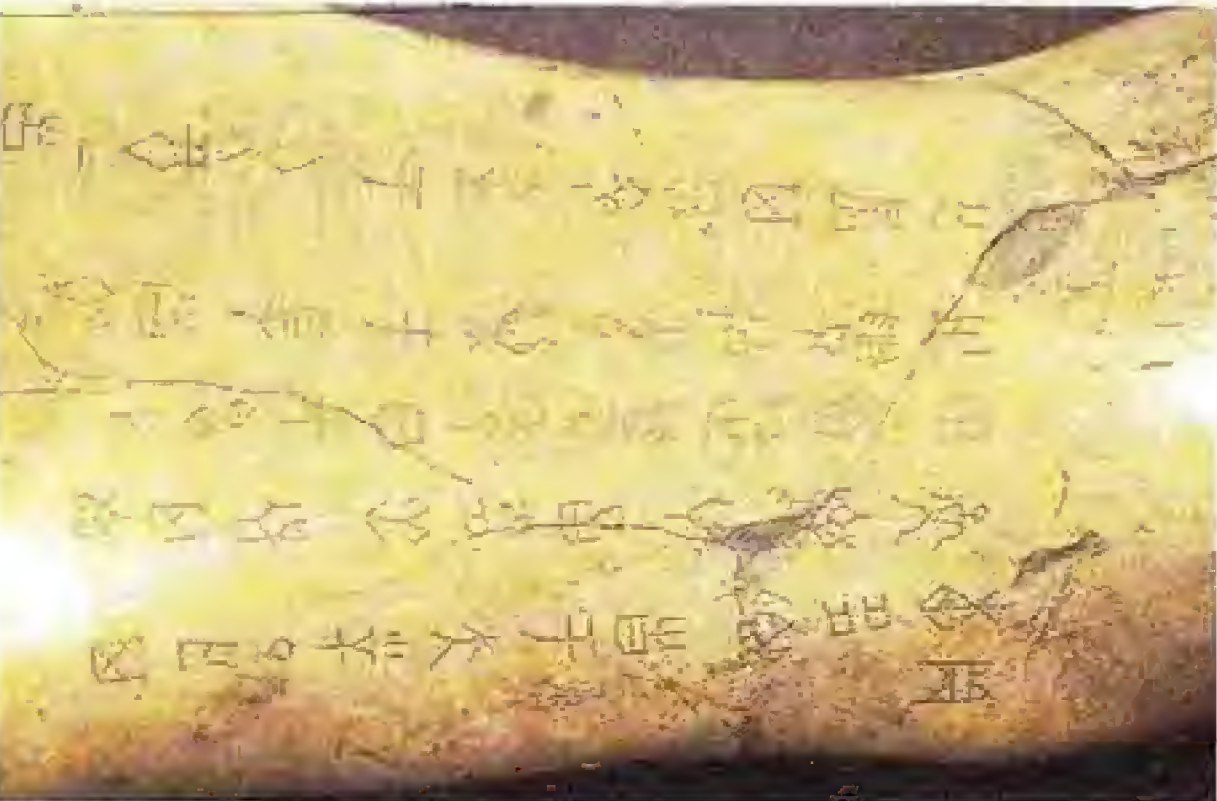
يحتل الصينيون مكانة فريدة في
التاريخ . بفضل التخوم الطبيعية التي حمت
كتلتهم الارضية الكبرى (وهي تساوي مساحة
اوروبا بكاملها) . ولانعزالهم النسبي عن
العالم الخارجي حتى القرن التاسع عشر . لم



٢



١



٤



٣

القرن ١٤ - ١١ ق . م (ترمز الى
نضحية بشرية ، قد تكون
قربانا مقدما لأحد الأجداد .

(١) - هذا النقش الخطي
والوجوه البشرية الظاهرة على
هذا الاناء الطقسي المصنوع من
البرونز كآنية للطعام . (من

وائل البشر الذين صنعوا الادوات ، وقد عُثِر على آثار اخلافهما في الكهوف الواقعة في التلال . بالقرب من تشو - كوتيين ، التي عُثِر فيها على حجارة للقشر وللقطع . جاء في عقاب هذين الانسانين القديمين أهل كهوف العليا الذين عاشوا قبل حوالي ٥٠٠٠٠ سنة . كان بوسعهم اشعال النار ، وكانوا يؤمنون عيشهم عن طريق القنص وصيد السمك . وجمع الثمار والجذور الصالحة

للأكل . في العصر الحجري الجديد (٧٠٠٠ ق . م) صنعوا الإبر والأقواس والسهام . وشحنوا الشفرات الحادة من الحجارة والاصداف . كذلك صنعوا المناجل والمناشير من قرون الوعول وانشأوا مجتمعا زراعيا ورعويا . تميّز العصر الحجري الجديد أيضا بالأدوات الفخارية الدقيقة (٦ . ٥ . ٣) . كان المزارعون الأول يعيشون في أكواخ تشبه خلايا النحل . تحفر في الارض طلبا

الجديد . في منطقة محدودة نسبيا . في اقليم شانجهاي . من مقاطعة تسيكيانج الشمالية . تميزت هذه الحضارة بصناعة فخار أحمر خشن ، وأحيانا فخار رمادي . شبيه بهذا الابريق الخزفي (٤٠٠٠ ق . م) .

(٦) - هذه الحرة الحمراء الخزفية عُثِر عليها اثناء التنقيب في موقع قرية بان - بو في مقاطعة شينسي . وتمثل نموذجا ممتازا لأنية الفخار الأحمر الذي انتجته حضارة يانج شاو .

(٧) - المنحدران يؤديان الى حجرة الدفن (٧٠٠٠ ق . م) التي يوضع التابوت في وسطها فوق حفرة تحتوي على جثة كلب . كانت جثث الضحايا الجنائزية توضع بعناية على الحافة المحيطة بالتابوت . لم يُترك شيء للصدفة ، فالأثاث والسياب والأدوات المنزلية والطعام والشراب ، أي كل ما كان ضروريا لتأمين راحة الميت في الحياة الأخرى ، كان يدفن معه .

في حوض النهر الأصفر الأوسط . القواعد الثلاث فارغة وتتصف بميزة حفظ القدر منتصبا على الحجر . وتعرض مساحة واسعة منه للنار .

(٤) - كانت عظام الكهانة تصنع عادة من الواح كتف الثور أو درع السلحفاة . وتستعمل للتنبؤ . تحفر الاسئلة على سطح العظم على شكل صور . ثم توضع عليها مكواة حديدية حارة جدا . فينجم عن الحرارة تشقق يحيط بالحرق . وعلى اساسه . يتمكن الكاهن من « قراءة » الجواب عن السؤال .

(٥) - ازدهرت حضارة ليانج تشو في العصر الحجري



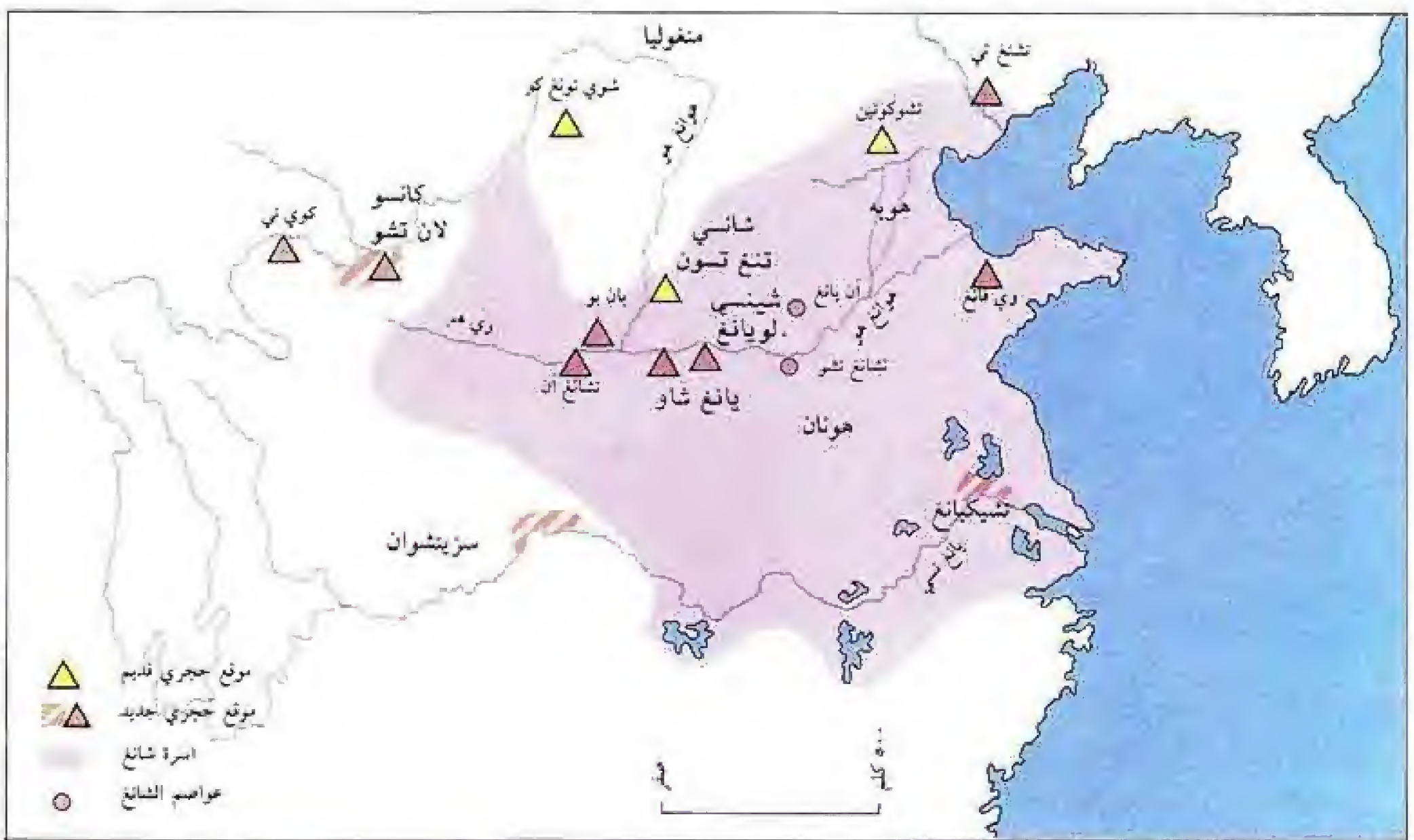
(٢) - في عهد أسرة شانج نشأت صناعة راقية لتعدين البرونز . وذلك بعد الغرب بقرون . ومع ذلك كانت أقدم صناعة برونزية في شرقي آسيا . كان السلاحان الرئيسيان اللذان استعملهما الشعب الشانجي هما القوس والفأس .

(٣) - هذا الاناء الفخاري الاسود المثلث القاعدة يعرف باسم لي . وهو يمثل آخر وأرقى طور من أطوار صناعة الفخار في العصر الحجري الجديد . ومنشؤه لونغ شان .

النيل . كانت تعتبر مادة ممتازة لبناء جدران محصنة من الطين او لصنع الآجر . كذلك ساعد مناخ المنطقة المعتدل على نمو الحصان البري والجاموس والوعل والخنزير البري والغنم . وحتى الكركدن .

يقع السهل الأوسط بين نهري عظيمين هما : هوانج هو الى الشمال ، ويانج تسي الى الجنوب . يجري هذان النهران من الغرب الى الشرق . ويحملان معهما الطمي

للدفع والامان . وتغطي بسقوف من القش والطين قائمة على أعمدة خشبية . كانت تساعد على الزراعة تلك الرواسب الكثيفة من الطفال الناعم جدا الذي يعتقد ان الريح كانت تحمله من الشمال الغربي . بلغ عمق هذه الرواسب في بعض الأماكن من السهل الأوسط ٦٠ مترا . ولما كانت خصبة بصورة خارقة . فقد كانت توفر تربة من افضل الترب الزراعية في العالم . وعلى غرار طمي



(ت) وهي مثلثة القواعد ، ولها مقابض وصنابير الكو (ث) وهي كأس عميقة ذات حافة متوهجة . أما اباريق الخمرة والماء . فكان الهسي تسون او التسون (ج) يعطى اشكال حيوانات وطيور . وكان الكوانج (ح) له غطاء في ظهر الحيوان . وكان الهو (خ) واليو (د) والتشي (ذ) اباريق خمر أو ماء . كانت الزخرفة المرتفعة والمنخفضة (تاوتيه) طبيعية . ثم أصبحت فيما بعد مؤسلة هندسيا .

تستعمل في مناسبات رسمية وجنائزية . من الاواني المستعملة للطعام . مراجل تشيو (أ) ذات القواعد السطحية ، النج (ب) وله ثلاث او اربع قوائم ومقابض ، اكواب النبيذ من نوع تشويه

(٨) - كانت الصين في العصر الحجري الحديث تتركز حول السهول الشمالية الخصبة الواقعة حول نهر هوانج هو . حكمت الاسرة الملكية الاولى ، وهي الشانج . اولاً من عاصمتها تشنج تشو . وفيما بعد انتقلت شمالاً الى آن يانج .

(٩) - اكتشفت معظم قطع البرونز العائدة لأسرة شانج في آن يانج العاصمة . وكانت

عبر تلك المنطقة . هنا ولدت حضارة العصر البرونزي لسلالة شانج أو يين (١٦٠٠ ق . م - ١٠٣٠ ق . م) . من حسن حظ الصينيين انهم كانوا مزارعين ماهرين ، واستطاعوا ان يستمروا في زراعة الحبوب في الحقول ذاتها صيلة آلاف السنين .

مؤلفات المؤرخين الأول

ليس لدينا حتى الآن بيانات كافية لتأييد تاريخ الصين المبكر جدا . كما يروي مؤرخون الصينيون ، في القرن الثاني ق . م . فقد ذهبوا الى ان البلاد كان يحكمها ، بادىء الأمر ، فريقان من ثلاثة وخمسة أباطرة من الشخصيات الاسطورية ، ثم تلتهم سلالات هسيا وشانج وتشو . ان وجود سلالة هسيا ما زال محفوفا بالشك ، الا ان البيانات الأثرية دلت على وجود سلالة شانج ووجود سلطة مركزية في عاصمة ، هي شانج العظمى ، بالقرب من آن يانج في هونان الشمالية . كان الشانج شعبا زراعيا بدرجة الأولى ، ولكنهم اشتهروا باتقان صناعة سكب البرونز (٩ ، ٢) .

لعبت التضحية دورا هاما في حضارة شانج . وكان البشر والحيوانات على السواء يقدمون كذبائح . للاحتفال بدفن الملوك او بقامة مبان هامة . وعثر في أحد الأبنية التي حرق التنقيب عنها في آن يانج على حراس خرج البوابات مسلحين برماح ، وآخرين دفنوا بالقرب من الجدران الخارجية . كانت كلاب موزعة على طول الجدران ، وقد دفنت عربات خمس بجميع سائقها وخيولها في الساحة الوسطى .

كانت المدافن الملكية اكثر اتقانا وتفننا .

ففيها منحدرات تؤدي الى الحفرة (٧) التي كانت تحتوي في أعماق جزء منها على التابوت القائم عادة فوق قبر أصغر يحتوي على جثة كلب . كانت الحفرة تحتوي على جثث البشر والخيول والكلاب . بالإضافة الى العربات ، وسائر الأثاث والحاجيات المنزلية التي يحتاج اليها ساكن القبر في العالم الآخر . كانت رؤوس بعض الناس قد فصلت عن اجسامهم وصُفّت جثثهم في مجموعات عشرية . بينما وُضعت الرؤوس بعناية في مكان آخر . كان العبيد أحيانا يُدفنون أحياء ، ويبدو ان سبعين رجلا حيا دفنوا في قبر واحد مع الأموات .

التقاويم والمدن

كان الشانج شعبا متقدما الى حد كبير . وقد وضع علماء الفلك عندهم تقويما دقيقا مبنيا على الشهر القمري ، ويجري تصحيحه بزيادة سبعة أشهر قمرية في كل ١٩ سنة شمسية .

انتشرت حضارة الشانج في أنحاء الصين الوسطى . وقد عُثر على آثارها في وادي يانج تسي على بعد ٦٤٠ كلم الى الجنوب (٨) . ويمكن حتى اليوم ، في بكين ، مشاهدة طريقة الشانج في تصميم المدن على المرتفعات .

أخيرا أشرف حكم الشانج على نهايته . فالحروب المتكررة والظلم الذي لحق بالشعب على يد آخر حكامهم تشوهسين . حملت العبيد آخر الأمر على الثورة . وقضى تشوهسين نفيه حرقا بالنار التي التهمت بلاطه . ثم بدأ عهد سلالة تشو (حوالي ١٠٣٠ ق . م .) .

أمريكا قبل العصر الكلاسيكي « حتى ٣٠٠ م »

في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية أخذت في النمو وفي التخصص المهني في بعض الحقول . كصناعة الخزف . وكان المجتمع يتقدم أيضا نحو الطبقة ، التي تتجلى في هندسة الابنية العامة الاولى . حتى ظهر قبل ١٢٠٠ ق . م اول مجتمع معقد بالمعنى الحقيقي وهو مجتمع حضارة الأولمك ، الذي تركز في المنخفضات الاستوائية لساحل خليج المكسيك . كان اول مركز كبير

شهدت الفترة الممتدة بين ٢٢٠٠ ق . م . و ٣٠٠ م ظهور اولى الحضارات ، في كل من المكسيك (حيث عرفت باعتبارها الحضارة التكوينية او ما قبل الكلاسيكية) والبيرو . فمع حلول ١٥٠٠ ق . م كانت القرى الزراعية



- (١) - تختلط خصائص البشر والهررة في هذا التمثال الذي يظهر منه رأس هائل يبرز من جدار القلعة (انكستيلو) وهو البناء الرئيسي في شافين دي هوانتار . يتناقض شكل الحجارة غير المطلية ، ولكن المنحوتة بدقة ، مع شكل المحفورات الفائقة التفنن . يقوم هذا الموقع في واد مرتفع . في حوض الأمازون الأعلى .
- (٢) - صور الراقصين هذه ، في مركز مونت البان الزابوتكي ، بأوكساكا في المكسيك ، تعود الى حوالي ٥٠٠ ق . م . وهي تشبه صور الفن الاولمكي العائد الى هذه الحقبة . او ما قبلها . ان اوضاع الاستسلام ، والعيون المغلقة والتفاصيل المختلفة الظاهرة على الجسم ، توحي بان هذه الصور تمثل محاربين قتلوا .

للمناسبات الرسمية هو تنوختيتلان (سان لورنزو) حيث تم تحويل شكل جرف طبيعي بأكمله بيناء مدارج ومنصات فيه .

انتشار الحضارة الاولمكية

اثناء اعمال التنقيب في هذا الموقع . عثر على عدة قطع من النحوتات الأثرية الضخمة لصنوعة من الحجر البركاني . بما في ذلك رؤوس جبابرة كانت قد شوهدت عمدا ودُفنت

(٨) . كان مصدر الحجر البركاني جبال توكستلا على بعد عدة كيلومترات . يدل وجود هذه المنحوتات والتفنن في صنعها على وجود يد عاملة منظمة . ومجموعة من النحاتين المتخصصين . وحكومة قوية شملت برعايتها النحاتين والعاملين في صقل الحجارة والخزافين . كما عُثر أيضا على مجموعة أخرى من المنحوتات وعلى هرم كبير مخروطي الشكل في مركز أولمكي آخر



٦ فالخط يعادل خمسة والدائرة واحدا . تعود هذه البلاطات

يتكرر على كل من اللوحات العديدة . حفظ هذه المنسوجات مناخ الساحل البيرواني الجاف .

٥ - للكتابة الماياوية أكثر من ٢٠٠ حرف تصويري رمزي لم يترجم إلا عدد قليل منها . مع أن نظرية الماياوي مفهوم اليوم .

(٥) - تحمل بلاطتان منحوتتان . في مونت البان . نقوشا مختصرة على شكل كتابة تصويرية رمزية . بما في ذلك خطوط طويلة ودوائر تشير على الأرجح الى اعداد .

٥ - هذا جزء من منسوجة مريئة بسخاء بالنقوش . من سبيل الصحراوية في شبه جزيرة الباراكلس . على ساحل المنطقة الجنوبية الوسطى من بيرو وهي تقدم رسما معقدا

(٦) - تبين إعادة بناء الهرم إي - ٧ مبدا يعود الى حوالي ٢٠٠ - ٣٠٠ م في موقع أوكاكتون الماياوي في غواتيمالا .

المنقوشة الى ٥٠٠ ق . م . وهي تمثل أقدم كتابة يمكن تحديد تاريخها في أنحاء أمريكا القديمة .



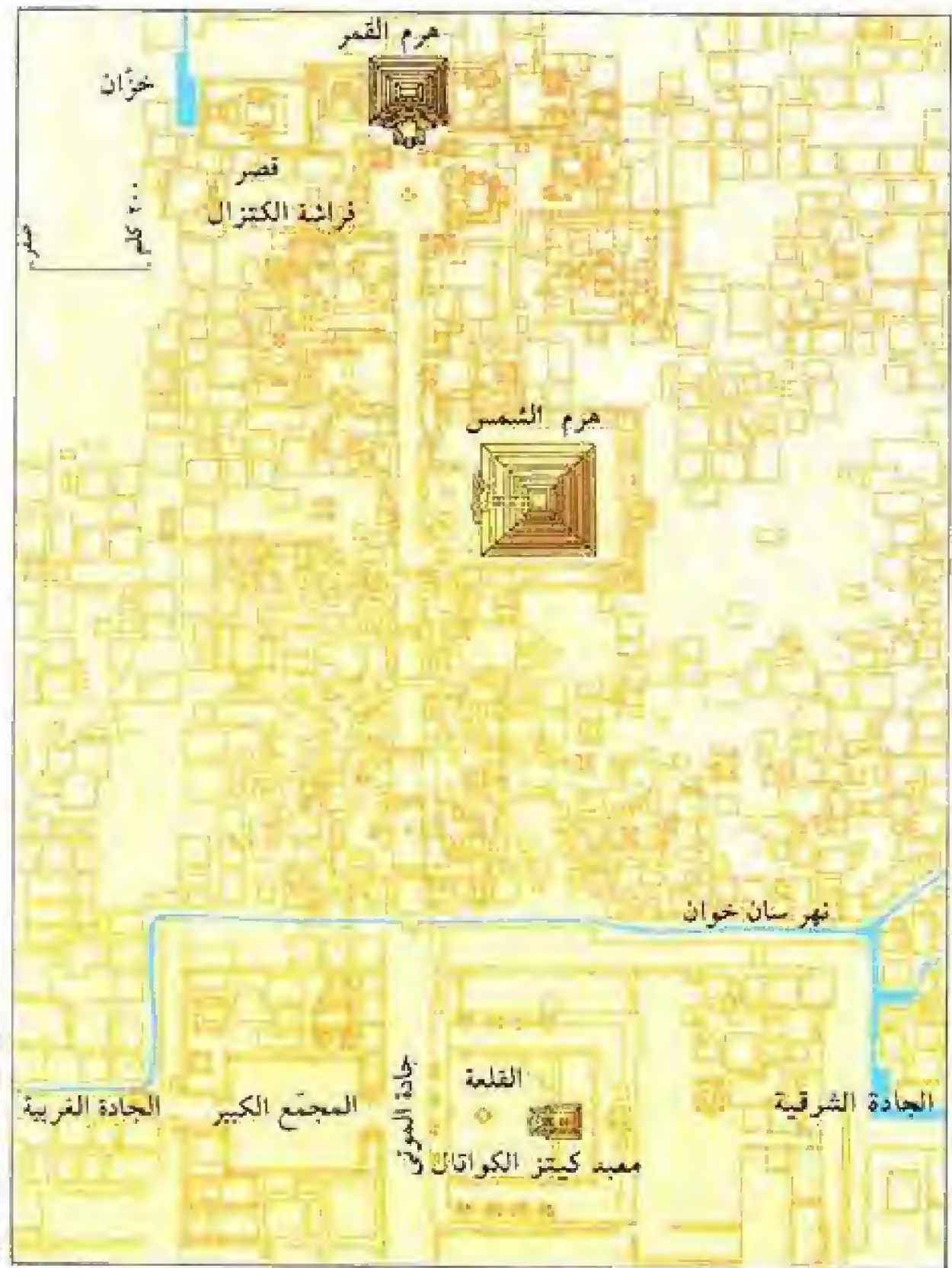
كهفية مصنوعة على الطريقة الأولمكية في المكسيك الغربي ، ويستمر وجود المحفورات شرقا حتى السالفادور . وسواء كان انتشار هذا النشاط الفني تجاريا ام دينيا ام دبلوماسيا ام عسكريا ، فمن حقه ان يعتبر اول اسلوب عم كل انحاء امريكا الوسطى . هنالك بعض الدلائل على ان الاولمك كان لديهم نظام من التدوين العددي ، وربما نظام تدوين آخر . ولكن ، هل يمكن اعتبار ذلك « كتابة »

في لافيتا . انتشرت تجارة الأولمك الى مسافات بعيدة ، وصلت حتى مرتفعات المكسيك ، فكانت اوكساكا مصدرا لمختلف المعادن ، وربما كان وادي نهر بالساس الواقع وراء مدينة مكسيكو منشأ حجر اليشم الأزرق الذي كان يحبه الأولمك . أما المنشأ المحتمل الآخر ، فهو أبعد بكثير ، اذ يقع في كوستاريكا . وُجدت محفورات صخرية ورسوم



الصخر البركاني ، الذي جلب من مسافة لا تقل عن ١٠٠ كلم في جبال توكستلا ، وهي تدل دلالة قوية على السلطة الاجتماعية التي كان هؤلاء الحكام يمارسونها . ان حضارة الأولمك هي اول مجتمع معقد في امريكا الوسطى استطاع ان يبلغ مستوى يمكن وصفه بالمدني . وقد أثرت في التطورات اللاحقة .

والذي عثر عليه في سان لورنزو تينوخيتلان بالقرب من ساحل خليج المكسيك الى حوالي ١٢٠٠ ق . م . عُثر على عدد من هذه الرؤوس في الموقع نفسه ، واكتشفت غيرها في لافيتا وفي عدد من المواقع الصغرى . بما في ذلك موقع بحيرة لو سيروس المبكر . يعتقد بعض الباحثين انها تمثل حكام الأولمك . وقد صنعت من



(٧) - بدأت تيوتيهواكان ، وهي مدينة عظيمة في حوض المكسيك الشمالي الشرقي ، نموها الدرامي حوالي ١٠٠ ق . م . وابتداء من ١٠٠ حتى ٧٠٠ م . كان عدد سكانها يناهز ٢٠٠٠٠٠ . يمتد

(٨) - يعود هذا الرأس الضخم الذي ينتمي الى عصر الأولمك

بالمعنى الحقيقي ؟ هذا السؤال لا يزال موضع جدل .

حدث انتشار مماثل لأسلوب شافين في لبيرو ابتداء من حوالي ١٠٠٠ ق . م . يعتمد هذا الأسلوب على الطيور الكاسرة ، والأشكال المركبة من البشر والهررة (١) التي تحمل بعض صفات الأفاعي ، والملاى بالرموز سرية الغامضة .

تأثير الشافين في الفنون والحرف

يظهر النمط الشافيني في صناعة الفخار أيضا ، وقد عُثر على نماذج منه في الشمال ، حتى الاكوادور . أما صناعة النسيج ، فقد ظهر لتأثير الشافيني عليها في منطقة باراكاس (٤) في جنوبي البيرو . استمر التأثير شافيني حتى حوالي ٢٠٠ ق . م ، وربما يكون قد استمر على مستوى اقليمي في منحوتات منطقة سان اغسطين ، في كولومبيا الجنوبية .

وُجدت مصنوعات ذهبية دقيقة الصنع ، تعود الى الحقبة الشافينية ، في وادي لامبايكن ومناطق أخرى من البيرو شمالي . لقد استهلت هذه الحضارة تقليدا من صناعة المعادن النفيسة استمر حتى الفتح الإسباني . ونشأت مستوطنات مركزية هامة في وادي الفيرو الى الجنوب من تروخيلو على الساحل البيرواني ، وذلك في القرون الميلادية الأولى ، استجابة كما يبدو للضغط السكاني والتنافس على الموارد .

منذ حوالي ٥٠٠ ق . م ، أخذ تطور الحضارة تربوتكية بالتسارع (٢) في وادي وكاكا ، في جنوب المكسيك . فقد وُجدت زل نقوش ضخمة بالخط التصويري الرمزي

في العالم الجديد (٥) في المركز الهام الواقع على هضبة مونت البان ، كما وجدت معها مبان حجرية ضخمة وأشكال بشرية نافرة قليلا . ثمة بناء آخر ، هو التلة (ج) التي ربما كانت مرصدا فلكيا . مع انتهاء الحقبة ما قبل الكلاسيكية ، كانت مونت البان قد عرفت التصميم الشكلي الفسيح والساحات الكبيرة الرحبة والمنصات الضخمة ، التي تم تطورها اللاحق في الحقبة الكلاسيكية .

شهد وادي المكسيك ، بعد فترة من نفوذ الاولمك ، انبثاق عدد من الوحدات السياسية المستقلة ، على ضفاف بحيراته العريضة الضحلة . من هذه الوحدات كويكويلكو التي دمرها انفجار بركاني اثناء فترة حياة المسيح تقريبا . أما دولة تيوتيهواكان ، وهي دولة منافسة في الشمال الشرقي للوادي ، فقد نمت حتى أصبحت ، في القرن التالي ، مستوطنة مدنية مركزية ذات تصميم حسن (٧) ، وامتدت بحلول عام ١٥٠ الى اكثر من ٢٠ كلم مربعا ، وكان عدد سكانها في نمو مطرد .

بداية حضارة المايا

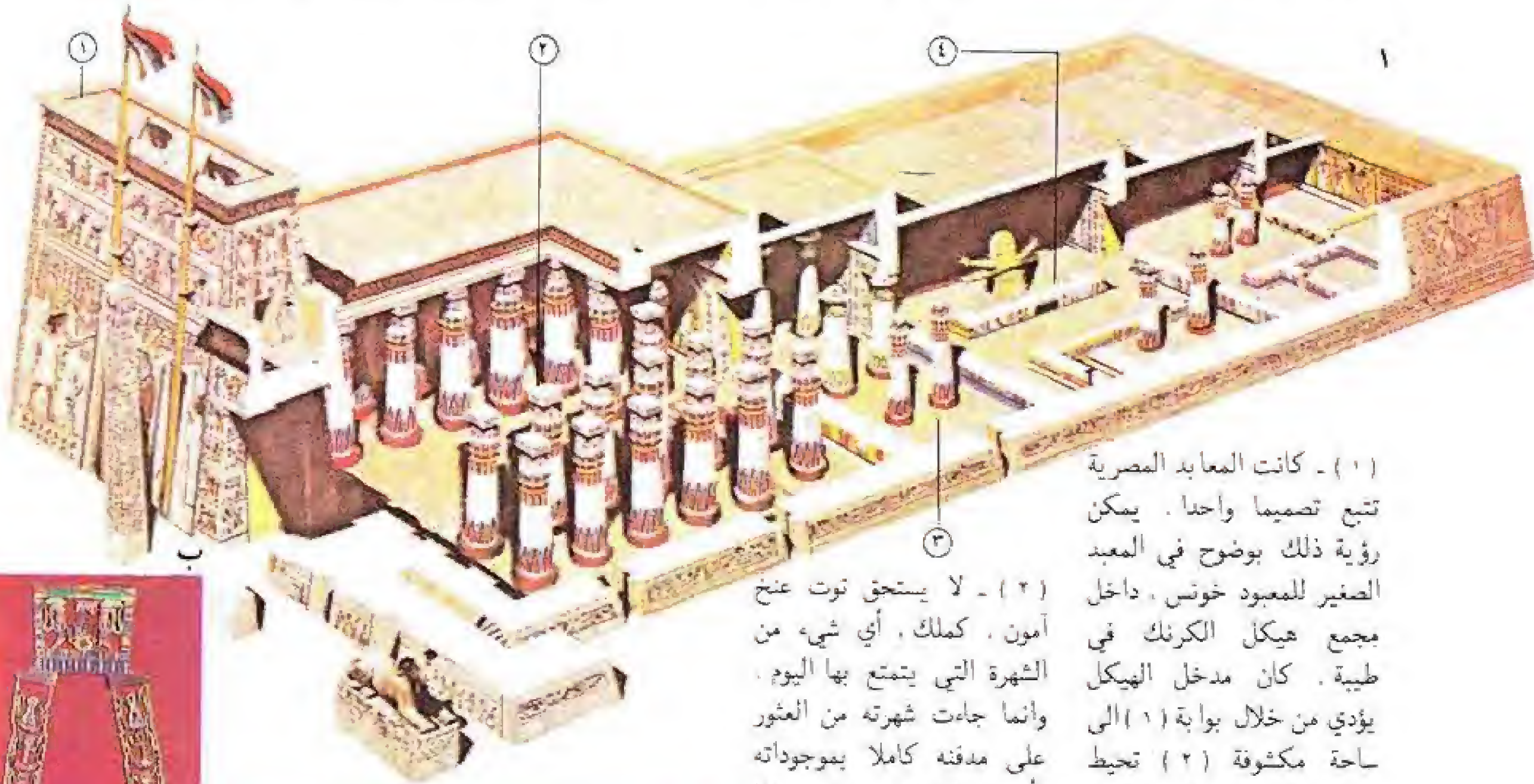
تبدأ الحقبة الكلاسيكية رسميا بظهور شعب المايا في عام ٣٠٠ . فحوالي هذه الفترة ، أخذ أبناء هذا الشعب يبنون الانصاب التي تحمل نقوشا (٣) في « العد الطويل » وهو التقويم الذي يمكننا من تحديد زمان الأنصاب الماياوية (٦) بفارق يوم واحد تقريبا . لكن يبدو الآن ان حضارة المايا نفسها اكتسبت معظم مقومات التمدن خلال العصر ما قبل الكلاسيكي المتأخر .

مصر «من سنة ١٥٧٠ الى الاسكندر»

في العالم القديم . رُفِع آمون معبود طيبة الى رتبة معبود المملكة واعتبر واحداً مع المعبود الشمس رع تحت اسم آمون رع ملك المعبودات (٣) . وكان قسم كبير من الثروة التي دخلت مصر نتيجة لفتوحاتها ينفق على خدمة آمون وكهنته .

توطيد السلطة المصرية
حرص الملوك الأول من الاسرة الثامنة

يبدأ تاريخ المملكة الحديثة في مصر (١٥٧٠ ق . م - ١٠٨٥ ق . م) بانتصار قوات طيبة على حكام مصر الهكسوس . امتدت امبراطورية مصر الحديثة من السودان الشمالي حتى سوريا ، مشكلة احدى القوى الرئيسية



(١) - كانت المعابد المصرية تتبع تصميمًا واحدًا . يمكن رؤية ذلك بوضوح في المعبد الصغير للمعبود خونس . داخل مجمع هيكل الكرنك في طيبة . كان مدخل الهيكل يؤدي من خلال بوابة (١) الى ساحة مكشوفة (٢) تحيط بجانبها اعمدة . بالقرب منها ، على محور مستقيم ، كانت تقوم قاعة ذات اعمدة (٣) تؤدي الى الحرم (٤) الذي وضع فيه صنم المعبود . وكانت غرف الخدمة والمستودعات تحيط بالحرم . لما كان كل ملك مصري يحرص على تخليده ذكره من خلال المشاريع العمرانية ، كانت الهياكل الرئيسية معرضة دوماً لأعمال توسيع وهندسة جديدة . بإضافة مزيد من الغرف الى البناء الأصلي .

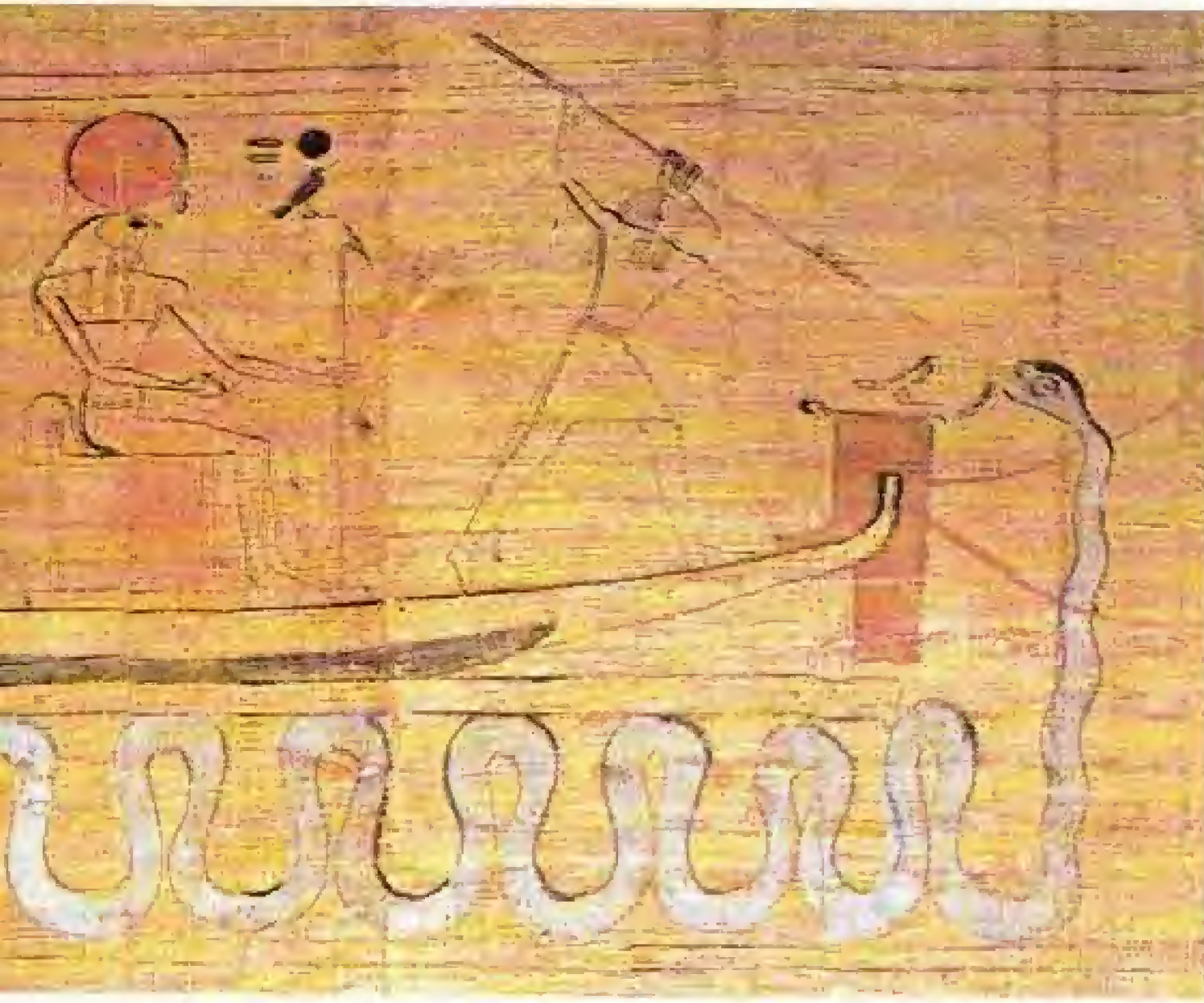
(٢) - لا يستحق توت عنخ آمون ، كملك ، أي شيء من الشهرة التي يتمتع بها اليوم . وإنما جاءت شهرته من العثور على مدفنه كاملاً بموجوداته الأثرية الثمينة جداً . وهذا الكثر المؤلف من عقد نقش عليه رموز شمسية وقمرية (أ) ومن قلادة تمثل الشمس الطالعة (ب) . هو من جملة ما عثر عليه في ذلك المدفن . اعتلى توت عنخ آمون العرش وهو فتى نتيجة لزواجه من ابنة اخناتون ووريثته . امام الضغوط السياسية ، تخلى عن ديانة اخناتون . وهجر تل العمارنة عائداً الى طيبة . وأعاد عبادة آمون وسواه من المعبودات .



عشرة في الدرجة الأولى على حماية مصر من هجمات البدو في الشرق ، والنوبيين في الجنوب . لكنهم ، بعد تأمين سلامة التخوم الشرقية ، جهزوا عدة حملات للسيطرة على مملكة النوبة في الجنوب ، والاستيلاء على مناجم الذهب فيها .

كان عدم وجود ورثة ذكور للعرش بسبب زواج الملك من شقيقته قد قوى نفوذ الوريثات الملكيات . كانت احداهن

حتشبسوت (حكمت ١٥٠٣ ؟ - ١٤٨٢ ؟ ق . م) زوجة تحوتمس الثاني ، واخته من أحد والديه ، التي لم تحمل له مولودا ذكرا . ولدى وفاته ، نُصّب على العرش ابن احدى المحظيات ، وهو تحوتمس الثالث (حكم ١٥٠٤ ؟ - ١٤٥٠ ق . م) الذي كان من المفروض ان يتزوج من اخته ، الا ان زوجة أبيه حتشبسوت استولت فيما بعد على العرش لنفسها وحكمت بجانب تحوتمس الثالث الذي



(٣) - كانت عبادة آمون قد طغت على العبادة القديمة لرع معبود الشمس ، الى أن حاول اخناتون مكافحة عبادة جميع المعبودات ، باستثناء رع . كان المعبود الشمس هذا يتمثل على صورة اتون (او قرص الشمس) ، الذي تتضرع اليه في هذه الصورة الملكة نفرتيتي .

(٤) - في مقابر المملكة الحديثة كان يودع « كتاب الموتى » .



حُرم من ممارسة أية سلطة حقيقية .
وعندما توفيت حتشبسوت ، تسلم
تحوتمس الثالث مقاليد الحكم الفعلي ، وباشـر
فوراً بتجريد حملات لاختـضاع الممالك
الصغرى في فلسطين ومعظم أنحاء سوريا .
كذلك أتم فتح بلاد النوبة حتى بلدة نباتا ،
وواصل خلفاؤه المباشرون سياسته التوسعية .
في عهد امنحوتب الثالث (حكم ١٤١٧ -
١٣٧٩ ق . م) ، بلغ البلاط المصري ذروة

نفوذه ، وراح يتلقى الجزية او السلع التجارية
من سوريا وبلاد ما بين النهرين والاناطول
وكريت وحتى اليونان . وقد حور ابنه
امنحوتب الرابع او اخناتون (حكم ١٣٧٩ ق . م -
١٣٦٢ ق . م) الديانة المصرية بفرضه العبادة
للمعبود الشمس المتمثل في آتون ، أي قرص
الشمس ، ونقل العاصمة الى مدينة آخت آتون
الجديدة (تل العمارنة) . لاقت سياسة
اخناتون معارضة شديدة من قبل كهنة



(٨) - ضمن رعمسيس الثاني
بقاء ذكراه بفضل مشاريعه
المعمارية الضخمة . فقد اضاف
القاعة ذات الأعمدة الى معبد
أمون في الكرنك ، وانهـز
زيادات أخرى (بما في ذلك
هذا التمثال الضخم الخاص به)
في معبد الأقصر . وعلى الضفة
الغربية ، بنى في طيبة معبده
الدفني . المعروف
بالرعمسيسي . ومن أجل
ملكته المحبوبة نفرتاري . بنى
ضريحاً مزينا برسوم رائعة في
« وادي الملكات » . شيد أيضاً
في بلاد النوبة معبد « ابو
سبل » العظيم . فضلاً عن
معابد أخرى في أماكن شتى
من مصر .



(٧) - صدرعمسيس الثالث في
اواخر عهد المملكة الحديثة
هجمات « الشعوب البحرية »
بما فيهم الفلسطينيين القدماء .
وربما أيضاً أجداد الصقليين .

يمكن اعادتها الى الحياة
بصورة سحرية . بحيث لا
يكون الميت مجرداً من
ممتلكاته ولذاته لدى دخوله
العالم الآخر .

(٦) - تعكس القبور المزينة
تزيينا رائعاً ، والتي تعود الى
المملكة الحديثة في طيبة ،
الحياة التي عاشها المصريون
من جميع الطبقات . كان
الاعتقاد سائداً ان هذه المشاهد

المعبودات القديمة . وأدت الى الفوضى الداخلية والى تقلص نفوذ مصر في الخارج . الى ان تخلى خلفاؤه عن معتقداته . وأعيد الأمن الى نصابه . في عهد حورمحب .

لدى وفاة حورمحب . انتقل العرش الى وزيره رعمسيس الأول (حكم ١٣٢٠ ؟ - ١٣١٨ ق . م) الذي أسس الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ ؟ - ١٢٠٠ ق . م) .

المجابهة مع الحثيين

كان هدف الحكام في هذه الحقبة إعادة توطيد سلطة مصر ونفوذها في الخارج . وتثبيت سيطرة مصر على فلسطين . وذلك لمواجهة تزايد قوة الامبراطورية الحثية . أدى تنافس هاتين الدولتين الى صدام كبير بينهما . وقع في السنة الخامسة من حكم رعمسيس الثاني (حكم ١٣٠٤ - ١٢٣٧ ق . م) (٨) في بلدة قادش . حيث ادعى كل من المصريين والحثيين انه هو المنتصر . الا ان لصلح لم يلبث ان عُقد بين المتحاربين .

في عهد خلفاء رعمسيس الثالث الذين كانوا جميعا يُدعون رعمسيس (أي أولاد رع) . أخذت سلطة العرش بالتدهور في وجه لغزوات الليبية وتزايد سلطة الحكام المحليين . لاسيما سلطة كاهن آمون العظيم في طيبة . الى ان فقدت مصر ممتلكاتها لأجنبية في فلسطين وبلاد النوبة . في آخر حكم الأسرة . ووقعت هي نفسها تحت سيطرة حكام أجنبي . وفي عهد الأسرة الواحدة والعشرين التي حكمت البلاد من عاصمة الشمالية تانيس . كانت طيبة مستقلة فعليا في ظل كبار كهنتها . الى ان أعاد الى مصر وحدتها القائد الليبي شيشنق الأول

(حكم ٩٣٥ ؟ - ٩١٤ ق . م) . مؤسس الأسرة الثانية والعشرين الذي نصب ابنه كبيرا لكهنة آمون . وعمل على إعادة توطيد سلطة مصر كدولة عظمى . بتجريد حملة كبرى على فلسطين . لكن في عهد خلفائه . عادت وحدة البلاد فتصدعت بسبب الحروب الأهلية . وانقسمت مصر الى مدن - دويلات تحت سيطرة حكام مستقلين . معظمهم من أصل ليبي . أخيرا نشأت مملكة مستقلة في بلاد النوبة الى الجنوب . وفتح ملوك النوبة مصر حوالي ٧١٢ ق . م . وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين .

قُضي على الحكم النوبي في اعقاب سلسلة من الغزوات الاشورية التي أدت الى تنصيب أمير سايس حاكما اسميا على مصر . وبمساعدة المرتزقة اليونان . استطاع بسامتيك الاول (حكم ٦٦٤ ؟ - ٦١٠ ق . م) . من الأسرة السادسة والعشرين . ان يفرض سلطته على البلاد بأسرها . ويحررها من السلطة الاشورية .

الهزيمة على يد بابل وفارس

تميز عهد الأسرة السادسة والعشرين (٦٧٠ - ٥٢٥ ق . م) بفترة جديدة من الرخاء . الا ان آمال مصر باستعادة مكانتها كدولة عظمى مُنيت بالفشل على يد البابليين . في معركة قرقيش عام ٦٠٥ ق . م . وفي آخر الأمر . استولى الفرس عام ٥٢٥ ق . م . على مصر . ومع ان الثورات اللاحقة أعادت لمصر استقلالها فترة وجيزة بين ٤٠٤ و ٣٤٣ ق . م . فقد بسط الفرس سيطرتهم عليها من جديد . حتى مجيء الاسكندر الكبير عام ٣٣٢ ق . م .

افريقيا: كوش وأكسوم

(١٥٠٠ ق . م) كانت جميع الاراضي المحيطة بالنهر ، حتى الشلال الرابع ، قد فُتحت واستوطنت الى درجة ما من قبل المصريين . كانت هذه البلاد التي دعيت فيما بعد ببلاد النوبة ، تعرف لدى المصريين باسم كوش .

على مر التاريخ المصري القديم ، كانت جيوش الفراعنة تدفع حدود امبراطوريتهم جنوبا باستمرار على امتداد نهر النيل ، محور مدنياتهم ومركزها ، باتجاه افريقيا الاستوائية السوداء . وبحلول عهد المملكة الحديثة

ظهرت مملكة كوش
في حوالي ١٠٠٠ ق . م . كانت المملكة



جزءا من العالم الاسلامي
بقليل .

(٤) - كان ناروا حاكم طيبة
اثناء حكم احدى سلالات
الفراعنة الكوشيين ، في القرنين
الثامن والسابع قبل الميلاد .
كان الكوشيون قد زحفوا شمالا
وحكموا مصر حتى هزمهم
وردهم الى بلادهم غاز جديد .

ممالك مسيحية منقرضة .
في احدى الكنائس في
فسارس بالقرب من وادي
حلفا ، الذي تغمره اليوم
مياه سد أسوان . خلفت
ممالك مسيحية امبراطورية
كوش ومروى . بعد سقوط
تلك الامبراطورية في
القرن الخامس بعد
الميلاد ، وقبل أن تصبح مصر

(٢) - كان معبود كوش
الأسد منقوشا على جدار
هيكل في ناقا (١٠٠
ق . م - ١٠٠ م) وهي مركز
واقع الى الجنوب من مروى .
يكشف هذا النقش عن تأثير
هندي .

(٣) - بقي شيء من الفن
المسيحي ، الذي خلفته

(١) - احتلت حضارات كوش
ومروى واكسوم الزاوية الشمالية
الشرقية من افريقيا ، كوش
ومروى في منتصف وادي النيل
الى الجنوب من مصر ، واكسوم
في الجرف الجبلي العالي
شمالا الحبشة . كانت اكسوم
العربية الاصل هي الدولة
المؤسسة لامبراطورية اثيوبيا
المسيحية .

طويلا . فبين ٦٧٦ و ٦٦٣ ق . م . غزت الجيوش الاشورية مصر ودمرتها . في عهد أسر حدون أولا ثم في عهد اشور بانيبال . فتراجع الفرعون الكوشي تاهارقا جنوبا حتى كوش . كان سر انتصارات الجيوش الاشورية القوية في ارجاء الشرق الاوسط يكمن في الاسلحة الحديدية التي كانت بحوزتها . والتي كانت تتفوق كثيرا على الاسلحة البرونزية التي يستعملها اعداؤها .

الحديثة قد انهارت . وبرزت كوش كدولة مستقلة عن مصر . لا سياسيا وحسب . بل ثقافيا أيضا . مع الزمن . في غضون ٢٠٠ سنة . كان حكامها قد بلغوا درجة من الاستقلال والمنعة استطاعوا معها عام ٧٢٥ ق . م أن يزحفوا شمالا على طول النيل . ويحتلوا مصر بكاملها . ويؤسسوا فيها الأسرة الخامسة والعشرين من الفراعنة (٤) .
الا ان الحكم الكوشي لمصر لم يدم



أسرى الحرب في نقوش حاقة أحد الهياكل الذي انشئ في القرن الأول بعد الميلاد . كانت القبيلة تستعمل لأغراض عسكرية واحتفالية . في كوش ومروي . يلاحظ في النقوش الكوشية كلها أنها خشنة الازميل والصقل . تأثرها بالنحت المصري أو الاغريقي . بوادي النيل . كان محدودا . وهي أشبه بالنحت اليمني .

هو « جيش الأثوريين الحديدي » . حضارة الكوشيين في مصر تشكل الجزء قبل الأخير من الحضارة الفرعونية .

(٥) - يظهر فيل وعدد من



القرن السادس ق . م . كانت حدود كوش قد بلغت جنوبي مدينة الخرطوم الحديثة ، حيث كانت الأرض مكسوة بالغابات الكثيفة .

سيطرة حضارة مروي

انتقل مركز السلطة في الامبراطورية جنوبا ، من نباتا العاصمة القديمة بالقرب من الشلال الرابع ، الى مروي ، في الجنوب من نقطة التقاء نهر عطبرة مع النيل . منذ ذلك

تعلم قادة كوش درسا قاسيا خلال معاركهم مع الاشوريين ، لكنهم حملوا معهم التقنية الحديدية التي اصبحت اساسا لاستقرارهم . فبعد انسحابهم من مصر ، اخذوا يتوغلون جنوبا ، لكنهم لم يبتعدوا عن مجرى النيل ، اذ ان المناطق المحيطة بجانبى النهر العظيم كانت اخصب مما اصبحت عليه في العصور اللاحقة . وكانت قادرة على توفير الغذاء لقطعان كبيرة من المواشي . مع حلول

- (٦) - أسس امبراطورية اكسوم في القرن الافريقي مهاجرون عرب من اليمن . وكانت هذه الدولة عظيمة وغنية بالمنتجات تمارس النشاط التجاري مع جزيرة العرب واليونان والهند . وهي بلاد ذات جروف شامخة ، أعلاها رأس داجان البالغ ارتفاعه ٤٦٢٠ م . كانت من أصعب البلدان الافريقية سواء للعيش فيها أو لغزوها . وقد دخلت عالم الأساطير الأوروبية كموطن للملك المسيحي الاسطوري . الراهب يوحنا .
- (٧) - هذا الخط المروي الغامض (أ) لم تفك رموزه بعد . لكننا نعلم ان الخط السبئي (ب) الخاص بمملكة اكسوم هو أساس اللغة الأمهرية الحديثة . التي هي لغة أثيوبيا



٧

١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

التاريخ . صار يشار الى الامبراطورية غالبا باسم مروي ، عوضا عن كوش . وفيما كان بعض سكان الجزء الشمالي من كوش من السود . كان تقريبا جميع سكان المنطقة المحيطة بمروي من السود . واصبحت الامبراطورية بكاملها دولة سوداء .

كان لمروي موارد غزيرة من الحديد الخام ، ومن الخشب اللازم لصهره . فانتشرت صناعة الحديد في الامبراطورية على نطاق واسع . وما زالت أكوام ضخمة من الحديد منتشرة في المناطق الريفية حتى الآن . استطاع فرسان الجيش المروي المسلحون تسليحا جيدا ان يدافعوا عن الاراضي الآهلة ، ضد هجمات البدو الرُحّل القادمين من الصحراء ، وازدهرت التجارة مع مصر البطلمية . ومع الجزيرة العربية ، وحتى مع الهند عن طريق البحر الأحمر .

الا ان حضارة مروي او كوش اخذت في التقهقر في مطلع الحقبة المسيحية . كان ذلك نتيجة اجذاب داخلي ، ولاسيما جفاف الأراضي الزراعية التي كانت غنية بالكلأ .

دامت امبراطورية كوش ومروي أكثر من ألف سنة ، وكانت انجازاتها الثقافية غنية ونابضة بالحيوية (٢ ، ٥) . وقد مثلت أكثر من مجرد شكل افريقي للحضارة المصرية ، اذ ان سكان هذه الامبراطورية أخذوا تراثهم المصري وأضافوا اليه الكثير مما اقتبسوه من شعوب شرقي البحر المتوسط ، من اشوريين وبابليين ، ومن العالم الهلينستي والهند . وصاغوا من كل ذلك شيئا فريدا ، بما فيه نمطهم الخاص من الكتابة ، وهو خط نسخي استعصى حتى اليوم على محاولات فك رموزه (٧) .

أكسوم :

الامبراطورية المناوئة في اثيوبيا

نشأت أكسوم ، الامبراطورية المناوئة لمروي ، في الجزيرة العربية ، لا في القارة الافريقية . فقد قام في اليمن عدد من الدول الصغيرة الغنية ، في اوائل الألف الأول قبل الميلاد . كانت سبأ احداها ، وهي على الأرجح مملكة شيبا التي اقترن ذكرها بزمن الملك سليمان . ومع حلول القرن السابع ق . م . عبرت مجموعات من الشعوب العربية الناطقة بالسامية ، من اليمن الكثيفة السكان الى قرن افريقيا عبر البحر الأحمر ، وحلّ افرادها كمزارعين على الطرف الشمالي الشرقي من هضبة اثيوبيا العالية . هناك حققوا درجة كبيرة من الازدهار ، واستطاعوا السيطرة على اهالي البلاد الاصليين الناطقين بالكوشية ، فتقبل الكثير من هؤلاء بالتدريج ثقافة الوافدين الجدد ولغتهم السامية . ثم أسس فريق من هؤلاء المهاجرين ، وأفراده مدعوون بالأحباش ، مملكة لهم في القرن الثالث ق . م . مركزها أكسوم (٦) .

كان لليونان الهيلينستيين نفوذ خاص في بلاط ملوك أكسوم . فمهدوا الطريق أمام قدوم المسيحية . استولى حكام أكسوم المسيحيون على بعض أجزاء الجزيرة العربية الجنوبية في القرن السادس الميلادي . لكن ما لبثت الجيوش الفارسية ان طردتهم منها . بعد ذلك الحين ، أخذت أكسوم في التدهور تدريجيا . لاسيما حين قطع الفتح العربي الاسلامي تجارتها على البحر الأحمر ، وأدى اجتياح قبائل البدو الرحل لها الى زوال قوتها .

الحثيون

« ١٧٠٠ - ١٢٠٠ ق م »

وتحصينات ضخمة ، تبين بوضوح انها كانت
آثارا لحضارة قديمة مزدهرة وقوية ، ولم
يلبث ان ثبت ان تلك الحضارة هي الحضارة
الحثية . ان ما سلت الأضواء على هذه الشعوب
هو اكتشاف ما يربو على ١٠٠٠٠ لوحة مسمارية ،
في بوغازكوي ، موقع العاصمة الحثية
حاثوشا . كانت اللوحات مكتوبة بعدة
لغات ، منها الأكادية والحاطية والهورية
واللووية والسومرية ، فضلا عن الحثية . وقد

قبل مائة سنة ، كانت معرفتنا بالحثيين
مستمدة فقط من اشارات اليهم واردة في
الكتاب المقدس ، وفي مدونات ما بين
النهرين . لكن في القرن التاسع عشر ، أخذ
المنقبون في تركيا يكتشفون انسابا



العصر الهندسي المبكر ، وعلى
معبد واقع في تاكسيلا .

(٢) - من المعبودات الرئيسية
في مجموعة المعبودات الحثية
بالاناضول معبود الطقس

ذاته ايضا كقاعدة لشكلين
قائمين بين منحوتات
يازيليكايا . ويظهر طائر ذو
رأسين في أماكن أخرى من
العالم القديم . مثلا على قطعة
عاج من اسبرطة ، تعود الى

يديران وجهيهما الى الخارج ،
على غرار رأسي النسر . كان
يقف على ظهر النسر شكل
لحق به اليوم عظم كبير ، لعله
كان شكل احد المعبودات .
يظهر رمز النسر ذي الرأسين

(١) - نقش هذا النسر ذو
الرأسين على ظهر تمثال ، في
ألاجا هويوك في تركيا . وهي
مدينة تعود الى العصر الحثي
الامبراطوري . يقبض النسر
ببرائته على ارنين بريين

تبين انها وثائق حكومية .

أصول الحضارة الحثية

لا نعرف الا القليل عن أقدم عهود الحضارة الحثية ، قبل احتكاكها ببلاد ما بين النهرين . قدم الحثيون الى آسيا الصغرى قبل ٢٠٠٠ ق . م من أوروبا او روسيا الجنوبية . ويبدو ان الملك حاثوشيل الأول في اواسط القرن السابع عشر ق . م وُجد عددا من

الدويلات ، واختار بلدة حاثوشا مركزا اداريا له . والظاهر ان قوة الحثيين نمت بسرعة . فقد استطاع مورشيلي الاول ، في اوائل القرن السادس عشر ق . م ، لا ان يحتل سوريا وحسب ، بل ان يزحف ايضا على بابل ويكتسح المدينة ويقضي على السلالة التي كان حمورابي اعظم ممثليها . كان آخر ملوك الحقبة المعروفة بالمملكة القديمة تيليبينو (حكم ١٥٢٥ ؟ - ١٥٠٠ ق . م) الذي اشتهر



٤ تيتوب (أ) ومعبودة الشمس الانثى أرينا (ب) . يبدو تيتوب هنا ، في احد تماثيل القرن التاسع ، في وضعه المألوف . وقد امتشق ومضة البرق (التمثال موجود في متحف حلب) . خلافا لبلاد ما بين النهرين ، كانت الاناضول منطقة سحاب وعواصف ، كان الملك يستنجد في ساعات الحرب والخطر بمعبودة الشمس الانثى التي تبدو هنا متشحة بقلادة من عصر الامبراطورية . كانت المعبودة الشمس هي الحارس الأعلى للدولة الحثية .

واقترنت في الغالب بنقوش بالحثية التصويرية (التي هي غير المسمارية) . هناك كذلك عدد كبير من الاشكال الجميلة الصغيرة ، مثل هذا التمثال المنمنم (يبلغ ارتفاعه ٤.٢ سم) لرجل ، لعله ملك ، يرتدي رداء تاما ذا أكمات قصيرة . عُثر على هذا التمثال في يوزغات بالقرب من بوغازكوي ، ويعود الى حوالي القرن الرابع عشر ق . م .



٥ على عدة رسوم نافرة تمثل حيوانات وموسيقيين ومشعوذين ، فضلا عن راع يرعى قطيعه . وكثيرا ما عثر هنالك على مدافن لمن سبقوا الحثيين تعود الى الالف الثالث وتحوي اشكالا لحيوانات مصنوعة من الفضة والبرونز ، وأباريق وطاسات وحليا ذهبية .

(٥) - معظم المنحوتات الحثية التي وصلتنا هي رسوم نافرة ضخمة حفر في الصخر ،

(٣) - كشفت الحفريات في قره تيب ، الى الشمال الشرقي من اضنة ، عن نقش بلغتين ، الحثية التصويرية والنينيقية ، مما سهل عملية فك رموز اللغة الحثية .

(٤) - عند بوابة ابي الهول في ألاجيا هيوك في تركيا الوسطى ، نُحتت تماثيل ابي الهول ، بصورة مستديرة تقريبا . وهو أمر نادر في الفن الحثي . عُثر ايضا بين الانقاض

بالمرسوم الذي حدد به قواعد سلوك الأشراف والملك .

بعد مرور فترة لا يتوفر عنها الا القليل من الدلائل ، ظهرت الامبراطورية الحثية في حوالي ١٤٦٠ ق . م . كان اول ملوك السلالة الحديثة فيما يبدو توتاليا الثاني الذي يروى انه احتل حلب . ويبدو ان ميتاني ، وهي دولة اسسها الحوريون في شمالي ما بين النهرين ، هي التي اوقفت اي تقدم اضافي

للحثيين .

الا ان الوضع تغير فجأة بصورة حاسمة عندما استولى شوبيلوليوما على العرش في حوالي ١٣٨٠ . فقد حصن مدينة حاثوشا ، وفي حملة رائعة ، دحر ميتاني والدويلات السورية التابعة لها . الا ان قرقيش ، التي كانت تسيطر على معبر هام على الفرات ، حافظت على استقلالها ، فاضطر شوبيلوليوما ان يجهز حملة ثانية اجتاحت بها هذا الحصن ، واحتل



(٦) - يقوم معبد يازيليكايا الرائع مشرعاً نحو الهواء الطلق ، وقد نحت في الصخور الواقعة خارج جدران حاثوشا العاصمة الحثية . في المشهد الرئيسي يظهر معبود الطقس تيشوب واقفاً على جبل مقدس . وتقف أمامه قرينته مع ابنه . وتحتة تقف مجموعة من معبودات الحوريين . في أخريات سني الامبراطورية ، وقعت الديانة الحثية تحت التأثير الحوري القوي .

كما يتبين من النقوش الظاهرة في الرسم .

(٧) - يقوم هذا الرسم المحفور في الصخر قرب إفريز في جبال طوروس شاهداً على النمط

الآرامي في النحت الحثي . كما يتبين خاصة من قبعة المعبود وخصل شعره وشعر الملك الواقف بجانبه . لقد سهل اقتران الرسوم النافرة بالكتابة التعرف الى الهوية الحثية لأنصاب أخرى عُثر عليها عام ١٨٨٠ في أمكنة مختلفة من آسيا الصغرى .

(٨) - هذا الأسد المحفور في صخر من البازلت موجود في ملاطية ، ويعود على الأرجح الى حوالي ١٠٠٠ ق . م . وهو شاهد جيد على فن النحت في الحقبة الحثية الحديثة . عندما أصبح استعمال الأسود المنحوتة من الصخر شائعاً .

سوريا بكاملها ، من الفرات حتى البحر .

توفي شوبيلوليوما حوالى ١٣٤٦ ق . م .
وبرهن ابنه مورشيلي الثاني عن كفاية مماثلة
لكفاية أبيه ، فهزم بلاد ارزاوا الى الغرب ،
وقمع ثورة في سوريا . ورث الملك التالي ،
موواتلي ، امبراطورية مستقرة مزدهرة . الا
ان مصر كانت عازمة ، في عهد رعمسيس
الثاني (حكم ١٣٠٤ - ١٢٣٧ ق . م) ، على
استعادة ممتلكاتها والنفوذ الذي كانت قد
فقدته في سوريا . فالتقى الجيشان في قادش
على نهر العاصي . ادعت مصر انها
احرزت انتصارا حاسما ، ولكن يبدو ان
الحثيين استطاعوا ان يصمدوا على الاقل ،
ويحافظوا على نفوذهم في سوريا . ثم
تحسنت العلاقة بين الدولتين ، حين اصبحت
اشور تشكل خطرا عليهما معا ، وفي حوالى
١٢٨٤ ق . م ، وقعا معاهدة صداقة وعدم
اعتداء .

نهاية الامبراطورية الحثية

تنقطع سجلات الامبراطورية الحثية فجأة
في اواخر القرن الثالث عشر ق . م ، عندما
تدفق غزاة هندوأوروبيون يعرفون « بشعوب
البحر » على المنطقة قادمين من اوروبا .
فقد هرب الحثيون الى الجنوب ، عندما اجتاح
الفريجيون آسيا الصغرى . ومع ان الحثيين
فقدوا وطنهم ، فقد بقيت حضارتهم على قيد
الحياة ، اذ أسس هؤلاء اللاجئين مجموعة من
الدول - المدن في سوريا الشمالية التي
كانت قد خضعت للسيطرة الحثية مدة
طويلة . ان معظم الأدلة الأثرية مستمدة من
هذه الحقبة الحثية الحديثة ، لا من الحقبة
الامبراطورية القديمة . كانت كتابة هذه

الممالك الصغيرة حثية تصويرية - رمزية ،
ولكن لغتها كانت في جوهرها لئوية بحيث
يمكننا الافتراض ان الحثيين لم يؤلفوا
بالضرورة أكثرية السكان .

بنية المجتمع الحثي

لم تستطع الدول - المدن الحثية الحديثة ،
التي كانت في الغالب معزولة جغرافيا ، ان
تتحد بصورة فعالة ضد قوة آشور المتصاعدة .
فبعد استيفاء الجزية طيلة سنين عديدة ،
وقمع بعض الثورات الطارئة ، قررت آشور في
عهد تيغلث الثالث (حكم ٧٤٤ - ٧٢٧ ق . م)
ان تضم الممالك السورية الى امبراطوريتها ،
وما ان اكتمل القرن الثامن ق . م ، حتى
باتت الامبراطورية الحثية في ذمة التاريخ .
في الحقبة التي تنتهي في اواخر القرن
الثالث عشر ق . م ، كان الملك الحثي هو
الذي يصدر القرارات النهائية حول القضايا
العسكرية والدينية والقضائية (٥) . مع انه
لم يكن يحتل مركز السيطرة كنظيره في
بلاد ما بين النهرين . ولدى وفاته ، كان
ينضم الى صفوف المعبودين ، حتى كانت
عبارة « اصبحت معبودا » تعبيرا مستحبا عن وفاة
الملك . وكان للملكة أيضا أهمية ، اذ كانت
تلعب دورا في شؤون الدولة . كذلك أصبح
التحيز للأقارب شائعا ، بحيث آلت معظم
المناصب العليا الى اقرباء الملك ، كما يبدو
انه كان ثمة طبقة خاصة من الاشراف
وملاكى الاراضي تتمتع بالامتيازات . اما
أفراد عامة الشعب ، فقد كانوا يعملون
كمزارعين وصناع وعمال ، ولم يكن ابناء
طبقة الخدم ، رغم تمتعهم ببعض الحقوق
القانونية ، أكثر من عبيد .

الفينيقيون

« ١٥٠٠ - ٣٣٢ ق.م. »

منذ حوالي القرن ٢٥ ق. م. وما بعده ، أخذت تتكاثر ، في شمال سورية خاصة وحتى جنوبها ، هجرة بشرية كبيرة مصدرها الجزيرة العربية . سماها السومريون باسم عمورو (أي الغربيين) لأنها نزلت في غربهم

وأعطوا الاسم نفسه لسورية . بين القرنين ٢٥ - ٢٠ . كان شمال سورية وحوض الفرات الاوسط عموريا . وبعد أن أسس العموريون دولة على هذا الحوض ، عاصمتها ماري ، سيطروا على بابل ، وكانت منهم السلالة التي ظهر فيها حمورابي .

عرف الذين توطنوا من هذه الجماعات المهاجرة في وسط سورية حتى فلسطين بالكنعانيين . أما الذين نزلوا على طول



٢



١

- مناطق نفوذ قرطاجة حوالي ٣٢٢ ق. م.
- طرق تجارية عبر المتوسط حوالي ٣٧٥ ق. م.
- استكشافات فينيقية في القرن الخامس

(٣) - بسطت قرطاجة النفوذ الفينيقي في اسبانيا وسردنيا وأفريقيا الشمالية ، وكان للفينيقيين عدة محطات في صقلية الغربية . في عام ٤٨٠ ق. م. قام القرطاجيون بحملة فاشلة على الشمال . لاسعاف احشورش الفارسي . وفي اواخر القرن الرابع . خاضوا حربا فاشلة ايضا ضد سرقطة .

(٤) - تظهر شجرة الحياة . رمز الخصب عند البابليين والاشوريين . مع زهرة اللوتس المصرية على هذه اللوحة العاجية الفينيقية التي وجدت في احد القصور الاشورية . وهي تبين مدى انتشار التجارة الفينيقية . وبالتالي التأثيرات الثقافية بين شعوب المنطقة .

(٥) - يعود هيكل المسلات في جبيل ، أقوى المدن الفينيقية في العهد المصري ، الى اواسط العصر البرونزي . كانت هذه المعابد تشمل انصبا او اعمدة اقيمت تعظيما للأصنام ، او احتفالا بحرق الموتى ، او لتعيين مواقع دفن اشياء مهمة .

(٦) - كان الفينيقيون مهرة في صياغة الذهب ، وهو فن يقال انهم تعلموه من الميكانيين والمصريين . عُثر على هذا الخاتم الذهبي الذي يعود الى القرن السادس او الخامس ق. م. في تاروس بسردينيا .

يظهر الملك جالسا على العرش وقد احاطت به مجموعة من اشكال ابي الهول المجنحة . تدل زهرة اللوتس الذاوية في يده انه قضي نحيبه . امامه مائدة حافلة بالماكل ، ويتقدم منه موكب من الخدم . فوق هذا المشهد طنف مصري الطابع مزين بزهرة اللوتس . وتحت اربعة اسود تذكرنا اكثر بالرسوم الاشورية او الحثية النافرة . على غطاء التابوت يظهر واحد من أقدم أمثلة الكتابة الفينيقية .

(١) - هذه المنحوتة العاجية الفينيقية ربما كانت تمثل عشتار ، معبودة الخصب عند البابليين التي تقابلها عند الفينيقيين أنات (عشتروت) وكانت احدى المساعدات الرئيسيات للمعبود الكنعاني بعل .

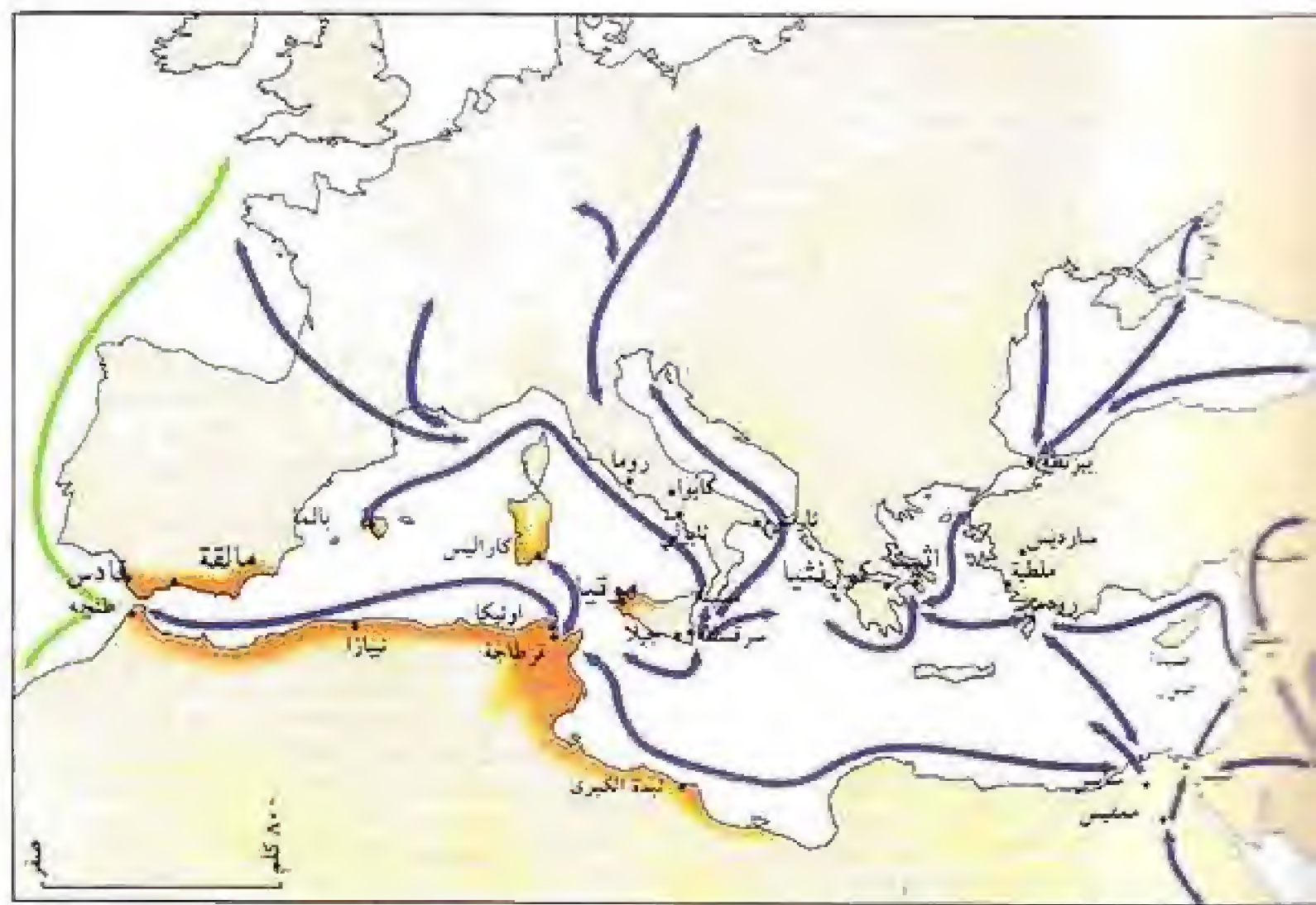
(٢) - يعود هذا التابوت المصنوع من حجر الكلس الى القرن الثالث عشرق م. ولكن الملك حيرام الجبيلي استعمله ثانية . في اوائل القرن العاشر .

جبل طارق متجهين شمالا حتى انجلترا ،
وجنوبا حول قارة افريقيا . لهذا كان تاريخ
فينيقا هو تاريخ مدنها ومستوطناتها العظيمة ،
لاسيما أوغاريت وجبيل وصور وصيدا
وقرطاجة وقادس .

علاقات الفينيقيين مع جيرانهم :
حافظت المدن الفينيقية ، على غرار
الدول - المدن في اليونان القديمة ، على

الساحل السوري وأسسوا عليه مجموعة من
المدن التجارية المستقلة ، فقد سماهم الأغريق
بالفوثيين ، وهو الاسم الذي شاعت كتابته
اليوم بالفينيقيين .

قامت شهرة الفينيقيين على اعمالهم
البحرية الواسعة في البحر المتوسط ،
وتجارتهم الناجحة ، وعلى ما أسسوا من
المستوطنات التجارية والمدن الهامة على
شواطئه ، وجزره المختلفة . كما عبروا مضيق



من المصنوعات المحلية . فبعد حقبة من السيطرة الحثية . استوفى الملك الآشوري تغلات فلسر الأول (ملك ١١١٥ - ١٠٧٧ ق. م) الجزية من المدن الفينيقية . استعادت فينيقيا حينئذ حرية التصرف . وعقب ذلك فترة من الرخاء العظيم وامتداد واسع في أرجاء حوض المتوسط وما وراءه .

مع ذلك ، عندما أخذت سلطة آشور تقترب من ذروتها ، تحول الفينيقيون مرة

استقلالها الواحدة عن الأخرى . إلا أن صيانة استقلالها من جاراتها الأقوى لم يكن بالسهولة نفسها . ففي أوائل القرن السادس عشر ق. م ، استوفت مصر الجزية من تلك المدن ، ثم أخضعتها لسيطرتها . بقي النفوذ المصري قويا في فينيقيا لمدة طويلة ، إلا أن الوجود الثقافي والمادي لبلاد ما بين النهرين أخذ في التزايد ، كما يتبين بوضوح من الكتابة الفينيقية المسمارية والأدلة المستمدة



(٧) - استعمل معبد تانيت في سلامبو طيلة تاريخ قرطاجة . كان تانيت اسما آخر لأنات أو عشتروت . أهم المعابدات عند الفينيقيين . اكتشف عدد من الانصاب والنقوش التكريسية

في المعبد . إلا أن أغرب اكتشاف كان آلاف الأنية المحتوية على رماد اطفال قد أحرقوا ، وذلك دليل واضح على ممارسة تضحية الاطفال في قرطاجة .



والسفن المدورة التي كانت تشعمل في التجارة ، كان لكل من هذين النوعين من السفن مجاذيف للتوجيه على كلا جانبي المؤخرة ، وكان ظهر السفينة مزينا بالتروس .

(٨) - كان لولي . ملك صور وصيدا ، قد عقد حلفا مع مصر ، وتصدى ما أمكنه للغزو الآشوري . إلا أن سنحاريب ملك آشور (حكم ٧٠٤ - ٦٨١ ق. م) أجبره آخر الأمر على

ثانية الى شعب محكوم . خاضع أولا لأشور ناصر بال الثاني وابنه شلمنصر الثالث في القرن التاسع ، وبعد ذلك لتغلات فلسر الثالث في القرن الثامن . في القرن التالي ، اجتاحت جيوش أسرحدون معظم فينيقيا . صمدت صور ، ولكنها استسلمت آخر الأمر للبابليين في عهد نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م) . بعد ذلك أصبحت فينيقيا جزءا من امبراطورية قورش الكبير الفارسية . الا انها بقيت قوة بحرية لا يستهان بها . ولكن التشكيلة البحرية التي أمدت بها اسطول احشورش (٥١٩ ؟ - ٤٦٥ ق . م) في حملته على اليونان أصيبت بقسطها الفادح من الهزيمة في معركة سلاميس عام ٤٨٠ ق . م . ضم الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) فينيقيا الى امبراطوريته في اعقاب انتصاره في معركة ايسوس عام ٣٣٣ ق . م . وفتحها لمدينة صور عام ٣٣٢ ق . م .

التوسع الفينيقي

بدأ عصر التوسع والاستيطان في تاريخ فينيقيا في القرن الثاني عشر . كانت قد اقامت مستوطنات لها في قبرص وفي البحر الايجي ، وكانت للفينيقيين مستوطنات في رودس ، وعلى الأرجح في كريت ايضا ، الا ان الأدلة على وجود فينيقي في البر اليوناني مقصورة على الأدلة الكتابية ، كذلك لا توجد أدلة محسوسة على استيطان فينيقي في ايطاليا ، مع انه كانت لهم علاقات تجارية قوية معها . أما في الحوضين الاوسط والغربي للبحر المتوسط فقد أسس الفينيقيون سلسلة من المستوطنات والمدن ، وطدت نفوذهم في تلك المناطق . وكان منها عدة

مستوطنات على ساحل افريقيا الشمالية (٣) اشتملت على اوتيكا وحضرومتوم (وتدعى سوسة اليوم) ولبتس الكبرى (لبدة) . لكن اعظم هذه المستوطنات على الاطلاق هي قرطاجة (٧) (قرت حدش = المدينة الحديثة) التي قامت صور ، المدينة الأم . آخر الأمر ، بتأسيسها ، حتى ازدهرت وسيطرت على معظم المستوطنات الفينيقية الغربية وان لم تحكمها فعلا . أهم هذه المستوطنات قادش (قادس) وايسوس (ايزا) التي استتها قرطاجة في منتصف القرن السابع ق . م . وقرطاجة الجديدة (قرطاجنة) التي اسسها هاسدر بعل صهر حن بعل (هانيبال) عام ٢٢٨ (بين الحربين الأولى والثانية من الحروب البونيقية) . لكن الحرب الثالثة انتهت بتدمير قرطاجة نفسها . على يد روما . بسبب التنافس التجاري والسياسي بينهما .

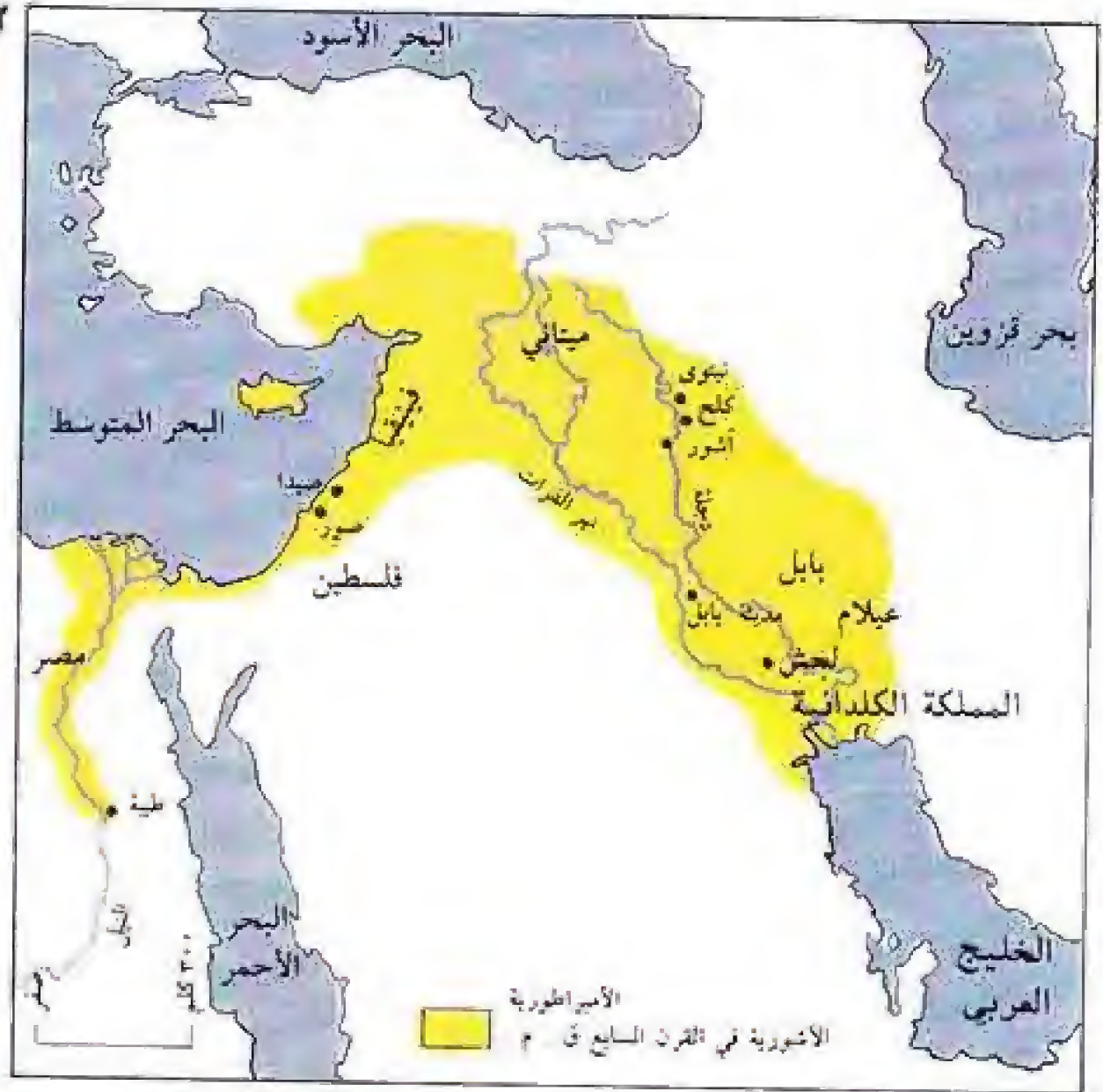
إرث أدبي خصيب

القي اكتشاف نصوص أوغاريت (رأس شمرا ، قرب اللاذقية في سوريا) المسمارية ضوءا كبيرا على اساطير ومعتقدات المنطقة ، في الحقبة السابقة للعصر الحجري . ومع انه لم يصلنا سوى عدد ضئيل من النقوش والوثائق الخاصة بالأدب الفينيقي نفسه الذي كان خصبا فيما مضى ، فهذه المخلفات بالغة الأهمية من ناحية الكتابة ايضا ، لأن الابدادية الفينيقية كانت أساس الابدادية اليونانية والابدديات السامية الأخرى كذلك . كان الفينيقيون يتكلمون لغة سامية كتبوها بأبجدية مؤلفة من ٢٢ حرفا ساكنا ، لا حروف صوتية فيها .

الآشوريون

انشأت الدولة الآشورية (عاصمتها أشور) التي خضعت أول الأمر للسيطرة البابلية . اكتسب الاشوريون الكثير من ثقافة جيرانهم السومريين والحثيين . كما تمرسوا بحياة الحرب والقتال . مما جعلهم في عهد شمشي حداد الأول . أواسط القرن ١٨ . قوة عسكرية تمكنت في القرون التالية . وبخاصة منذ منتصف الألف الثاني ق . م . من التغلب على دولة ميتاني . والتوسع حتى جبال القفقاس

يرجح المؤرخون ان الجماعة الآشورية قد خرجت من الجزيرة العربية مع الأكاديين والهجرات الأولى حوالي ٣٠٠٠ ق . م . أو قبل ذلك . لكنها نزلت في الشمال . في سهول دجلة حيث ظهر كيانها . ثم



انهارت سلطة اشور وجاءت بعدها مملكة بابل الجديدة .

(٢) - تصور بعض اللوحات الحجرية . في نينوى . حصار سنجاريب لمدينة اخيش في فلسطين . التي استسلم ملكها حزقيا اثر سقوط المدينة .

(١) - بلغت الامبراطورية الآشورية اقصى امتدادها في القرن السابع ق . م . وذلك اثناء حكم اشور بانيبال (حكم ٤٢ سنة) . تعرضت شعوب البلاد المحتلة لقمع لا رحمة فيه . قام به جيشه الذي كان يتباهى بقسوته ويفتخر بها . كان اشور بانيبال يحكم بواسطة جهاز اداري فعال تشرف عليه الحكومة المركزية . مع ذلك



شمالا . والخليج العربي والجزيرة العربية جنوبا . كذلك ضمّ الاشوريون سوريا ومصر ، في فترة من الفترات ، الى امبراطوريتهم .

تأسيس الامبراطورية

برزت الدولة الاشورية كقوة مهيمنة في عهد شمشي حداد الثالث (١٥٣٢ - ١٥٠٧) ، وقد وسع حداد نيراري الأول (حكم ١٣٠٧ - ١٢٧٥ ق . م) حدود آشور حتى بلغت

الفرات . وزحف شلمنصر الاول (حكم ١٢٧٤ - ١٢٤٥ ق . م) شمالا حتى سحق الحوريين ، آخر الأمر . أما اول الملوك الاشوريين العظام حقاً ، فقد كان تغلات فليسر الأول (حكم ١١١٥ - ١٠٧٧ ق . م) الذي اعتلى العرش بعد فترة من عدم الاستقرار في آسيا الغربية . وتوصل ، بفضل سلسلة متلاحقة من الحملات العسكرية التي جمعت بين البراعة والقسوة . الى بسط سلطة آشور حتى أقصى الشمال



يظهر على اللوح البادي هنا عدد من آلات الحصار التي كان يستعملها الاشوريون .

والمواصلات تتمركز حول أودية الانهار .

(٤) - هذا الزورق المصنوع من الجلد . ربما كان يحمل مواد بناء لقصر سنحاريب . يخبرنا هيرودوتس كيف كانت الزوارق الجلدية المستديرة تطفو على سطح مياه الفرات . وهي تحمل حملا او اكثر بالاضافة الى حمولتها العادية . عند وصولها

(٣) - وادي نهر الزاب . وهو من روافد دجلة في شمال شرقي العراق . يمثل تمثيلا حسنا طبيعة الارض التي كان يتألف منها قسم كبير من الامبراطورية الاشورية . في جزء كبير من المنطقة . جعلت الجبال الحياة

الى بابل . كانت الزوارق تفك وتطوى وتحمل على الحمير لمتابعة الرحلة برا . باتجاه ارمينيا .

(٥) - يقوم الخدم بتدريب كلاب صيد في الحديقة الملكية . في هذا الرسم النافر المأخوذ من القصر الشمالي الخاص بأشور بانيبال الثاني في نينوى . كان الاشوريون

يعتقدون ان الملك يؤدي واجبا مقدسا حين يصيد الحيوانات البرية . كانت الأسود تجلب الى البلاد . حتى يستطيع الملك اظهار مهارته في عمليات الصيد المترفة . كان اشور بانيبال « صيادا عظيما امام الرب » . وفي أيامه كانت الأسود تعيش فسادا في الأدغال . على طول الفرات . وتقني البشر ايضا .

اعتلى حدد نيراري الثاني العرش الآشوري عام ٩١٢ ق . م . كانت مملكته رقعة مستطيلة لا تزيد على ١٠٠ ميل طولا وخمسين ميلا عرضا . ولكن بحلول منتصف القرن السابع ق . م . عادت آشور فصارت أكبر وأقوى دولة في العالم المتحضر .

كان آشور ناصر بال الثاني (حكم ٨٨٣ - ٨٥٩ ق . م) (٨) صاحب الفضل الأكبر في استعادة السيطرة الآشورية . فقد بنى الجيش

والشمال الغربي . كما انه اجتاح سوريا ، واستوفى الجزية من المدن التجارية الغنية على الساحل الفينيقي .

استطاع تغلات فليسر ، وان يكن مع بعض المشقة ، ان يصد هجمات الشعوب الآرامية القادمة من الصحراء الغربية ، ولكن ، بعد وفاته ، اجتاح الآراميون والكلدانيون سائر بلاد ما بين النهرين تقريبا ، وهيمنوا هناك طيلة ما يربو على ١٥٠ سنة . وعندما



٧ اللوحات عددا من حملات شلمنصر ضد بابل، وبلاد ما بين النهرين الشمالية، وضد سوريا التي عجز بعد عدة حروب عن إخضاعها كليا.



(٨) - يقف

شخصان . ربما

كان احدهما

(كما يستدل

من اللباس

والنقش) يمثل

آشور ناصر بال

الثاني ، ملك

آشور في

القرن التاسع ،

على جانبي

شجرة الحياة .

هذا الموضوع ،

الشائع في

آسيا الغربية .

هو رمز

للخصب الذي

تمنحه عشتار .



(٦) - يظهر أرحدود الحاكم الآشوري العظيم على نصب عثر عليه في زنجيرلي الواقعة الى الشمال الشرقي من خليج الاسكندرون والى شمالي غربي حلب . ينتصب الملك عاليا امام اسيرين يستعطفانه . وهما موثقان بحبال أدخلت في شفاهما . أما الأسير الواقف أمامه ، فقد يكون بعلو ، ملك صور . وان كان ذلك لا يعبر عن الواقع .

(٧) - يظهر ياهو . ملك

اسرائيل ، وهو ينحني امام

شلمنصر الثالث (حكم ٨٥٨ -

٨٢٤ ق . م) في هذه اللوحة من

الواح بوابة بلوات . تخلد

حتى أصبح قوة مقاتلة لا تقاوم وقاده حتى شواطئ البحر المتوسط . في عاصمته الجديدة كلج (نمرود) . عند مصب نهر الزاب الكبير . شيد قصرا فسيحا ، كانت تحيط بمدخله تماثيل ثيران مجنحة . لكنه اشترى عظمة اشور بآلام اعدائها . وهناك نقوش عدة تشهد على اشكال العذاب الذي كان ينزله بالمحاربين والمدنيين على السواء . واصل ابن اشور ناصر بال شلمنصر الثالث (حكم ٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) - وكان لا يقل عن والده غلاظة وقسوة - تجريد الحملات السنوية (٧) . ولكن دون نجاح يذكر .

الاندفاع الامبراطوري

أضعف مركز اشور تعاقب سلسلة من الحكام الضعفاء على عرشها . اضافة الى تصاعد قوة مملكة اورارتو الى الشمال . كان الموقف يتطلب شخصية قوية وذكية لمجابهة الخطر . وكان من حسن حظ الاشوريين انهم وجدوا مثل هذه الشخصية في تغلات فليسر الثالث (حكم ٧٤٥ - ٧٢٧ ق . م) الذي تمكن من اعادة السيطرة لأشور .

الا ان بابل كانت قد أخذت تقع تدريجيا تحت تأثير القبائل الكلدانية . التي كانت تسيطر على المناطق المجاورة . والتي استمرت في سياسة عدااء شديد للأشوريين . فرد سنحاريب (حكم ٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) ردا عنيفا على ذلك . منصبا ابنه على عرش بابل . الا ان البابليين اعلنوا العصيان عام ٦٩٤ ق . م . واستنجدوا بملك عيلام الذي جاء لنصرتهم ورد الأمير الاشوري الى عقر داره . دامت الحرب القاسية التي نشأت عن ذلك خمس سنوات . وانتهت بتدمير مدينة

بابل عام ٦٨٩ ق . م على يد سنحاريب الذي أعلن نينوى عاصمة له وأخذ ينفذ برنامجا واسعا من الاشغال العامة . كما انه اخضع معظم المدن الفينيقية وحاصر القدس . بعد اغتيال سنحاريب . لم يتوان ابنه اسرحدون (حكم ٦٨١ - ٦٦٩ ق . م) (٦) في اعادة بناء بابل . وكان سياسيا لامعا . يعرف متى يجب استعمال الحزم او الرحمة او المزج بين الاثنين . بقيت سلطة اشور نافذة في الشرق . وكانت الدولة المنائية على الحدود الشمالية . دويلة صدام . تحت سيطرة آشور . أخدمت ثورة في فينيقيا بعد سبي سكان صيدا واعدام ملكها . الا ان اعظم نجاح سجله اسرحدون كان ضد مصر . فقد كانت الاسرة الحاكمة فيها تحرك الفتن في فينيقيا . فقرر اسرحدون ان يخضع البلاد لسلطته .

سقوط الامبراطورية

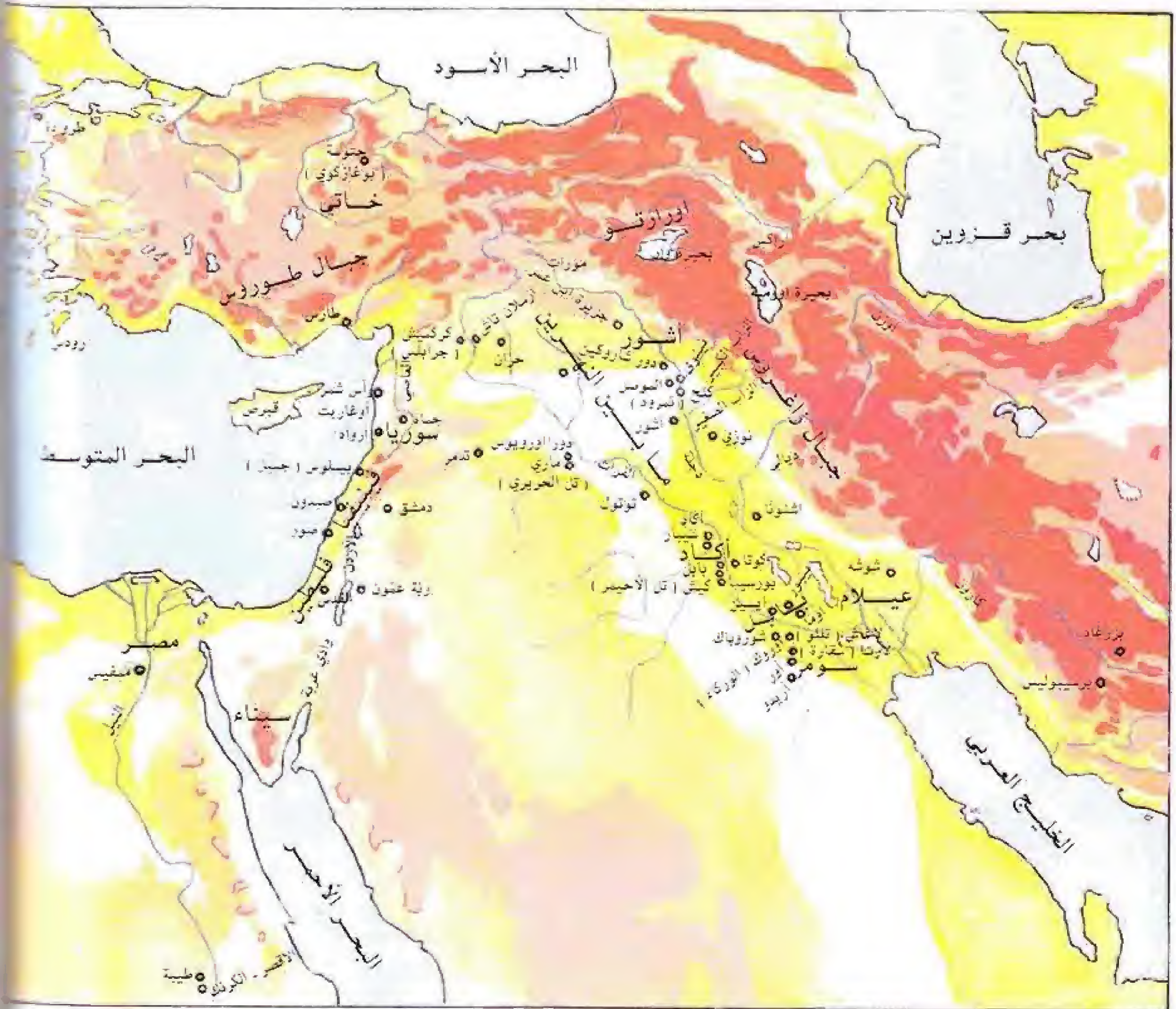
قمع اشور بانيبال (حكم ٦٦٨ - ٦٢٧ ق . م) ثورة نشبت في مصر . وقهر تلك البلاد ثانية . ولما كانت بلادا واسعة وبعيدة جدا يصعب احتلالها بصورة دائمة (١) . فقد أوكل ادارتها الى الامراء المحليين . لكنه اضطر آخر الأمر ان ينسحب من مصر . بسبب ثورة واسعة قادها أخوه ملك بابل بالتعاون مع عيلام . انتصر اشور بانيبال على الثوار عام ٦٤٨ ق . م . فراح يباهي بان العالم كله بات تحت قدميه . ومع انه كان لا يرحم . فقد كان من رجال العلم . الا ان اشور لم تستطع الصمود في وجه حلف نابوبولاصر ملك بابل عام ٦٢٥ ق . م مع الميديين . فلم تلبث ان انهارت . ودُمرت نينوى تدميرا كاملا عام ٦١٢ ق . م واحترق ملكها في قصره .

الآراميون

بعضها الآخر حتى اليوم . فحين كان الهكسوس يطردون من مصر حوالى سنة ١٥٨٠ ق . م وبعد ذلك :

أ - كان الكاشيون يسيطرون على بابل . بعد أن أزال الحثيون سلالة حمورابي منها . واستخدموا الحصان في عرباتهم الحربية . ثم حل محلهم العيلاميون في ما بين النهرين .
ب - كان الحوريون الذين انحدروا تدريجيا من جبالهم في ارمينيا قد سيطروا

قبل اواسط الألف الثاني ق . م . كانت مناطق الهلال الخصيب مسرحا لتحركات متوالية . وموجات متشابكة من الهجرات البشرية المتنوعة . ومن العلاقات الدولية المعقدة . زالت آثار بعضها وبقيت بقايا من



على ما بين شمالي العراق وشمال سوريا ،
وأسسوا امبراطورية لم يعثر الاثريون حتى
اليوم على موقع عاصمتها واشوغاني .

ج - تلا ذلك ظهور الميتانيين الذين
أسسوا مملكة في شمالي سوريا ، ثم غلبهم
عليها الحيثيون الذين جاؤوا من شمالي بحر
قزوين عن طريق الأناضول وحلوا محل
الميتانيين .

رافق ذلك كله وصول النفوذ المصري

(في عهد الأسرة ١٨ وما بعدها) الى اواسط
سوريا ، ثم تضاؤل الامبراطورية الحثية في
الشمال لحساب الاشوريين في اعالي العراق
الذين سوف يصبحون القوة الكبرى في
المنطقة منذ اواخر الالف الثاني ق . م حتى
القرن السادس ق . م .

شعوب البحر

أعقب ذلك بين القرنين ١٤ و ١٣ ق . م



العراق . تأثيرهم
الثقافي كان أقوى
من تأثيرهم
الاثنولوجي .
(٢) - هذه
القطعة الصغيرة من
الفخار المشوي
(أ) ، والتي
يحتفظ بها متحف
دمشق بوصفها من
أثمن كنوزه ، هي
نموذج كامل لأول
أبجدية عرفها
التاريخ . وهي في
الوقت نفسه أم
الأبجديات كلها في العالم .
وجدت في حقريات أوغاريت
الفينيقية على الساحل السوري
وتعود الى القرن الرابع عشر
ق . م . أو قبله بقليل .

(٣) - في هذا الرسم الجداري
من مدفن تحوتمس الرابع في
طيبة (حوالي ١٤٠٠ ق . م)
رسمت مجموعة من سكان
سورية في تلك الفترة ، وفيهم
الآراميون . كانت امبراطورية
مصر تمتد هناك ، ملابسهم
البيضاء كانت تميزهم . هداياهم
تتضمن أنية الذهب ، وجعبا من
الجلد ، وجرار زيت .

(١) - كلمة آرامي بمعنى
سرياني حديثة الاستعمال .
تعود الى القرن الماضي فقط .
حين عرف ان السريان هم
الآراميون القدماء الذين انتشروا
في الشرق الحضاري في النصف
الثاني من الألف الثاني ق . م ،
وزرعوا المنطقة مدنا وقرى من
فلسطين وشمال الحجاز حتى
بحيرة وان كما توغلوا جنوبي

غير ان هذه الشعوب الغربية القادمة من الشرق والشمال والغرب لم تطبع المنطقة بطابعها وان بدلت الخريطة السياسية لها عدة مرات ، وغيّرت التركيب الاثنولوجي فيها. وخلطت السكان القدماء من « الساميين » (العموريين البابليين ، والكنعانيين الفينيقيين)

هجوم شعوب مجهولة الجذور عرفها المؤرخون باسم شعوب البحر ، غزت بأعداد كبيرة جدا الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط ما بين الدلتا المصرية حتى آسيا الصغرى . وكان منها شعب بولوزاتي او فلسطيني الذي أعطى اسمه لفلسطين . كان من نتيجة الهجمات البحرية والبرية المتكررة تهدم مدن كثيرة (منها طروادة سنة ١٢٠٠ ق . م) وتوطن بعض الشعوب كالفريجيين في قلب الاراضي

[illegible]

المصرية الشرقية الأيوبية السلجوقية



القيمة التفصيلية	الرمز	الرمز						الرمز	الرمز	الرمز
		الرمز	الرمز	الرمز	الرمز	الرمز	الرمز			
a	ⲁⲏⲏⲏⲏ	ⲁ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
b	Ⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
g	Ⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
d	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
h	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
w	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
z	Ⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
h	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
t	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
y	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
k	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
l	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
m	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
n	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
s	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
e	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
p	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
s	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
q	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
r	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
sh	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ
t	Ⲃⲃⲃⲃⲃ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ	ⲉⲏⲏⲏⲏⲉ

الترتيب الأوغاريتي الأقدم
والأول للحروف ظل هو
الترتيب الآرامي نفسه والترتيب
المتبع في الخطوط الأخرى
التي اشتقت منه فالألف كانت
تمثل رأس ثور **𐤀** والباء رسم

بيت (غرفة) **ب** والجيم رأس
جمل **ح** . عدد الأبجديات
والخطوط المقتبسة عن الآرامية
أو الكنعانية مباشرة كبير .
شجرة أنسابها وتفرعاتها تظهر
في الجدول (ب) .

(٥) - موسيقى ينتظر في
حديقة الملك ومن خلفه خدم
يحملون الطعام ويذبون عنه .
المظنون أنهم من الآراميين .
المشهد من نقوش قصر آشور
باتسال المعروف في نينوى .

بعناصر أخرى . والسبب هو أن هجرات أخرى ، سامية ، قدمت في الوقت نفسه الى المنطقة . وأعانتها على الاحتفاظ بطابعها « السامي » الثقافي ، والى حد ما بتكوينها الاثنولوجي (١) .

الآراميون

بينما كانت الجماعات الاشورية تتحول في شمال العراق الى قوة كبيرة . كان العبرانيون في ما بين القرنين ١٢ و ١٠ ق . م يسيطرون في فلسطين مختلطين بالكنعانيين وغيرهم . وكانت جماعات « سامية أخرى » ، أشارت اليها النقوش الاثرية باسم أخلامو ، تخرج من البادية الشامية وتتكاثر منذ القرن ١٤ ق . م في أطراف الشام وعلى وادي الفرات .

ما لبثت هذه الجماعات ان حملت بين القرنين ١١ و ١٠ ق . م اسم الآراميين ، وأسست ما بين تيما الى دمشق وحماه حتى (شمال) وأعلى الجزيرة الشامية ، ثم حتى بابل ، مجموعة من الدويلات والممالك الصغرى التي لعبت دورها السياسي في المنطقة ، وزاحمت الحثيين والاشوريين والبابليين والعبرانيين وحاربتهم طويلا لتوطد استيطانها . كان أهمها مملكة شمال في أقصى الشمال ، ومملكة دمشق التي تزعمت فترة طويلة تلك الممالك حين هددتها الاخطار الضاغطة من العبرانيين والاشوريين الغزاة خاصة . لكن الممالك الآرامية لم تستطع ان تشكل دولة واحدة قوية . لهذا لم تستطع البقاء السياسي اكثر من أربعة أو خمسة قرون . ثم اضمحلت واحدة بعد الأخرى امام الغزو الاشوري الساحق (٥) . بقيت قبائل وبقايا منهم في

بلاد البابلية بين القرنين التاسع والسابع ق . م على الحوض الاسفل من دجلة حتى ذابوا مع الكلدانيين .

الحضارة الآرامية

لكن غياب الآراميين السياسي لم يستتبع الغياب الحضاري . فقد ظل الآراميون موجودين ثقافيا بلغتهم وكتابتهم اللتين ظلتا منتشرتين قرونا طويلة بعد ذلك ، حتى ظهر الاسلام وحلت اللغة العربية محل الآرامية . وان بقيت بقايا هذه اللغة في اماكن متفرقة وجماعات معينة في سوريا والعراق الى اليوم . ذلك ان اللغة الآرامية وما يتبعها من كتابة أبجدية (مأخوذة عن أحرف أوغاريت الفينيقية) (٢) صارت لغة دولية من ضفاف النيل الى نهر السند في السياسة والتجارة . حين أصبحت اللغة الرسمية للامبراطورية الاخمينية الغازية . ثم استمرت لغة الحياة العادية في سوريا والعراق بعد ذلك في العهدين الهلينستي ثم الروماني - البيزنطي . وظهرت فيها مع الزمن لهجات عديدة ما بين شرقية وغربية ، وخطوط كتابية عديدة (٤) ، كان منها الخط النبطي التدمري ثم العربي .

كانت الآرامية هي اللغة التي تحدث بها السيد المسيح لأنها لغة الناس في فلسطين في عهده . وبها كتب الترجوم اليهودي والتلمود . لهذا فان الآراميين الذين اتبعوا المسيحية حملوا في الرها (اورفه) اسم السريان نسبة الى المسيح السوري ، ثم صارت لغتهم السريانية لغة الكنيسة في بلاد الشام والرافدين ، ما بين القرنين الثالث والثالث عشر للميلاد . وامتد اسم السريان فشمّل الجماعات الآرامية القديمة .

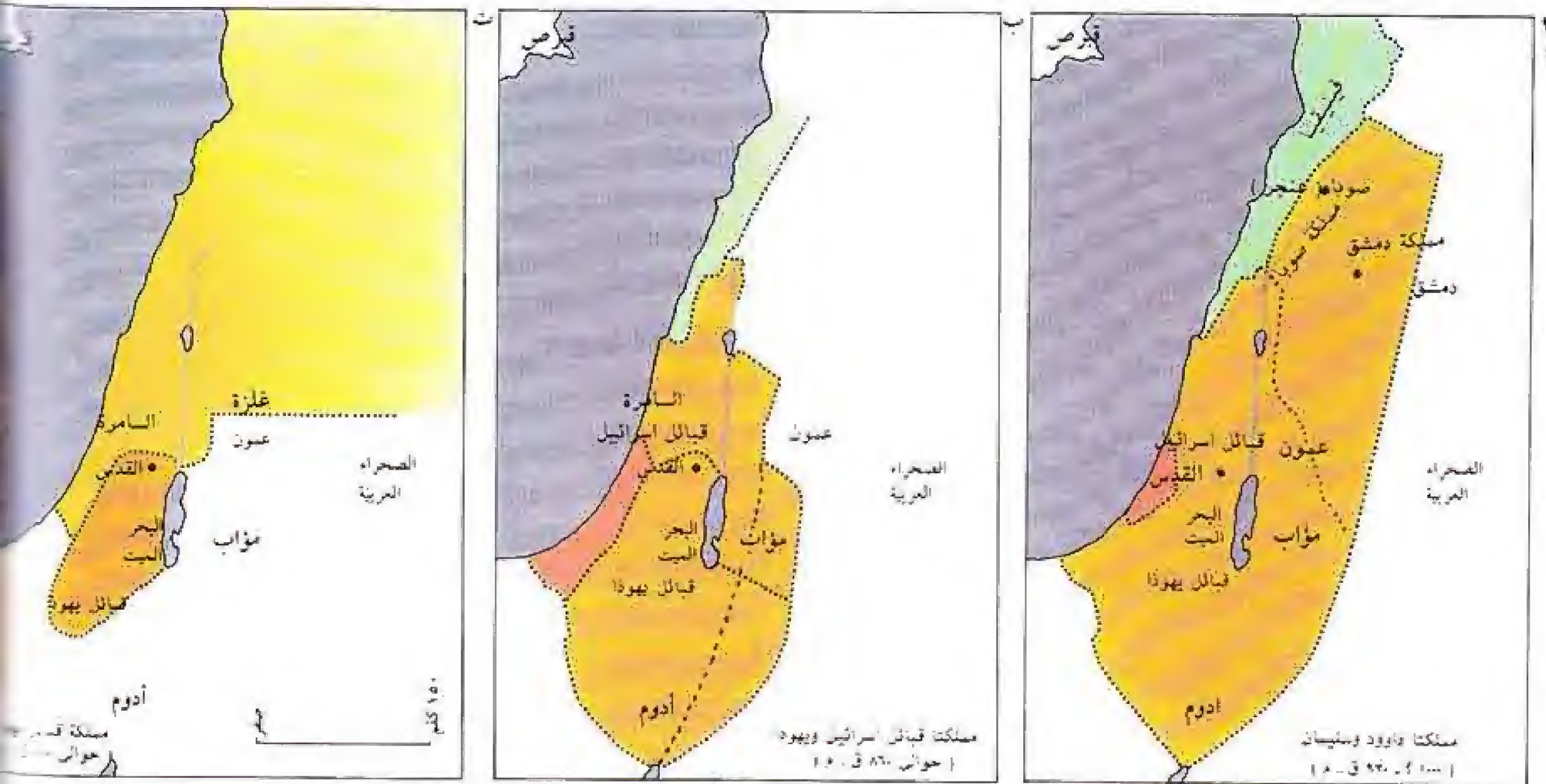
العبرانيون

للمصحراء العربية . ومن الثابت تقريبا ان جماعة عرفت بالعبرانيين هاجمت ، عبر وادي الأردن ، المدن الكنعانية ، في القسم الجنوبي من سوريا بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق . م واستقرت فيها .

يوسف في مصر

كان العبرانيون القدماء رُحَلا ، ويشير التاريخ الى هجرة ابراهيم من بلاد ما بين

لا زال الغموض يحيط بأصل ومعنى كلمة « عبراني » . لكن اسم « عبيرو » يظهر ، في وثائق القرن الرابع عشر ق . م ، في وصف جماعات من الرحل ومن خلائط الأقوام كانت تقطع الطرق على التخوم الشمالية



ميكال انجلو في هذا الرسم . دعا هؤلاء الوعاظ الى الايمان باله واحد عادل ورحيم . وطالبوا الناس ان يتصفوا بصفات مماثلة .

(٤) - كان هيكل اورشليم الاول ، الذي بناه سليمان . والذي لم يبق منه الآن أثر . مكانا مكرسا لا يدع تابوت العهد وأوعية وقرايين مقدسة أخرى فيه . كانت له ساحة

عند الصخرة التي يعتقد ان (النبي) محمدا عرج منها الى السماء . وهو يقع على جبل صهيون ويبدو حائط المبكى الى جواره .

(٣) - ظهر في التاريخ العبراني عدد من « الانبياء » الذين تحدثوا عن المجتمع الصالح . ونددوا بالممارسة القائمة على النفاق الديني . وعلى غرار اشعيا الذي صور

واحتلال داود (١٠٠٤ ق . م) لأورشليم وتغلبه على الشعوب المجاورة (أ) . انقسمت هذه المملكة بعد وفاة سليمان الى مملكتين صغيرتين : هما يهوذا الى الجنوب واسرائيل الى الشمال (ب) واخذت كلتاها في التدهور أمام الحكم الآشوري (ت) .

(٢) - يقوم المسجد الأقصى

- اسرائيل القديمة
- فلسطين
- فلسطين
- الامبراطورية الآشورية

(١) - تذهب روايات الكتاب المقدس الى ان العبرانيين تخلصوا من العبودية في مصر ابان القرن الثالث عشر في زمان موسى . بلغت مملكة العبرانيين الذروة اثر استيلائهم على بعض اجزاء من أرض كنعان في القرن الثاني عشر .

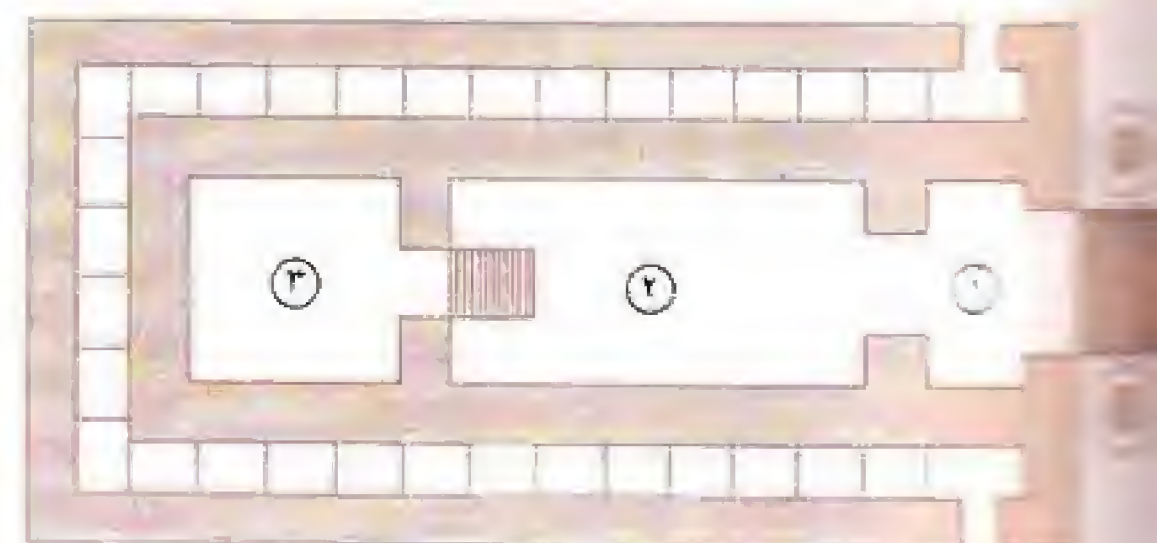
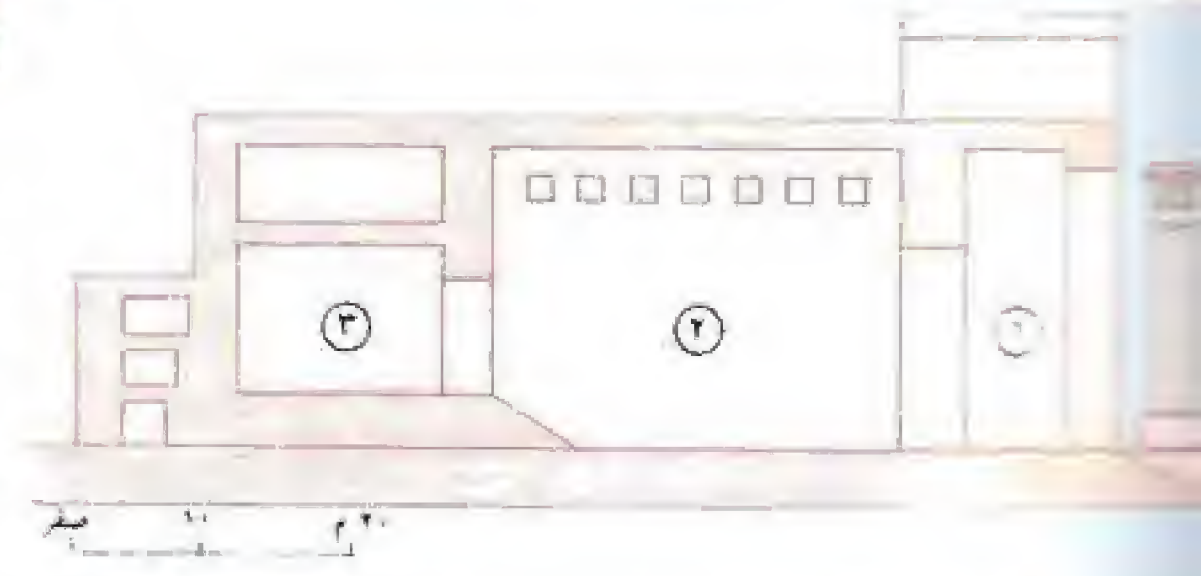
النهرين الى الجزيرة العربية حيث بنى . مع
ابنه اسماعيل . الكعبة . ثم رحل الى ارض
كنعان . (فلسطين) . كان يوسف هو الابن
الحادي عشر ليعقوب حفيد ابراهيم . وتروي
الكتب المقدسة كيف ان ابناء يعقوب
الآخرين باعوا اخاهم يوسف رقيقا لتجار
اخذوه معهم الى مصر . حيث وصل الى مركز
رفيع في الدولة . أقام يوسف ورثته من بعده
في مصر لعدة أجيال . ثم قاد موسى احدى

قبائل العبرانيين الى فلسطين في أواخر القرن
الثالث عشر ق . م .
وتاريخ هذا « الخروج » غير ثابت .
ولكنه حدث على الأرجح في أواخر القرن
الثالث عشر ق . م . وقد هرب بهم عبر
الطرف الشمالي للبحر الأحمر الى الصحراء .
ووقفوا عند جبل سيناء أو حوريب . والشرية
التي أنزلت على موسى في جبل سيناء
تلخص تقليديا بالوصايا العشر التي يقال انها



للمصلين . وهو يتألف اصلا من
قاعة (١) . ومعبد (٢) وقدس
الأقداس (٣) الذي لم يكن
يسمح الا لرئيس الكهنة
بالدخول اليه . والمخطط
المرسوم مجرد رسم تخيلي .

(٥) - كان الفصح . وهو العيد
الذي يحيي ذكرى خلاص
العبرانيين من السبي في مصر .
يفتح بالنفخ في قرن كبش .
وهو أهم عيد لديهم .



تقشت على الحجر وحفظت فيما بعد في « تابوت » أو صندوق هو « تابوت العهد » . لكن « شريعة التوراة » الأطول والمؤلفة من « خمسة أسفار » تنسب الى موسى نفسه ايضا . وان سجلها الأخبار بعد القرن السابع ق . م .

أهم ملوك اسرائيل

اعتبر داود دوما عبرانيا مثاليا ، يأتي في

المرتبة الثانية بعد موسى . وكان اداريا بارعا (١) . وشاعرا ، حتى لقد نسبت اليه كتابة عدد من المزامير .

ورث سليمان الملك عن أبيه داود وذهب الى ابعد الحدود في اعطاء المملكة مظاهر العظمة والبذخ والترف . وهو الذي بنى الهيكل (٢ ، ٤ ، ٧) الذي عرف باسمه ، ووضع فيه « تابوت العهد » .

بعد وفاة سليمان طفح كيل النعمة .



٧ (٨) - أسير كنعاني يتقدم أمام فرعون وتوجد هذه الصورة في معبد رعسيس الثالث بمصر .



٨ الكنعانيون يشبهون العبرانيين من حيث المظهر ، اذ كانوا جميعا من الساميين وكان لهم أنوف رقيقة وشعر ولحي طويلة .



٦

(٦) - التوراة أو العهد القديم . في النسخ المتداولة اليوم . تحوي الأسفار الخمسة للشريعة ، مع أسفار أخرى تتضمن التاريخ اليهودي وبعض المزامير والأمثال والأناشيد الدينية . يضاف اليها اخبار وكتابات الانبياء من أشعيا الى زكريا وملاخي ومجموعها ٣٩ سفرا وقد سجلها أخبار اليهود بين القرنين ٧ - ٢ ق . م . في

النصورة نسخة قديمة من التوراة يقال انها تعود الى القرن ١٨ . (٧) - يظهر في الرسم شمعدان يسع شمعات ، من النوع الذي كان يستعمل في الهيكل في اورشليم . وجد هذا الشمعدان على قوس طيطس في روما ، الذي بني بعد تدمير اورشليم على يد الرومان سنة ٧٠ م .

فانقسمت المملكة، التي لم تدم سوى مائة سنة، بصورة نهائية الى قسمين. احتفظ ابن سليمان الضعيف، رحبعام، بالقسم الجنوبي من المملكة المحيطة باورشليم فقط في مملكة عرفت بيهودا. بينما انفصل عنه، في منطقة الجليل، السامرة، أخوه يربعام على رأس عشر قبائل (أسباط) مؤسسا المملكة الشمالية التي دعت اسرائيل. وكان للمملكتين معبدان متنافسان في دان وبيت إيل. شهدت القرون اللاحقة نزاعا مستمرا بين مملكتي يهوذا واسرائيل، الى ان تم تدمير المملكة الشمالية على يد سرجون الثاني ملك اشور عام ٧٢١ ق. م وتشتت اسباطها العشرة بلا رجعة.

تميز تاريخ المملكتين العبرانيتين باختلاف تام في نوع الحياة الاقتصادية لكل منهما، وبتأثر كل منهما بالحضارات المجاورة الكنعانية والفينيقية والمصرية. يجدر بالذكر كذلك ان أشهر ملوك اسرائيل، واسمه عمري (٨٨٥ - ٨٧٤ ق. م) كان من أصل عربي نبطي، وهو الذي بنى السامرة عاصمة له.

بعد زوال مملكة اسرائيل، استمرت مملكة يهوذا في الوجود ١٢٥ سنة، لكنه كان وجودا شكليا خضعت خلاله دوما لنفوذ الممالك المجاورة، مثل فراعنة مصر وملوك آشور، حتى سقطت أخيرا تحت ضربات ملك بابل (نبوخذ ناصر) الذي سبى معظم زعمائها وساقهم الى بابل عام ٥٨٦ ق. م وشتت سكانها.

بالحقيقة لم تمارس هاتان المملكتان استقلالاً حقيقياً الا لفترات قصيرة ومتقطعة، وما قصة الأرض الموعودة، بعد السبي، سوى

ادعاء لا يستند الى أي حقيقة تاريخية.

الانبياء وعقيدة التوحيد

رافقت هذه الاحداث السياسية نشاطات «الانبياء» العبرانيين. كان هؤلاء رجالا متحمسين للدين، لا تربطهم احيانا اية صلة بديانة زمانهم الرسمية، بل كانوا في الغالب ينتقدونها. من أوائل هؤلاء صموئيل الذي كان كاهنا وعرافا وصانعا للملوك، كذلك ندد «ايليا» وخادمه ورفيقه «اليشع» بانبياء بعل الكاذبين.

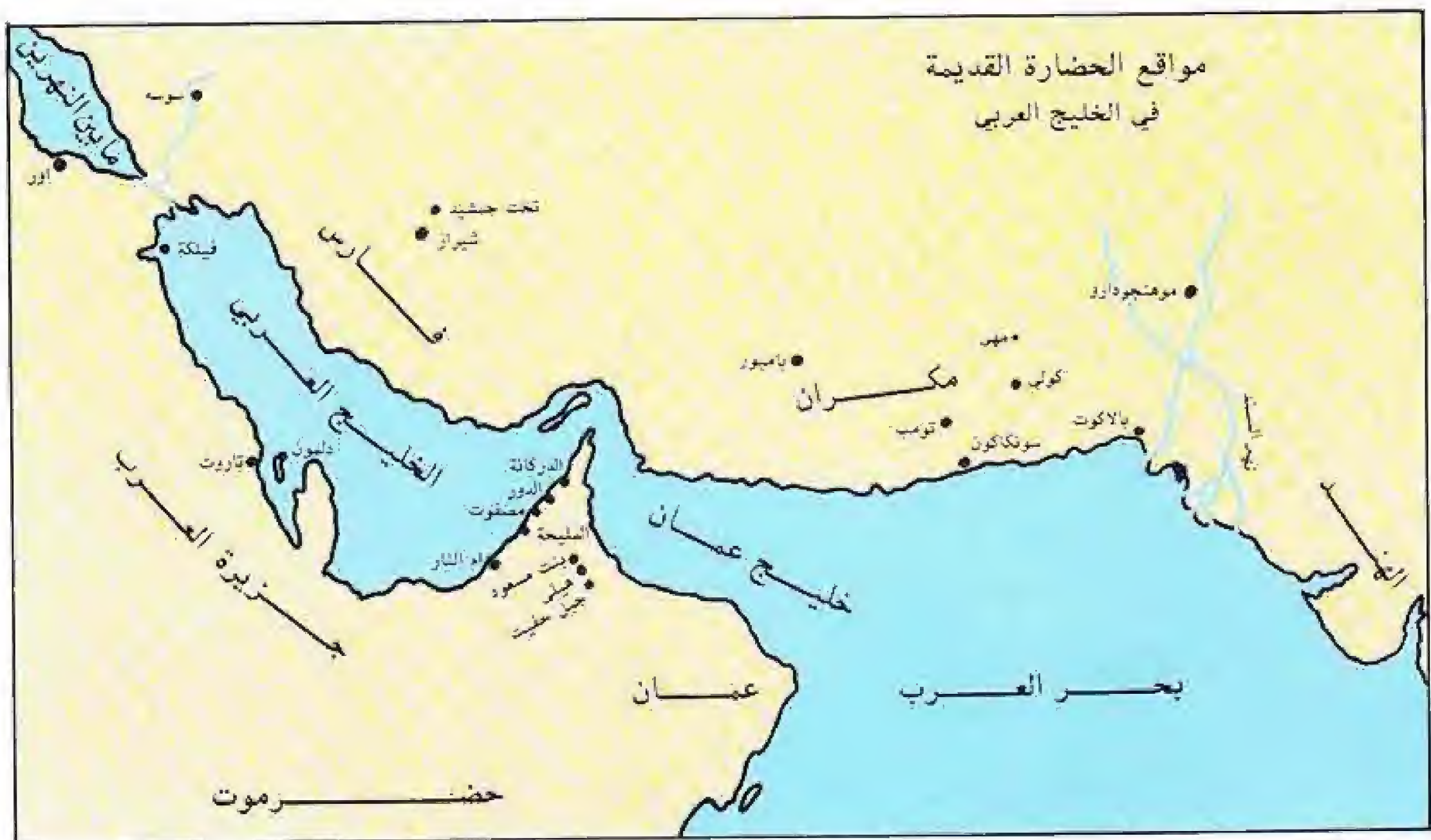
وقد تلا هؤلاء عدد آخر بين القرنين الثامن والسادس، ولم تلبث دعوتهم أن دونت خطيا. وعظ عاموس وهوشع في بيت إيل وفي اسرائيل وتنبا الاثنان للشعب الاسرائيلي بالدمار الكامل. كما وعظ ميخا واشعيا (٣) في يهوذا. ونادى هؤلاء الرجال جميعا بوحدانية الله ومطالبة البشر بالسلوك السوي، وهو تعليم يدعى «الوحدانية الخلقية». وبفضل تأثير هذه الدعوة، اتخذ الملك يوشع عام ٦٢١ ق. م سفر «التثنية» أساسا لشرائعه الجديدة، وأزال المعابد المنافسة، وحصر العبادة في اورشليم وحدها. موطدا فكرة ان اليهود شعب يهوه المختار. وقد ظهر ارميا في اورشليم قبل سقوطها عام ٥٨٦ ق. م ينذر بالكارثة المحتومة ويبشر بديانة أكثر باطنية تقوم على عهد جديد مع الله ثم رحل الى مصر. بينما ذهب حزقيال الى بابل وهو يندد بالوثنية. وفي بابل، ومن خلال ضيق اليهود بالأسر، ورغبتهم بالعودة الى فلسطين، ظهرت لدى المتنبئين اليهود فكرة «أرض الميعاد» وأن الإله منحها لهم.

العربُ الأقدمون^(١)

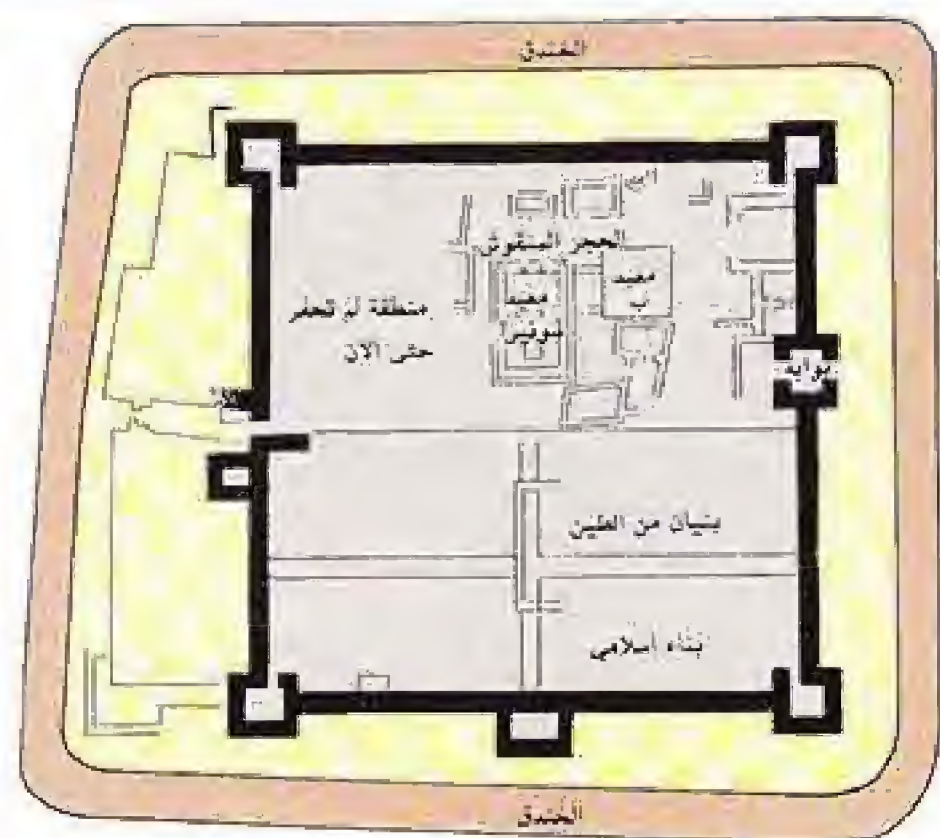
لذلك يسمي العرب بلادهم بالجزيرة العرسية .

أطراف الجزيرة جبلية مرتفعة الا في شواطئ الخليج ، وفيها حرات بركانية . وتمتد في وسطها هضبة نجد التي تطيف بها بعض الصحارى الرملية ، وبعض الأودية العرضانية الجافة . يتعرض جنوب الجزيرة وشرقها للامطار الموسمية التي سمحت بظهور حياة زراعية مبكرة على السفوح وفي الأودية

بلاد العرب اسم يطلق على شبه الجزيرة
الكبيرة التي يطوقها الخليج العربي وخليج
عمان من الشرق ، وبحر العرب من الجنوب ،
والبحر الاحمر من الغرب ، وتمتد في شمالها
بادية ثلاثية الشكل تسمى بادية الشام .



(١) - تعددت مواقع الحضارة في الخليج العربي على ساحليه الغربى والجنوبى . توخى الأمن جعل الجزر مثل فيلكه . تاروت . دلمون . هي المراكز المفضلة للتجار بالاضافة الى المواقع المحمية كالجرعاء . أما جنوب الخليج فان كثرة تداخل الساحل مع البحر سمح بظهور مراكز حضارية ساحلية مثل أم النار وهيلي .



ما بين عمان واليمن . بينما يسود الجفاف معظم الجزيرة وتنتشر الواحات في الحجاز ونجد والاحساء (١) .

الأرض والتاريخ الأقدم

كانت المناطق الجبلية والواحات مستقرا للتوطن البشري المبكر ، ولقيام نشاط زراعي وأعمال مطردة التطور من الري والبناء والحياة الاجتماعية . بينما كان جفاف

المناطق الباقية لا يسمح بأكثر من ظهور حياة الرعي والتنقل البدوي . لكن موقع الجزيرة الجغرافي بين مناطق الحضارات القديمة جعلها منطقة طرق تجارية هامة على الدوام . هكذا كان سكان الجزيرة عبر القرون ذوي نمطين من الحياة : حياة حضرية مستقرة قوامها الزراعة والتجارة والحرف وحدثتها القرية والمدينة ، وحياة رعوية متنقلة وحدثتها القبيلة التي تعمل أيضا على النقل



(٢) - كان السلوقيون يسمون جزيرة فيلكة إيكاروس . ويتخذونها محطة تجارية ومركزا دينيا معيا . وجدت فيها آثار ثلاثة معابد على الأقل ذات طراز هلييني سواء في الأعمدة والواجهة أو في المذبح وطريقة البناء الحجري أو في التماثيل والكتابات الاغريقية . ويبدو انه كان للجزيرة حاكم وفرقة دفاع . فقد ظهرت فيها أطلال قلعة (أ) مربعة الاضلاع (٢٠٠ قدم) ذات أسوار وأبراج وخنق ولها بوابتان وفي

داخلها معبدان وتعود الى القرن الثالث ق . م . وقد بنيت فوق موقع سكني يعود في القدم الى الألف الثالث ق . م . الصورة (ب) مخطط لواحدة من مئات المستوطنات القديمة في وديان عمان . بقاياها الأثرية تعود ايضا الى الألف الثالث والثاني ق . م . منها آثار مدينة مدورة قرب بات . فيها فخاريات كثيرة . وأدوات نحاسية وبرونزية .

(٣) - تشكل الأختام جانبا من

اللقى الأثرية التي يقدرها الأثريون في الشرق القديم ويستخرجون منها المعلومات الكثيرة . هي في الأصل محاولة لاعطاء الشكل الرسمي وللتوثيق بين التجار في مواقعهم المتباعدة . منها الشكل الاسطواني الذي يدرج درجا على الطين ومنها الختم المدور أو المربع الذي يصبم بصما . اختلاف الرسوم على الأختام وما نقصه من القصص وتعبير عنه من المعتقدات يجعلها من مصادر التاريخ .

التجاري مستخدمة فيه الحمير في القديم ثم الحصان والجمل منذ الألف الثاني ق . م .
كان التنائي بين البلاد التي تتوسطها جزيرة العرب . وتنوع المنتجات فيها من اسباب تميز التجارة العربية على الدوام بالندرة والقيمة والشهرة بالتوابل والبخور واللبان والمر والقرفة والطيوب . وهذا ما كان يعطي الجزيرة ، على حد قول هرودوت ، نكهة الهية .

٥

التاريخ الأقدم للجزيرة مجهول في معظمه . اصطلاح « العرب البائدة » الذي استخدمه النسابون الاسلاميون ليدلوا به على الجماعات العربية القديمة التي انقرضت ، لا يقدم سوى معلومات اسطورية عن العهود القديمة .

الأخبار التاريخية عن العرب الأقدمين كانت ، حتى عهد قريب ، لا تتجاوز بعض المعلومات عن اليمن القديمة منذ القرن العاشر



والهندية القديمة . ثمة بجانب ما يسمى اليوم قلعة البحرين بقايا معبدتين أقيما للمعبودين بربر وديرار ، اللذين يظهر فيهما المزج بين الأفكار الدينية في حوض السند وما بين النهرين .

(٧) - صنع هذا التمثال من الطين المحروق على هيئة مبخرة ، وهو واحد من عدد من التماثيل المحطمة التي أخرجت من معبد سوتر ، وجدت في بعض المساكن الواسعة (ولعله كان مصنعا للاهداء الى الآلهة كمنثور) قوالب عديدة . أمكن استخراج بعض النماذج من تماثيلها .



(٥) - صنع الفخار قائم في جميع الحضارات القديمة . والتفنن في أشكاله واتقانه وتزيينه هو الذي يميز حضارة عن أخرى كما يكشف العلاقات الانسانية بين الحضارات . في الأشكال المصورة نماذج من الفخار ومن زخرفته في الخليج العربي القديم .

(٦) - اذا كان لحضارة دلمون طابعا تجاري ، وكانت القبور تطنى بأعدادها على آثارها الأخرى . فالموتى هم الجانب المسيطر ، فقد كان لها ايضا وجهها الديني ومعبوداتها ونظامها الاسطوري الذي تمتزج فيه رموز الفلك . كالثور (الصورة) مع العبادات الشرقية

ق . م . ثم بعض المعلومات المتناثرة عن الجاهلية ومكة قبل البعثة النبوية . غير ان اعمال المسح الاثري والتنقيب الأخيرة أضافت الى تاريخ الجزيرة الأقدم فصولا جديدة أوغلت به ألفين الى ثلاثة آلاف سنة في الماضي أيضا .

شرق الجزيرة العربية ومملكة دلمون

الجوانب الشرقية من الجزيرة كانت ، بسبب موقعها وأمطارها ، قديمة الاستيطان والتحرك الحضاري . آثار الخليج العربي وعمان تكشف ان هذه المناطق كانت موطن جماعات بشرية استقرت وأقامت الحضارة منذ الألف الرابع ق . م . حتى عصر الميلاد . وكانت صلة الوصل ما بين حضارات حوض السند وحضارات الرافدين القديمة . أدلة ذلك نجدها في الكشوف الأثرية العديدة على امتداد الخليج . في جزيرة (فيلكة) بالكويت ، عثر على أعداد من المعابد (٣) والأبنية (٢) والتماثيل (٧) والأختام (٣) والنقود (٤) يمتد تاريخها على ٣ آلاف سنة ق . م . ونجد آثارا مماثلة في جزيرة تاروت وتلال مستوطناتها الهلينية بالاحساء ، وفي بلدة ثاج الداخلية التي كشف فيها ، وبالقرب منها ، عن مدينتين ذواتي طابع سلوقي لاحدهما سور ضخ (٩٠٠ م) . بالإضافة الى موقعي دارين والجرهاء المشهورين هناك .

أما البحرين ، وهي أهم المواقع . فالمؤرخون يعرفون فيها دلمون الواردة في الكتابات المسمارية . وفيها مواقع أثرية عديدة رغم صغرها . منها موقع بربار الذي وجدت فيه بقايا فخارية (٥) وأسلحة وتماثيل ومعابد وحلي . ومنها قلعة البحرين

التي كشف عندها عن ست مدن تتطبق بعضها فوق بعض . أقدمها من الألف الثالث ق . م . ومنها تلك المدافن المنتشرة في شمال جزيرة البحرين والتي تزيد على مائة ألف مدفن من عصور مختلفة .

كانت مملكة دلمون تشمل الاحساء وشواطئ الامارات ، على مدى عشرين قرنا . رغم ذلك ، فتاريخها غامض . بدأت مملكتها القديمة حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م . وفي ايام حمورابي ظهرت مملكتها الوسطى . منذ أواسط القرن ١٣ يظهر ما يسمى بالمملكة المتأخرة . حوالي القرن الخامس طغت عليها سيطرة الاخمينيين على الخليج . معتقداتها الدينية مزيج فيه الأثر الهندي (٦) .

المواقع الأثرية في عمان

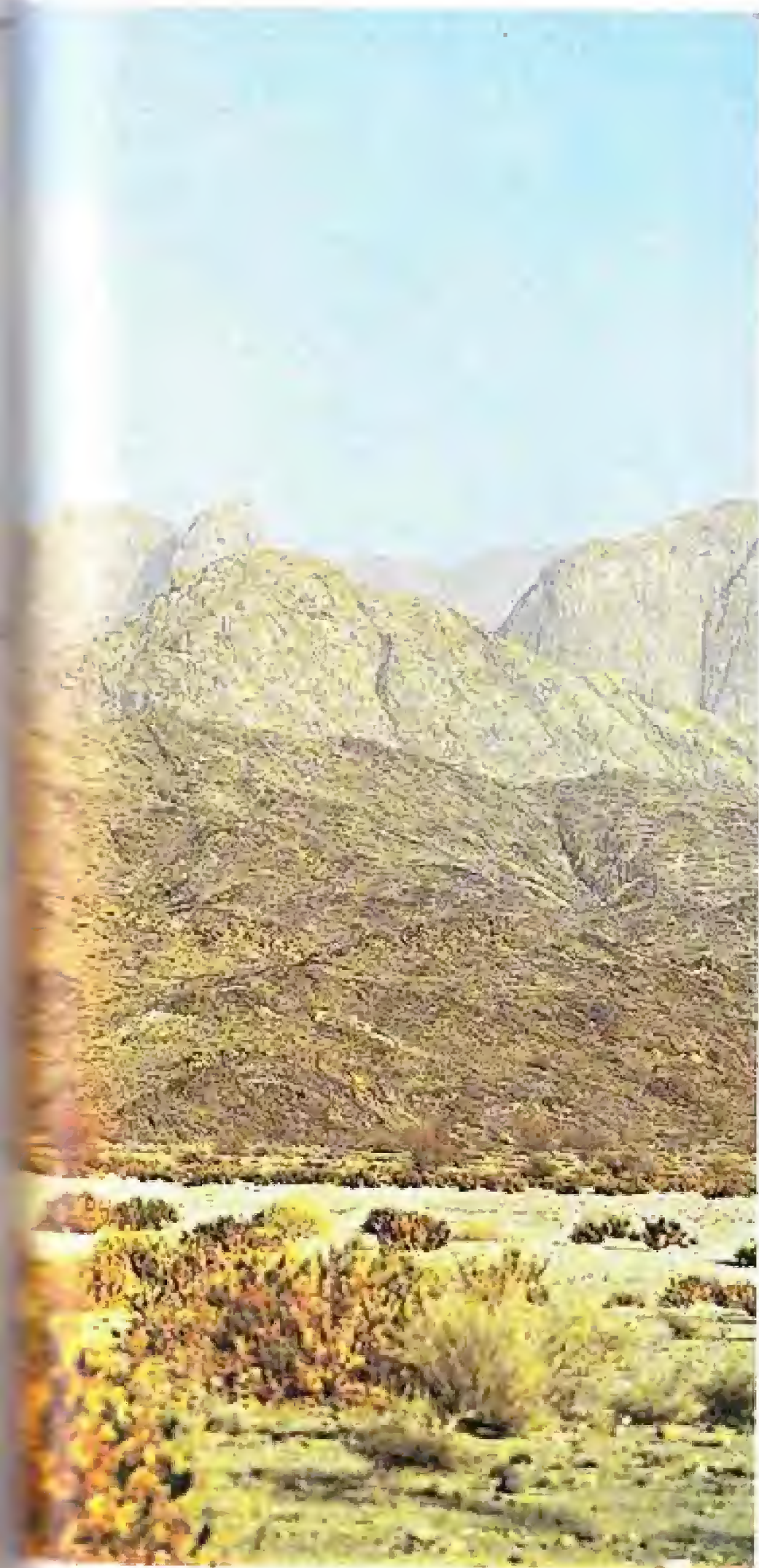
إذا تجاوزنا مواقع مماثلة في أم النار وهيلي (في الامارات) الى سواحل عمان ، وجدنا بعثات المسح الاثري تكشف على امتداد الوديان الكثيرة عشرات المستوطنات البشرية ، من الألف الثالث حتى الألف الأول ق . م . معظمها قرى ذات بناء مركزي مسور بالحجارة الضخمة (٣) . تدل آثارها على أنظمة زراعية متقدمة بنيت لها الأبراج والسدود . وفي بعضها مواقع للتعدين وصهر النحاس ، مع شواهد عديدة للعلاقات التجارية .

تميزت كل مواقع الحضارة في الخليج وعمان بالملاحة التجارية وبالعلاقاتها مع حوضي السند والرافدين . وكانت سفنها تحمل الذهب والفضة والاحجار الكريمة والاصناف والنحاس والنسيج واللؤلؤ والأواني الفخارية والحجرية والتمر .

العربُ الأقدمون^(٢)

ملك دمشق . وذكر أن من غنائمه في المعركة ألف جمل من جنديبو من بلاد العرب .
لكن الوجود العربي هناك أقدم من ذلك بكثير . نرى ملامحه خلال الألف الثاني ق . م في قصة ابراهيم واسماعيل وبناء البيت مثلا وفي قصة موسى وزواجه في مدين . في الألف الأول ق . م نجد في شمال غرب الجزيرة بين الحجاز والشام (١) المجموعات البشرية الآتية :

أقدم نص أثري ورد فيه اسم العرب هو حتى الآن اللوح المسماري الذي تركه الملك الآشوري شلمانصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) ، وذكر فيه انتصاره سنة ٨٥٤ ق . م على تحالف ملوك آرام ضده بزعامة بن حدد



(١) - كان اتجاه شمال الجزيرة ، على العموم ، نحو العراق وبلاد الشام ، وإن لم ينفصل عن جنوبها . وكانت الدول والشعوب التي قامت هناك تعتمد على التجارة أصلاً . وعلى الزراعة المحدودة . ومع ذلك قامت

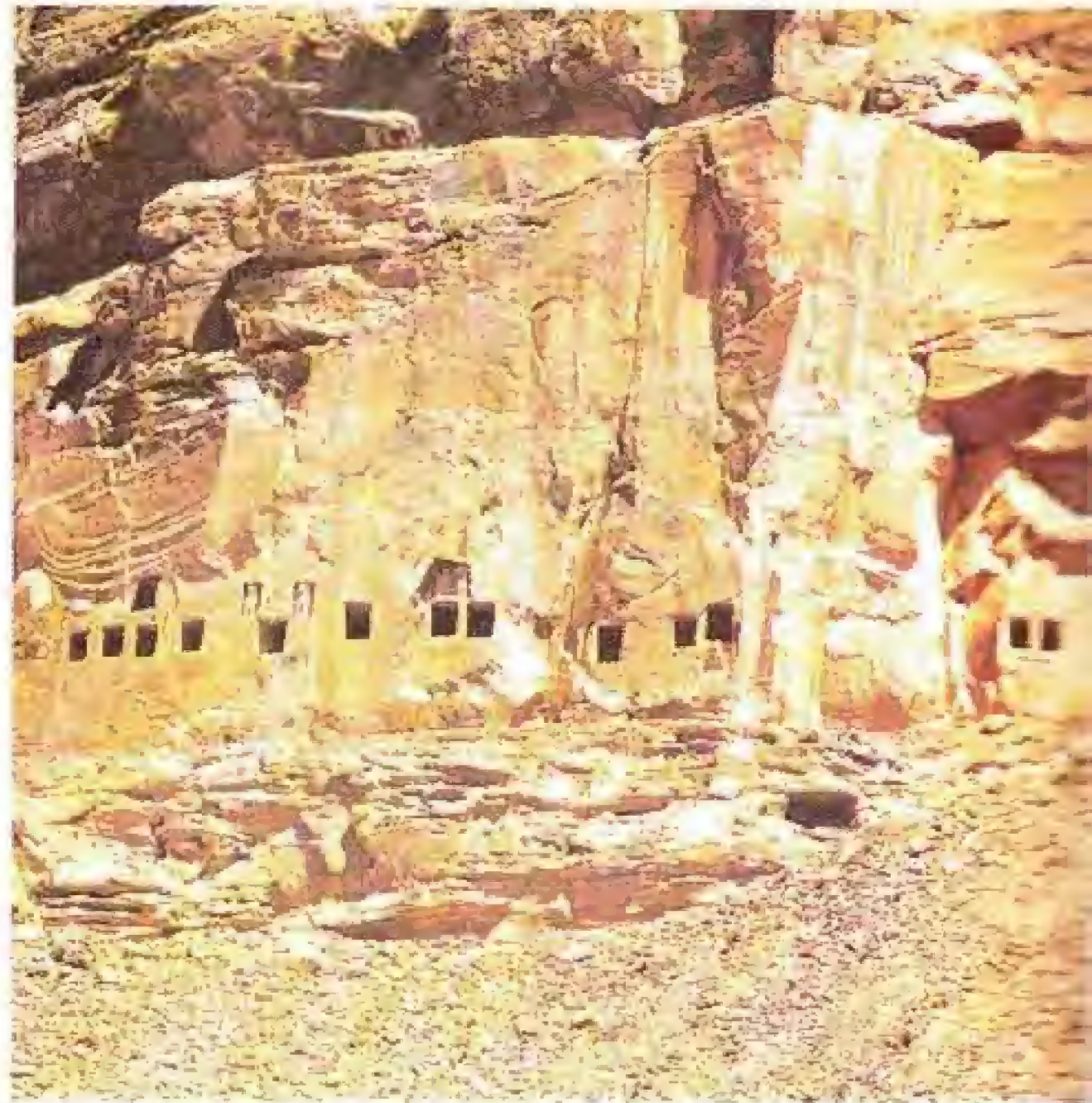
لديها حرف خاصة في الواحات التي اشبهت قراها المدن مثل تيماء ويثرب وبترا . كان شمال الجزيرة يعتمد ثلاثة موانئ تقع على البحر الأحمر . وهي العقبة (ايلة) والحوراء (لوكي فومي) وينبع .

يضاف إليها ميناء مكناء (البدع) . لكن تجار شبه الجزيرة الشماليون كانوا يقيدون من موانئ

١ - المملكة العربية الأولى (أدوماتو) :

النص الآشوري السابق يشير الى جماعة عربية اسمها أدوماتو ، كانت في (الجوف) في القرن التاسع ق . م . هذه البقاع جبلية جرداء (٢) ومقفرة لولا بعض الواحات القابلة للسكنى . الوجود العربي فيها أقدم دون شك من هذه الإشارة . بقي ذكر هؤلاء العرب يتردد بعد ذلك في النصوص الآشورية التي يمتد تاريخها ما بين سنة ٨٥٤ حتى سنة

٦٢٦ ق . م (نقوش آشور بانيبال) . يرد بجانب اسم « العرب » أيضا أسماء جماعات عربية أخرى : السبائي (سبأ) ، وتمأي (تيماء) ، وثمرود ، وعباديد ، ومارسمعانو والأنباط ، وقيدار ... تكشف النصوص ان من تسميهم بالعرب كانوا أسياد منطقة الجوف (دومة الجندل) و يقيمون مملكة لها نظامها وملوكها وجيوشها وقصورها ، وتعقد معاهدات السلم والتحالف مع جيرانها ، ولها ثرواتها



الخليج . وبشكل خاص الجرهاء (العقير حاليا ؟) . تتضح على هذه الخارطة الأماكن الرئيسية في شمال الجزيرة . مع إشارة الى الطرق التجارية التي كانت تصل بين العلا والمدن التجارية في العراق وبلاد الشام .

(٢) - بلاد الحجاز ، التي تحجز تهامة عن نجد ، منطقة جبلية جرداء ، فالجبال الصخرية المرتفعة لا نبات يكوها ، والسفوح الواطئة فيها نباتات شوكية . ومع ذلك ففي الحجاز واحات عديدة ، صارت محطات هامة للتجارة منها مكة والمدينة ومنها العلا ومدائن صالح وتبوك وكان الحجاز طريق التجارة البري الرئيسي بين اليمن وبلاد الشام . الصحارى المطلقة في الجزيرة هي الربع الخالي وصحراء النفوذ .

(٣) - جاءت مدائن صالح في القرآن باسم الحجر ، بوصفها حاضرة ثمود ، بقاياها الأثرية

ترجح وجودها قبل الألف الأول ق . م . كان حولها عدد من المستوطنات كالفريضة التي اشتهرت بالفخار . في المنطقة كهوف ومقابر منحوتة في الجبال الرملية . على واجهاتها نقوش وصور ورؤوس خرافية يعود بعضها الى القرن الثاني قبل الميلاد . كانت مدائن صالح متصلة أيضا بالبحر عن طريق ميناء باسمها (الوجه حاليا) .

(٤) - كانت العلا أحد المراكز الهامة للتجارة في شمال الجزيرة وبخاصة في أيام الأنباط . وقد كان فيها ، فيما بعد ، مركز مكوس بيزنطي للتجارة القادمة من الجنوب . كان لوجود الماء في واحة العلا أثر كبير في اختيارها نقطة اتصال تجاري . تعرف العلا اليوم باسم الخريبة ، وتري في الجبال المطييفة بها آثار ومقابر عديدة . بعضها من العهد الميعيني وبعض من عهد الأنباط عدا المخربشات الكتابية .

الضخمة من الابل ، كما كانت عاصمتها آدومو (دومة الجندل) محطة قوافل ملأى بالبضائع التجارية الهامة . كان هؤلاء العرب متصلين بأحداث السياسة حولهم ، وقد تحالفوا مع القوى الاخرى ضد القوة الآشورية التي كانت تسيطر على عقدة الطرق التجارية شمال الشام ، وتفرض الضرائب والنهب على الشعوب الاخرى . كان اشتراك جندب في حلف دمشق وموقعة قرقر (قرب حماه) ضد

شلمانصر الثالث سنة ٨٥٤ أحد التحالفات للدفاع عن طريق التجارة نحو الاناضول . وقد تلتها تحالفات أخرى عديدة من مثله . كان أخطرها اشتراك هؤلاء العرب في ثورة بابل حوالي سنة ٧٧٥ ضد آشور بانيبال .

كان للمرأة مكانها في هذه الجماعات العربية . فقد وردت أسماء عدة ملكات لديها ، منهن شمس وزيبية وسمورامات (سميراميس) وباتعة . وكن يحكمن مع



١٧
١٦
١٥
١٤
١٣
١٢
١١
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣
٢
١

١٠٢	١٠١	١٠٠	٩٩	٩٨	٩٧	٩٦	٩٥	٩٤	٩٣	٩٢	٩١	٩٠	٨٩	٨٨	٨٧	٨٦	٨٥	٨٤	٨٣	٨٢	٨١	٨٠	٧٩	٧٨	٧٧	٧٦	٧٥	٧٤	٧٣	٧٢	٧١	٧٠	٦٩	٦٨	٦٧	٦٦	٦٥	٦٤	٦٣	٦٢	٦١	٦٠	٥٩	٥٨	٥٧	٥٦	٥٥	٥٤	٥٣	٥٢	٥١	٥٠	٤٩	٤٨	٤٧	٤٦	٤٥	٤٤	٤٣	٤٢	٤١	٤٠	٣٩	٣٨	٣٧	٣٦	٣٥	٣٤	٣٣	٣٢	٣١	٣٠	٢٩	٢٨	٢٧	٢٦	٢٥	٢٤	٢٣	٢٢	٢١	٢٠	١٩	١٨	١٧	١٦	١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	٠
١٠٢	١٠١	١٠٠	٩٩	٩٨	٩٧	٩٦	٩٥	٩٤	٩٣	٩٢	٩١	٩٠	٨٩	٨٨	٨٧	٨٦	٨٥	٨٤	٨٣	٨٢	٨١	٨٠	٧٩	٧٨	٧٧	٧٦	٧٥	٧٤	٧٣	٧٢	٧١	٧٠	٦٩	٦٨	٦٧	٦٦	٦٥	٦٤	٦٣	٦٢	٦١	٦٠	٥٩	٥٨	٥٧	٥٦	٥٥	٥٤	٥٣	٥٢	٥١	٥٠	٤٩	٤٨	٤٧	٤٦	٤٥	٤٤	٤٣	٤٢	٤١	٤٠	٣٩	٣٨	٣٧	٣٦	٣٥	٣٤	٣٣	٣٢	٣١	٣٠	٢٩	٢٨	٢٧	٢٦	٢٥	٢٤	٢٣	٢٢	٢١	٢٠	١٩	١٨	١٧	١٦	١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	٠

(٥) - رغم كثرة النقوش والكتابات الشمودية كثرة هائلة تبلغ عدة ألوف ، ورغم انتشارها في مناطق واسعة جدا تمتد من اليمن الى عمان الى العراق والشام ومصر . فإن العلماء يسمونها « مخربشات » لقيمتها المحدودة ، ولأنها عبث كتابي أكثر مما هي كتابة منظمة . فهي لا تحوي أكثر من بعض

الاسماء والأدعية للمعبودات . كما ان الكتاب الذين نقشوها كانوا تجارا عابرين هنا وهناك وسجلوا هم أو عبيدهم الاسماء والرسوم التي خطرت ببالهم في أي مكان اتفق أن وقفوا عنده . مع ذلك فبعض الكتابات تفيد في معرفة معبودات ثمود وطرقها التجارية ولغتها وأعمالها .

(٦) - كانت الأختام تستعمل بين التجار لجعل ما يتراسلون به رسميا . بعضها كان على شكل أسطوانة منقوشة تدرج درجا على الطين . وبعضها على شكل دائرة أو مربع . الأختام الديدانية تشبه كل الشبه أختام ما بين النهرين ولعلها تقليد لها أو مجلوبة منها . لولا أن بعضها يحمل أحرفا ديدانية .

(٧) - في شمال الجزيرة استعمل أكثر من خط واحد . ومع ان الخط النبطي كان شائعا . فهناك الخط اللحياني الذي نجد نموذجا منه على هذه المسلة التي وجدت في العلا . وهي من القرن الثالث ق . م . يذكر النقش أسماء أسرة كانت تعبد الاله « ذو عبت » . طول هذه المسلة حول المتر .

وجود أخوة ذكور لهم ، وكنّ يحضرن الحروب .
وكانت منهن كاهنات .

كان قوام تجارة هؤلاء العرب الذهب
والفضة والقصدير والحديد وجلود الفيلة
والعاج وأنواع التوابل والملابس الصوفية
الملونة والكتانية والصوف الأزرق
والارجواني ، عدا الخيول والبغال والنعاج
والحمير والابل .

٢ - الثموديون :

هم الشعب الذي ورد ذكر اندثاره في
القرآن الكريم . المسح الأثري في مواقع تبوك
والعلا (٤) ومدائن صالح وتيماء ووادي
السرхан وحائل وجبة وجبل رقم قرب العقبة
والمناطق المجاورة لها كشف عن آلاف
الكتابات والمخربشات الثمودية التي اختلف
المؤرخون في تقدير أعمارها . يعيدها بعضهم
الى الألف الثالث ق . م . لكن الثابت ان هذا
الشعب العربي كان موجودا يحارب سرجون
الثاني ملك الاشوريين في القرن الثامن
ق . م . كما كان لدى الروم البيزنطيين فرقة
حربية منه في أواسط القرن الخامس
الميلادي . في ما بين هذين التاريخين كان
التموديون شعب تجارة يسيطرون على طرقها
في منطقة انتقالها من الخليج او من اليمن
الى الشام . من خلال عدد من البلدان
والمحطات .

كانت لغة الثموديين عربية ، شبيهة
بلغتنا العربية ، واشتق الثموديون لأنفسهم
ابجدية ثمودية خاصة كتبوا بها . بقيت لنا
من كتاباتهم آلاف الكتابات (٥) والرسوم
على الصخور والأبنية في مناطقهم .
اندثر الشعب الثمودي كله وتمزق بددا

منذ القرن الرابع الميلادي حتى القرن
السادس . ودخل في المجتمعات البدوية
والحضرية التي خلفته في مناطقه .

٣ - اللحيانيون :

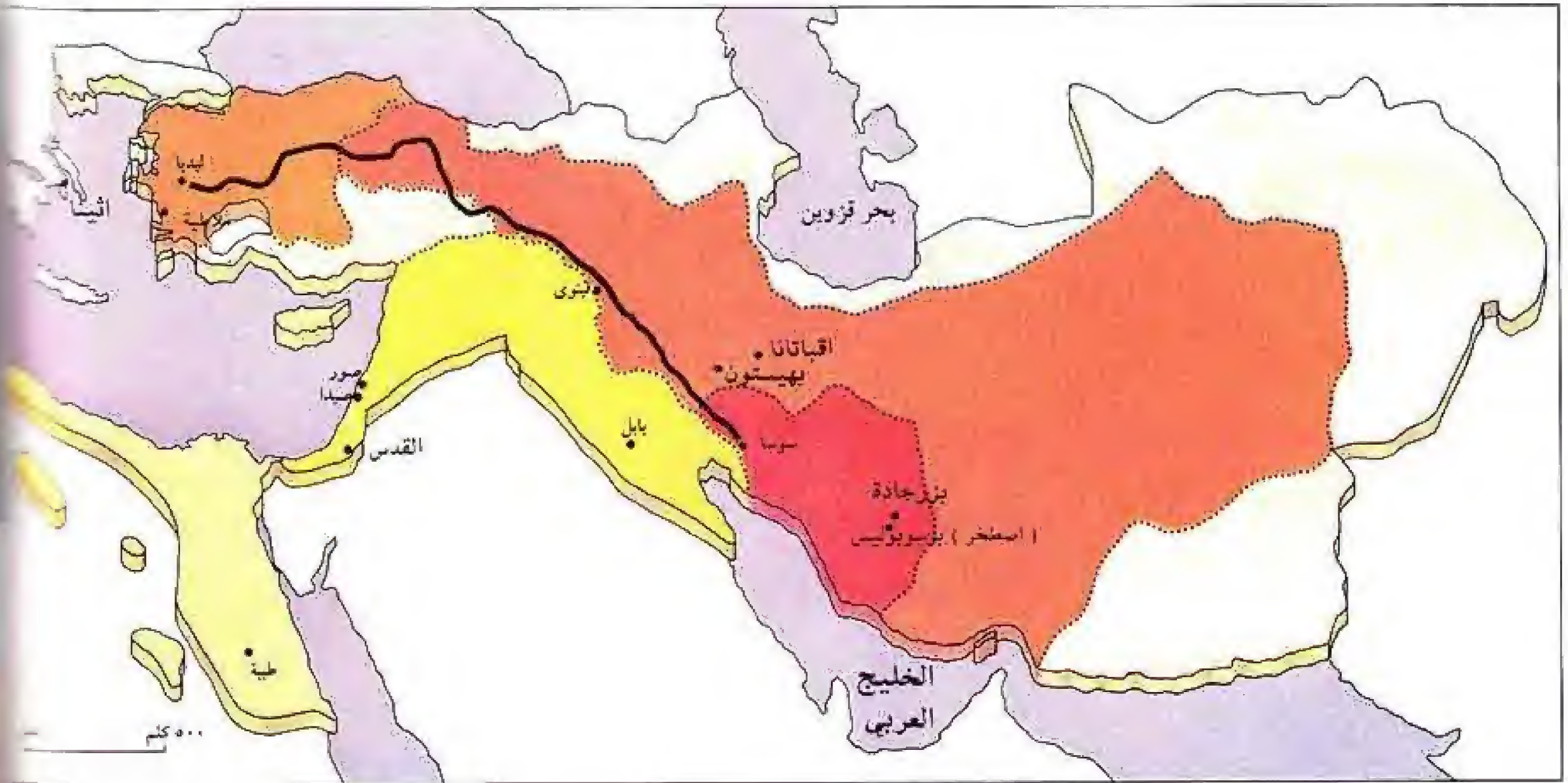
هم شعب عربي آخر قديم لعله من فروع
ثمود . عمل بالتجارة مثلها . كانت قاعدته
مدينة ديدان (عند مدائن صالح) (٣) التي
كانت في الاصل مستعمرة معينية على الخط
التجاري الاعظم بين اليمن والشام . لكن
اخبار اللحيانيين تذكر ايضا مع المدن
التمودية مثل تبوك والعلا ومدنين ودومة
الجندل . بعد سقوط البتراء في القرن الثاني
للميلاد استولى اللحيانيون على المدينة وورثوا
مركزها التجاري . تكشف الآثار اللحيانية
والبقايا الفخارية والقبور المزخرفة بالنقوش
في بلدة العلا ومنطقتها عن مدنية جاهلية
راقية ، وان تكن حتى الآن مجهولة . كان
للشعب اللحياني كتابته الخاصة (بين المسند
والآرامية) وكانت له صلاته التجارية القوية
مع جنوبي العراق . تبرهن على ذلك الاختام
اللحيانية المنقوشة بالرسوم البابلية .

تميزت بين المدن الثمودية - اللحيانية
مدينة تيماء الجبلية التي بلغ من شأنها
التجاري ان اتخذها نابونيد (٥٥٥ - ٥٣٨
ق . م) آخر ملوك بابل مقرا اقليميا له بعد
أن فتحها . وبنى لنفسه فيها قصرا كقصوره
في بابل . ويبدو ان هذا الملك التقى المحب
للآثار وجد في تيماء ملجأ له من حملات
قورش الامبراطور الفارسي . فبقي فيها عشر
سنوات . وكان مستقرا هناك حين سقط
عرشه . من آثار تيماء قصر زلوم وهو الأبلق
المشهور في الأدب بقصر السموأل .

امبراطورية الأخمينيين الفارسية

تضم جزءا كبيرا مما يعرف اليوم بإيران وأفغانستان، وبلغ عدد سكانها ٤٠ مليون نسمة، كانوا يرتعون في ظل قانون موحد، وينعمون بأنظمة مشتركة للعملة والبريد والري، ويتمتعون بشبكة رائعة من الطرق (١)، ويوحد بينهم دين متسامح. ومع ان الاسكندر الكبير كان قد قضى على سلطة السلالة الاخمينية في عام ٣٣٠ ق. م، فقد عاد النفوذ الفارسي الى الانتعاش في عهد

كانت الامبراطورية الفارسية اثناء فترة ازدهارها بين عامي ٥٥٠ ق. م. و ٤٨٠ ق. م اعظم امبراطورية عرفها العالم حتى ذلك التاريخ، من حيث المساحة والانجازات. كانت منطقتها المركزية مساحة



الآن في «غرفة الكنز» في متحف طهران.

(٣) - بدأ بناء قصر اصطخر (برسيبوليس) عام ٥١٨ ق. م بأمر من دارا، لكن العمل أنجز في عهد أخشويرش الأول في ٤٨٦ - ٤٨٥ ق. م. يعود جانب كبير من عظمته الى وقوعه امام جبل حفر فيه جزء من شرفته الكبرى. كانت الأدرج الرائعة المؤدية الى الشرفة

فائقة يظهر عليها رب الطقس راكبا عربة يجرها ثور، كما تظهر عليها ايضا معركة مع هولة. عشر على هذه الطاسة اثناء حفريات التنقيب سنة ١٩٥٨ في قلعة حسنلو في الطرف الشمالي من وادي سولدوز وقد تمسكت بها يدا هيكل عظمي لرجل ربما كان يحاول الفرار من قصر التهمته النيران عندما هوجمت القلعة عام ٨٠٠ ق. م، وهي موجودة

الولايات، انشأ شبكة طرق بلغ مجموع طولها ٣٧٠٠ كلم. كذلك أقام محطة بريدية، كانت خيول بديلة تنتظر فيها رسل الملك، الذين كانوا قادرين على اجتياز الشبكة بكاملها في اسبوع واحد. بينما كان لا بد للمقاول التجارية من ٩٠ يوما لاجتيازها.

(٢) - طاسة حسنلو المهشمة المصنوعة من الذهب بمهارة

- سلطنة فارس
- الامبراطورية الميديّة التي ضُمت ٥٢٩ ق. م.
- الامبراطورية الليديّة التي ضُمت ٥٤٦ ق. م.
- الامبراطورية الكلدانية التي ضُمت ٥٣٨ ق. م.
- الامبراطورية المصرية التي ضُمت ٥٢٥ ق. م.
- الفتحاحات اللاحقة حتى ١٧٩ ق. م.
- طرق ملكية

(١) - كان يحكم الامبراطورية الفارسية في الحقبة الاخمينية حكام الولايات، ولكي يؤمن دارا الاتصال بين شتى

الامبراطوريتين الاشكانية والساسانية حتى تداعى أمام الامبراطورية العربية الاسلامية في القرن السابع الميلادي .

تاريخ بلاد فارس القديم

بلاد فارس هي الجسر الطبيعي بين اوروبا وآسيا ، ويرقى تاريخها الى ٦٠٠٠ ق . م . وتحتوي على ما يناهز ٢٥٠٠٠٠ موقع أثري (٢) . ألف منها في السهل الواقع أمام

برسيبوليس (٣) وحدها . في حوالي ١٥٠٠ ق . م جاء شعب آري من البدو الرحل من الشمال فأعطى البلاد اسمها : إيران . أي « بلاد الآريين » . وفي عام ٥٤٩ ق . م . اتحد احفادهم الميديون مع الفرس في الجنوب . على يد قورش الكبير الذي أسس بذلك الامبراطورية الفارسية داعيا اياها الامبراطورية الاخمينية نسبة الى أحد اجداده . بنى قورش امبراطوريته . لا على



الحفار ان يعمل لوحده لشق نفق لا تزيد أبعاده عن ٦٠ × ٤٠ سم . محاولا المحافظة على استقامة اتجاه النفق ، وقياس درجة انحداره بدقة تكفي لجريان الماء بشكل ثابت حتى مكان استعماله . ساهمت هذه الشبكات المائية الفريدة في تقدم الامبراطورية الفارسية . بقدر مساهمة حكامها العقلاء .

(٤) - طريقة انشاء انفاق مائية تحت الارض تدعى قناة أدخلت أول الأمر الى بلاد فارس . في العصور الاخمينية . لنقل مياه الجبال على مسافة اميال من الصحراء . كي لا تتعرض المياه للتبخر الذي تعاني منه الأقنية المكشوفة . تُستخدم آلة رافعة يديرها رجل واحد لبلوغ الانفاق عبر آبار محفورة في الارض . تباعد بينها مسافات تبلغ نحو ١٠ امتار . كان على

عريضة بحيث تسمح لثمانية فرسان بصعود درجاتها المنخفضة في رتل واحد . يزّين جوانب الادراج موكب من « الخالدين » محفور في الصخر ، ورائه صفوف من رجال الحاشية الملكية . الميديين والفرس . ثم تأتي الشعوب المحكومة حاملة الجزية . تشد كلابات من الحديد مثبتة بالقصدير المصهور بعض الكتل الحجرية التي بنيت منها الشرفة .

الفتح الاقليمي وحسب ، بل على التسامح والتفاهم الدوليين ايضا . فكانت حقوق جميع الدول المحكومة واديانها مصنونة ، وقوانينها وعاداتها محترمة . بعد انتصاره على بابل عام ٥٣٩ ق . م ضم بقوة جيشه ممالك اشور وليديا وآسيا الصغرى السابقة الى الامبراطورية الفارسية . فصارت اكبر كيان سياسي قام في العالم القديم . قبل الرومان . امتدت انتصارات قورش حتى المتوسط غربا .

والكوش الهندي شرقا ، حيث لاقى حتفه اثناء القتال في عام ٥٢٩ ق . م . خلف قورش ولده قمبيز الثاني (حكم ٥٢٩ - ٥٢٢ ق . م) الذي لم يرث أيا من فضائل أبيه . بل أخذ عنه فقط رذيلة القسوة . استهل قمبيز الثاني حكمه بقتل أخيه سمرديس ، ثم استهوته ثروة مصر فسار اليها يبتغي الاستيلاء عليها . لكن هذه الحملة أتت على حوالى ٥٠٠٠٠ من جنوده ، ولم تسمح



(٨) - قطعة نقود يظهر فيها احتشويرش الاول في وضع هجومي . مع انه اشتهر خصوصا بقيادته الجيوش الفارسية الى الهزيمة على يد اليونانيين في معركة سالاميس . ورث احتشويرش الامبراطورية عن ابيه دارا الاول عام ٤٨٦ ق . م . وفي عام ٤٨٤ ق . م قضى على أحد المغتصبين للحكم في مصر بصورة وحشية ، ثم اتبع الطريقة نفسها لاختاد ثورة في بابل . بعد عدد من الانتصارات المبكرة في اليونان فقد اسطوله في سالاميس . قبدأ انحطاط الاخمينيين منذ ذلك الحين .

(٧) - يعود الفضل في تفوق المحاربين الفرس . الى حد كبير . الى براعتهم في استعمال القوس . كان القواس يحمل الأسهم في جعبة (أ) ويرتدي أحذية جلدية وقبعة ، ويتقلد سيفاً قصيراً . بينما كان كل من حراس دارا الكبير (ب) يرتدي ثوباً فضفاضاً ويحمل رمحاً طويلاً وترساً مقرطاً . قاد دارا نفسه امثال هؤلاء الرجال المعروفين بالعشرة آلاف خالده .

(٦) - هذا الجندي . الذي ينتمي الى فرقة « العشرة آلاف خالده » . يظهر في صورة ملونة على الأجر المظلي بالمينا . وجدت في قصر سوسا . إحدى عاصمتي امبراطورية دارا . وهو يحمل قوساً وجعبة . كان دارا يكافئ حراسه على ولائهم . بوضع رسومهم على جدران كل قصر يبنيه . كانت فرقة الحرس إحدى مفاخره العسكرية .

(٥) - يجلس ارتخششتا الأول (حكم ٤٦٥ - ٤٢٥ ق . م) أحد ملوك السلالة الاخمينية على العرش في قاعة المائة عمود في اصطخر (برسيبوليس) تحت رسم أهورا مزدا (يزدهن) الممجد . رب الديانة الزرادشتية الأسمى . وكانوا يعتقدون ان هذا الرب يوجه اعمال الملك بوصفه نائبه . ويحمي الارض وحاكمها .

له بالقضاء على الديانة المصرية . وفي سورة غضب نهائية قتل أخته وزوجته روكسانا ، وذبح ابنه بريكساسبيس ودفن ١٢ من نبلائه أحياء ، ثم مات وهو في طريق العودة الى بلاد فارس .

عهد دارا

كان دارا العظيم (٥٤٨ - ٤٨٦ ق . م) . قبل ان يكسب الصراع من أجل الخلافة على العرش . قائد « العشرة آلاف خالد » . وهم صفوة القوات الفارسية (٦ . ٧) . تميز عهده بنشوب ثورات بين الدول المغلوبة ، لكنه سرعان ما قمعها . وفي بابل وحدها صلب ٣٠٠٠ من المواطنين المرموقين . وعندما أدرك مدى ضعف الامبراطورية الشاسعة الأطراف أمام الأزمات ، خفف من وطأة الحكم العسكري ، واستبدل به ادارة حكيمة ، وأعاد تنظيم ممالكه تنظيما أصبح نموذجا للتنظيم الامبراطوري ، فنتج عن ذلك فترة نظام ورخاء . لكنه لما استتب السلام والاستقرار في الداخل ، نهض بجيوشه متقدما أولا عبر البوسفور والدانوب حتى نهر الفولغا ، ثم الى وادي الهندوس ، قبلت الامبراطورية الفارسية بذلك أوج اتساعها ونفوذها .

كانت ديانة البلاد الاصلية قائمة على عبادة ميتر ، ممثلا للشمس ، وانايتا ربة الماء والخصب . ثم تلا هذه المعتقدات فيما بعد ، عبادة كائن واحد أسمى ، هو : أهورا مزدا أو (يزدن) (٥) . نادى بهذه العبادة رجل من القرن ٦ ق . م اسمه زارادشت . وفي كتابه المقدس (الأفتا) اعتبر هذا المعبود « الرب الحكيم » . وجعله خالق العالم ومدبره . قائلا : انه تلبس بقبة السماء جاعلا

من الشمس والقمر عينين له . وقد صاغ مزدا نقيضا لنفسه ، أهرمن ، يمثل الشر . فلما أفلت هذا منه جعل يطارده . ولهذا صار يتعاقب الليل والنهار والخير والشر والصحة والمرض دوما . بهذا الشكل صارت هذه الديانة اثينية . عرفت الزارادشتية عند العرب باسم المجوسية ، ويعبد أصحابها النور الممثل لمزدا . لهذا يوقدون النار المستمرة بالمعابد .

غزو اليونان

كان الشعب يؤيد نظام الحكم الملكي في فارس ، لاعتقاده بان سيادة الأفراد تصان على أفضل وجه في ظل حكم سيد فرد هو « ملك الملوك » . من جهة ثانية ، كانت دولة أثينا المدنية تؤيد فكرة الديمقراطية للجميع ما عدا العبيد وغير المواطنين . فرأى دارا في دول المدن اليونانية ومستعمراتها خطرا عليه . وعندما ثارت ايونيا وتلقت الدعم من اسبرطة واثينا ، عبر دارا البحر الايجي ، لكن قوة يونانية هزمته في ماراثون . وفي غضون الاستعدادات لحملة جديدة على اليونان ، توفي عام ٤٨٦ ق . م . بعد حكم ٣٦ سنة .

عبر احشويرش (٥١٩ ؟ - ٤٦٥ ق . م) ابن دارا مضيق الهليسبونت على رأس جيش ضخم وقهر الاسبرطيين في ترموبيلي . ولكنه أخرج من اوروبا عام ٤٧٩ ق . م ، بعد ان صب عليه اليونان جام كرههم الأبدى لاقدامه على احراق الاكروبوليس في أثينا . بعد ذلك ، تداعت الامبراطورية الاخمينية حتى هزم الاسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) آخر ملوك تلك السلالة وهو دارا الثالث في معركة اربيل عام ٣٣١ ق . م . وأصبحت بلاد فارس جزءا من امبراطورية الاسكندر ثم خلفائه .

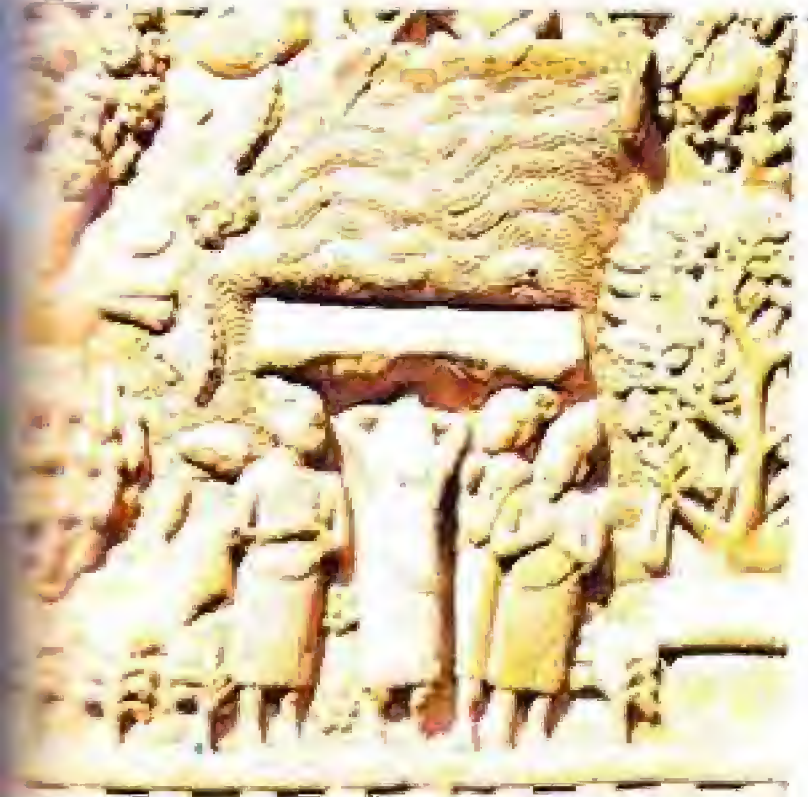
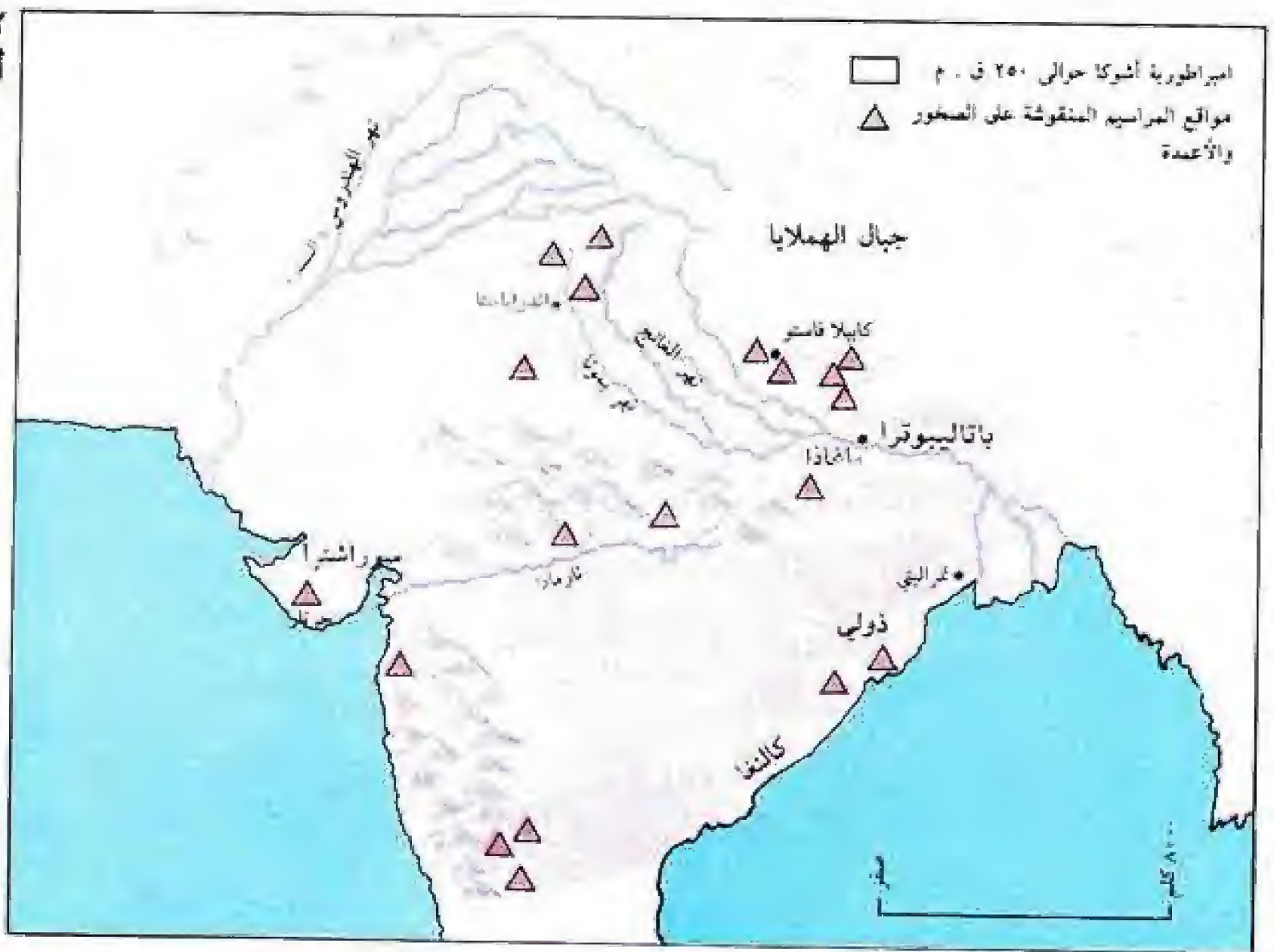
الهند

«من ٥٠٠ ق.م. حتى ٣٠٠ م»

انبثقت فيه ديانات مختلفة (مثل الجينية) ،
وعصر تغيرات برزت فيه الشكوك حيال القيم
التقليدية الراسخة .

يُعتبر عصر بوذا (٥٦٣ - ٤٨٣ ق . م)
(٢ . ٤) نقطة البداية لاحدى الديانات
العالمية الكبرى . ولتطورات هامة في
المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،
في شبه القارة الهندية . كان ذلك عصرا

التجارة والتغير السياسي
في الحقل السياسي ، نشأت دول كبيرة
توسعية . سيطرت اربع منها على مسرح
الأحداث . مع حلول عام ٥٠٠ ق . م . كانت
اقوى هذه الدول ماغادا في الجزء الجنوبي من



(١) - كانت الامبراطورية
الموريانية اعظم دول الهند
القديمة . وكانت تضم القسم
الاكبر من نصف القارة الهندية
(باستثناء طرفها الجنوبي
الأقصى) . ومعظم البنغال
والسند . كذلك كانت تضم
اجزاء هامة من افغانستان
الحديثة بحيث كانت تتحكم
بالمواصلات البرية الهامة
جدا مع الشرق الاوسط .
يمكن تحديد حجمها بدقة

استنادا الى مواقع المراسيم
الاشوكية المنقوشة على الصخور
والأعمدة .
(٢) - يقال ان بوذا كان يهدي
الناس الى دينه عن طريق
اجترار المعجزات . كالمشي
على الماء . وهو ما يظهر هنا
(أ) في صور محفورة على
مدخل برج سانشي . يمثل
مشهد آخر (ب) والد بوذا وهو
يؤدي واجب الخشوع للشجرة

التي بلغ بوذا الاكبر حال
الاشراق تحتها .
(٣) - تظهر على المنحوتات
الفخمة عند مدخل البرج العظيم
في سانشي قصص بوذية دينية
وصور معبودات محلية تنتمي
الى الديانة الشعبية وكانت
البوذية قد تسامحت معها .
تدور القصص البوذية اما حول
أحداث هامة في حياة بوذا . او
حول قصص تعود الى مراحل

وجوده السابقة . كإنسان او
كحيوان . للديانة الشعبية
معبودات اخرى متنوعة ، مثل
الياكشات (أرواح الشجر) .

بهار ، وكانت عاصمتها اولا في راجير ، ثم انتقلت فيما بعد الى باتاليبوترا (بته) . كان الحديد هو المورد الاقتصادي الرئيسي ، الا ان القوة التي تمتعت بها الدولة كانت ايضا نتيجة لدور بعض الحكام الشيطيين ، الذين تخلصوا تدريجيا من منافسيهم بالقوة والدبلوماسية .

ازدهرت الصناعات المنزلية كالنسيج والفخار والصناعة المعدنية ، ونُظمت ضمن

نقابات . كان نتاج هذه الصناعات ، بالإضافة الى الفائض الزراعي ، يتم تبادله بين المراكز الهندية الشمالية المختلفة ، وبين الامبراطورية الاخمينية (الفارسية) ، الى الغرب . كان اصحاب المصارف يمولون معظم اشكال التجارة ، ويقدمون وسائل النقل ، ويتحملون الخسائر . ساعدت هذه النشاطات على قيام طبقة ميسورة ، تتألف خصوصا من اناس لم يكونوا راضين عن انقسام المجتمع



(٥) - بعد أن رحل الاسكندر عن الهند عام ٣٢٥ ق . م ، أسس عدد من حكامه امارات صغيرة في باكتريا ، وشمال غربي الهند . وقد تأثر هؤلاء اليونان الى حد كبير ، بالهنود . فاذا قارنا مثلا قطعة عملة من عهد ديودوتس (أ) الذي لمع في القرن الثالث ق . م ، بعملة من عهد ميناندر (ب) (حوالي ١٥٠ ق . م) لا بد لنا ان نلاحظ في الأولى التأثير الهندي ، لاسيما في استعمال الخط الهندي .

(٤) - شيد البرج العظيم (وهو مزار ذو قبة) ، في سانشي في عهد أشوكا . الا ان الحاجز والمداخل الفخمة النحت اضيفت أثناء القرنين التاليين . كانت سانشي احد المراكز البوذية الرئيسية ، ابتداء من عهد أشوكا على الأقل . حتى القرن العاشر الميلادي . وهي تقع في وسط الهند ، حيث تلتقي الطرقات الرئيسية الممتدة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب . وقد اعطت اسمها ايضا لاحدى مدارس النحت .



ديودوتس



ميناندر

من ذلك . واستطاع ان يتوغل في البنجاب .
الا انه سرعان ما أكره على التراجع ، ولم
يلبث الحكام الذين عينهم ، ليحكموا
المقاطعات بعد رحيله ، ان اقتفوا أثره (٥) .

العهد المورياني المجيد

خلف تراجع الاسكندر وراءه شعورا قويا
بالوحدة الهندية . التي وجدت زعيما لها في
المحارب الشاب تشاندرا جوبتا (٣٢١ ق . -

الهندي ، آنذاك ، الى طبقات متميزة . وغالبا
ما اصبح امثال هؤلاء انصارا متحمسين
للبوذية . وسواها من الأديان غير الهندوسية .
تعثرت هذه التطورات لفترة من الزمن
نتيجة غزوة الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣
ق . م) عام ٣٢٧ . فبعد اجتياح الامبراطورية
الفارسية . زحف الاسكندر على مقاطعاتها
الهندية لاحتلالها . ولكنه ، طمعا في ثروة
الهند الاسطورية . عمد الى التقدم الى ابعد



(٦) - سيطر كانيشكا الأول
أعظم ملوك كوشان على
مساحات شاسعة من آسيا
الوسطى . وتحكم بالقسم
الاكبر من شمالي الهند .
حتى بهار شرقا .
ضلع هذا الرسم
الحديث على
لأسس تمثال
نصفي لكانيشكا
(كما يذكر النقش) اضيف
اليه الرأس المأخوذ من إحدى
قطع عملة كانيشكا . يحدث
المعطف والحداء الاسكيثيان
انطبعا قويا عن السلطة
والقوة اللتين كان
الملك يتمتع بهما .



التقليد القديم في بعض أجزاء
الهند ، حيث كشفت الحفريات
عن عدد من الكهوف تعود الى
الفترة بين ١٠٠ ق . م . و ٩٠٠ . أما
كهف تشايتا في كارلي .
بمهاراشترا فلم يكن يستعمل
للسكن . بل للعبادة .

(٨) - كانت جماعة الرهبان
البوذيين . وفقا للتقليد
البوذي . تستخدم الكهوف منذ
أقدم الأزمنة . لاسيما كملاجئ
في موسم الأمطار . ومع ان هذه
الملاجئ استبدل بها تدريجيا
أديرة مبنية . فقد استمر

بالكهوف . ولاسيما الذين
تبرعوا بالأرض لسد احتياجات
الرهبان . يظهر المتبرعون عادة
ازواجا ، مما يدل على مكانة
المرأة في هذه الحقبة من
تاريخ الهند الغربية .

(٧) - ثمة جزء مزخرف جدا
في كهوف كارلي بمهاراشترا .
وهو الواجهة التي تضم المساحة
الواقعة بين المداخل الثلاثة .
فبالإضافة الى المشاهد البوذية
التقليدية المرسومة فيها . تظهر
رسوم الاتقياء الذين تبرعوا

٢٩٧ ق . م) . بدأ هذا الزعيم بتحرير المقاطعات الغربية ، ثم زحف على باتاليبوترا ، حيث تغلب على ملك ماغادا الناندائي ، وهكذا أسس السلالة الموريارية عام ٣٢٠ ق . م . في محاولة تشاندراجوبتا للاستيلاء على العرش ، كان يؤازره وزيره البارع الداهية كوتيليا الذي يعتبر مؤلف أهم أثر هندي في السياسة هو « ارثاشاسترا » .

كان العهد المورياني (٣٢٠ - ١٨٥ ق . م) من أكثر عهود التاريخ الهندي تألقا . كان تشاندراجوبتا يسيطر على شمالي الهند من جبال هندوكوش حتى البنغال . وربما على بعض اجزاء جنوبي الهند أيضا . كانت المملكة تتصف بالمركزية ، بصورة عامة . وذلك الى حد ما بفضل شبكة من الطرقات . عقد تشاندراجوبتا عام ٣٠٥ معاهدة مع سلوقوس اليوناني (٣٥٥ ؟ - ٢٨١ ق . م) ، الذي اوفد ميجاستينس (٣٥٠ ؟ - ٢٩٠ ق . م) الى البلاط الهندي مبعوثا ليمنح تشاندراجوبتا رسميا حقوق الحكم في المقاطعات التي كان الاسكندر قد احتلها في الهند .

بلغت الامبراطورية الموريارية (١) اوجها في عهد اشوكا (٢٧٤ ؟ - ٢٣٦ ؟ ق . م) حفيد تشاندرا جوبتا وهو أقوى ملوك الهند القديمة . استمر اشوكا يادىء الأمر يمارس السياسات التوسعية التقليدية ، لكنه لم يلبث ان تخلى عن محاولة فتح البلدان بالقوة ، على أثر حملة شرسة على كاليانجا (وهي دولة اوريسا الحديثة) ، واستبدل بذلك أسلوب الفتح بالحسنى . وحوالى ذلك الوقت اعتنق أشوكا البوذية واصبح واحدا من اكثر دعايتها المتحمسين .

اليونان الهنود والسلالة الكوشية
واصلت السلالة الموريارية السيطرة على مساحات شاسعة من الهند حتى بعد انقضاء ٥٠ سنة على وفاة أشوكا . الا ان سيطرتها ما لبثت ان انحسرت . ففي حوالى عام ١٨٥ ق . م قام قائد الجيش بوشيامترا بأحد أوائل الانقلابات العسكرية . فعزل آخر الملوك الموريانيين . وأسس سلالة السونجا . وسرعان ما نقل مركز الدولة من بيهار الى اواسط الهند . كان بوشيامترا حاكما قديرا الا ان خلفاءه لم يستطيعوا الحيلولة دون هجمات اليونان البكتريين ، وهم المتحدرون من بعض قواد الاسكندر . استطاع الهنود صد بعض هؤلاء المهاجمين ، بينما توصل بعضهم الآخر الى تأسيس ممالك قصيرة الأجل ، في البنجاب ومواقع أخرى . تأثر الكثير من هؤلاء بالحضارة الهندية ، ولذلك يعرفون غالبا باليونان الهنود .

جاء في أعقاب اليونان الهنود غزاة من اواسط الهند ، وفي عام ٧٨ م كان معظم شمالي الهند تحت سيطرة كانيشكا (توفي ١٠٠ م ؟) (٦) أحد ملوك السلالة الكوشانية البوذية التي لم تلبث أن طردت من الهند ، بعد مرور قرن واحد . فنجم عن ذلك ردة فعل هندوسية . وتطورت السنسكريتية ، وكانت لغة الكتب المقدسة . واصبحت لغة التفاهم بين افراد الطبقة العليا في الادارة ، ولاسيما في الادب ، ويرجح ان الملحمتين السنسكريتيتين العظيمتين ، وهما « المهابهاراتا » و « الرامايانا » قد ألفتا اثناء هذه الحقبة ، وان كانتا تنطويان على تقاليد اكثر قدما . ويصح القول ذاته في شرائع مانو ، وهي التشريع الهندوسي الأساسي .

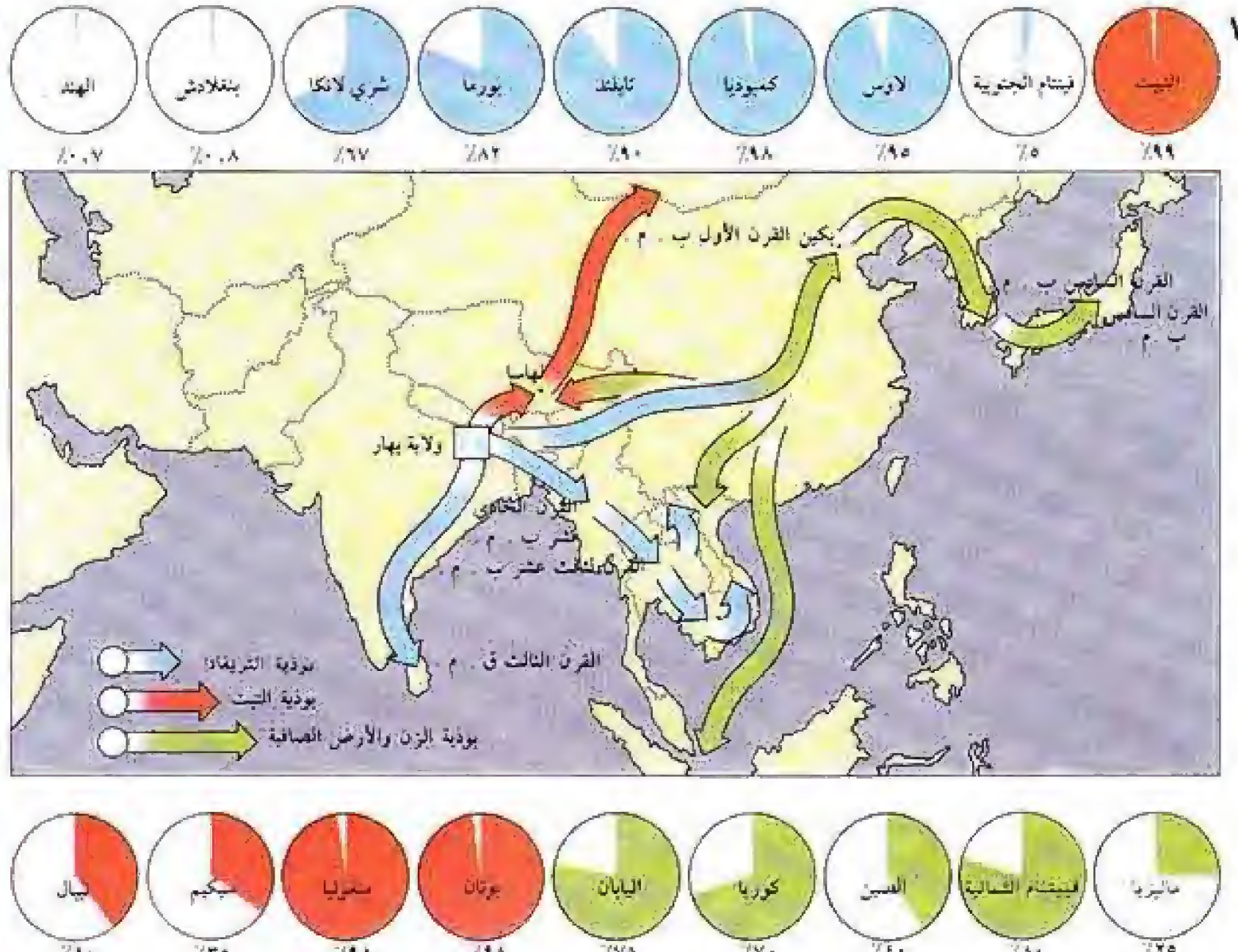
بوذا والبوذية

أهمية تعاليم البوذية الفلسفية والاخلاقية ،
التي جاءت ردا على طقوس الهندوسية ،
ونظامها الطبقي . وأصبحت إحدى أعظم
الديانات الشرقية .

مع حلول القرن السادس ق . م تحولت
قبائل شمالي الهند شبه الرحل الى مجتمعات
زراعية مستقرة . تحكمها أقليات طبقية
(أوليغاركية) أو سلاطات ملكية . كان ذلك
عصر تحول اجتماعي وأفكار جديدة . أكثرها

سيرة بوذا

ثمة عدد من الروايات المتباينة عن حياة
بوذا ، إلا أن الخطوط العريضة تبدو واضحة .
كان سيدهارتا جوتاما (٥٦٣ ق . م - ٤٨٣ ق . م)



(٤) - كان الحدث الرابع
العظيم في حياة بوذا هو
النيرفانا ، وهي ليست الحياة
الأبدية ولا الفناء ، بل هي
عبارة عن حال . لا يدركها
العقل . من السعادة المطلقة .
في الصورة . يظهر البوذا في
تمثيل رمزي لحال النيرفانا .
تعود هذه المنحوتة الضخمة
الموجودة في جال فيهارا .
بيولان - ناروفا ، بشري لانكا
الى القرن الثاني عشر .

(٣) - يقع هيكل موها بوذي
في بودجايا بيهار . عند البقعة
التي بلغ عندها بوذا
« الاستنارة » فيما كان جالسا
تحت شجرة البوذي . ولعل هذا
المكان هو أقدس موقع في
العالم البوذي . شيد الهيكل
الحالي ، الذي حل محل بناء
أقدم . عند الموقع ذاته . في
عهد الجوبتا (٣٣٠ ق . م - ٥٥٠ م)
إلا أنه أعيد ترميمه .

ولادته و « استنارته » . يدعو
البوذيون هذا الحدث « دوران
دولاب الشريعة » . فالدولاب
يمثل الكون ، والشريعة فلسفة
بوذا الأكبر التي تقدم تفسيراً
لأسرار الحياة . تعود منحوتة
سارنات الى عهد الجوبتا
(٥٠٠ م) . يعكس اكتمال
الشكل المادي المعرفة الكاملة .
وتوحي الأذنان المستطيلتان
والعينان البيضائتان بالتركيز
العميق .

(١) - كان انتشار البوذية ،
خارج الهند ، عملية معقدة
استمرت عدة قرون . تتبين هنا
الخطوط العامة لانتشارها .
والنسبة المئوية للبوذية في
عدد من البلدان اليوم . روج
للبوذية رهبان عملوا أحيانا
بصفة مستشارين للملوك .

(٢) - في حياة بوذا الأكبر .
كانت موعظته الأولى هي
الحدث الثالث العظيم (بعد

الذي أصبح فيما بعد البوذا (أي المستنير)
ابنا لسودودانا ، ملك الساكياس ، وللمملكة
مايا . يقع مسقط رأسه ، لومبيني ، على
الاطراف الشمالية لوادي الغانج بالقرب من
كايبلافاستو ، حيث قضى السنين الأولى من
حياته . بعد طفولة لم تتخللها أحداث تذكر ،
قرر الأمير الصغير الذي صدمته مشكلة الآلام
البشرية ان يقطع صلته بالماضي ، ويبحث
عن الحقيقة السامية في التأمل . غادر منزله

خفية (٧) ، وبلغ ، في نهاية المطاف ، وبعد
سنين من العزلة ، حالة « الاستنارة » وهو
جالس تحت شجرة البوذي في بوذجايا ،
بالقرب من جايا في جنوبي بهار (٣) .
أصبح هذا المكان فيما بعد من أقدس
الأمكنة البوذية ، وحملت اغراس من هذه
الشجرة الى بلدان بوذية مختلفة ، حيث
نمت اشجارا جديدة . بعد ذلك بقليل ، القى
البوذا أولى عظاته في حديقة الغزلان في



(٥) - معبد بوروبودور الواقع
في وسط جاوه ، يوصف
غالبا بالمعبد ذي القباب ، ومع
ان قمته تعلوها صومعة ، فإن
طابع القباب هو ما يطفئ على
المعبد . وهو يشكل معرضا
رائعا للمنحوتات لأنه يحتوي
على خمسة أروقة مزينة بسخاء
تعرض فيها قصص دينية في
١٥٠٠ لوحة نافرة . وقد بناها آل
السيلانديرا ، وهي أسرة ملكية
بوذية في جاوه .

(٦) - اعتنقت شعوب المون ،
في جنوبي تايلند ، وشعوب
التاي في اواسط تايلند ،
الديانة البوذية ، في القرن
الثالث الميلادي . وعلى الرغم
من احتلال الخمير لهذه البلاد ،
فقد واصلت البوذية ازدهارها .
يوجد رأس بوذا هذا في
لوبوري . ومع انه يتفق مع
المقاييس البوذية ، فقد عدل
نحته ليأتي مطابقا للمثل
الجمالية عند شعب التاي .

سارنات بالقرب من فاراناسي « محركا بذلك دولاب الشريعة » (٢) .

تمثل العقيدة البوذية الحل الوسط الذي يتفادى التطرف سواء في قتل الشهوات أو الانغماس فيها . تُسَلَّم هذه العقيدة بمفاهيم الهندوسية الأساسية : التناسخ وقانون الثواب (كارما) القائل بأن أفعال الإنسان هي التي تقرر مباشرة مصيره . لكنها ركزت على الأخلاق كسبيل للخلاص (٩) . كان بوذا يعتقد

أن الألم ينجم عن الرغبة . وأن التخلص من الرغبة يأتي بانتهاج « الطريق الثماني النبيل » الذي يتمثل بالسيرة الحسنة والفعل الحسن . وأنه من الممكن ، نتيجة لذلك ، بلوغ النيرفانا . وهي حال من السعادة القصوى ، تتوقف عندها دورة التناسخ أو الولادة المتكررة . وأن أفضل سبيل لبلوغ النيرفانا المثلى (٤) هو السيرة الرهبانية . قام بوذا نفسه بالقاء المواعظ في جميع



(٧) - كثيرا ما يتجلى الرحيل العظيم من كايلاستو في الفن الهندي . ومع أن بوذا رحل خفية تحت جناح الظلام . فالتحاتون يعطون عادة لرحيله أبهة المواكب الملكية .

(٨) - من أقدم تماثيل بوذا المعروفة . في جنوبي شرقي آسيا . هذا البوذا البرونزي الموجود في فيتنام .

(٩) - في الفلسفة البوذية . يتألف « دولاب الوجود » من ١٢ شعاعا . كل منها عبارة عن حلقة في دورة الحياة والموت المتكررة على الدوام . وسيستمر الدولاب في دورانه ما دام الجهل قائما .

انحاء شرقي الهند ، وحظي بتأييد الحكام وطبقة التجار الجديدة . وعندما « دخل طور النيرفانا » ، في سن متقدمة ، خلف وراءه نظاما رهبانيا ، دون تعاليم مدونة .

انتشار البوذية

انتشرت البوذية ببطء طوال قرنين من الزمن ، على الرغم من العقبات المختلفة التي اعترضتها ، مثل عداوة طبقة البراهمة الهندوسيين ، الذين خافوا منها على امتيازاتهم الخاصة . ولكن ، عندما اعتنق الملك الهندي أشوكا (حكم ٢٧٤ ؟ - ٢٣٦ ق . م) البوذية ، ساعد دعمه القوي لها على انتشارها على نطاق واسع . فأقدم الصوامع البوذية الباقية حتى الآن ، والتي شيدت لتكون مستودعا للآثار المقدسة ، تعود الى هذه الحقبة . وبفضل نفوذ أشوكا ، دخلت البوذية الى شري لانكا ، حيث بقيت دين البلاد الرسمي حتى يومنا هذا .

ابان القرون القليلة اللاحقة ، انتشرت الديانة البوذية اكثر فأكثر في الهند ، وكانت لها مراكز في اواسط الهند ، (مثل بهارهوت وسانشي) ، وفي ماهاراشترا واندرا براديش . حيث ازدهر الفن والعمارة البوذيان . في ماهاراشترا (ناسيك وكارلي وسواهما من المواقع) استخدم عدد من الكهوف كأديرة أو قاعات للعبادة (قاعات الشيتيا) . كما شيدت معابد عظيمة في امارافاتي وناغارجوناكوندا في بلاد الاندرا .

كانت البوذية عرضة للانقسام على الدوام ، وكانت المجالس التي انشئت لتشجيع الوحدة كثيرا ما تؤدي الى تقيض ذلك . وفي حقبة باكرة من التاريخ الميلادي نشأ انقسام

اساسي بين انصار « الطريق الكبرى » (ماهايانا) وانصار « الطريق الصغرى » (هينايانا) . ظهر في الطريقة الأولى رهبان ، لكنها كانت تشدد على مثال الرجل التقي العادي ، الذي يؤزر اقارنه دوما بحكمته ورأفته . كان البوذا التاريخي ، واسلافه من البوذات ، يعبدون على أنهم معبودات ، كما كانت تعبد ايضا الكائنات الاخرى التي نذرت نفسها لتبلغ مرتبة البوذا (بوذيساتفا) . كان البوذا والبوذيساتفا يُعبدان على شكل صور ، مما اعطى حافزا قويا لتقدم الفن البوذي ، الذي سرعان ما اشتمل على صورة بوذا الاكبر . اما طريقة هينايانا ، فقد بقيت أقرب الى التعاليم الأخرى .

الانتشار خارج جنوبي آسيا

منذ بداية التاريخ الميلادي ، انتشرت البوذية خارج جنوبي آسيا (١) فدخلت الى الصين في القرن الاول ، وامتدت فيما بعد الى كوريا واليابان . اما في التيبت فقد القت جذورها في القرن الثامن ، وتحولت الى ديانة اللاما فيما بعد . وأخيرا انتقلت الى بلدان الهند الصينية والى بعض الجزر البولينية .

مع ان البوذية لم تضمن دوما الانسجام بين هذه البلدان ، فقد أمدت شري لانكا وبلاد جنوبي شرقي آسيا بعقيدة ثابتة ومستوى تعليمي عالٍ . كذلك ساعدت على تحقيق انجازات كبرى في مجالي الفن والعمارة . ان المجمع الرائع لهيكل باجان (بورما) والباجودات الرائعة في مندلاي وبنكوك وايوثا (تايلند) تشهد على التأثير الفني لذلك الدين (٣ ، ٤ ، ٥) .

أوروبا

« بين ١٢٠٠ - ٥٠٠ ق.م. »

مئات من السنين . كانت شعوب الأورنفيلد تعيش في شمالي جبال الألب ، وهي تنتمي الى مرحلة ما قبل التاريخ من تطور أوروبا . خلع عليهم علماء الآثار اسمهم لأنهم أدخلوا طقسا جديدا من طقوس الدفن في أوروبا . فقد استبدلوا بالدفن في التلال إحراق الميت . وكانت الرفات توضع بعد الحرق في جرة ، وتدفن في مقابر كبيرة مسطحة عُرفت بالأورنفيلد (حقل الجرار) .

مع حلول عام ١٢٠٠ ق . م ، كان العصر البرونزي قد بلغ أوجه لدى شعوب الأورنفيلد . أسلاف الكلتيين الذين سيصبحون بدورهم بين ٨٠٠ و ٧٠٠ ق . م العنصر السائد والأكثر تقدما في المجتمع الأوروبي لبضع



على الأرجح . وتمثل نموذجا جميلا جدا للفن الكلتي .

(٣) - في التقاليد الإيرلندية ، يمثل هذا الحجر . برسومه اللولبية . المدخل الى « العالم الآخر » . وهو يعود الى حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م . ويمهّد للرسم الكلتية التي جاءت بعد ذلك بحوالي ٣٠٠٠ سنة .

(٤) - صنع صاغة إيرلنديون هذه القلادة المذهبة من القصدير حوالي عام ٨٠٠ ق . م .

(٦) - يبدو التناقص الكلتي المتأخر في هذا الخاتم الإيرلندي المذهب الذي يعود الى حوالي ١٠٠٠ ق . م .

(١) - تتجلى المهارة الهالشتاتية في صناعة الخزف والأناقة التزيينية في هذا الاناء من الفخار الذي وجد في نورينهورف بالمانيا ، والذي يعود الى حوالي ٦٢٠ ق . م .

(٢) - طغت الحرب ، سواء كأمر لا بد منه أو كرياضة

ارستقراطية . على جميع جوانب الحضارة الكلتية . لم يقتصر التركيز على الاسلحة الفعالة . بل تناول مظهر المحاربين أيضا . ومع أن الخوذ لم تُعتمَر عادة في المعركة . فقد كانت لباسا شائعا للرأس . تعود هذه الخوذة البرونزية من إيطاليا الى الحقبة الهالشتاتية

ثورة تقنية

تحدّر الأوروبيون باستثناء بضعة شعوب منهم ، كالباسك والفرنلنديين والاييريين ، من أصل هندوأوروبي . لذا جمعت بينهم تقاليد لغوية ثقافية مشتركة . من الممكن أن شعوب الأورنفيلد ، التي كانت تعيش في قرى او مجمعات سكنية ضخمة ، كانت تنطق بأحد أشكال اللهجة الكلتية . كما يُستدل من التطابق بين توزيع أنصابتهم وبين أقدم اسماء

الأمكنة الكلتية المعروفة . تعتبر شعوب الأورنفيلد هذه ، في العادة ، شعوبا كلتية بدائية ، ويبدو أن ليس بينهم وبين اخلافهم المباشرين . كلتية حضارة هالشتات ، كبير اختلاف .

شهدت الحقبة الأورنفيلدية ، لا تحسنا في الزراعة بأوروبا وحسب ، بل تطورات كبرى أيضا في صناعة المعادن . كانت تلك الفترة حقبة توسع وحروب . وتدل المكتشفات



(٧) - كان الكلتيون صناع
تعددين مهرة . فقد أدخلوا
الحديد الى أوروبا الشمالية
حوالي ٨٠٠ ق . م ولكنهم
استمروا في استعمال البرونز
بمهارة فائقة . هذه الصورة

التفصيلية لمقبض طاسة من
البرونز يعود الى القرن
السادس تعطي فكرة عن
الصناعة المتطورة في حضارة
هالشتات .

الأثرية على أن شعوب أوروبا الوسطى كانت تستخدم في ذلك الحين أسلحة برونزية متطورة. لكن في أواخر هذه الحقبة، أي حوالي ٨٠٠ ق. م شهدت أوروبا ثورة تقنية كبرى، على يد الكلتيين. فقد أدخلوا استعمال الحديد إلى أوروبا في شمالي الألب، ومعه كل التفوق في الأسلحة والأدوات الحادة الناجم عن استعمال الحديد. ويلاحظ أن المواقع الأولى لهذا التطور هي

ذاتها مواقع المستوطنات الأورنييلية، في أقاليم نهري الدانوب والراين. بغض النظر عن الدلائل على بعض الاتصال بشعوب السهوب، فكل شيء يدل على استمرارية تاريخ السكان الأصليين، إلا أنهم ازدادوا ثراء وقوة بفضل اكتشاف الحديد. تُعرف هذه المرحلة الأولى من حضارة الكلتيين بحضارة هالشتات، وذلك نسبة إلى قرية في منطقة سالتزكامرجوت



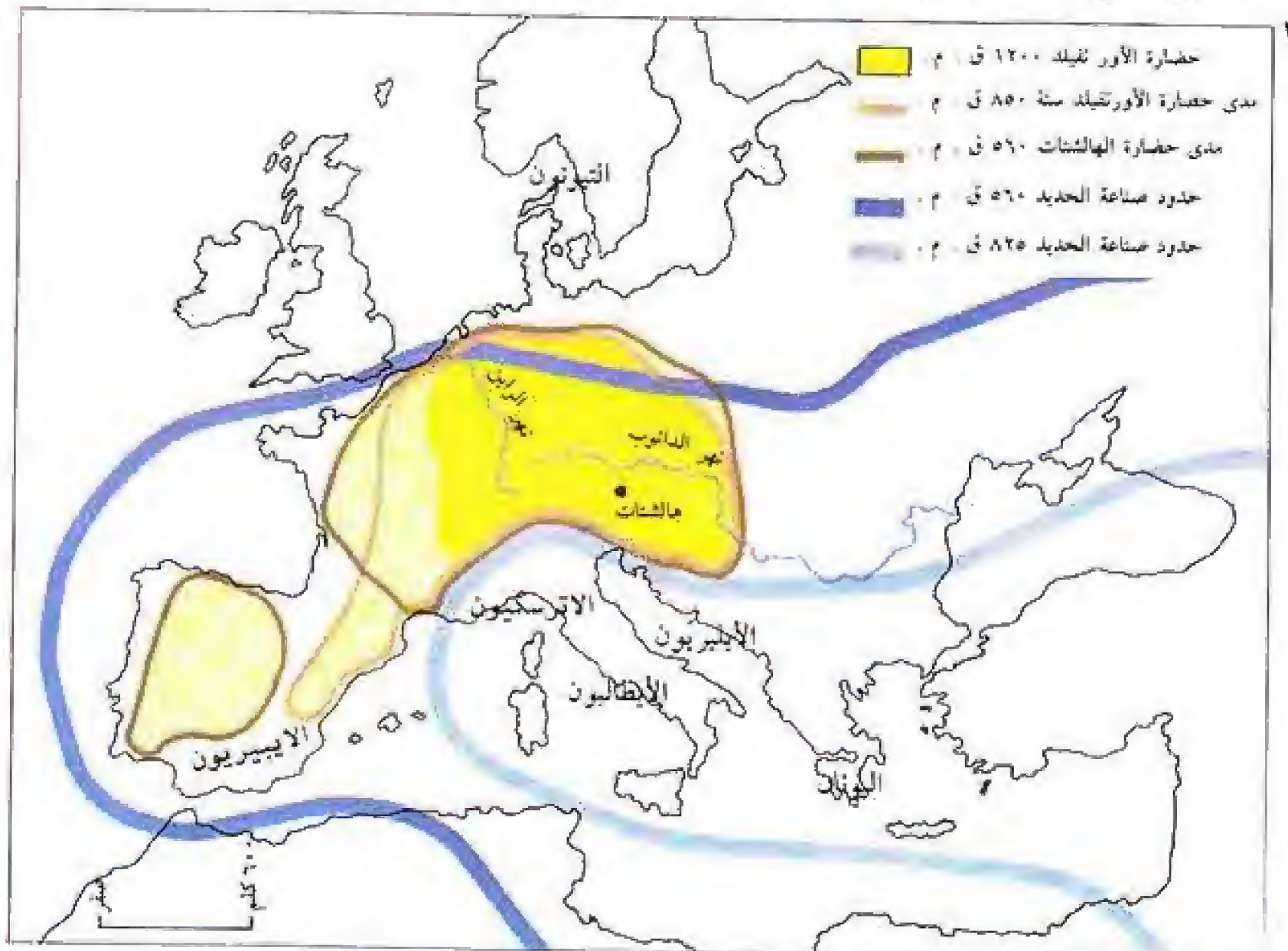
(٩) - هذا السوار الذهبي للذراع وجد في دوفر ويعود إلى حوالي ١٠٠٠ ق. م وهو يمهّد للفن الكلتي.

كانوا يعتزون بالزينة الشخصية وحسب، بل على مهارتهم في استعمال المعادن مادة لفنهم.

إلى حوالي ٧٠٠ ق. م ويبلغ طوله ٢٨ سم. تشهد هذه المصنوعات لا على أن الكلتيين

(٨) - هذا الرباط الذهبي للملابس هو من بلدة كاونتي (غالواي) في إيرلندا، ويعود

(١٠) - تطوّرت حضارة الأورنييلد حول نهري الدانوب والراين، ومع حلول عام ٨٢٥ ق. م كانت قد وصلت إلى إسبانيا. ظهرت حضارة هالشتات في المكان نفسه، وحلت محل حضارة الأورنييلد. وفي عام ٥٦٠ ق. م كانت قد انتشرت في معظم أنحاء إسبانيا والبرتغال. في ذلك التاريخ كان تصنيع الحديد، الذي جاء من الشرق، قد انتشر في معظم أنحاء أوروبا. تستمد حضارة هالشتات اسمها من موقع أثري رئيسي في النمسا.



اليونان حتى ظهور أثينا

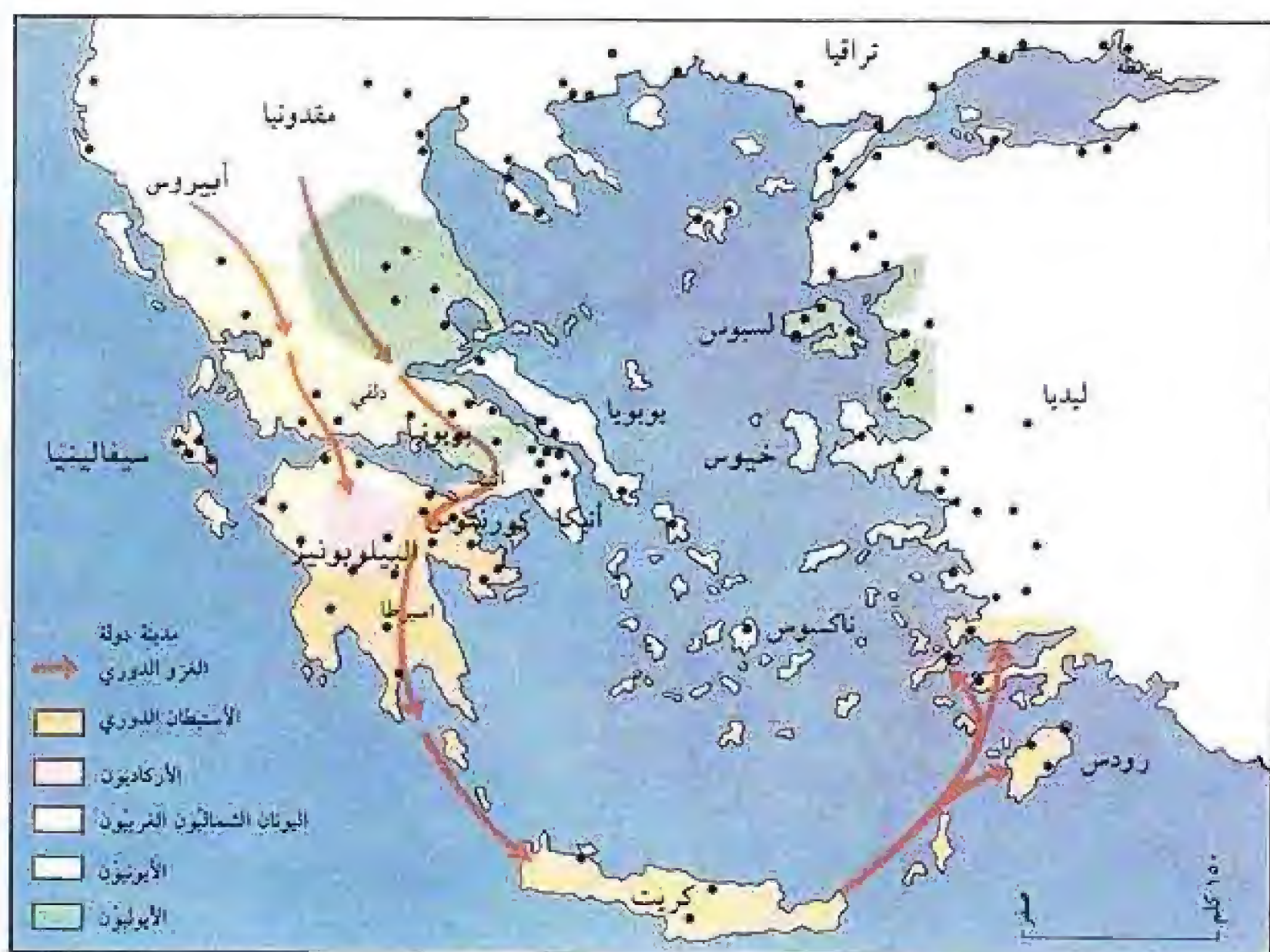
اياها في مناطق ضيقة . نتيجة لذلك ، اضطر
الايونيون والايوليون بصورة خاصة الى
الاندفاع عبر البحر ، فأسسوا مدنا لهم في
آسيا الصغرى (١) .

تطور المؤسسات

لا بد ان تكون تغيرات اجتماعية كبرى
قد رافقت هذا التحول . ولكن تفاصيل ما
جرى في ال ٤٠٠ سنة التالية تكاد تكون

حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . طراً تغيير
رئيسي على الحضارة اليونانية . فقد زحفت
قبائل ذورية عبر شبه الجزيرة من الشمال
واستقرت بشكل رئيسي في البيلوبونيز .
ممتصة الشعوب الموجودة هناك أو حاصرة

وكانت المدينة الرئيسية تمتد
تحتها . أهم معالم المدينة كانت
معبد ديمتر ومعابد لمعبودات
أخرى (٢) ، والمسرح الضخم
(٣) . ولعله أقدم نموذج هليني
يتسع لجمهور مؤلف من ٥٠٠٠
شخص ، والأبنية السكنية (٤)
التي كان يتألف كل منها من
أربعة الى ستة مساكن ، ومباني
المجلس والمحاكم (٥ ، ٦) ،
والساحة العامة (٧) . وهي
السوق وعصب المدينة النابض
بجوار الشارع الرئيسي (٨) ،
ومعبد زيوس (٩) ، والساحة للمباقي (١٠) .



(٤) - كانت الأسلحة والدروع
البرونزية . حسب قصائد
هوميروس . يستعملها
المحاربون في نزاههم الفردي .
الا ان الحديد أخذ يحل محل
البرونز قبل ٧٠٠ ق . م . فتغيرت
أساليب القتال اسبياً ، اذ أصبح
المشاة المدججون بالسلاح
يقاتلون في تشكيلات كبيرة
منضبطة جداً . تعرف
بالكتائب . جاء الكثير من
هؤلاء المقاتلين من خارج
صفوف الطبقة الارستقراطية .

(٢) - تاجر اليونانيون مع
الفينيقيين والمصريين وسكان
الشرق الأوسط . فضلاً عن تجارة
المستعمرات مع المدن الأم .
في الدول المحاذية للبحر .
كأثينا وكورثوس . أصبحت
التجارة مصدراً هاماً للثروة .

(٣) - كانت مدينة برييني
في آسيا الصغرى نموذجاً
لتخطيط المدن عند اليونان .
كانت القلعة او الاكروبوليس
(١) تقع على قمة التلة .

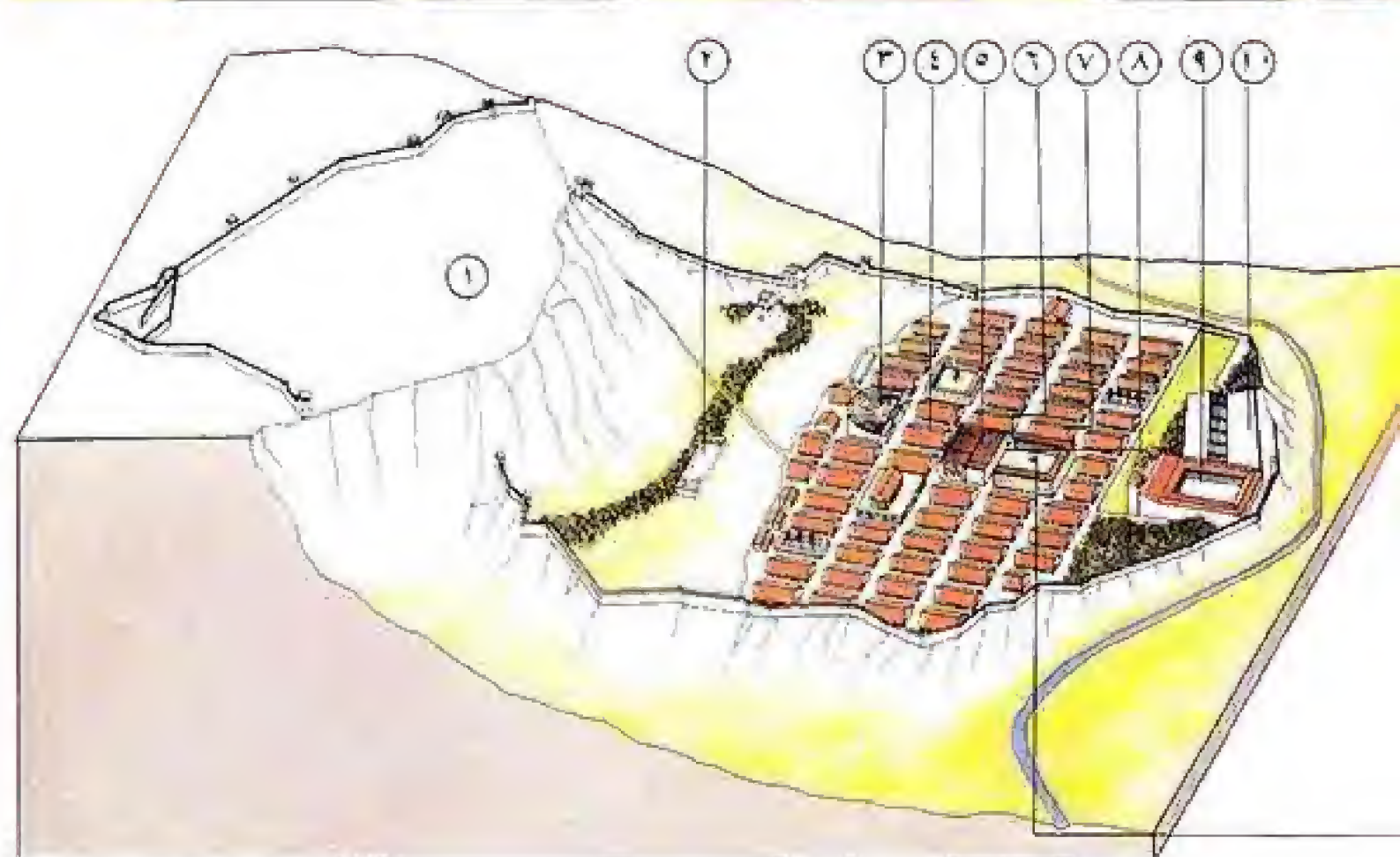
المجتمعات حرف أو تجارة
تذكر . لكن مع قدوم عصر
هيسودس (القرن الثامن ق . م)
الذي تصف قصائده الروائية .
الحقبة القديمة المبكرة .
أخذت الحرف والتجارة
في الظهور . وكان النظام
الملكي قد استبدل به
بصورة عامة نظام حكم
الأقليات (الأوليفاركيات)
وأصبحت المدينة محور الحياة
السياسية .

(١) - لا نعرف الكثير عن
تاريخ اليونان في الفترة
الممتدة من وقت وصول
الدوريين (١٢٠٠ ق . م) الى
مطلع الحقبة القديمة
(٨٠٠ ق . م) . إلا أن
هوميروس يصف لنا مجتمعا
مؤلّفاً من مجتمعات زراعية
صغيرة تتحلق حول الحصون .
ويتزعمها ملوك وطبقات
ارستقراطية كانت ما تزال
محتفظة ببعض ملامح الحضارة
الميكينية . لم يكن لدى هذه

الشعور بهوية عنصرية وفكرية جاءت تعبر عنها لفظة هيلاس الدالة على العالم اليوناني بأسره . في الوقت نفسه نشأت مجموعة من المعبودات عكستها أشعار هوميروس ، وتطوّرت المراسم الدينية ، وازدادت أهمية المعابد ، مثل معبد دلفي . وأصبحت الدولة - المدينة أهم وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية في البلاد .

لعبت جغرافية اليونان الوعرة دورا رئيسيا

مجهولة ، والكثير مما نعرفه عنها مستمد من ملحمتي هوميروس « الالياذة » و « الاوديسة » . ومع ذلك ، بإمكاننا تحديد عدد من التطورات الهامة التي كان لها شأن كبير بالنسبة للحضارة اليونانية اللاحقة . فقد انتشر استعمال الحديد في صنع الآلات والاسلحة (٤) ، واقتبست أبجدية صوتية عن الفينيقيين أصبحت قياسية الى حد ما . وانبثق الشعور بالوعي القومي . أي ذلك



الزراعة والتجارة والسياسة

كانت الزراعة ذات شأن كبير من الناحية الاقتصادية العامة ، ورغم نشوء المدن وتوسعها ، بقيت الرابطة بينها وبين الريف قوية . ومع ذلك ، فقد اقبلت بعض الدول بصورة متزايدة على التجارة والصناعة (٦) ، ونشأت طبقة من التجار والصناع واضحة المعالم . من الناحية السياسية ، ومنذ القرن السابع ق . م كانت معظم الدول قد ابتعدت عن الانظمة الملكية التي وصفها هوميروس ، وأصبحت تحكمها أقليات (اوليغاركيات) مؤلفة من اكثر المواطنين ثروة وقوة . وهكذا حصرت طبقة نبيلة ذات امتيازات مقاليد السلطة السياسية والعسكرية والدينية بأسرها في يديها ، فنتج عن ذلك توتر دائم بينها وبين عامة الشعب .

زاد في تفاقم هذا التوتر تزايد عدد السكان ، لكن الاستعمار جاء يحل هذه المشكلة (٧) . فقد نظمت الدول حملات لتأسيس مدن جديدة فيما وراء البحار . ولكن ما ان تأسست هذه المدن الجديدة حتى اصبحت مستقلة عن المدن الأم ، وان احتفظت بعلاقات وثيقة معها . ومنذ حوالي ٧٥٠ ق . م . أدت الهجرة الى اقامة مدن يونانية ، في جميع انحاء منطقة البحر المتوسط . مقلدين بذلك قرطاجة .

انظمة سياسية جديدة

في أثينا ، قام صولون (٦٤٠ ؟ - ٥٥٩ ق . م) بمحاولات ترمي الى ازالة المشاكل الكامنة في الصراع الطبقي واصلاح الاطار القانوني للدولة ، من اجل حماية الضعفاء . وفي عام ٥٤٥ ق . م ، استولى بيزيستراتوس

(٦٠٠ ؟ - ٥٢٧ ق . م) على السلطة ، فأكثر من الحقوق الممنوحة لعامة الشعب ، واخضع طبقة الاشراف لسلطة القانون .

تبعث الدول الأخرى هذا الاسلوب نفسه ، ولذلك قلما استتب الأمر طويلا للطغاة . لكن بعض الدول تفادت كليا النظام الاستبدادي ، كما فعلت اسبرطة بفضل دستورها الخاص ، وكورنثوس بفضل نظامها الاوليفاركي المتين .

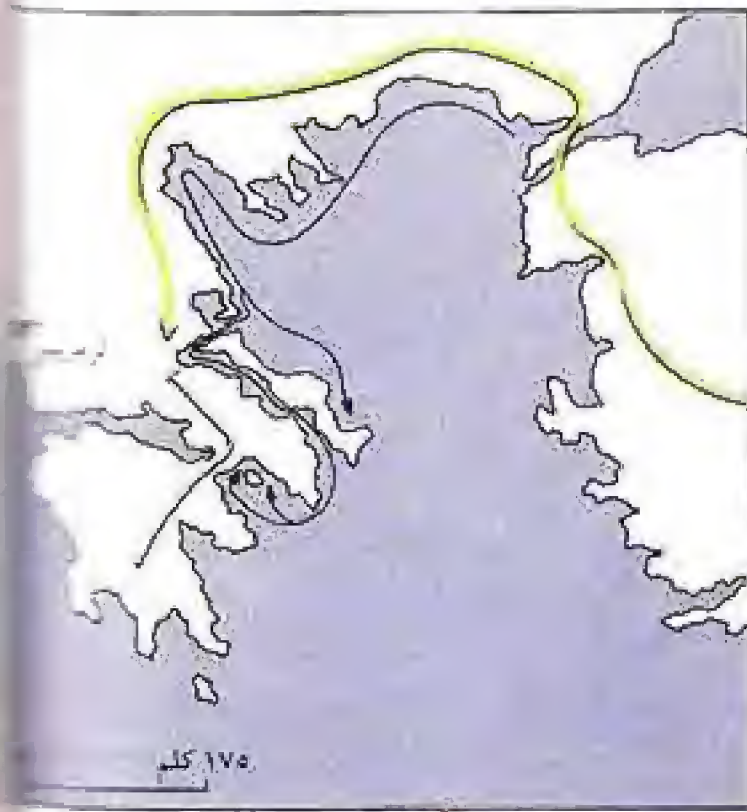
حتى منتصف القرن السادس ق . م ، لم يخضع اليونانيون كثيرا لتأثيرات اجنبية فيما عدا الاتصالات التجارية (٢) . تغيرت الحال عندما بسط الليديون سلطتهم على الدول اليونانية في آسيا الصغرى ، وخلفهم في ذلك الفرس عام ٥٤٦ ق . م . لم تكن اي من السلطتين جائرة . ومع ذلك اعلن اليونانيون الثورة عام ٤٩٩ ق . م ، ونجحوا في استعادة استقلالهم مؤقتا . لكن بما ان اواصر الوحدة بينهم كانت ضعيفة ، كما كان ضعيفا ايضا الدعم من البلاد اليونانية ، فقد استطاع الامبراطور الفارسي دارا عام ٤٩٤ ق . م . ان يجمع الثورة ، وأعقب ذلك بفرض سلطته ثانية على تراقيا ومقدونيا ، ثم عمد عام ٤٩٠ الى تجريد حملة كبرى على اليونان .

كانت أثينا ، أكبر الدول اليونانية ، هدفه المباشر هذه المرة . استنجدت اثينا بالدول اليونانية الأخرى ، ولكن قبل وصول النجدة ، واجهت قواتها الفرس ودحرتهم بصورة حاسمة في معركة ماراثون ، رغم ان عددها كان أقل بكثير من عدد القوات الفارسية ، فانسحب جيش دارا مخلفا اليونانيين على ما كانوا عليه من الانقسام ، ولكن مقتنعين بتفوقهم على من كانوا يسمونهم « بالبرابرة » .

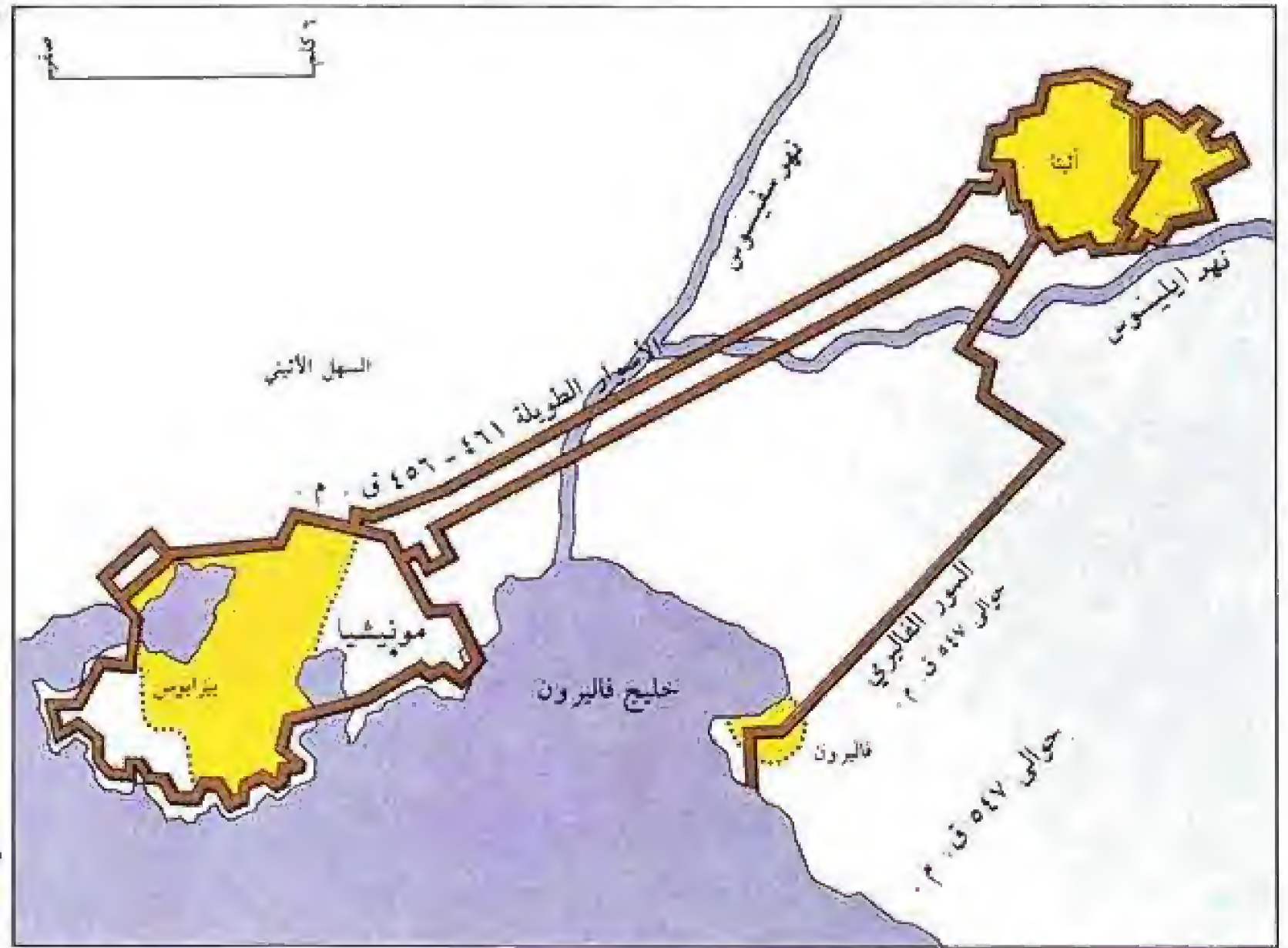
اليونان الكلاسيكية

بفضل بطولة ٣٠٠ جندي اسبرطي ، تمركزوا عند مضيق ترموبيلي الصغير ، بقيادة ملكهم ليونيداس ، واذ طوقهم الفرس ، حاربوا حتى آخر رجل منهم . على أثر ذلك احتل الفرس أثينا . غير ان اسطول هذه الدولة - المدينة ، بقيادة السياسي ثيميستوكليس (٥٢٨ ق . م - ٤٦٠ ق . م) لم يلبث ان هزم ، في معركة سلاميس (٤٩٢) ، الجيش الفارسي الذي اضطر اذ ذاك الى التراجع شمالا ، ثم هُزم مرة

في عام ٤٨٠ ق . م ، قام الفرس بقيادة احشويرش بغزو اليونان مرة ثانية . فزحف منهم جيش كثيف عبر مضيق الهليسبونت (البوسفور) ، وانحدر جنوبا عبر شبه الجزيرة . أوقف هذا الزحف ، لفترة قصيرة ،



الفريل التي سلكها الجيش الفارسي
طريق الجيش اليوناني
طريق الاسطول الفارسي
جزيرة سلاميس



متراصة منضبطة . كانوا يُجندون عادة من صفوف المواطنين التجار . الذين اكتسبوا بهذه الطريقة سلطة سياسية كبيرة .

(٤) - بعد هزيمة الفرس ، استخدمت أثينا اسطولها لحماية بحر إيجه منهم ، ولتحرير الدول اليونانية في آسيا الصغرى . سرعان ما تحول الحلف الديلي الدفاعي الى

(٢) - عندما اجتاح الفرس أثينا ، فر اللاجئون مع الاسطول اليوناني الى سلاميس ، هناك ، وبفضل خدعة عسكرية ، نصب اليونان فخا للفرس ، فدمروا كتيبة كاملة منهم . فضلا عن ٢٠٠ سفينة فارسية . دون ان يفقدوا اكثر من ٤٠ من سفنهم .

(٣) - كان المقاتلون المشاة اليونان مدججين بالسلاح ، تدربوا على القتال ضمن كتائب

(١) - بدأ ثيميستوكليس بتحويل بيرايوس الى قاعدة لأسطول أثينا وميناء تجاري . فبنى الاسوار الطويلة لربطها بأثينا ولتمكين أثينا من المحافظة على سيطرتها البحرية . حتى لو غُزيت أراضيها . ومما يدل على أهمية هذا العمل ان الاسبرطيين أصروا . بعد هزيمة أثينا عام ٤٠٤ ق . م ، على هدم الاسوار فورا .

أخرى عام ٤٧٩ ق . م في بلاتيا .

عصر أثينا الذهبي

انسحب الفرس من اليونان الا ان خطرهم بقي ماثلا . فتألف حلف دفاعي من عدد من جزر بحر ايجه ، والمدن اليونانية في آسيا الصغرى عام ٤٧٨ ق . م بزعامة أثينا قاعدته في ديلوس (٤) .

لم تلبث أثينا ، باعتبارها أقوى الدول

اليونانية آنذاك ، أن سيطرت على حلف ديلوس ، وأصبحت ، برعاية زعيمها السياسيين : سيمون (توفي ٤٤٩ ق . م) وبيريكليس (٤٩٠ - ٤٢٩ ق . م) امبراطورية بحرية بكل ما في الكلمة من معنى ، فيما عدا الاسم . أصلح النظام الديمقراطي في عهد بيريكليس ، وساهمت التجارة في انشاء المباني الكبيرة والانجازات الثقافية العظيمة التي كُتب لها أن ترفع



٤ اسيرطة وحلفاؤها (الحلف البيلوبونيزي) ٤٣١ ق . م

أثينا وحلفاؤها ٤٣١ ق . م

دول يونانية محايدة ٤٣١ ق . م

ثورات

امبراطورية عدوانية . بزعامة أثينا التي استغلت سلطتها هذه للتدخل مباشرة في الشؤون الداخلية للدول الحليفة . وقد أدى خوف اسيرطة من هذا التوسع الى التحريض على الثورات ضد أثينا ، والى تأسيس حكومات تتزعمها اقلية حاكمة ، كما أدى في ٤٣١ ق . م الى اندلاع الحرب البيلوبونيزية التي عمت بلاد اليونان بكاملها .

(٥) - هذا المحارب الجريح

منقوش على قوسرة هيكل افايا في اجينا . خلال العصر الكلاسيكي . كان القتال متواصلا تقريبا بين الدول - المدن . فأضعف بلاد اليونان سياسيا ، ولكنه لم يحل دون ازدهار الفنون والأدب والفلسفة فيها . ان انجازات أثينا تكاد تنسي ان عددا من الدول الأخرى الواقعة في البر اليوناني وآسيا الصغرى ، قد انجبت ايضا فنانيين وكتابا عظاما .



أسم أثينا عاليا (١) .

كان لا بد ان تثير سيطرة اثينا الغيرة والخوف . لاسيما لدى اسبرطة التي استمرت في الهيمنة على دول البيلوبونيز . ولدى كورنثيا . الدولة التجارية العظمى الأخرى . فحصلت اشتباكات متفرقة . أثناء الخمسينات من القرن الرابع ق . م . انتهت بعقد اثينا الهدنة مع منافساتها . اندلعت الحرب ثانية في عام ٤٣١ ق . م

بين الأحلاف المتنافسين .

لقي بيريكليس حتفه بالطاعون عام ٤٢٩ ق . م . الا ان كليون (ت ٤٢٢ ق . م) واصل استراتيجيته . لم يستطع أي من الفريقين الانتصار على الآخر بصورة حاسمة . فعقد الصلح عام ٤٢١ ق . م . لكنه لم يدم اكثر من سنتين . ثم اندلع القتال ثانية . وفي عام ٤١٥ ق . م . استطاع الحزب الحربي في اثينا . بقيادة الكيبياديس (٤٥٠ ؟ - ٤٠٤

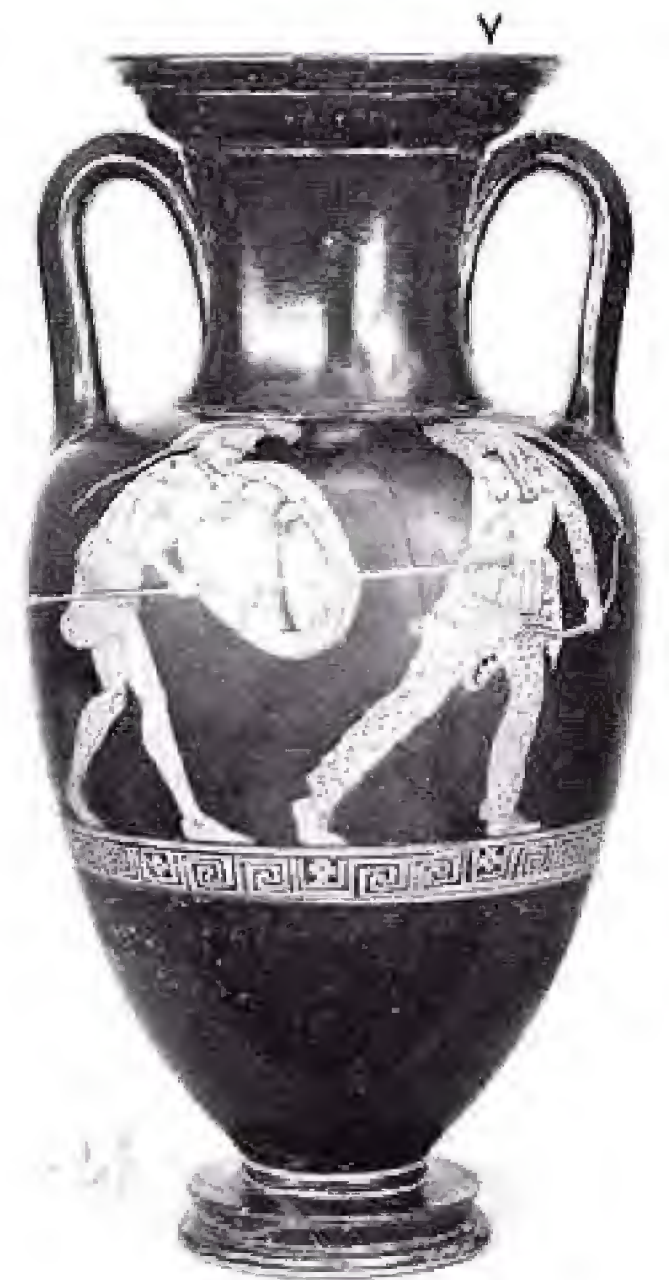
(٦) - تظهر على قطعة الاربعة

دراهم الاثينية هذه بومة اثينا التي كانت هي المعبود الشعبي الشفيع للمدينة . وفرت سيطرة اثينا البحرية والتجارية على بحر ايجه . لتلك المدينة . ثروة كبيرة . فأنفقت بخاء على الأبنية الفخمة والفنون . ومكنت المواطنين من التمتع بأوقات فراغهم ليشاركوا في النظام الديمقراطي . او يساهموا في الانتاج الفلسفي والادبي . وحتى في فترة انحطاطها . بقيت اثينا زعيمة اليونان دون منازع في الميدان الفكري والفني .



(٧) - يظهر على هذا الاناء

مقاتل يوناني يفتك بعدوه الفارسي . يؤرخ لبداية العصر الكلاسيكي اليوناني عادة بهزيمة باوساناس للجيش الفارسي عام ٤٧٩ ق . م . ولنهائيه بيسط السلطة المقدونية على جميع أنحاء اليونان عام ٣٢٠ ق . م . جاء عدد كبير من الانجازات اليونانية كنتيجة مباشرة للشعور بالاستقرار والتفوق اللذين نجما عن انتصار اليونانيين على



الفرس . ولكن تعلقهم بالدولة - المدينة الصغيرة . وانهم اكهم بالمناورات السياسية والعسكرية . حالا دون تحقيق وحدة سياسية أوسع . يكون من شأنها ان تقف في وجه قوة مقدونيا المتصاعدة .

(٨) - معبد اثينا في دلفي . الذي كان ابولون يترأس طقوسه . كان جزءا من المزار المحاط بالاكرام . على نطاق

واسع . في اليونان القديمة . كان الدين في العصر الكلاسيكي عبارة عن قرابين ومراسم تؤدى بها الدولة او الفرد . دون ان تنطوي على عنصر الارشاد الخلقي او التجربة الصوفية . الا ان الايمان الديني الواحد أدى الى الشعور بحضارة مشتركة . اكتسبت عناصر اضافية اخرى عن طريق مهرجانات شبه دينية . كالألعاب الأولمبية .

وتبسط سلطتها لفترة قصيرة .

بدء العصر الهلينستي

استمرت المنافسات بين الدول ومنعتها من التنبه الى خطر جديد كان آخذا في التفاقم في الشمال . كانت قبائل المقدونيين حتى ذلك التاريخ قد شكلت تحالفا مفككا في ما بينها ، الا ان فيليب الثاني (٣٨٢ - ٣٣٦ ق . م) ، الذي أصبح ملكا عام ٣٥٩ ق . م ، وكان منظما وقائدا ودبلوماسيا بارعا ، توصل الى توحيد تلك القبائل . داخل مملكته . ثم انتقل الى ضم تيساليا عام ٣٥٢ وتراقيا عام ٣٤٢ ق . م .

كان الاثينيون أول شعب يوناني أدرك مدى الخطر الجديد . فقد هددت سلطة فيليب طرقهم التجارية المؤدية الى البحر الأسود . ومع ذلك ، فقد كانت سنوات من السلام النسبي قد أدت الى تخاذل الاثينيين ، وزوال النخوة الحربية من نفوسهم . حاول بعض الخطباء ، امثال ديموستينس (ت ٣٢٢ ق . م) ان يحشوهم على وضع حد للخلافات التقليدية بينهم ، حتى يتاح للدول اليونانية ان تتحد في وجه هذا الخطر الجديد . وبعد كثير عناء ، تم تأسيس حلف يوناني . الا ان فيليب هزم جيوش هذا الحلف عام ٣٣٨ ق . م في معركة خايرونيا واحتل طيبة . اما اثينا ، فقد أعدت العدة لمواصلة المقاومة . ولكنها لم تلق دعما يذكر من الدول الأخرى . فكانت النتيجة أنه انشئ ، في مؤتمر كورنثيا ، حلف جديد ضم الدول اليونانية تحت الزعامة المقدونية . وهكذا قضى على استقلال الدول - المدن الحرة في بلاد اليونان .

ق . م) ان يقنع الشعب بتجريد حملة كبرى لغزو صقلية ، واحتلال سرقسطة . لكن هذه المحاولة باءت بفشل ذريع . وفي عام ٤٠٥ ق . م . فوجئت شرازم الاسطول الاثيني على حين غرة ودُمرت في ايجوسبوتاميا ، على يد ليساندر الاسبرطي (ت ٣٩٥ ق . م) الذي لم يلبث أن حاصر أثينا . وعندما استسلمت عام ٤٠٤ ق . م ، حل نظام حكم الأقليات (الاوليفاركية) محل النظام الديمقراطي . واستولى الاسبرطيون على الامبراطورية الاثينية .

زوال الحكم الاسبرطي

احدثت انتصارات زينوفون على رأس « العشرة آلاف » ، وهم المرتزقة اليونانيون الذين قاموا بزحف شهير عبر الامبراطورية الفارسية ، حماسة شديدة لدى الدول اليونانية في آسيا الصغرى . فقامت بمحاولات لاستعادة حريتها ، وخلع النير الفارسي عنها . الا ان الفرس حثوا حلفاء اسبرطة على الانقلاب على تلك الدول ، فلم يكن لها بد من التخلي عن هذه المحاولة . وهكذا بقيت تلك المدن تحت السيطرة الفارسية .

شهدت السنوات الخمسون التالية أسوأ مظاهر النظام السياسي اليوناني في العصر الكلاسيكي . لكن اثينا استعادت قوتها بسرعة ، وأعيد بناء الديمقراطية فيها عام ٤٠٣ ق . م ، وما ان حل عام ٣٧٧ ق . م حتى كانت تقود حلفا بحريا ضد اسبرطة من جديد . ولكن طيبة هي التي قضت على الجيش الاسبرطي في معركة لوكترا عام ٣٧١ ق . م ، واصبحت بذلك الدولة المسيطرة . بعد عقد واحد ، بدأ الوهن يدب فيها هي ايضا حتى استطاعت فوكيس ، بفضل استيلائها على كنز دلفي ، أن تستأجر المرتزقة

المجتمع اليوناني الكلاسيكي

هذه الميادين كانت اثينا هي السبابة . وهو ما أقرّ به حتى معاصروها . ففي قرنين اثنين ، انجبت اثينا سلسلة من الكتاب والفنانين والعلماء والفلاسفة البارزين . وكانت تجذب اليها الكثير من غير ابنائها . حتى انه يمكن القول انه لم يبق أحد تقريبا من الشخصيات الهامة في الحياة اليونانية الثقافية الا وكانت له صلة بأثينا . على الأقل في مرحلة من مراحل حياته .

كانت اليونان الكلاسيكية منشأ لكثير من الافكار ذات الأثر العميق في الفن والأدب والفلسفة والعلم في الغرب . كما كانت لها مساهمة كبرى في ميدان السياسة . اذ فيها نمت مثل الديمقراطية لأول مرة . في جميع



سنويا في مهرجان يشترك فيه متبارون من جميع أنحاء العالم اليوناني . فيوفر لليونانيين فرصة الاجتماع كأمة واحدة .

(٢) - كان المشاة الاسبرطيون مجهزين تجهيزا حسنا وباهظ التكاليف . كانت دولة اسبرطة القائمة على شعب معبأ كليا للخدمة العسكرية . (فقد كان الاطفال يرسلون الى الثكنات

المناقشات السياسية والفلسفية . حدد اليونانيون بدء تاريخهم بأول مباراة اولمبية جرت عام ٧٧٦ ق . م وكانت تتكرر .

اليومية في اليونان . كان الملعب او الساحة الرياضية ملتقى شعبيا . حيث كان يوسع الناس التحدث . وعقد

(١) - لعبت المباريات الرياضية . وتنمية الجسم الصحيح والحسن التدريب . دروا هاما في الحياة الاجتماعية

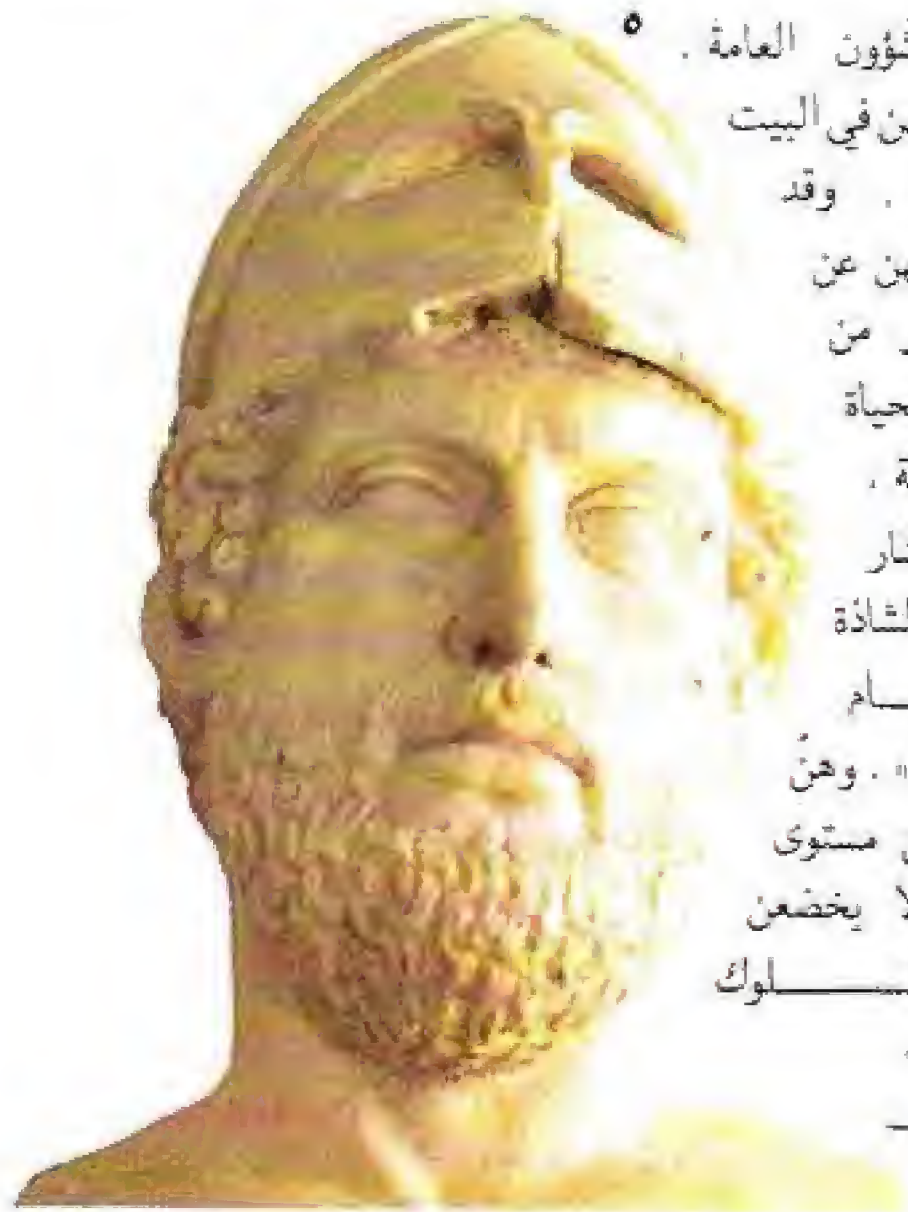
اثينا والديمقراطية

كانت اثينا . المدينة - الدولة . اكبر الدول - المدن العديدة التي ظهرت في اليونان . كانت مساحتها نحو ٢٥٠٠ كلم ٢ ، وقد بلغ عدد سكانها في أوج نموها حوالي ٢٦٠٠٠ نسمة . منهم نحو ٤٥٠٠ من المواطنين الذكور ونحو ٧٠٠٠ من العبيد . اما الباقي فكان من النساء والاطفال والاجانب المقيمين . في ذلك الوقت نفسه كان عدد سكان كورنثوس

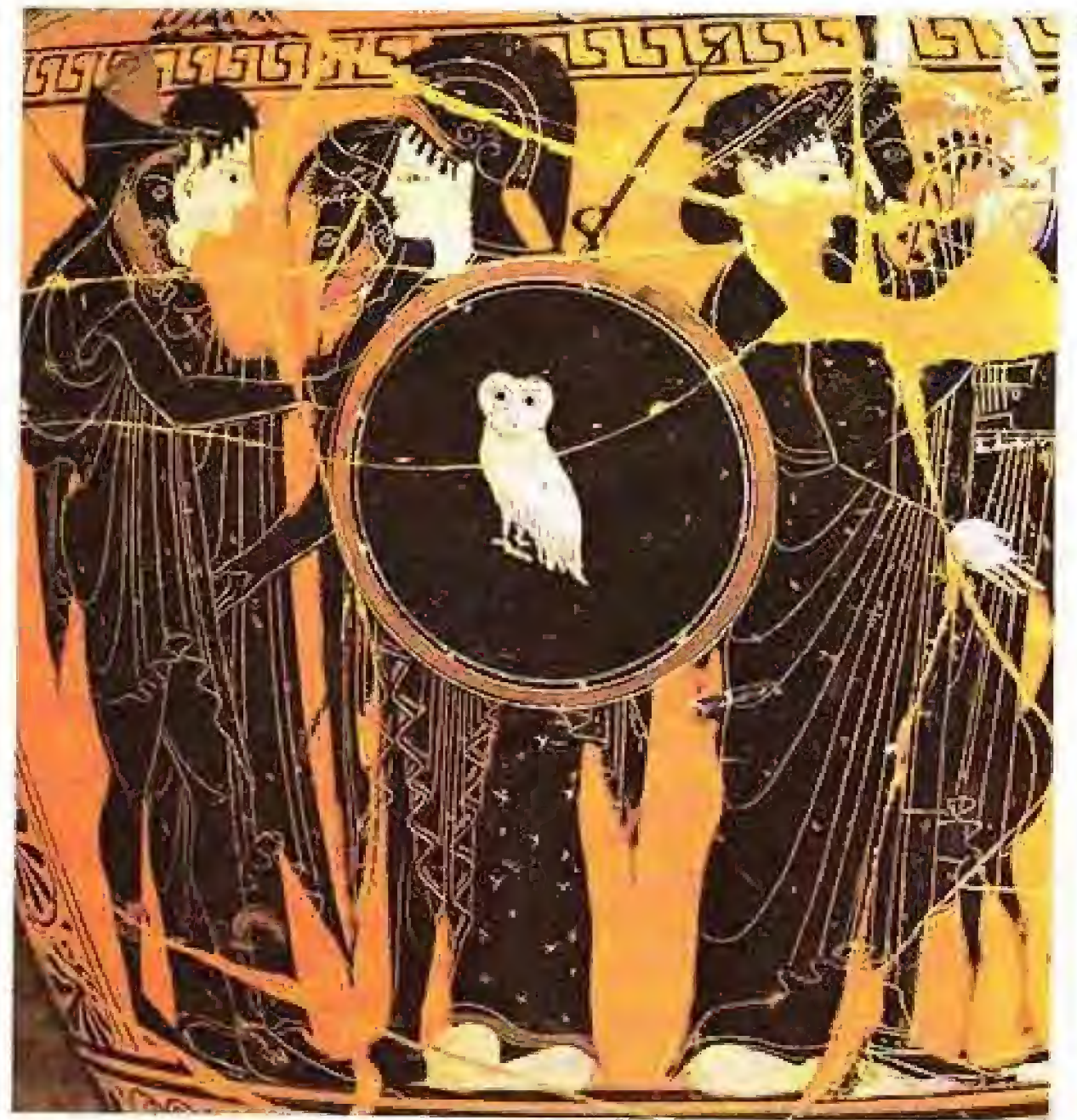
حوالي ٩٠٠٠٠ ، وكل من طيبة وكورسيرا واكراجاس حوالي ٥٠٠٠٠ ، والدول الأخرى من ٥٠٠٠ وما دون .

قام مفهوم الديمقراطية . في جميع هذه الدول - المدن . على المشاركة المباشرة في الحكم . لا على نظام التمثيل . وكانت لجميع المواطنين فرص متكافئة لبلوغ المناصب الرفيعة .

على غرار عدد من الدول اليونانية



٥ . جميع الشؤون العامة . كان مكانهم في البيت مع الاولاد . وقد أدى غيابهم عن الكثير من نواحي الحياة الاجتماعية . الى انتشار العلاقات الشاذة وقيام نظام « الهيتيرا » . وهن غانيات من مستوى رفيع . لا يخضعن لأعراف السلوك التقليدي .



ايمان واضح بحياة بعد الموت . بل كان الدين في جوهره أنيا ومكرساً في سبيل الحياة الهنيئة على هذه الارض

(٥) - كان بريكليسي (٤٩٠ - ٤٢٩ ق . م) السياسي الاثيني العظيم الذي اصبحت اثينا بزعامته أغنى واغوى دولة يونانية . واليه يعود الفضل في بناء الهياكل والانصاب الرائعة في الاكروبوليس .

(٤) - تظهر على هذا الاناء اليوناني صور لمعبودات ذكور واناث . بينها اثينا وهي تحمل ترسا نقشت عليه بومة . جاء وصف مجموعة المعبودات اليونانية في ملاحم هوميروس . وكانت تمثل على شكل بشري . وتحلى بالعواطف البشرية بل كثيرا ما كانت تتدخل في شؤون البشر . كان الناس يتضرعون اليها او يسترضونها بالصلوات أو الاضحيات . ولم يكن ثمة

المرتزقة المحترفين نشأت أثناء القرن الرابع . وربما بلغ عددهم ٥٠٠٠ محارب تقريبا . وقد قاتل بعضهم بجانب الفرس .

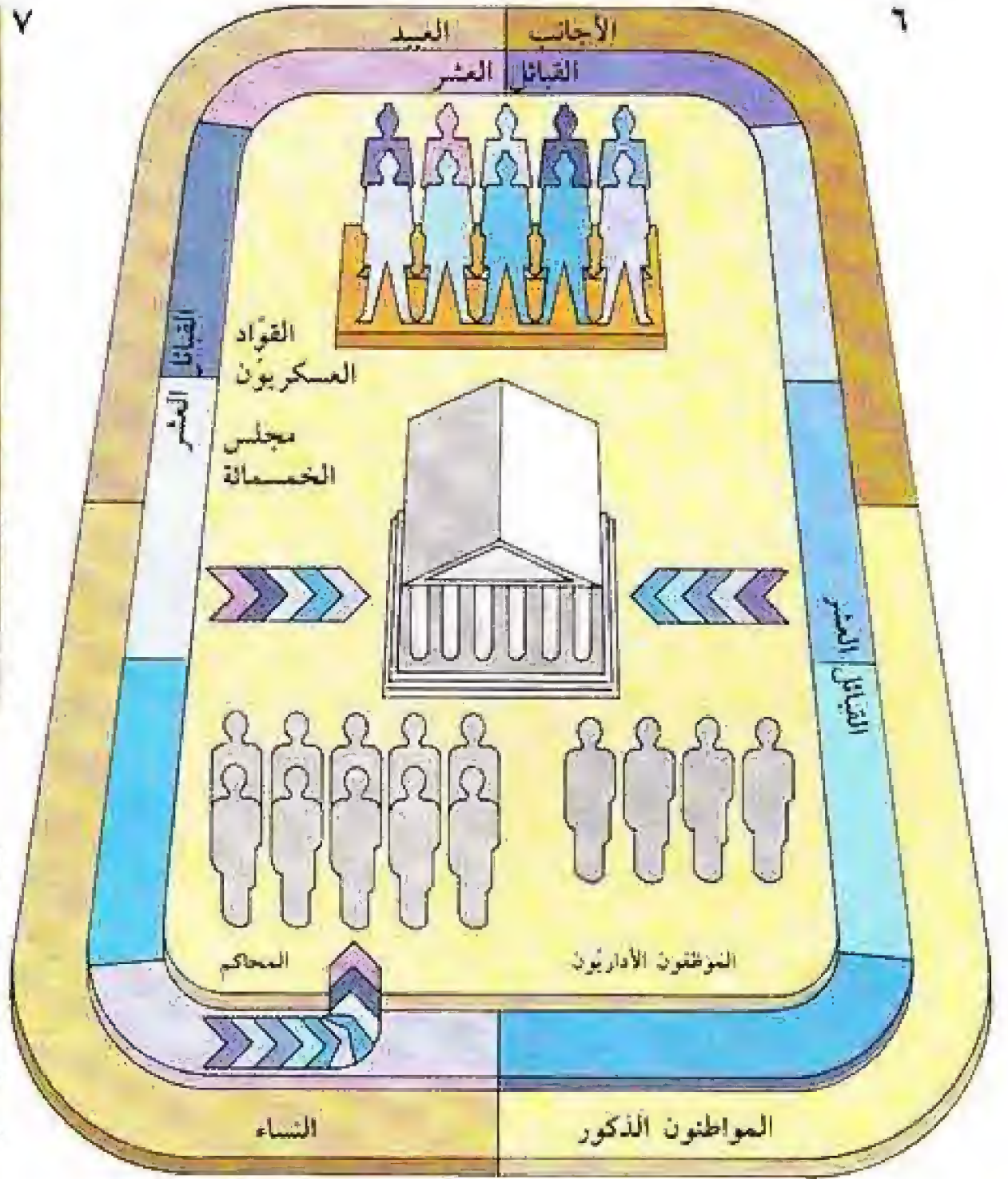
(٢) - كانت النساء في اليونان الكلاسيكية هي طبقة « العبيد » الكبرى الأخرى . لم يكن لهن أية حقوق سياسية أو قانونية . وكن يستثنين من

وهم في السابعة من العمر . دون ان يسمح لهم بأية شواغل أخرى (تتمتع بنظام فريد من نوعه في اليونان . اعطاها أهمية تفوق بكثير الأهمية التي كان يستحقها حجمها الصغير . كانت معظم الدول الأخرى تعتمد على التعبئة المؤقتة لخوض الحروب المتكررة . التي كانت جزءا من الحياة اليونانية . الا ان طبقة من

الأخرى . مرّت أثينا بمرحلة انتقالية من نظام حكم الاقلية (الاوليفاركية = حكم نفر محدود من الأفراد) ، الى نظام الحكم الطغياني (اي حكم الحاكم الفرد المستبد) . واقرنت تلك المرحلة الانتقالية بصراع بين الاغنياء والفقراء ، قبل ان تضع اصلاحات كليستينيس عام ٥٠٨ ق . م الاطار الديمقراطي للدولة .

كان عماد هذه الديمقراطية جمهور

٦



جمعية المواطنين التي كانت تقتنع على جميع القرارات الرئيسية . كان الموظفون الإداريون مسؤولين أمام الجمعية . وكانت تنتخبهم قبائل المواطنين العشر لفترات محددة ، يستثنى من ذلك فقط القادة العسكريون العشر الذين كانوا ينتخبون

الانتخاب المباشر
الجمعية
الترشح والفرقة

(٦) - كان النظام السياسي الاثيني . في القرن الخامس قبل الميلاد ، قائما على سلطة

المواطنين ، أو الشعب ، وكانت المواطنة حقا يحافظ عليه المرء بحرص شديد ، ولم يكن يُعطى للأجانب الا قليلا ، ولم يُعط قط للنساء (٣) والعبيد . كانت السلطة بكاملها منوطة بالشعب الذي كان يجتمع في جمعية عامة ، كل عشرة ايام تقريبا (٦) . وهناك كان باستطاعة اي مواطن ان يتقدم بمقترحات تتعلق بالقوانين او بالاجراءات ، فتناقش ويجري عليها الاقتراع . وهناك ايضا

٧



اليوناني ، وكانت الصلوات والقرايين المفروضة يقوم بتقديمها كهنة او افراد عاديون منتخبون . لكن لم يكن للدين اليوناني ذلك اليقين الخلقي والاهتمام بالشؤون الخاصة للأفراد . اللذان تميزت بهما الاديان اللاحقة . كانت المعبودات كائنات شبه بشرية ، اعتبارية التصرف ، ولا تتصف بالحكمة ، وينبغي ارضاؤها عن طريق القرايين في اغلب الأحيان ، وكان سلوكها لا ينطوي على أي مثال يُقتدى به .

ويحق لهم البقاء في الخدمة أكثر من سنة واحدة . كذلك كان بالإمكان ممارسة السلطة الشعبية على كل من الموظفين والقوانين . عن طريق المحاكم ، حيث لم يكن لهيئات المحلفين الشعبية الضخمة صلاحيات قضائية وحسب . بل تشريعية أيضا ، فضلا عن صلاحية البت في دستورية القوانين .

(٧) - عجل يُقاد الى الذبح كقربان في طقس ديني . كانت الدولة تشرف على الدين

كان يتم انتقاء الموظفين المدنيين والدينيين . وكانت هيئات القضاء تنتخب من بين المتطوعين .

حقوق وواجبات

كان كل مواطن اثيني يتمتع بحق وواجب خدمة الدولة . ولما كان عدد المناصب التي يجب اشغالها كل سنة يبلغ ١٠٠٠ منصب ، فقد كان نجاح النظام الديمقراطي متوقفا على وجود عدد كاف من الرجال الذين كان لديهم الوقت الكافي ، والرغبة في تكريس حياتهم للخدمة العامة . ومن الحقائق التي يجدر التنويه بها ان اثينا لم تفتقر ، في يوم من الايام ، الى رجال اكفاء يخدمون الدولة ، مقابل مكافأة زهيدة ، او دون أية مكافأة .

كان الاثينيون يجمعون ثروتهم من الارض والحرف والتجارة . ففي مطلع القرن الخامس ، كانت اثينا مصدرة رئيسية للفخاريات والزيت والنبذ ، ومستوردة للسبك والخشب والقمح الذي كانت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا . وقد نشأت في اثينا طبقة محددة من الرأسماليين ، وطبقة عمال (بروليتاريا) من سكان المدينة . وتمتعت هاتان الطبقتان بأوقات فراغ وفيرة ، نتيجة لاستخدام العبيد في القيام بالكثير من الأعمال الأساسية . وعلى الرغم من نفوذ الأغنياء ، فمن الجدير بالذكر ان الديمقراطية الاثينية لم تشهد الا القليل من حوادث المجابهة ، بين الاغنياء والفقراء ، التي كانت تولد الاضطراب الدائم ، في معظم الدول - المدن الأخرى .

كان جميع المواطنين والغرباء مدعويين

للخدمة العسكرية . ولكن في الواقع لم يكن يقوم بتلك الخدمة سوى الاغنياء ، لأنه كان على الجنود انفسهم ان يدفعوا ثمن تجهيزاتهم العسكرية .

اسبرطة : دولة عسكرية

لم تحقق أية دولة أخرى النظام الديمقراطي بالكمال الذي حققته اثينا . كانت اسبرطة هي اهم منافسة لها . معظم هذه الحقبة . وكان نظامها السياسي والاجتماعي هو النقيض لكل ما كانت الديمقراطية تمثله . فمع حلول عام ٦٠٠ ق . م كانت اسبرطة قد اصبحت دولة عسكرية فريدة ، اذ كانت قد اخضعت لاكونيا وميسينا ، واستعبدت قسما من سكانهما ، وسلبت قسما آخر حقوقه السياسية ، واكرهت البقية على القيام بأود الاسبرطيين بدفع الضرائب ، أو بامدادهم بالطعام ، أو باليد العاملة .

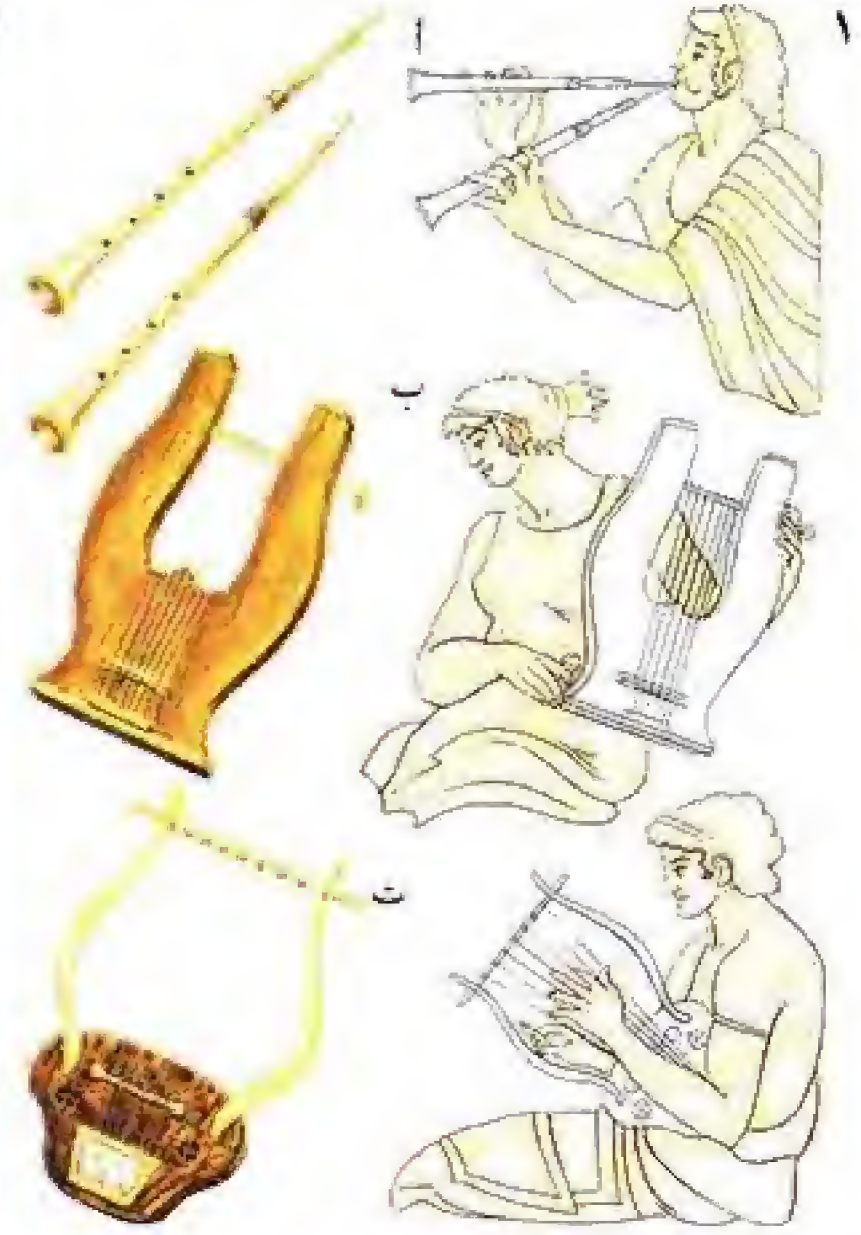
ولمنع حدوث ثورة او انفصال ، تحولت اسبرطة بكاملها الى معسكر للجنود . لم يكن عدد المواطنين فيها كبيرا قط (اذ لم يزد قط على ٥٠٠٠ على الأرجح) ، الا ان كل فرد كان جنديا محترفا ، كرس نفسه منذ طفولته للانضباط المطلق ، ولفن الحرب . لم تكن اية دولة يونانية تشبه اسبرطة ، من حيث الانغلاق والخوف من الاجانب . كما ان الحرف والتجارة كانت موضع احتقار كبير . وقد أدى الرفض التام لادخال مواطنين جدد الى تناقص عدد السكان ، والى الهزيمة في نهاية المطاف . بقيت اسبرطة نموذجا للمجتمع المغلق ، والمنضبط كل الانضباط . ولكن اثينا سعت وراء الحرية الفردية والديمقراطية .

الأدب والمسرح اليونانيان

« الالياذة » و « الأوديسة »

ما زالت شخصية هوميروس ، وهو أحد الأسماء العظيمة في الأدب العالمي ، موضع تساؤل حتى اليوم . فنحن لا نعلم اذا كانت مؤلفاته هي مجموعة أناشيد من وضع عدة شعراء شعبيين ، او روائع من وضع عبقرى فائق واحد ، وان كان الاحتمال الأخير ضعيفا . لكن مما لا يرقى اليه الشك ان « الالياذة » و « الأوديسة » هما من اعظم

لم يصلنا سوى الشيء القليل من أدب اليونان القديمة . ولكن ما وصلنا كان رائعا في تنوعه ونبله ورقته ، وكان تأثيره عظيما في المؤلفين الأوروبيين اللاحقين ، سواء كان ذلك مباشرة ، او عن طريق الأدب اللاتيني .



(١) - لم يصلنا اي من الآلات الموسيقية اليونانية ، ولكن بالاستناد الى الاواني والرسوم ، نعرف ان الآلات الرئيسية كانت الناي (أ) ، ونوعين من الكنارة هما ، القيثارة (ب) والرباب (ت) . كان العزف يتم على زوج من النايات ، وتنضم اليه أحيانا جوقة العازفين . أما القيثارة فكانت ثقيلة ، يستعملها موسيقيون محترفون .

المؤلفات الأدبية . وضعتا في القرن الثامن قبل الميلاد على الأرجح ، الا انهما تصوران شخصيات شبه اسطورية ، عاشت قبل ذلك بـ ٥٠٠ سنة .

تصف « الالياذة » احداثا وقعت في اواخر حرب طروادة . قصة الملحمة مبنية على اساس من الواقع ، مع انها في جوهرها نسج رائع من الخيال الشعري . وتصف ملحمة « الاوديسة » ، وهي أقصر من سابقتها (٤) .



(٢) - هذه القطعة من الفسيفساء الرومانية ، التي وجدت في فيلا بالقرب من بومبيي ، تمثل حديقة الزيتون المكرسة للبطل اليوناني اكاديموس حيث أسس أفلاطون مدرسته الفلسفية المعروفة بالاكاديمية حوالي عام ٣٨٧ ق . م . يظهر أفلاطون ، وهو الثالث الى اليسار ، يعلم في

ما عاياه اوديسيوس في طريق عودته من تلك الحرب . بعد هوميروس بقليل ، ألف هيسيود قصيدتين ملحميتين تنطويان على عناصر تعليمية بارزة ، هما « الأعمال والأيام » و « توالد الآلهة » . وكان الشاعر الملحمي اليوناني الكبير الآخر من تلك الحقبة هو ابولونيوس روديوس (ولد ٢٩٥ ق . م) .

كان الشعراء اليونانيون عامة تستهويهم حرية الوزن والتعبير التي يوفرها الشعر

(٤) - يرد هوميروس في « الاوديسة » الاخطار والمصاعب التي احاقت باوديسيوس السيء الطالع ، في طريق عودته الى ايثاكا ، بعد اشتراكه في القتال مع اليونان في حرب طروادة . تظهر الرسوم على الآنية عدة أحداث ، مثل لقاءه مع الحوريات واصدار أوامره الى البحارة بأن يسدوا آذانهم بالشمع ، كي لا تجذبهم نحو الصخور أغاني الحوريات ، فيما اوثق اوديسيوس نفسه الى السارية ، حتى يتاح له ان يصفي اليها دون خطر .

(٥) - تظهر الجوقة في مأساة يونانية ، على هذا الاناء ، وهي ترقص على ايقاع الشعر وتنشد على موسيقى الناي ، في عهدها الاول خاصة . جمعت المأساة اليونانية بين نمطين مختلفين ، فالحوار بين الممثلين ، او بين الممثلين والجوقة ، كان ينشد على الحان الوزن العمبيقي . اما قصائد الجوقة ، فكانت تبني على عدة اوزان معقدة ، للتعبير عن العواطف التي تعالجها الاشعار .

الاكاديمية التي استمرت حتى عام ٥٢٩ م . عندما اقلها الرومان . كان افلاطون ناثرا فذا ، وكانت محاوراته ، (في الظاهر مع سقراط) ، تتراوح بين الحديث العرضي ، وبين المجابهة العنيفة . من خلال تلك الآثار ، تبرز ايضا صورة الفيلسوف المتسائل ، والحكيم المتواضع . كان تفكيره من العوامل التي أثرت كثيرا في الفلسفة الغربية حتى القرن العشرين . عند افلاطون ، ليست الموجودات التي تدركها الحواس الا انعكاسا لصورتها او مثالها الذي هو وحده موجود وجودا حقا . ولكي يصل المرء الى معرفة المثال ، عليه ان يتحلى بالعقل او الادراك المجرد .

(٣) - هذا التمثال الصغير من الفخار المشوي العائد الى القرن الرابع ق . م يبين ممثلين يلعبان دور رجلين سكيرين طاعنين في السن . كما كان مألوفا في الملهاة اليونانية ، كان الممثلون يلبسون أقنعة مخيفة وأزياء غريبة .

اليه وضع اناشيد الكورس التي تكرم ابطال
الشعر الملحمي . فقد أثر تأثيرا عظيما على
بندار (٥٢٢ ؟ - ٤٤٠ ق . م) .

شعراء المأساة

يظهر ما يدين به الأدب الغربي
اليونان . على أبرز وجه . في الحقل
الدرامي . فالمآسي اليونانية الاثنتان والثلاثون
التي لم تندثر قد هزت مشاعر الجماهير

الغنائي . نشأ الشعر الغنائي من اغان تنشد
على لحن القيثارة . وبلغ أوج تطوره في
القرنين السابع والسادس ق . م . لكن لم
يصلنا منه الا شذرات تشهد على التهاب
العاطفة . والعدوبة . والقوة التي كانت تتصف
بها كتابات الشعراء من امثال تربندر وسافو
والكايسوس من بلدة ليسبوس وألكمان
الاسبرطي وأناكريون الايوني وسيمونيدس
من كيوس . اما استيسخورس . الذي ينسب



اورستيس ابن اغاممنون شقيق
اليكترا . من قاتلي والده .
يقف الممثلون الى اليمين .
والجوقة في الوسط والى
اليسار . بقي لنا من مؤلفات
سوفوكليس . سبع مأس كاملة .

الخلفية الدائمة التي كانت
تصنع من الخشب في الفترات
المبكرة . ومن الحجر فيما
بعد . المسرحية الظاهرة هنا
هي مسرحية « اليكترا »
لسوفوكليس . وهي قصة انتقام

فالى الامام تقع « الاوركسترا »
المستديرة التي كانت الجوقة
ترقص وتغني فوقها . وراءها
خشبة المسرح التي كان
الممثلون يقفون عليها . في
مؤخرة الخشبة المشهد او

(٦) - جرت العادة ان تمثل .
في كل سنة . مجموعة من
المآسي اليونانية على مسرح
ايبديروس الرائع . الذي يعود
الى القرن الرابع ق . م . تظهر
هنا أجزاء المسرح المختلفة .

وألهمت الكتاب في جميع انحاء العالم تقريبا . على مدى يربو على ٢٠٠٠ سنة .
 اما عمالقة المأساة اليونانية فهم ايسخيلوس (٥٢٥ ق . م - ٤٥٦ ق . م) وسوفوكليس (٤٩٦ ق . م - ٤٠٦ ق . م) ويوريبيدس (٤٨٠ ق . م - ٤٠٦ ق . م) .
 لكل من هؤلاء الشعراء عبقرية الخاصة . فأيسخيلوس يمتاز بالعظمة . وسوفوكليس بالمقدرة على التعبير عن المعضلات الخلقية . ويوريبيدس بالنظرة الثاقبة الى الطبيعة البشرية . كانت المآسي اليونانية تمثل في المهرجانات (٦٠٥) فتقدم ثلاث مآس في كل حفلة . بالاضافة الى مسرحية ساخرة كانت عبارة عن محاكاة هزلية للأساطير القديمة .
 لا نعرف بصورة جازمة كيف تطورت المأساة حتى بلغت هذا الشكل المعقد الذي وصلنا ؟ من المحتمل انها انبثقت عن اناشيد الجوقة التي كانت ترنم في المهرجانات الدينية . يُروى ان شاعرا شبه اسطوري يدعى ثيسبيس أدخل الى المسرح شخصية تجيب على اقوال الجوقة . ثم بدأت الدراما الاصلية . التي تنطوي على صراع بين الاشخاص .
 عندما ادخل ايسخيلوس شخصية ثانية . اما سوفوكليس ، فقد استخدم ثلاث شخصيات ان مفهوم « الملهاة » (الكوميديا) اليونانية يكاد يكون مرادفا لاحدى عشرة مسرحية وصلتنا من قلم اريستوفانس (٤٤٨ ق . م - ٣٨٨ ق . م) . كانت كوميدياته شعبية وشخصياته مضحكة ، ومعالجته الساخرة للحياة . وللأفكار . وللزعماء المعاصرين .
 لاذعة في اغلب الاحيان . وكان لا يتردد حتى في هجاء المعبودات . ثم جاء ميناندر (٣٤٢ ق . م - ٢٩٢ ق . م) فألف كوميديات تعالج آداب السلوك في حياة المدينة . لكنها

تفتقر الى حيوية اريستوفانس ولذعه . قلدها وترجمها الى اللاتينية بلوتوس وتيرنس . اللذان تأثر بهما ، فيما بعد ، شكسبير وموليير .

المؤرخون

تناول كل من مؤرخي اليونان القديمة العظمين مهمته بطريقة خاصة تختلف جدا عن طريقة الآخر . فهيرودوتس (٤٨٥ ق . م - ٤٢٥ ق . م) اتخذ الصراع بين اليونان والفرس موضوعا رئيسيا له . وكان رحالة وقصاصا لا يكل . أما توكيديدس (٤٦٠ ق . م - ٤٠٠ ق . م) فكان أول مؤرخ علمي . فقد عاصر . فعلا ، الأحداث التي يصفها . في روايته لأخبار الحرب البيلوبونيسية . واستجوب المشتركين في تلك الحرب . وشهود العيان من كلا الجانبين . وربط بين العلة والمعلول ؛ وبسط الوقائع بأسلوب مقتضب وصريح . من المؤرخين اليونانيين اللامعين ايضا زينوفون (٤٣٠ ق . م - ٣٥٤ ق . م) وبوليبيوس (٢٠٠ ق . م - ١٢٠ ق . م) .
 الفرعان الآخران للأدب اليوناني هما الخطابة والفلسفة . يعتبر ديموستينس (٣٨٣ ق . م - ٣٢٢ ق . م) اعظم من سائر خطباء اثينا اللامعين ، وهم ليسياس ، وايسوقراطس واسكينس .
 أما فيما يتعلق بالفلسفة . فقد انفقد الكثير من كتابات ارسطوطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) الفلسفية والأدبية عدا ما أنقذه ونقله العرب منها .
 أما « محاورات » أفلاطون (٤٢٧ ق . م - ٣٤٧ ق . م) (٢) فتقدم نماذج من النثر اليوناني في أبدع أشكاله .

الفن اليوناني^(١) « ١١٠٠ - ٤٥٠ ق م »

يزال مستمرا على الفن الغربي الحديث . فقد ظلت السمات الموضوعية والطبيعية التي امتاز بها التصوير اليوناني للجسم البشري نموذجا للمجتمعات اللاحقة في الغرب . لكن تجدر الملاحظة انه بسبب ضياع المنسوجات ، والمصنوعات الخشبية ، وقلة المصنوعات المعدنية المبكرة ، لا تعطي حجارة المعابد المهدامة وسطوح المنحوتات المهيترئة لوحدها انطبعا كافيا عن لون الفن اليوناني الاصلي

طراً على الفن والعمارة اليونانيين ، خلال سبعة قرون ، تغير تدريجي وعميق ، فانتقلا من طور بدائي ، الى ان بلغا مستوى رفيعا من التهذيب على عتبة العصر الكلاسيكي . وهو العصر الذي أثر تأثيرا جماليا وفنيا لا



بعد ٦٠٠ ق . م ، الاناء يرسم لحظة الموت التي التقت فيها عينا ملكة الأمازون بعيني قاتلها ، فأدركت انه يحبها .

(١) - هذا الاناء ذو المقبضين هو رائعة من روائع الرسم بالشكل الأسود . صنعه وزينه اكسيكيلاس (اشتهر حوالي ٥٥٠ - ٥٢٥ ق . م) وهو اشتهر رسامي عصره . يمثل الاسلوب الولادة الثانية للرسم الاثيني

وتنوعه .

نمت جذور الفن اليوناني في الحضارة الميكينية في القرن السادس عشر ق . م ، وعلى اثر انهيار هذه الحضارة ، في القرن الثاني عشر ، بدأ « عصر مظلم » . كانت النماذج الوحيدة للحضارة المادية ، في هذه الحقبة ، أواني تزينها رسوم خطية بسيطة ، من الطراز المعروف بالهندسي النموذجي (١) . اما ولادة الفن اليوناني الحقيقية فقد كانت ،

في الواقع ، بعثا جديدا تجلّى في نهضة القرنين التاسع والثامن ق . م التي أدّى نمو التجارة فيها ، وحاجات الحياة المستقرة ، الى انتاج عدد من الاشياء الوظيفية والجميلة معا .

أخذت الخطوط المتعرجة وغيرها من اشكال الفن الهندسي ، الذي ازدهر بين حوالي ٩٠٠ و ٧٠٠ ق . م ، تتصف بالجرأة والاتقان والتعقيد ، واصبحت تشمل تدريجيا



(٢) - يمكن القول ان اسلوب رسم الاشكال الحمراء النافرة على الأنية ضمن خلفية سوداء قد بدأ يحل محل رسم الاشكال السوداء حوالي ٥٣٠ ق . م . هذه الباطنية (طاسة) هي نموذج بديع لهذا التطور ، وهي تمثل مشهدا من حروب طروادة حيث يشترك اخيليس وهكتور في نزال قاتل ، تبدو في رسومها خصائص ستؤدي الى اتقان فن الرسم الهندسي .

(٣) - « عرش لودوفيسي » ، الذي يعود الى ما بين الحقبة القديمة المتأخرة والحقبة الكلاسيكية المبكرة ، يتميز بدقة القولبة ولاسيما بمنظر المشعر المبلول الملصق بالرأس والثياب . كان هذا العرش ذات يوم في حوزة كاردينال كاثوليكي . لكن مصدره ووظيفته مجهولان . تمثل رسومه ولادة افروديت من البحر بمساعدة وصيفتين .

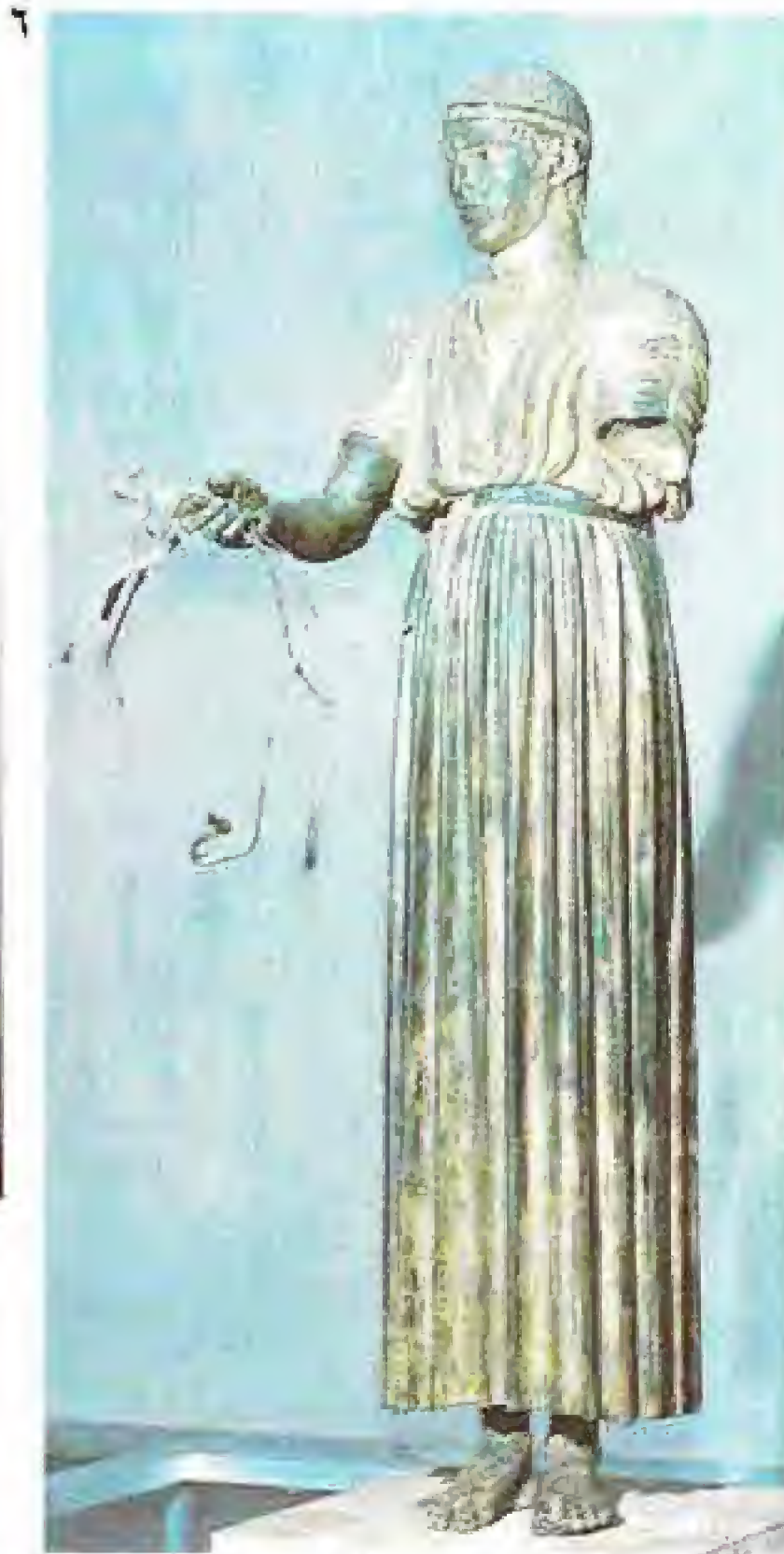
(٤) - منذ أقدم العصور ، انصب اهتمام المعماريين اليونانيين الاساسي على بناء الهياكل . استنادا الى مخططات البيوت التقليدية المصنوعة اصلا من الخشب ، تطوّرت تصاميمهم بتأثير الهندسة المصرية حتى حل الحجر ، في القرن السادس ق . م ، محل الخشب . لكنهم حافظوا على عدد من عناصر فن النجارة ، مثل الأخاديد الشبيهة بالقنوم الظاهر في الاعمدة .

استقر اول « الانظمة » المعمارية وابقاها ، وهو المعروف بالدوري ، في البر اليوناني اصلا ، ومع ان بعض التعديل قد طرأ على هيكل هيرا الاول في بايستوم بايطاليا على يد مستعمرين يونانيين غربيين . فان هذا الهيكل احتفظ بجميع الخصائص الدورية الكلاسيكية ، ويُعتبر أفضل النماذج التي وصلتنا .

الحقبة القديمة الأولى

شهدت الحقبة القديمة الأولى (٧٢٥ - ٦٠٠ ق . م) التأثير الشرقي ، الذي أتى ، بصورة خاصة ، نتيجة للعلاقات التجارية مع الفينيقيين . كان الحرفيون من قبرص وسوريا يعملون في كريت واتيكا ، فاقتبس المواطنون اليونانيون ابتكاراتهم ، وضيفت أنماط مزهرة ومنحنية الى اشكال الخطوط المستقيمة ، فأدى ذلك الى نشوء أساليب

اشكالا بشرية وحيوانية . كانت الاشكال مؤسلة وترسم بطريقة مفاهيمية صرف ، دون اية محاولة لتمثيل العمق او الحركة . لكن هذه المشاهد المبكرة للمواكب الجنائزية والمعارك كانت فتحة جديدا . فقد كانت الخطوة الأولى نحو الفن الروائي ، الذي قيض له ان يصبح السمة الغالبة لانتاج الفنانين اليونان ، الذين استلهموا قصص « الالياذة » و « الاوديسة » البطولية .



(٥) - هذا التمثال البرونزي بالحجم الطبيعي لائق عربية ، تم صنعه حوالي ٤٧٠ ق . م كقربان بمناسبة انتصار طاغية صقلي هو بوليزالوس من جالا . يتصف بمبالغة في المقاييس ، لأنه صُمم لكي يشاهد من تحت ، ولأنه كان يستره الى حد ما هيكل العربة الذي كان منتصبا عليها اصلا . ومع انه يبدو للنظرة السطحية عملا معماريا بسيطا ، فان وضع الجسم فيه وتناسقه ينمّان عن مقدرة فنية ، تجعل منه رائعة من الروائع الكلاسيكية .

(٦) - من أبدع الشواهد على النحت ، في العصر الاتيكي ، التمثال المعروف بـ « حداد اثينا » . فقد جاء الجمع موفقا بين المنظر الكامل للجسم ، والمنظر الجانبي لثلاثة ارباع الوجه ، وتوفقت سيماء الوجه ، والوقفة الطبيعية والمسترخية ، في التعبير بوضوح عن الحالة النفسية الغارقة في التفكير . يسود الاعتقاد الآن ان المنحوتة كانت مقدمة وفاء نذر من قبل لاعب منتصر . تبدو في الصنعة الفنية بشائر النحت المتقن للعصر الكلاسيكي .

اصبحت هذه الأشكال المبنية في الغالب على

نماذج صناعة السلال ، والمنتجة على قياس ضخم (بعلو ١.٥ م) أشد تعقيدا نتيجة لظهور المتعرجات والأطناف (الأفاريز) والاشكال المؤسلة لصور الحيوانات والبشر .

(٧) - ربما كانت صناعة الفخار على الطريقة « الهندسية الاصلية » المتميزة بدوائر بسيطة وخطوط متموجة ، قد نشأت في اثينا قبل نهاية القرن الحادي عشر . مع تطور صناعة الفخار ،



متميزة في رسوم كورنثوس واسبرطة .
 ان اثينا ، التي كانت اصلا المركز الشهير
 للرسم الهندسي ، لم تعمل الا قليلا في مجال
 التجارة والاستعمار ، لذا فقد أقل نجمها فنيا ،
 لفترة من الزمن . ولكن على اثر استيراد
 الأفكار من مصر ، شهدت هذه الحقبة اولى
 الاعمال العظيمة في فن العمارة اليونانية .
 كان من نتيجة تأثير تصميم هندسة الهياكل
 في مصر ان استبدلت ، شيئا فشيئا ، الاعمدة
 الخشبية وسواها من الاجزاء بنظائرها من
 الحجر فنشأت أنظمة العمارة اليونانية ابتداء
 بالدوري (٤) في النصف الثاني من القرن
 السابع . كما ان فن النحت تطور في ظل
 التأثير الشرقي ايضا ، كان في الاصل يستخدم
 القوالب لصب الصور الصغيرة الثابتة
 الاشكال ، من اجل المعابد . ولكن مع حلول
 عام ٦٤٠ تقريبا ، بدىء بصنع تماثيل اكبر ،
 مقتبسة من نماذج مصرية ، كما تم اقتباس
 واستعمال الكثير من الموارد المحلية ، من
 الرخام والمواد الرديفة ، كالسبناذج المستعمل
 للصقل ، وفي هذه الفترة شاع تمثيل الاجسام
 الفتية للشبان .

على الرغم من اقتباس الكثير من اسلوب
 وطرق تنفيذ الاعمال المصرية السابقة ، فقد
 برز نمط يوناني مميز . كان من نتائج
 الاهتمام اليوناني بالالعاب الرياضية ان شاع
 اسلوب نحت تماثيل الشبان بالوضع العاري ،
 ولتلبية متطلبات هذا الاسلوب اضطر النحاتون
 الى دراسة علم التشريح بصورة أدق ، وكان
 ذلك عاملا هاما في تطور فن النحت .

كورنثوس مركز لصناعة الفخار

مع حلول عام ٧٠٠ ق . م . كانت

كورنثوس قد احتلت موقع الصدارة ، كمركز
 عظيم لصناعة الخزف اليونانية . فهناك نشأ
 وتكامل اسلوب الاشكال السوداء الذي استمر
 أكثر من ٢٠٠ سنة (١) . مرت اليونان خلال
 العصر القديم في مرحلة رخاء لم تعهدها من
 قبل ، فتوسعا الاستعماري كان قد اكتمل
 تقريبا ، ووفر نمو المدن الثابتة الرعاية اللازمة
 لتشجيع عدد من الجهود الفنية ، فازداد بناء
 الهياكل وظهر « النظام » الايوني ، فاصبحت
 الهياكل أشد تعقيدا ، وغدت تزين بافاريز
 منحوتة تنم عن مهارة فنية متزايدة ، كما ازدادت
 معرفة تركيب الجسم البشري وطُبقت على
 نماذج من النحت اقرب الى الطبيعة (٥) سواء
 من النوع المجسم أو النافر (٦) .
 وتطورت طائفة من الحركات الشكلية
 والايقونية على فن الرسوم على الاواني
 فبني عليها العديد من الروائع من رسوم
 الأشكال السوداء .

أثينا ورسم الأشكال الحمراء

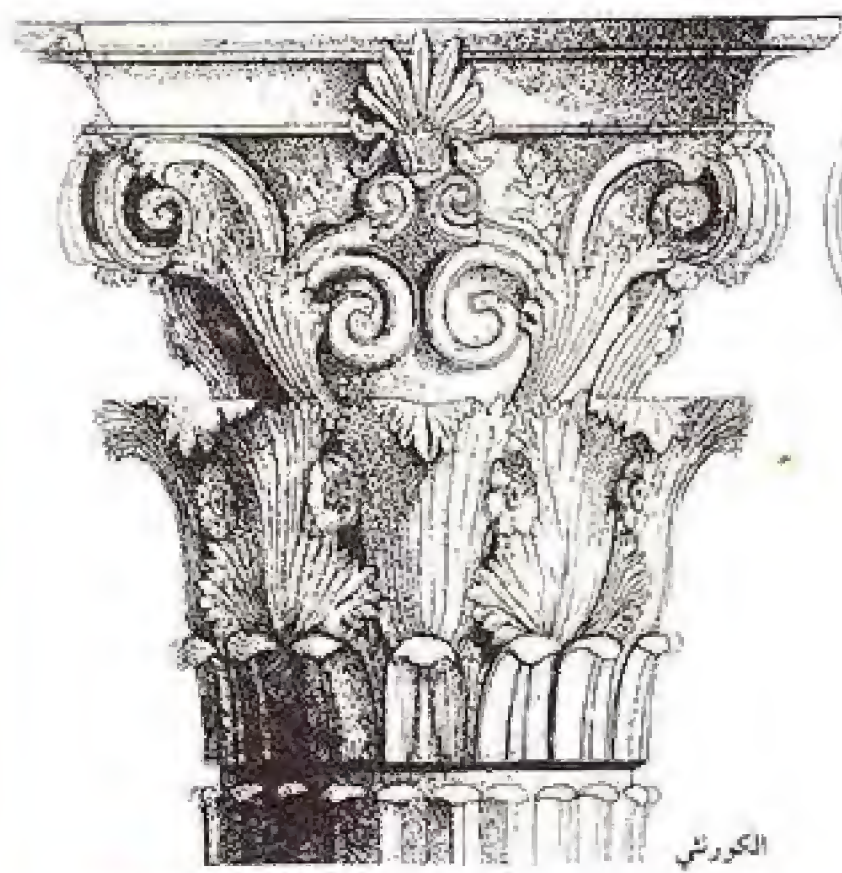
في حوالي عام ٥٣٠ ق . م . كان رسم
 الاشكال الحمراء قد تأسس (٢) واصبحت
 اثينا المركز الرئيسي لهذا الاسلوب الذي لم
 يلبث ان حل محل أسلوب الشكل الاسود ،
 بسبب افساحه المجال لقدر اكبر من
 التفاصيل . تأثر الحس الفني للعصر
 الكلاسيكي المبكر (حوالي ٥٠٠ - ٤٥٠ ق . م)
 تأثرا عظيما بالنتائج المدمرة الاجتماعية
 والاقتصادية ولاسيما النفسية للحروب الفارسية
 (٤٩٠ - ٤٧٨ ق . م) . ومن ابلغ الشواهد على
 ذلك ظهور النزعة للتخلي عن البسمة القديمة
 والتعويض عنها بتعبير أشد رصانة وموضوعية
 على الوجوه .

الفن اليوناني^(٢) « ٤٥٠ - ٣١ ق.م. »

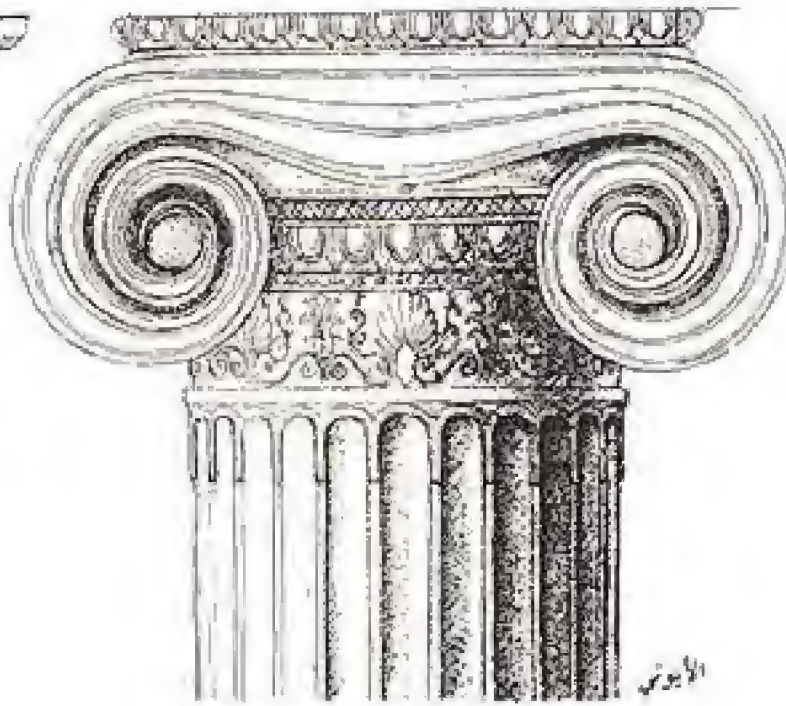
كذلك بلغت فيه الاتجاهات التي كانت قد بدأت من قبل ، كالأقبال على الطبيعة في النحت ، ذروتها في اعمال المشاهير امثال فيدياس الذي يعتبر مبتكر الفن اليوناني الكلاسيكي .

بعد حوالي ٤٥٠ ق . م . دخل الفن اليوناني طوراً اعتبرته الأجيال اللاحقة العصر الكلاسيكي الذهبي . قام هذا الفن على خبرة سابقة واستوعب تأثيرات جديدة (لاسيما الشرقية منها) وسعى وراء أهداف عليا .

الشكلية الكلاسيكية
مع ذلك ، تميز فن العصر الكلاسيكي الأعلى (٤٥٠ ؟ - ٤٠٠ ق . م) ، ليس بالحدقة



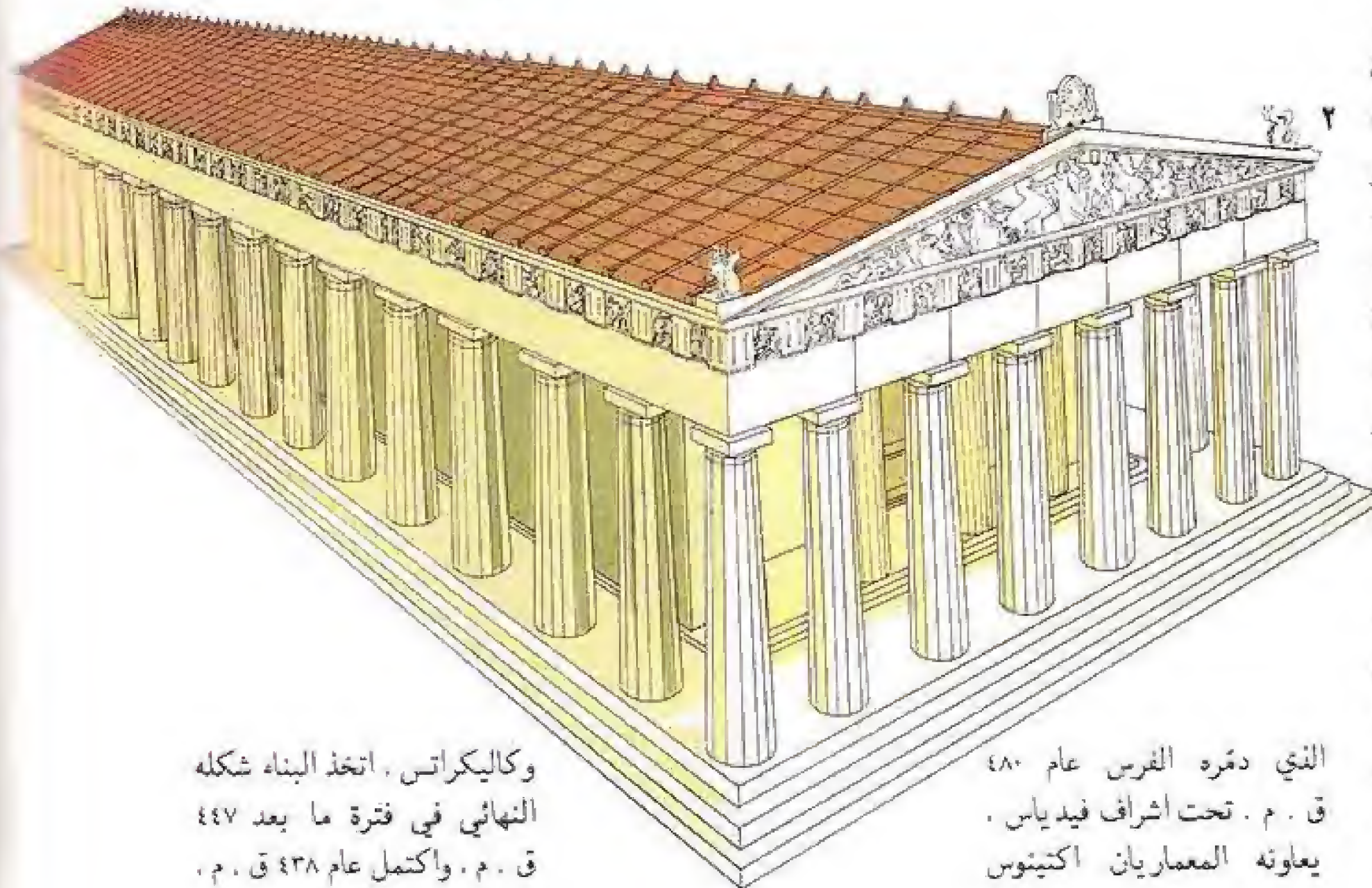
الكورنثي



الايوني



الدوري



وكاليكراتس ، اتخذ البناء شكله النهائي في فترة ما بعد ٤٤٧ ق . م . واكتمل عام ٤٣٨ ق . م .

الذي دمره الفرس عام ٤٨٠ ق . م . تحت اشراف فيدياس ، يعاونه المعماريان اكتينوس

(١) - « الطرز » اليونانية الرئيسية لتاج العمود ثلاثة هي ، الدوري وهو الأقدم ، وله طيبة (اباخوس) ضخمة هي بلاطة مطحة واخينوس رجب (هو التزييق تحت الطيبة) ، الطراز الايوني ، وطيبته انحف ، وله لفائف لولبية بارزة تغطيها نقوش وقيرة ، والكورنثي ، وهو اعلى وأكثر تعقيداً ، وكان قبل اقتباس الرومان له ، أقل شيوعاً من النظامين الآخرين .

(٢) - يهيمن البارثون على الاكروبوليس ، وهو من اروع الابنية وابلغها اهمية في العالم . شيده الحاكم الاثيني بيريكليس ليحل محل الهيكل

الفنية فحسب . بل بضبط العواطف أيضا وتجنب التطرف . فقد كان هذا الفن شكليا . خاليا من رسوم الشباب والشيخوخة ومن آثار مشاعر الغضب أو المتعة . ذلك ان حرص النحات اليوناني على تحقيق مثال الشكل الكامل أدى الى نمط فني صاف ومنضبط . ولكنه بارد وغير شخصي الطابع .

شهد العصر الكلاسيكي الأعلى بروز اثينا . كمركز فني عظيم ، وخاصة في عهد

حاكمها بيريكليس (٤٩٠ ق - ٤٢٩ ق . م) فبعد الدمار الذي سببته الحروب الفارسية . وضع خطة لاعادة البناء اتصفت ببعد نظر لا يضارع . فانتجت عددا من أروع الأبنية في العالم ، منها بصورة خاصة ، البارثنون (٢) والاريكتيوم اللذان شيئا فوق الاكروبوليس في اثينا . تتصف منحوتات البارثنون بواقعية وعظمة في التصور لا نظير لهما في تاريخ الفن (٤) . الى هذه الحقبة أيضا تعود



جميعا . لاسيما في قولبة الأشكال . لكن العمل يعبر أيضا عن النشاط والحيوية اللذين كانا يلهمان الفن الهلنستي .

في اجزائهما النافرة أو المستديرة .

(٤) - يرمز موضوع افريز البارثنون - وهو الصراع بين اللابيثيين (شعب من سكان تساليا) والقنطورس . اثناء زفاف الملك اللابيثي بريثاوس - الى انتصار النظام والمدنية على البربرية . كان ذلك موضوعا يتكرر باستمرار في الفن الكلاسيكي الأعلى .

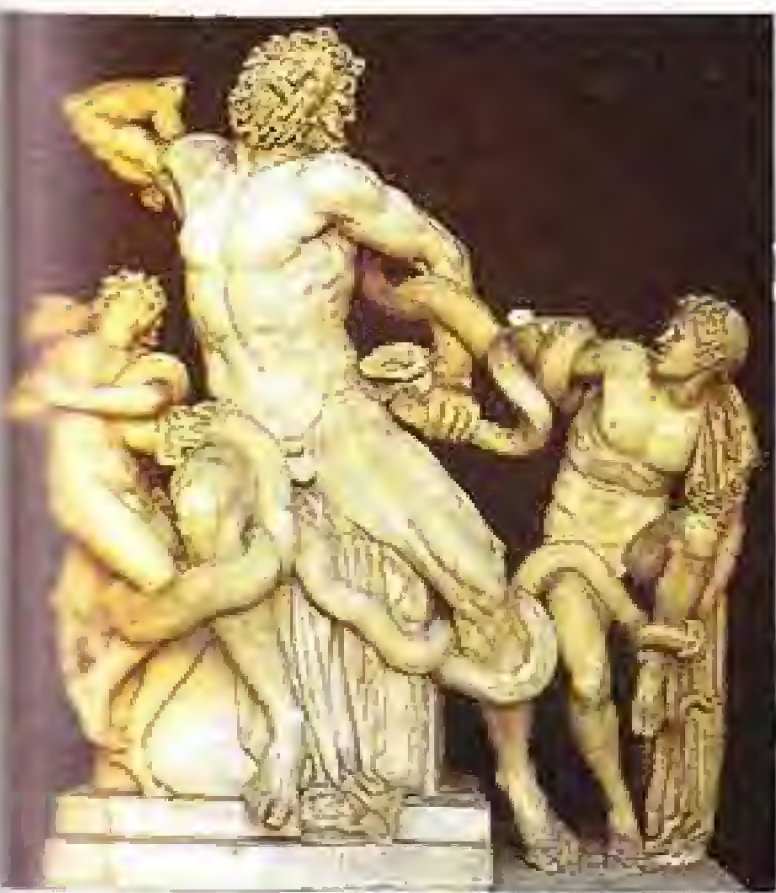
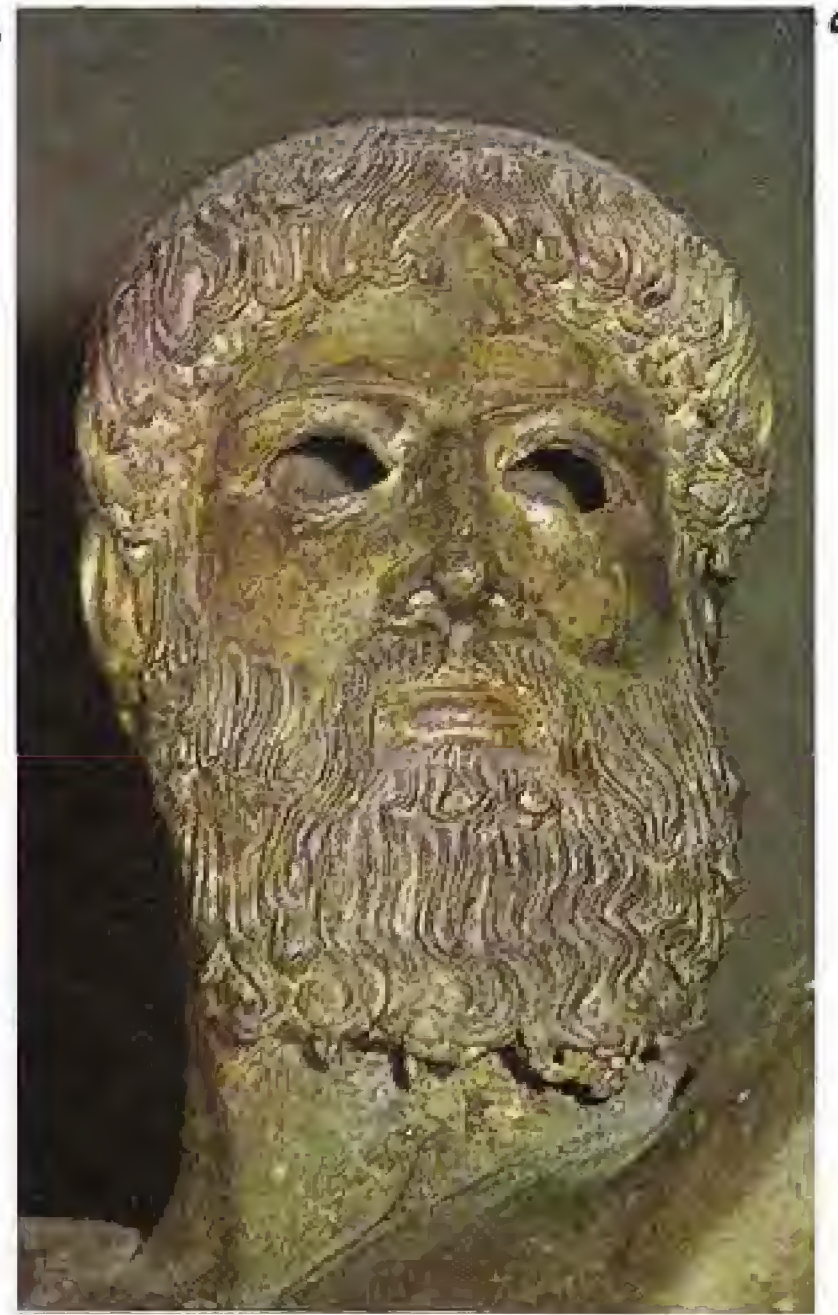
(٣) - أمر آخر ملوك صيدا بصنع « ناووس الاسكندر » ، وكان هذا الملك يدين بمنصبه للاسكندر الكبير . كان هذا الأثر قبرا ونصبا في الوقت نفسه لتمجيد مآثر الاسكندر . وهو يصور مشهد من حياته ، بما في ذلك معركته ضد الفرس . ومشهدا من مشاهد الصيد ، طافحا بالحياة . تأثر النحات الى حد كبير بفن ليسيپوس ، أشهر نحّات القرن الرابع

كله من « الطراز » الدوري ، وله ثمانية أعمدة في واجهته . بدلا من الستة المألوفة . فضلا عن سبعة عشر عمودا داخل الرواق . يخفف انتفاخ الأعمدة من ظاهرة التفرع الذي يتوهمه البصر . أما الافريز والواجهة . فقد كان انجازهما اللطيف وأروع وأمهـر من أي من سابقتيهما وهما يبرزان كعملين من أعظم أعمال النحت في العالم ، سواء

باستثناء المنحوتات التي استغرقت ست سنوات أخرى . جاء تصميمه يعبر عن سيادة اثينا واعتزازها بمدنيتها . وكان أضخم ابنية اليونان وأكثرها كلفة . كما كان مركزا لاثقا لعرض تمثال اثينا الذي صنعه فيدياس من العاج والذهب . اشتمل البارثنون على عدد من الابتكارات المعمارية الجريئة وعلى أكثر المفاهيم الفنية شيوعا في ذلك العصر . كان

المنحوتات البنائية الفخمة والتفاصيل النحتية النافرة والتمائيل النذرية والتمائيل الطقوسية وخاصة تمثال زفس (زيوس) الضخم من أعمال فيدياس ، في هيكل اولمبيا الذي اعتبر احدى عجائب العالم القديم السبع .
مع ان تمثال الرجل البطل بقي بصورة عامة النموذج المفضل ، فقد تحول النحاتون بشكل متزايد الى صنع تماثيل للاناث ، واصبح التركيز خاصة على الالبسة . ويبدو

ذلك مثلا في تماثيل نايكى ، معبود النصر (٦) . هذا التحول من تصوير المثل الاعلى ، الفتى العاري ، الى التصوير المؤسلب للأنثى الملتفة بثوبها هو عنصر هام في عملية الخروج على الشكلية ، كان من شأنه تغيير مجرى الفن اليوناني . من الفنون الأخرى التي ازدهرت اثناء الحقبة الكلاسيكية العليا ، الرسم على الجدران الذي أخذ يتقدم حتى على الرسم على الأنية .



والألم . وهما عاطفتان أصبحتا من خصائص الفن الهلينستي . وكان هذا التمثال ، على غرار عدد من الآثار اليونانية في تلك الحقبة ، موضع إعجاب عظيم لدى الرومان . ونقل الى روما بأمر من الامبراطور طيطس عام ٦٩ م ، وقد قال عنه بلين الأكبر انه « يمتاز على كل الآثار السابقة في ميدان التصوير والنحت » . في عام ١٥٠٨ اكتشف هذا التمثال مرة ثانية في حمامات طيطس . فاشتره البابا جوليوس الثاني للفاتيكان . حيث اكب على دراسته فنانون ، امثال مايكل انجلو وبرنيني وروبنز .

اصلا معبود النصر هابطا على مقدمة سفينة . يعبر التفاف ثنايا الثوب عن حركة الشكل القوية والرشيقة معا .

(٧) - صنع هذا التمثال الشهير - الذي يصور صراع الموت الذي خاضه الامير الطروادي لاوكون وابناه في رودس - فنانون يونانيون تخصصوا في الاعمال التي تعبر عن العنف

وصلتنا . بجسده المفتول العضلات ورأسه البديع .

(٦) - يمثل تمثال نايكى في ساموثراس معبود النصر المجنح وهو مثال للفن البديع لمدرسة رودس في النحت . خلال العصر الهلينستي . صنع على الأرجح لتخليد انتصار بحري على انطيوخوس الثالث السوري . كانت نايكى تمثل

(٥) - يشكل تمثال « بوزيدون » في ارميزيوم ، وهو يمثل أحد أقدم المعبودات لدى راكبي البحار من الاثينيين - حلقة فنية وسطى بين أسلبة فن نحت الاشخاص الخاص بالعصور الاولى للفن اليوناني . وبين طبيعة الفن الكلاسيكي . هذا التمثال هو من اروع النماذج المصنوعة من البرونز التي

فن رسم الأشخاص

في العصر الكلاسيكي المتأخر (٤٠٠ ق . م - ٣٢٣ ق . م) . أدى الرخاء المتزايد والحرص الأشد على رعاية الفنون . الى تحول عن المقاييس التقليدية اللاعاطفية التي ميزت العصر الكلاسيكي السابق . لقد ظهر فن رسم الاشخاص الحقيقي في اول الأمر بفضل تشجيع حكام الامبراطورية الفارسية الغربية المولعين بالجاء والنفوذ . وجاء منافسا لرسم المعبودات الخيالي . كذلك نشأ فن نحت القبور الضخمة تخليدا للذكرى . وليس من قبيل المصادفة ان تشهد هذه الحقبة بناء القبر المنحوت الرائع لملك كارييا موسولوس في هليكارناسوس الذي اشتقت منه كلمة موزوليوم (التي تعني الضريح أو المزار) . كان هذا الأثر . على غرار ضريح الاسكندر (٣) . من انتاج فنانين يونانيين كانوا يعملون على تخوم الامبراطورية . ويدل فنهم وفن اقرانهم في البر اليوناني . مثل براكسيتيليس وسكوباس وليسيبوس خاصة على التحول من المثالية الكلاسيكية الى الواقعية الهلينستية . أنتج ليسيبوس مثلاً . وهو نحات الاسكندر الكبير الرسمي . آثارا كان منظرها ممتعا من أية زاوية نظرنا اليها . خلافا لبعض الأعمال الشكلية من الحقب الكلاسيكية المبكرة . كذلك انتج هذا الفنان رسوما لنصيره الاسكندر مليئة بالحياة . في الوقت نفسه . ازدهر فن الرسم وصناعة المجوهرات نتيجة للثروة الجديدة للامبراطورية اليونانية .

الواقعية في الحقبة الهلينستية

كان العصر الهلينستي (من وفاة

الاسكندر ٣٢٣ حتى معركة اكسيوم ٣١ ق . م) آخر طور في تاريخ الفن اليوناني . في هذه الفترة . ازدهرت طوائف شتى من الفنون بتأثير تطور حياة البلاط . واصبحت مدنية برغامة مركزا مرموقا للعمارة والنحت . فيما نشأت مدارس محلية متنوعة . في الامبراطورية السلوقية . وفي الاسكندرية . ورودرس . لكن اثينا وحدها . احتفظت بعدد من تقاليد الفن الكلاسيكي . وبقيت المركز الرئيسي لهذا الفن . في البر اليوناني .

أدت تطلعات حكام امبراطورية الاسكندر الى اهتمام أكبر بفن رسم الاشخاص . الذي كان الفنانون غالبا ما يحاولون فيه اعطاء الشخص هيئة شبه الهية . فكانت هي المرة الأولى التي تطفئ فيها رسوم البشر على المعبودات مما أدى الى اضعاف النفحة الدينية والميثولوجية الاصلية للفن اليوناني . لتحل محلها تصاوير دقيقة . وان تكن مضخمة احيانا . لبعض الشخصيات المرموقة .

ظهرت قوة الحركة في العواطف في بعض المنحوتات . كالنقوش النافرة في مذبح زفس ببرغامة وفي تمثال نايكبي في ساموثراس (٦) ومجموعة لاوكون (٧) . كما برزت الأنوثة في بعض الآثار . مثل فينوس ميلو . كذلك صورت للمرة الأولى مشاعر الألم الجسدي والخوف والشيخوخة والصبا .

لكن في أواخر العصر الهلينستي ظهر اتجاه نحو تقليد الآثار الكلاسيكية السالفة . أسهم مع عملية اقتباس الرومان على نطاق واسع للعناصر الرئيسية في الفن اليوناني في تأمين استمرار هذا الفن عبر العصور اللاحقة .

العلم اليوناني

نصف كروية . الا ان حب اليونان للأشكال
المتناظرة حملهم على الأخذ بمفهوم كروي
للكون .

ظهرت بواكير العلم اليوناني في القرن
الثامن ق . م . وذلك في القصائد الهوميرية
التي تصف الكواكب وتورد فكرة غريبة عن
الكون مؤداها انه كروي (٤) . كانت
الحضارات الاخرى قد اكتفت بوصف سماوات

الدراسات اليونانية للكون
ان اوائل العلماء اليونانيين الذين وصلتنا
اسماؤهم . وهم طاليس وانكسيمندر
وانكسيمينيس . قدموا من الشاطئ الشرقي
للبحر الايجي . وعاشوا في القرن السادس

(١) - وضعت خريطة
العالم هذه التي نشرت
عام ١٤٨٦ على أساس
خريطة أخرى رسمها
بطليموس في
الاسكندرية قبل ذلك
بحوالي ١٣٠٠ سنة .
استمدت هذه الخريطة
من شهادات المسافرين
لا سيما المكتشف
اليوناني بيشاس الذي
عاش في القرن
الرابع ق . م .

(٢) - للطب اليوناني
تاريخ طويل مرموق .
فقد كان الطب النفسي
يمارس في هياكل
الاستشفاء . مثلما
كانت المعالجة

مألوفة بالأعشاب والجراحة .
يظهر في هذه المجموعة
المتشوعة من الأدوات
الجراحية اليونانية .
ملاقط ومباضع ذات أشكال
مختلفة . اضافة الى أدوات
أخرى .

(الساعات الشمسية) . وكان
يحمل قديما ساعة مائية
ضخمة . مبنية وفقا لتصميم من
وضع سيسيبيوس . كان لها
جهاز شعبي معقد يؤمن ضغطا
مائيا متواصلا . بحيث كانت
الساعة دقيقة لدرجة كافية .

(٤) - صورة من العصر
الفكتوري في بريطانيا تمثل

عالم هوميروس . تبدو فيها
الارض على شكل قرص . في
وسطه اليونان عائمة على سطح
الماء يحيط بها فلك الكون .
الشمس تبرز من الشرق ويبدو
القمر غالبا في كبد السماء .
كان معظم الفلاسفة اليونان
يعتقدون ان الشمس والقمر
وسائر الكواكب السيارة تدور
حول الأرض . لكن فكرتهم

المبتكرة هي ان السماء تؤلف
فلكا محيطا وهو شكل أكثر
كمالا من القبة او نصف الكرة .
لم يكن ثمة أدلة تدعم هذه
النظرة الى الكون . وانما
اقتبست لاسباب جمالية بحتة .
بقي الاعتقاد بان الارض تقع
في وسط الكون . سائدا حتى
ظهور ابحاث كوبرنيكوس في
القرن السادس عشر .

القرن السادس ق . م . هو فيثاغورس ، الذي اشتهر خاصة باعطاء البرهان على العلاقة بين اضلاع المثلث القائم الزاوية . كذلك بحث في الانغام الموسيقية . مما دفعه الى القول بوجود علاقة الهية بين الاعداد والموسيقى والكون .

في القرن الرابع ق . م . أسس أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م) اكاديميته في اثينا ، التي ركز فيها كثيرا على ماهية الكون

ق . م . سلم طاليس بمفهوم الكون الكروي ، وذهب الى ان الماء هو المادة الاساسية التي منها تكوّن كل شيء . اما انكسيمندر ، فقد ذهب الى ان المادة الاساسية هي جوهر لا يمكن تحديده . وقال بأن الارض هي على شكل اسطوانة . وكان يرى . على غرار انكسيمينس ، ان الأجرام السماوية هي عبارة عن ثقوب في السماء المظلمة ، تخترقها اشعة منطقة نارية محيطة . الا ان أهم عالم في



٣ - أ - سكين جراحية ذات مقبض مزين ومسطح .

ب - سكين صغيرة ذات لقافة لولبية مضطربة

ت - سكين جراحية متفحمة من البرونز

ث - مشرط ذو مقبض عاجي وشفرة فولاذية مثبتة

ج - مفصل يستعمل كسكين للحجامة

ح - مبضع ذو رأس ومحمل من الفولاذ

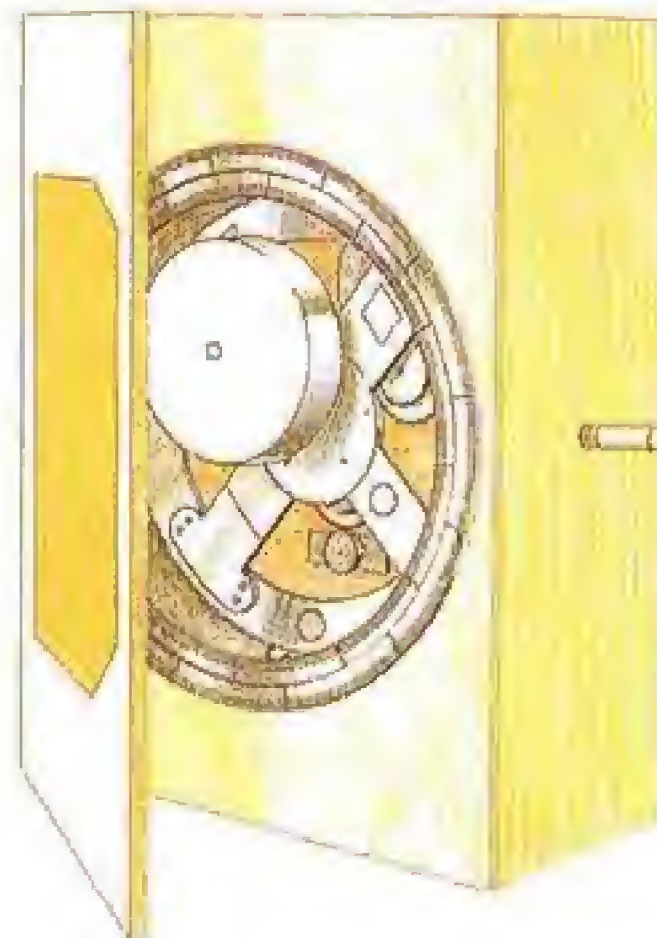
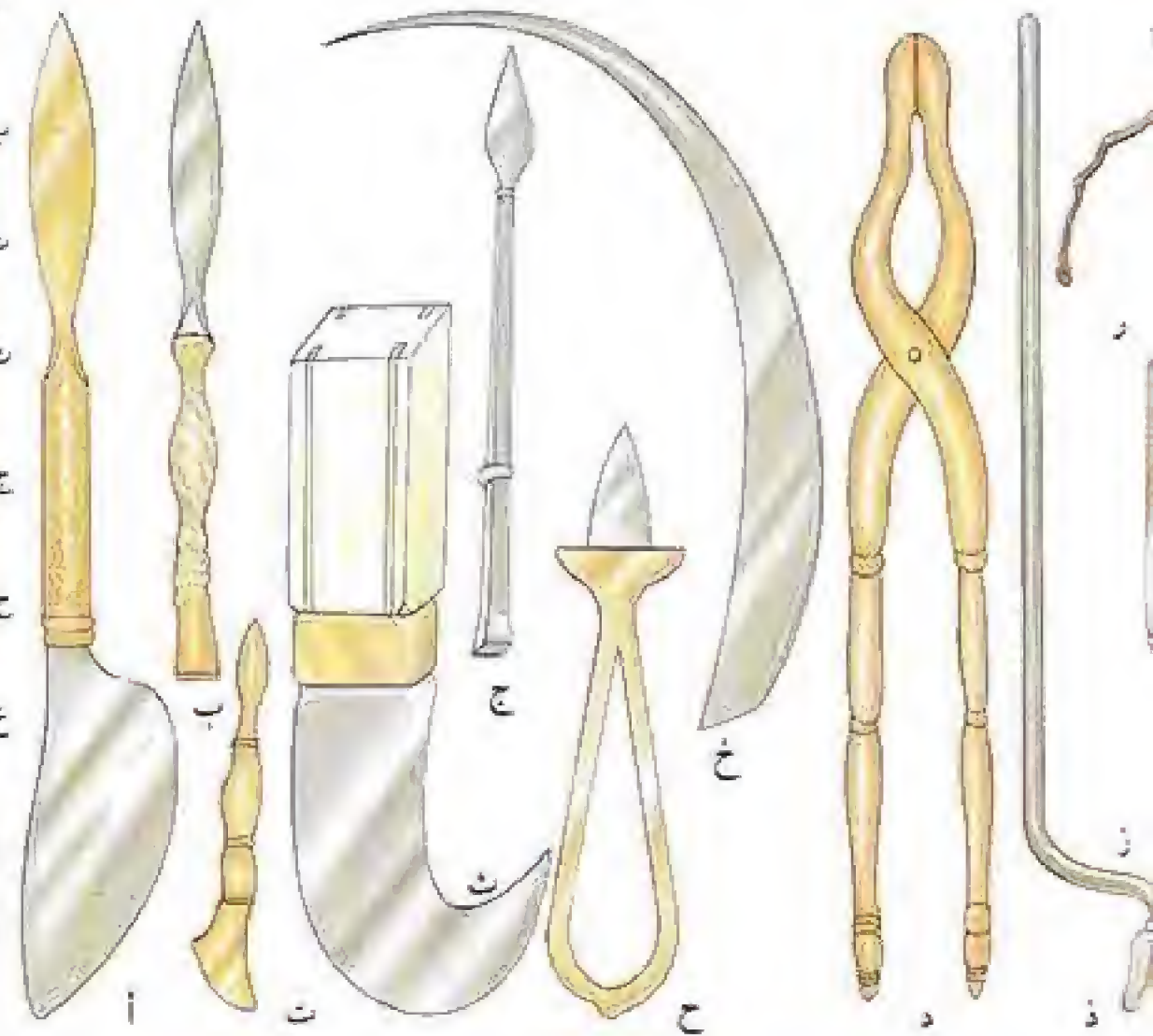
خ - ناسور ذو شفرة مفتوحة تقطع من جهة دون الأخرى

د - مبضع غلصمة

ذ - سبم يستعمل لكسر الالتهاب أو وقف النزيف

ر - برّيمة تدبرها جلدة مثبتة الى اسطوانة تستعمل لأزالة سلاح غائر في العظم

ز - ازميل فولاذي يستعمل للفصل العظم العائوي .



(٥) - « آلة حاسبة » فلكية يونانية اكتشفت عام ١٩٠٠ في حطام سفينة تعود الى حوالي ٦٥ ق . م . بالقرب من جزيرة أنتيكيثيرا . وتظهر هنا بعد اعادة تركيبها ، كانت تحتوي على جهاز معقد جدا من الآلات الداخلية .

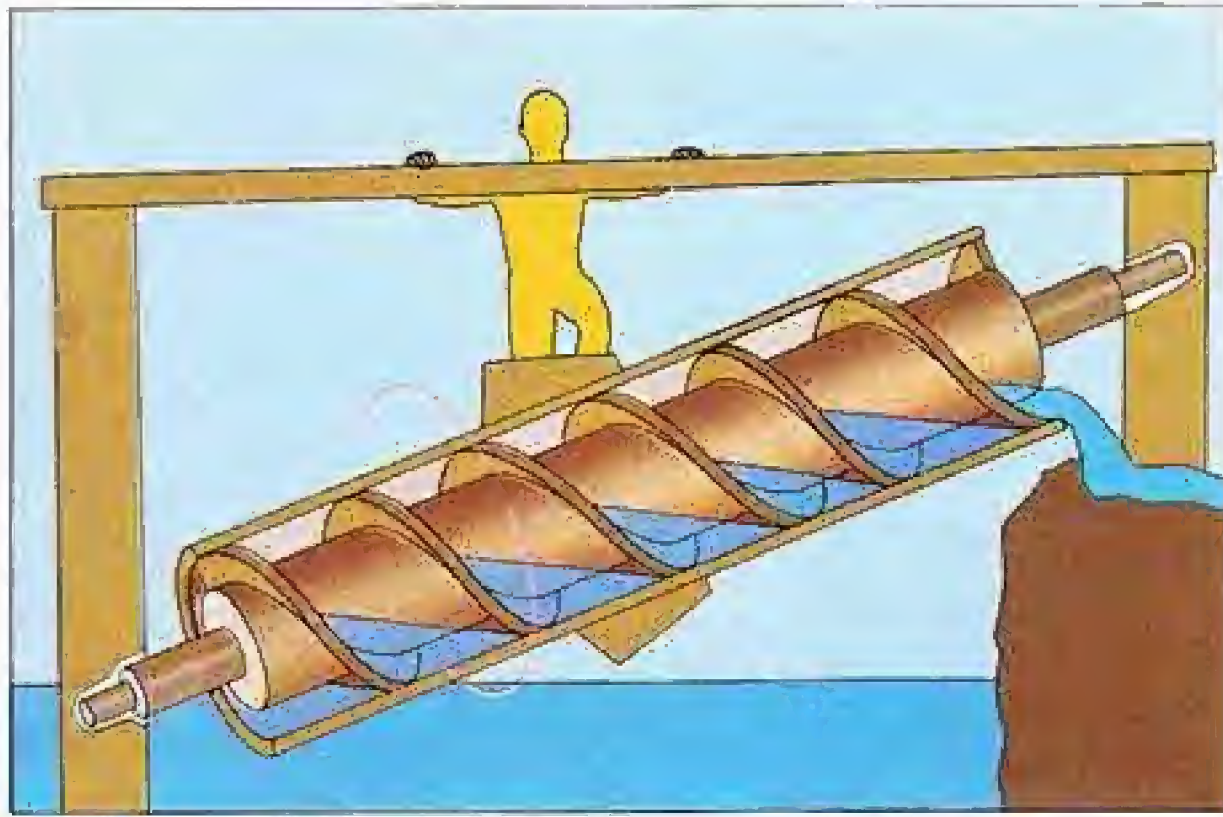


مسألة حركة الأرض أو سكونها في الفضاء ، وكان يميل ، بناء على الأدلة المتوفرة لديه ، إلى القول بنظرية الأرض الثابتة في مركز الكون . كذلك ناقش طبيعة التغير ولاسيما الحركة .

ابحاث العلوم المجردة

مع ان آراء أرسطو في العالم الطبيعي هي التي أثرت في العلم طيلة الـ ٢٠٠٠ سنة

الرياضية . ثم انشأ تلميذه أرسطوطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) وهو اعظم فيلسوف علمي في العصور القديمة ، اكاديميته الخاصة المعروفة بالليسيوم في اثينا ايضا . اقتبس أرسطوطاليس النظرية التي كان قد صاغها اصلا انبيدقليس في القرن الخامس ق . م والقائلة بأن العناصر الاربعة ، التراب والهواء والنار والماء ، هي العناصر الاساسية لجميع المواد . في مجال علم الفلك ناقش أرسطو



٧ سمكة القرش عند أرسطو



٨

ارخميدس الاسطواني لرفع الماء . قد اخترع قبل أرخميدس ، ولكنه نسب إلى مهارته الميكانيكية . كان اللولب الذي يُخْرَك بواسطة مقبض أو دغاسة للرجل يدور داخل اسطوانة . فيسحب الماء إلى أعلى .

(٨) - ارخميدس في مغطسه (من نقش يعود إلى القرن السادس عشر) يذكرنا باكتشافه أن الجسم في الماء يزيج كمية من الماء مساوية لحجمه . ويعني ذلك . أنه ايا كان الشكل . فالأشياء المتساوية في الثقل النوعي والوزن تزيج الكمية ذاتها من

(٦) - كانت ملاحظات أرسطو في علم الأحياء تشمل على مذكرات خاصة بالنحل والسمك . فقد اكتشف هذا العالم ان ذكر سمكة السلور يتعهد حراسة بيض الأنثى حتى تنقف صغارها . ولما كانت انواع سمك السلور الأخرى تسلك سلوكا مختلفا . فقد شك العلماء بهذا القول حتى عام ١٨٥٠ . عندما أثبت لويس اجاسيز ان أرسطو كان على حق . فقد وجد ان ذكر سمك السلور في امريكا الشمالية يسلك السلوك نفسه .

(٧) - قد يكون لولب

من الماء أكبر من وزن مساو من الذهب الخالص ، فثبت بذلك ان التاج كان يحتوي على معدن آخر .

السائل . استخدم ارخميدس المبدأ الجديد هذا ليتحقق مما اذا كان التاج الذي صنع لملك سرقسطة هو من الذهب الخالص ، فقد أزاح التاج كمية

التالية . فقد تفوق بصورة خاصة في علم الاحياء . لقد وصف بدقة المعدة المزدوجة لدى الحيوانات المجترة كالبقرة ، وعادات النحل . كما درس كلب البحر المشيمي الذي ينجب صغاره احياء على غرار الثدييات . ووضع دراسة عامة في التوالد الجنسي (٦) . درس ايضا النباتات . وان كان صديقه وتلميذه ثيوفراسطس (٣٧٢ ق . م - ٢٨٦ ق . م) هو الذي وضع أسس علم النباتات . شدد أرسطو على المفهوم الهام القائل بوجود نظام متواصل من الموجودات يمتد من المادة غير الحية ، صُعدا حتى الانسان .

استنادا الى مذهب يودوكسوس (٤٠٨ ق . م - ٣٥٥ ق . م) القائل بأن الأجرام السماوية تدور في افلاكها حول الارض . طرح عالم الفلك ارسطرخس (٣١٠ - ٢٣٠ ق . م) في القرن الثالث الفكرة القائلة بان الشمس هي مركز الكون وليس الأرض ، وعالج مسألة حجم الشمس والقمر . لكن نظريته الكونية لم تلق قبولا . بعد ذلك بقرن واحد ، اكتشف هيبارخوس (٩١٠ - ١٢٠ ق . م) ، وهو أعظم عالم فلكي اعتمد المشاهدة في العصور القديمة ، تقدم الاعتدالين ، ووضع لائحة بالنجوم وقاس كسوف الشمس وقدم نظرية متطورة لحركة الشمس . وقد اشتهر القرن الثالث ق . م ايضا بعلم الطبيعيات الرياضية لأرخميدس (٢٨٧ ق . م - ٢١٢ ق . م) (٨) وبتأسيس مكتبة الاسكندرية ومتحفها . في هذه المدينة ، وطيلة ٥٠٠ سنة ، استمرت الابحاث المتطورة ، فازدهرت الرياضيات بفضل اقليدس (اشتهر ٣٠٠ ق . م) وابلونيوس (اشتهر ٢٥٠ - ٢٢٠ ق . م) الذي ذاع صيته لأبحاثه في علم الفلك والمقاطع

المخروطية . وقد قدر إراتوستينيس (٢٧٦ ق . م - ١٩٤ ق . م) محيط الأرض بفارق ٤٠٠ كلم فقط عن محيطها الحقيقي .

في القرن الثاني الميلادي ألف عالم الفلك بطليموس (٩٠ ق . م - ١٦٨ م) كتابه الشهير « المجسطي » . وهو ملخص لعلم الفلك اليوناني ، بالاضافة الى مؤلفه « الجغرافيا » الذي استعمل خطوط الطول والعرض ، وطريقته الخاصة بالرسم التجسمي (١) . وطور هيروفيلوس وإراسيسترatos في القرن الثالث ، في الاسكندرية ، العلوم الطبية التي كان ابوقراط الكوسي قد وضعها في القرن الخامس ق . م (٢) ، كما شرحا الجسم البشري ، وميزا بين الشرايين والاوردة وبين الأوتار والأعصاب ، ووضعوا بصورة عامة أسس علم التشريح .

العلوم التطبيقية ودراسة الآلات

كانت البكرة المركبة معروفة في ايام أرسطو ، وكان ارخميدس (٨) و (٧) في سرقسطة قد اخترع الاسطوانة اللولبية لرفع الماء . لكن قسما كبيرا من التقنية اليونانية تم تطويره في الاسكندرية حيث صمم ستيسيبيوس في حوالي عام ٢٠٠ ق . م . ساعات مائية (٥) ، ومضخة على الضغط . وفي القرن الأول الميلادي ، قام هيرو ، ليس بدراسة الآلات والأجهزة الهوائية وحسب (مع انه لم يستطع ان يستخلص فوائد عملية لاختراعاته) ، بل أدخل تحسينات ايضا على وسائل علم المساحة . ويدل اكتشاف آلة حاسبة يجري تحريكها ميكانيكيا (٨) للحسابات الفلكية ، على أن التقنية التي ظهرت في الاسكندرية كانت ذات تأثير واسع .

قرطاجة واليونان في شمال افريقيا

الى سواحل مصر والشام (فلسطين) ،
وبعضها وصل سواحل تونس والجزائر . لكنهم
لم يتركوا أثرا يذكر . في الفترة نفسها ، كان
الفينيقيون قد انتشروا في حوض البحر
المتوسط كله . وأسسوا عددا متزايدا من
المستوطنات (محطات التجارة) في السواحل
الاغريقية والايطالية كما في جزر المتوسط
والسواحل الافريقية والاسبانية (١) ، تتاجر
بالمصنوعات الزجاجية (٢) والعاجية

بين القرنين الثالث عشر والثامن ق . م ،
عرف العالم القديم انسياحا لعدد من الشعوب
شمل مناطق واسعة منه . ونقل جماعات
متعددة من مواطنها الاصلية الى مواطن
جديدة . كان من ذلك وصول شعوب البحر



(٣) - اشتهر الفينيقيون منذ
القديم بصنع الزجاج والتجارة
به . القارورة (أ) ، من
الزجاج الملون . وهي من
الآلاف الأولى ق . م . أما الصورة
(ب) ، فهي حلقة من حلقات
الأذن صنعت من الزجاج على
شكل قناع وترجع الى القرن
الثاني ق . م .

(٢) - أوعية فخارية يونانية
(قرطاجية) الصنع تعود الى
القرن الثامن قبل الميلاد . وهي
من أقدم ما عثر عليه من هذه
الصناعة في قرطاجة . أولها
(أ) عليه طوق من الذهب
ويظهر فيه التأثير المصري . أما
الثاني (ب) فمن الفخار
الملون مع غطاء مسنن .

الفينيقيين ان يحاذوا الشواطئ
الافريقية لضمان التزود
بحاجاتهم منها وتوفير الراحة
للبحارين واللجوء الى المرافئ
الآمنة في حال قيام الزوابع
والأعاصير البحرية .
فالمستوطنات هذه كانت
محطات تجارية للسفن التي
تقصد اسبانيا بالدرجة الأولى .

(١) - إمبراطورية قرطاجة في
القرن ٦ ق . م . واسعة . كان
الفينيقيون يحصلون من ترشيش
(ترشوس) في ايبيريا على
الفضة والنحاس والرصاص
والقصدير . ومن أجل ذلك
أنشأوا ، منذ القرن الحادي عشر
ق . م ، أول مستوطنة لهم في
قابس . أما الوصول الى الاسواق
الاسبانية ، فقد اقتضى من

الاسباني (مثل قرطاجنة) وفي غرب
صقلية وسردينيا ، ناقلين الى كل مكان مع
البضائع (٣) حضارتهم وعقائدهم (٤) .

قرطاجة

رأس هذه الامبراطورية التجارية كانت
قرطاجة (قرت حدرش = القرية الحديثة)
التي أسست سنة ٨١٣ ق . م . تروي
الحكايات عن سبب هجرة أليزار ملكة صور

والاقمشة والحلي والمواد الغذائية والذهب
والفضة والجلود والاصبغة . من هذه
المستوطنات : لبيتوس (لبدة) على الساحل
الليبي وأوبا (طرابلس) وصبراتة وحضرموت
(سوسة) وهبو (عنابة) وروسدير (مليلة)
ثم لكسوس (قرب العرائش الحالية) في
المغرب . وتبع القرطاجيون شواطئ
الأطلسي حتى انجلترا ، وجنوبا حول
افريقيا ، بالاضافة الى مدنها على الساحل



١٤



ملاحه الاغريقية ناجمة من ان
القرطاجيين كانوا يستخدمون
الفنانين الأجانب لحاجاتهم
الفنية . أما الصورة (ب)
فهي قطعة من الحلي
الذهبية . وكان للحلي دور
أساسي في التجارة
الفينيقية . وجد منها الكثير
في القبور . بعضها ذهبي
وبعض من العاج أو الزجاج .
على هذه الحلية رسم زجاجة
من حولها بكل جانب أفعى
ولعلها حرز سحري .

(٤) - المعبود بعل حمون كان
مرهوبا أكثر مما كان محبوبا
لدى القرطاجيين . كثرة
المعابد (بيت ال = بيت الله)
دليل على عمق التدين
الفينيقي . وهو يعكس أهوال
المخاطر التي يتعرضون
لها . هذا التمثال (أ) الموجود
في متحف باردو في تونس
والعائد للقرن الأول الميلادي
يدل على أن العبادات
القرطاجية استمرت قائمة
طويلا بعد انهيار قرطاجة .



التي أسستها وعن طريقة تأسيسها . نقل إليها
الفينيقيون حضارتهم ، وسرعان ما أصبحت
مدينة - دولة افريقية ، وصارت ام
المستعمرات الأخرى في حوض المتوسط
الغربي . ومركزها التنظيمي والدفاع
والاقتصادي . يبدو ايضا انها ، عن طريق
دولة الجرمنت وعاصمتهم جرما عند مشارف
الصحراء وحمادة مرزوق ، كانت تمت تجارتها
الى اعماق افريقيا . لكن نشاطها الاساسي

كان يعتمد على اسطولها البحري القوي وعلى
علاقاتها بالمستعمرات الاخرى . لم تكن
تطلب منها مقابل الحماية الا الاشراف على
تجارتها الخارجية وتقديم الجند والمال
والاغذية عند الحروب .

قرطاجة كانت أرستقراطية النظم . في
أواخر عهدها تشكلت فيها طبقة شعبية لم تعد
الحكومة قادرة على السيطرة عليها . وكان
الجيش من المرتزقة . فاضطربت أمورها في

لهذا أضحت من أهم المناطق
الأثرية في ليبيا بما فيها من
أسوار ومقابر صخرية وحمامات
ومسرح . وصفها بندار الشاعر
الاغريقي بانها مدينة « أقيمت
على عرش من ذهب » . وكانت
أشهر مدينة في اتحاد المدن
الخمسة في برقة « بنتابوليس » .
بلغت مدنها الأوج سنة ٤٠٠
ق . م . صارت تابعة للبطالمة
وبعدهم للرومان . ابتداء عصر
انحطاطها في القرن الثالث
الميلادي بعد أن دمرتها الزلازل .



(٦) - حكمت مدينة قورينة
منذ استوطنها اليونانيون أسرة
باتوس الاغريقية (٦٣٠ - ٤٤٠
ق . م) . توالى منها ثمانية
ملوك . أربعة باسم باتوس
وأربعة من ابنائهم باسم
اركيسيلوس . على هذا الكوب
الفخاري نرى رسم اركيسيلوس
الثاني (٥٥٤ - ٥٤٤) الذي لقي
الاغريق في عهده الهزيمة على
يد قوات برقة ، وهو هنا يشرف
بنفسه على وزن نبات السلفيوم
تمهيدا لتصديره . كان هذا
النبات من احتكار الحكومة
وتجارتها الهامة قبل أن
ينقرض .

معبد زفس وغربي فيه الأغورا
والمباني الحكومية ومباني
السكن . كانت في القرن الرابع
ق . م ثاني مدينة يونانية بعد
أثينا . بين فلاستها وشعرائها
كليماخوس وكارتسيادس
وارستيوس . ومنها جاء
اراثوسيتز العالم الاسكندري .
كانت قورينة أيضا مدينة
زفس . إذ ان هيكله كان من
أجمل ما بني تكريما له . عنى
الرومان بعد ذلك بالمدينة .

(٥) - المدن
اليونانية الرئيسية
التي انشئت في برقة
بدءا من القرن
السابع ق . م .
ازدهرت فيما بعد
تجاريا وحضاريا
وثقافيا . في مقدمتها
مدينة قورينة
(شحات اليوم)
التي بنيت على
تلين شرقي عليه



القرن الذي سبق سقوطها . من جهة أخرى ، لم يكن من السهل على قرطاجة قيادة تلك الامبراطورية البحرية سبعة قرون دون أعنف الصراع أحيانا كثيرة مع القوى المنافسة او النامية على شواطئ المتوسط .

الاغريق في شمال افريقيا

القوة المنافسة الاولى كانت جماعات الاغريق . فقد أصاب اليونان تفجر سكاني في القرن الثامن ق . م . كان من نتيجته خروج اعداد كبيرة من سكان تلك البلاد لانشاء مستعمرات يونانية في حوض البحر الاسود وفي شواطئ المتوسط . بلغ هذا التوسع ذروته بين سنتي ٧٥٠ - ٥٥٠ ق . م .

لحق الاغريق بالفينيقيين في معظم الشواطئ . اختاروا ، في الشمال الافريقي ، السواحل المواجهة لبلادهم . انشأوا مدينة نوقراطيس غربي دلتا النيل سنة ٦٤٠ ، ثم انشأوا مدينة قوريني (شحات) سنة ٦٣٠ التي رويت في سبب بنائها الاساطير (٥) . لكن السبب الحقيقي لبنائها انما كان ضغط الجوع على الجزر اليونانية الاصلية ، والتكاثر البشري . انتقل سكان قوريني من الشاطئ الى اطراف هضبة برقة الخصبة (الجبل الاخضر) . ويبدو انهم أهلوا بلدة برقة القديمة هناك ، وان كان الاغريق يزعمون انهم أسسوها . لم تكن التجارة عملهم الاساسي ، لكن الزراعة وتربية الماشية والخيول . استثمروا بخاصة نبات السلفيوم (٦) الذي احتكرته الحكومة ، وكان يستخدم للعقار ولاستخراج العطر . بعد ذلك بقليل أسست مدينة يوسبيروس (بني غازي) التي كانت ترتبط سياسيا ببرقة .

صراع قرطاجة والاغريق

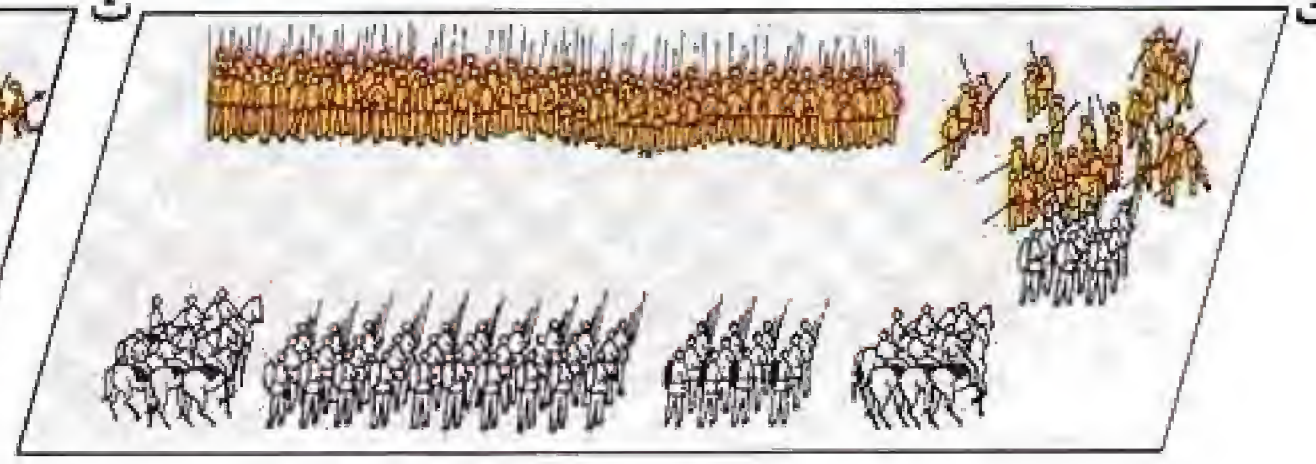
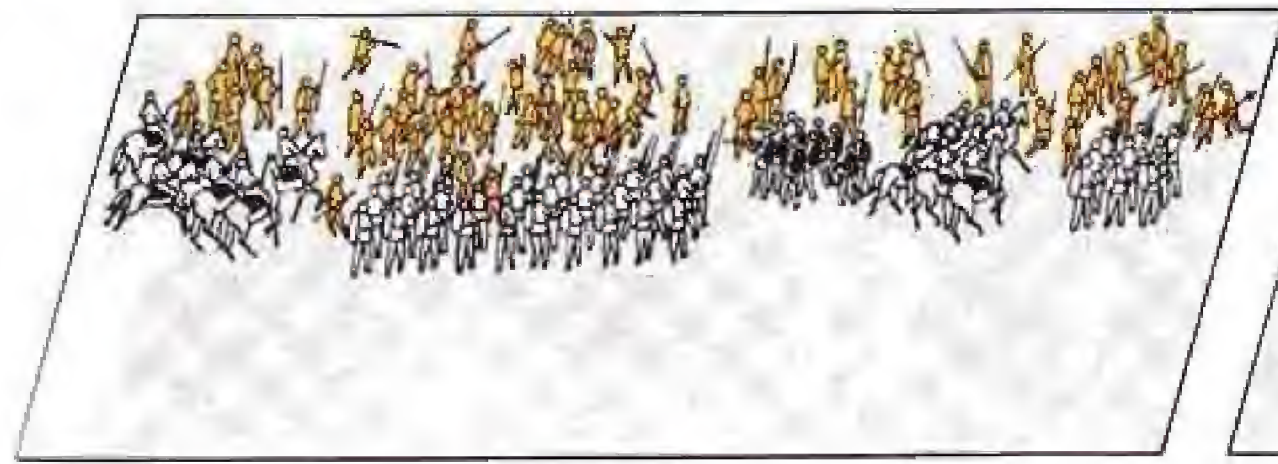
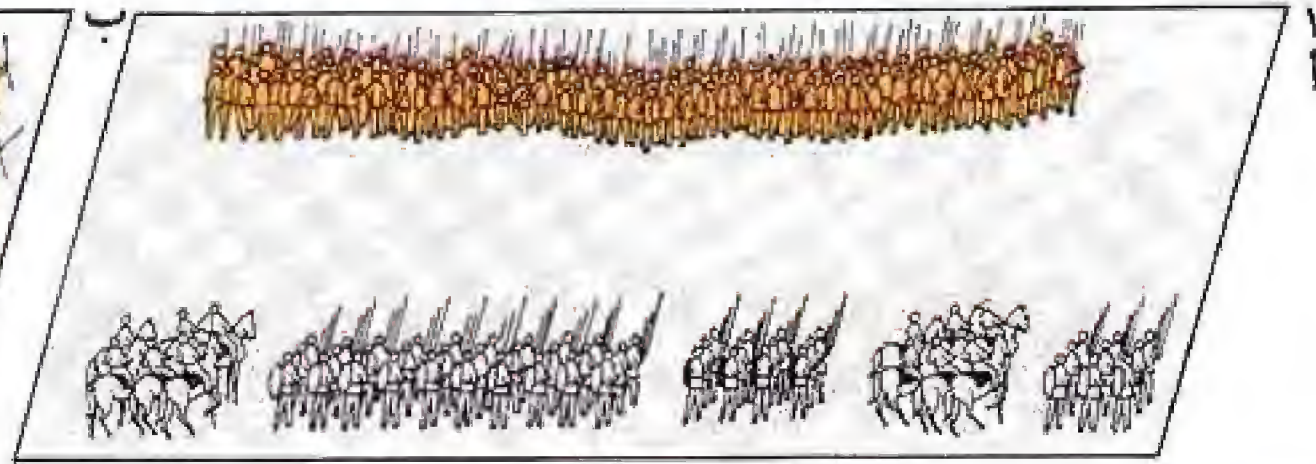
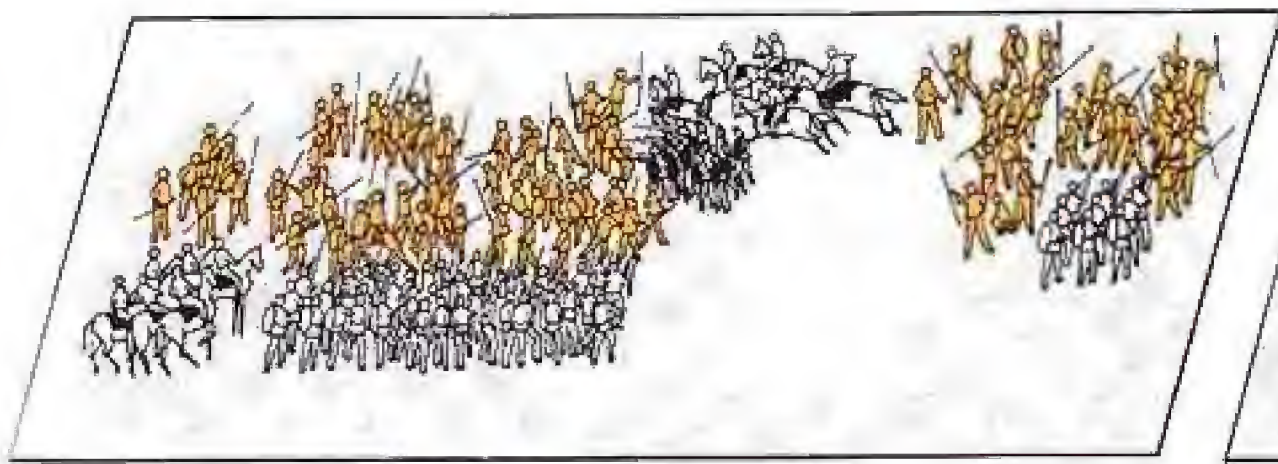
الانتشار الاغريقي شمل خاصة برقة وصقلية . لم يشكل ، أول الأمر ، خطرا على قرطاجة لأنه كان زراعيا ، ولكن الاغريق سرعان ما تعلموا التجارة البحرية . وتعلموا القرصنة أيضا . وحين تحولت بعض مستعمراتهم قوى سياسية عسكرية كان الصراع مع قرطاجة محتوما . بدأ منذ أواخر القرن السادس زحاما على التوسع ، كما جرى في المستعمرة التي أنشأها الاغريق قرب بلدة القرطاجية . فأسرعت قرطاجة لتدميرها . بعد فترة قام نوع من اقتسام النفوذ والتعايش بين الطرفين . انصرفت قرطاجة فقط الى مكافحة القراصنة الاغريق في الحوض الغربي للمتوسط وطردتهم . لكنها هزمت سنة ٤٨٠ ق . م . فاكتفت بتركيز نشاطها على السواحل الافريقية وجنوب اسبانيا . عاد الصراع مع الاغريق ومستعمراتهم في برقة وصقلية منذ أواخر القرن الخامس ق . م . واستمر في القرن الرابع . لكن دواعي التجارة كانت تنحصر على دواعي الحرب ، ويتبعها ازدهار المبادلات . في الوقت نفسه أعجبت قرطاجة الكثير من اليونانيين فاستقروا فيها . وكان للقرطاجيين علاقات وثيقة مع اليونان . لكن تأثر قرطاجة بالحضارة الهلينية كان ضئيلا وجاء متأخرا . ولم يظهر الا في المصنوعات والبناء . أما الفكر اليوناني من فلسفة وعلم ، فلم يصل قرطاجة الا بشكل محدود وعن طريق مصر البطلمية .

يبقى أن الوجود الاغريقي في شمال افريقيا اندثر . واندمجت بقاياها مع الغزو الروماني . بينما بقي أثر قرطاجة الثقافي طويلا بعد زوالها سنة ١٤٦ ق . م .

الاسكندر المقدوني

والسادسة عشرة واعتلى العرش المقدوني عام ٣٣٦ ق . م . بعد حادث اغتيال أبيه . وكان فيليب قد قاد فرقة فرسانه ، قبل ذلك بسنتين ، في معركة خايرونيا ، التي وضعت حدا نهائيا لآمال أثينا باستعادة زعامتها على بلاد اليونان وأعطت السيادة لاولئك اليونانيين الحدوديين : المقدونيين . كذلك سجلت هذه المعركة انتصار الجندي على الخطيب ، اذ كان ديموستينوس الخطيب

ولد الاسكندر ، وهو ابن فيليب المقدوني واولمبيا اميرة إيبيروس ، في بيلا في مقدونيا عام ٣٥٦ ق . م . وتوفي في بابل عام ٣٢٣ ق . م . تتلمذ الاسكندر (٢) على يد ارسطوطاليس الفيلسوف بين سن الثالثة عشرة



(١) - جعل الاسكندر الكتيبة محور نظامه للمعركة (أ) . كان القتال يبدأ من أقصى اليمين (ب) . وفي اللحظة المناسبة ، كان الاسكندر يقود اعوانه ، تدعمهم فرقة الفرسان الخاصة ، في هجوم يخترق الثغرة في صفوف العدو (ت) . وعندما كانت تتداعى صفوف العدو ، كان يوجه اعوانه نحو الجناح لتخفيف الضغط عن يسار جيشه ووسطه . وعندما كان العدو يأخذ في التراجع ، كان الاسكندر يستغل تفوقه بكل قوة (ث) .

(٢) - يظهر الاسكندر على قطعة النقد هذه مرتديا غطاء الرأس المزين بقرني كبش . (٣) - يفسر الامتداد الواسع لحملات الاسكندر ، اثناء ١٤ سنة ، انهيار امبراطوريته السريع اثر وفاته . لم يكن ثمة توطيد للسلطة ، كما ان المسافات الشاسعة حالت دون الاندماج الحقيقي .

(٤) - تُروى اسطورة الاسكندر في عدة لغات . بدءا من الانجليزية المتوسطة الى لغات ماليزيا ، في شتى انحاء بلدان

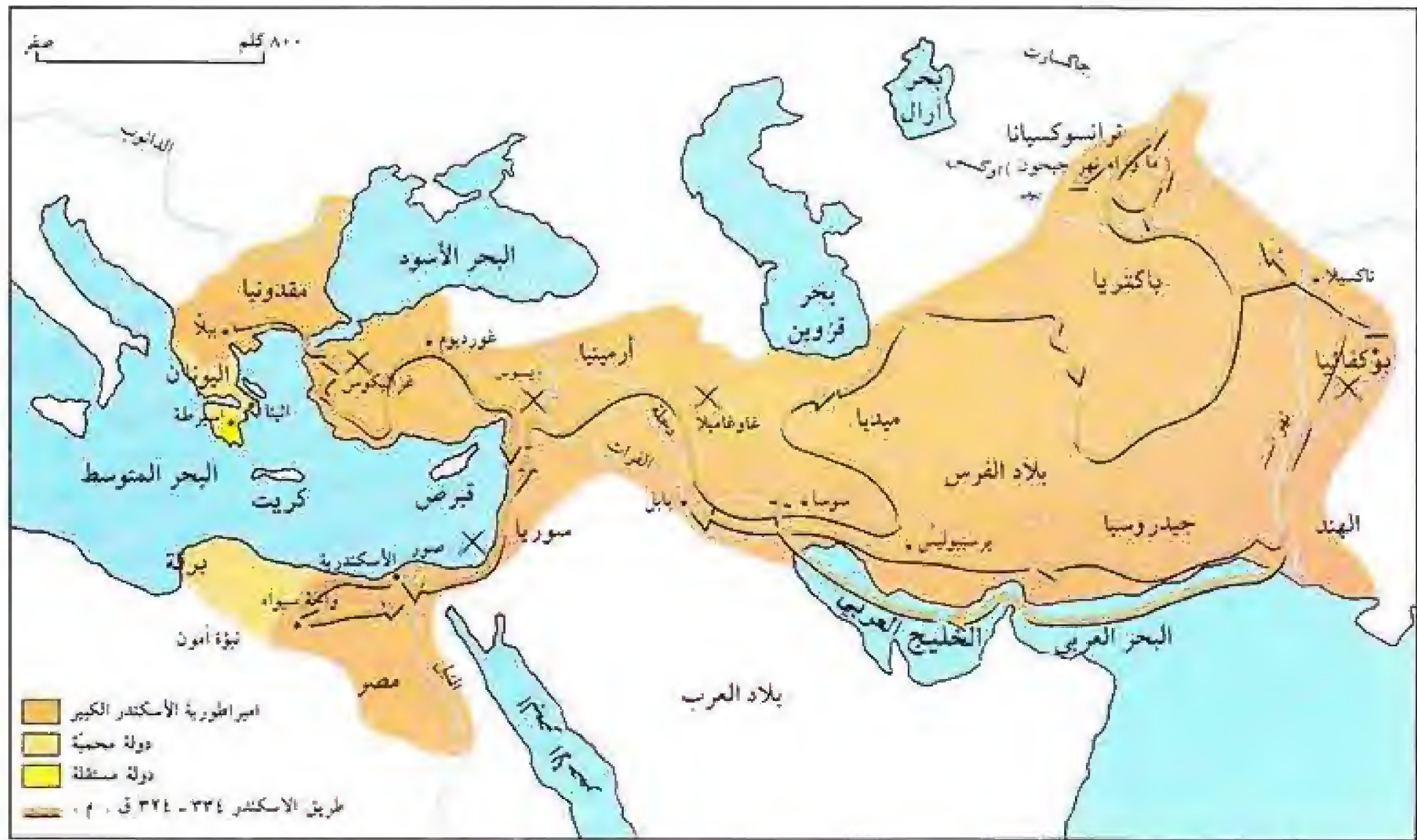
اليوناني (٣٨٣ - ٣٢٢ ق . م) اكثر مهاجمي
المقدونيين وملكهم عنفا .

جميع لغات اوروبا . بالاضافة الى عدد من
لغات آسيا .

بعد اعتلاء الاسكندر العرش ، زحف
جنوبا على اليونان ، وفرض سلطة مقدونيا
عليها ، وحمل التحالف اليوناني على انتخابه
قائدا لحملة اسيوية ، كان ابوه قد خطط لها ،
ثم اعلنه كاهن معبد دلفي قائدا لا يقهر .
وفي عام ٣٣٥ ق . م . اتجه نحو الدانوب
ليحمي تخوم مقدونيا الشمالية . ولدى انتشار

حماية تخوم مقدونيا

في غضون الثلاث عشرة سنة التالية ،
قُبِضَ للاسكندر أن يشيد اعظم امبراطورية
عرفها العالم القديم (٤) ، وكانت تمتد من
حدود ليبيا حتى البنجاب . انبثقت عن
انتصارات الاسكندر قصص واساطير في



اوروبا والشرق الاوسط والهند .
صوّرت هذه الاساطير بعدة
اشكال ، كملك بورجونى ،
وفارس ارمنى ، وامير فارسي ،
(أمر أحد السلاطين في القرن
الخامس عشر برسم ملامحه
على غرار ملامح الاسكندر) .
في هذا الرسم الفارسي (١٥٩٥ -
١٥٩٦) يطلب اليه بعضهم
بأن يُبقي على المعبودات
الوثنية .

كان أبوه قد أعد له . وكان أيضا بحاجة
الى اموال بلاد فارس ليسدّد ديون والده
للجيش المقدوني .

الانتصار على داريوس

عبر الاسكندر الهليسيونت (البوسفور)
عام ٣٣٤ ق . م على رأس ٣٠٠٠٠ من المشاة
و ٥٠٠٠ فارس ، وفرقة من الاختصاصيين . زار
طروادة وخاض بالقرب من نهر جرانيكوس

شائعات عن مقتله . اندلعت ثورة في اليونان ،
بدعم من زعماء اثينيين ، فزحف الاسكندر
جنوبا ، قاطعا مسافة ٣٨٦ كلم في اسبوعين .
ولما استمرت الفتنة ، دخل طيبة وقتل ٦٠٠٠
شخص وسبى من تبقى من أهلها . ولم يترك
فيها بناء قائما سوى الهياكل ، ومنزل بNDAR ،
(٥٢٢ ؟ - ٤٤٠ ق . م) وهو واحد من اعظم
الشعراء اليونانيين . ولما اطمأن الى سلامة
قاعدته على ارض اليونان ، تاهب للحملة التي



رقعة امبراطوريته الى حد
كبير . تأثر أسلوبه الحربي
تأثرا كبيرا بخوف الحصان
الطبيعي من الفيل . بعد
المعركة أصبح الحاكم الهندي
المهزوم بورس حليفا له . واثناء
تلك المعركة ، مات حصان
الاسكندر الشهير بوسيفالوس ،
فأقيم له مأتم امبراطوري
كامل .

هذه ، من اعظم انتصارات
الاسكندر ، التي خطط لها
وأنجزها بمهارة ، وقد وسعت

(٦) - كانت معركة هيباسبس
(جهلوم) في البنجاب ، التي
تظهر هنا على قطعة النقد



(٥) - هذه الفسيفساء التي
وجدت في بومبيي (ايطاليا)
والمأخوذة عن رسم
لفيلوكسينوس ، تمثل الاسكندر
يقود جنده ضد الفرس بقيادة
دارا في معركة ايسوس عام ٣٣٣
ق . م . فرّ دارا تاركا للمقدونيين
ملكته وعائلته ، فضلا عن ثروة
طائلة .

وبعد ان هزم الأمير الهندي بورس . رفض رجال الاسكندر التقدم أكثر من ذلك (٣) .

العودة من الشرق

لدى عودة الاسكندر الى سوسا ، وجد فيها حالة من الفساد والاضطهاد فأقدم على حملة عقاب لا هوادة فيها ، ثم خطط لتوطين اليونانيين والمقدونيين في آسيا والاسيويين في اوروبا ، كجزء من خطته لصهر القارتين في بوتقة واحدة . كذلك قام بتنفيذ مشروع كان أشد الحاحا في نظره ، هو زواجه وزواج هيغايستيون (وهو أعز صديق له) من ابنتي دارا ، فيما احتفل في الوقت نفسه بزواج ثمانين ضابطا مقدونيا من بنات نبلاء الفرس .

كان قد جرى تدريب الجنود الاسيويين على الاساليب العسكرية المقدونية (١) ، وسمح لبعضهم بالانضمام الى الجيش ، ول بعضهم الآخر بالالتحاق بالخيالة وعُيِّن ضباط من الفرس في سلاح الحرس الملكي . في عام ٣٢٤ ق . م ، أعلن الجنود المقدونيون العشرة آلاف العصيان ، وكانوا قد استأثروا من السياسة العسكرية الجديدة ، فلم يكن من الاسكندر الا ان أمر بقتل ثلاثة عشر من قادتهم في الحال ، ثم عين المزيد من الفرس والميديين في مراكز مقدونية .

وضعت الخطط آنذاك لحملة على بلاد العرب ، لكن الاسكندر أصيب بالحمى ، وفي ١٣ يونيو عام ٣٢٣ ق . م ، قضى نحبه ولم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر . بدأت امبراطوريته بالتفكك في الحال تقريبا ، وأخذ القادة الاقليميون يطلقون على أنفسهم القاب الملوك .

معركة فتحت آسيا الصغرى أمام قواته ، في زحفها نحو الجنوب . ثم هزم دارا ، ملك الفرس (الذي فر تاركاً عائلته وراءه) عند ايسوس (٥) عام ٣٣٣ ق . م ، وواصل زحفه حتى مدينة صور التي صدته اول الأمر ، لكنها سقطت في يوليو عام ٣٣٢ ق . م .

بعد تدمير صور ، توجه الاسكندر نحو مصر ، حيث أسس مدينة الاسكندرية . ولدى زيارته لمعبد امون في واحة سيوه ، استقبل استقبال الفرعون ، ابن امون ، وهو الحدث الذي كان باعث روايات حول أصله الالهي . في عام ٣٣١ ق . م ، زحف شرقا نحو الفرات ، وخاض معركة اخرى في جوجاملا ، ولكن دارا تمكن من الفرار ثانية ، فقبل الاسكندر استسلام بابل وسوسا مع ثرواتها . وفي عام ٣٣٠ ق . م ، احتل عاصمة فارس ، بيرسيبوليس . عند ذاك اعاد التيساليين واليونانيين الى بلادهم ، بعد ان قرر على ما يظهر اقامة امبراطورية فارسية مقدونية . وفيما كان يزحف شرقا ، اغتيل دارا .

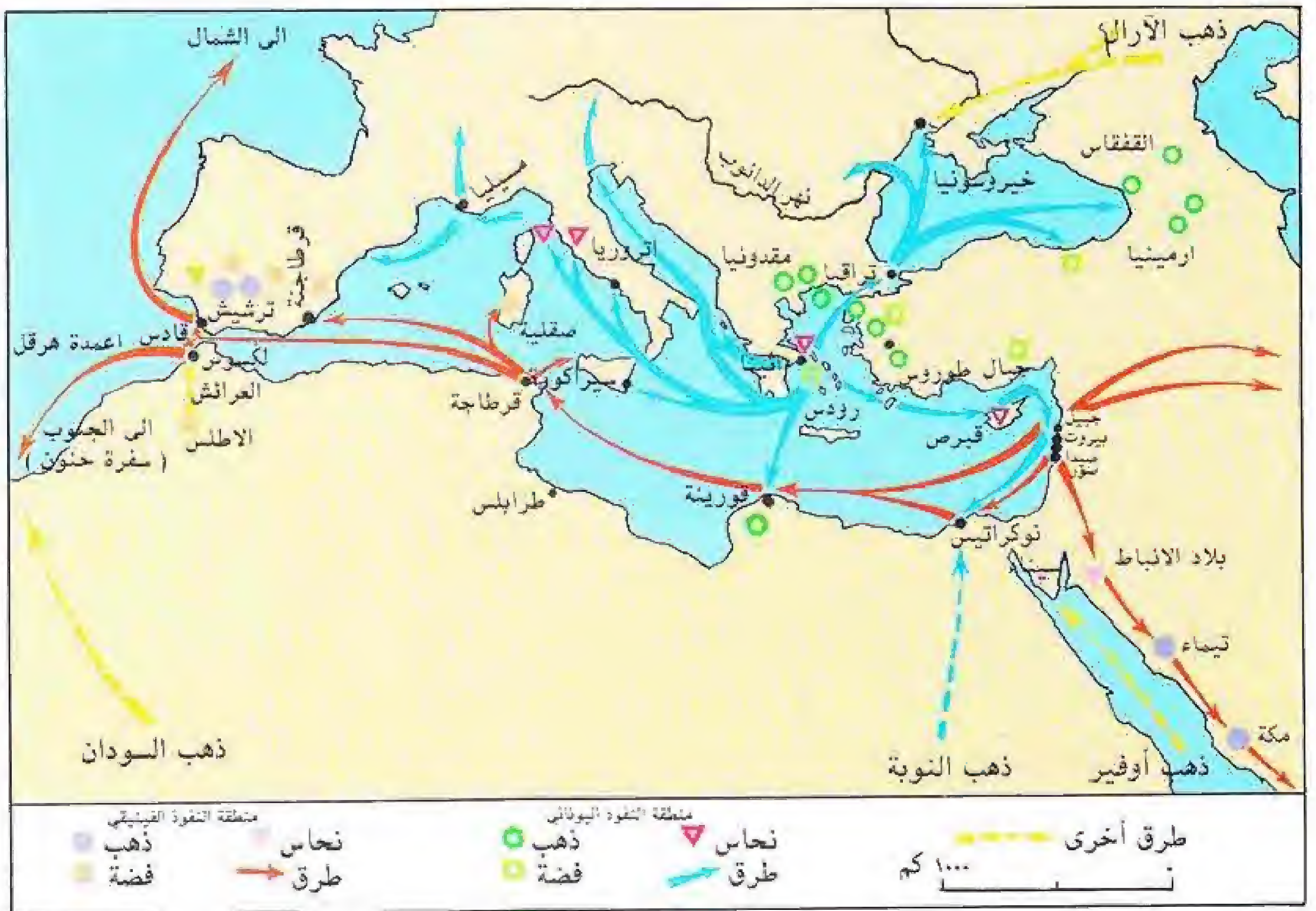
في أعقاب ذلك ، زحف الاسكندر على افغانستان وبلاد ما وراء النهر ، ليطارد قائدا تمرد عليه ، ومن ثم الى سمرقند ، والاسكندرية القصوى (وتعرف اليوم باسم لينيناباد) . تواصلت الفتن حتى عام ٣٢٨ ق . م ، وهي السنة التي تزوج الاسكندر فيها روكسانا ابنة ملك باكتريا ، وكان ذلك الزواج رمزا لوحدة الشرق والغرب .

في عام ٣٢٧ ق . م ، قاد جيشه نحو الهند ، فزحف فريق منه عبر ممر خيبر ، بينما تقدم الفريق الآخر الذي كان يقوده بنفسه نحو سوات . خاض الاسكندر آخر معاركه عند هيداسبس (جهلوم) (٦) ،

خلفاء الاسكندر^(١) البطالمة

كما ان مشاريعه كانت أضخم بكثير من طموح أي قائد من قواده . لهذا عاد الانسياح الاغريقي الواسع على العالم القديم فتحول ، بعد الاسكندر ، الى زحام بين قادته على حكم الامبراطورية . ابنه الطفل الذي ولد بعد موته لم يكن له من قيمة امام اطماع خلفائه الذين استمرت حروبهم ونزاعاتهم نحو من اربعين سنة (٣٢٣ - ٢٨١) ظهر خلالها جيل جديد من القواد - وكان بعضهم من

حين توفي الاسكندر المقدوني فجأة بالمalaria سنة ٣٢٣ ق . م ، كان الفراغ الذي تركه أكبر من أن يملأه واحد من قواده . كذلك كانت الامبراطورية التي فتحها بشكل خاطف أوسع من أن يحكمها شخص واحد .



أماكن وجود المعادن والأسهم تشير الى اتجاه الطرق التجارية التي توزعها في العالم القديم (البحر المتوسط) .

(٢) - الجواهر واللؤلؤ كانت تأتي مصر من الهند وبلاد العرب . كما كانت مصر تنتج

كانت تفوق وارداتهم من الخشب والمعادن والصوف والتوابل والشراب بشكل كبير . كانت لهم دوما عملتهم الذهبية ، الخارطة توضح طرق انتشار وتوزيع ذهب النوبة في العصور القديمة أيام البطالمة والرومان . البقع المنقطعة تبين

المملكة المقدونية أن تصدر أي عملة ذهبية بعد الاسكندر . استطاع البطالمة عن طريق التوغل في النوبة أن يقنعوا على مناجم الذهب فيها . هذا الذهب مع البردي والزجاج والكتان وقمح مصر كانت السبب في ثروتهم الطائلة . لأن صادراتهم

(١) - قبل عصر الاسكندر كانت موارد الحوض الشرقي للبحر المتوسط من المعادن وخاصة الذهب قد استنفذت فيما عدا الحديد والنحاس والفضة . حتى الذهب الذي كان يأتي من سيبيريا ومن الهند توقف . لهذا لم تستطع

اولاد قادة الاسكندر - كما ظهرت التمردات الاقليمية . ومات حلم القواد الاوائل في الابقاء على وحدة الامبراطورية الاولى التي انقسمت في نهاية الفوضى والقتال ثلاثة أقسام : المملكة المقدونية ، والمملكة السلوقية ، والمملكة البطلمية .

البطالمة

كانت مصر هي حصة القائد بطليموس .

أحد حرس الاسكندر الخاص السبعة . كان من الذكاء العملي بحيث اكتفى في التسوية التي أعقبت الوفاة بأن يظفر لنفسه بولاية مصر وبأن ينقل معه رفات الاسكندر اليها . استمر بعد ذلك يحكم مصر ٤١ سنة (٣٢٣ - ٢٨٣) . منحه أهل رودس لقب سوتير (المنقذ) ، ثم تسمى ملكا منذ سنة ٣٠٥ حين اتخذ زملاؤه القواد الآخرون هذا اللقب (٣) . وهكذا ظهرت معا ممالك مقدونيا والسلوقيين



٤



٣



٢

أصغر منها وما لبث حرسها أن أقصاه . كان زواج الأخوة مقبولا لدى البطالمة ، فكثيرات من الملكات هن في الأصل أخوة أو بنات أخوة الملوك . كانت كليوباترا ذات ثقافة واسعة وإرادة قوية وطموح حاولت معه حكم الامبراطورية الرومانية نفسها من خلال يوليوس قيصر ثم انطونيوس اللذين اوقعتهما في شباكها . الدعاية الرومانية شوهدت صورتها . مع انها كانت الوحيدة بعد الاسكندر المقدوني التي كانت تحلم بوحدة الجنس البشري ، ولكن تحت حكمها . التمثال في الصورة هو روماني الصنع لسيدة يظن انها كليوباترا ، وهو موجود في المتحف البريطاني .

(٣) - رأس تمثال بطليموس الأول . خليفة الاسكندر في مصر (حكم ٣٢٣ - ٢٨٣ ق . م) . التمثال يعود الى سنة ٢٨٠ ق . م . أي انه صنع في عهد مؤسس الأسرة البطلمية التي حكمت مصر بين ٣٢٣ ق . م . و ٣٠ ق . م . التمثال في متحف كوبنهاغن بالدنمرك .

(٤) - كليوباترا أسم أضحي مشهورا في التاريخ ولدى الناس لما امتزج فيه من الجمال والحب والسياسة . تسمت بهذا الاسم سبعة من ملكات مصر . أما المشهورة فهي الأخيرة ، السابعة ابنة بطليموس ١١ . ولدت سنة ٦٩ ق . م . تولت الحكم سنة ٥١ مع أخيها وزوجها بطليموس الثاني عشر وهو

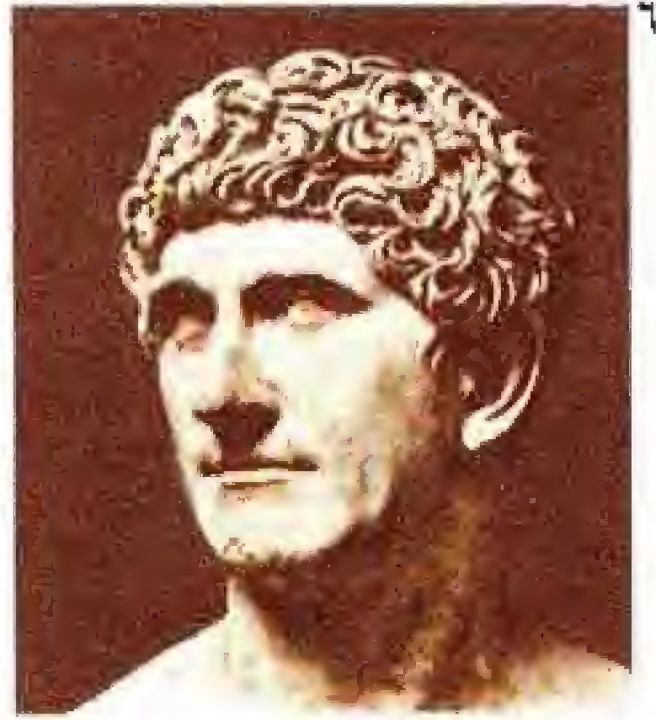
كمركز عظيم لفن الصياغة . ومن ذلك ميدالية الصدر هذه التي يظهر فيها نقش بارز على حجر من الجزع (العقيق اليماني) لأحد ملوك البطالمة مع زوجته ضمن إطار من الذهب . هذه المصوغة الأثرية محفوظة في متحف فيينا .

الجمشيت وتحصل على الياقوت الأصفر من البحر الأحمر والزمرد من تلميس في اثيوبيا . لم يكن اللؤلؤ معروفا فيها قبل عصر الاسكندر والبطالمة . كما كان الماس مجهولا . ازدهر فن النقش على الجواهر في الاسكندرية التي ذاعت شهرتها

والبطالمة التي اقتسمت العالم الهلينستي والتي استمرت حتى اندمجت في الامبراطورية الرومانية في القرن الأول ق . م .

توالى على العرش البطلمي مجموعة من الملوك تسمى كل منهم باسم بطليموس من الاول حتى الخامس عشر (٥) . غير انهم كانوا احيانا يحكمون بالاشتراك مع زوجاتهم او اخواتهم او ابنائهم . من هؤلاء المشتركين سبع من الملكات يحملن اسم كليوباترا

(٤) . وكانت الأخيرة منهن السابعة هي المشهورة التي عاصرت الفتح الروماني لمصر . امتدت امبراطورية البطالمة (١) الى برقة وقبرص وجنوب سوريا وشرط من ساحلها أحيانا ، كما كان من ممتلكاتها ايضا بعض المدن الاغريقية وبعض السواحل في آسيا الصغرى وبعض جزر بحر ايجة ، بالإضافة الى اراضي مصر حتى النوبة . كانت الاسكندرية هي العاصمة ، وكان



(٥) - أرسنوي ، شقيقة بطليموس الثاني وقرينته ، ابنة بطليموس الأول (الملقب بالمخلص) . يصفها نقش هيرودولفي بهذه العبارة : « الابنة الحققة والأخت الحققة والزوجة الحققة ، سيّدة المصريين أرسنوي ... فيلوفوس (المحبة لأخيها) (الفاتيكان) .

(٦) - مارك أنطونيوس ٨٣ - ٣٠ ق . م . كان يحكم النصف الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، بينما كان أوكتافيوس يحكم القسم الغربي بعد مقتل قيصر . وقع تحت تأثير كليوباترا والحياة الباذخة في مصر . سقط في معركة اكتيوم سنة ٣١ ق . م .

(٧) - هذا الرأس بلامحه القاسية لكاهن بطلمي ، يدعونه بالرأس الأخضر (اللون حجره الأخضر) . هو واحد من مجموعة التماثيل الشخصية البطلمية التي تميزت بمحاولة الاقتراب من التحت الواقعي بتأثير الفن الاغريقي . (موجود في متحف برلين) .

(٨) - أهم ما حاوله البطالمة لمزيد من الاندماج في الحياة المحلية المصرية . هو أن يكونوا في عيون المصريين معبودات كالفرعنة القدامى . بنوا المعابد ورسوموا أنفسهم فيها على الطريقة الفرعونية . في المنحوتة يظهر بطليموس الثالث عشر (بأقصى اليمين) أمام إلهي وحتحور .

الاهالي يميزونها عن البلاد كلها بتسميتها
« المدينة » .

النظام البطلمي

أقام البطالمة في امبراطوريتهم نظاما
اقتصاديا متكاملا ضربوا له العملات الذهبية
والفضية والبرونزية وأنشأوا المصارف في
البلاد . كانت الزراعة بالاضافة الى التجارة
هي مصدر الثروة . الانتاج الرئيسي كان
القمح . هو النيل الآخر في مصر . وكان
يحتكره الملك بطليموس أعظم تاجر قمح
شهده العالم عبر العصور ، كما كان يحتكر
المنتجات الأخرى كالزيت ، والكتان ،
والصوف ، والنسيج المصنوع منهما ، وورق
البردي ، والخمور . الأموال التي كان البطالمة
يجمعونها لم تكن تظهر آثارها الا لدى
الطبقات العليا . وبينما كان السلوقيون
يحاولون رفع مستوى الحضارة في غرب آسيا
كله ، كان البطالمة إنما يزرعون ضيعتهم
ويملاون الخزائن لرفاههم (٢) .

كانت فلسفة البطالمة السياسية تأخذ من
التراث الفرعوني بصورة خاصة لا من التقاليد
الاغريقية . الملك في نظامهم هو الدولة .
هو مصدر القانون ورأس السلطة المطلق والاله
المعبود في الوقت نفسه . وكان رجال
الحكومة لدى البطالمة الأول من الاغريق .
لكن الذين نزلوا مصر منهم كانوا لا ينشؤون
في المدن الجديدة مؤسساتهم المدنية
(مسارح ، حمامات ، سوق ...) . الجند
المرتزقة كانوا يسكنون مع الشعب في مدنه
وقراه . لكن الاغريق كانوا مميزين مع كبار
الكهنة والموظفين المصريين . والشعب طبقة
أدنى وعليه أعمال السخرة . لذا قامت عدة

ثورات كان منها ثورة طيبة سنة ٨٥ ق . م
التي حولت تلك المدينة الى مجموعة من
القرى والأطلال .

سقوط الدولة

سقطت دولة البطالمة في النهاية نتيجة
اصطدامها بقوى الامبراطورية الرومانية التي
طمعت بثروتها وتجارها . جاءت النهاية في
عهد ملكة كانت من أعظم شخصيات التاريخ
البطلمي هي كليوباترا (السابعة) . بصرف
النظر عن الدعاية الرومانية التي اطلقت
ضدها في التاريخ ، فان روما لم تخش في
تاريخها الا عددا محدودا من الاعداء منهم
هانيبال وزنوبيا وكليوباترا . حاولت هذه
الملكة الحفاظ على استقلال مصر ، وضمان
العرش لابنائها بكل وسيلة . استغلت افتتاح
يوليوس قيصر ثم انطونيوس بها . لكن قوة
روما وأطماعها كانت أقوى منها بعد ان سقط
البحر المتوسط كله بيدها . فانهزمت في
معركة اكتيوم سنة ٣١ ق . م ، وانتحرت بينما
كانت مصر تتحول الى ولاية رومانية .

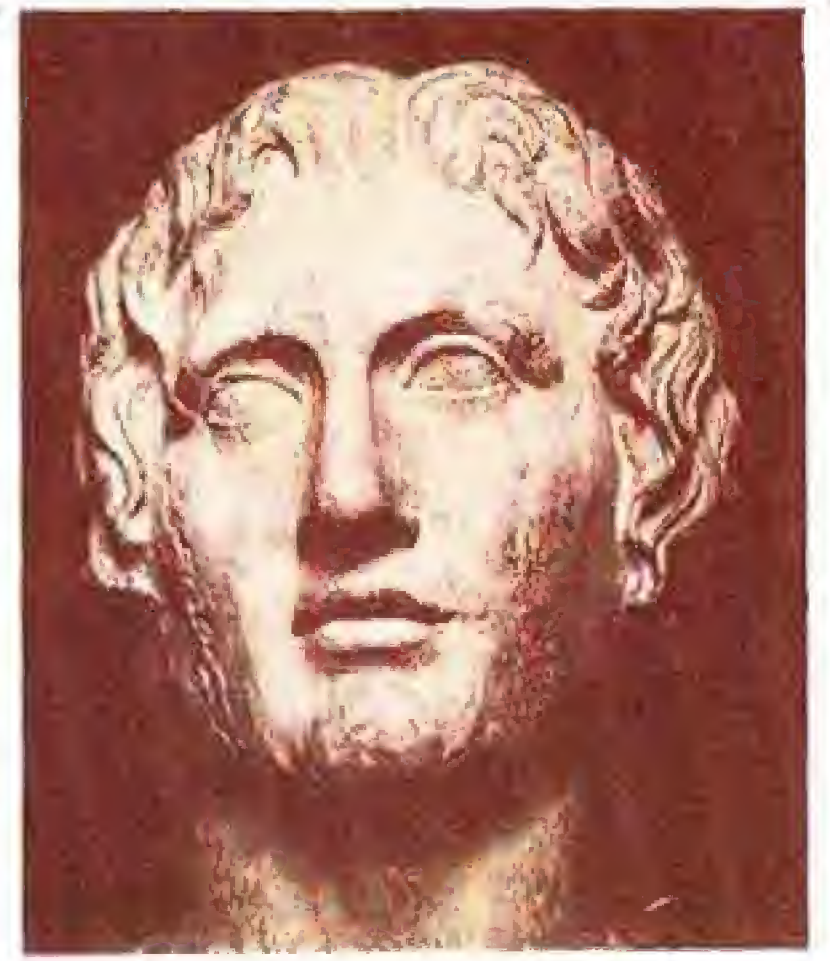
كثيرون يعتبرون العهد البطلمي ، رغم
طابعه الهليني الواضح ، امتدادا لمصر
الفرعونية في الحكم والدين . لكن هذا العهد
تميز بتشجيع البحث العلمي والفلسفي ، وهو
ما ميز الاسكندرية . اتجهت الفلسفة ، في
عهد البطالمة ، الى بحث القيم الخلقية ، وهذا
ما أشاع الفلسفتين الابيقورية والرواقية .
وأسس البطالمة مكتبة الاسكندرية الشهيرة
ومتحفها . فقلدهم زملاؤهم في المناطق
الأخرى مما مهد لظهور نوع من الفكر الموسوعي في
هذا العصر ، ولتقدم الجغرافيا والفلك
 والرياضيات والطب والتشريح حتى الأدب .

خلفاء الاسكندر السلوقيون

لم يرث الاسكندر الاكبر احد من قادته أملاكاً وطموحاً مثل سلوقوس . كانت احلام الاسكندر تتضخم مع توسع الفتوحات على يديه . لدرجة الاصرار على مزج العالم القديم كله بعضه مع بعض ، حتى بالزواج والصلاة

المشتركة . وقد زرع ٢٥ مدينة جديدة للاغريق في أنحاء الامبراطورية كالمسامير ، لربطها من مصر والشام حتى افغانستان والهند . كان قد بقي عليه فقط أن يخضع الجزيرة العربية واليمن ليجمع العالم في يده . حاول ذلك بالفعل . أرسل قائده نيارخوس ليكشف عن الساحل الاسيوي ، من مصب نهر السند حتى مصب النهرين . ثم أرسل ثلاث بعثات بحرية تكتشف السواحل

(١) - ظلت ذكرى الاسكندر وأحلامه العالمية ذات أصداء مترددة عدة قرون ليس لدى خلفائه فقط ولكن في العصر الروماني ايضاً وفي بعض الأجواء الاسلامية . تمثاله (أ) نسخة رومانية عن تمثال صنعه له نحاته الأثير المعاصر له ليسيوس . أما داريوس رمز الشرق المهزوم ، فقد صور وعلى وجهه الألم والمفاجأة دوماً . الصورة (ب) قطعة من فسيفاء وجدت في بومبي تمثل المعركة . (موجودة في متحف نابولي) .



(٢) - جبيل كانت أول مدينة فينيقية تحالف مع الاسكندر سنة ٣٣٢ ق . م . ثم كانت دوماً خلال العهد الهلينستي تضطرب نتيجة حروب البطالمة والسلوقيين . عرفت منطقتها عدداً كبيراً من الأبنية في تلك الفترة واشتدت العناية بمبانيها الذي كان فيه مرفأ . في الصورة المرفأ الصغير .



(٣) - كانت المدن السلوقية جُزراً في بحر من الحضارات والعادات والتقاليد واللغات

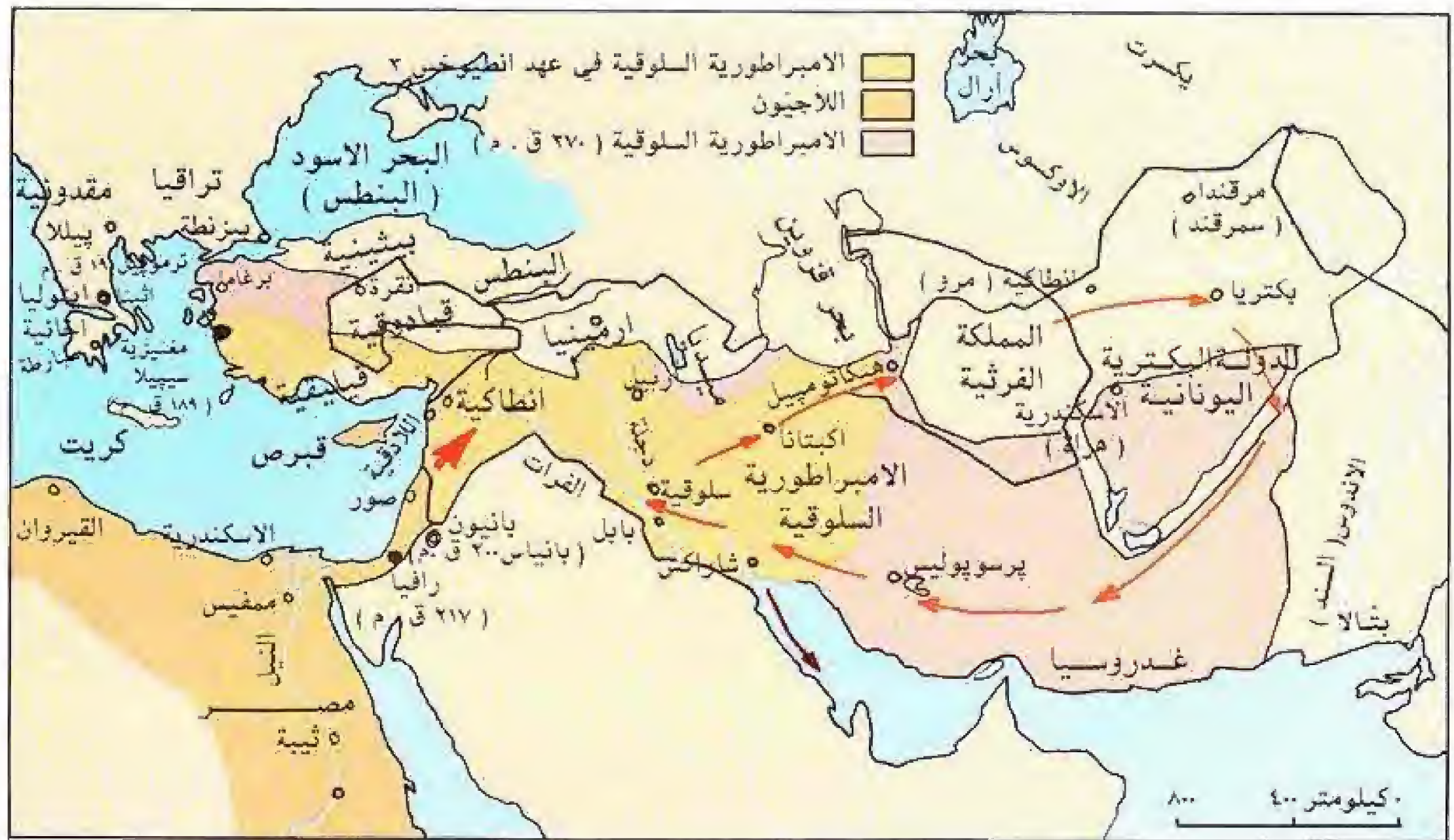
الغربية للخليج العربي حتى ما وراء عمان .
لكنه توفي قبل تحول الاحلام حقيقة .
كثيرون قبله دغدغوا مثل احلامه ، لكن قلائل
هم الذين تركوا اثرا عميقا مستمرا مثل اثره
(١) . سلوقوس كان أكثر خلفاء الاسكندر
ارتباطا باحلام ملكه .

الملقب نيكاتور (المنتصر) حين استولى على
اكبر اجزاء الامبراطورية من حوضي السند
وجيحون الى شواطئ الشام الشمالية (٣) ،
وان فشل في ضم آسيا الصغرى ومقدونيا .
لكن هذه المملكة ما لبثت ان فقدت اجزاءها
الشرقية كلها بالتدريج حتى انتهت دولة
لوريا فقط .

المملكة السلوقية :

برز اسم سلوقوس الأول (٣١٢ - ٢٨٠ ق. م)

حاول انطيوخوس الثالث الكبير (٢٢٣ -
١٨٧) أحد أحفاد سلوقوس أن يعيد المجد



ب

الشرقية . تكلم سكان هذه
المدن اللغة اليونانية ، الا ان
سكان الريف ظلوا يستعملون
الآرامية والفينيقية على العموم .
كان من المدن الرئيسية في
العصر السلوقي في بلاد الشام
أنطاكية العاصمة ، وسلوقية
واللاذقية ، وافامية المعسكر
الرئيسي للدولة السلوقية في
شمال سوريا . وكانت هناك
حلب ومنبج ودورا (الصالحية
على الفرات) وحمص وبلبيك



وفيلادلفيا (عمان) وابلونيا
(قرب نابلس) وعمواس (في
غربي القدس) وطرابلس
وبيلوس (جبيل) وبيروت
وصيدا وصور ويافا وعسقلان
وغزة ورفح . وكان سكان هذه
المدن من قدامى المحاربين
وأولادهم واحفادهم من زمن
الاسكندر . ومن يونانيين
ومقدونيين نقلوا أو شجعوا على
الانتقال الى هذه المدن .

لهذه الدولة . فتوغل بالحروب حتى وادي
السند . واهتم بتجارة الجزيرة العربية يريد
السيطرة عليها فردته الشواطئ الصعبة البعيدة
(٢٠٤ ق . م) ، وحارب البطالمة عشرين سنة
حروبا طويلة ناجحة استعمل فيها الفيلة .
كان موضوع الخصومة الدائم بين السلوقيين
والبطالمة هو السيطرة على جنوب سوريا
(سوريا المجوفة) التي كان الطرفان
يريدانها لاستقرار خطوطهما التجارية .

ولا اتخاذ خطوط دفاع وتهديد ، بالإضافة الى
غناها بالأخشاب والزيت وبعض المعادن .
دارت من أجلها خمس حروب بينهما (٢٧٦ -
٢٠٠ ق . م) وانتهت بسيطرة البطالمة عليها
بعض الوقت . لكن السلوقيين عادوا في عهد
انطيوخوس الرابع (١٧٥ - ١٦٤) فحاربوهم
ودخلوا بلادهم حتى الاسكندرية سنة ١٦٩ ق . م .
في البدء . كانت بابل هي العاصمة . ثم
بنى سلوقوس الأول مدينة انطاكية عاصمة

شعاراتها . حفريات صور الأثرية
كشفت الكثير عن ماضيها
الفينيقي والهليني والروماني . من
ذلك شارع معبد بالفسيفساء
تنتصب على جانبيه أعمدة الرخام
الأبيض المطعم بالأخضر . وفي
طرفه مبنى كبير مربع الشكل
كان محاطا من جهات ثلاث
بأعمدة من الغرانيت . وفي الصورة
بقاياها . على ٣٠ مترا من الشارع
شيد ملعب حجري مدرج من العهد
الروماني . كما انتشرت الحمامات .



(٥) - حافظت سوريا خلال العهد
الهلينستي على تقاليدها الحرفية
التي اشتهرت بها . انطيوخوس
الرابع كان يهرب أحيانا من
حاشيته ليزور أماكن صياغة
الذهب والفضة . وظلت الأقمشة
وخاصة الأرجوانية من بركات
هذه البلاد . وكذلك الزجاج
والخزف . الجمل (أ) هو أناة
للعطور من القرن الثاني قبل
الميلاد . وهو في المتحف الوطني
بدمشق . أما (ب) فهو أناة صنع
على النموذج اليوناني بلون أسود
ورسوم حمراء ويعود الى القرن
الخامس قبل الميلاد . وهو موجود
في المتحف الوطني ببيروت .



ديمترىوس الثاني (١٤٥ - ١٢٥
ق . م) بأن تكون مدينة
مقدسة وبأن تسك نقودها
الخاصة وتذكر عليها ذلك مع

التجارية وطابعها الفينيقي
وأصداً مقاومتها العنيدة
للاسكندر لم تتغير خلال العهد
الهلينستي . سمح لها

(٤) - كانت صور . مع مدن
جنوب سوريا . تنتقل حسب
نتائج الحروب بين أيدي
البطالمة والسلوقيين . سمعتها

للدولة . كانت سياسته نشر الهلينية . لهذا شيد اكثر من ١٦ مدينة مثلها تحمل اسم والده انطيوخوس ، وتسع مدن تحمل اسمه ، وخمسا تحمل اسم امه لاوديسا (منها اللاذقية) وثلاثا باسم زوجته آباما (ومنها آفامية في وسط سوريا على العاصي ، وكانت للجيش والخزينة) . بلغت المدن التي انشأها السلوقيون في سوريا وحدها ٣٦ مدينة . وفي هذا ما يدل على التكاثر السكاني من جهة وعلى كثافة السكن الاغريقي وانفصاله عن السكان الاصليين من جهة ثانية .

النظام السلوقي

كان نظام الحكم الذي طبقه السلوقيون يقوم على الجمع بين اساسين مختلفين : فمن جهة مبدأ الملكية الشرقية القديمة التي تعطي الملك السلطة المطلقة ، ومن جهة اخرى نظام المدينة اليونانية في المدن التي انشأوها . فكان للدولة - المدينة (الاغريقية) مسارحها ومؤسساتها الدستورية واستقلالها الذاتي الذي يرفض التسلط الملكي ، وكانت تسعى لزيادة هذا الاستقلال مستغلة حاجة السلوقيين للمال . وقد صارت منذ عهد انطيوخوس الرابع (١٧٥ - ١٦٣ ق . م) حرة في سياستها وفي سك نقودها ولبعضها حصانتها الخاصة (مثل أرواد وصور (٤) وطرابلس وعسقلان) مما أضعف المملكة وجعلها مجموعة خلايا مفككة ، في الوقت الذي أضحت فيه هذه المدن اشبه بالجزر الحضارية الاغريقية ، ضمن بحر من الحضارة والعادات والتقاليد الشرقية القديمة . الريف خاصة احتفظ بطابعه الحضاري الكامل وصفاته الآرامية (٥) . ومع ان الارض في

عرف الامبراطورية كانت ملكا للدولة (أي للملك) ، فان اراضي المدن والاراضي الموقوفة على الهياكل فيها لم تكن خاضعة له . وبعض الهياكل كان دويلات مستقلة لديها ما يقارب ستة آلاف عبد وجارية مثل هيكل منبج وهيكل حمص . وبينما كان سكان المدن اليونانية يتكلمون الاغريقية ، كان السكان الاصليون والريف يتكلمون الآرامية او الفينيقية . وان ظهر منهم عدد كبير من الشعراء والكتاب والفلاسفة باليونانية .

نهاية السلوقيين

بدأت فترة الضعف السلوقي قبل اواسط القرن الثاني ق . م . في تلك الفترة كان الانباط يستغلون الظروف ليقيموا دولتهم على هامش الدولة جنوب سوريا ، وكانت مجموعات عربية أخرى تتوغل في قلب الاراضي السلوقية وتنشئ دولا محلية (مثل بني الابجر في الرها واليطورين في عنجر وبني شمس الكرام (٩) في حمص) .

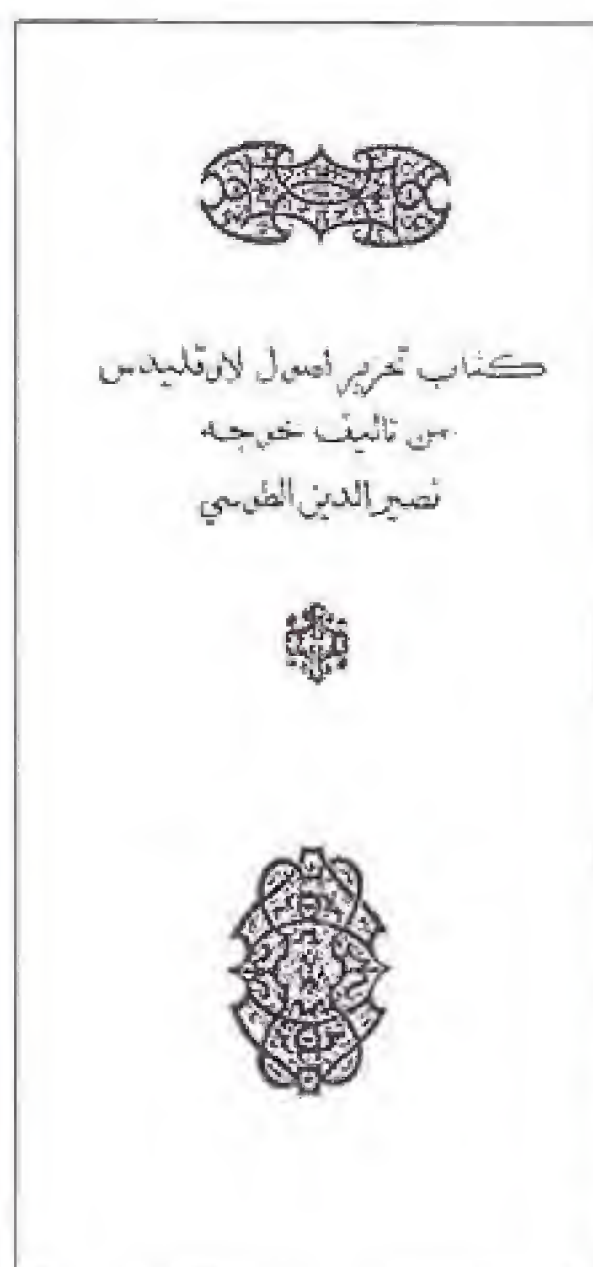
ضعفت الدولة السلوقية بعد توسع الفرس ١٣٠ ق . م على حسابها ثم الأرمن الذين اكتسحوا سوريا ٦٩ ق . م . ثم جاءتها الضربة القاضية على يد القائد الروماني بومبي الذي احتل سوريا سنة ٦٤ ق . م . وجعلها ولاية رومانية . رغم بقاء الهلينة أجنبية في سوريا ، فالتمازج الحضاري ترك أثره الواضح عمرانا وفنونا وفكرا . ظهر من أهل البلاد كثير من رجال الفكر منهم زينون الصيداوي (٣٣٣ - ٢٦١ ق . م) مؤسس المدرسة الرواقية ، ودودوروس الصوري المشاء (أواخر القرن ٢) وبوسيدونوس الأفامي (١٣٥ - ٥١ ق . م) ، وعاصره من الشعراء فيلوديموس ومليغر .

جلدي) التي ظلت على ازدهارها حتى عصر الميلاد . ثم تدهورت وأصابها الحريق أكثر من مرة . ولم يعد لها ذكر في القرن الخامس الميلادي . كانت شهرتها في العالم القديم لا تقل عن شهرة منارة الاسكندرية التي اعتبرت احدى عجائب الدنيا السبع . دعا بطليموس الثاني علماء اليونان اليها (مثل ديمتريوس الفالروني و استراتون ٢٧٠ ق . م الذي أسس النزعة العلمية المادية فيها) .

بلغت الاسكندرية في العهد الهلنستي البطلمي أوج ازدهارها الثقافي الذي امتد الى العهد الروماني . ثم أخذت ثقافتها بعد القرن الثاني الميلادي المنحى الديني ، اذ لعبت دورها في فلسفة الوثنية والمسيحية واليهودية . بنيت سمعة الاسكندرية العلمية على جهود عدد من كبار علماء العصور القديمة الذين كانوا خليطا من شعوب مختلفة وان كان أكثرهم من الاغريق .



٣



ب



١٢

للمسكونة تلفت النظر بقلة أخطائها في السواحل المتوسطة وآسيا الصغرى . كان ايراتوستين رياضيا فلكيا لغويا مؤرخا شاعرا ، ولكنه ، في نظر معاصريه في القرن الثالث للميلاد ، كان العالم الأول في الجغرافيا ، لكن اسمه لم يشتهر شهرة بطليموس القلودي بعده ، صاحب المجسطي ، الذي أضحي أبرز ممثلي مدرسة الاسكندرية في الجغرافيا الفلكية .

ق . م . وتوفي بالاسكندرية حوالي ١٩٢ ق . م) حقق هذا الموضوع بأبسط الطرق . افترض ان الاسكندرية وأسوان هما على خط طول واحد . ولما كانت تفصلهما ٥ آلاف غلوة ، فانه قاس ميل أشعة الشمس . يوم الانقلاب الصيفي في كل من البلدين ، واستخرج قياسا لمحيط الأرض ليس بالبعيد عن الواقع . ومدد خطوط الطول والعرض ووضع خريطة عامة

الصفحة العربية (ب) فهي مأخوذة من شرح نصير الدين الطوسي (توفي ١٣٧٤) . الفلكي والفيلسوف الشهير . وهو من أول الكتب المطبوعة (روما سنة ١٥٧٤) .

(٣) - توصل علماء الاسكندرية الى الاعتراف بكرة الأرض فسعوا السعي الحثيث لتحديد قياساتها . العالم ايراتوستين (ولد في برقة حوالي سنة ٢٨٤

من ٥٠ حجرة أو منفذا بنيت في جدارها . ويصعد المرء الى الطبقتين الثانية والثالثة بسلمين حجريين (٣٢ و ١٨ درجة) .

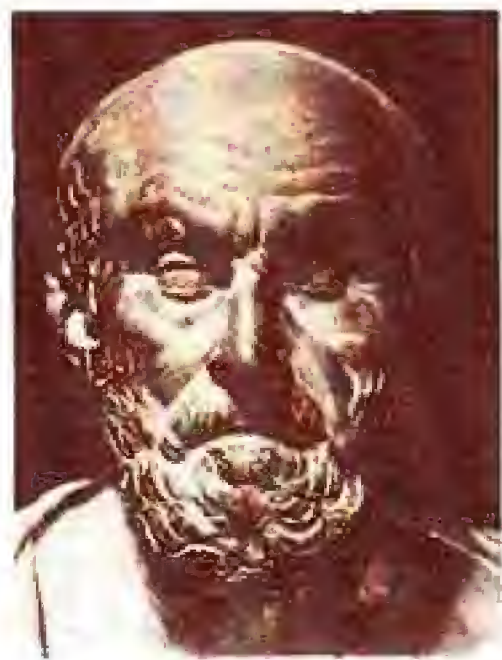
(٢) - صفحة من الطبعة الانجليزية الأولى لكتاب اقليدس (النصف الأول من القرن الثالث ق . م) العالم الرياضي الشهير التي ظهرت في لندن سنة ١٥٧٠ (أ) . أما

في الهندسة :

كان أعظم رجال العلم الاسكندري هو اقليدس (ولد في أثينا وجاء الاسكندرية حوالي سنة ٣٠٠ ق . م .) . كتابه الشهير « الأصول » أو « العناصر » (٢) ترجم الى معظم لغات العالم وبقي حتى القرن الماضي أساس علم الهندسة . وقد ترجم مرتين في عصر الرشيد والمأمون الى العربية . وغطى على الكتب الأخرى في مادته .

في الفلك :

برز اريسترخوس (٣٠٠ - ٢٢٥ ق . م) الذي كشف ان الشمس هي محور دوران الكواكب . وايراتوستين الذي قاس محيط الأرض (٣) ثم بطليموس الاسكندري (اشتهر حوالي ١٥١ - ١٢٧ ق . م) أوسع علماء الفلك شهرة . كتابه المجسطي ترجم في عصر الرشيد أيضا وبقي المرجع العلمي حتى مطالع العصور الحديثة .



- (٤) - كان الجدل الديني الفلسفي في القرن الرابع الميلادي في أوجه . الامبراطور جوليان (٣٦١ - ٣٦٣) أسهم في الجدل والمحاضرات (الصورة) . كان يعتقد الأفلاطونية الحديثة . نشطت الوثنية في عهده لأنه أقام كنيسة لعبادة الشمس وجعل لها الكهنة وجعل نفسه رئيس الكهنوت . ترك
- الطبيب . يقولون ايضا انه عاش ٩٥ سنة . تعلم الطب حتى بلغ ١٦ سنة وأقام يعلمه ٧٩ سنة ! تميز بطريقته التجريبية . ينسب اليه « القسم » الذي يقسمه الأطباء عند مزاوله المهنة وكان سببا آخر في شهرته . هذا التمثال لأبقراط في غاليري أوفيزي في فلورنسا .
- كتابات كثيرة منها كتابه (ضد المسيحية) الذي نعرفه من الردود التي رد بها عليه كيرلوس بطريق الاسكندرية .
- (٥) - هيوقراط (٤٦٠ - ٣٧٧ أو ٣٥٩ ق . م) ويسميه العرب أبقراط هو أشهر طبيب في العصور القديمة ويسمونه بأبي

في العلوم الطبيعية :

أشهر اسم في تاريخ الفيزياء والميكانيك القديمين هو ارخميدس الذي ولد في صقلية وتوفي ٢١٢ ق . م . وقد أقام فترة في الاسكندرية . اشتهر كذلك بكتسيوس (حوالي ٢٧٠ ق . م) الذي اخترع عددا من الآلات كمضخة الضغط والارغن المائي والساعة المائية . وفيلون البيزنطي الذي قدم في كتابه (الحيل) عددا من المبتكرات العسكرية تابعها من بعده هيرون الاسكندري في القرن الأول .

في الطب والتشريح :

اتبع الطب الاسكندري مدرسة هيبوقراطوس (٥) . ظهر عدد كبير من الاطباء والعلماء في التشريح ووظائف الاعضاء أهمهم : هيروفيلوس الخلقيدوني مؤسس علم التشريح . كان أول من وصف الدماغ وميز المخ عن المخيخ والوتار عن الأعصاب والشرابين عن الأوردة . كذلك وصف عددا من الحواس ومن الاعضاء الداخلية . وخالف ارسطو حين اعتبر الدماغ لا القلب مركز الادراك . واصل تلميذه ايراستراتوس (ولد سنة ٣٠٤ ق . م) اعماله . لمع في القرن الثاني سيرايون الاسكندري . مؤسس المدرسة التجريبية في الطب . لكن اعظم اطباء الاسكندرية اطلاقا هو جالينوس البرغامي (١٣٠ - ٢٠٠ م) الذي درس أولا في آسيا الصغرى . وبعد ان طوف في سوريا . استقر زمنا في الاسكندرية . قبل أن يذهب سنة ١٦٤ الى روما . ثم الى صقلية . ينسب اليه ما لا يقل عن ٤٠٠ مؤلف في الطب والفلسفة والعلوم . اشتهرت منها كتبه الطبية

الستة عشر التي ترجمت في عهد المأمون الى العربية وكانت دستور الأطباء .

انعكست بوادر الانهيار البطلمي على الاسكندرية في القرن الأول ق . م . ثم صارت مصر ولاية رومانية . وتحولت الاسكندرية بلدا خليطا جامعا . وعرفت الازدهار . لكنها عادت الى التراجع وخاصة بعد انتشار المسيحية وصعود نجم انطاكية .

في عصر الميلاد . كانت الاسكندرية معقلا من المعازل الكبرى للوثنية في العالم القديم . ومجال تفاعل وجدل بينها وبين التوحيد اليهودي . ظهر ذلك في أعمال أرسطوبولس (حوالي ١٥٠ ق . م) . ثم خلفه فيلون الاسكندري (٣٠ ق . م - ٥٠ م) الذي حاول التوفيق ما بين الفلسفة اليونانية في شكلها الافلاطوني وبين العقيدة اليهودية . فمهد بذلك لقيام الافلاطونية المحدثه التي ظهرت على يد أمونيوس ساكاس (١٧٥ - ٢٤٢ م) وطبعت الفكر اليوناني المتأخر ثم الفكر المسيحي ثم الفكر الاسلامي بطابعها الخاص . كانت المسيحية قد انتشرت في الشرق وفي مصر حين جاء أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠) الوثني آخر فلاسفة اليونان الكبار ومعاصره أوريجينوس (١٨٥ - ٢٥٤) المسيحي . عمل الأول على الأفلاطونية المحدثه . والثاني على « هلينة » المسيحية وفلسفتها حتى أصبحا رائدي اللاهوت الكلاسيكي الوسيط .

لعبت الاسكندرية دورها بعد ذلك في الجدل حول طبيعة السيد المسيح . كان أريوس صاحب المذهب الاريوسي قيسا في كنيستها . كذلك كانت آراء أسقفها اثناسيوس ثم خلفه كيرلس هي الأساس الذي قامت عليه الكنيسة الارثوذكسية القبطية .

الشعوب ، التي لم يكن يميز بعضها عن بعض ، من قبل ، سوى المصنوعات الباقية من حضارتها المادية . يدور الموضوع الرئيسي لقصة الخمسمائة سنة الأولى من هذه الحقبة من التاريخ الأوروبي حول النمو والتطور المدهشين للعالم الكلتي ثم تقهقره التدريجي .

تطور الحضارة الكلتية
تطلق لفظة « لا تين » على هذه الحقبة

منذ بداية الطور الثاني من الحضارة الكلتية ، وهو المعروف عند علماء الآثار بأسم لا تين ، تصبح معرفتنا بالتفاصيل أغزر وأوفى . فالسجل الأثري يحفل بروايات مدونة ، تحدد بكثير من التفاصيل هوية



٢
١

ب



لخنزير معبود تعود الى حوالي القرن الأول ق . م .

(١) - المعبود سيرنونوس « ذو القرنين » سيد الحيوانات البرية . وقد زينت به إحدى لوحات المرحل الفضي النذري الذي عُثر عليه في الدنمرك . وهو يعتمر قرني وعمل .

يجلب النحاس . تدل القرون الثلاثة الغريبة المزينة لرأس الثور (ب) على صفات الثور الفائقة للطبيعة . وذلك بسبب الدلالات السحرية للعدد ٣ .

(٣) - يرقى الاعتقاد « باصابة العين » الى المعتقدات الكلتية العريقة في القدم . فهذه العين المرسومة على تمثال حجري

الاصنام . كما تبين اليدين مرفوعتين على الطريقة الكلتية في الصلاة . هذا الشكل البرونزي هو واحد من زوجين

(٤) - كان الاعتقاد سائدا في بريطانيا بان الديك (أ) يدفع الشر بصياحه . وان أكله

(١) - يظهر هنا نموذج مبكر لأسلوب فن لا تين . هذه اللوحة البرونزية التي عثر عليها في مدفن فالداالجيشهايم (حوالي ٣٢٥ ق . م) تبين وجها شبيها بالقناع وطوقا حول العنق . وعلى الرأس آثار تاج من ورق الشجر هو من علامات عبادة

من حضارة الكلتيين المبتدئة حوالي ٥٠٠ ق . م . والتي تعتبر فترة أهم انجازاتهم . على غرار تسمية هالشتات التي اطلقت على المرحلة الأولى الممتدة من حوالي ٧٠٠ حتى ٥٠٠ ق . م . جاء اسم « لا تين » من اسم موقع أثري هام . فقد عثر في القرن التاسع عشر على عدة اشكال من القرابين الدينية (٨) في لا تين على شواطئ بحيرة نوشاتيل بسويسرا . وتدل هذه المكتشفات . مثلها في

ذلك مثل تلك التي وجدت في هالشتات ، على التغيرات التي طرأت على أدوات الكلتيين وطريقة عيشهم . وكما جرى لكتليي حضارة هالشتات ، تطور نمط حياة هؤلاء الكلتيين الجدد ، في معظم انحاء أوروبا ، بسرعة هائلة .

كان الكلتيون ارستقراطيين جدا في نظامهم الاجتماعي : فقد كان النظام الملكي شائعا بين قبائلهم ، وكانت تأتي ، بعد

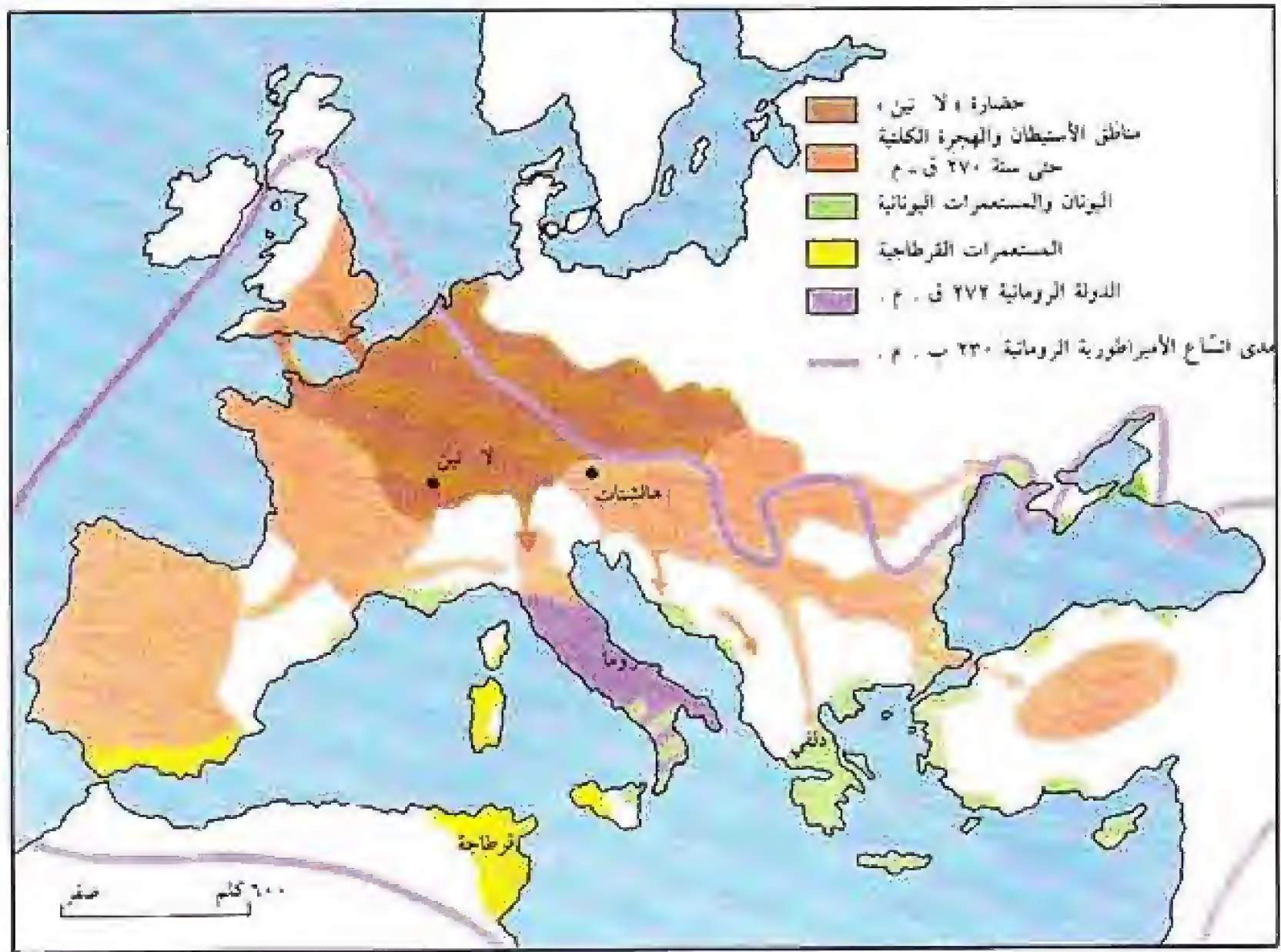


(٥) - ابريق من البرونز وجد في بلس يوتر باللورين . وقد رصع بالمرجان . تكشف الحيوانات الشبيهة بالذئاب التي تشكل المقبض ، وتظهر على الغطاء . عن العلاقة بين هذه الآنية . والآنية المشابهة لها في العصر البرونزي . (٦) - تمثال برونزي لشخص من بلاد الغال (فرنسا) ، في حالة النزاع الأخير ، اكتشف في أحد حصون التلال في أليزيا عند أليز سانت رين . حيث وقف فرسانجيتوريكس الزعيم الكلتي الشاب . قائد جميع الأحلاف الغالية . وقفته الكبرى الأخيرة . في وجه يوليوس قيصر عام ٥٢ ق . م . استطاع هذا البطل الغالي ، لفترة من الزمن ، صد قيصر وتكبيده خسائر فادحة ، ولكنه غلب على أمره بعد معركة مريرة أخيرة استسلم فيها لانقاذ مواطنيه .



الطبقة المالكة الطبقة الارستقراطية المحاربة . ثم طبقة المزارعين الاحرار . كانت لدى الكلتيين ديانة متطورة جدا (٢ ، ٤) يهيمن عليها كهنوت قوي مؤلف من رجال الدرويد الذين كانوا يشكلون طبقة هامة . كانت هنالك ايضا طبقة عبيد . تعود الكلتيون استخدام عربة حربية خفيفة ذات عجلتين ، يجرها مهران صغيران . وبلغت مهارة حرفيهم الفنية في صناعة

المعادن (وكانت عالية دوما) مستويات جديدة من التقدم . في الوقت نفسه ، حدثت ثورة في اسلوبهم الفني . فقد دمجوا انماط الاورنفيلد وهالشتات القديمة بفن السكيثيين الحيواني البديع ، وبالتزيينات اليونانية النباتية . وبعض العناصر من انماط فنية نشأت في اصقاع أبعد الى الشرق ، فنتج عن هذا المزيج فن مبتكر رائع يتصف بالدقة والغموض ويمتلىء بالدلالات السحرية .



(٧) - لا تين موقع أثري في سويسرا يطلق اسمه على تلك الحقبة من التاريخ الكلتى في أوروبا التي امتدت من ٥٠٠ ق. م. حتى فترة التوسع الرومانى خلال القرنين الثاني والاول ق. م. وكما يتبين من الخريطة فقد كان الكلتيون . مع حلول عام ٢٧٠ ق. م. تقريبا . قد هاجروا الى فرنسا وشبه الجزيرة الايبيرية . وبعض اتحاء الجزر

البريطانية . والى حد ما الى أوروبا الوسطى . الا انهم منذ ذلك التاريخ اخذوا يتراجعون امام روما . ومع منتصف القرن الاول ق. م. كان الامر قد استتب لروما نهائيا .

(٨) - طوق حديدي نذري (عقد أو سوار) ملبس بالفضة يزن حوالى ٦ كلغ . طرفاه مزينان برأس ثور . ولكل منهما قلادة خاصة . ولما كان

اثنى من ان يرتديه انسان . فالأرجح انه كان يعلق على صنم من الحجر أو الخشب . وقد وجد في ناحية فورتنبرج بالمانيا .

(٩) - كانت المرايا البرونزية المزينة من اشكال الفن الكلتى الرائعة . هذا النموذج المأخوذ من قبر امرأة في احدى نواحي انجلترا يعود الى ما قبل العهد المسيحى .



ابتداء من عام ٥٠٠ ق . م . انتشر هذا الوجه الجديد من الحضارة الكلتية بسرعة ، ومع حلول عام ٣٠٠ ق . م . اصبح هو الفن السائد ، من بحر البلطيق حتى المتوسط ، ومن البحر الأسود حتى الاطلسي .

المجتمع الكلتي والحروب

لم يضع الكلتيون الاوائل وثائق مكتوبة ، بل حفظوا تاريخهم شفويا . مع ذلك ، يوجد لدينا ، خلافا لحضارة الهالشتات الباكرا ، وثائق كافية عن حضارة لا تين . فالكثير من معلوماتنا عن حياة الكلتيين اليومية مستمدة من مؤلفين يونانيين ورومانيين معاصرين .

كان الكلتيون حسب رواياتهم يتصفون بطول القامة وقوة العضلات ولون البشرة الفاتح ، وهي صفات تعزى اكثر ما تعزى الى الطبقة المحاربة وتبلغ ذروتها في الرماحين ، وهم طبقة عالية التخصص من المحاربين الكلتيين .

كانت الحرب جزءا اساسيا من الحياة الكلتية . ولما كان الكلتيون مسلحين بأسلحة حديدية فعالة جدا ، فقد استطاعوا اجتياح اوروبا الوسطى في القرنين الرابع والثالث ق . م . ، والتغلب على جيرانهم الاترسكيين في حوالي ٤٠٠ ق . م . وتدمير روما عام ٣٩٠ ق . م . ونهب معبد دلفي عام ٢٧٩ ق . م .

لكن الكلتيين لم يكونوا محاربين وحسب ، بل بلغوا مستوى عاليا من الحضارة المادية ، واستغلوا مهارتهم في صناعة الحديد كوسيلة لاستغلال اراض جديدة ، وتطوير الزراعة . كان اقتصادهم مبنيا على الزراعة المختلطة ، اي زراعة الحبوب والخضار ، وتربية المواشي ، وعلى التجارة . هذان

الجانبان من حياة الكلتيين ، اي حرب التوسع والاستيطان الداخلي يظهران بوضوح في قلاع التلال التي تُشاهد بقاياها مبعثرة في جميع انحاء اوروبا . بنيت هذه القلاع اصلا على رؤوس التلال للدفاع فقط ، الا انها كانت تختلف اختلافا كبيرا ، من حيث الحجم ، وقد تطور بعضها الى مدن رئيسية . من هذه القلاع تلك المسماة « اوبيدوم » الواقعة في بيراكت بالقرب من أوتون في فرنسا ، والتي كانت تشغل مساحة تزيد على ١٣٠ هكتارا وتشمل بيوت سكن وشوارع وربما دكاكين .

نشوء الامبراطورية الرومانية

كان بروز نجم روما ، وهي مدينة صغيرة على ضفة التبر ، وتطورها الى مدينة منظمة عظيمة ، وتمكنها عام ٢٢٥ ق . م . من قهر الكلتيين في تيلامون بايطاليا بعد قتال مرير ، حدثا تاريخيا مهما . فهي ما لبثت على اثره ان اتخذت الخطوة الرئيسية نحو اخضاع الكلتيين نهائيا . لكن حتى بعد هذا الاخضاع التام ، استمرت التقاليد واللغة الكلتية فاعلة في المجتمع الروماني ، بعد ان اتخذت اشكالا تتفق مع حاجات المؤسسات الرومانية . لم تسلم من السيطرة الرومانية في الجزر البريطانية سوى ايرلندا ، وجزء كبير من اسكتلندا .

دامت الامبراطورية الرومانية حتى القرن الخامس الميلادي ، لكنها منذ القرن الثالث اخذت تتعرض لخطر غزو « البرابرة » ذوي القوة المتزايدة . كان هؤلاء البرابرة القادمون من الشمال ، من شرقي نهر الراين والسهوب الشرقية للقارة الاوروبية ، هم الذين حطموا ، في نهاية الامر ، الامبراطورية الرومانية .

الأتراكيون

جنائزية مقتضبة . فآثارهم المادية الأخرى توفر مجالا واسعا جدا للأبحاث الأثرية .

أصول الأتراكيين

يبدو أن الجدل الطويل حول أصل هذا الشعب قد قارب نهايته . بدأ هذا الجدل منذ عهد المدونات القديمة : فقد أعلن هيرودوتس أن الأتراكيين ابحدروا من ليديا في بلاد الأناضول . لاستعمار منطقة جديدة في

أن المعلومات المتوفرة عن الأتراكيين هي أقل بكثير من تلك المتوفرة عن معاصريهم اليونان والرومان . السبب في ذلك يعود . بصورة رئيسية . الى ضياع أدبهم . ومع أن كتاباتهم تكاد تقتصر على نقوش



(١) - كانت أراضي الوطن الأتراكى تقع بين نهري الأرنو واليو الأدنى . هنالك نشأت حضارتهم المميزة وبلغت ذورة تطورها . لقد بلغت السلطة الأتراكية . في أوج ازدهارها حوالي ١٥٠٠ ق . م . سفوح جبال الألب وامتدت جنوبا حتى خليج سالرنو . لكنها لم تكن امبراطورية . بل كانت تحالفا واهنا من الدول - المدن المستقلة بدون حدود مشتركة .

(٢) - حفر « قبر النحوت النافرة » في تشرفيتيري في الصخر الصلد . ويمثل غرفة في منزل له سقف ذو عوارض قائم على أعمدة ذات رؤوس أيونية أصلية . ثمة ثغرات في الحائط للأسرة . وقد اضيفت إليها أسرة جنائزية لكل منها وسادتان . ولبعضها موطىء قدم وخف . وكأنه ينتظر صاحبه . فوق الثغرات . قطع من الدروع والأسلحة معروضة بشكل نافر .

(٣) - هذان الزوجان منحوتان بحجم طبيعي على غطاء تابوت من الفخار المشوي . وجدا في تشرفيتيري بإيطاليا . قرب كاييري .

(٤) - كانت علب المجوهرات البرونزية لدى الأتراكيين تحتوي على مقتنيات النساء الخاصة والجواهر وأدوات الزينة . وكانت مزينة بمشاهد اسطورية ومزودة بقوائم ومقابض من حديد . في هذا النموذج البديع من باليسترينا (٣٠٠ ق . م) نقش يمثل بيلروفون ممسكا بحصان مجنح .

الغرب . وذهب ديونيسيوس الهاليكارناسي الى انهم من أصل ايطالي . واليوم يتمتع كل من هذين الرأي بالقبول . وكلاهما يعتبر صحيحا الى حد ما على الأقل .

ويبدو أنه قد أصبح مقبولا الآن ، أكثر من أي وقت مضى . القول بتحدر المدن الاتروسكية ومقابر أوائل القرن السابع في فيلانوفا (شمالي ايطاليا) ، عن المستوطنات التي كانت قائمة فيها (بين ١١٠٠ ؟ - ٧٠٠

ق . م) وعن مقابر القرن التاسع ق . م . يمكن تتبع آثار معظم السكان وجزء كبير من الحضارة الى ما قبل ذلك التاريخ ، اي حتى العصر البرونزي . لكن من ناحية ثانية ، يمكن ان تكون الافكار والملاحم الثقافية الجديدة التي ظهرت في تلك الحقبة قد أتت على عدة مراحل ، مع مجموعات المهاجرين الجدد .

كانت النتيجة ازدهارا حضاريا عظيما في



(٦) - كانت المرايا المصنوعة من البرونز المصقول تساعد النساء الاترسكيات على الاهتمام بزينتهن . كان ينقش في الغالب على الجهة الخلفية من المرايا الشبيهة بهذه (٥٤٠ - ٥٢٠ ق . م) مشاهد اسطورية ، مثل النقش على هذا النموذج الذي يمثل اوريون يقطع البحر . وكانت المرايا من المقتنيات التي تدفن عادة مع الميت .

(٥) - كان تمثال ابولون قائما ، مع تماثيل عطارد وهرقل ولاتونا ، على حافة سقف هيكل بورتوناتشو في مدينة فايي . اسم النحات هو فولكا ، وقد صنع تمثالا لأبولون من الفخار المشوي حوالي ٥٠٠ ق . م . يختلف هذا التمثال عن تماثيل ابولون التي خلفها اليونان . من الواضح ان الاترسكيين كانوا يدينون بالكثير لليونان . ولكنهم عبروا عن كل ما اقتبسوه بطريقتهم الخاصة .



القرنين السابع والسادس ق . م . بني على أسس محلية . اعتمدت بدورها على وفرة الموارد المعدنية في اتروريا المعروفة باسم توسكانا (١) . ولكنه تأثر كثيرا باليونان والعديد من بلدان شرقي البحر المتوسط . والواقع ان هذا التنوع يعطي حجة قوية ضد رواية هيرودوتس عن موطن الاترسكيين الاصلي في ليديا .

لا تزال الحضارة الاترسكية بمجملها لغزا

محيرا . فالانطباع العام الذي تعطيه هو يوناني بشكل واضح . لكن التمعن الدقيق بالتفاصيل يبين انه مهما كان التأثير اليوناني كبيرا . فلقد تم تحويله وتمثله بشكل تام . كما انه تطعم بالأفكار الآسيوية الأخرى . مثل العرافة وتشبيد الاضرحة . ورافقه تطوير صناعة محلية بحتة . كصناعة الفخار الاسود الجيد المعروف باسم « بوكيرو » . كل هذا يسمح للمؤرخين ان ينظروا الى الحضارة



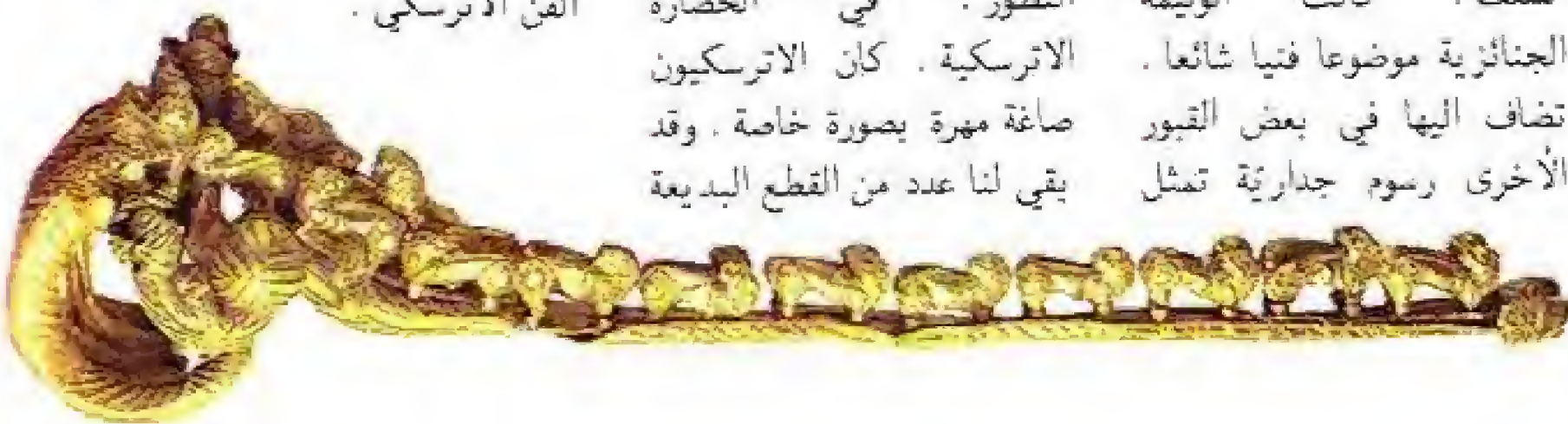
(٧) - كان النمط التركويني من القبور عبارة عن حجرة مستطيلة حفرت في الصخر . يُدخل إليها عبر ممر منحدر . كانت الحجر تطلّى بالكلس وتزين بمشاهد زاهية رائعة الجمال والمعنى . في نهاية حائط « قبر القنص والصيد » (حوالي ٥٢٠ ق . م) يحتل المآتم الجنائزي السقف الهرمي . وتحتة أفريز من ٨

أكاليل الحداد . تقفز الاسماك حول الرجال في زورقهم من كل جانب ويحاول صياد يقف على الشاطئ اصطياد أحد العصافير الزاهية الالوان التي تغطي السقف . كانت الوليمة الجنائزية موضوعا فنيا شائعا . تضاف إليها في بعض القبور الأخرى رسوم جدارية تمثل

الرقص والمباريات الرياضية المقامة تكريما للأموات .

(٨) - بلغت صناعة المجوهرات مستوى عاليا من التطور . في الحضارة الاترسكية . كان الاترسكيون صاغة مهرة بصورة خاصة . وقد بقي لنا عدد من القطع البديعة

تزينها نقوش دقيقة . هذا المشبك أو الدبوس يعود الى ما بين ٧٠٠ و ٦٠٠ ق . م وهو قطعة فاخرة تدل على الجودة والابداع اللذين بلغتهما الفن الاترسكي .



الأتريكية بوصفها حضارة قائمة بذاتها ، وليس كمجرد نسخة اقليمية عن حضارة اليونان . فضلا عن ذلك ، يبدو ان الشعبين كانا سياسيا عدوين لدودين . اذ كان شغل الأتريكيين الشاغل هو محاولة منع اليونان من دخول البحر التيراني . وفي احدى المعارك البحرية طرد اليونان من كورسيكا عام ٥٣٥ ق . م . وذلك في ذروة سيطرة الأتريكيين السياسية .

لعب الفينيقيون دورا في هذه الاحداث ايضا ، كوسطاء بين اتروريا والشرق . كانت العلاقات السياسية ، في هذه الحالة ، اكثر ودية ، اذ كانت اتروريا وقرطاجة ، في اغلب الاحيان ، حليفين ضد عدوهما المشترك ، اليونان . ففي بيرجي ، وهي ميناء في تشرفيتيري ، عُثر على مقدمة الى المعبود يونو ، أي عشروت ، وقد حفر على لوحاتها الذهبية نصان متقابلان ، أحدهما بالفينيقية والآخر بالأتريكية .

دلائل على اللغة

لعبت اللوحات التي وُجدت في بيرجي دورا كبيرا في تحسين معرفتنا باللغة الأتريكية ، وهي أهم رابطة وُحِدت بين الشعوب الأتريكية ، وبما ان هذه الشعوب كانت قد اقتبست الأبجدية اليونانية ، دون تغيير يذكر ، لم ينطو تحليل رموز كتاباتها على صعوبات كبيرة . لكن ترجمتها كانت أكثر صعوبة ، لأن جميع محاولات التقريب بين تلك اللغة ولغة معروفة أخرى باءت بالفشل . ويبدو ان هذه اللغة كانت الوحيدة الباقية من لغات التخاطب قبل دخول اللغة الهندوأوروبية الى المنطقة . لكن مقدرة

العلماء على ترجمة هذه اللغة زادت ، شيئا فشيئا ، ابتداء ببعض النقوش على القبور مثل عبارة : « س ابن ج ، عمره ن » . لكن النصوص الطويلة القليلة العدد الباقية هي وثائق طقوسية غامضة . ولا نعلم حتى الآن سوى معناها العام . اطول هذه النصوص المكتشفة ، حتى الآن ، مكتوبة على القماش .

الحضارة الأتريكية

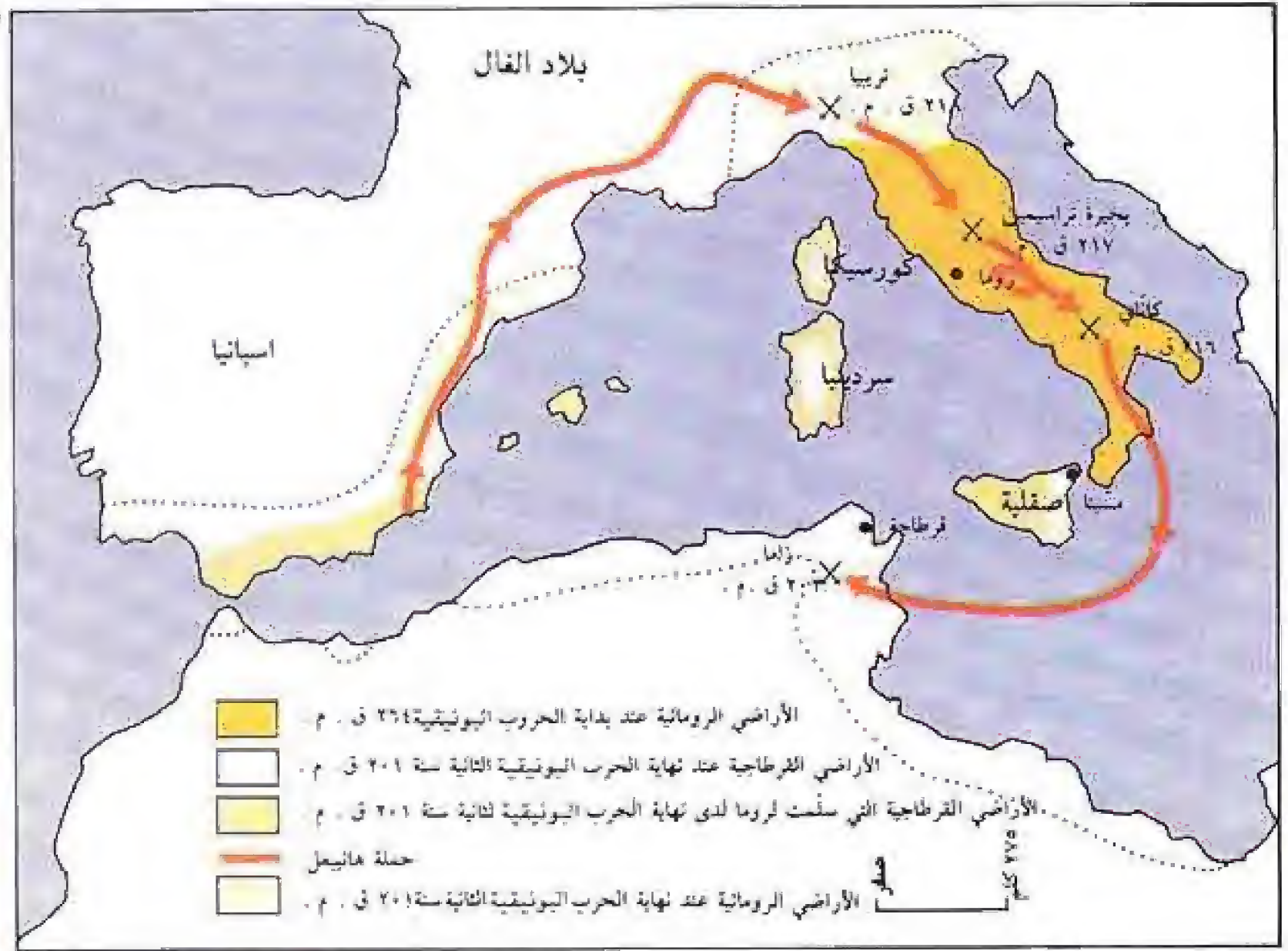
بالرغم من ان اللغة وُحِدت بين الأتريكيين ، فلم تكن لهم وحدة حضارية تامة . كانت ثمة فروق واضحة (كما في هندسة القبور) بين مختلف المدن الأتريكية ، مما يعكس استقلالها السياسي . لكنها جميعها تعطي انطباعا عن شعب نشيط سعيد ، له فن جريء جميل . ومع ان الكثير من الأدلة مستمد من القبور (٢ ، ٧) ، فالصورة التي لدينا ليست قائمة على الاطلاق . كانت هياكل الأتريكيين ومدنهم ايضا مثيرة من الناحية المعمارية . وكانت الهندسة المدنية عندهم ذات مستوى رفيع . ففناة الملاحة في كوزا ، وتحويل الجداول لتجري تحت الارض ، منعا لتعرية التربة ، وطريقة حفر الانفاق للأنهار لتمر تحت الطرق عوضا عن بناء الجسور فوقها ، كل ذلك يبرهن على هذه المهارات .

ان ما تبقى من الحضارة الأتريكية موجود في المواقع والمقابر الرومنطيقية الخربة ، وفي مجموعات المتاحف الكبرى التي انتزعت تحفها من هذه المواقع . لكن مكانة الأتريكيين في التاريخ ثابتة ، بفضل مساهمتهم في الحضارة الرومانية .

روما المبكرة

في ٢١ أبريل ٧٥٣ ق . م . مما يتفق على الأقل مع الأدلة الأثرية ، التي تبين ان بعض الرعاة قد استوطنوا فعلا هذا التل حوالي منتصف القرن الثامن ، ثم انضموا الى بعض الجماعات الأخرى في تلك المنطقة ، في اوائل القرن السادس . لتأسيس مدينة ، حول موقع أصبح يعرف فيما بعد بالساحة الرومانية (الفوروم) . لكنه كان يستعمل لفترة من الزمن كمقبرة (٦) .

لا يزال الغموض يحيط بنشأة المدينة التي وضعت أسس عظمة الامبراطورية الرومانية . لكن الرواية التقليدية التي دونها تيطس - ليفيوس تقول ان رومولوس وريموس (٥) أسسا مدينة على التل البلاتيني



حرب طروادة هو الذي أسس روما . وقد خلد فرجيل (٧٠ - ١٩ ق . م) هذه الاسطورة في ملحمة الانياذة . هذه المخطوطة العائدة للقرن الرابع تمثل ، بصورة حية ، الاخطار التي حفت برحلته الى لاتيوم .

(٤) - يرتدي هذا الجندي الروماني من القرن السادس ق . م درعا وخوذة ويحمل سيفاً ورمحين . حتى حوالي عام ٤٠٠

وحمل نياً انتصار الرومان الى المدينة . والواقع انه كان من الممكن ان يكون الهيكل قد شيد قبل ذلك بكثير ، أي في حقبة الملوك السحيقة . وهو يقع داخل حدود اولى قرى البلاتين . ثم أعيد بناؤه في القرن الثاني ق . م وفي القرن الأول الميلادي .

(٣) - يُروى ان اينياس الذي هرب من طروادة في أعقاب

(٢) - الأعمدة الثلاثة الباقية . من هيكل كاستور وبولوكس في ساحة روما . كانت في الاصل جزءاً من صف اعمدة ، يحيط بمعبد مكرس للتوأمن المقدسين اللذين كانا يعرفان ايضاً باسم الديوسكوري . تقول الرواية التقليدية ان الهيكل بني اثر معركة بين الرومان واللاتين . عند بحيرة رجيلوس عام ٤٩٩ أو ٤٩٦ ق . م . حارب التوأمان الى جانب الرومان .

(١) - كان على روما ان تصبح قوة بحرية لكي تقوم بتحد فعال لسيطرة قرطاج على المتوسط الغربي . لذلك بنت اسطولا ضخماً وجهازته بوسائل اجتياح السفن المعادية . ليسهل القتال فيها بالسلاح الابيض . الذي كان الرومان يمتازون به . وبنتيجة ذلك وبعد هزائم أولية تكبدوها . انزلوا هزيمة بحرية كبيرة بقرطاج في الحرب البونيقية الأولى .

من الملوك الستة الذين يقال انهم خلفوا رومولوس ، ما من شك في ان الثلاثة الاول كانوا اسطوريين ، اما الرابع ، وهو تاركينيوس ، فقد كان اترسكيا ، ويمثل عهده بداية حقبة من السيطرة الاترسكية .

التوسع في ظل الجمهورية

انتهى العهد الاترسكي والنظام الملكي في الوقت نفسه ، في اعقاب طرد الملك

تاركينيوس سوبربوس الواقع تقليديا في عام ٥٠٩ ق . م . فأخذ يشرف على شؤون روما قنصلان منتخبان ، ومجلس شيوخ مؤلف كليا من ارستقراطيين أغنياء ، يعرفون بالنبلاء (البطريقيين) .

بعد تأسيس الجمهورية بقليل ، لعبت روما دورا رئيسيا في انشاء « الحلف اللاتيني » ، وهو تحالف بين مدن لاتيوم ، وهي المنطقة الغربية من ايطاليا الوسطى .



ق . م لم يكن الجنود يتقاضون رواتب ، لذلك كان الأغنياء فقط يستطيعون الانخراط في الخدمة العسكرية . انشئ الجيش النظامي حوالي عام ١٠٠ ق . م .

البرونزي الشهير الموجود في متحف الكابيتول ، الى اواخر القرن السادس ق . م ، وهو عصر الملكية الاترسكية . اما تمثال التوأمين ، فقد اضيف فيما بعد ، وذلك خلال عصر النهضة .

(٥) - تقول الاساطير ان ذئبة ارضعت رومولوس وريموس المؤسسين الاسطوريين لمدينة روما . يعود هذا التمثال



في عام ٣٩٠ ق . م . اجتاح الكلتيون السنونيون ، وسواهم من الشعوب الغالية . ايطاليا الشمالية واستولوا على روما بكاملها . باستثناء الكايتول . ثم غادروها مقابل فدية .

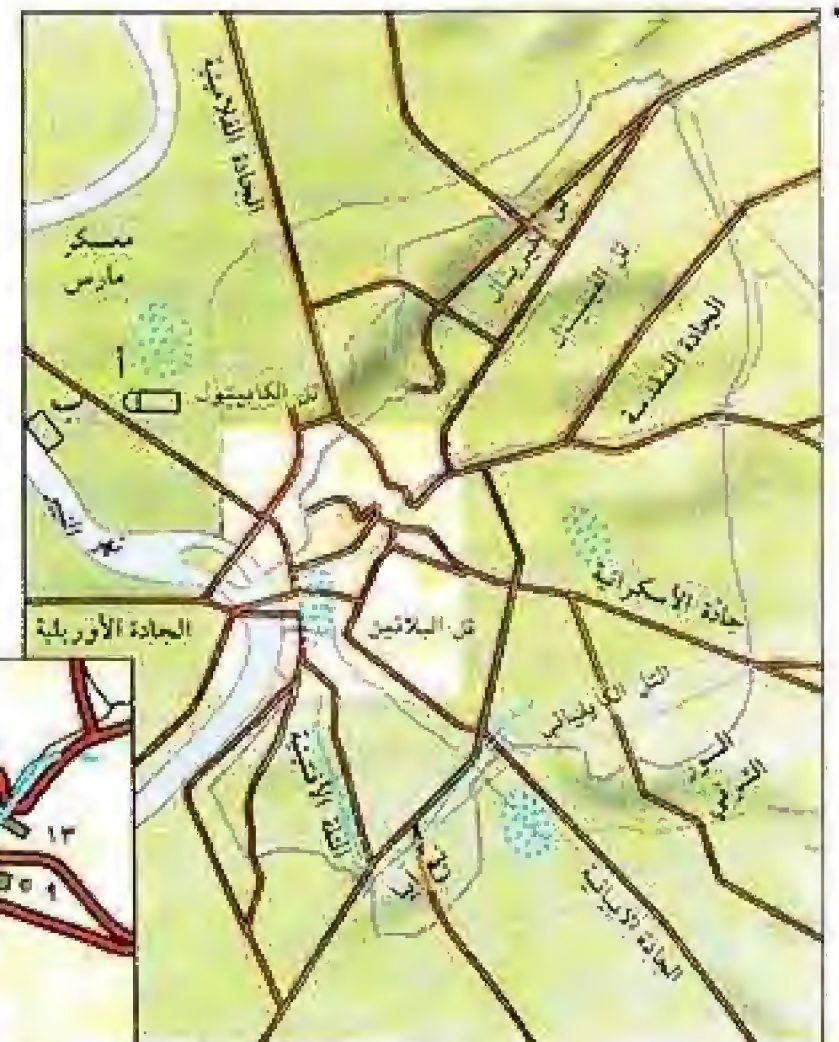
انطلاقاً من قواعدها المحصنة . انصرفت روما بثقة الى شن عدة حروب سمحت لها بفرض سلطة لا تنازع على كامل ايطاليا . من وادي البو حتى أقصى الجنوب . ثم

اجتاحت الجيوش الرومانية المدن اليونانية . وانتصرت عليها . مما مكن روما من بسط سيطرتها على شبه جزيرة البلقان بكاملها . في هذه الفترة شهد عامة الشعب (البليبيون) تحقيق عدد من مطالبهم . فأصبح لهم مجلسهم الخاص وهو مجلس الشعب . وموظفوه الذين عرفوا بالتريبونين (أي المدافعين عن الشعب) . وفي عام ٤٤٥ ق . م . حصلوا على حق الزواج من طبقة



٧
١

- ١ - السرك الكبير
- ٢ - السرك الفلاميني
- ٣ - مجلس الشيوخ
- ٤ - مكتب الوثائق - ميكل
- ٥ - فيلا جونو مونيتو
- ٦ - جوبيتر الكايتولي
- ٧ - فيلا ترين
- ٨ - كاستور وپولوكس
- ٩ - فيلا (الأرض)
- ١٠ - جوبيتر الفاهر - اسواق وجسور
- ١١ - الجسر الايبيلي
- ١٢ - الجسر الفابريكي
- ١٣ - سوق السمك
- ١٤ - سوق الخضار
- ١٥ - سوق المواشي



مستطعات ١٠٠٠ م

١ - رواق مسرح يوباي
ب - مبنى للسفن

(٦) - تلال روما السبعة عبارة عن ثلاث رواب . ترتفع فوق نجد منخفض . كان اصلاً مليئاً بالمستنقعات . تم أولاً الاستيطان على تلي البالاتين وهما كيرينال واسكيلين . وكان آخر التلال المستوطنة هما كايتولين وأفتنين . أخذت تنشأ مدينة موحدة عندما اتحدت القرى الواقعة على بعض هذه التلال في أوائل القرن السابع ق . م . شيد أول سور حول المدينة حسب الرواية التقليدية في القرن السادس الذي كان فترة نشاط عمراني عظيم في عهد الملوك الاترسكيين . تعود شبكة المجاريير الكبرى وهي جهاز معقد للمجاريير . وهيكل جوبيتر الكايتولاني الى هذه الحقبة المبكرة ايضاً .

(٧) - تبين هذه القطعة النقدية حن بعل (أ) على أحد

وجهيها . وفيلا (ب) على الوجه الآخر . جاءت الفيلة في الفرقة التي قادها حن بعل الى ايطاليا من ادغال افريقيا . بجوار الاطلس والساحل المراكشي وواحة غدامس في ليبيا . كانت اصغر بكثير من

فيلة الصحارى . وتناسب بشكل أفضل مع الزحف الحثيث الذي كان عليها القيام به . وكانت ترعب القبائل البدائية .

النبلاء البطريقية ، وفي ٢٦٦ ق . م انتخب أول قنصل من طبقة البليبيين . ومنذ عام ٢٨٧ ق . م ، أصبحت للتشريعات ، التي كان مجلس الشعب يوافق عليها ، سلطة القانون . ولفترة من الزمن ، خفت الصراع الاجتماعي . مع ان هذه التغييرات لم تؤثر كثيرا في تخفيف وطأة الفقر الذي كان معظم أفراد الشعب يعاني منه .

التوسع على أنقاض قرطاجة

هذا التوسع العسكري - الاقتصادي ، يسميه الرومان بالحروب البونية (فونية = الفينيقية) ، وهي حروب ثلاثة طويلة . شنتها روما ضد التجارة القرطاجية والمستوطنات الفينيقية ، في صقلية واسبانيا وأفريقيا ، حتى أدخلتها في امبراطوريتها .

كانت قرطاجة منذ سنة ٥٠٨ ق . م قد قبلت مهادنة روما . وبعد أن شملت هذه المدينة بسيطرته ايطاليا كلها ، تأكد الاتفاق بين الجانبين سنة ٢٧٩ ق . م . على احترام مناطق النفوذ بل قام نوع من التحالف بينهما ضد القوى الأخرى التي كانت تقلقهما معا . مثل (بيو) . لكن روما طمعت في صقلية . وحين خافت قرطاجة وأقامت حامية في مسينا الواقعة في منطقة نفوذها ، أسرع الرومان الى نجدة المدينة ، فكانت الحرب البونيقية الأولى (٢٦٤ - ٢٤١) . تمكنت روما ، رغم خسارة عدد من المعارك ، من الاستيلاء على صقلية سنة ٢٦٠ . ثم على كورسيكا وسردينيا في العام التالي .

بعد عشرين سنة ، عادت روما بسبب تزايد قوتها الاقتصادية والسياسية الى اثاره الحرب البونيقية الثانية (٢١٨ - ٢٠١) التي

نقلها حن بعل القائد القرطاجي الى ايطاليا . فنقلها سيبو القائد الافريقي الى اسبانيا ثم افريقيا . وانتهت بخروج قرطاجة من اسبانيا وخسارتها المعركة الأخيرة (زاما) وخنق قواها البحرية والتجارية .

الحرب البونيقية الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق . م) كانت بسبب عودة النشاط لقرطاجة . انتهت بحصار روماني شديد لها ، أدى الى تدميرها الكامل ، وتحول افريقيا ولاية رومانية . وصارت روما هي القوة الأولى والوحيدة في الحوض الغربي للمتوسط .

تأثير الغراكيين

اثناء القرن الثاني ق . م ، كانت روما تسيطر على شمال وغرب منطقة البحر المتوسط بكاملها تقريبا ، لكن الاجواء في الداخل أخذت تتلبد بالسحب . فقد كان البطريقيون والاغنياء من البليبيين يقبضون بيد من حديد على الحكومة ، وعلى الأرض ايضا . مما أخذ يثير قلقا عظيما لدى الشعب . فقام نصير للفقراء ، اسمه تيبيريوس غراكوس ، وهو أحد ممثلي الشعب ، وتقدم عام ١٣٣ ق . م بمشروع قانون يرمي الى وضع حد جذري لمساحة الاقطاعات التي كان يملكها عدد قليل من الاغنياء . فاغتال متظاهرون ، بتحريض من بعض الشيوخ الخائفين على مركزهم ، تيبيريوس هذا . ولكن بعد ذلك بعشر سنوات ، حاول اخوه جايوس ان يخفض سعر الحبوب ، ويحد بصورة عامة من سلطة مجلس الشيوخ . الا ان اقتراحاته الخاصة بمنح حقوق المواطنة لجميع حلفاء روما اللاتين جاءت جذرية جدا ، فادت الى تحطيمه سياسيا ووفاته .

روما الجمهورية

وخلقي عظيم . كان ثمة توازن نظري بين سلطات الحكام ومجلس الشيوخ وعامة الشعب . لكن في الواقع حفلت الحقبة الجمهورية الاولى بصراع مرير بين النبلاء ، في مجلس الشيوخ ، الحريصين على امتيازاتهم ، وبين عامة الشعب التي كانت تريد ايضا الحصول على حصتها من المنافع . ولم يتمكن ممثلو الشعب من وضع القوانين بأنفسهم حتى القرن الثالث . كما لم يسفر

غالبا ما تعتبر روما الجمهورية (٥٠٩ - ٢٧ ق . م) دولة ديمقراطية . ومما لا شك فيه ان الكتاب الرومان المتأخرين كانوا يذكرون بحنين ما كان يبدو لهم ، في الماضي ، العصر الذهبي لنظام سياسي واجتماعي



تحفظ فيه وثائق الدولة . وهو على الأرجح ملحق بالخزينة . القسم الاعلى عبارة عن قصر .

(٥) - كانت عذارى الهيكل الست يعشن في « بيت الفستا » الواقع في الساحة العامة . كن يبدأن الخدمة صغيرات ويستطعن التقاعد بعد ٣٠ سنة . وكن يتعرضن للجلد على يد الكاهن الاعظم اذا تركن النار المقدسة تنطفئ .

(٣) - يمثل هذا الرسم النافر تسريح الجنود الرومان (حوالي القرن الأول ق . م) ، الكاتب الى اليسار يدون التفاصيل التي يملئها عليه جندي مَسْرَح يحمل شهادته بيده . بينما ينتظر الآخرون دورهم .

(٤) - بني مكتب الدواوين (في الوسط الى اليسار) عام ٧٨ ق . م حسب تصميم سولا (١٣٨ - ٧٨ ق . م) . كانت

بمساحة ٥٦ × ٢١ م في القرن الأول ق . م ، وكان مركز الحياة الاقتصادية . كان لمعظم المدن الرومانية واحد من هذه الابنية المستطيلة المسقوفة . حيث تجري المبادلات التجارية . وهو يقع في الغالب بالقرب من الساحة العامة . بعض هذه الابنية كان يشتمل على اروقة وقاعات واسعة . وقد أثر تصميمها على بناء الكنائس المسيحية فيما بعد .

(١) - كان مجلس الشيوخ الهيئة الاستشارية الرئيسية في روما . تبين هذه الصورة . التي رسمها ماكاربي في القرن التاسع عشر ، ايتوس كلوديوس وهو يحاول اقناع مجلس الشيوخ ان يرفض مقترحات السلام التي تقدم بها ييروس الايري عام ٢٨٠ ق . م .

(٢) - شيد البناء الرسمي العام (الباسيليقا) في بومبيي

فتح جميع ابواب الادارة أمامهم ، الا عن قيام تحالف بين طبقة الأشراف والطبقة الطموحة من أغنياء العامة . وهذا ما أدى الى نشوء حكم الأقلية (الأوليغاركية) الذي اتصف بالاستئثار ذاته الذي كان يتمتع به نبلاء البطريركيين في السنين الأولى .

بنية الجمهورية السياسية

كان مجلس الشيوخ ومجلس الشعب

يؤلفان السلطة التشريعية في الجمهورية . فيما كان الحكام (٨) يشكلون السلطة التنفيذية . كان الشيوخ الثلاثمائة (١) ينتخبون من بين حكام سابقين من قبل « المراقبين » اولئك الذين كانوا يراقبون الاخلاق العامة . كان مجلس الشيوخ في الأساس هيئة استشارية ، لكنه كان يتمتع بصلاحيات مراقبة مالية مطلقة ، وبحق اقتراح القوانين ، كما كان في الواقع هو الذي



يتخذ القرارات الحيوية ، الخاصة بالحرب والسلام ، والسياسة الخارجية بصورة عامة . وكان لمجلس الشعب الذي يمثل عامة الناس ان يقترح القوانين ايضا . واصبحت لقراراته سلطة القانون بعد عام ٢٨٧ ق . م . ولكنه كان بصورة عامة . يوافق على التشريع المقترح أو يرده .

كان الحكم في روما في العهد الجمهوري بيد اثنين يسميان قنصلين . مجلس الشيوخ

هو الذي يرشح للقنصلية ، أما الانتخاب لها فتقوم به لجنة المائة ، وهي جمعية كان للمواطنين الأغنياء فيها قوة اقتراع غير متكافئة مع عددهم . وكان للقنصلين سلطة كبيرة ، فهما يرئسان مجلس الشيوخ ويقومان بدور القائدين الأعلى في حالة الحرب . دونهما رتبة كان يأتي المديرون ويتراوح عددهم بين اثنين وثمانية ، وكانت مهامهم الرئيسية تتعلق بتطبيق القانون . كان



الموظفون المدنيون

المتأخرة كانت الدعاوى الجنائية تحال الى محاكم خاصة . حيث كانت العقوبات غالبا النفي ، أو التجريد من الجنسية . أو الاشغال الشاقة . كان أهم انجاز للنظام القانوني الروماني تصنيف التشريعات بشكل تتضح معه حقوق المواطنين .

(٦) - في هيكل فسباسيان في بومبي مشاهد قرايين على مذبح مكرس للعبادة الامبراطورية الرومانية . كانت تضحية الحيوانات ، مثل الخنازير والخراف والثيران . عنصرا عريقا في العبادات الرومانية المعقدة . بواسطته يلتبس الرضى الالهي .

(٨) - كان لمعظم موظفي روما المدنيين (داخل الدائرة الخضر) مهام قانونية وادارية . أما القادة العسكريون ، فكانت مسؤولياتهم عسكرية صرفا .

(٧) - كان حكام روما يتمتعون بسلطة ونفوذ واسعين . فالدعاوى المدنية كانت تعرض أولا على الحاكم ، كالذي يظهر في الصورة . قبل ان تحال الى القاضي ليفصل فيها . في الحقبة الجمهورية



محاسبون اربعة مسؤولين عن مالية الدولة .
بينما يشرف مراقبان على عقود الدولة
والاخلاق العامة ، وقد شملت سلطة هذين
المراقبين ، في اواخر عهد الجمهورية ، حق
مراقبة اعضاء مجلس الشيوخ ، وعزلهم عند
الضرورة .

كانت الشوارع والهيكل والاشغال العامة
وامدادات الحبوب والالعب العامة تقع تحت
مسؤولية خفراء المباني . وكان ١٢ مرافقا
يتقدمون القنصلين ، واثنان يتقدمان
المديرين ليشقوا الطريق أمامهم ، وهم
يحملون رزمة من العصي تتوسطها بلطة .
وكان القضاة العشرة مسؤولين عن الدفاع عن
عامة الشعب ، ويتمتعون بحق نقض تصرفات
الحكام او القوانين . وفي القرن الثاني
ق . م ، أصبح من حق هؤلاء القضاة ان
يكونوا اعضاء في مجلس الشيوخ .

سلطة القناصل

في نهاية السنة التي كان القناصل
والمديرون (البريتورون) يقضونها في الحكم ،
كانوا ينقلون من روما الى المقاطعات ، وكان
مجلس الشيوخ يقرر أي المقاطعات يجب ان
تصبح قنصلية وأنها مديرية (بريتورية) .
ولتفادي الفساد ، كان هذا القرار يتخذ قبل
انتخاب اولئك الحكام . اما المقاطعة التي
سيتمولاها الحاكم فكانت تقرر بالقرعة . لكن
سلطة القناصل لم تكن تتعدى حدود
المقاطعات . كما ظهر ذلك عندما اجتاز
يوليوس قيصر نهر الروبيكون عام ٤٩ ق . م ،
فاعتبر ذلك بمثابة اعلان حرب منه على
مجلس الشيوخ . كان الحكام يحتفظون
بمقاطعاتهم لمدة سنة واحدة فقط ، الا اذا تم

تجديد ولايتهم .

كان الكاهن الأعظم أهم شخصية دينية ،
وكان هو الرئيس المنتخب لهيئة الكهنة التي
كانت تشمل ايضا عذارى فيستا (٥) (كن
يعملن على ابقاء النار المقدسة في هيكل
فيستا مشتعلة) وكهنة ممن كان كل واحد
منهم مسؤولا عن عبادة أحد المعبودات .
خارج تلك الهيئة ، يأتي العرافون الذين كانوا
يقررون على اساس بعض الاشارات او
العلامات ، مثل تصرفات الطيور ، ما اذا كان
يجب الاقدام على عمل ما أو الاحجام عنه .

كان الرومان يعبدون عدة معبودات من
اصل يوناني . كان سيد المعبودات هو
جوبيتر الذي شيد له هيكل على الكابيتول .
كان أمن الجمهورية وتوسعها المتواصل
(الى ان اصبحت بحجم امبراطورية عظيمة)
يتوقفان على انضباط جيشها وشجاعته . من
الواضح ان سجل انتصارات هذا الجيش على
دول كقرطاجة ومقدونيا وسوريا مما يثير
الاعجاب ، اذا اعتبرنا ان هذا الجيش كان ما
يزال عبارة عن ميليشيا مؤلفة من المواطنين ،
يستدعيها القناصل لمعالجة أحوال طارئة
معينة .

الضرائب وجبايتها

كان معظم الضرائب الرومانية غير
مباشرة ، ويشتمل على رسوم الجمارك ، وعدد
من الرسوم الخاصة ، كتلك التي كانت تفرض
لدى اعتاق العبيد . اما الجزية ، وهي ضريبة
مباشرة ، فكانت تجبى بالدرجة الاولى في
ايام الحرب . كان المراقبون يقررون نوع
الضرائب المتوجبة على الطبقات المختلفة .
بينما كان المحاسبون يتولون امر جبايتها .

الحياة الرومانية

ان المقياسين كانا كثيرا ما يندمجان معا . كانت اعلى طبقة تتألف من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا ، في معظم الحقبة الجمهورية ، من النبلاء . أما الطبقة الثانية ، وهي الفرسان ، فقد استمدت معظم ثروتها الضخمة من الاعمال التجارية ، مثل الاعمال المصرفية . كان أعضاء الطبقات العليا يمارسون السلطة ، ليس على افراد عائلاتهم فقط ، بل على عدد من الاتباع ايضا يعرفون

في روما ، كما في سائر المجتمعات ، كان نمط الحياة التي يعيشها الناس يتوقف الى حد بعيد على الطبقة الاجتماعية التي ينتمون اليها . فالنظام الطبقي بصورة عامة كان يركز على الثروة لا على المولد ، مع



٢



٣



(١) - كان منزل ميناندر في بومبي فيلا ريفية اكثر مما كان منزلا مدنيا . كانت غرفة الاستقبال الرئيسية ، في وسط الفيلا الرومانية . تعرف بالاتيروم ، وهي تحتوي على قسط رائع من الأجر والمرمر والرسوم الجدارية . وفي وسط صحن البيت كانت بركة الماء التي يهطل المطر فيها وتدعى « إمبروفيوم » .

سائر الاثاث . وكان ، كما يتضح هنا ، يقسم الى عدة شقق صغيرة . كان من المألوف في العصور الامبراطورية ، مشاهدة مجموعات عديدة من الشقق المبنية في الغالب بناء رخيصا .

(٢) - كان للعديد من المنازل الرومانية معبد خاص مكرس لأرواح منزلية . تعرف باسم (الأريس) ويقدم لها الطعام والأزهار .

(١) - حفظت خرائب بومبي تحت الرماد . بعد انفجار بركان فيزوف عام ٧٩ م الذي وصفه لنا بليئس الأصغر . كشف التنقيب هناك عن سجل فريد للحياة الرومانية .

(٢) - احتفظ عدد من المنازل في هركولانيوم بطابقه الثاني . فالبيت الظاهر هنا ، وهو منزل الكراتيكيو ، لا يزال يحتوي على أسرته الأصلية في غرفتين علويتين . فضلا عن

بالموالي . اما الطبقة الثالثة من المواطنين
الكاملين . وهم العامة او البليييون ، فقد
حصلت على المساواة السياسية التامة بعد
صراع مديد . وعندما سمح لابنائها باشغال
مناصب الحكام ، اصبح اولئك يستطيعون
الارتقاء الى اعلى طبقة اجتماعية .

العبيد والرومان

في قاعدة الهرم الاجتماعي كانت تقع

طبقة العبيد ، فالنظام المستقر للحياة
الرومانية كان يتوقف على كدح العبيد ،
الذين كانوا يشكلون ما قد يصل الى نصف
سكان أية مدينة طيلة العصر الجمهوري .
كان على العبد ان يخضع لسلطة سيده
المطلقة .

أثناء الحقبة الامبراطورية ، تحسنت
معاملة العبيد بعض التحسن ، اذ منحوا بعض
الحماية ضد الاسياد القساة . لكن التطور



(٥) - بعد حفريات مصرية ،
تم الكشف عن طريقة العيش
في هركولانيوم ، وهي بلدة
تقع بين نابولي وبومبيي .
كان انفجار بركان فيزوف عام
٧٩ م قد غطاها بطبقة من
الوحل الذي حفظ قسما كبيرا
من المدينة الاصلية . تبين
القيفساء هنا رجلا وامراة
تخدمهما أمة .

(٦) - وجد هذا الرسم النافر
على حجر رملي في بلاد
الغال ، وهو يمثل مدرسة ،
المعلم يجلس بين تلميذيه ،
وهما يفتحان درجيهما استعدادا
للدرس . كان النظام التربوي
قاسيا والعقوبة الجسدية شائعة .
وكان يرافق ابناء الاسرة الغنية
الى المدرسة عبد يخص
الأسرة او عتيق يُعرف بمرافق
الطفل ، وكان أحيانا مدرسا
ايضا . كان الاولاد يرتدون
معاطف دافئة وأحذية سمكة
لتحميهم من قسوة المناخ
الشمالي .

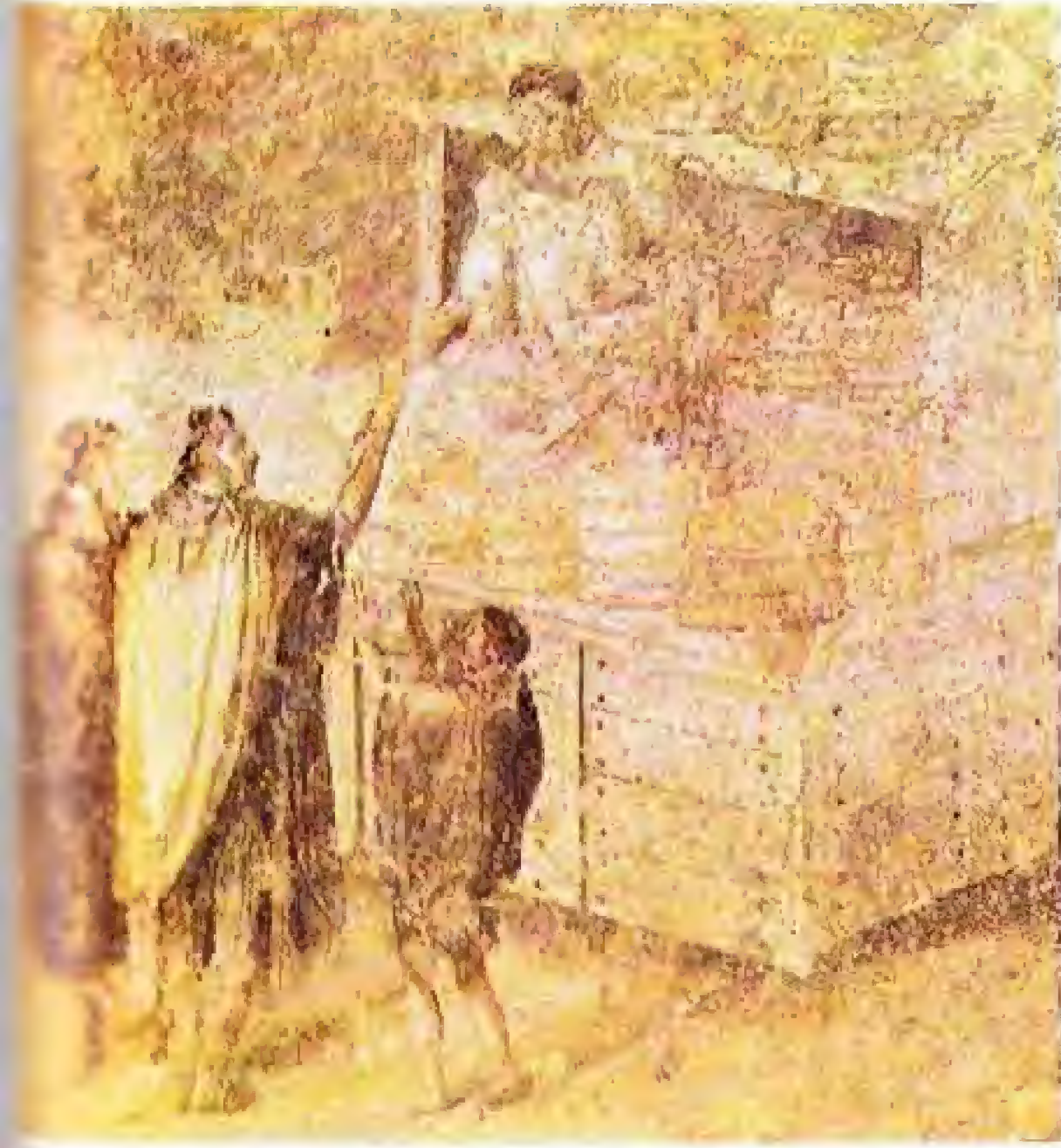


الحقول او المطاحن . بينما كان يمكن لأقرانهم في المدن ان يحظوا بمعاملة حسنة نسبيا .

التربية واعداد المهنة

ربما يكون لابن أسرة غنية من الطبقة العليا طموح سياسي ، لكنه كان يبدأ عادة بالتدرب على المحاماة ، فيصبح اما محاميا امام المحاكم او مستشارا قانونيا . لم تكن

الأكثر أهمية هو ان العبيد أصبحوا يستطيعون التطلع بمزيد من الثقة نحو اعتاقهم النهائي . وأصبح عدد من العبيد المعتقدن أغنياء ومتنفذين جدا فيما بعد . وأصبح ابناؤهم مواطنين رومانيين كاملين . كانت حياة العبيد تختلف اختلافا عظيما لاسيما بين القرية والمدينة . ففي القرى ، كان من المحتمل ان يعملوا ساعات طوال في القيام بأشغال مرهقة في المزارع او الاقطاعات او



الظاهر في الصورة في بومبيي . وكان هذا القرن يحوي عددا من الارغفة ما زالت على حالها . يزن كل منها حوالي ٩٠٠ غرام .

(٧) - كان اصحاب الحوانيت الرومان يعملون ساعات طويلة في اليوم . وكانوا يجلبون منتوجاتهم الى المدينة ليلا ، ليتجنبوا ازدحام السير نهارا . يشمل هذا النحت النافر لدكان خضار في اوستيا صورا لخضار شتى .



(٩) - هذا الدكان الخاص ببيع الدجاج كان يوجد في اوستيا ، التي كانت قديما ميناء روما . كان شيشرون يعتبر ادارة الحوانيت أدنى الاعمال على لائحة الوظائف التي تناسب اصحاب الذوق الحسن ، لكنها افضل من الرقص .

(٨) - يبدو ان عملية الخبز كانت تتم في المنازل ، حتى القرن الثاني ق . م . وكان العبيد يديرون رحي الطواحين . بمساعدة الحمير . جرى اكتشاف مخبز كهذا

بقية المهن تعتبر جدرة بالاحترام فعلا .
ففي اكثر فترات الجمهورية ، كان معظم
الاطباء ، والمهندسين ، واطباء الاسنان عبيدا
او عتقاء . كما كان الكتاب لا يتوقعون كسب
الكثير من المال من كتاباتهم ، الا اذا
استطاعوا الاعتماد على غني يشجعهم
ويحميهم ، كما شجع ماسيناس الشاعر
فرجيل . الا ان معظم الرومان لم يكونوا
اغنياء او متنفذين . ومع ان العمل اليدوي
كان يعتبر غير لائق بالمواطن ، فقد كافحوا
لكسب عيشهم ، كخبازين واصحاب حوانيت
ومهنيين من كل نوع ، واستخدموا في الغالب
عبدا او عبيدين لمساعدتهم . كان بعض الشبان
يلتحقون بالجيش الذي اصبح ، بعد
اصلاحات القنصل ماريوس في اواخر القرن
الثاني ق . م . جيشا محترفا مؤلفا من
متطوعين . كانوا يحصلون على اقطاع صغير
عند تقاعدهم .

كان معظم اولاد المواطنين الرومان
يتلقون قسطا من التربية الرسمية ، مع ان
الذكور فقط كانوا يأملون بالاستمرار الى ما
وراء المرحلة الابتدائية . في ظل
الامبراطورية ، كان قسم من التعليم متوفرا
بالمجان للطلاب الفقراء ، فيما كان الآباء
يدفعون قسطا زهيدا على العموم . كان
الاولاد بين السابعة والثانية عشرة يتعلمون
المبادئ العامة للقراءة والكتابة والحساب
على يد كاتب محترف (أديب) . بعدئذ
كانوا يستطيعون ، اذا ارادوا ، الدراسة على
يد نحوي يعلمهم الادب اليوناني واللاتيني ،
كما يتلقون مبادئ الهندسة والحساب
المتقدم . المرحلة الثالثة من التعليم كانت
على يد خطيب يعلمهم مبادئ الخطابة

العامة ، وهي مهارة كانت ضرورية للنجاح
في السياسة وفي المحاكم . واخيرا كان بوسع
الطلاب الاغنياء ذوي الطموح ان يتقدموا
حتى المستوى المعادل للجامعة ، فكانوا
يدرسون القانون عند محام معروف او في
مدرسة الحقوق ، او الخطابة والفلسفة
اليونانيتين . مما كان يقتضي ملازمة أحد
مراكز العلم اليونانية الكبرى ، وكانت أشهرها
آنذاك اثينا ورودس .

الالعاب الرياضية للمحترفين والمتفرجين
كانت الالعاب الرياضية عند الرومان
تصنف في نوعين : العاب للمتفرجين ،
والعاب للمحترفين . من النوع الاول كانت
المهرجانات العامة التي تقام في المدرجات ،
وهي التي وصفها الكاتب الساخر جوفينال
« بالخبز والسيرك » . كانت هذه الالعاب
تشمل الحفلات الموسيقية والقاء القصائد
وتمثيل المسرحيات ببذخ غير عادي أحيانا .
الا ان ما كان يجذب الجماهير هو مباريات
المصارعة التي كان المجالدون يتصارعون فيها
بعضهم مع بعض ، أو مع السباع حتى
الموت ، وسباق المركبات المثير والمحفوف
بالأخطار .

لم يعط الرومان التمارين البدنية الأهمية
التي اعطاها اياها اليونان . الا ان عددا من
شباب الطبقات العليا كانوا فرسانا وصيادين
متحمسين ، كما كان كثير منهم يجد متعة
في الملاكمة والمصارعة . وكان ثمة عدد من
العاب الكرة ، ما زالت تفاصيلها حتى الآن
غامضة الى حد ما . اما الاطفال فكانوا
يمارسون عددا من الالعاب التي مارسها
الاولاد في جميع العصور .

من الحروب الأهلية الى قيصر

شرسة ، في محاولتهم ترسيخ نفوذهم او المحافظة عليه . كان يوليوس قيصر (١٠٠ - ٤٤ ق . م) الشخصية البارزة التي توصلت ، مع مساهمة ماريوس وسولا وبومبي ، الى القضاء على شكل الحكومة القديم .

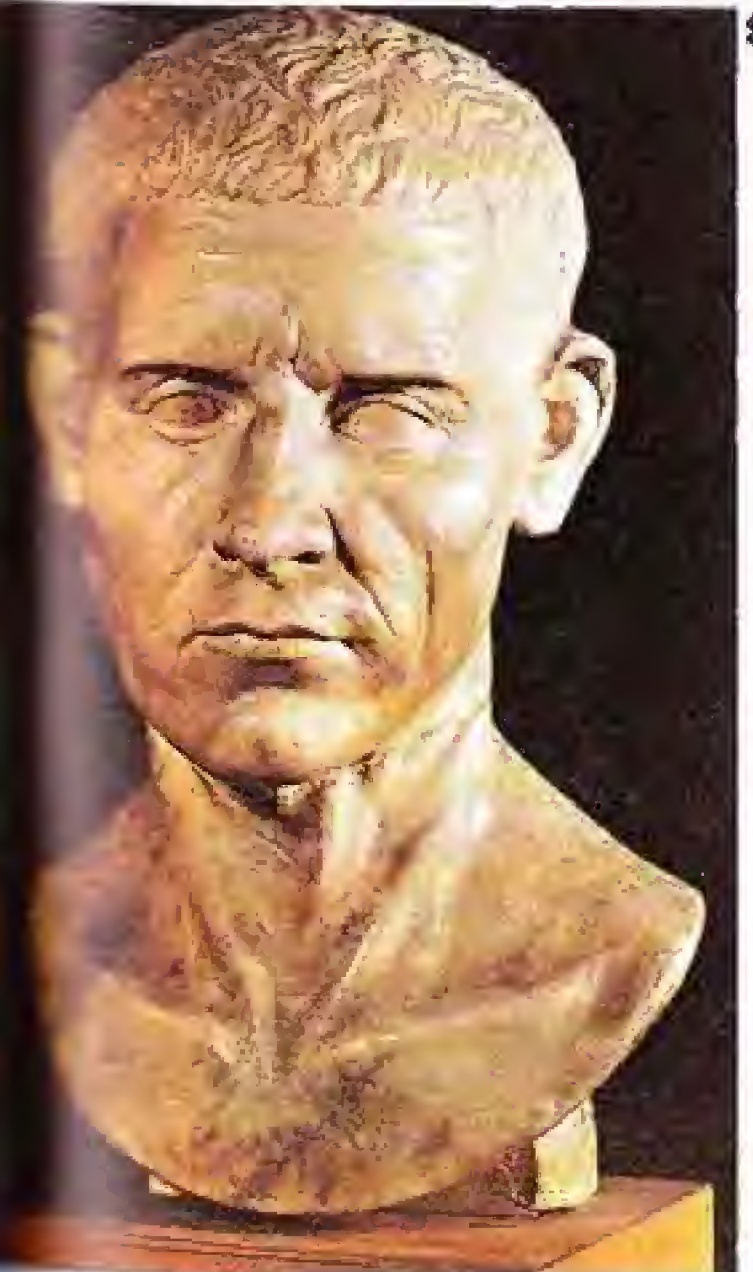
النزعات السياسية

كان ماريوس زعيم الحزب الشعبي (البليبي) المعارض لأي سلطة ينتحلها

كانت الفترة الممتدة من حوالي ١٠٠ ق . م حتى ٤٢ ق . م ، التي سبقت سقوط الجمهورية الرومانية وحلول الامبراطورية الرومانية مكانها ، حقبة اضطراب وانقسام ، استعمل فيها اصحاب النفوذ والطموح اساليب



٢



٤

ق . م كفاحه ضد روما الذي دام لمدة ٢٥ سنة . احتل ميثريداتس آسيا الصغرى وغزا اليونان . قبل ان يوقع صلحا مع سولا . انتهت حربه الثانية عام ٨٢ ق . م . بسرعة . ولكن الحرب الميثريداتية الثالثة دامت من ٧٤ حتى ٦٦ ق . م عندما جعل بومبي بونتوس وبيثينيا مقاطعة رومانية . قتل ميثريداتس نفسه عندما قاد ابنه فارناسيس ثورة ضده .

من بعض الانتصارات الرومانية . ثم قاد ماريوس ، الذي اصبحت قنصلا عام ١٠٨ ق . م ، جيشا مؤلفا من فقراء روما . نحو افريقيا . وهزم يوجورثا . وبعد ان غرض يوجورثا في مهرجان انتصار ماريوس في روما ، قُتل خنقا .

(٣) - سيطر ميثريداتس السادس ، ملك بونتوس ، على بلاد القرم . وقسم كبير من روسيا الجنوبية . بدأ عام ٨٨

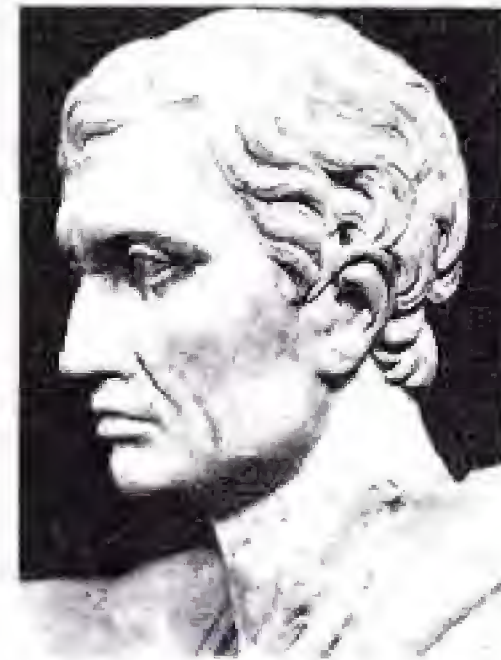
(١) - يبين تحت نافر من هيكل فورتونا بريميجينيا ، في برينستي . بارجة حربية تعود الى القرن الاول ق . م . وفيها جنود متأهبون للقتال بالسلاح الابيض .

(٢) - استولى يوجورثا ، حفيد ماسينيسا ، على عرش نوميديا عام ١١٢ ق . م وقتل عددا من الرومان في تلك العملية . أرسلت روما جيشا لمحاربته . لكن الحرب طالت على الرغم

اعتباطيا مجلس الشيوخ . وفي عام ١٠٨ ق . م ،
انتخب قنصلا للمرة الاولى (انتخب فيما بعد
لهذا المنصب ٦ مرات أخرى) . كان قائدا
عسكريا لامعا ، لكنه لم يثبت مهارة مماثلة
في عمله السياسي ، لذلك تضاعف نفوذه . وفي
عام ٩٠ ق . م . قام زعيم شعبي آخر هو
دروسوس وبعث . من جديد ، المطالبة بمنح
حق المواطنة لجميع الايطاليين . لكن مصرعه
عجل في « اندلاع الحرب الاجتماعية » التي



(٤) - حاز لوسيوس
كورنيليوس سولا على شهرته
العسكرية اثناء « الحرب
الاجتماعية » . انتخب قنصلا
عام ٨٨ ق . م وتسلم القيادة ضد
ميشريداتس . استعمل سلطته
كدكتاتور فيما بعد . ليفتك
بخصومه . ويفرض تشريعات
لمصلحة مجلس الشيوخ . أصلح
سولا القانون الجنائي وأنشأ
محاكم جديدة تختص
بجنايات معينة .



(٥) - كان يوليوس قيصر ،
الذي ولد عام ١٠٠ ق . م ، ابن
احدى العائلات النبيلة
(البطريقية) الشهيرة . كانت
عمته زوجة الزعيم الشعبي
ماريوس . وكانت زوجته ،
كورنيليا ابنة سينا ، الذي كان
خليفة ماريوس . كانت اواصر



أرهق روما فيها انتقاض حليفاتها عليها ، ولم
تنتصر آخر الأمر الا بعد تلبية معظم مطالب
تلك الحليفات .

سببت هذه الحرب للقضية الشعبية شيئا
من الفوضى . وعندما ثار معظم الجزء
الشرقي ، من الامبراطورية ، بزعامة
ميشريداتيس (١٣٣ - ٩٠ ق . م) ملك
بونتوس (٣) . أسندت قيادة حملة القمع الى
الارستقراطي سولا (١٣٨ - ٧٨ ق . م) (٤)

٧ القراية هذه مدعاة لاستياء سولا
المحافظ ، فغادر قيصر روما .
لدى وفاة سولا ، قفل قيصر
راجعا ، ولمع كمحام وخطيب ،
ثم أخذ في التدرج السياسي .
حتى أصبح محابيا
(كايستور) في اسبانيا . بعد
وفاة كورنيليا . تزوج حفيدة
سولا الغنية بومبيلا ، وعمل
على ان يصبح زعيما حزبيا ذا
شعبية . انتخب لمنصب مدير
(بريطور) لعام ٦٢ ق . م .
فمهد ذلك لصعوده الحثيث نحو
ذروة السلطة المطلقة في
روما .

(٦) - كانت تعوز بومبي
الكبير عبقرية قيصر
العسكرية . كما كان دونه
مهارة في السياسة . لكنه كان
اداريا لامعا وقائدا عسكريا لا
يرحم . حاز على السلطة ، لا
عن طريق ايجاد الفرص
المؤاتية . بل بترقب الأحداث
التي كانت تقضي بدعوته
لتولي القيادة .

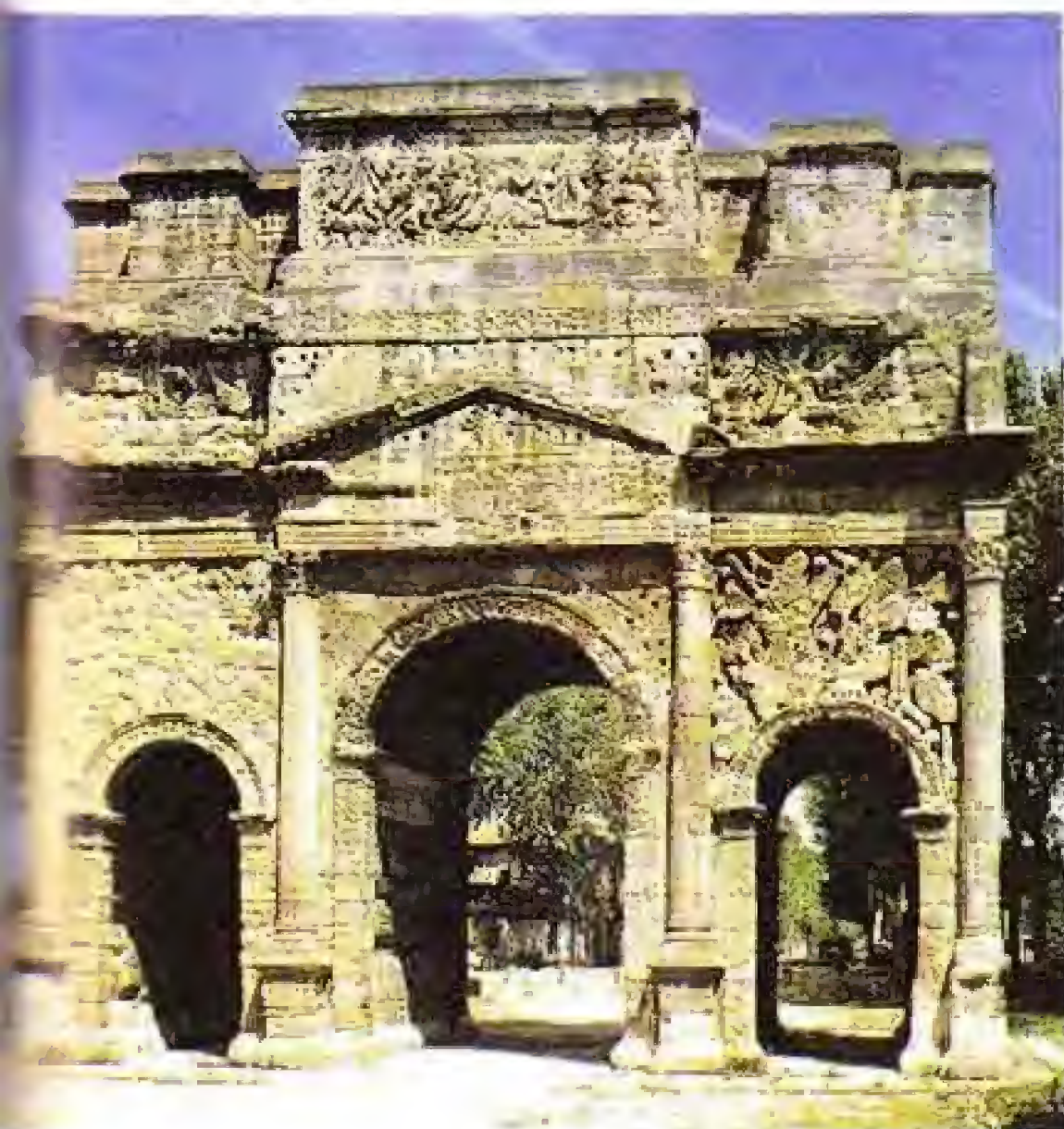
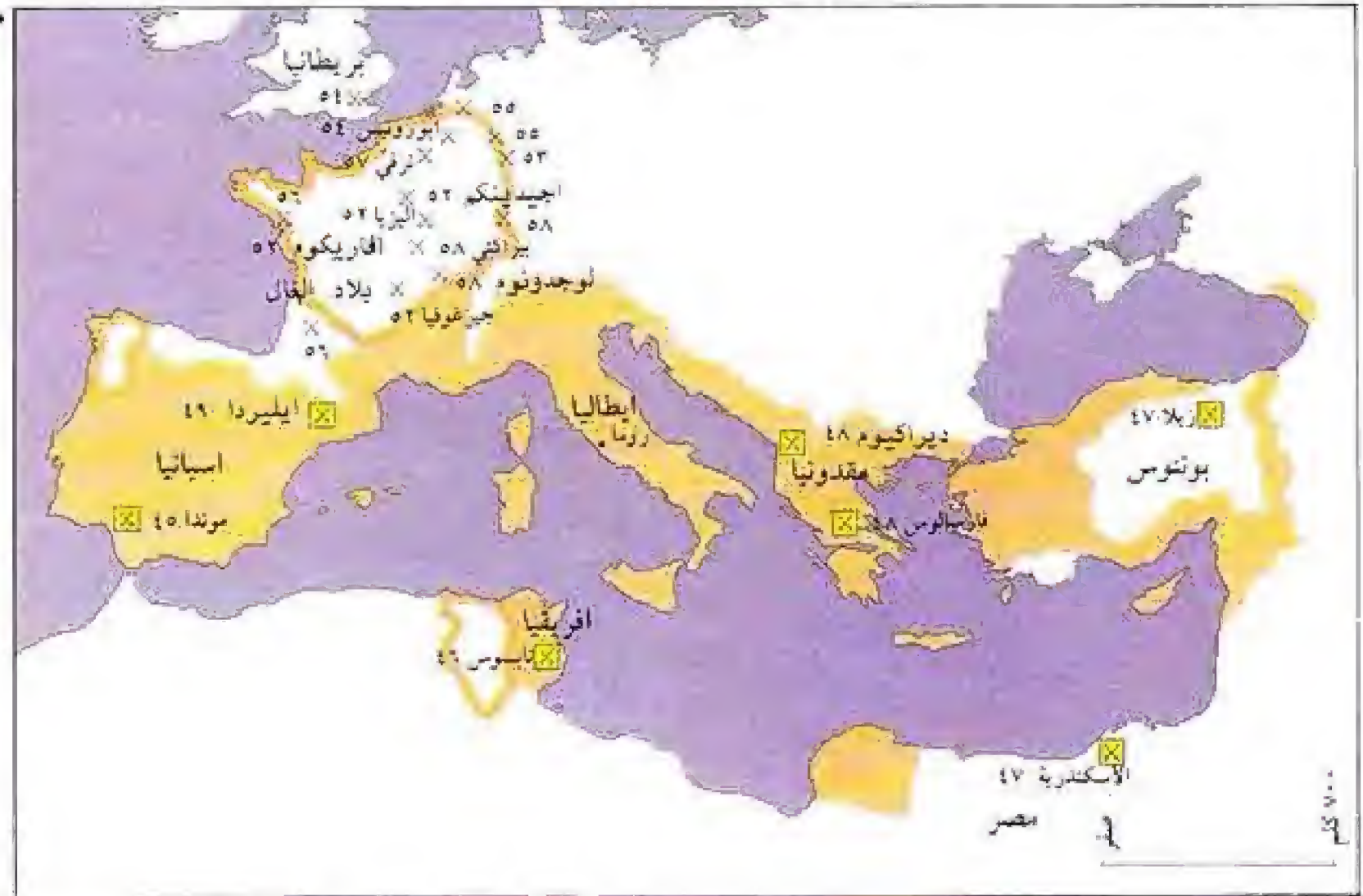
(٧) - كانت أدوات الجندي
المعادية . في العهد الجمهوري
المتأخر ، تتألف من سيف قصير
وترس .

(٨) - كان برج الحصار
الروماني يقسم الى عدة
طبقات ، ويبلغ ارتفاعه حوالي
٥٥ مترا . كان يُجرّ بالحبال
والجرارات الى المكان المطلوب ،
عبر طريق مهدت لهذه الغاية .
كان الرماة يرشقون المدافعين
بسهامهم ، ويقصفون قاعدة السور
بالمجنيق .

وكراسوس (١١٥ - ٥٣ ق . م) . وبدأ عهدا من الارهاب . ففتك باعدائه ونصب نفسه دكتاتورا . حد سولا بشكل جذري من سلطات ممثلي الشعب والقناصل . وزاد في سلطات مجلس الشيوخ . ولكن على اثر استقالته في عام ٧٩ ق . م ظهر عجز مجلس الشيوخ عن استعمال سلطاته . بصورة فعالة . فانتشر الفساد . لاسيما في المقاطعات . وفي اسبانيا . خاض بومبي حملة طويلة ضد

لكن الحزب الشعبي أسند القيادة لماريوس . فزحف سولا فورا على روما . وأكره ماريوس على الهرب . بعد ان اتخذ سولا اجراءات عديدة ضد خصومه . توجه نحو الشرق . حينئذ عاد ماريوس الى روما . وشرع بحملة دموية للفتك بخصومه السياسيين .

عاد سولا الى ايطاليا من الشرق عام ٨٣ ق . م . شاقا طريقه الى روما بمساعدة قائدين قوين هما بومبي (١٠٦ - ٤٨ ق . م)



(١٠) - كانت كليوباترا ملكة مصر عشيقه قيصر ثم انطونيوس . حملت ابنا لقيصر وتبعته الى روما . وبعد وفاته عادت الى مصر وتزوجت مرقس انطونيوس عام ٣٧ ق . م .

(١١) - قوس النصر في اورانج بفرنسا هو ثالث اضخم قوس روماني ما زال قائما . وهو يخلد ذكرى انتصارات قيصر في بلاد الغال . كما تخلد ذكرى فتح مرفأ مرسيليا رسوم المراسي ومقدمات السفن والخيال .

الممتلكات الرومانية سنة ٦٣٨ ق . م .
فترات بوليوس قيصر
حملات في الغال واسبانيا
حملات الحرب الأهلية

(٩) - شن بوليوس قيصر حملات ناجحة بين ٥٨ و ٥١ ق . م ضد الهلثيين والبلجيين والبنديين والاكيتانيين اجتاح سائر بلاد الغال . وجعلها مقاطعة جديدة هي غال ما وراء الألب . وقد نزل في بريطانيا مرتين . عام ٥٥ ق . م و ٥٤ ق . م . كانت الحملة الثانية ضخمة . وتوغل فيها قيصر شمالا . الى ما وراء سانت الهانس .

سيرتوريوس . أحد مؤيدي ماريوس . في هذه الأثناء قاد سبارتكوس (توفي عام ٧١ ق . م) ثورة للعبيد . وبث الرعب في جنوب إيطاليا لمدة سنتين .

وُحِد بومبي وكراكوس صفوفهما ليظفرا بالسيطرة على روما . وفازا بانتخاب غير قانوني بمنصبي القنصلين عام ٧٠ ق . م . وسرعان ما أبطلا تشريعات سولا المؤيدة لمجلس الشيوخ . ورفعوا رايتهما الى جانب الحزب الشعبي .

الحكومة «الثلاثية» الأولى (التريومفيرا)
لدى عودة بومبي الى روما . لقي استقبالا فاترا من مجلس الشيوخ . فانضم الى كراسوس ويوليوس قيصر (٥) الذي كان قد عاد من اسبانيا . حيث كان حاكما . وألفوا جميعا الحكومة الثلاثية الأولى . واسندت الى يوليوس قيصر . بعد توليه منصب قنصل لمدة سنة . في ٥٩ ق . م . قيادة بلاد الغال لخمس سنوات .

في عام ٥٥ ق . م كان بومبي وكراسوس قنصلين . بينما حصل قيصر على تمديد قيادته لمدة خمس سنوات أخرى . اختفى كراسوس عن المسرح . اذ انتهت حملة سيئة التخطيط . شنها على بارثيا . بمقتله في معركة كاراي . حصل بومبي على اسبانيا . كمقاطعة له . لكنه فضل ان يبقى في روما . ليدبر المؤامرات مع أتباعه . ضد قيصر . الذي كانت حملاته الناجحة في بلاد الغال (٩ ، ١١) مصدر قلق له . وبعد أن أتم قيصر اجتياح بلاد الغال بكاملها . وقام بهجومين استكشافيين على بريطانيا . اصبح مستعدا للعودة الى روما على رأس فيالقه المخلصة .

بعد محاولات فاشلة لتحقيق تسوية أو مصالحة بين الطرفين . أصدر مجلس الشيوخ أمرا لقيصر عام ٤٩ ق . م بتسريح جيشه . فأسرع هذا الى اجتياز الروبيكون . وهو النهر الفاصل بين مقاطعته وإيطاليا . وزحف على روما . وهكذا القى بإيطاليا في لجة حرب أهلية . هرع بومبي الى اليونان على أمل تعبئة موارد الشرق . ضد قيصر . لكن هذا قام بسحق القوات الموالية لبومبي في اسبانيا . ودحر بومبي نفسه في فارسالوس بتساليا عام ٤٨ ق . م . ثم طارده الى مصر . حيث لاقى مصرعه . هناك بدأ قيصر مغامرته المعروفة مع الملكة المصرية كليوباترا السابعة (٦٩ - ٣٠ ق . م) (١٠) . فأخر بذلك عودته الى روما . لكنه استطاع . في مدى سنتين . ان يحكم السيطرة الرومانية على افريقيا . واخيرا وطد سلطته بشكل تام . بقمع ثورة قام بها ابناء بومبي في اسبانيا .

نهاية الجمهورية

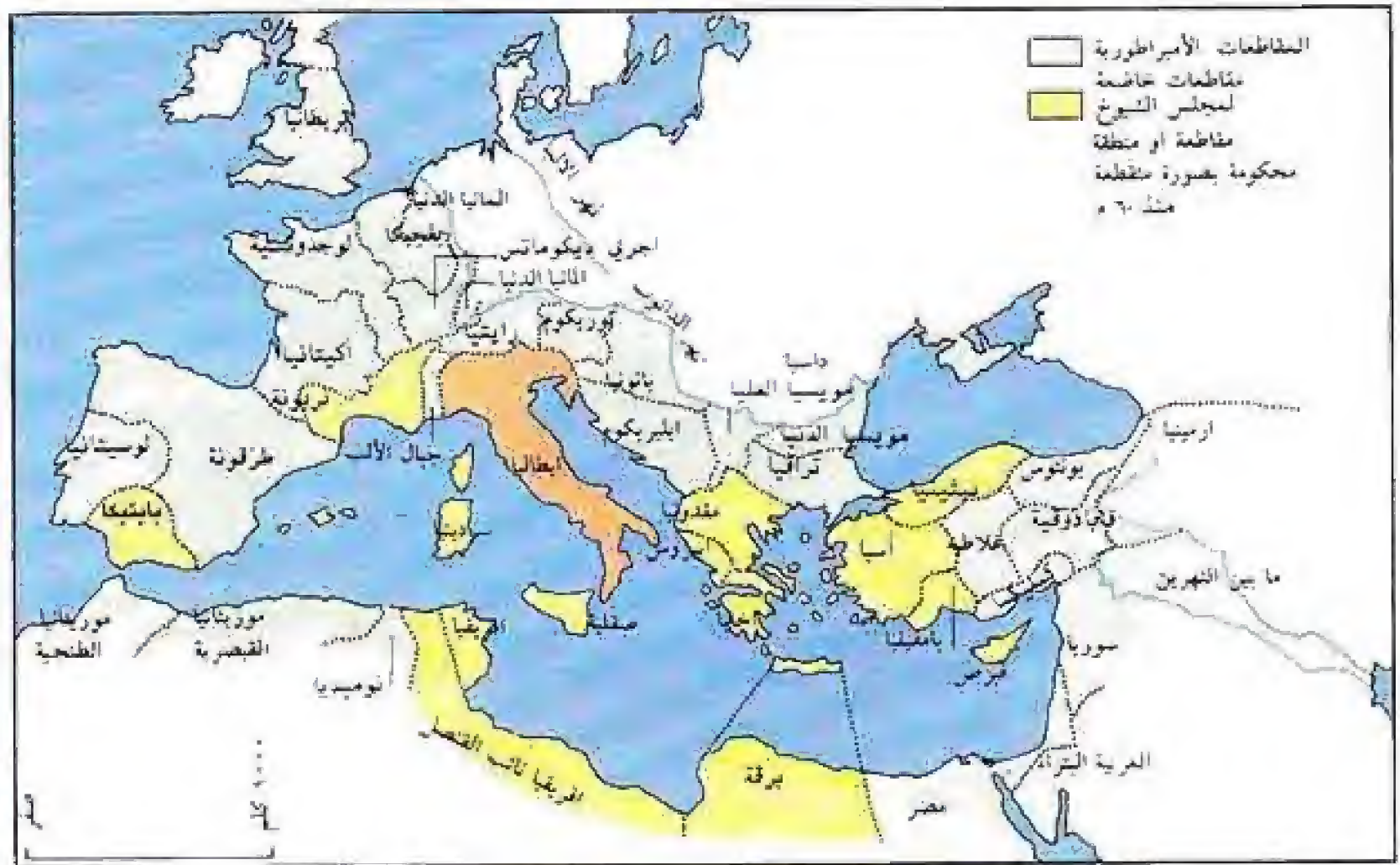
كان مصدر سلطة قيصر الرئيسي منصب الدكتاتور الذي تولاه مرتين . قبل ان يتقلده لمدة عشر سنوات في عام ٤٧ ق . م . حشد قيصر انصاره في مجلس الشيوخ . وعين بنفسه بعض القضاة . ومع انه أنكر أي طمع بالملكية . فقد قبل آخر الأمر منصب الدكتاتور لمدى الحياة . دبر بروتوس (٨٥ - ٤٢ ق . م) وكاسيوس (توفي ٤٢ ق . م) مؤامرة واغتالا قيصر . في أحد اجتماعات مجلس الشيوخ في ١٥ مارس عام ٤٤ ق . م . أملا بانقاذ الجمهورية . لكن هذه كانت قد ضعفت الى درجة اليأس .

روما الامبراطورية

السياسية منعت من تجاهل الشعور الجمهوري القوي في روما . عندما عاد من الشرق عام ٢٩ ق . م . تظاهر باعادة بناء الجمهورية . لكنه شرع بتوطيد سلطته المطلقة في اطار النظام الجمهوري ذاته .

أصبح اوكتافيان السيد غير المنازع للجمهورية الرومانية . بعد انتصاره على مرقس انطونيوس في معركة أكيوم عام ٣١ ق . م . مما لا شك فيه انه كان ينوي تأسيس سلالة ملكية شخصية . لكن حنكته

أغسطس : « الأول بين الأنداد »
خلع مجلس الشيوخ على اوكتافيان لقب « المواطن الاول » ولقب أغسطس الذي عُرف



(١) - كانت الامبراطورية الرومانية في أوج عزها في القرن الثاني الميلادي وكانت تنقسم نظريا الى مقاطعات تحت سلطة مجلس الشيوخ او سلطة الامبراطور . لكن في الواقع . كانت للامبراطور صلاحية التدخل في المقاطعات الخاضعة لمجلس الشيوخ . اما ايطاليا فكانت تحكم وفقا لصيغة للدستور الجمهوري أدخل عليها بعض التعديل .

(٢) - تزايدت شعبية مياريات السباق . لاسيما سباق العربات

(٣) - جنود الفيالق الرومانية واسراهم يظهرون هنا على عمود تراجان . وهو نصب

تذكاري في روما يخلد انتصارات الامبراطور داسيا . وسع تراجان الامبراطورية الى ابعد حد . اذ قطعت كتابته الدانوب متجهة الى داسيا . بفضل الجسر الذي بناه المهندس السوري ابولودورس الدمشقي . ثم انطلقت جنوبا نحو دجلة والفرات . حتى الخليج العربي . الا ان هذه المناطق لم تهدأ قط . فكان الدفاع عنها يستنزف موارد الامبراطورية العسكرية والمالية .

(٤) - شبكة الطرقات والمسالك البحرية . التي كانت تربط انحاء الامبراطورية

به فيما بعد (٨) . بالإضافة الى ذلك . حصل اغسطس على منصب قنصل وسلطة التريبونوس (اي المدافع عن الشعب) المشتملة على حق دعوة مجلس الشيوخ الى الانعقاد . ووضع جدول الاعمال . ونقض القرارات . وترشيح اشخاص للانتخاب . واصدار المراسيم . هكذا استطاع اغسطس ان يمارس تأثيرا على حكومة روما وايطاليا . ويباشر برامج تنمية واسعة .

قُسمت حكومة الامبراطورية (١) الى المقاطعات القديمة المستقرة . التي كان يحكمها نواب القنصل المنتخبون من مجلس الشيوخ . والمقاطعات الجديدة العسكرية التي كان يحكمها ممثلون يعينهم اغسطس بنفسه كنواب للقنصل . ولهم سلطات خاصة على جميع الآخرين . أعيد تنظيم الجيش فُوض تحت سلطة الامبراطور المباشرة . واصبح قوة مؤلفة من ٢٨ فيلقا من المحترفين

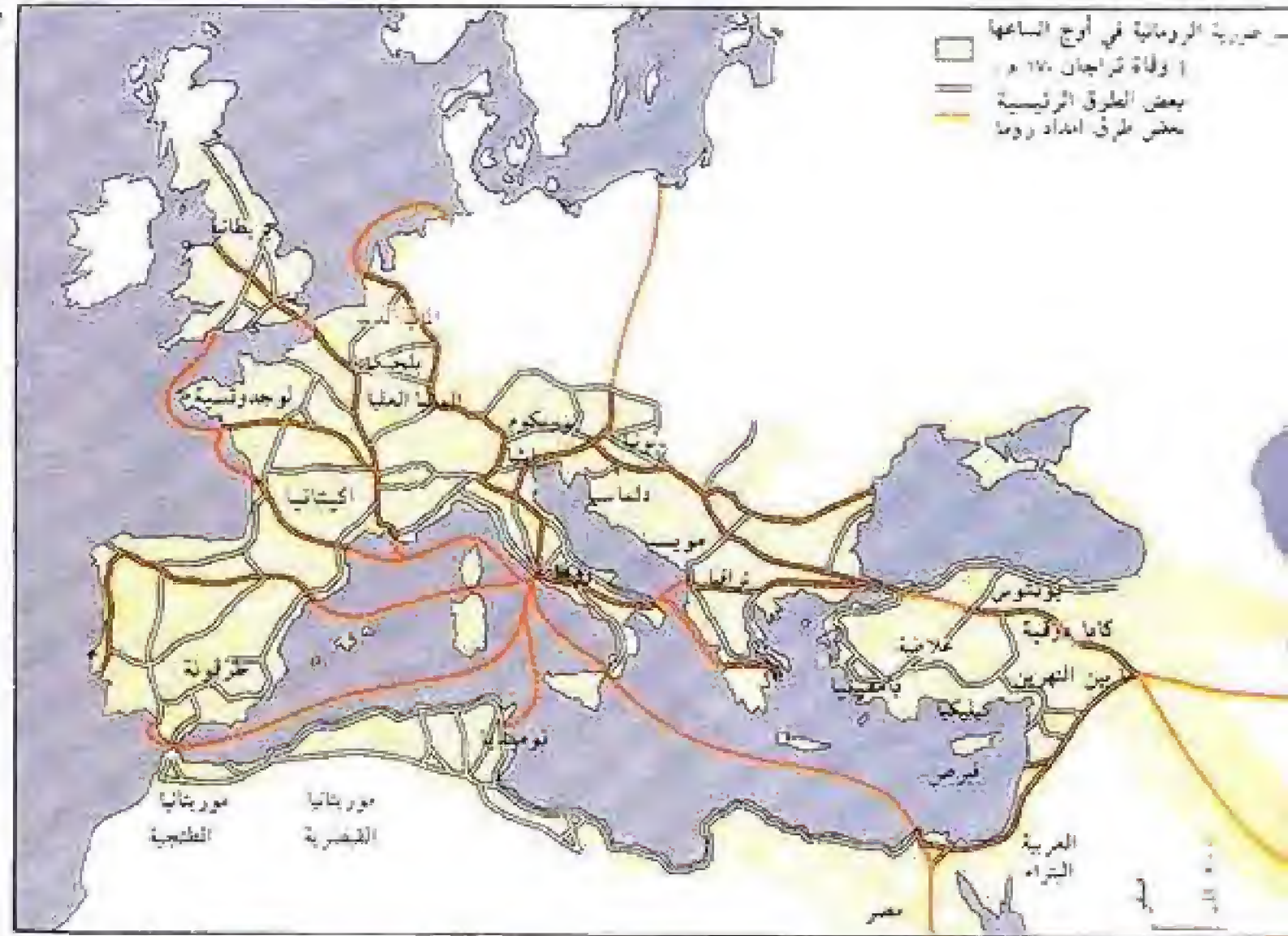


الشعوب لعبادة الامبراطور . وتقديم الثروات والمنتجات . والولاء لروما . استمرت حضارات اليونان والشرق بالتطور رغم تأثر ابناء الأقاليم عموما . بنموذج الحضارة الرومانية .

(٦) - تظهر هذه الصورة عملية شحن سفينة رومانية بالحبوب . كانت مصر وأفريقيا الشمالية وسوريا مستودع الحبوب للامبراطورية . وكانت كميات الحبوب التي كان الرومان يأخذونها من هذه المقاطعات تؤمن لكل مواطن روماني . في العاصمة . جرایة مجانية .

العالم الروماني عبارة عن سوق اقتصادية مشتركة . حيث كانت البضائع الآتية من منطقة ما متوافرة في كل مكان .

(٥) - يمثل مسرح تدمر في سوريا الطراز الرفيع من المباني (الهياكل والمدرجات وأقنية المياه والحمامات) التي كانت تُشاد في جميع مقاطعات الامبراطورية . على النمط الروماني . كان تسامح الرومان مع ديانات وتقاليد الشعوب المحكومة مشروطا بقبول هذه



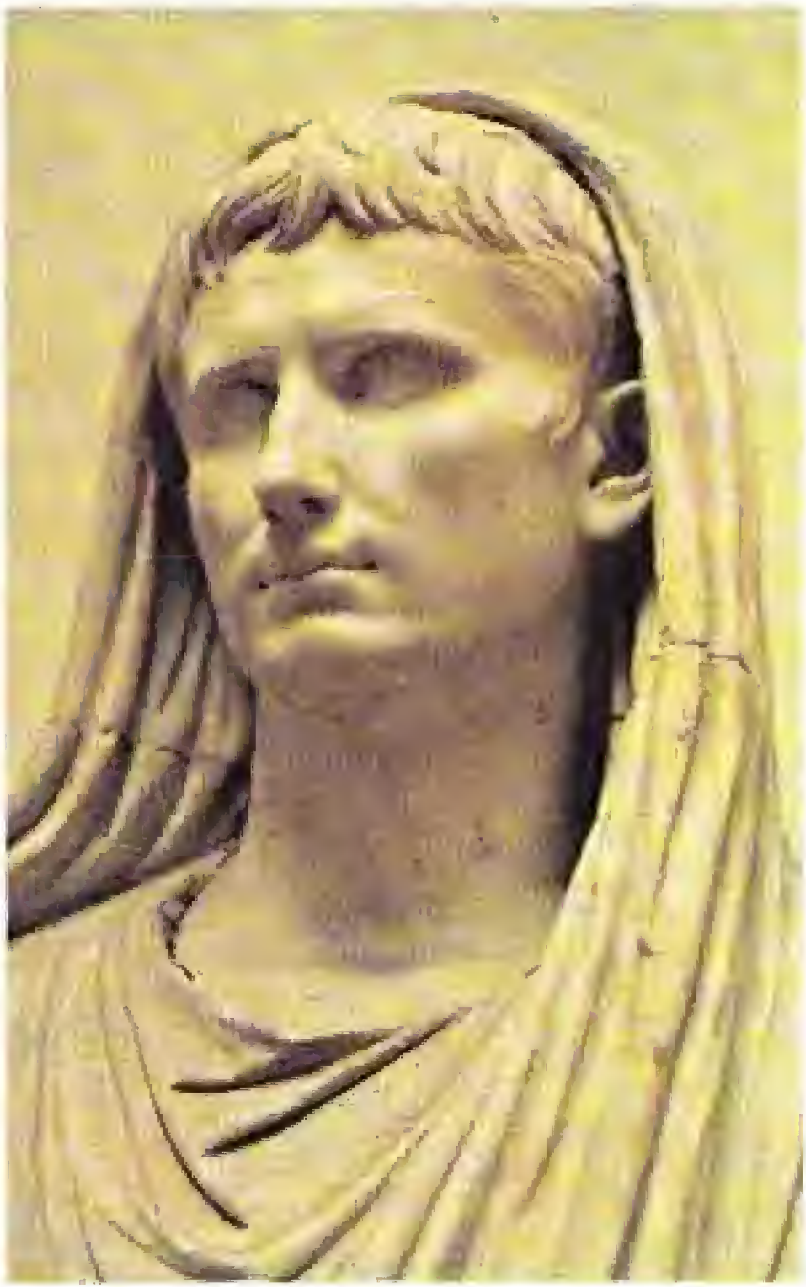
بعضها ببعض . بثبت لتمكين الجنود وجباة الضرائب والاداريين من التنقل بسرعة .

الا ان الطرقات الكبرى اتاحت للتجار ان يجوبوا الامبراطورية بأسرها بسهولة . وهكذا اصبح

الذين كانوا يجندون لمدة ٢٠ - ٢٥ سنة . شكلت هذه الفيالق من المواطنين الرومان ، بالإضافة الى عدد مساو من المساعدين المجندين من المقاطعات الاقليمية . قُدر لهذا النظام القائم على امبراطور يحكم بمساعدة مجلس الشيوخ ان يستمر لمدة ٢٠٠ سنة .

كانت أكثر الأمور أهمية آنذاك ، هي إعادة النظام الى الامبراطورية ، وتحصين

حدودها . واتجهت أولى حملات أغسطس الى بلاد الغال واسبانيا اللتين اعيد تقسيم كل منهما الى ثلاث مقاطعات . وجرى تحصين خط نهر الدانوب ، بواسطة سلسلة من المقاطعات العسكرية ، تحميها فيالق عسكرية ضخمة (٣) . كما جرت محاولات ابتداء من عام ١٢ ق . م للتقدم عبر الراين الى نهر الالب . الا ان فتك الالمان بثلاثة فيالق بقيادة فاروس عام ٩ م أرغم أغسطس على



(٧) . كانت الفيالق الرومانية وجيوش الالمان في القرن الأول ، غالباً في حالة حرب . كما يتبين من هذا النحت السافر . فقد عجزت الامبراطورية عن اقامة حدود محصنة لها . وهكذا لعبت الغارات « البربرية » دوراً رئيسياً في انهيارها . كانت دولة ارمينيا النائية نسبياً الى الشرق تؤمن عادة حماية معقولة ضد

الامبراطوريتين الفارسية والبارثية . ولكن في الغرب القريب جداً من قلب الامبراطورية . كان السهرالدائم ضرورياً . كان أكثر من نصف الفيالق الـ ٢٨ التي أنشأها أغسطس ، يتخذ مواقعها في المقاطعات المتاخمة للراين والدانوب . حاول أغسطس الاستيلاء على خط نهري الالب والدانوب السهل

التحصين . لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك . (٨) - يظهر الامبراطور أغسطس هنا بصفته « الكاهن الاعظم » . استمرت الديانة الرسمية للجمهورية الرومانية حتى في عهد الامبراطورية . كان الاباطرة يعبدون بعد وفاتهم ، وحيانا كان الشعب ، في بعض المقاطعات الرومانية ،

يعبدهم وهم أحياء . كان التسامح مع الديانات الاخرى مشروطاً بقبولها عبادة الامبراطور . وازدادت شعبية عدة عبادات شرقية ، مثل عبادة ميثرا او عبادة ايزيس . الا ان اليهودية والمسيحية كانتا محطاً للامتهان لأنهما رفضتا عبادة الامبراطور . مع العلم ان اضطهادهما المباشر كان نادراً .

الاكتفاء بحدود نهر الراين . في الشرق عقد الصلح مع الامبراطورية الفارسية . وأقيمت دولة فاصلة في ارمينيا . اما في الداخل فقد قضى على اللصوصية والقرصنة . وأرسيت قواعد جباية الضرائب . وتطبيق القانون الروماني على أسس موحدة .

توفي اغسطس عام ١٤ م . وواصل خلفه تيبيريوس (حكم ١٤ م - ٣٧ م) سياسته الرامية الى توطيد الامن . بنجاح كبير ، ولم تؤثر في ذلك كثيرا عدم كفاءة كاليجولا (حكم ٣٧ م - ٤١ م) . في عهد كلوديوس (حكم ٤١ م - ٥٤ م) . بدأ فتح بريطانيا وتم احتلال موريتانيا (وكانت تشمل المغرب والجزائر الحاليين) .

مشاكل الخلافة

كان من اكثر نقاط الضعف في النظام الامبراطوري ، في عهد اغسطس . عدم وضع صيغة ثابتة لمبدأ الخلافة . لذلك . وفي عام ٦٨ م . عندما قتل آخر حاكم من سلالة المباشرة . وهو نيرون المعروف بعدم اتزانه . قدمت الفئات العسكرية المختلفة اربعة مرشحين لمنصب الامبراطور . وفي اعقاب حرب اهلية رهيبية . فاز فيسباسيان (حكم ٦٩ - ٧٩ م) بالمنصب . فأدخل نظاما يقضي بأن « يتبنى » كل امبراطور خليفته . مما اعطى للامبراطورية بعض الاستقرار .

في عهد تراجان (حكم ٩٨ - ١١٧) . اتسعت حدود الامبراطورية ثانية . وأضيفت اليها داسيا وارمينيا وبلاد ما بين النهرين (٣) . الا ان هادريان (حكم ١١٧ - ١٣٨) تخلى عن المقاطعتين الأخيرتين .

السلم والرخاء

في عهد الاباطرة الانطونيين (نسبة الى اسم عائلة انطونينوس خليفة هادريان) . بلغت الامبراطورية ذروة السلام (السلام الروماني) . كان المرء يستطيع السفر بأمان من بريطانيا الى البلاد العربية على طرق ممتازة وخطوط ملاحية آمنة (٦) . ازدهرت التجارة (٤) ايضا . وانتشرت . في أرجاء الامبراطورية بأسرها . ثقافة واحدة ولغتان (هما اللاتينية واليونانية) . ونظام واحد من القانون والادارة . ونشأت في المقاطعات (٥) مدن عظيمة . ذات مبان عامة فخمة . وكان الناس يسعون وراء الحصول على الجنسية الرومانية بشغف كبير .

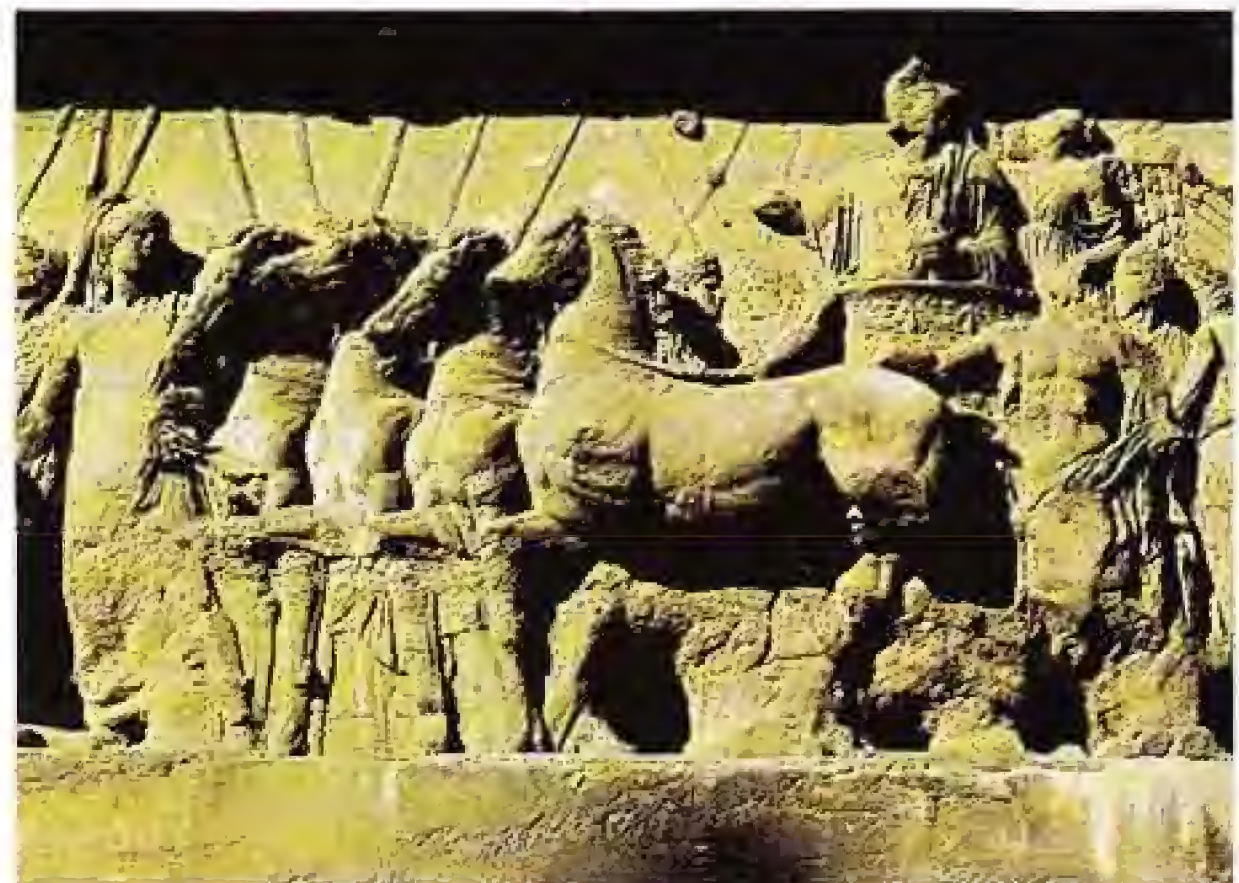
مع ذلك . كانت ثمة جوانب ضعف كامنة . فقد تعاظمت ثروة روما من الغنائم . وكانت الضرائب والأموال من المقاطعات تنصب في اتجاه واحد . فاصبحت الثروة والخيرات تتدفق على روما . دون انتاج يذكر في المقابل .

في عهد مرقس اوريليوس (حكم ١٦١ - ١٨٠) . انتهت فترة السلام . ففي الشرق رد الرومان هجوما بارثيا . الا ان الجنود العائدين حملوا معهم طاعونا رهيبا اجتاح الامبراطورية بأسرها . وحط من طاقتها البشرية . وعلى حدود الراين والدانوب . كانت امواج هجرات القوط الى اواسط اوروبا تدفع أمامها البرابرة (٧) . نحو المقاطعات الرومانية . وفي عام ١٩٧ . اجتازت عدة قبائل نهر الدانوب وجبال الالب . وزحفت على ايطاليا . كما اجتاحت داسيا . هكذا قضى مرقس اوريليوس بقية سني ملكه يحارب . من أجل اعادة ترسيخ الحدود .

الفن الروماني^(١) « بين ٢٧ ق.م. و ١١٧ م. »

ولأنه ، رغم كونه مستمداً بكامله تقريباً من نماذج يونانية ، لم يكن يخلو من بعض الآثار القيّمة . أما اليوم فمن المسلم به ، على نطاق واسع ، ان الفن الروماني ، وان كان قد اقتبس الاساليب والتقنيات اليونانية ، فقد عدّلها ونمّاها بالفعل كثيراً ، اذ اعادت روما صياغة الفن اليوناني ، ليعبر عن المثل العليا للامبراطورية . اي سلطة الحاكم ودوره كراع لمجتمع منظم وحام له ومحسن اليه .

حتى زمن قريب ، كان الفن الروماني يعتبر بمثابة جسر يصل فن اليونان بفن العصور الوسطى ، وكان ينظر اليه كفن منحط الى حد كبير . لكنه كان يقدر بعض التقدير لأنه كان يؤمن استمرار التراث



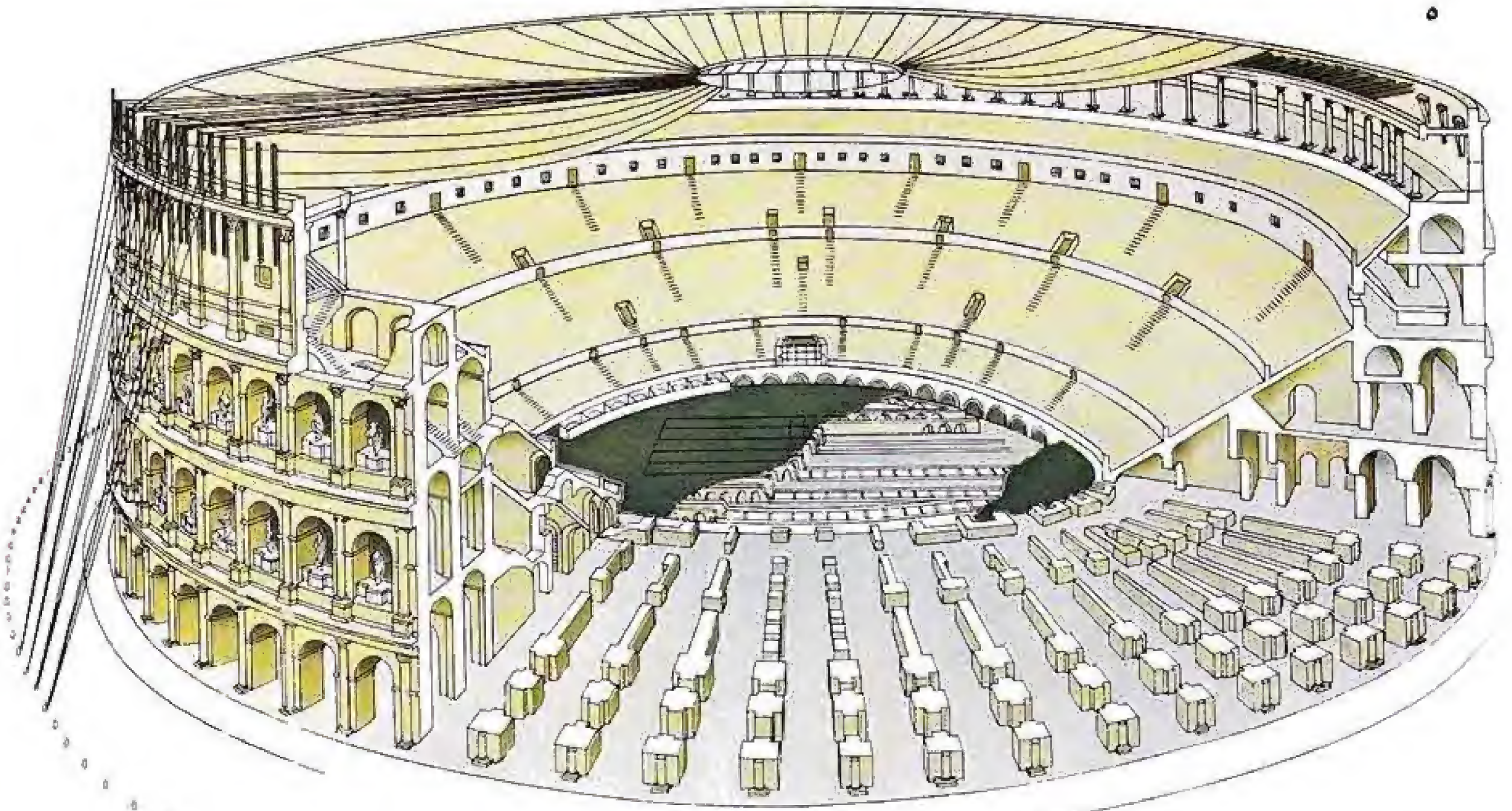
الداخلي (يساوي عرضها طول الرواق . وكان صف الأعمدة يدور حول الحجيرة . ولكنه خلافاً للهيكل اليونانية . كان يقوم على جدران صلبة .

الرومانية ، التي كانت تهتم بداخل الهيكل أكثر من خارجه . كانت الدرجتان العلويان من السلم تكونان عتبة ، تحت حجيرة (القسم

(١) - في البيت المربع الكورنثي الطراز ، في مدينة نيم ، جرى تعديل العمارة الهلنستية تعديلاً يجعلها تتجاوب مع المتطلبات الخاصة للديانة

الفن اليوناني والفنانون اليونان في روما اعترف الرومان انفسهم بتفوق الفن والعمارة اليونانيين . فمنذ ابتداء الاتصالات الاولى بين الثقافتين ، أخذ سيل متواصل من النحاتين والمعماريين والصناع ، في سائر الحقول ، يفد على الامبراطورية الرومانية من الشرق ، لكي يسد حاجات سكانها المتزايدة . وفي فترة مبكرة ، اي حوالي ٢٦٨ ق . م ، انجز الفنانون اليونان رسم تصميم

العملة الرومانية ، كما انه ما كاد يتم احتلال روما للعالم اليوناني ، حتى تهافتت على روما كميات ضخمة من الغنائم تتراوح بين الحاجات التزيينية الصغيرة وبين التماثيل الضخمة . في سنة ١٨٧ ق . م استولى مرقس فولفيوس نوبيتور اثناء حملاته في ايتوليا على ٢٨٥ تمثالا من البرونز و ٢٣٠ تمثالا من المرمر ، كما استولى اميليوس بولوس سنة ١٦٨ ق . م على ما لا يقل عن



(٢) - كان الفن الأغسطي يستعمل بمثابة أداة للدعاية . في هذه المحفورة يمثل أغسطس الذي لا يشيخ كزعيم مخلص ومبجل لمجتمع روماني مثقف ورفيع الذوق .

(٣) - تخلد انتصارات تيطس العسكرية رسوم نافرة على قوس تيطس ، الذي يمثل عودته المظفرة من تدمير اورشليم

(القدس) سنة ٧٠ م . وقد بنى القوس دوميتيان .

(٤) - هذه اللوحة البومبايية تقوم شاهدا على الاتقان في استعمال الالوان ورسم الظلال والانتباه للتفاصيل وتذوق الداخل المعماري . كانت هذه هي سمات فن الرسم في القرن الأول م .

(٥) - ابتكر فكرة المدرج الفلافياني في روما المعروف بالكولوسيوم الامبراطور فيسبازيان الذي بناه بين سنتي ٧٢ و ٨١ ، كان أحد الانجازات المعمارية العظيمة عند الرومان ، واصبح نموذجا للمدرجات في جميع انحاء الامبراطورية . كان هيكله الخارجي وبنيتة الداخلية الرئيسية يتألفان من قطع

ضخمة من نوع الحجر الكلسي الصلب المعروف بالترافرتين ، بينما كان الباقي مبنيا من حجر أطرى ومن خرسانة تغطيها طبقة من المرمر . كانت الواجهة ذات الأعمدة تبلغ ٤٥.٧ مترا في الارتفاع . وتشمل أعمدة من « الطرز » الثلاثة ، اي الدوري والايوني والكورنثي . وكان القسم الاعلى مزينا بعدد من التماثيل .

حمولة ٢٥٠ عربة من الكنوز الغنية من مقدونيا. وقد استخدم الفنانون اليونان، في نسخ هذه الاعمال او تقليدها، لتلبية الطلب الشديد عليها.

كانت تفصل بين الفنين اليوناني والروماني مواقف واساليب جمالية مختلفة. فالفن اليوناني كان من نتاج افراد، تدون اسمائهم، كفيدياس مصمم البارثنون مثلا، بينما كانت القطعة الفنية الرومانية لا تحمل

عموما اي اسم، لأن السيد الذي كان يأمر بصنع تلك القطعة، كان يعتبر نفسه أهم من الفنان الذي يبتكرها. وهكذا بقيت لنا من الرومان آثار تحمل اسم الأمر بصنعها، لا اسم صانعها، كقوس قسطنطين وحمامات كاراكلا وسور هادريان.

بحلول عصر اغسطس (٦٣ ق. م - ١٤ م)، كانت التأثيرات اليونانية (والى حد ما الاترسكية ايضا) قد استوعبت، كما



تماثيل الامبراطور »

(٨) - انبثق تمثيل الاشخاص عند الرومان عن عادة صنع اقنعة للموتى من الشمع، من أجل المواكب الجنائزية. يمثل هذا الرجل البطريقي والتمثالان النصفيان لجديهما أفرادا حقيقيين يمكن التعرف عليهم لا مجرد نماذج وحسب.

مع انه في الواقع نُحت لدى وفاته في سن الـ ٧٦. كما يخالف فن تمثيل الاشخاص عند اليونان، من حيث ايجازهم بعنفوان الرجل الذي كان رمز الأبهة الامبراطورية ووحدها. وقد وصف جوليان في رسالته الى ثيودورس الموقف الصحيح من التماثيل الامبراطورية، بقوله « ان من يجب الامبراطور، يلتذ بمشاهدة

(٧) - عثر على رأس برونزي لأغسطس أول امبراطور على روما في مروي بالسودان، كان في فترة ما جزءا من تمثال ضخم، وهو يميز فن تمثيل الاشخاص ذا الدلالة السياسية في عهد الجمهورية الرومانية وما يليها. والرأس يمثل، وان يكن بصورة مثالية، اغسطس في ريعان الشباب،

(٦) - يبين هذا التمثال « لأغسطس الذي لا يشيخ » الامبراطور لابسا درعا تزينه رسوم تخلد الانتصار على البارثيين. ومع انه نُحت على غرار تمثال يوناني، فالواقفة المعدلة وقوة شكيمة الرأس تطبعانه بطابع الابتكار الروماني الاصيل سواء من حيث المفهوم او الطراز.

استقرت معظم الاشكال المعمارية . يعطي فن العمارة الرومانية شواهد على تنوع عظيم في النماذج والانماط الاقليمية . التي كانت تستعين بطائفة متنوعة جدا من المواد المحلية . وكان من أهم خواصها انها طورت تصميم اليونان العمودي والمؤفق (الاسطوانة والأسكفة) واحتفظت بالانماط المعمارية الثلاثة عند اليونان . وأدخلت بعض التعديلات عليها . أحيانا في المبنى الواحد . كما حصل في بناء الكولوسيوم (٥) . لكن الرومان اضافوا الطراز التوسكاني . وهو تحويل للدوري . والطراز المركب وهو خليط من الايوني والكورنثي . وكانت جميع الانماط هذه تستعمل في التزيين . الا ان الطراز الكورنثي المعقد الذي كان أقلها شعبية عند اليونان . اصبح النمط المفضل عند الرومان .

كذلك طور الرومان فن التزيين الداخلي . واستعملوا المرمر والالبستر والتصاوير والفسيفساء وكانوا يهتمون بالتزيين الداخلي اكثر من اليونان . وقد اضافوا الى هذا الثراء البصري المتزايد تنوعا اكبر في الاشكال . اذ ضاعفت الحياة المدنية عند الرومان الحاجة الى مبان شتى . من نوع الحمامات والمسارح والمدرجات والجسور والقناطر والاقنية والمنازل المتعددة الطبقات .

تجلى الاستغراق في السياسة بصورة خاصة في عهد اغسطس الذي كان يوصف . بحكم مهمته كصانع السلام والرخاء في الامبراطورية . كحاكم طاهر القلب متسامح جميل ودائم الفتوة (٢) . تتجلى الشكلية الصافية وتنوع الصور الخاصين بالفن الاغسطي في النحوت النافرة لمذبح السلام . وفي

برنامج التوسع المدني الذي استحدثه اغسطس . اعاد بناء عدد من الابنية (٨٢ هيكلا في روما وحدها) وبنى عددا آخر . بما في ذلك هيكل المريخ المنتقم . والساحة الاغسطية . والمنزل المربع في مدينة نيم (١) .

الرعاية الامبراطورية

من ميزات العصر الاغسطي أنه أرسى قواعد مختلف الانماط المعمارية الرومانية . ثم جاءت الاتجاهات اللاحقة تعكس اذواق الحكام الفردية . وتشدد على وثاقة الرابطة بين الراعي الامبراطوري والموضوعات التي أمر بصنعها . ففي عهد نيرون وافراد اسرة فلافيوس مثلا . أعطي الفنانون حرية اوسع . وبالتالي شيدت عدة مبان غريبة . منها مبان طريفة ذات حُجر مثمثة الزوايا او مدورة او بيضوية الشكل .

الواقعية وتمثيل الاشخاص

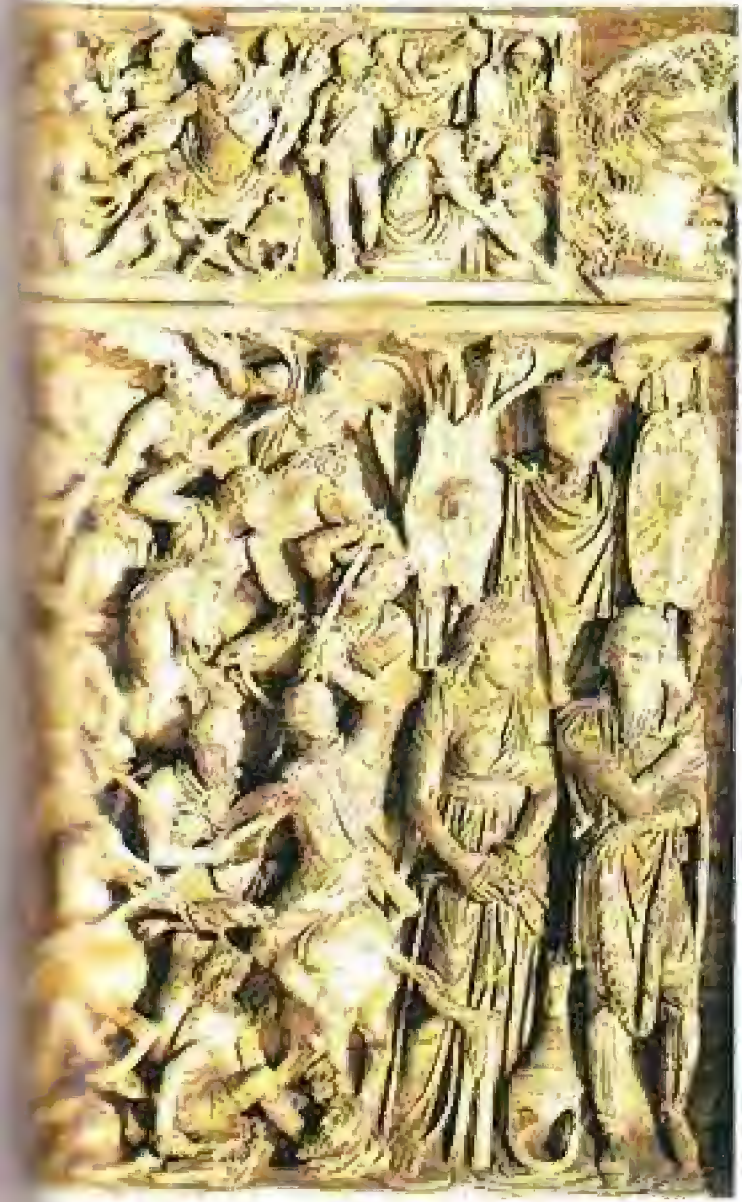
تطور تمثيل الاشخاص وهو من اعظم انجازات الفن الروماني . خلال هذه الحقبة . فقد تحول عن المثالية التي نادت بها الدعاية الرسمية المتجلية في رسوم اغسطس . متجها نحو نزعة واقعية بارزة . تكاد تكون وحشية . في عهد حكام متأخرين مثل كلوديوس ونيرون . كان الفنانون اليونانيون يحاولون تخطي الفرد في بحثهم عن الحقائق الكلية . لكن الرومان انصرفوا الى التقيد الدقيق بالواقع (٦ . ٨) . ويبرز التقابل بين المثالية والواقعية خاصة في التماثيل النصفية . وفي الرسوم الروائية النافرة التي حفرت على قوس تيطس (٣) وعمود تراجان .

الفن الروماني^(٢) « بين ١١٧ - ٥٥٠ م »

الامبراطور الشخصية للفنون . الى نهضة هلينستية حقيقية . والى اقتباس الكثير من الفنون الاقليمية خاصة من سوريا ومصر . واستمرت هذه الحركة حتى عهد هادريان وما بعده . فحددت الى درجة كبيرة شكل الفن الروماني في القرن الثاني الميلادي كله .

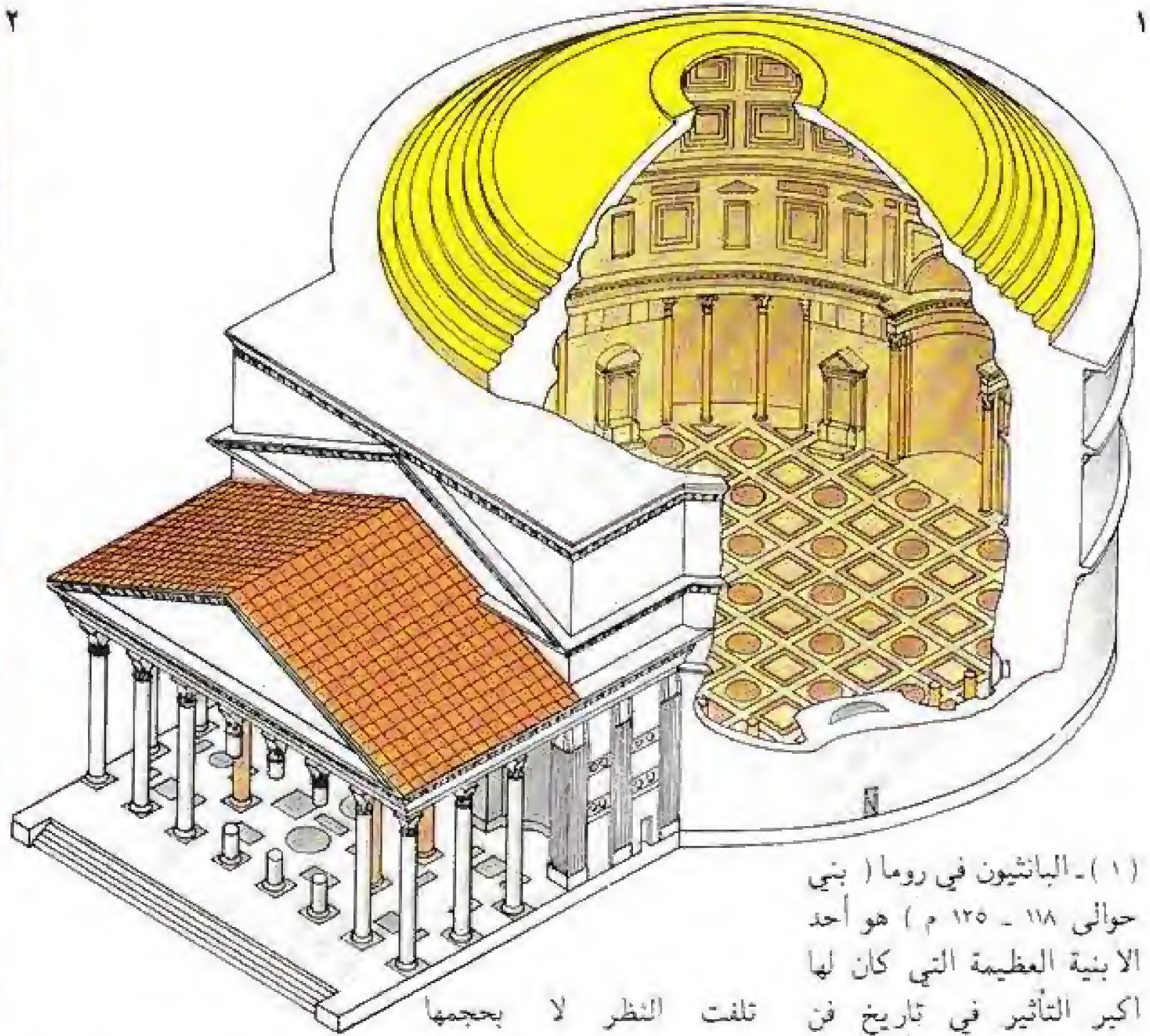
الانبعاث المعماري الهادرياني
كانت فيلا هادريان في التيفولي (٥) .

في عهد تراجان . انبعث الاهتمام ثانية بفن العصور السابقة . وبلغ ذروته في عهد خلفه هادريان (٧٦ - ١٣٨ م) فقد أدى رخاء الامبراطورية الاقتصادي الذي لم يكن له مثيل من قبل . بالاضافة الى رعاية



هوستيليان (توفي ٢٥١) الواقف بعيدا عن كومة الاجسام هيمنة تامة على المشهد . تعطينا مهارة النحت مثالا حيا على فن القرن الثالث .

(٣) - كانت تزين قوس قسطنطين مجموعة متنوعة من لوحات الرسوم النافرة والتماثيل . كان عدد منها قد انتزع من الابنية العامة السابقة . يلخص هذا الأثر الانماط الفنية الرئيسية . من



ولكنها تتم عن فهم عميق وراق جدا لتقنية الخرسانة .

(٤) - يصور ضريح معركة بورتوناتشيرو الرومان في كفاح مرير مع الغزاة الشماليين . وهو يبرز اللحظة التي يبدو فيها النصر في قبضة القائد الروماني . يهيمن الامبراطور

تلفت النظر لا بحجمها وحسب . اذ يبلغ قطرها ٤٣.٢ مترا . بل لأنها تبدو للناظر خفيفة ايضا . وهو وهم بصري ينجم عن المهارة في التلبيس الخشبي . الذي كان في الاصل مطليا بالجبس ومذهبا . وعن وجود مصدر مركزي واحد للاضاءة . اما طريقة البناء الفعلية فما زالت غامضة .

(١) - البانثيون في روما (بني حوالي ١١٨ - ١٢٥ م) هو أحد الابنية العظيمة التي كان لها أكبر التأثير في تاريخ فن العمارة . بعد أن أعاد الامبراطور هادريان بناءه كليا أصبح أعظم بناء مقبب في العالم . حتى العصور الحديثة . وهو أقدم بناء ما زال سقفه قائما بكامله . للرواق الذي يرتفع على ١٦ عمودا من الجرانيت مدخل فخم ولكنه تقليدي . إلا أن القبة وهي نصف كرة تامة

التي وصف أحدهم بقاياها بقوله « انها على الأرجح اجمل مجموعة من الخرائب على الثرى الايطالي » . اروع المجمعات المعمارية الرومانية . استعمل فيها بسخاء المرمر المتعدد الالوان ، ووسائل التزيين المعمارية المتنوعة ، بما في ذلك الأعمدة الطويلة المقوسة التي كانت شائعة في الامبراطورية الشرقية .

أضافت هذه الملامح وروائع النحت اليونانية او المتأثرة باليونان التي أحاط

هادريان نفسه بها . عددا من العناصر الجديدة والهامة الى الفن الروماني ، انشأ هادريان اكثر الروائع الفنية الرومانية الطابع مثل بناء مجمع المعبودات « البانشيون » . أهم بناء مقبب في ذلك العصر (١) .

في عهد الاباطرة الانطونيين الذين خلفوا هادريان ، بقيت العمارة يونانية الطابع في معظم الأحوال . فقد كانت « الطرز » الثلاثة تستعمل على نطاق واسع .



٤



(٥) - كانت فيلا هادريان (١٣٠ م) اكثر القصور الريفية الرومانية بذخا على الاطلاق ، وهي تمثل الاذواق المختلطة ، والتجربة المعمارية غير المستقرة لحاكم روماني ذي موارد غير محدودة ، لم يكن في هذا الاثر بناء ضخم واحد ، الا ان المجموع الذي كان مؤلفا من عدد كبير من الساحات والينابيع والتمائيل والاعمدة والبرك والفسيفساءات والمباني كانت مساحته ١٨ كلم مربعا .

عهد تراجان حتى قسطنطين ، وينم عن التحول باتجاه التصوير والفسيفساء .

(٤) - هذا الصحن الكبير هو من مجموعة فضية رومانية كبيرة معروفة بكثز ميلدنهول . ويبلغ قطره ٦٠ سم تقريبا ووزنه ٨,٣ كلغ . يرمز الطنف الخارجي الى انتصار باخوس على هرقل تظهر عليه ايضا بعض الشخصيات الاسطورية الأخرى ، كنبتون مثلا .



وشيد عدد من المباني الضخمة ، كمجمعات الهياكل الكبرى . ولا سيما في الامبراطورية الشرقية . لكن في الوقت نفسه ، استخدم عدد من الاساليب المعمارية الجديدة . بما في ذلك الواجهات المبهرجة ، والاعمدة المزينة على طريقة اجنبية والفاصلة بين الأقسام الداخلية . والاكثر من عدد الكوى لوضع المنحوتات ، وطائفة من اشكال التزيين السطحي من شتى الأنواع .

في عهد الاباطرة « السيفرانيين » في القرن الثالث . كان ارتفاع مكانة المواطنين وثروتهم . في الاقاليم الرومانية خاصة ، يتجلىان في سلسلة من الأعمال المعمارية الفخمة . وقد حاول بعض الحكام مثل كاراكلا (١٨٨ - ٢١٧) مضاهاة اباطرة سابقين في انجازاتهم . فاستحدثوا عددا من مشاريع البناء الضخمة ، مما أدى الى عدد كبير من المباني . كان ابرز ما يلفت النظر في هذه



(٦) - هذا الرأس هو جزء من تمثال الامبراطور قسطنطين الضخم الموجود في روما . وهو أضخم تمثال صنع في عصره اذ يبلغ عشرة أمثال حجم صاحبه الحقيقي . نحت حوالي ٣١٣ م . وكان ذروة الكمال في الفن الامبراطوري .

الواقعية الشائعة في عهد تراجان . كان التمثال اصلا مطليا بالذهب . وقد أبقى عليه . بينما حُطمت التماثيل البرونزية الاخرى . بسبب الاعتقاد الخاطيء انه كان يمثل الامبراطور الميحي قسطنطين . أثر هذا التمثال على انتاج بعض عباقرة عصر النهضة مثل دوناتيلو (١٣٨٦ - ١٤٦٦) .

(٧) - تمثال مرقس اوريليوس البرونزي ممتطيا جواده موجود في روما . وهو يعود الى تلك الحقبة الانطونية التي اخذت فيها الاشكال المثالية تحل محل

(٨) - في هذه الميدالية الذهبية التي سكت في

سالونيك يظهر الملك قسطنطين في صورة تعكس رسوم اغسطس . أدت اعادة النظام الى الامبراطورية الرومانية في عهد ديوقليسيان وقسطنطين الى توحيد النقود

الرومانية . ومع ان تصوير الحكام كان قد بلغ درجة عالية من المهارة في الصنعة . فقد اتخذ شكلا

موحدا واتسم بطابع ديني . وتلك خاصة مألوفة من خواص الفن الروماني المتأخر .

المباني هو حجمها الهائل والاغراق في التزيين .

من هذه المشاريع حمامات كاراكلا بروما ، وهي افضل الحمامات الامبراطورية الباقية حتى اليوم . كانت تتسع لـ ١٦٠٠ مستحم ، وكانت تعلو حجرتها الوسطى قبة يبلغ ارتفاعها ٥٤.٨ مترا . كانت هذه الحمامات مزينة بالمرمر الملون ، وبالتماثيل التي لا تقدر بثمن . لكن اهتمام الرومان بالتزيين الداخلي ، أكثر من التزيين الخارجي ، جعل هذه الابنية بسيطة المظهر من الخارج .

لم تشجع عهود اباطرة القرن الثالث المتأخرين ، وانصرفهم الى الدفاع عن الامبراطورية ، برامج البناء على نطاق واسع ، باستثناء تلك التي كانت تتعلق بالأعمال العسكرية . فبلاط ديوقليسيان (٢٤٥ - ٣١٣) المحصن في سبالاتو بدالماسيا (الذي أنجز بناؤه عام ٣٠٥) يبرز كأهم بناء عسكري في الحقبة المتأخرة ، ويمثل التحول عن النزعة التزيينية الى النزعة الوظيفية الصرف .

النحت حتى القرن الثالث م

أثر الامبراطور هادريان على الفن تأثيرا جعل فن النحت يتحول ، من السعي وراء العظمة الجدية التي اتصف بها في عهد تراجان ، الى نشدان الجمال الحسي الذي يميز الاعمال اليونانية .

في الحقبة الانطونية ، أصبحت التماثيل اضخم حجما وأشد تعقيدا ، وأخذ استعمال الأزاميل لحفر الحجارة يستبدل به تدريجيا استعمال المثقاب مما مكن من اداء تزييني

افضل لتفاصيل الشعر وثنايا الملابس . وهكذا صنع عدد من التماثيل البرونزية الرائعة ، كتمثال مرقس اوريليوس (١٢١ - ١٨٠) ممتطيا جواده (٧) . لكن لم يصلنا منها سوى القليل .

ثمة نوعان معينان من النحوت النافرة وجدا معا في هذه الفترة وبقيت نماذج منهما ، وهما : اسلوب بدائي يكاد يكون من الفن الشعبي . كما نشاهد على عمود مرقس اوريليوس ، واسلوب يمثل استمرار العناصر الكلاسيكية اليونانية . اندمج هذان التياران من النشاط الفني في قوس قسطنطين (٣) .

كانت منحوتات القرن الثالث المضطرب متفاوتة الجودة ، فقد أصبحت الرسوم النافرة اقل دقة وظهر اتجاه جديد نحو التكلف والتناظر التجريدي ، مما أدى الى العودة لاستعمال الازميل عوضا عن المثقاب . نجم عن ذلك ظهور الأشغال ذات الزوايا ، كما يبدو في اعمال شهيرة ومثيرة مثل رأس قسطنطين الضخم (٦) .

التصوير والحرف

يظهر ان التصوير لم يتخط ما يعرف عادة بالاسلوب الرابع المكتشف في بومبيي . فقد تطور فن الفسيفساء بسرعة ، وكان اصلا تقنية خاصة بأرضية البيوت في القرنين الثاني والثالث ، حتى حل عمليا محل التصوير كطريقة لتزيين الجدران .

بالرغم من المراسيم الامبراطورية المتعددة الموجهة ضد البذخ الفردي ، فقد شاعت بكثرة ، في جميع انحاء الامبراطورية ، المجوهرات الانيقة والاثاث البديع المرصع بالعاج ، وشتى المصنوعات المعدنية .

قرطاجة وروما

اكتملت فيه كل عوامل التوسع .
كانت قرطاجة ، بسبب موقعها الجغرافي
في افريقيا وغناها التجاري وامبراطوريتها
الواسعة ، هي الدولة التي سوف تتلقى الصدمة
الاولى من الرومان . يوم كانت روما مدينة
ضعيفة ، التمسّت من قرطاجة التجارة معها
وعقدت معاهدتين تجاريتين سنة ٥٠٨ ثم سنة
٢٤٨ ق . م ، بل تحالفت روما مع قرطاجة
حين جاء الاغريق لمعونة سيراكوسة اليونانية

منذ تجاوزت روما حدود ايطاليا لتتجه
الى شمالي افريقيا والى حوضي البحر
المتوسط الشرقي والغربي ، كان مقدرها
للجماعات والقوى الموجودة في هذه البقاع أن
تعاين من الغزو الروماني العسكري الذي



الوطن الناصر للجميل . لن
تكون لك عظامي ! « سيبو
الثاني يعرف باسم سيبو
ايمليانوس (١٨٥ - ١٢٩ ق . م)
وبالافريقي الثاني وهو ابن
أحد الأولاد الذين تبناهم الابن
البكر لسيبو الأول . كان زعيم
الحزب الارستقراطي . قاد
الحرب الأخيرة ضد قرطاجة
وهو الذي دمرها وأحرقها سنة
١٤٦ ق . م . مات بشكل غامض
خلال مناقشة القانون الزراعي
الذي قدمه الأخوة غراكوس .
وكان ضد هذا القانون .

الذي عرف بالافريقي (٢٣٥ -
١٨٣ ق . م) لأنه انتصر على
القرطاجيين أولا في اسبانيا في
الحرب البونيقية الثانية ثم
انتصر على حن بعل في معركة
زاما سنة ٢٠٢ ق . م . اتهمه
اعداؤه بعد ذلك بابتزاز أموال
الأمة فصاح : « أيها الرومان في
مثل هذا اليوم انتصرت على حن
بعل وقرطاجة . لنصعد الى
الكابيتول ونقدم الشكر للآلهة »
لكن ذلك لم ينفعه . مات في
المنفى في ليترن . بعد أن
كتب كلمته المشهورة : « أيها

حن بعل في المغامرة الحربية
التي طوق بها الحوض الغربي
للبحر المتوسط وعبر بالأفيال
جبال الألب وقاد فيها ، دون
امداد ، معارك دامت قرابة
خمس عشرة سنة وتخللها حصار
لروما مربع ثقيل لم تعرفه في
تاريخها كله الا عند انهيارها
الأخير .

(٣) - سيبو (أوسيبون) أس
اسرة قديمة لامعة في روما
اشتهر منها اثنان في تاريخ
الرومان أولهما (الصورة) سيبو

(١) - يعتبر حن بعل الذي
يعرفه الغربيون باسم هانيبال
(٢٤٧ ق . م - ١٨٢) واحدا من
أعظم عباقرة الحرب في
التاريخ . براعته في عمليات
التجنيد والسوق والتموين .
وقدراته الاستراتيجية في قيادة
المعارك ، ثم نهايته المأسوية .
كل ذلك ترك له صورته المميزة
وجعله رمز عظمة وانهيار
قرطاجة .

(٢) - على هذا المصور ، في
أسهمه المتوالية تظهر تحركات

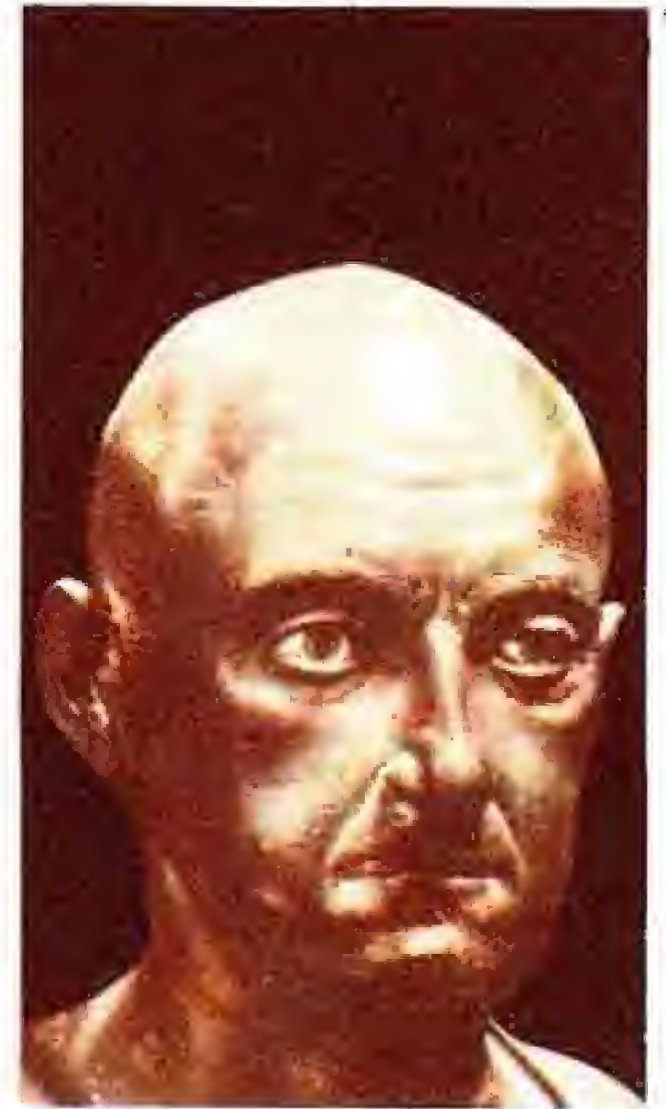
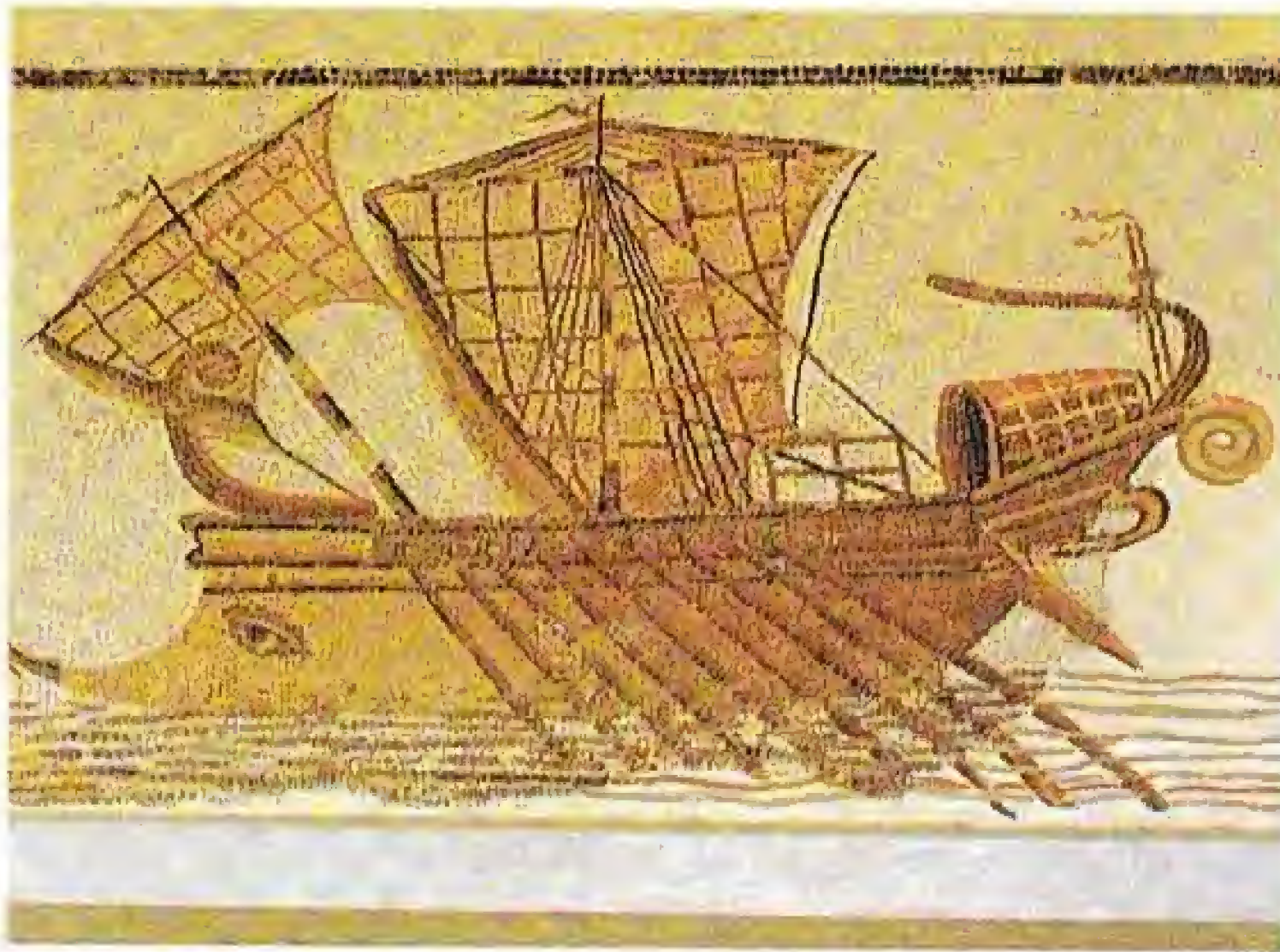
في صقلية (٢٧٨ - ٢٧٦ ق . م) .

لكن الأمر سرعان ما تغير ، حين أرادت روما الاستئثار بصقلية ذات الموقع الاستراتيجي الهام للسيطرة على تجارة حوضي المتوسط . كان ذلك مطلع الشر ، وبدء سلسلة العدوانات التي سمتها روما بالحروب البونية (البونيقية = الفينيقية) ، وهي ثلاث فترات من الحروب ، انتهت بحرق الأرض التي تقوم عليها قرطاجة .

الحروب البونيقية الأولى

(٢٦٤ - ٢٤١ ق . م)

سببها المباشر اشتباك جماعة من أهل مسينا التابعة لقرطاجة في خصومة مع سيراقوسة ، فاستنجدوا بقرطاجة أولا ، فلما لم تنجدهم ، استنجدوا بروما التي رحبت واحتلت المدينة ، ثم ما لبثت أن أجبرت سيراقوسة على التحالف معها وتجهيز أسطولها بالسفن وبدأت الحرب مع قرطاجة سنة ٢٦٤ .



(٤) - مركب حربي روماني في لوحة فيفساء من القرن ٢ م . تمثل أسطول روما . قد يكون من التناقض القول ان روما انتصرت عبر البحار بل حافظت ايضا على امبراطورية البحر المتوسط دون ان يكون لديها اسطول حربي حقيقي . لأنها كانت تعتمد في الدرجة الاولى على قوتها العسكرية البرية . كانت عنايتها بالاسطول تأتي في فترات متقطعة تحت ضغط الحاجة الحربية العابرة . من

ذلك انها أوجدت لنفسها اسطولا في حربها ضد قرطاجة متعينة بمدن وبحارة ايطاليا الجنوبية التي اخضعتها . في علاقاتها باسبانيا اعتمدت على مرسيليا . في حروبها في المشرق كانت تستعين باساطيل جزر بحر ايجه . لكنها لم تكن تتعهد هذه الاساطيل بعد زوال الحاجة اليها وكانت تتعرض في ذلك الى مفاجآت مؤلمة . (كما حدث في الهجوم الذي دبره ضدها ميتريدان سنة ٨٨

ق . م) وكثيرا ما كانت تتغاضى عن الآثار السيئة للقراصنة على التجارة المتوسطية وعلى هيبة روما نفسها . كانت تحاول - وقد حققت كثيرا من النجاح - قمع القرصنة بحراسة الطرق والممالك البحرية مما سمح للتجارة البحرية في المتوسط ان تزدهر في عهد الامبراطورية . لكن حجم السفن بقي متوسطا محدودا . لم يحاول الرومان أن يطوروا سوى السفن التي تحمل لهم

التموين من مصر . هذه المراكب كانت تخضع لتصميم خاص . وبعضها كان يبنى لنقل مسلة فرعونية أو تمثال لا يقل عن ٥٠ طن بقطع النظر عن صابورة السفينة التي كانت تبلغ أحيانا ٨٠٠ طن وهي على الاجمال من العنوس . بعد أن سيطرت روما على حوض المتوسط حاولت أن تمد نفوذها الى المحيط الهندي (في حملة ايليوس غالوس) ولكنها كانت أيضا حملة برية لا بحرية . وفشلت .

قاتل الرومان للاحتفاظ بصقلية عشرين سنة . وانتهت الحروب بهزيمة الاسطول القرطاجي (معركة جزر ايغاتس سنة ٢٤١ ق . م) وتخلي قرطاجة نهائيا عن صقلية . لجعلها ولاية رومانية مع دفع غرامة ٣٢٠٠ وزنة ذهب مقسطة على عشرين سنة . الدرس الذي أخذته قرطاجة من هذه الحروب هو عدم الثقة بالقوى البحرية والمرترقة من جهة ، واليأس من التعايش السلمي مع روما من جهة

أخرى ، لاسيما حين اتبعت روما ذلك باخراج قرطاجة من جزيرتي كورسيكا وسردينيا ، مستغلة ظروف الثورة التي قامت فيها (٢٤١ - ٢٣٨) ضد الصلح المهيمن .

الحروب البونيقية الثانية (٢١٨ - ٢٠٢ ق . م)

انكشبت خطوط قرطاجة البحرية بعد الحروب الاولى ، فوجهت همها للتوسع البري

(٥١ - معركة قرطاجة الأخيرة

سنة ١٤٦ ق . م سجلها التاريخ واحدة من أعمال البطولة الخالدة في الدفاع والاباء . لم تستطع كل وسائل روما في الدعاية الحاقدة ان تغطيها . حين نجح الرومان في اقتحام الأسوار . ذبحت المدينة . الناجون وهم حوالي ٥٠ الفا بيعوا في اسواق العبيد . ونقلت تماثيلها وثرواتها الفنية الى روما مع الغزاة . بعد ان هدمت اسوار المدينة وقصورها والاسواق وحرثت أرضها . لم يسلم من عملية

التدمير الجذري سوى القبور (أ) وهكذا لا نستطيع أن نتبين ما كان عليه الفن القرطاجي الا من خلال اللقى الصغيرة والحاجيات الحياتية . وهي في معظمها خلو من الشأن الفني . ومنها الأقنعة (ب) المتخذة من الخزف . ونماذج المعبودات (ت) . على ان قرطاجة عادت من جديد الى الحياة والنشاط التجاري تحت الحكم الروماني وبقيت لها فقط معبوداتها . كما بقيت لغتها منتشرة في افريقية حتى القرن السادس .



في اسبانيا . كانت قرطاجنة موجودة هناك منذ القرن ١١ ق . م . ولكنها واجهت في هذه الفترة بعض المتاعب مع الايبيريين . بعد أن وصل الرومان هناك . وخسرت سنة ٢٢٨ ق . م واحدا من كبار قوادها هو : هملقارت الذي أسس بلدة قرطاجنة في ايبيريا في سبيل تأمين استغلال مناجم الفضة والذهب والقصدير التي تحمل لقرطاجنة الثروة الهائلة . لكن روما استغلت احتلال القائد القرطاجي الشاب حن بعل (هانيبال) سنة ٢٢٦ لمدينة ادعت ان فيها جالية رومانية فأعلنت الحرب : كانت تطمع هذه المرة في اسبانيا .

أثبت (حن بعل) عبقريته العسكرية التاريخية في هذه الحرب . نقل جيشه (٤٠ ألفا مع ٥٠٠ فيل) عبر اسبانيا وجنوب فرنسا وجبال الألب . وهزم الرومان على أراضيهم في ثلاث معارك متوالية (٢١٨ . ٢١٧ ، ٢١٦) وضرب الحصار على روما سنة ٢١١ ق . م . ظل ١٤ سنة يحارب هناك . خذلته قرطاجنة في الأمداد . نجح الرومان في قتل صهره صدر بعل في اسبانيا وأخرجوا قرطاجنة منها ، ونقلوا في النهاية الحرب الى افريقيا سنة ٢٠٤ (٢) . فاستدعته قرطاجنة للدفاع عنها . في معركة زاما التي قامت بين حن بعل وبين القائد الروماني سيبيو (الذي عرف من بعد بالافريقي) (٣) سنة ٢٠٢ . وانضم فيها ماسينيسا ملك نوميديا (المغرب) الى الرومان . لم ينجح حن بعل في احراز النصر . فتخاذل مجلس الشيوخ في قرطاجنة وطلب الصلح . وأملت روما شروطها : مسح أسطول قرطاجنة الى عشر سفن فقط (٤) . وتخلي قرطاجنة عن اسبانيا . وان لا تحارب قرطاجنة حلفاء روما الا باذنها . بالاضافة الى

عشرة آلاف وزنة غرامة حربية . وتوسع ملك نوميديا على حساب الاراضي القرطاجية . طاردت روما حن بعل بعد ذلك حتى غادر قرطاجنة . ولجأ الى السلوقيين في سوريا . ثم هرب مرة أخرى الى ملك صغير على البوسفور . فلما شعر انه يفاوض الرومان لتسليمه انتحر سنة ١٨٣ ق . م .

الحروب البونيقية الثالثة

(١٤٩ - ١٤٦ ق . م)

كان سببها المباشر توسع ملك نوميديا في الاراضي القرطاجية ووقوف قرطاجنة للدفاع عنها . وسببها الحقيقي عودة النشاط التجاري والغني الى المدينة المهزومة . وفي سنة ١٤٩ ضرب الجيش الروماني الحصار عليها . ودافعت بشراسة وبطولة كبرى عن نفسها . ولكنها في النهاية انهارت أمام الدمار والحريق والقتل . وأمر سيبيو (الثاني) بحرق أرضها بالمحراث ورشها بالملح كي لا تزرع . وصدر قرار مجلس الشيوخ الروماني بلعن الأرض ومن يعيد بناءها (٥) .

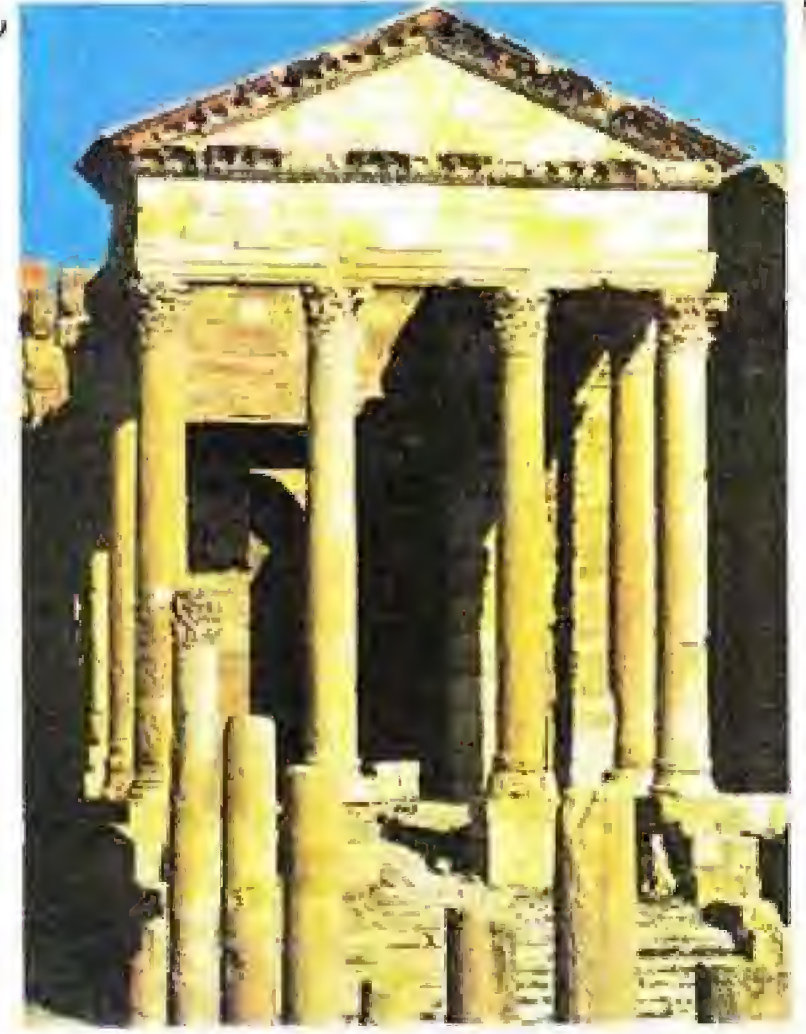
انتهى الحقد الروماني بتحول افريقيا ولاية رومانية . وبسط الحماية على مملكة نوميديا ايضا التي اصبحت مفتوحة لتجارة الرومان مع البربر . منيت نوميديا بالتقسيم أكثر من مرة بين ورثة الملك . لكنها توحدت مرة تحت حكم يوغرتا (١٥٠ - ١٠٤ ق . م) الذي أراد أن يوحد المغرب كله . واحتل سرت . وأرسلت عليه روما حملتين تأديبيتين لم تستطعا النجاح ضده . الى أن قاد ماريوس الروماني حملة (سنة ١٠٧ ق . م) هزمه فيها وأسرته . وعند ذلك ضمت نوميديا الى الامبراطورية المتوسعة .

شمال افريقيا والاستعمار الروماني

القيصرية في غرب الجزائر وعاصمتها أيول (شرشال) ، وولاية المغرب (موريتانيا الطنجية) في النهاية حول طنجة .

بعد قليل من سقوط قرطاجة ، أدرك مسينيسا ملك نوميديا أنه قد وقع في الحبال الرومانية القوية التي تتدخل في مملكته . حكم ثلاثين عاما (حتى سنة ١١٨ ق . م) دون أمل كبير في الخلاص . ثم اختلف ورثته ، حتى جاءت بعثة رومانية قسمت

بعد تدمير قرطاجة سنة ١٤٦ ق . م . صارت افريقيا طعمة لروما . قسمتها أربعة أقسام : ولاية افريقيا (قرطاجة) تحت حكمها المباشر ، مملكة نوميديا الحليفة وعاصمتها قرط (قسنطينة) ، موريتانيا



(٢) - ترك الرومان ، بعد القضاء على قرطاجة ، نوعا من الاستقلال الذاتي لبعض حكام الدولة القرطاجية السابقة . ومنهم ملوك نوميديا ، ومن ملوك نوميديا يوبا الثاني (القرن الأول ق . م) والصورة هنا هي رأس كليوباترة زوجته . وهي من الفن المحلي أي البربري الفينيقي .

(٣) - لبدة هي أولى المدن الأثرية في ليبيا ، ومن المراجع انها كانت ، في القرن الثاني

بالتماثيل والزخارف ، من ذلك هياكل العبادة والطريق الرئيسي في المدينة والساحة العامة (الفوروم) وحلبة الألعاب الدائرية والمسرح نصف الدائري والحمامات وأقواس النصر لتمجيد النصر الداخلي أو الخارجي والاسوار للدفاع . (أ) جانب من ساحة المعبد في سببلة بتونس . (ب) قوس النصر الذي بناه الامبراطور تراجان (حكم ٩٨ - ١١٧ م) في مدينة تمغاد بالجزائر . وبنى العديد أمثاله في المدن الأخرى .

(١) - بنى الرومان ، بعد قيام الامبراطورية ، مجموعة من المدن في شمال افريقيا ، كان أغلبها في ابتداء أمره معسكرات تحول ، بتكاثر الناس فيها حول السلطة والمصالح ، الى مدن . كان من عادة الأباطرة ان يثبتوا وجودهم وعبادتهم في مختلف أنحاء الامبراطورية باقامة الأبنية المتصلة بالنظام الامبراطوري والحياة العامة الرومانية في المدن ، وهي جميعا متماثلة في المخطط والشكل العام والتزيين .

البلاد بين اثنين منهم سنة ١١٦ م . في السنة التالية ، ثار أحدهم : يوغورتا . احتل القسم الشرقي ووحده افريقيا . طرد التجار الرومان . تفادى الحملة الرومانية الاولى بالرشوة . لكنه اضطر في النهاية الى قتال روما سنة ١٠٩ ق . م . وهزم الى الجبال ليقود الثورة ضدهم . انتهى في حفلة غدر . تأمر القائد الروماني سولا مع بوخوس ملك المغرب ، فدعا يوغورتا الى عشاء وقبض عليه سنة ١٠٥

ق . م ليصلب في شوارع روما (ولينال بوخوس أجرته قطعة من أملاك نوميديا) .

عصر الثورات

قامت بعد ذلك ثورة في افريقيا امتدت من لبة الى اقصى المغرب ، فأخمدت بأقصى العنف العسكري . ثم قامت ثورة ثالثة ، سنة ٤٩ م . جاء يوليوس قيصر بنفسه لاختمادها (معركة تابسوس سنة ٤٦ ق . م) .



قبل الميلاد ، المدينة الرئيسية في المنطقة . تتاجر بالاعاج والحجر الكريم والريش والوحوش للمصارعة . وتصدر النسيج والفخار والأسلحة والزجاج . يوم كانت مرتبطة بقرطاجة . صمدت في وجه

ملك نوميديا الافريقي . واستمرت قائمة بعد خراب قرطاجة . ثم انضوت تحت حكم المملكة النوميدية بصفة استقلالية . وأخيرا أصبحت جزءا من ولاية افريقيا الرومانية . فرض عليها يوليوس

قيصر سنة ٤٦ ق . م غرامة كبيرة جدا لتعاونها مع خصمه بومبي ، وكانت من الزيت . عنى الامبراطور سبتيوس سيفروس كثيرا بهذه المدينة التي ولد فيها . فبنى فيها الفوروم وحلبة الالعاب وقوس نصر .

البيزنطيون جددوا ووسعوا سورها الذي بني في القرن الأول فضيق مساحتها . لبة الآن غابة من الأعمدة والآثار . المنظر لمسرحها الذي بني حوالي ٢٠٠ م . والذي ما يزال محتفظا بالكثير من عظمته .

أعانه عليها بوخوس الصغير ملك المغرب (موريتانيا القيصرية) وغودا ملك المغرب الأقصى (موريتانيا الطنجية). كانوا جميعا ضد يوبا الأول ملك نوميديا فهزم. ودمر يوليوس قيصر البلاد وحولها على هواه: نوميديا الشرقية، سماها افريقيا الجديدة ووضعها تحت الحكم الروماني المباشر، ونوميديا الغربية وضعت تحت الحماية، وأدمجت مع المغرب وأعطيت لبوخوس

الصغير، أجير الرومان. حين وصل الامبراطور اغسطس الى الحكم، أعاد تأسيس قرطاجة وتولى بنفسه الاشراف على الولاية الجديدة التي أضحت تضم لبدة وطرابلس وصبراتة، والتي صار اسمها مملكة نوميديا، ومنحها ليوبا الثاني (٢) الذي كان رهينة في روما منذ سنة ٤٦ ق. م. لكنه عاد فألغى المملكة، وجمع افريقيا كلها في مستعمرة واحدة، وأعطى



٤



٥

(٤) - كان الامبراطور ثرقا هو الذي أقام حوالي سنة ٩٦ - ٩٧ م مستعمرة كويكول (تمغاد) في موقعها الاستراتيجي في الجزائر. على أحد الوديان الفصيلة، ازدهرت المدينة في عصر الانطونيين (القرن الثاني للميلاد) وبنيت فيها المباني الفخمة زمن سبتيوس سيفروس وابنه الطموح كاراكالا الذي بنى فيها هذا القوس التذكاري. كما عرفت المدينة عددا من المعابد والحمامات والمسارح.

(٥) - منذ القرن الثاني لم تجد الفسيفساء من الرواج في أي ناحية من الأبراطورية مثل ما لاقته في شمالي افريقيا. تفنن الصناع فيها في هذه البلاد سواء في التلوين أو في الرسم أو المواضيع المرسومة. النماذج الكثيرة من لوحات الفسيفساء التي اكتشفت في المواقع الأثرية ما بين برقة الى فولوبيليس (وليلي) في المغرب، تمثل أنواع الاتقان، وتنوع الألوان، واختلاف

مناظر الحياة العامة. (الصورة) قطعة من لوحة تحوي عددا من الحيوانات المائية.

المواضيع. من اللوحات الاسطورية الى الزخارف النباتية الى رسوم الحيوان الى

يوبا الثاني سنة ٢٥ ق . م مملكة موريتانيا
ترضية له . فسمى الرجل عاصمته قيصرية
تكريما لقيصر . ويجب أن نضيف أخيرا
لاستكمال الصورة : مملكة جرما التجارية
التي تشبه تدمر على حدود الصحراء . وولاية
برقة (قوريني) . لكن البلاد نفسها كانت قد
دخلت في ليل الاستغلال الروماني الطويل سبعة
قرون . ونزفت البلاد ، كما نزفت روما
طويلا . لأن العسكرية الرومانية لم تكن
تحارب ضد جماعات بدائية ولكن ضد
مجتمعات عريقة الحضارة وصعبة المراس في
آن واحد . لهذا كثرت الثورات الدامية خلال
معظم عصر الامبراطورية الرومانية . من أهمها
ثورات برقة سنة ١١٥ ، وموريتانيا سنة ٣٧٢ م
وسنة ٣٩٦ م . ولم تستطع روما قمع هذه الا
بالتأمر الذي انتهى بانتحار زعيمها .

مدن الآثار الرومانية

أهم المدن الممتلئة اليوم بالآثار الرومانية
على طول البلاد في شمالي افريقيا من
الاسكندرية وبرقة حتى اقصى المغرب ، وهي
قورينية . سرت . لبدة (٣) . طرابلس ،
صبراتة . قرطاجة . سببلة . حتى تمغاد
(١) وفولوبيليس . كلها كانت مواقع مدن
حضارية سبقت الرومان . وان سكنها
الرومان . وشغلوا أهلها بالبناء والعمران على
الطريقة الرومانية . فأقاموا لهم المسارح
والحمامات والساحات والتماثيل والفسيفساء
(٥) وغابات الاعمدة والأقواس . معظم هذه
المدن الرومانية انما عمل الرومان على بنائها
لتكون حصونا دفاعية عن الامبراطورية .
كانت حزاما من القواعد العسكرية الثابتة
ومقرا للحاميات . فشمال افريقيا كان احد

مصادر ثلاثة لتموين روما بالقمح . كما كان
طريق القوافل التجارية الى البحر المتوسط
وموانئ لأساطيل التجارة والحرب . حاول
الرومان مرات اختراق الصحراء الكبرى وقادوا
الحملات ضد الجرمنت . أقاموا عشرات
مشاريع الري والمناجم . حاولوا كل استثمار
ممكن . حياة الترف التي عاشها الرومان في
القرون الثلاثة الاولى للميلاد كانت مرتبطة
بدوام نزف الشعوب المحكومة حول
المتوسط . شعوب الامازيغ (= الاحرار)
سماهم الرومان بالبربر والصقوا بهم هذا الاسم
الى اليوم .

الرومان والشمال افريقي

الامبراطورية الرومانية كانت في واقعها
مؤسسة عسكرية استغلالية . آخر ما تهتم به .
الفكر والثقافة للشعوب المحكومة . اذا
استثنينا الابنية التي أعطت العصر الروماني
طابعه الخاص . فانا لا نكاد نجد لروما من
أثر باق في شمال افريقيا .
بالمقابل . وخلال عصر المقاومة العنيدة
الطويلة . استطاع شمال افريقيا أن يبعث الى
روما بامبراطور هو سبتيوس سيفروس (٦)
من أهل لبدة . كان قائدا للجيش في سوريا
واختير امبراطورا . فمنح شعوب المستعمرات
حق المواطنة . ومنع احتكار الرومان
للمناصب القيادية . وأقام على عرش روما
أسرة ليبية - سورية كان منها ثلاثة أباطرة
(١٩٣ - ٢٣٥) .

حين انتشرت المسيحية . في القرن
الثالث . أخذت المقاومة لروما الشكل
الديني . وتفاقمت الثورات بعد ذلك . لكنها
اتخذت منحى آخر .

المشرق وروما

للدولتين وفي شؤون الدول الصغرى المنتشرة في آسيا الصغرى واليونان والجزر . كل همها انصرف الى ضمان السيطرة التجارية الكاملة على موارد الغذاء وبضائع الترف من المشرق الغني . لكن ضعف القوى السياسية ادى الى انتشار القرصنة بشكل واسع لدرجة انه صارت للقراصنة قوتهم البحرية الدولية واساطيلهم ومدنهم الساحلية . قلقت روما واضطرت . بعد فشل عدد من المحاولات ، الى تكليف

كانت مملكتا السلوقيين والبطالمة في القرن الاول ق . م قد دخلتا مرحلة الضعف والانحيار ، شكل ضعفهما نوعا من الفراغ السياسي لم تكن روما العسكرية الطامحة لتهمل استغلاله . تدخلت في الشؤون الداخلية

(١) - تزرخ متاحف المشرق

العربي بعدد من القطع الأثرية التي تعود الى العصر الروماني وتلقي الضوء على مهارة اليد الحرفية فيه ورهافة الذوق الفني . « الخوذة » (أ) المعروفة بخوذة حمص . لأنها وجدت فيها . هي قناع من الفضة للوجه مع غطاء حديدي للرأس بينهما طوق فضي بشكل اكليل غار . وتعود الى القرن الأول . أما القطعة الأثرية البرونزية (ب) ، فوجدت في بانياس (الجولان) ويطلقون عليها اسم الأميرة . ولعلها من القرن نفسه . وأما التمثال (ت) ، فهو لمسيرفا - اللات معبودة الحكمة والفنون والنصر تحمل ترسا وقد ضاع منها الرمح الذي كان في اليد الأخرى . التمثال من حجر البازلت البركاني الأسود . وجد في السويداء ويعود الى القرن الثاني . هذه القطع موجودة في متحف دمشق .

(٢) - مثل هذه المناظر الأثرية أمر عادي في جميع انحاء سوريا . الغنى الناجم عن الحركة التجارية والصناعية والزراعية فيها في القرنين



ت



ب



١١



ب



١٢



ث



ت

قائدها بومبي حسم هذه المشكلة . وتعهد القائد ونجح الى حد ما في قمع القرصنة خلال ثلاثة أشهر سنة ٦٧ . فكلفته روما بالمهمة السهلة : تنظيم المشرق . فلباها باحتلال سوريا والغاء المملكة السلوقية سنة ٦٤ - ٦٣ ق . م . وكان يعد العدة لاحتلال البتراء . لكن الحارث الثالث ، المؤسس الحقيقي لقوة الأنباط صده . فاحتل بومبي القدس وترك للحارث حكم دمشق .

البحر المتوسط بحيرة رومانية بعد اثنتين وثلاثين سنة أخرى ، اكتمل تطويق الامبراطورية الرومانية لشواطئ البحر المتوسط باحتلال مصر سنة ٣١ ق . م وانهاء المملكة البطلمية . صار المتوسط بحيرة رومانية . وسيطرت روما على مصبات تجارة الشرق . مما أعطى سوريا ومصر شأنهما الهام ضمن اطار الامبراطورية . كانتا ، مع افريقيا ، عنابر الغلال الثلاثة التي تمون روما



الميلاديين الثاني والثالث خاصة منحها الكثير من القوة . وإذا كانت قوتها قد أوصلت ، من الناحية السياسية ، أسرة سورية من حمص و امبراطورا من شها لحكم روما ، فانها ، من الناحية العمرانية ، ملأت البلاد بمجموعات واسعة من الأبنية . تناولت حتى البلدان الصغيرة . في زاوية جبلية محدودة من سوريا نجد مثلا : شها ، بلدة فيليب العربي . صارت لها أسوار وأبواب (أ) وحمامات ومعبد ومسرح (ب) وطريق معبدة .

وبلدة قنوات بني فيها معبد للشمس (ث) في القرن الثاني ومجموعة من المعابد (ا) المزخرفة عدا المسرح والبوابة الغنية بالنقوش البارزة وعشرات اللوحات من الفسيفساء . يتكرر ذلك في السويداء وبلدان سليم والمشنف وفي بصرى . كل ذلك في رقعة محدودة لا تتجاوز ٢٠ - ٣٠ كم في الطول والعرض . ويتكرر الأمر نفسه في أنحاء فلسطين والأردن ومناطق سوريا الأخرى .

(٣) - بعلبك هو الاسم القديم

الآرامي (بعل يعقوتو = اله البقاع) للمدينة التي سميت خلال العهد الهليني - الروماني هليوبوليس (= مدينة الشمس) . المعبد الذي أعطى بعلبك الى اليوم شهرتها الضخمة كان في الأصل لعبادة حدد معبود الآراميين . بدأ توسيع المعبد في أواسط القرن الثاني م . وعني به كل العناية الاباطرة السوريون الذين جعلوه غاية في الفخامة والروعة . خربته الهزات الأرضية . فتحول بعضه الى قلعة أيام الاسلام .

(٤) - بعد أن أضحت بصرى سنة ١٠٦ عاصمة للولاية العربية ، ارتفع شأنها كثيرا . وأغدق عليها الامبراطور سبتيموس سيفروس ألوان الرعاية . ثم رفعت الى رتبة مستوطنة رومانية . صارت سيده مدن المنطقة . عاشت عصرها الذهبي . بني فيها أروع وأكمل مسرح حجري في سوريا في ذلك العصر . يتسع مدرج القاعدة الحجرية لأكثر من ١٥ ألف مشاهد . المسارح الأخرى في جبيل وتدمر وأقامية وغيرها أصغر منه .

بالقمح . كما كانتا في الوقت نفسه الثغور لتلقي التوابل والبخور والافاويه والخمور والعطور والزجاج والاقمشة . وكانت البلدان العربية الاخرى من اليمن الى الانباط وتدمر والحضر والحيرة هي التي تحمل كل ذلك الى موانئ سوريا ومصر . تماما كما كانت دولة جرمة تحمل منتجات ما وراء الصحراء الكبرى الى شواطئ ليبيا وافريقيا .
لم يتدخل الرومان كثيرا في التكوينات

٥



المدنية والسياسية القديمة في سوريا ومصر . بقي ملوك العرب في سلطاتهم . كما بقيت المدن الهلينية على دساتيرها . بينما كانت الحكومة في مصر مركزية . وكان الامبراطور بالنسبة اليها ملكا ومعبودا كالفرعون . تجلّى اهتمام الرومان بالبلدين في جعل سوريا تحت حكم نائب قنصل روماني ، وفي حشد ثلاث فرق حربية في مصر . وفي تشكيل عصبة الديكابوليس (المدن العشرة) في

قائمة فيها . فقد بنيت في القرن الثاني الذي كان عصر جرش الذهبي . صار فيها هيكل للمعبودة ارتيميس وآخر للمعبود زيوس وثالث ورابع . غير ان انهيار تدمر وتوسع الساسانيين التجاري واضطراب الصحراء وراء جرش ، كل ذلك أوقف نشاطها وبالتالي غناها وعمرانها . عاد الى جرش بعض الحركة والأمن في القرن الرابع قبل أن تدخل العصر المسيحي . رغم الزلازل وغزوات التخریب تحتفظ جرش اليوم بعشرات الأعمدة الفرانكيتية ، (الصورة) وبقايا المعابد .



(٥) - موقع جرش قديم الكنى يعود الى العصر الحجري الحديث . برزت كبلمة صغيرة في القرن الثاني ق . م . وعني بها السلوقيون حتى صارت بلدا هاما . منذ بدء العصر الروماني تطورت المدينة في العمران كل التطور وبنى فيها السوق والساحة العامة والحمامات والمعبود قبل أن ينتهي القرن الأول للميلاد . كانت ثروتها قد ازدادت جدا بالتجارة . وصارت تقام فيها الاحتفالات للألعاب . أما أعظم الأبنية التي ما تزال آثارها

(٦) - الفيفساء كان في العهد الروماني صناعة سورية بامتياز . كثر استخدامه وكان صناعه أحيانا من الرهبان او العبيد او الجنود . تفننوا في تصغير حجم قطعه المرصوفة وتلوينها واتخاذها من الحجر او الزجاج او الخلائط المعدنية مع الذهب . وكثير من المواضيع التي طرقتها كانت تتناول بعض الاساطير الاغريقية . كاللوحه التي تعود الى القرن الثاني وتمثل ارتيميس معبودة الصيد .

شرقي الأردن . واقامة عدد من المستعمرات -
الحصون على سيف الصحراء في جنوب
سوريا .

السلم الروماني

كان عهد الفوضى الاخير أيام السلوقيين
والبطالمة في سوريا ومصر . ثم فترة الحرب
الاهلية في روما . قبل اغسطس . قد تركا
آثارهما التخريبية في المشرق . لكن عهد
الاباطرة الصالحين الخمسة في القرن الأول
للميلاد أعاد الهدوء والازدهار الى المشرق .
كما أفاد توحيد العالم المتمدن في زيادة عدد
السكان وعودة النشاط الحضاري . تنظم الري .
زادت المحاصيل . قوي العمران . وتوسعت
المدن خاصة في سوريا . مئات القرى المقفرة
الآن صارت في تلك الفترة زاهرة . عادت
حركة التجارة العالمية وقويت الحرف (١)
بسبب الطلب الشديد على العطور والجلود
والحلي والأدوات المعدنية والأصبغة والزجاج
والفخار والبردي والحريز .

الفنون والثقافة في المشرق

انعكس الفن على عمران سوريا خاصة .
بلغ ذروته فيها في القرنين الثاني والثالث
للميلاد . المدن الهلينستية والقديمة والمشاركة
عرفت في تلك الفترة مجموعات واسعة من
الأبنية ما تزال بقاياها تميز آثار سوريا (٢)
والى حد ما الاسكندرية في مصر ايضا .
بعضها مثل بعلبك (٣) وبصرى (٤)
وجرش (٥) حظيت بمجموعات بنائية لم
تحظ بمثلها من قبل ولا من بعد . وقد زين
كثير منها بأرقى الفسيفساء . جارتها في ذلك
البتراء وتدمر والحضر . كانت كل هذه الابنية

من بناء السكان المحليين الذين ذهب بعض
المهندسين منهم لتزيين روما نفسها مثل
ابولودوروس الدمشقي .

أسهم السوريون أيضا في النشاط الثقافي
خلال العصر الروماني . ظهر منهم في التاريخ
ميناندر اللاذقي (القرن الثالث) . وفي
الجغرافيا مارينوس السوري (أواسط القرن
الثاني) . وفي الطب اريخجينس الآفامي
(أوائل القرن الثاني) . وفي البلاغة والفكر
لوكيان السميساطي (١٢٥ - حوالي ٢٠٠ م) .
ونومينوس الآفامي المؤسس الحقيقي
للأفلاطونية الحديثة . بالإضافة الى بابنيان
القانوني الكبير (القرن ٢ - ٣) من بيروت
وزميله اولبيان السوري .

في الوقت نفسه الذي حكمت فيه روما
سوريا عسكريا عدة قرون . كانت سوريا
ترسل اليها بالمقابل :

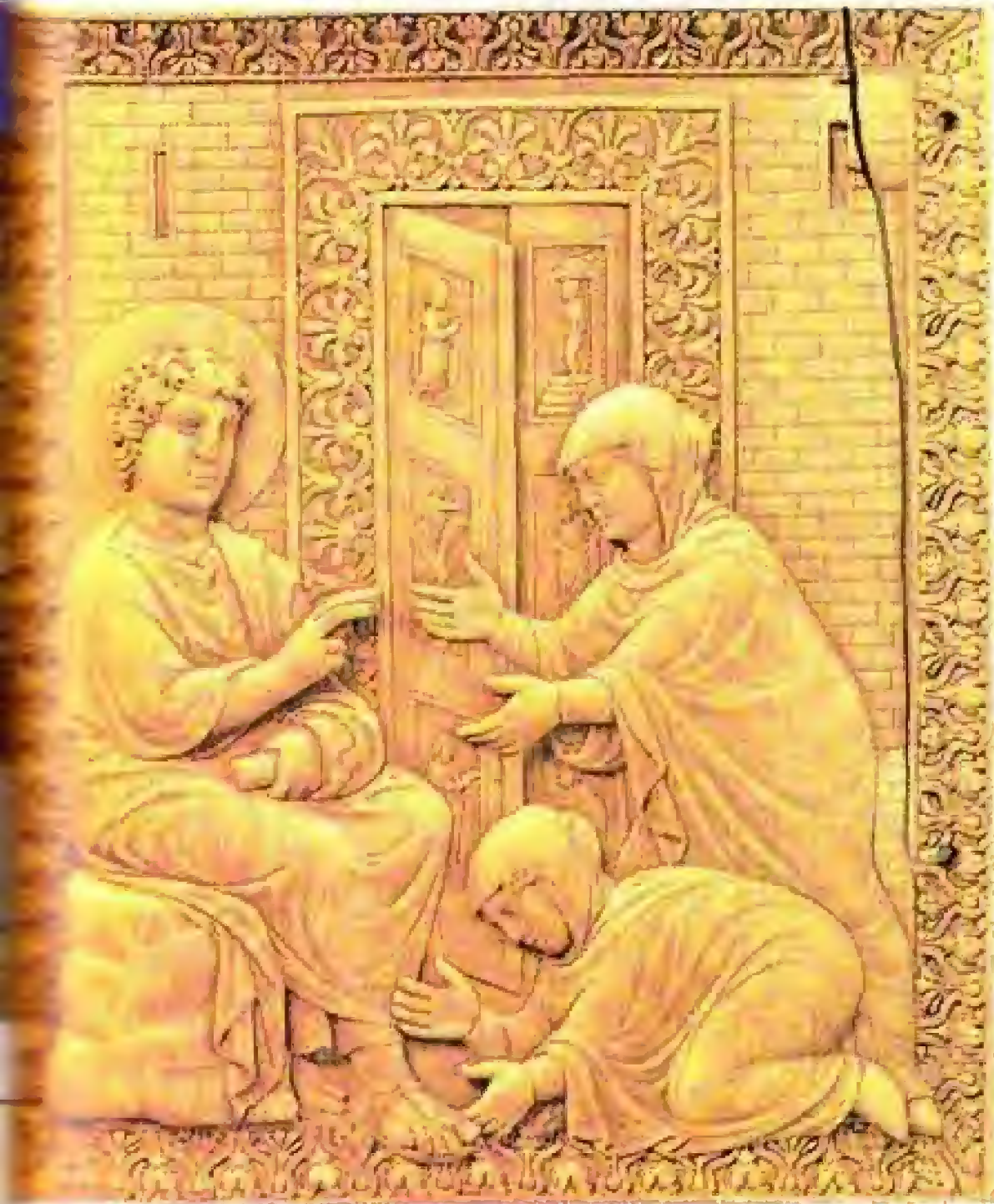
- ١ - أسرة امبراطورية حكمتها بين أواخر
القرن الثاني وأواسط الثالث .
- ٢ - دينا ألغى أديانها هو المسيحية .

لم يكن حظ مصر مماثلا لسوريا . تاريخها
الروماني قصة مخزية من الاستغلال وقصر
النظر . كانت روما تنظر اليها كبقرة حلوب
وتستغلها استغلالا أدى الى هرب الفلاحين
واقفار القرى . في القرن الثالث خاصة ظهرت
في مصر مظاهر الانهيار والاضطراب التي
شملت الامبراطورية كلها من حروب أهلية
طمعا بالعرش . وهجمات الجرمان وتوغلهم
فيها . وتهديد الفرس . وانتشار الطواعين .
واجذاب المساحات الشاسعة من الأرض .
وتضخم الأسعار الجنوني . مما مهد لسقوط
روما بعد أن انقسمت امبراطوريتها شطرين :
الشرقي لبيزنطة والثاني في الغرب لروما .

المسيح

تأسيس كنيسة ما . مع الزمن ، توصل تلامذته الى الاعتقاد بأنه « المسيح » المنتظر (أي المخلص وهي اللفظة المشتقة عن العبرانية والتي تقابلها « خريستوس » باليونانية) . شخصية يسوع وتعاليمه ما زالت . بعد ألفي سنة من أيامه . تسيطر على الضمير الغربي والحياة الروحية في الغرب خاصة . ويوجد اليوم اكثر من ١٠٠٠ مليون نسمة في عدة انحاء من العالم يعتبرون انفسهم مسيحيين .

ولد يسوع المسيح حوالي عام ٤ ق . م . و صلب . حسب قول النصارى وبعض مؤرخي الرومان . خارج أسوار القدس حوالي عام ٣٠ . ولا شك انه أعطى النصرانية اندفاعها الاول . لكن من غير المؤكد انه كان ينوي



(١) - يتجلى المسيح برفقة الياس وموسى اللذين يمثلان الانبياء والشريعة بينما يجثو بطرس ويعقوب امام النور في هذه الصورة التي وجدت في كنيسة في قبرص تعود الى القرن الثاني عشر .

(٣) - تقع كفرناحوم . حيث ما زالت بقايا هذا المعبد ظاهرة حتى اليوم . في الطرف الشمالي من بحر الجليل . يرد ذكرها مرارا في الاناجيل . في معرض الكلام على بشارة يسوع .

(٤) - تمثال منحوتة من العاج تعود الى القرن الخامس النساء اللواتي ذهبن الى قبر يسوع

(٤) - في هذه الفسيفساء من رافينا التي تعود الى القرن السادس . يظهر المسيح متلقيا المعمودية على يد يوحنا المعمدان . والمعمودية هي وسيلة الدخول في الدين المسيحي .

(٥) - توجه بولس في رحلته التبشيرية الاولى الى اسيا الصغرى . وفي طريق العودة واصل رحلته الى اليونان . ثم عاد فقطع معظم المسافات ذاتها . في رحلة ثالثة مر خلالها بحرا بكريت ومالطة وصقلية . حتى بلغ روما .

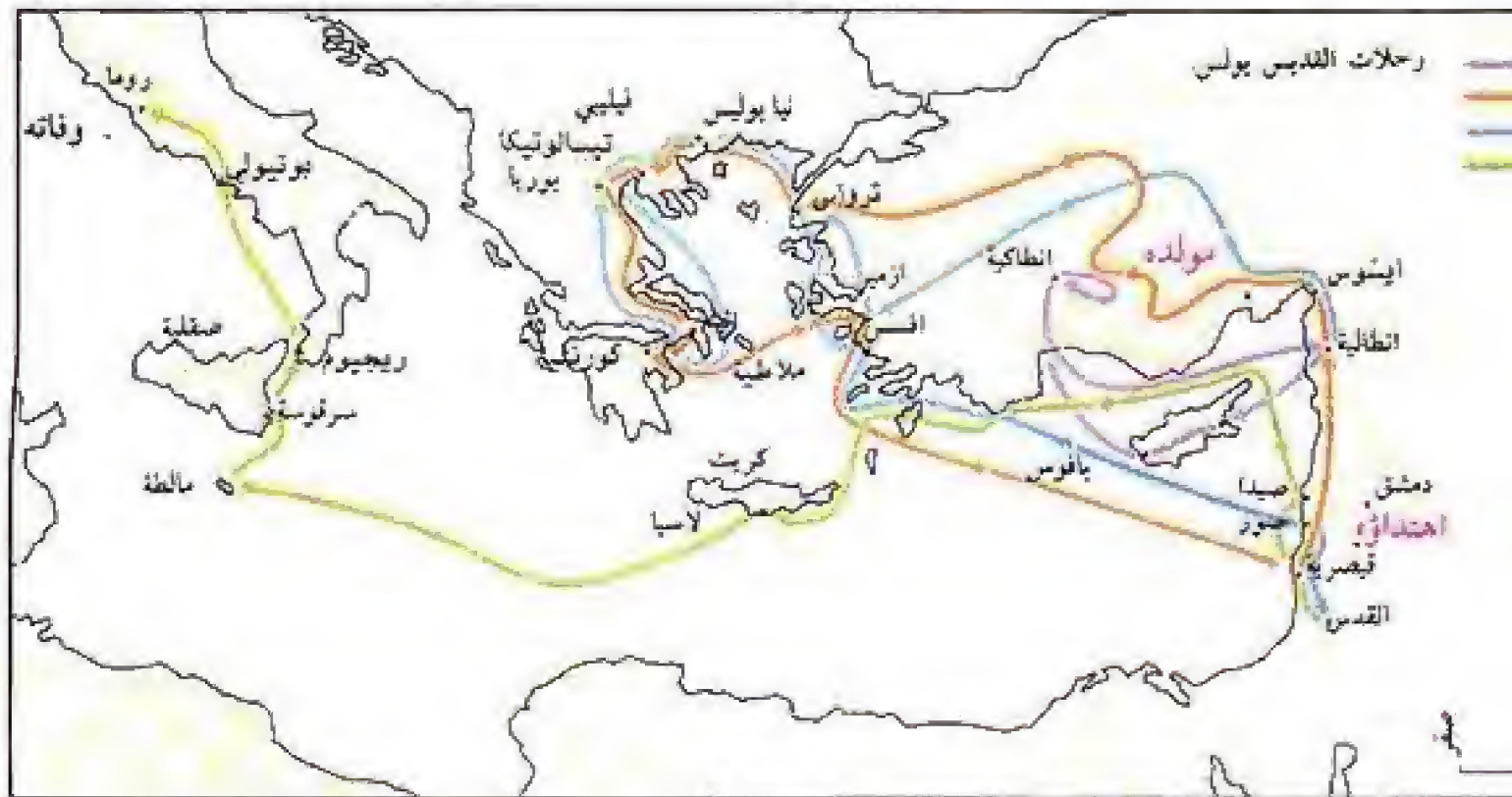
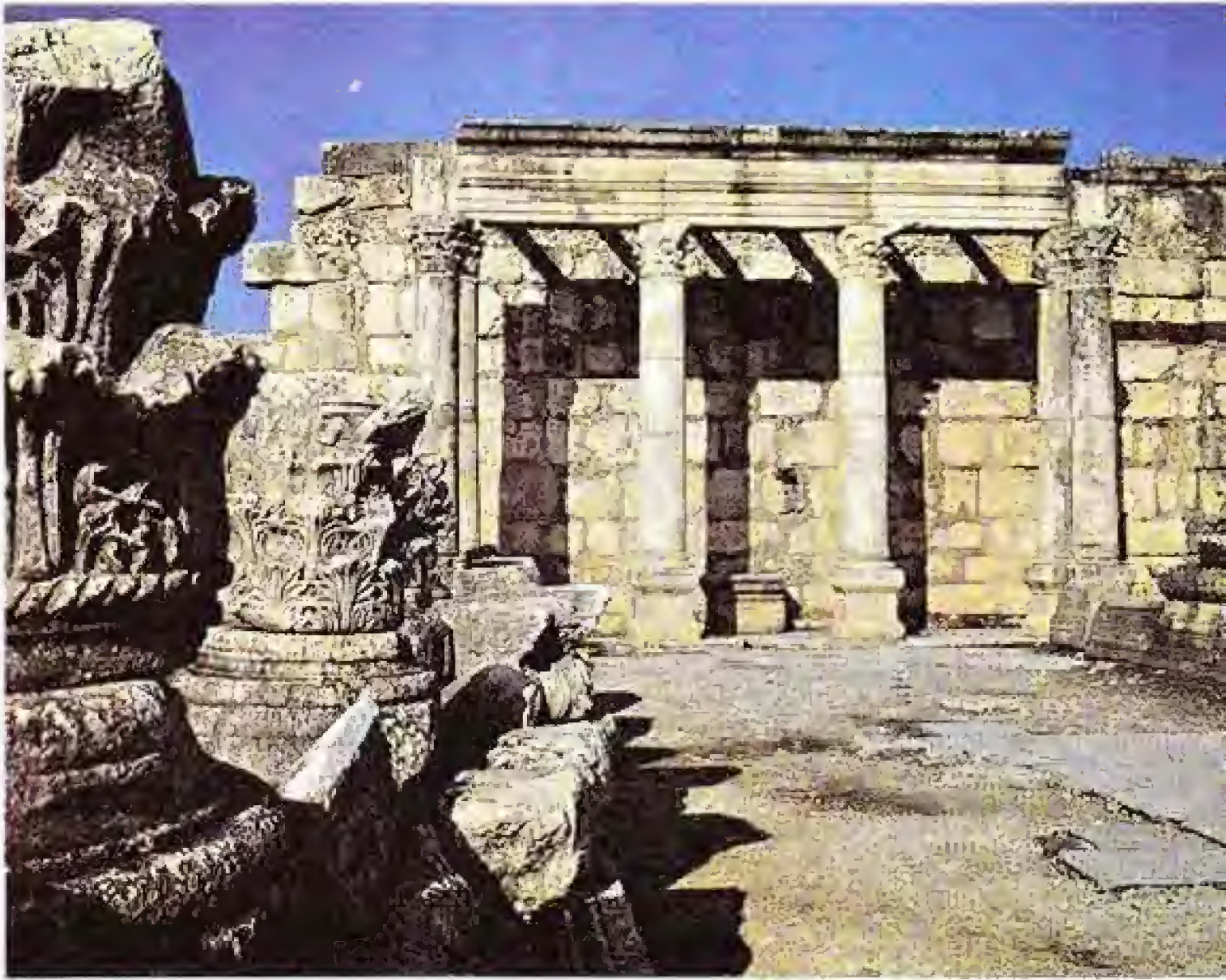
حين كان يسوع حيا . كان يتنازع الدين اليهودي عدد من الآراء والتفسيرات المتباينة ، التي أدت الى مناظرات ومنازعات بين بعض الفئات . وتفيد مخطوطات البحر الميت (٤) والمصادر المعاصرة الأخرى ، ان تعاليم يسوع كانت تتفق الى حد كبير مع بعض الفرق الدينية الناشطة في زمانه .

رغم الجدل الذي ما زال دائرا حول المسؤولية عن مقتل المسيح ، الذي يقول به

النصارى ، فان اناجيل العهد الجديد تروي انه صلب بأمر من الحاكم الروماني ، استجابة للاحاح السلطة الدينية اليهودية . يستمد من الاناجيل ان يسوع قد أدين بتهمة التجديف (وهي جريمة كانت عقوبتها الاعدام) . لأنه ادعى انه « المسيح » .

يسوع في التاريخ

ان سجلنا المفصل الوحيد لحياة المسيح



(٦) - اكتشفت مخطوطات البحر الميت بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٦ في كهوف في فلسطين ، تقع في الطرف الشمالي الغربي للبحر الميت ، وهي تحتوي على معظم أسفار العهد القديم . وبعض الكتابات اليهودية الأخرى التي لم تكن معروفة من قبل . وقد وضعت بالمبرانية والآرامية . وتعود الى مجتمع رهباني في قمران . كتب معظم المخطوطات على جلد الرق وورق البردي ، ومعظمها محفوظ حاليا في متحف القدس.

هو الاناجيل الاربعة التي كتبها مسيحيون من اجل مسيحيين . فقد انتشر شفويا في بادىء الامر ما كان يعتقد انه اقوال يسوع ، مع القصص الدائرة حول شخصه . ولا ريب ان مجموعات من هذه الأقوال والروايات دونت فيما بعد . ثم كتبت الاناجيل الاربعة استنادا اليها . وضعت هذه الاناجيل باليونانية . ما عدا انجيل متى الذي صنف باللغة الآرامية الدارجة آنذاك بين اليهود . والتي كان يسوع

يتكلم بها . كتب أول الاناجيل . وهو انجيل مرقس . حوالى عام ٦٢ . تعطينا هذه الاناجيل تاريخاً مؤولا الى حد كبير . ومن المستحيل فيه فصل الوقائع التاريخية عن تأويلها . من الطريف ان أولى الوثائق المدونة (رسائل القديس بولس وانجيل القديس مرقس) لا تصف ولادة المسيح . لكن . حسب روايتي القديسين لوقا ومتى . ولد المسيح في بيت لحم من ام بتول



الريف البسطاء . تذكر بعض الروايات ان بعض الرسل بلغوا في أسفارهم بلاد فارس والهند . كان بولس . أوسع الرسل أسفارا . يهوديا . ولكنه كان مواطنا رومانيا أيضا . ولد في طرسوس (وهي في تركيا اليوم) . وحمل تعاليم الانجيل الى آسيا الصغرى واليونان .

(٨) - بدأت المسيحية تنتشر بين اليهود في مقاطعة الجليل الشمالية : بعيدا عن القدس . المركز الديني آنذاك . أمضى يسوع معظم سني دعوته بين أهالي

تعود هذه الفسيفساء من رافينا الى القرن السادس . وتبين تلميذا متكئين مع المسيح . وقد تكون السمكتان تمثلان معجزة اطعام الحشود المعروفة . لكن السمك كان رمزا مسيحيا شالعا .

(٧) - أقام يسوع احتفالا بعشاءه الاخير مع تلامذته . في الليلة التي سبقت قضية صلبه . هذه الوجبة هي الاحتفال المسيحي المميز المدعو بعشاء الرب . او القربان المقدس .

هي مريم ، بعد ان حملت به بقوة روح الله الخلاقة . كانت المدينة التي نشأ فيها يسوع هي الناصرة الواقعة في الجليل (٨) واليهما ينسب ومنها جاء اسم النصرانية .

عندما بلغ يسوع سن الثلاثين تقريبا ، عام ٢٦ ، تلقى المعمودية على يد ابن خالته يوحنا المعمدان (٤) ، واعتزل اثر ذلك في الصحراء . بدأ تعليمه في الجليل . شافيا المرضى جسديا وعقليا . ومناديا بقرب حلول ملكوت السماوات (او بعبارة أدق : ملك الله) .

يجد العديد من الناس جوهر تعاليمه ملخصا في « الموعظة على الجبل » ، تؤكد هذه الموعظة على الحاجة الى الولادة الروحية الجديدة ، وتنوه بالصلاح البطولي الذي ينتج عن ذلك . تتصف تعاليم يسوع بصراحة مثيرة فيها الكثير من التحدي المباشر . فهو يدعو الناس الى التخلي عن حرفية الشريعة اليهودية ، والتمسك بروحها ، مما أدى به الى انتقاد زعماء اليهود انتقادا شديدا .

اعتقاله وصلبه

مهما كان الطابع الذي اتخذته انتقادات يسوع لزعماء اليهود ، فقد اعتبرته السلطات الدينية اليهودية عدوا مشيرا ، مما كان من شأنه ان يقلق السلطات المدنية (الرومانية) ، التي خشيت ان يؤدي ذلك الى اضطرابات ، نظرا للتأييد الشعبي الواسع الذي صار يتمتع به يسوع . من المحتمل انه ادرك حينذاك ان حياته اصبحت في خطر . ولما زار القدس ، حوالي عام ٣٠ ، للاحتفال بعيد الفصح اليهودي ، اعطى أعداءه ذريعة للقبض عليه ، عندما هجم على الصرافين والباعة وطردهم من

الهيكل . قبض عليه حراس الهيكل آخر الأمر ، حين كان يصلي في بستان الزيتون في جتسمانية . سلمه الزعماء اليهود الى الحاكم الروماني بيلاطس البنطي الذي أمر بصلبه (وهي الطريقة الرومانية لاعدام العبيد والمجرمين الوضيعين) بين لصين ، على تلة اسمها الجلجلة . والنص القرآني صريح في قوله : « وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

الكنيسة الأولى

منذ اليوم الثالث بعد الصلب الذي تذكره الاناجيل ، اقتنع اتباع يسوع كل الاقتناع بأنه حي . وبالرغم من اعتقادهم انه انتقل الى مجده السماوي ، كانوا واثقين انه ظهر لهم ، وتكلم معهم شخصا . بعد ذلك بقليل انتشرت انباء تقول ان بعض النسوة ذهبن الى قبره لمسح جسده الميت بالزيت ، الا انهن وجدن القبر فارغا الا من الأكفان .

في عيد الحصاد المعروف بالعنصرة ، بعد الصلب بحوالي خمسة اسابيع ، اعتقد التلامذة ان روح الله قد حل فيهم ، وان يسوع المرتفع الى السماء هو الذي أرسله اليهم . ومنذ ذلك التاريخ ، راحوا يبشرون بان يسوع هو المسيح المصلوب والقائم من الموت ، وان الخلاص الأبدي يمنح للجميع بواسطته .

بطرس وبولس هما أبرز الحواريين . فعلى جهدهما ، خاصة ، قامت الكنيسة المسيحية . اهتدى بولس الى حقيقة تعاليم المسيح بطريقة عجائبية وهو في طريقه الى دمشق ، وأصبح الرسول الرئيسي الى الأمم (الشعوب غير اليهودية) . كان بولس مواطنا رومانيا يتكلم اليونانية ، وهو الذي بدأ عملية تحويل المسيحية الى ديانة عالمية لجميع البشر .

الأدب الروماني

فقد ألف هذا الرجل مآسي وهزليات
(كوميديات) مبنية على نماذج يونانية
الأصل . وترجم « أوديسة » هوميروس مستعينا
بوزن ايطالي كان يدعى الزُخلي (نسبة
الى زُحل) .

التأثير الهلنستي

أذنت نهاية الحرب البونيقية الأولى ببداية
الانتاج الادبي في روما . ومع ان ملحمة

في القرون الثلاثة الأولى من تطور روما .
كان لليونان المحتلة تأثير واسع على الأدب
الروماني . كان الرومان انفسهم يقولون ان
ادبهم نشأ اصلا على يد رجل يوناني اسمه
ليفوس اندرونيكوس (٢٨٤ ق - ٢٠٤ ق . م) .



لميلانو عام ٣٧٤ ، وكان واعظا
عظيما . ووضع عددا كبيرا
متنوعا من المؤلفات الشعرية .
كما انه يعتبر مبتكر الترانيم
الكنسية اللاتينية . كتب
ترانيمه التي ما زالت تُستعمل
حتى اليوم . بأسلوب بسيط .

(٢) - تمثل هذه الفسيفساء ،
العائدة الى اوائل القرن
الخامس ، القديس امبروسيوس
في الكنيسة الكبرى التي اسماها
بميلانو والتي تحمل اسمه .
امبروسيوس ألماني المولد
(٣٤٠ - ٣٩٧) . انتخب مطرانا

تظهر فيها كلمات من الكتاب
الاول حيث يتضرع الشاعر الى
ربّي الشعر كي تخبراه عن
السبب الذي حدا بالأقدار
الغاضبة ان تحكم على إنياس
بأن يعاني كل تلك الآلام .

(١) - يجلس فرجيل بين
رمزي المأساة والتاريخ . في
هذه القطعة من الفسيفساء التي
تعود الى القرن الثالث ، والتي
عُثر عليها في سوسة بتونس ،
يمسك فرجيل بلفيفة من ورق
البردي من ملحمة « الانياذة » .

نافيوس (٢٧٠ ؟ - ٢٠١ ق . م) التي تعالج تلك الحرب . اعتمدت الوزن الزحلي . فان ابتكار إنيوس (٢٣٩ - ١٦٩ ق . م) للوزن السداسي (وهو وزن الملحمة اليونانية) في قصيدته الملحمة الكبرى « الحوليّات » . هو ما وضع أسس الشعر اللاتيني اللاحق .
الا ان كاتو الأكبر (٢٣٤ - ١٤٩ ق . م) الذي يقال ان إنيوس علمه اللغة اليونانية . عارض حركة تقليد اليونان هذه . كان كاتو

نموذجا للأخلاق الرومانية الصارمة . فألف أعماله بلغة لاتينية صافية الى أقصى حد ممكن .

كان بلوتوس (٢٢٥ ؟ - ١٨٤ ق . م) أعظم كتاب الكوميديا اللاتينية . بنى مسرحياته على نماذج يونانية الأصل . لكنه أضاف إليها روحا فكاهية قوية واستعمل اللغة اللاتينية استعمالا رائعا . اتبع خلفه تيرنس (١٩٠ ؟ - ١٥٩ ق . م) اسلوبا انيقا وبذل عناية



(٣) - اريادني ، ابنة مينوس الكريتي . تستيقظ على جزيرة ناكسوس لتجد ان ثيسبيوس . ابن ملك اثينا . قد هجرها . بعد ان ساعدته على دخول مغارة التيه . وعلى قتل حيوان المينوتور الخرافي (نصفه رجل ونصفه الآخر ثور) . كانت هذه الاسطورة موضوعا شائعا للرسوم الجدارية . في بيوت الاغنياء في بومبيي . وتؤلف اسطورة

اريادني موضوعا رئيسيا . في اطول وأجمل قصيدة من قصائد كاتولوس بعنوان « بلايوس وثيتيس » . وقد عالج أوفيد فيما بعد هذا الموضوع أيضا .

(٤) - تبين هذه الصورة كاتوليوس . وهو يلقي رثاءه الشهير بمناسبة وفاة عصفور عشيقته المدلل . الصورة هي إحدى صور مجموعة

ألما . تاديفا التي رسمها لورنس لوصف الحياة الرومانية . بكل تفاصيلها .

(٥) - برز شيشرون من أصل مغمو . حتى أصبح شخصية سياسية مرموقة في روما . رغم الغموض الذي أحاط به . توصل الى ذلك بالدرجة الأولى بفضل بلاغته الخطابية التي لا تضارع .

كان الرومان يعتبرون هذا الفن الشكل الأدبي الوحيد الذي لم يقتبسوه عن اليونان .

أعظم الشخصيات الأدبية

أنجب القرن الأول قبل الميلاد . وهو آخر عصور الجمهورية الرومانية . عددا من أعظم الشخصيات في الادب الروماني . اشتمل النتاج الضخم لمقرس توليوس شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م) (٥) على خطبه وأعماله التي

كبرى بالأشخاص . لكنه لم يحرز نجاح بلوتوس على المسرح . لم تحتل المسرحية مكانة في الحياة والأدب الرومانيين ، كالمكانة التي تبوأها لدى اليونان ، وكان تيرنس آخر مؤلف لاتيني مرموق كتب للمسرح (٦) .

طُور لوسيليوس (١٨٠ - ١٠٢ ق . م) فن الهجاء على الأسس التي وضعها إنيوخس ، جاعلا الوزن السداسي الوزن الخاص بالهجاء .



٧



٦



٨

ينادي بها . حاول ان يطبق الفلسفة الرواقية عمليا . كمستشار لنيرون ، لكنه كرس حياته في أخريات أيامه . عندما أخذ تأثيره على نيرون يتضاءل . لبسط الفلسفة الرواقية في عدد من المؤلفات . وفي « رسائله الخلقية » . كانت فلسفته مشتقة من سابقاتها لكنها أثرت في الفكر الروماني اللاحق .

دائم . . وكان أول روماني ظهرت صورته على قطع النقد . كتب قيصر قصة الحروب الغالية والاهلية بلغة لاتينية بسيطة وأنيقة .

(٨) - كان سينيكا السياسي والفيلسوف غنيا مغرورا بنفسه . وغالبا ما وجهت اليه تهمة النفاق . لأنه لم يطبق على نفسه مثل الزهد العليا التي كان

(٦) - صورة من القرن الثاني عشر تمثل فضلا من كوميدية تيرينس المسماة : « أندريا » . وهو الفصل الذي يقول فيه سيمو لعنتقائه ، فيما يكون عبيده يعتنون العدة لعرس ابنه : « العرس » ليس الا خدعة مدبرة لابنه الذي وقع في شرك غرام فتاة من أندروس .

(٧) - تمثل هذه القطعة النقدية قيصر « كدكتاتور

تعالج البلاغة والمواضيع الفلسفية . كان صديقه . وعدوه فيما بعد ، الامبراطور يوليوس قيصر (١٠٠ ؟ - ٤٤ ق . م) (٧) خطيبا بليغا ايضا . وقد ألف كتابا هاما في النحو ، ولكن لم تصلنا الا اعماله التاريخية .

كان من معاصري قيصر الشاعران الأصغر سنا منه لوكريتيوس (٩٩ ؟ - ٥٥ ق . م) وكاتولوس (٨٤ ؟ - ٥٤ ق . م) (٣ ، ٤) . يشكل اسلوب الوزن السداسي الذي استعمله لوكريتيوس في قصيدته التعليمية « في ماهية الاشياء » صلة وصل بين إنيوس وفرجيل . اما كاتولوس ، فكان عضوا في حلقة اتخذت الشعر الهلينستي نموذجا لها في نظم الشعر الكئيب ، الذي كان معظمه يدور على موضوع العشق ، ويتبع اوزانا يونانية متنوعة . رفع سالوست كريسيوس (٨٦ - ٢٤ ق . م) فن كتابة التاريخ الى مستوى أدبي راق في مؤلفاته الخاصة بحروب كاتيليني ويوجورثا ، مستخدما اسلوبا قديما لكنه أنيق .

في أعمال فرجيل (٧٠ - ١٩ ق . م) حصل الأدب اللاتيني اخيرا على نظير لهوميروس . آخر وأعظم آثاره ، وهو ملحمة « الانياذة » يمثل ضهرا للتقليد الملحمي وللأفكار الشعرية الهلينستية الأكثر حداثة وذاتية . برز ايضا صديقه هوراسيوس (٦٥ - ٨ ق . م) الذي حظي برعاية اغسطس ، بالرغم من وضاعة أصله . رفعت « قصائده الهجائية » ذلك النوع من الشعر الى مستوى أدبي ذي شأن ، ونجمت « رسائله » عن تطويره الرائع لهذا الفن ، فيما عرف في « قصائده الغنائية » أن يكيف بنجاح اسلوب الشعر الغنائي مع اللغة اللاتينية .

تغنّى تيطس ليفيوس (٥٩ ق . م -

١٧ م) . وهو واحد من ألمع مؤرخي العصر ، بأمجاد الجمهورية الغابرة ، في كتابه « تاريخ روما » . وسار أوفيد (٤٣ ق . م - ١٧ م) على نهج كاتولوس في نظم الغراميات الكئيبية ، وكتب « التحولات » .

انحطاط الأدب وتحوله

في نهاية القرن الأول الميلادي ، أخذ الأدب اللاتيني في شكله الكلاسيكي يتدهور . يمثل نثر سينيكا (٤ ؟ ق . م - ٦٥ م) وهو روماني ولد في اسبانيا ردّة فعل ضد الاسهاب الشيشروني ، تدعو الى الاقتضاب ودقة التعبير (٨) . ان كتاباته ، بالإضافة الى ملاحم ابن اخته لوقانوس (٢٩ - ٦٥) وستاتيوس (٤٥ ؟ - ٩٦) ، تمثل حقبة ساد فيها تقليد مشاهير اللاتين واليونان . مع ذلك ، فقد برز بعض الشعراء والناثرين المجددين .

يمثل تاسيتوس (٥٥ ؟ - ١٢٠) ، باسلوبه الذي لا يضاهى وشخصيته القوية ، ذروة الكتابة التاريخية الرومانية . وتلقي رسائل زميله بليئس الأصغر الأنيقة (٦٢ ؟ - ١١٤) ضوءا قويا على المجتمع المعاصر ، كما يفعل أيضا الكاتب الهجائي جوفينال (٥٥ م ؟ - ١٤٠) بسخريته اللاذعة ومبالغاته الشنيعة .

في القرن الثالث وما بعده ، أصبح المؤلفون المسيحيون ، مثل ترتوليان (١٦٠ ؟ - ٢٣٠) والقديس أغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) والقديس جيروم (٣٤٧ ؟ - ٤٢٠) أكثر المؤلفين أهمية . قُدِّر للغة اللاتينية ان تبقى على قيد الحياة ، حتى العصور الوسطى ، وذلك بالدرجة الأولى لأنها كانت لغة الكنيسة الكاثوليكية .

الأساطرة المجنود

لستيموس سفروس (حكم ١٩٣ - ٢١١) ،
فأعيد النظام الى نصابه ، الا ان القاعدة
العسكرية للسلطة الامبراطورية اصبحت أشد
بروزا .

الفوضى السياسية والاضطهاد الديني
خلف سبتيميوس اعضاء أسرته الملكية .
لكن عدم وجود نظام ثابت للاستخلاف ،
وازدیاد الاقتناع لدى الفیالق العسكرية ان

بعد مقتل الامبراطور الروماني كومودوس
في عام ١٩٣ ، تنافس على خلافته أربعة
طامحين ، مما أدى الى حرب أهلية مرهقة ،
خربت أثناءها عدة مدن كبرى ، بينها
انطاكية وبيزنطة وليون . ثم استتب الأمر



(١) - كان الاضطهاد الروماني
للمسيحيين (أ) الذي بلغ أوجه
في عهد ديسوس وفاليريان ،
يتناقض مع التسامح الديني
العام ، الذي لم يكن يقيد
سوى الاهتمام بوحدة
الامبراطورية . كان لاتباع اية
ديانة حرية العبادة . وحق
التبشير لكسب المهتدين ،
شريطة قبولهم بتقديم الولاء
والعبادة للامبراطور . ازدهر
عدد من الديانات الشرقية ، مثل
عبادة ميثرا (ب) الا ان
المسيحيين رفضوا تقديم العبادة
للامبراطور فتمرضوا للاضطهاد .

(٢) - استمر تأثير الامبراطورية
الرومانية كقوة حضارية ، حتى بعد
زوالها بوقت طويل . فأبنيتها الضخمة
العظيمة ، والأبنية التي بنيت على
النمط الروماني في حوض البحر
المتوسط ، كما يبدو في هذه المباني
في تدمر ، بقيت شاهدا حيا على
التأثير الحضاري المتبادل بين روما
والمقاطعات ، فبينما أعطت روما هذه
المقاطعات الكثير من أنماط البناء ،
والنظم ، أرسلت المقاطعات الى روما
بمنتجاتها وصناعاتها الماهرة وبعدد كبير
من بناء الحضارة . بل وبيع بعض
الباطرة ايضا الذين أوفدتهم اليها من
شمالى افريقيا وسوريا خاصة .

بوسعها تنصيب الاباطرة وخلعهم ، أديا الى استمرار حالة من الفوضى والاضطراب ، استغلتها القوات المحلية لتنصيب من تريد من بين المتنافسين . وخلال الـ ٧٤ سنة التي تفصل بين وفاة سبتيميوس وبين تسلم ديوقليسيان (٢٤٥ - ٣١٣) العرش عام ٢٨٤ ، تعاقب على الحكم ٢٧ امبراطورا وعدد آخر من المغتصبين .

جاءت هذه الفوضى السياسية في اسوأ

وقت ممكن ، لأن الجرمن « غزاة الشمال » عادوا ثانية يشددون ضغطهم على حدود الامبراطورية . ففي عام ٢٣٦ ، اجتاز الألمان والفرنك حدود بلاد الغال ، كما انطلق القوط عبر الدانوب عام ٢٤٧ ، فغزوا البلقان وقتلوا الامبراطور ديسيوس (٢٠٠ - ٢٥١) . امام هذه الحالة اضطر الرومان اما ان يسمحوا لهؤلاء الغزاة بالاقامة داخل حدود الامبراطورية ، او ان يدفعوا لهم الاموال لارضائهم (٣) .

(٣) - هذه التفاصيل المأخوذة من الأضرحة الحجرية تبين جنودا يخضعون بعض الغزاة . استطاع بعض الاباطرة اثناء القرن الثالث ان يحموا الحدود ، ويدفعوا الغزاة الى ما وراءها . لكن بصورة عامة سمح للغزاة ان يدخلوا الامبراطورية ويستقروا فيها ، وينخرطوا في الجيش والبنية الادارية . خلال القرن الرابع ، واولئ الخامس ، تكونت ممالك من غزاة الشمال في الغرب ، واقترن ظهورها بصورة تدريجية ، وغير واضحة المعالم . يستدور الامبراطورية .



(٤) - سببت اصلاحات ديوقليسيان تغييرا اساسيا في الامبراطورية فشطرتها الى شطرين يكادان يكونان مستقلين . كان هو وقبصره غاليريوس مسؤولين عن مقاطعات الدانوب والشرق الهامة ، بينما حكم مكسيميان قسطنطيوس الغرب . نقل الاباطرة مقر قيادتهم الى جوار الحدود ، فحكم ديوقليسيان من نيقوميديا ، بالقرب من القسطنطينية .



في الشرق ، غزت السلالة الساسانية ، وهي سلالة فارسية جديدة ، سوريا وآسيا الصغرى . ثم أسرت الامبراطور فاليريان (١٩٣ - ٢٦٠) عام ٢٦٠ (٥) . وقد اضطر ابنه وشريكه في الحكم غالينوس (حكم ٢٥٣ - ٢٦٨) الى القضاء على خمسة منافسين قبل ان يستعيد المقاطعات الشرقية المسلوبة . أخيرا تخلى اوريليان (حكم ٢٧٠ - ٢٧٥) عن داسيا ، الا انه شرع باستعادة حدود الدانوب

والراين . ثم اكمل مهمته هذه بروبوس (حكم ٢٧٦ - ٢٨٢) .

رافق هذا الاضطراب انهيار الأمن الداخلي وتدهور الاقتصاد . فأصبح لا بد من البحث عن كبش فداء ، وكان المسيحيون اكثر المؤهلين لذلك . كان الرومان يتساهلون كثيرا مع اتباع الديانات المختلفة ، شريطة ان يقبلوا بعبادة الامبراطور ، وهكذا شاعت عدة عبادات شرقية ، منها عبادة ميثرا



(٥) - أرغم الامبراطور فاليريان ان يركع امام الحاكم الفارسي ، في اعظم كارثة حلت بروما في القرن الثالث . كان يرافق الفوضى الداخلية في الامبراطورية الضغط المتجدد ، من جانب غزاة الشمال في الغرب ، ومن جانب الفرس في الشرق . كما زاد في ضعف تماسك الامبراطورية لجوء المناطق المعرضة للخطر الى اتخاذ تدابير بمعزل عن روما ، لتدافع عن نفسها بنفسها .

(٦) - هذا التمثال الموجود في ساحة القديس مرقس بالبندقية يمثل الحكومة الديوقليسيانية الرباعية المؤلفة من اغسطس اثنين يعانقان قيصرين ، وهما النائبان اللذان سيخلفانهما بعد ٢٠ سنة من الحكم . الفوضى والكوارث في القرن الثالث أرغمت ديوقليسيان على ادخال تغييرات كبرى على الامبراطورية . ويمكن اعتبار اصلاحاته ، وهي اولى تعديلات النظام الذي وضعه اغسطس ، تكريسا رسميا لممارسات

سنوات الفوضى . حين كان الاباطرة يردون على الغزو الشمالي والصراع الاهلي . بصورة ارتجالية . أصبح الامبراطور ونوابه قادة عسكريين بكل معنى الكلمة .

(٧) - اتخذ قسطنطين الكبير القرار الحاسم بقبول المسيحية ديانة شرعية في الامبراطورية . كذلك أعاد توحيد الامبراطورية ونقل العاصمة الامبراطورية من روما الى مدينة بيزنطة (القسطنطينية) .

وايزيس . الا ان المسيحيين الذين رفضوا تقديم القرابين للامبراطور ، كانوا هدفا سهلا للاضطهاد . واضطهدوا بوحشية من قبل ديسيوس . وبصورة أشنع من قبل فاليريان (حكم ٢٥٣ - ٢٦٠) (١) .

رغم جميع الكوارث ، استمرت الحياة المتقدمة وشهد القرن الثالث أعمال عدد من اعظم شارحي القانون الروماني ، مثل بولوس بابينيان الحمصي واولبيان الصوري ، بالاضافة الى انجازات أدبية هامة .

تقسيم الامبراطورية

كانت ثمة حاجة ماسة لاعادة تنظيم الامبراطورية ، وفي عام ٢٨٥ ، وضع ديوقليسيان نظاما حكوميا جديدا بكليته (٦) . قسمت الامبراطورية الى قسمين : شرقي وغربي ، يحكم كل منهما امبراطور يلقب اغسطس ، يعاونه نائب له يلقب بـ « قيصر » . كان مقررا ان يتنازل اغسطس عن الحكم بعد ٢٠ سنة وعندها يخلفه نائبه « قيصر » .

لم تجد اصلاحات ديوقليسيان حلا لمشكلة الخلافة ، فعمت الفوضى مجددا ، عندما استقال هو وشريكه في الحكم اغسطس ماكسيميان (حكم ٢٨٦ - ٣٠٥) عام ٣٠٥ ، في عام ٣١٢ ، خرج قسطنطين (٢٨٥ ؟ - ٣٣٧) ، الذي كانت جيوشه تحارب تحت شعار الصليب المسيحي ، منتصرا في الامبراطورية الغربية ، من معركة الجسر الميلفياني . فما كان منه الا ان اعلن المسيحية دينا شرعيا بالامبراطورية ، اعترافا منه بالجميل . وفي عام ٣٢٤ ، لدى وفاة الامبراطور الشرقي ليشينيوس (حكم ٣١١ - ٣٢٣) أعاد قسطنطين

توحيد الامبراطورية ونقل عاصمته الى بيزنطة ، التي أعيد بناؤها تحت اسم القسطنطينية . وحين جعل تيودوسيوس (سنة ٣٩٢) المسيحية دين الدولة الرسمي أصبحت الامبراطورية الشرقية والمسيحية متحدتين اتحادا وثيقا .

كان الخلاف بين شطري الامبراطورية يزداد عمقا باستمرار ، بسبب وجود غزاة الشمال في الغرب (٣) ، واقامة المزيد من قبائلهم داخل الحدود ، وقيام حكم امبراطوري مطلق في الشرق ، تهيمن عليه المسيحية .

الغزوات الشمالية الكبرى

في أواخر القرن الرابع ، تجددت الغزوات الكبرى ، وفي عام ٣٧٦ سمح للقوط الغربيين ان يعبروا الدانوب للاستيطان .

عبرت الحدود ايضا مجموعات أخرى ، فتوغل الفاندال عبر فرنسا ، ثم اسبانيا حيث لحق بهم القوط الغربيون فطردوهم وبقي منهم أسمهم للأندلس . وأقام الفاندال مملكة مستقلة في افريقيا الشمالية ، بينما احتل الجوت والانجليز والسكسون بريطانيا ، واستقر الفرنك والبرجونديون في شمالي فرنسا ، والقوط الشرقيون في ايطاليا . وفي منتصف القرن الخامس ، كانت الامبراطورية الغربية قد وقعت بكاملها تقريبا في قبضة هؤلاء الغزاة ، مع ان الادارة والثقافة حافظتا على طابعهما الروماني . لذا لم يكن مدعاة للاستغراب أن ينتخب الجنود الألمان في ايطاليا ، اودواشير القوطي الشرقي (حكم ٤٧٦ - ٤٩٣) ملكا عليهم ، لكن هذا لم يلبث ان خلع رومولوس اغسطولوس (حكم ٤٧٥ - ٤٧٦) ، منهيا بذلك حكم الباطرة في الغرب والامبراطورية الرومانية .

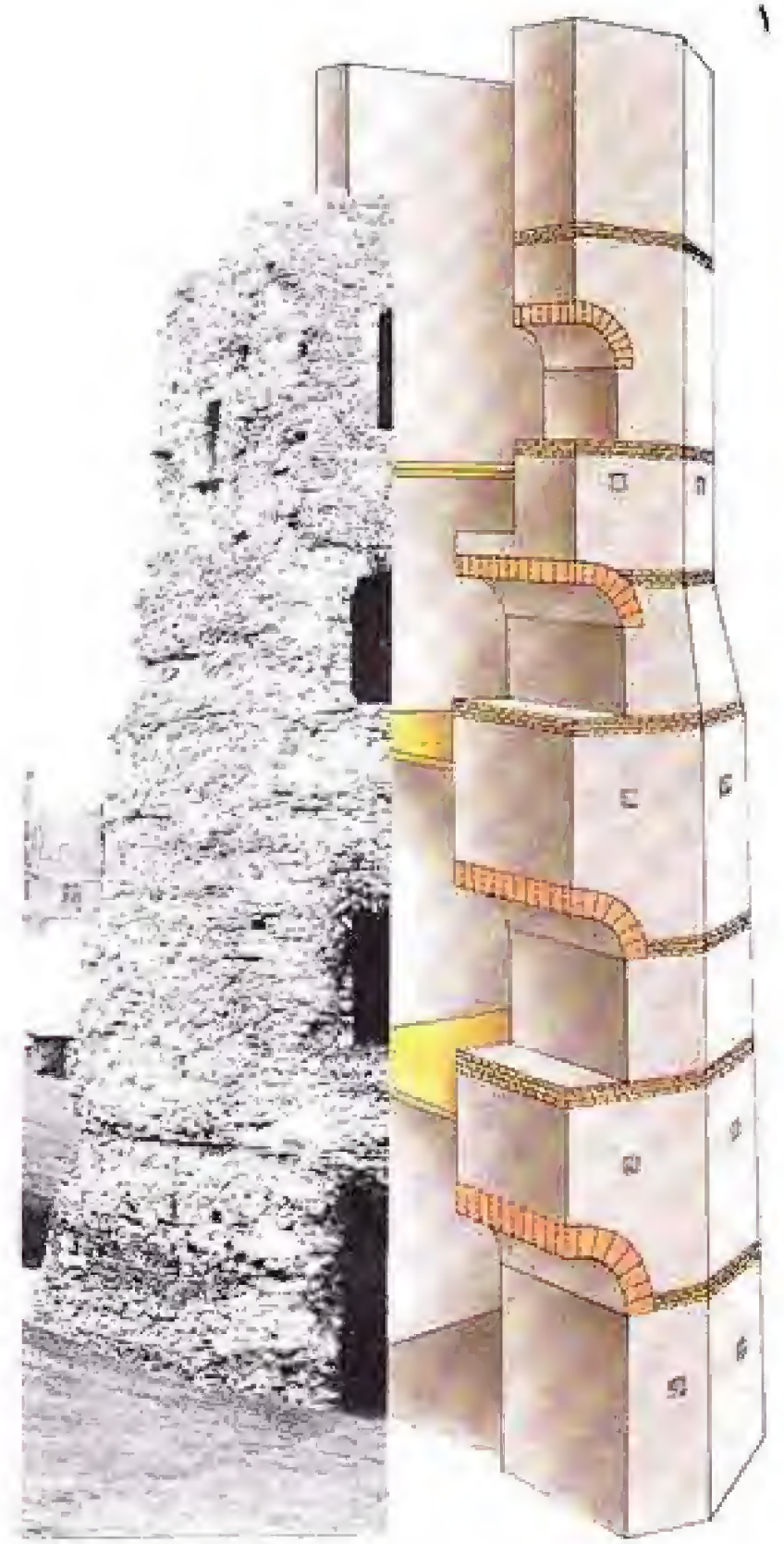
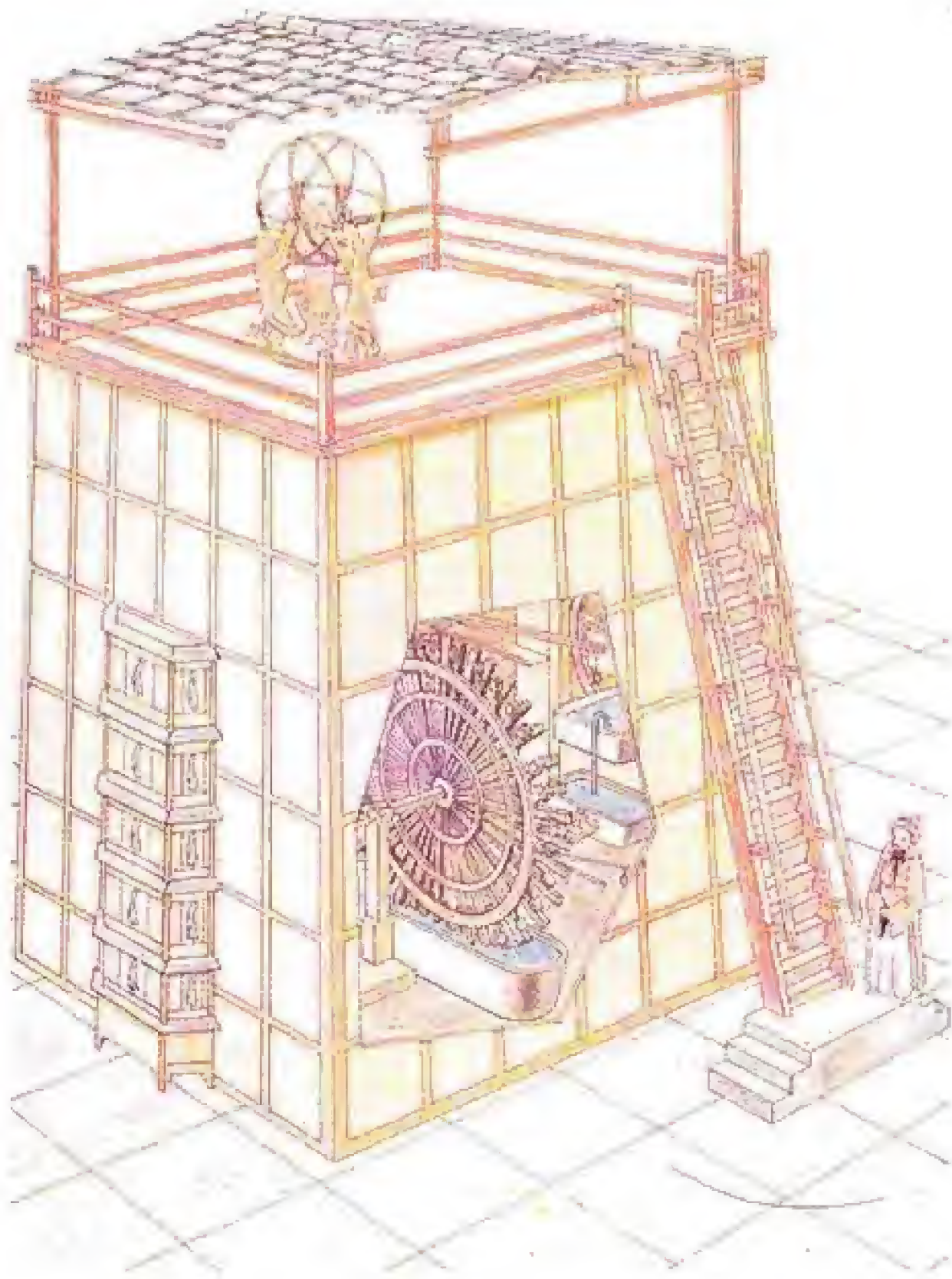
العالم الشرقي والغربي القديم

أوروبا وحوض المتوسط وأفريقيا والهند ،
وحتى الصين .

مدى تطور التقنية الرومانية

سبب اتساع الامبراطورية مشاكل لا
تحصى في مجالات حفظ السلام والحكم
والادارة . أظهر الرومان براعة في هذه الأمور
بتطويرهم التقنية العسكرية ، فقد بنوا
مجانق آلية ضخمة وأجهزة وأقواسا لاطلاق

بينت الدراسات الحديثة انه جرى في
العهد الرومانية تلقيح متبادل بين الحضارات
المختلفة . فالامبراطورية الرومانية ذاتها ،
بفضل اهتمامها الكبير بالتجارة الخارجية ،
وفرت روابط منتظمة بين مختلف حضارات



الساعات الميكانيكية . كانت
الساعة معروفة في الغرب في
القرن التاسع على الأرجح . وقد
صنعت أولى الساعات ذات
المطرقة في القرن الثالث
عشر .

(٢) - كانت أول ساعة
ميكانيكية صينية هي التي
اخترها اي هسينج في القرن
الثامن . كان يحركها دولاب
مائي معقد الهندسة . يقوم بدور
المطرقة . وهو سر جميع

من الخشب والقار في أعلى
المبنى . كانت المنارة مبنية
على شكل درجات ، شبيهة
بمنارة الاسكندرية الشهيرة
(القرن الثالث ق . م) .

(١) - هذه منارة رومانية أقيمت
في دوفر ، وهي إحدى الوسائل
الفعالة لهداية السفن . انها تبين
كيف كان الرومان يهتمون
بالتقنيات العملية . كانت
الاضاءة تأتي من نار توقد عادة

الأسهم ميكانيكيا كان الصينيون قد اخترعوها أصلا في القرن الثالث ق . م . كما اقتبسوا أكباشا معقدة وابراج حصار لها عجلات عن الاشوريين الذين كانوا قد اخترعوها في القرن التاسع ق . م .

امتدت الطرق الرومانية في جميع أنحاء الامبراطورية . كان معظمها معبدا او مرصوفا بالحجارة ، ولها ارضفة مرتفعة وأقنية لتصريف المياه . ولما كانت الامبراطورية

تشمل مناطق أكثر بردا وأشد رطوبة من روما ، فقد شاع استعمال اشكال التدفئة المركزية والحماية من الرطوبة ، على الأقل في البيوت التي بنيت من أجل الموظفين الرومان . كانت الحمامات الساخنة ايضا شائعة في المدن ومعسكرات الجيش ، في جميع أنحاء الامبراطورية . كذلك نحا الرومان منحى سوستراتوس الذي بنى في الاسكندرية منارة ضخمة في القرن الثالث



(٣) - شيد « عمود تراجان » الامبراطور الروماني تراجان (٥٣ - ١١٧) لتخليد ذكرى انتصاراته . بُني النصب من المرمر وبلغ ارتفاعه أكثر من ٣٠ مترا ، وقد اقيم في الساحة العامة بروما عام ١١٣ . تبين هذه القطعة منه جنودا رومانيين يتلقون العلاج على ساحة المعركة ، هناك وفي مبارزات السيفافين . تعلم جالينوس وسواه من الجراحين مبادئ التشريح .

(٤) - تظهر رافعة على هذا الجزء من « نصب تراجان » . يمكن بوضوح رؤية البكرة والحبال والرجال داخل القسم

السفلي من طاحونة الدوس . بقيت رافعات كهذه تستخدم حتى مطلع العصور الوسطى .

(٥) - تطورت الكيمياء العلمية ببطء . لكن الكيمياء العملية كانت جزءا من الحياة اليومية . كما يستدل من هذه النسخة لمخطوطة عربية تبين تحضير العطور وتعود الى القرن الثاني عشر ، قامت محاولات من قبل اليونان والمسلمين لتصنيف العناصر ورفع الكيمياء الى مستوى العلم الصحيح . وكتب لهذا العلم بعض النجاح على يد علماء عرب كان منهم جابر بن حيان وابن داود الانطاكي في

كتابه « تذكرة أولي الأبواب » و « البهجة والندرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة » . اشتهر جابر بن حيان (٧٣٧ - ٨١٣) بتحضيره للحامض الكبريتي والصودا الكاوية ، وفصله الذهب عن الفضة ، واكتشافه لطريقة تحضير كلورور الفضة . مما دفع بهذا العلم قدما الى الأمام .

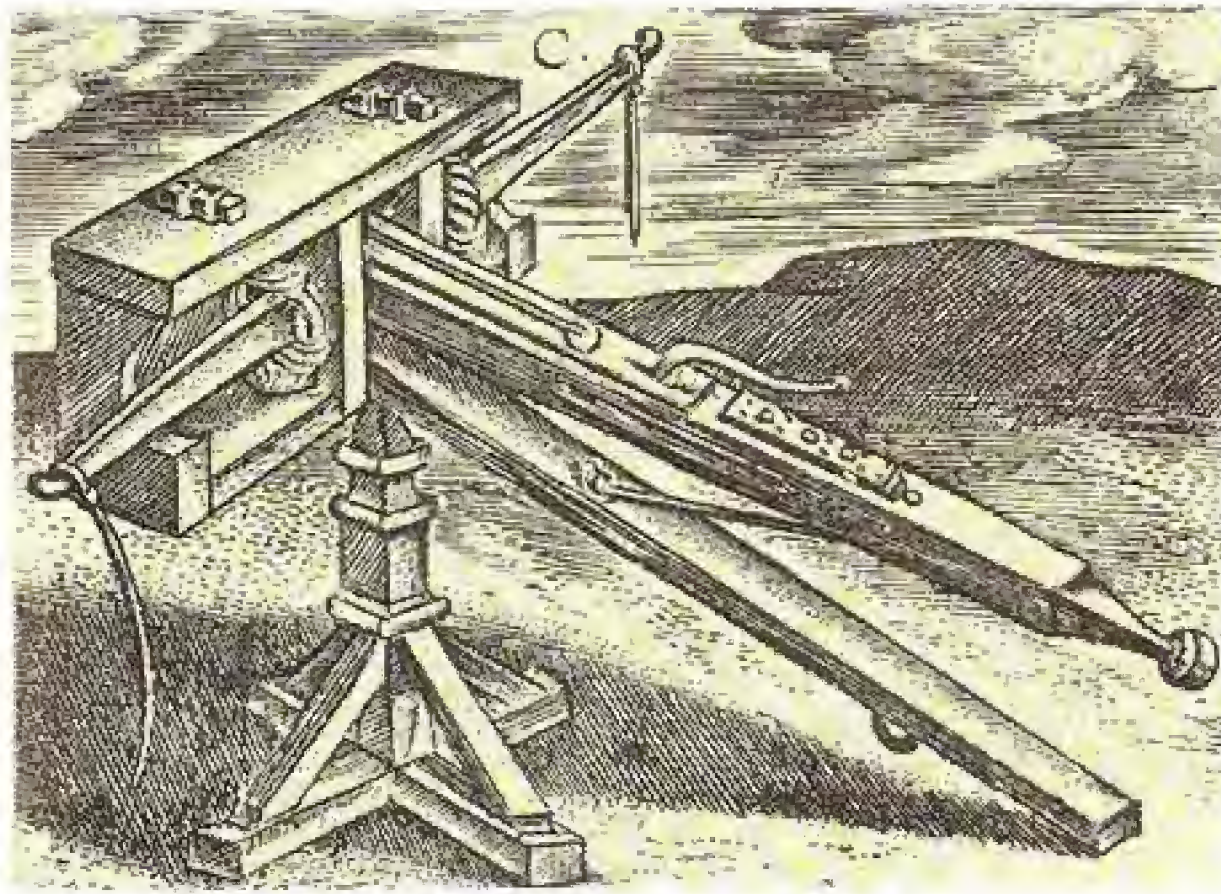


ق . م . ، فبنوا المنارات في عدد من الموانئ الأخرى (١) .

ومع ان الرومان اكتسبوا خبرة في فن ادارة الامبراطورية الواسعة ، وفي استخدام أحدث التقنيات الضرورية لذلك ، فهم لم يحرزوا أي تقدم في ميدان العلوم البحتة ، بل اقتصروا في ذلك على ما اقتبسوه من اليونان . ففي القرن الأول الميلادي ألف بليني (٢٣ - ٧٩) كتابه « التاريخ

الطبيعي » ، وهو موسوعة ضخمة لجميع العلوم المعروفة آنذاك ، ولا سيما العلوم الاغريقية . كذلك كان جالينوس (١٣٠ ؟ - ٢٠٠) (٢) ، وهو أعظم علماء الطب في العصور الرومانية ، مواطنا يونانيا .

انجازات في الحقول الأخرى لم يحصل أي تحول عن التركيز اليوناني على الهندسة ، حتى القرن الثالث الميلادي .

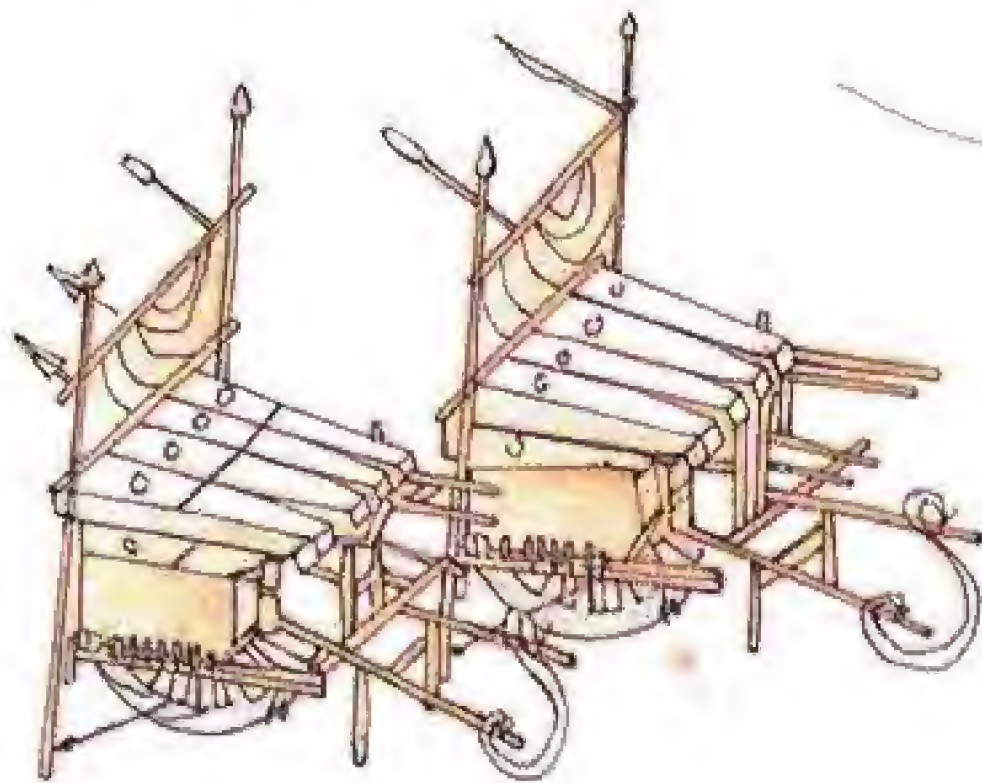


(٦) - ييندو فيثاغورس (الى اليمين) وهو يستعمل آلة للعد ، وكأنه ينافس بويتيوس (٤٧٥ - ٥٢٤) (الى اليسار) الذي يستعمل الأرقام العربية .

(٧) - يبين هذا الرسم نوعا آليا من القوس الخشبية ، التي كانت من الضخامة بحيث كان ينبغي تركيبها على قاعدة ، واطلاقها بواسطة زنار ميكانيكي . هذا التحسين ينسب عادة الى الميكانيكي فيلون . الذي كان يعمل في بيزنطة (اسطنبول

(٨) - كان البارود الذي اخترعه الصينيون يستعمل أصلا للألعاب النارية ، ولم يسخر لأغراض حربية . الا فيما بعد ، تظهر هنا قاذفات صواريخ تشبه عربة اليد . وقد ذكر البارود

(٦) - يبين هذا الرسم نوعا آليا من القوس الخشبية ، التي كانت من الضخامة بحيث كان ينبغي تركيبها على قاعدة ، واطلاقها بواسطة زنار ميكانيكي . هذا التحسين ينسب عادة الى الميكانيكي فيلون . الذي كان يعمل في بيزنطة (اسطنبول



للمرة الأولى كيميائيون صينيون تاويون ، قبل ظهوره في أوروبا بخمسة قرون تقريبا (حوالي القرن الثالث عشر الميلادي) . اما تطور البندقية فهو أكثر غموضا ، لأن البارود استعمل في بادئ الامر للصواريخ والقنابل .

حين انصرف الرياضيان المصريان ديوفانتوس وبابوس ، في الاسكندرية ، الى دراسة الاعداد . واضعين الأسس بذلك لنوع من الجبر . طورت مساهمة الاجيال اللاحقة عملهما ، لاسيما مساهمة الحضارة الاسلامية في هذا المجال . حيث بلغ الجبر درجة عالية من التطور . فقد وضع محمد الخوارزمي (٧٨٠ - ٨٥٠) للخليفة المأمون كتابا في الجبر . أخذ عنه الغرب طريقة جداول « اللوغاريتم » وسموها بأسمه (٤) . ثم أعطى العرب للعالم الغربي مع هذا العلم « الأرقام العربية » (٦) التي كانوا قد اقتبسوها عن الهنود .

في الغرب ، وقبل الفتح الروماني بأكثر من ١٨٠٠ سنة ، كانت تجري أرصاد فلكية في بريطانيا بدقة عظيمة . باستعمال دوائر من الحجر . ربما كان اعظم نموذج لها هو ما كان يدعى ستونهنج . وفي الشرق ، وفي بلاد ما بين النهرين وسوريا كان الكلدانيون (١٠٠٠ - ٥٤٠ ق . م) قد اكتشفوا بدراستهم للأجرام والفلك ان الكسوف يحدث دوريا . مع ذلك ، لم يجر التنبؤ بالكسوف بدقة او دراسة الارض والسماء بانتظام . قبل اوائل القرن الثاني للميلاد . وذلك في الصين . الا ان بعض التقدم التقني تحقق في تلك البلاد خلال الحقبة نفسها . فاخترع تشانج هنج جهازا لتسجيل صدمات الزلازل . ونشأت صناعة الورق . وبحلول القرنين الثامن والتاسع . كان الصينيون قد اخترعوا البارود أيضا (٨) والطباعة بالقوالب . بالإضافة الى صنع اول ساعة ذات مطرقة . هي الساعة المائية الكبرى في سيان (٢) . كذلك جاءت التقنية الصينية بأول شكل فعال لعدة

الحصان . وبالدفة القائمة الخلفية للسفينة . وبصناعة الحرير . والأهم من هذا وذلك باختراع البوصلة . التي كان العرب أول من استعملها في الملاحة العملية .

أما الكيمياء القديمة التي سبقت الكيمياء الحديثة ، فكانت فناً نجهل أصله . يهدف الى تحويل المعادن الخسيسة كالقصدير الى فضة وذهب . بالإضافة الى أمور أخرى . لكن العرب كان لهم الفضل في تحويل هذا العلم البدائي الى علم الكيمياء الحقيقي .

الطب والتأثير الصيني

لم يخل الطب ايضا من الخزعات والخرافات ، ولكن الصينيين اكتشفوا بعض العقاقير العشبية واستخدموها بنجاح . وكان في مجموعة عقاقيرهم أدوية ضد الملاريا والأمراض الشُعبية . بينما شاع في الهند استعمال أكثر من ٥٠٠ عقار . منها نوع مبكر من المهدئات . وقد استحدثت في الصين المعالجة بالوخز بالأبر (التأبير) .

بعد انجازات اليونان ، كان تقدم العلم في الغرب بطيئاً ومتقطعاً بل يبدو انه توقف عملياً طيلة نحو ٦٠٠ سنة . لكن من حسن الحظ ان المسلمين حملوا شعلة العلم ، فجمعوا ونسقوا كل المعارف والعلوم التي أخذوها عن اليونان والشرق الاقصى . ثم اضافوا اليها ما قاموا به من تجارب واختبارات عملية . حتى أصبحت اعمال العلماء العرب مثل ابن سينا والفارابي والخوارزمي والبيروني والزهرابي مصادر الدراسة والتعليم في الغرب . بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي . ومهدت الطريق لنهضة الغرب بعد ذلك بـ ٤٠٠ سنة .

المسيحية في العالم العربي

في فلسطين ظهر السيد المسيح . وفي القدس أعلن رسالته التوحيدية (١) . خالفت تعاليمه الديانة اليهودية في انها موجهة الى العالم أجمع . بجهود الحواريين الحثيثة (٢) والشهداء ورغم الاضطهاد انتشرت .

خلال القرن الأول للميلاد . في سوريا وحتى آسيا الصغرى وبعض مدن اليونان . ما بين مطالع القرن الثاني ونهاية الثالث . توطدت في هذه المناطق وفي العراق وسواحل الخليج . كما انتشرت في مصر والشمال الافريقي . ظهرت في هذه البقاع جميعا مراكز للثقافة اللاهوتية المسيحية (انطاكية . نصيبين . الرها . الاسكندرية . قرطاجه) . كما ظهر عدد من آباء الكنيسة . منهم



كانوا يحرصون على حمل شيء تذكاري منها . ظهرت منذ القرن الرابع صناعة أوعية صغيرة تضم شيئا من تراب تلك الاراضي يحملها الحجاج معهم للتبرك . في الصورة قارورة صغيرة منها صنعت من الفضة المنقوشة بالمواضيع الدينية حوالي القرن السادس . وهي موجودة مع وعاء آخر مثلها في كاتدرائية مونزا بإيطاليا .

انجلو تمثل القديس بولس وقد صعبه نور سماوي وهو في طريقه الى دمشق لاضطهاد مسيحييها .

(٣) - انتشار النصرانية أعطى فلسطين . أرض السيد المسيح . قدسية روحية عند أتباع الديانة الجديدة وبخاصة اثناء فترة الاضطهادات . الحجاج الذين كانوا يزورون الأراضي المقدسة

(٢) - كان الاسم السابق للقديس بولس هو شاول . وكان فريسيا اضطهد المسيحيين بعنف . الى ان اهتدى فجأة وهو في طريقه الى دمشق نحو سنة ٣٣ م . تعمد ثم اختلى في شمال جزيرة العرب مدة ثلاث سنوات حيث تعلم صناعة الخيم . وباشر بعد ذلك تبشير الأمم الوثنية . وكان لها الرسول الممتاز . هذه اللوحة لميكل

(١) - بجانب القدس . ليس ثمة أكثر قدسية لدى المسيحي من بلدين هما : بيت لحم (أ) . البلد الذي ولد فيه السيد المسيح (سنة ٦ أو ٥ ق . م) وضم مهده قبل أن تهرب به أمه الى مصر . ثم الناصرة (ب) . البلد الذي عاد المسيح فنشأ فيه . هذا الثلاث من المدن يضم اليوم أقدس تراث المسيحية الروحي . وأقدم الكنائس .

كليمنتوس الاسكندري (١٥٠ - ٢١٧) ،
اوريجينوس (١٨٥ - ٢٥٤) ، يوزيبيوس
السوري (٢١٥ - ٣٤٠) ، ميريانوس الافريقي
(٢١٠ - ٢٥٨) ممن وضعوا أسس الفكر
المسيحي ، وربطوا العالم بفلسطين (٣)
وابنها يسوع الناصري .

النظام الروماني قاوم المسيحية بعنف
(٤) ، لأنها تلغي الرابطة التي كانت ،
بجانب الجيش ، تربط الامبراطورية بعضها

مع بعض ، وهي عبادة الامبراطور . اعتبر
المسيحيون اعداء الدولة . اعنف الاضطهاد
عرفوه ما بين ايام سبتيوس سيفروس
(١٩٣ - ٢١١) وايام ديوقليسيان (٢٨٤ -
٣٠٥) . انتهت الفترة الصعبة حين منح
الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧)
للمسيحيين حرية ممارسة العبادة . وقبلت
عقيدتهم بين الأديان الشرعية في الدولة . كان
ذلك نهاية الاضطهاد وبدء الدعوة العلنية .



بعد ذلك من أشهر آباء الكنيسة
اللاتينية . مؤلفاته الأساسية ،
مدينة الله ، الاعترافات ، حاول
التوفيق بين الافلاطونية
والعقيدة النصرانية . اجتاح
الفاندال افريقيا وهاجموا
مدينته المحصنة . توفي سنة
٤٣٠ قبل أن يرى سقوطها
بأيديهم . في الصورة فيفساء
من القرن الخامس يمثل .



لهم . ترى على هذه الشاهدة
(أ) عبارة مؤثرة نصها ، « عاش
فوريون عشرين عاما بسلام
وزرع اربعمئة شجرة » . وتظهر
في الرسم (ب) الذي عثر عليه
في أحد المدافن أهم رموز
المسيحية الباكرة ، المرساة ،
رمز الكنيسة ، الدلفين ، رمز
العقيدة .

(٥) - القديس أوغسطين
(٣٥٤ - ٤٣٠) أسقف هيون
(قرب بونة) . ولد في
تاجاست . وبعد شباب عاصف ،
اجتذبه الحياة الدينية ، فأصبح

(٤) - كان المسيحيون في
فترات الاضطهاد من القرنين
الثاني والثالث ، يتخذون اماكن
تجمعهم وصلاتهم ومدافنهم في
السراديب والدياميس والكهوف
بين عامي ٢٩٦ و ٣٠٥ ، وهي
حقبة الاصلاحات التي قام بها
الامبراطور ديوقليسيان في
افريقيا الرومانية ، كانت مدينة
هذروميتوم (سوسة الحالية)
قاعدة مقاطعة بيزاسينيا
(تونس الوسطى والجنوبية) .
وكان في هذه المدينة دياميس
واسعة استعمالها المسيحيون في
القرنين الثاني والثالث مدافن



انتشار المسيحية

انتشرت المسيحية في المدن خاصة . الا في الشمال الافريقي (٦) . فقد كان مجالها الاول في الريف . الذين نشروها كانوا افرادا متطوعين . لهذا رافقت في انتشارها الطرق التجارية . ظهر فيها منذ البدء اتجاهان دينيان اساسيان : شرقي نشأ في سوريا والعراق . لغته السريانية . ويتصل به اتجاه مماثل في مصر والنوبة . لغته اليونانية

والقبطية (٧) . وهلينستي . في اليونان واوروبا وشمال افريقيا . لغته اليونانية او اللاتينية .

انتظم المسيحيون مبكرين في اسقفيات (كنائس) لكل منها اسقف خاص . هكذا قامت مع الزمن في المشرق اربع كنائس رئيسية : الاسكندرية والقدس وانطاكية والقسطنطينية . كانت قرطاجة ايضا مركزا لكنيسة الشمال الافريقي .



(٦) - سبيطة مدينة تونسية فيها الكثير من آثار العصر الروماني والبيزنطي . كالسوق وقوس النصر والحمامات والمسرح . فتحها عبد الله بن ابي سرح وهزم فيها الجيش البيزنطي بقيادة البطريق جرجير (غريغوريوس) سنة ٦٤٦ بعد أن ازدهرت فيها المسيحية خلال أربعة قرون وقامت فيها خمس من أقدم الكنائس . في الصورة (أ)

(٧) - حوالي القرن السادس كانت المسيحية منتشرة في الشام والجزيرة العراقية . كما كانت منتشرة جزئيا في العراق . تشاركها الزرادشتية من جهة والمذهب النسطوري من جهة أخرى . النسطورة والريان كانوا نشيطين في

الكتاب المقدس عنايتهم وأن يزروه بالمشاهد الدينية . من ذلك مشهد دخول المسيح الى القدس على كتاب للأناجيل في دير مارمرو قرب الموصل سنة ١٢٢٠ (موجود في الفاتيكان) .

العمل الديني والدراسات الفلسفية والطبية . تميز النسطورة بنشاطهم التبشيري . هم الذين حملوا المسيحية الى البحرين والى نجران . أما السريان فأكثروا من التأليف الديني . وكان طبيعيا أن ينال

تحت تأثير الفلسفات الشرقية والافريقية واختلاف اللغات وتراث الشعوب الحضاري . نشأت في المسيحية قضايا لاهوتية جدلية عديدة . اتخذ بعضها الشكل العنيف منذ القرن الثالث . أهمها الجدل حول طبيعة السيد المسيح وعلاقة الاقانيم الثلاثة (الاب والابن والروح القدس) أحدها بالآخر . عقدت مجامع كنسية متعددة لحل الاشكال (منها مجمع نيقية الاول سنة ٣٢٥ . وافسوس سنة ٤٣١ . وخلقيدونية سنة ٤٥١) . ولكن الجدل كان يزيد في الخلاف بدل ان يضيق منه .

الكنيسة في سوريا ومصر

الكنيسة السورية والمصرية اتجهتا الى القول بالطبيعة الواحدة الناسوتية - اللاهوتية للسيد المسيح . سمي هؤلاء فيما بعد باليعاقبة نسبة الى اسقف كنسي كبير هو يعقوب البردعي . صرف ثلاثين سنة (٥٤٨ - ٥٧٨) في العمل الكنسي . لكن نسطوروس بطريق القسطنطينية قال سنة ٤٢٨ بالطبيعتين ، فاعتبره مجمع افسوس خارجا على الكنيسة . انتشرت تعاليمه في الرها وفي المشرق الايراني . بعد ان رحب الملك الساساني فيروز (٤٥٧ - ٤٨٣) بالنساطرة . لهذا كان مسيحيو الحيرة والبحرين ونجران على هذا المذهب . اليعاقبة رفضتهم الكنيسة البيزنطية الرسمية (الملكانية) . ولكن كثرتهم لم تسمح لها بطردهم أو اجبارهم على المذهب الرسمي . بل اضطرت للاعتراف بهم بجهود الحارث الثاني الفساني سنة ٥٤٨ .

أما مصر . فقد عانت كنيستها القبطية الكثير . لرفضها التحول الى الملكانية . المحاولات الاخيرة ضدها كانت قبيل الفتح

العربي حين تسلط عليها المقوقس مندوب هرقل . فهرب بطريق الاسكندرية من اضطهاده الى الصحراء .

الكنيسة في الشمال الافريقي

هناك في تلك البقاع . ظهر المذهب المونتاني (أصله من آسيا الصغرى) الذي استهوى السكان منذ مطلع القرن الثالث . كبير دعاة المذهب كان ترتليانوس (١٦٥ - ٢٢٠) ثم كبريانوس . حركتهما الدينية كانت موجهة ضد رجال الدين الذين تضامنوا مع الدولة الرومانية . بعد ذلك في مطلع القرن الرابع . ظهر مذهب دوناتوس الذي انتشر في نوميديا لمقاومته رجال الدين الكاثوليك المرتبطين بدورهم مع روما . خلال ذلك عرفت الكنيسة اللاتينية - الكاثوليكية (الرومانية) بالمقابل واحدا من كبار آبائها هو القديس اوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) الذي كان من اوائل من فلسفوا الفكر المسيحي وحاولوا التوفيق بين العقل والايمان (٥) .

حين وصل الفاندال بعد ذلك سنة ٤٣٣ نشروا المذهب الاريفوسي المناهض للكاثوليكية . بينما كنت تيارات من المذهب اليعقوبي تصل بدورها من مصر . لكن الكاثوليكية كانت تتمتع ما بين تونس واقصى المغرب بقواعد قوية مستندة في ذلك الى سلطات روما الرسمية .

حين أهل الفتح العربي على بلاد العرب والرافدين والشام ومصر والشمال الافريقي كانت جميعا . رغم نصرانيتها . تناضل من خلال اقرار مفهومها الكنسي الخاص ، لرفض السيطرة البيزنطية الدينية والسياسية على السواء .

المشرق العربي وبيزنطة

وهزة اجتماعية بقدر ما كانت روحية ودينية . توالى عشرون امبراطورا ما بين ٢٣٥ و ٢٨٤ دون طائل . الامبراطوران اللذان استطاعا تجاوز الأزمة جزئيا هما ديوقليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥) وقسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) : اصلاحاتهما فصلت السلطة الادارية عن العسكرية ، وحددت مساحة الولايات (مصر مثلا ثلاث ولايات وشمال افريقيا مثلها) . سك ديوقليسيان نقدا جديدا (١) . فرض

منذ أواسط القرن الثالث الميلادي . كانت الامبراطورية الرومانية تجتاز أزمة حادة وضعت مصيرها في الميزان . كانت اقتصادية بقدر ما كانت ادارية وعسكرية . وكانت أخطارا داخلية بقدر ما كانت خارجية .

(١) - أدى الطلب المتزايد من

العالم الروماني الغربي على بضائع الشرق من حرير وتوابل ومجوهرات وزجاج ومصنوعات ثمينة وبخور وخشب صندل الى تدفق مقادير هائلة من سبائك الذهب والفضة الى المشرق كل عام . أعان ذلك على قوته الاقتصادية وبالتالي على دعم النظام البيزنطي الذي قام فيه وأضحى بالنتيجة امبراطورية منفصلة شرقية . بينما كان نظام روما ينهار بالاستنزاف المالي وتحت ضربات الشعوب البربرية . كان لبيزنطة عملتها الخاصة التي كان يفضلها تجار المشرق جميعا لعيارها العالي . وهذه العملة وحيدة المعدن اساسها الذهب . « النوميسما » كانت تعادل واحدا على ٧٢ من الرطل من الذهب (٢٢ قيراطا) . تقسم النوميسما الذهبية الى ١٢ ميلياريسيا . وكل واحد من هذه الاقسام يساوي ١٢ فلا (فولس) . ظلت العملة البيزنطية محتفظة بقيمتها التجارية والعالمية سليمة من عهد قسطنطين الاول (القرن ٤ م) حتى عهد نقفور فوقلس (القرن العاشر) .



الضرائب على مساحة الاراضي ونتاجها ، قسم
الامبراطورية اداريا قسمين ، واحدا لبيزنطة
والثاني لروما .

ظهور الحضارة البيزنطية

لكن تفاعل هذه الاصلاحات مع الاحداث
الخارجية (تهديد الساسانيين للمشرق
والجرمان للغرب الاوروبي) ، والدينية (انتشار
المسيحية) ، والداخلية (الحروب الاهلية

المتكررة) لم يؤد الى قسمة الامبراطورية
الرومانية نهائيا قسمين بعد قرن من ذلك
(سنة ٣٩٥) وحسب ، ولكنه كان ايضا ايدانا
بغيا ب مرحلة الحضارة الرومانية واللاتينية
عن المشرق خاصة ، وعودة التأثير اليوناني
في ثوب جديد هو الحضارة البيزنطية التي
نجمت عن اتحاد الهلينية بالمسيحية .
ورثت الامبراطورية البيزنطية ، بصورة
آلية ، المشرق الروماني . فكانت سوريا ومصر

٣



٢



(٣) - اورشليم القديمة ، عاصمة
فلسطين ، دمرها الرومان عام ٧٠ م
بقيادة تيطس . ثم عادت فازدهرت
ايام قسطنطين في القرن الرابع .
هذه أقدم خريطة فيسفسائية لها .
عثر عليها في كنيسة مادبا (في
الأردن) . احدى الكنائس التي
بنيت في القرن السادس للميلاد .
تري فيها الابراج على سور
المدينة ، وبوابتها الكبرى الى
اليسار قائمة مكان بوابة دمشق
اليوم . تبدو كنيسة القبر المقدس
وسط الصورة .

الطبقة العليا بما تصيب من
القماش الثمين . أحد أعضاء
الشيخ طرز على ملابسه
الرسمية سلسلة كاملة من صور
حياة المسيح . وجوستيان زين
أياصوفيا بأقمشة عليها مواضع
دينية . الحاجة المتزايدة دفعت
الحكومة الى ايجاد عدد هائل
من مناسج الحرير في مصر
وسورية لحساب البلاط .
واستجلبت دودة القز من الصين .
هذه القطعة الحريرية (٣٦ سم)
من صنع مصر أو سورية حوالي سنة
٦٠٠ ويسمونها (البشارة) .

م الذي حكم منذ سنة ٥١٨) .
بعض عمال الصياغة كانوا
يستخدمون النقود للزينة . ومن
ذلك عقد الصدر (ث) الذي
ضمت فيه مجموعة من النقود
الذهبية في صياغة وطوق من
الذهب يعود صنعه الى حوالي
سنة ٦٠٠ . كما يعود أحدث
النقود ضربا فيه الى ما قبل سنة
٥٨٢ م . (محفوظ في متحف
برلين) .

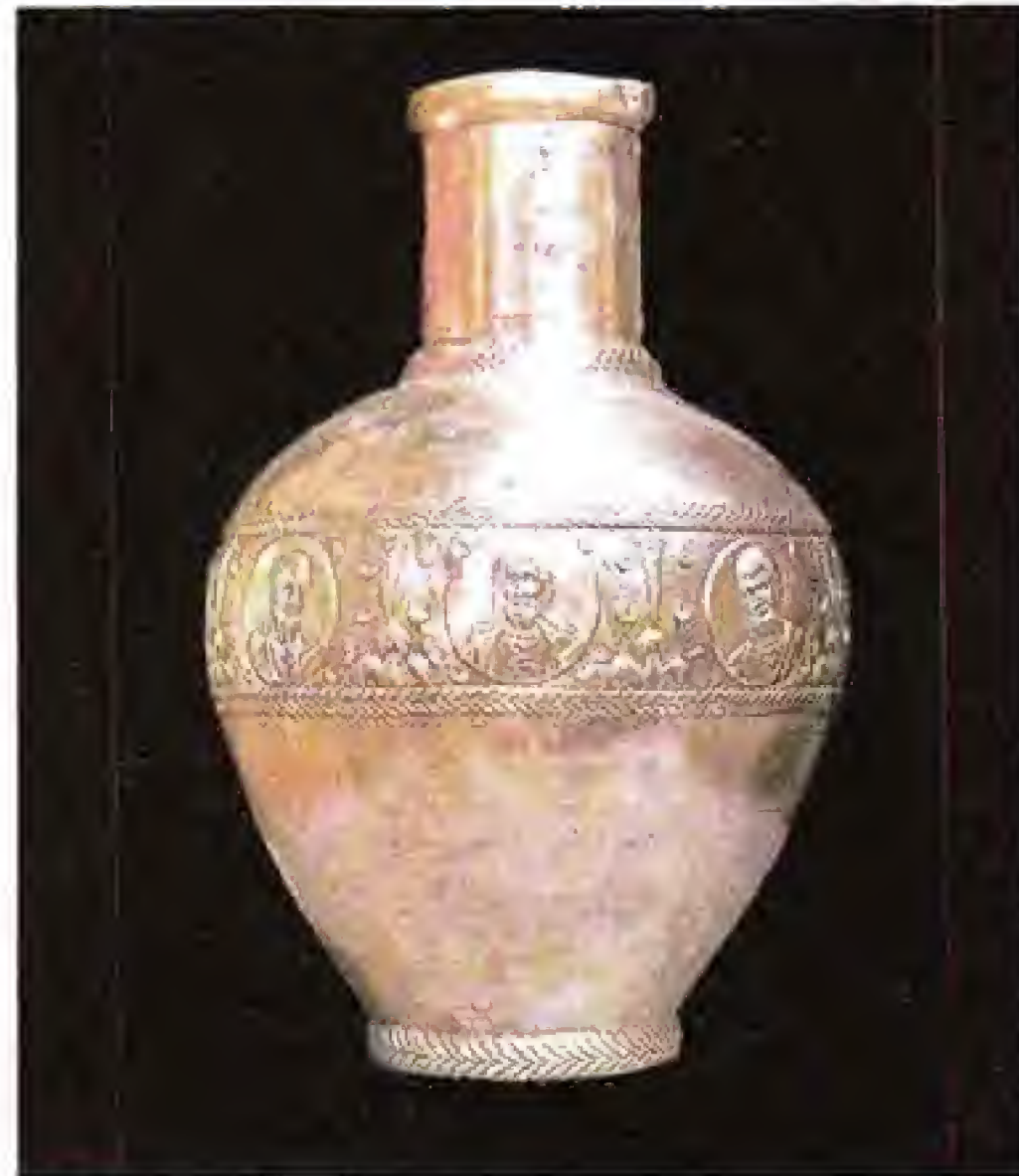
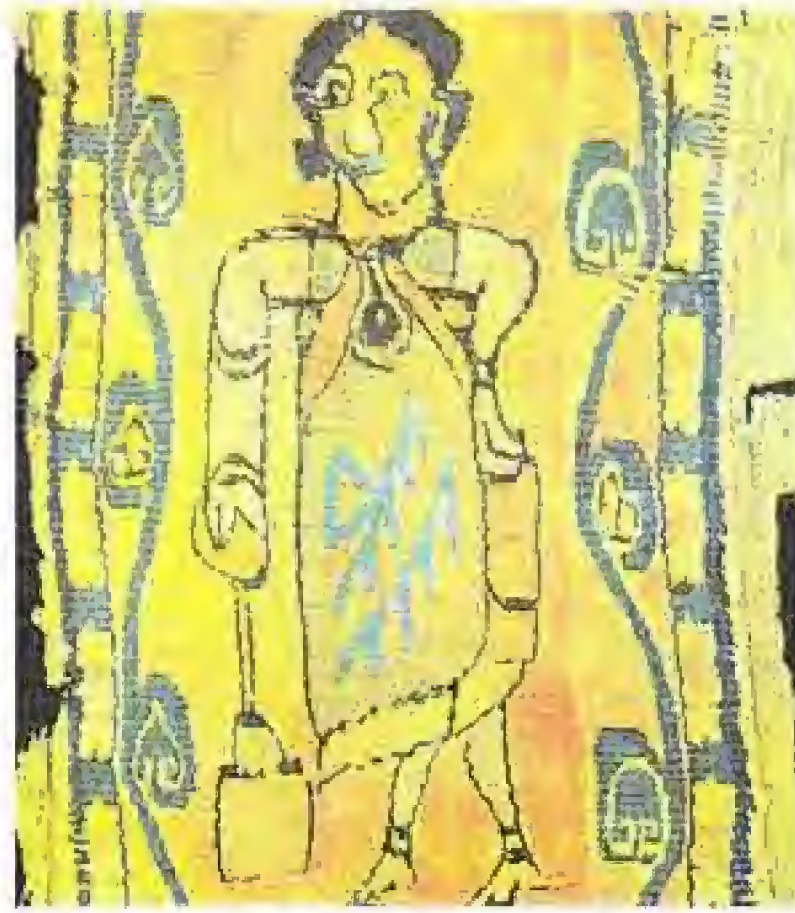
(٢) - ذكر الكثير عن رفاه
البلاط البيزنطي ومباهاة

اهتزت زمن الامويين بتعريب
النقود على يد عبد الملك بن
مروان . كان سك الدينار
البيزنطي احتكارا للدولة .
وتسمح به احيانا لبعض المدن
تكريما لها . من هذه المدن مثلا
قرطاجنة . ونرى نموذجا من
نقدها الذهبي في (أ) .
وانطاكية التي نجد مدالية
ذهبية منها في (ب) ضربت
باسم قسطنطين الثاني (سنة
٢٤٣) وصور وبعلبك . في
الصورة (ت) قطعة نقد من
عهد جوستين الأول (٤٥٠ - ٥٢٧

جزءاً منها . لا ولايات تابعة لها . لم يكن ثمة فرق اداري او ثقافي واضح بين الفترتين الرومانية والبيزنطية . لولا القضية المسيحية . كان الدين الجديد قد انتشر . رغم الاضطهاد العنيف . في المشرق وفي الغرب . ثم صار ديناً مقبولا لدى الدولة في عهد قسطنطين . ثم صار الدين الرسمي الوحيد ايام تيودوسيوس الاول سنة ٣٩٢ . وحل تأثيره في الحياة والفنون محل الوثنية القديمة .

سورية ومصر في العهد البيزنطي
رغم اندثار الانباط وتدمير والحضر . ظلت التجارة في سوريا مزدهرة . التجار السوريون استفادوا من اتساع العلاقات الرومانية . فكانت منهم في القرنين الرابع والخامس جاليات في فرنسا . كما في قرطاجة وايطاليا واسبانيا . تتاجر بالحرير والخمور والاقمشة والسيوف والتوابل والبخور . كما تابعوا نشاطهم الصناعي (٢) وبراعاتهم الفنية (٣)

(٥) - كانت أعمال الصياغة في الشام رائجة متقدمة كل التقدم في العصر البيزنطي . ولما كان الكثير من انتاجها قد صنع لخدمة الكنيسة . فقد أعانه ذلك على البقاء . ثمة عدد من كنائس فرنسا وأوروبا تحوي بين كنوزها ذخائر وأدوات كنسية فضية صنعت في سوريا البيزنطية قبل الاسلام وفي مصر . وصلت هذه الذخائر والأدوات عن طريق التجار السوريين الذين كانوا ينتشرون في تلك الفترة في أوروبا . كانوا في العهد الميروفنجي يشكلون في مرسيليا ونربونة وبوردو وأورليان . بل في روما أيضاً جالية هامة . من تلك الذخائر . الدورق الفضي المعروف بدورق حمص (بمتحف اللوفر) ويعود الى أواسط القرن السادس . وهو من الفضة المطروقة . صنع انطاكية (ارتفاعه ٤٤ سم/قطر ٢٩ سم) . وتظهر عليه رسوم المسيح والعذراء والملائكة والقديسين ضمن اطارات تطوقه . كان للصياغة مصانعها في الاسكندرية كما في دمشق وانطاكية وحمص .



(٤) - كانت للنسيج في مصر منذ القديم تقاليده ومهاراته . سواء كان من الكتان او من الصوف او من القطن . أعان الجفاف على حفظ بعض ذلك النسيج الى اليوم . من ذلك هذه القطعة (أ) من نسيج الصوف على أرضية من الكتان . وهي من صنع مصر في القرن السادس للميلاد . (طول ٢١,٥ x ٢٠,٥ سم عرض ٢٠,٥ سم) ومن ذلك أيضاً هذه القطعة الأخرى (ب) . وهي جزء من حاشية ملونة لثوب كنسي من الصوف تعود الى القرن ٦ - ٧ . محفوظة في متحف لاهاي .

واهتماماتهم الثقافية : فكان منهم البلغاء أمثال
ليبانيوس الانطاكي (٣١٤ - ٣٩٣) ، ويوحنا
فم الذهب (٣٤٧ - ٤٠٧) الواعظ الكنسي ،
ويوسيبوس المؤرخ اسقف قيسارية (٢٦٤ -
٣٤٩) ، وبروكوبيوس المؤرخ الآخر (٥٢٧ -
٥٦٥) . بجانب رجال الكنيسة هؤلاء . كان
ثمة أساقفة سوريون في أوروبا .

ازدهرت كذلك عدد من المدن السورية ،
منها غزة وجدة وبيروت وانطاكية ،
وعرفت الثقافة السريانية (الآرامية) يقظة
واضحة . منذ القرن الرابع ، في الرها
ونصيبين ورأس العين . وترجم الكثير من
كتب الثقافة اليونانية اليها .

أما في مصر ، فالاصلاح الاداري
والضريبي الذي جاء به ديوقليسيان لم ينفع
في تحسين الاوضاع الاقتصادية . ظل
الاستغلال الروماني الجشع قائما . انتهى في
القرن الخامس بظهور الضياع الكبيرة لطبقة
من النبلاء والمتنفذين . لم تقم ملكيتهم على
الاقطاع العسكري ، ولكن على الاستفادة من
بؤس الفلاحين وهربهم من الاراضي ، ومن
فقر الصناع العاملين في النسيج وغيره (٤) .

في الوقت نفسه ، كانت الحضارة الهلينية
الوثنية تتراجع ، ثم أخذت تحتضر في مصر
منذ القرن الخامس . غاب ذكر مكتبة
الاسكندرية ، لم يعد ثمة حديث كثير عن
فلاسفة او علماء الاسكندرية الوثنيين . حتى
اللغة اليونانية - وهي لغة الدولة الرسمية -
كانت تندثر لتحل محلها اللغة القبطية في
الوثائق . كان السبب الاساسي هو انتشار
المسيحية وروح المقاومة معا في البلاد .
صارت الاسكندرية ، خلال القرنين الثاني
والثالث ، مركزا لمدرسة مسيحية ذائعة الصيت .

وأبرز شخصيات الفكر في مصر . جاء من الجهة
الكنسية أمثال اريوس . صاحب الأريوسية ،
وأثناسيوس أسقف الاسكندرية في القرن
الرابع . وخليفته كيرلس في القرن الخامس .

التيارات والمذاهب المسيحية

أهم التيارات التي صبغت الجو الاجتماعي
والفكري في مصر وسوريا قضيتان :

أ - الرهبنة . أدى طابع الزهد في
المسيحية الى ظهور مجموعات من الزهاد في
الصحراء المصرية . تفننوا في أشكال التزهد .
من أشهرهم انطون وباخوم (القرن الرابع) .
انتشرت الرهبنة في سوريا ايضا . وكان من
أهم رجالها سمعان العمودي .

ب - النزاع الكنسي حول طبيعة السيد
المسيح . لعبت كنيسة الاسكندرية دورها
الاساسي في النزاع الذي ظهر خلاله المذهب
الاريوسي والنسطوري . عدا اليعقوبي القائل
بالطبيعة الواحدة والذي تعصبت له سوريا ومصر
ضد المذهب البيزنطي الرسمي المدعو بالملكانى .
القرن السادس سيطر عليه ملكان ،
جوستينيان البيزنطي ، وكسرى أنو شروان
الساساني . مع ذلك فهما لا يستطيعان اخفاء
المآسى . حروبهما التي اشترك فيها المناذرة
والفساسنة جلبت الى الشام الدمار . محا
الساسانيون الرها وانطاكية في حملتهم سنة
٥٤٠ . وأفامية وعنجر . ثم أتمت الزلازل تدمير
مدن الساحل الشامي وفلسطين . في أيام
كسرى ابرويز سنة (٥٩٠ - ٦٢٩) وهرقل
البيزنطي تجددت الحروب . فدمر الساسانيون
الشام والقدس سنة ٦١٥ ثم احتلوا الاسكندرية
سنة ٦١٨ . أخرجهم هرقل منها سنة ٦٢٧ ليسلم
البلاد . بعد خمس سنوات ، الى الفتح العربي .

شمال افريقيا بين روما وبيزنطة

لروما في المشرق الذي تنوعت فيه الآراء والمذاهب والجدل ، كذلك صارت في الشمال الافريقي نوعا من المقاومة للحكم الروماني منذ القرن الثالث وما بعده (١) . وهكذا بينما كانت القبائل الصحراوية في تلك الفترات تثور وتغير مرة بعد مرة على خطوط التحصينات والقلاع التي أقامها الرومان على طول الحدود بين الصحراء وبين مناطق القمح والزيتون والمراعي والموانئ ، كانت الحركة

انتشرت المسيحية في الشمال الافريقي . كما في حوض المتوسط كله . رغم الاضطهاد ورغم تناقضها مع الأسس التي كانت تقوم عليها الامبراطورية الرومانية المسيطرة . وكما صارت المسيحية شكلا من أشكال المقاومة



التعامل فترة طويلة في الشمال الافريقي . نقده الذهبي الذي نرى (أ) صورته عليه يحمل على ظهره (ب) صورة جوبيتر المنتصر . وكان ديوقليسيان يعتبر نفسه تحت رعايته . يعتمر لباس رأس هرقل ويضع على كتفيه جلد أسد . بعد ذلك حل محله النقذ الذهبي الذي ضربه قسطنطين . (الصورة ت) والمسمى (أوربوس) وقد عرف

(٢) - محارروا قرطاجنة الفينيقية ثم عادوا فبنوها مدينة رومانية . فأثارها تحمل الطابع الروماني . تاج أحد الأعمدة من قرطاجنة نقش على الطراز الكورنشي التقليدي المعروف في معظم الأبنية الرومانية وفي العصر البيزنطي .

(٣) - بعد الإصلاح النقدي الذي قام به ديوقليسيان (حكم ٢٨٤ - ٣٠٥) ظلت نقوده قيد

وجزا من الجزائر ومنطقة طرابلس . وقد عني الرومان بتوطين السكان الرومان (الايطاليين) فيها . كانت هذه الولاية تتبع مجلس الشيوخ اداريا . وعاصمتها قرطاجنة (أو أتিকা) أما الولايات الثلاث الأخرى . وهي موريتانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية ونوميديا . فكانت تتبع الامبراطور مباشرة .

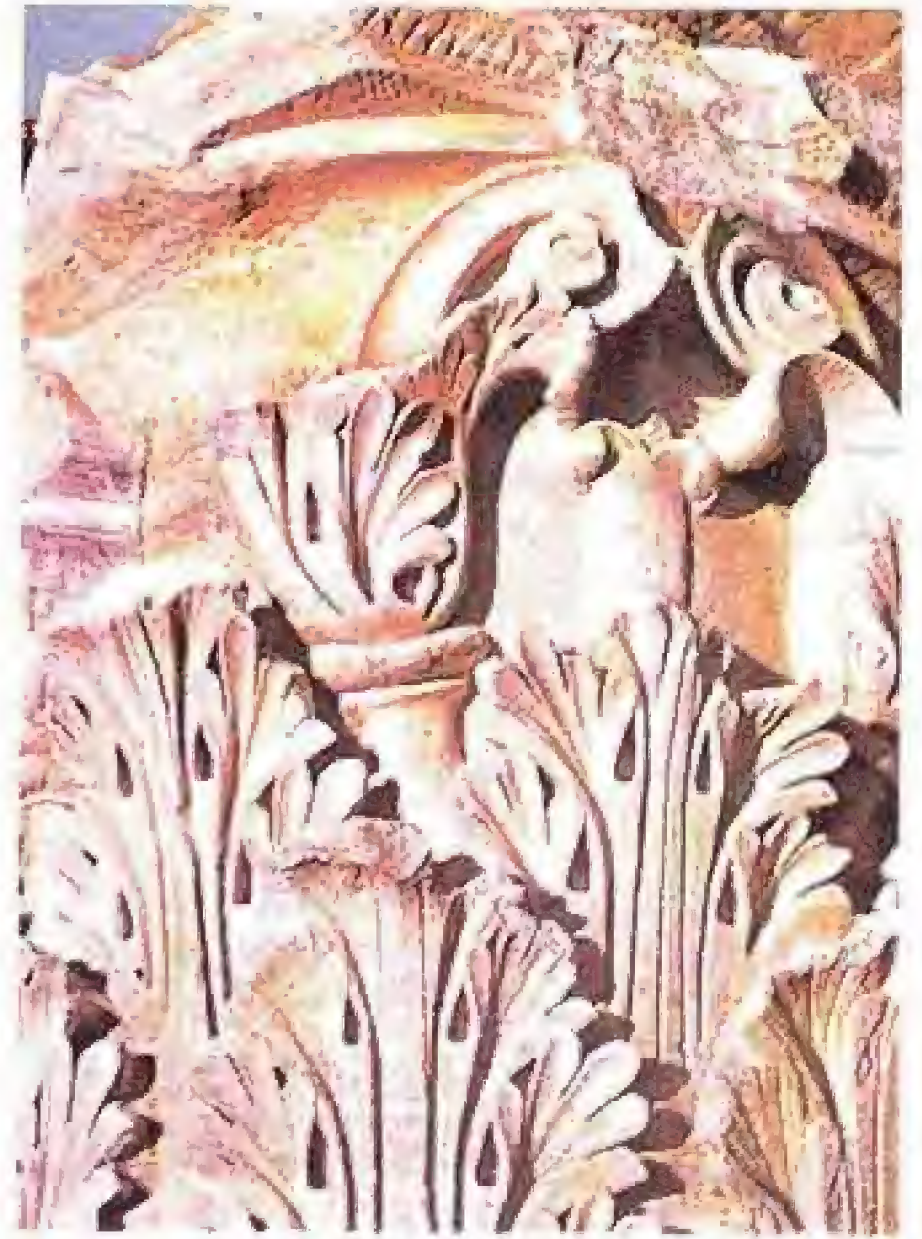
(١) - المنطقة التي احتلتها روما تدريجيا من القرن الأول قبل الميلاد إلى أواخر القرن الثالث الميلادي تبدو واضحة على هذا المصور . كما تبدو الأقسام الادارية للمنطقة واضحة . فقد كانت المنطقة مقسمة الى أربع ولايات دون ان يكون لهذه الولايات مركز اداري رئيسي . كانت ولاية افريقيا القنصلية أهم الولايات الأربع . وكانت تشمل تونس

المسيحية المونتانية تجتذب السكان في القرن الثالث (٦) . ثم تأتي الحركة الدوناتية ، التي أسسها سنة ٣١١ أسقف قرطاجة دوناتس ، فتزيد في المقاومة لروما التي لم تجد طريقا لتمزيقها سوى اصدار قرار بتكفيرها سنة ٤١١ .

الفاندال (= الجوالون) :

منذ أواسط القرن الخامس ، شهد الشمال

الافريقي قدوم موجة بشرية غير منتظرة عبر الممر المائي الفاصل بين جزيرة ايبيريا والقارة الافريقية . هذه الموجة التي عرفت بالفاندال هي جزء من الجماعات الجرمانية التي عبرت نهري الدانوب والراين وتوغلت في اراضي الامبراطورية الرومانية تعيث فيها ارهاقا وتهديما منذ القرن الرابع . عبر الفاندال اسبانيا وأقاموا فيها دولة لهم ، ثم لحقت بهم قبائل القوط الغربيين فالجأهم



بين سوسة وصفاقس . ذات ماض ضخم في العهد الروماني البيزنطي . كان أسمها توسدروس . من أهم أثارها ملعب كبير لمبارزة الحيوان أمر بينائه هادريان (١١٧ - ١٣٨ م) حين زار افريقيا سنة ١٣٥ . يعتبر من أكبر الملاعب الرومانية الباقية في العالم (١٥٠ م × ١٢٥ م بارتفاع ٣٦ مترا) .

باسم سوليدوس فصار هو النقد الرسمي والشائع في عالم البحر المتوسط للتعامل والتجارة حتى العصر الاسلامي . أما عن النقد (ث) الذي ضرب في قرطاجة زمن القيصر غاليريوس (٢٩٣ - ٣٠٥) فقد كتب عليه : « تظل قرطاجة سعيدة ما دام الأباطرة بخير » .

(٤) - بلدة (الجم) في تونس



ضغطها المتواصل الى التجمع في الجنوب الذي لا يزال يحمل اسمهم حتى اليوم (فاندالوسيا = الاندلس) ، ثم الى عبور البحر نحو الشمال الافريقي .

كانت روما سنة ٤١١ قد سقطت في أيدي القوط الشرقيين . ثم جاءت ضربة أخرى من قبائل الهون المغولية ، وبدأت امبراطوريتها تدخل مرحلة النزاع . في تلك الأثناء تدفق الفاندال على شمال افريقيا باحثين عن الثراء

والأمن والاستقرار . قاد الملك غيسيريك منذ سنة ٤٢٨ م ثمانين الفا منهم فطرد الحكم الروماني ، وجعل البلاد للفاندال سنة ٤٤٣ .

روما التي كان الهون ، بعد الفوضى الجرمانية ، يتدققون على أراضيها . سلمت البلاد للفاندال . لم يكن قد مضى على وصولهم عشر سنوات حين احتلوا قرطاجة بعد موريتانيا الطنجية ونوميديا وجعلوها عاصمة لهم . ثم ما لبثوا ان سيطروا على مدن



والأسواق العامة والمعابد التقليدية والملاعب . واتجه الاهتمام الى بناء الكنائس وتزيينها الديني . وهكذا لم يعد يرى الناس إقامة مثل هذا التمثال (ب) وكثرت بالمقابل نماذج النقش كما نرى في (أ) الذي يمثل المسيح مع السامرية عند البئر وهو من القرن الثالث . (النقش في متحف باردو بتونس) .

(٦) - مع دخول المسيحية الى شمال افريقيا ، بدأ يغيب عن الجو الفني لون أساسي كان يزين الساحات والأبنية الاغريقية والرومانية هو تماثيل المعبودات والباطرة لتحل محله الصور والنقوش والفسيفاء ذات الموضوع النصراني . مشاهد حياة المسيح صارت المواضيع المفضلة . توقف ايضا بناء المسارح

وبعض يصور مشاهد من الاساطير الرومانية اليونانية ، وقسم ثالث يصور مشاهد دينية مسيحية . هذه القطعة من الفسيفاء ، حمام فينوس من بلدة (جميلة) وفيها المشهد الاسطوري الروماني . لأن البلدة كانت مستعمرة رومانية . مثلها كمثال رجيس في الجزائر (بونة أو عنابة) وطبرقة في تونس وزليطن في ليبيا .

(٥) - في العصر البيزنطي شاع استعمال الفسيفاء شيوعا كبيرا في شمال افريقيا شيوعه في المشرق . بعض المدن الرومانية كانت تبالغ في طلبه وتزيين أرض الأبنية به ومجموعة الفسيفاء الأرضي في شمال افريقيا لا تضاهي جمالا ودقة في الصنعة ومواضيعها عامة على اقسام ثلاثة : بعضها يصور مشاهد من الحياة اليومية

الساحل وطرابلس سنة ٤٥٥ ، القائد الروماني بونيفاس لم يجد أمامه بعد الهزائم المتكررة سوى الانسحاب . وتحررت افريقيا من الرومان .

تمزق الفاندال

شن الفاندال من قواعدهم الافريقية الجديدة حملات برية وبحرية على اسبانيا وعلى ايطاليا ، وتمكنوا سنة ٤٥٥ من دخول روما ونهبها أسبوعين . بدا كأن عهدا جديدا قام في شمال افريقيا بتحالف الفاندال والبربر ضد روما . لكن دولة غيسيريك ما لبثت ، اثر موته سنة ٤٧٧ ، أن تمزقت بين اربعة ملوك ، وقام التناحر قرابة عشرين سنة قبل ان يستقر الحكم بيد تراساموند (رابع ملك فاندالي) (٤٩٦ - ٥٢٣) ، ثم تكرر التناحر من بعده بينما كانت عوامل أخرى تعمل لتدمير هذه المملكة والشعب الفاندالي كله . قامت الخصومة السياسية والدينية بينهم وبين أهل البلاد بسبب قسوة الحكم المطلق الذي مارسوه ، ورغبتهم في نشر المذهب الأريوسي الذي يعتنقونه . هرب الكثير من السكان ومن رجال الدين الى امبراطور بيزنطة يستنجدون . انتهى الأمر الى هزيمة الفاندال سنة ٥٢٧ وتكاثفهم في المدن .

بيزنطة والشمال الافريقي

قبل ذلك بزمن كانت روما قد سقطت نهائيا سنة ٤٧٦ وصار ارثها في الغرب نظريا الى بيزنطة . الامبراطور البيزنطي جوستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) كان من طموحاته اعادة استملاك امبراطورية روما في الغرب . انتهز مناسبة الصراع في الأسرة الحاكمة الفاندالية وأعلن الرغبة في تخلص افريقيا من حكم

الاريوسيين الهراطقة . أرسل قائده بليزاريوس في اسطول ضخم حطم قوى المملكة (٥٣٣ - ٥٣٤) واحتل البلاد . ونفى الزعماء عبيدا الى القسطنطينية . حرب الابداء التي مارسها بعد ذلك خمس سنوات محت الفاندال نهائيا من شمال افريقيا . ذابت بقاياهم في السكان بينما ضمت بيزنطة سردينيا وكورسيكا الى شمال افريقيا تحت امرة حاكم واحد ، وان قسمت الى سبع ولايات .

رغم أن مظاهر الحضارة البيزنطية تسربت الى الشمال الافريقي ، ورغم ما ربحته بعض الطبقات والمدن من الغنى الاقتصادي ، لم يسلم أهل البلاد البربر بدورهم من عدوان القوة البيزنطية . باسم النظام الروماني والقضاء على البدع وتوطيد الكنيسة الرسمية ، أعملت فيهم القتل والتدمير ، ونهب الموارد . في مأدبة عشاء في لبداء سنة ٥٤٤ ذبح البيزنطيون ثمانين من زعماء القبائل . الثورة التي تلت ذلك استمرت عشرين سنة . لم ينجم عنها طرد البيزنطيين ، ولكنها وطدت الحقد في انتظار الفتح العربي القادم . وجعلت السلطة البيزنطية أواخر القرن السادس مقصورة على الشريط الساحلي ، والحاميات الحدودية . بصورة عامة ، جرى العصر الروماني -

البيزنطي رغم امتداده سبعة قرون على سطح حياة الناس . لاتينية الرومان أو يونانية بيزنطة ذهبتا معهم . طرائق الحياة التي حاولوا زرعها في مدنهم لم تخلف أي تقاليد . حتى القلائل الذين تأثروا بهم سواء أيام الرومان . كالملك يوبا ، أو أيام بيزنطة ، كالقديس أوغسطين ، لم يستطيعوا خلق تيار روماني باق . ساعد على التحرر النهائي منهم مجيء الفتح العربي بعد سنة ٦٤٠ .

دول عرب الجنوب

اليونانيون سمو تلك البقاع « بالبلاد العربية السعيدة ». معلوماتنا عن الحضارات القديمة هناك كثيرة ، منذ زمن طويل . لكنها تتجدد وتزداد ايضاً باستمرار ، بما يكتشف من آثارها ، وما يقرأ من نقوشها وكتاباتها ، رغم ان الحفريات الأثرية هناك لم تأخذ بعد الاتساع الذي تستحقه .

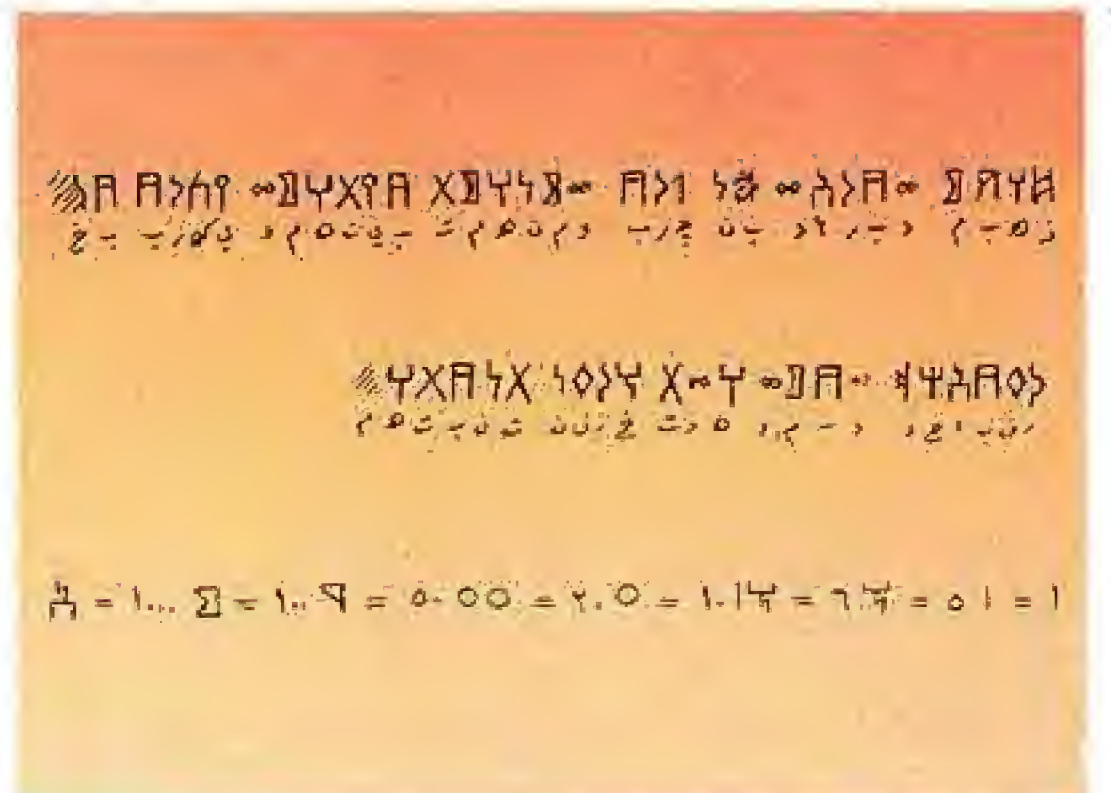
خطوات التاريخ الاولى من اليمن لا ترجع الى أقل من ثلاثة الى اربعة آلاف سنة

اذا كان تاريخ العرب القديم ، في الخليج وعمان أو في الحجاز ونجد هو اليوم قيد الاكتشاف المستمر ، وإعادة الكتابة ، فتاريخ اليمن وجنوب الجزيرة العربية كان معروفاً منذ القديم بأنه تاريخ حضارة متقدمة .



(١) - تتداخل مواقع الدول اليمنية القديمة بسبب تفاوت عصورها وحلول بعضها محل بعض ، على امتداد ستة عشر قرناً تقريباً . المواقع التي يحددها المصور إنما تذكر الدول في مواقعها الأصلية وحول عواصمها ، وتذكر الدول البارزة فحسب . ثمة دول صغيرة أخرى منها الجباليون (مملكة جبا) ، ونجران التي لا يعرف من تاريخها القديم إلا النثر اليسير .

(٢) - كان اليمنيون تجاراً ، ويحتاجون إلى الأرقام والأعداد في حساباتهم . وكانت لهم



قبل الميلاد . لكن المؤرخين لا يتوقفون كثيرا عندها رغم ثقتهم منها ومن أهميتها . وذلك لقلة المعلومات عنها . وندرة الحفريات . فهم يكتفون . أحيانا كثيرة . باستعراض مراحل التاريخ اليمني الواضحة . وخاصة منذ مطالع الألف الأول قبل الميلاد . وان كانوا يرجعون سكنى الشعوب اليمنية المعروفة في تلك البلاد الى حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م .

أعانت التنقيبات الأثرية . رغم قلتها في اليمن . على تنظيم مراحل تاريخها بشيء من الدقة . رغم اختلاف الآراء في بعض النواحي . هكذا نعرف من الدول التي توالى على أرض اليمن (١) عدة دول .

الدول القديمة :

دولة اوسان : ليس من الواضح متى بدأت هذه الدولة اليمنية ولكنها انتهت في النصف



٤ بالفعل سلسلة الأرقام التي أخذت من مطالع الكلمات الدالة عليها . (الصورة) . أما كتاباتهم بالمسند فترى في السطرين نمودجا منها مترجم الأحرف الى العربية .

(٣) - كان لأهل اليمن وبخاصة لمعين محطات تجارية هامة في العلا والجوف تختلط آثارها بالآثار اللحيانية والنبطية والشمودية . رأس التمثال (الصورة) لحياني من القرن الثالث ق . م . وجد في العيص قرب ينبع النخل .

(٤) - سد مأرب أشهر سدود التاريخ القديم (٦٠٠ م × ١١٠ م × ١٥ م) . واحد من عشرات السدود في اليمن القديمة . أخذ شكله النهائي أيام شمر يرعش (حوالي سنة ٣٠٠ م) . أصلح مرات آخرها سنة ٥٤١ م . يعزى الى انهياره هجرة الأزد الى الشمال والواقع ان ضعف التجارة هو السبب .



(٥) - نقود اليمنيين قلدت النقود الهلنستية . في الصورة نقود سبئية فضية تحمل رسوم الدراخما .

الأخير من القرن الخامس ق . م . على يد كرب إل ملك سبأ . كان نفوذها يمتد على السواحل المواجهة لأفريقية . ما بين حضرموت إلى عدن . كانت تنافس سبأ منافسة قوية . ولملوكها صفة دينية . ظلت قبائل أوسان واضحة الوجود والذكر . بعد زوال نفوذها السياسي . حتى القرن الثاني للميلاد . حين دمرت مدنها وحصونها . في بعض الحروب بين سبأ وقتبان .

دولة معين : قامت في منطقة الجوف وهي من أخصب بقاع اليمن . استمرت من القرن ٨ ق . م . إلى أن زالت حوالي نهاية القرن الأول ق . م . عاصمتها قرناو (خربة معين اليوم) . ومن مدنها يثيل (براقش الحالية) التي كانت المركز الديني الرئيسي لسكان المنطقة . امتد نشاط معين التجاري (٢) أوسع بكثير من نفوذها السياسي . من المصادر عن نشاطها نقوش في العلا بأعالي



٧



(٦) - الواقع الجغرافي فرض نفسه على تاريخ اليمن وبخاصة تاريخها القديم . الجبال العالية المقطعة بالوديان (الصورة) جعلها اعدادا من الدول الصغيرة المتفرقة وحفظ فيها ترابط النظام القبلي مع الأرض وأرغمها على بناء السدود في الوديان وزراعة المدرجات . كما دفعها عند التكاثف إلى التماس الرزق في التجارة أو الهجرة . وإلى الحروب المحلية بين المجموعات السياسية المتنافسة .

(٧) - منظومة الفكر الديني اليمني ما تزال مجهولة . جمع الباحثون أكثر من ١٠٠ اسم من أسماء المعبودات . أشهرها : ألمقة = القمر . ظل نحو من ألف عام هو الأول فيها عامة ومعبوده أكبر المعابد ومنها معبد مأرب (الصورة الأعمدة الباقية) . ومثله المعبد عثتر (يمثل الزهرة) . وهناك المعبد (ود) إله الحب وغيرها . كانت المعابد غنية وكهنتها أقوياء في المجتمع . حتى الحكم كان تيوقراطيا .

الحجاز . ووجدت بعض نقوشها في كريت .
يبدو من النقوش ان معين كانت متحالفة
سياسيا وتجاريا مع حضرموت .

قتبان وحضرموت

الحفريات التي جرت سنة ١٩٥٠ في موقع
تمنع ، عاصمة دولة قتبان (تمنع هي هجر
كحلان اليوم في بيحان) أخرجت بعض
المخربشات التي ترجع بدء هذه الدولة الى
القرن ١١ أو ١٠ ق . م . حكمها ملوك بلقب
مكرب منذ القرن السابع ق . م . في القرن
الرابع كانت قتبان تسيطر على الشريط
الساحلي ما بين باب المندب الى ما وراء
عدن . بلغت ذروة قوتها في القرن الأول
ق . م . ثم انطفأت أواخر القرن الأول
الميلادي تحت ضغط دولة حمير . وأحرقت
عاصمتها . ما تزال في أثارها بقايا الحريق .
أقام القتبانيون عاصمة جديدة لهم بعد ذلك
لكنهم سرعان ما انضوا تحت لواء سبأ .

أما دولة حضرموت : فثمة اختلاف في
بدء ظهورها ولعل ذلك كان في القرن
الخامس ق . م . وان كان بعضهم يرجعها
عدة قرون الى الوراء . بدأت في وادي
حضرموت . لكنها امتدت نحو الساحل فضمت
مهرة وظفار . عاصمتها شبوة . كانت على
علاقة تحالف مع معين . في قرون ما قبل
الميلاد . استفادت من سقوط قتبان للسيطرة
على بعض ارضها . الى أن ضمها ملك حمير
الى مملكته . في القرن الرابع للميلاد .

سبأ وحمير

من الأرجح ان السبئيين جاؤوا اليمن من
الشمال حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م . تشكلت

دولتهم في صرواح حوالي القرن الثامن
ق . م . أو قبله بقليل . لكن سلطانها اتسع
تدريجيا بعد ان انتقلت العاصمة الى مأرب
حوالي سنة ٦١٠ ق . م . قبل القرن الخامس
كان السبئيون قد اجتازوا البحر الاحمر الى
البر الافريقي . كانت لهم علاقات مع
الاشوريين في اعالي الشام وما بين النهرين .
توسعت مملكة سبأ على حساب الدول
المجاورة . قامت من أجل ذلك بحروب
عديدة مدمرة . أدت في النهاية الى ضعفها
الذي يرمز له بانقيار سد مأرب (٤) وانتقال
عاصمة الملك سنة ١١٥ ق . م . الى ريدان
(ظفار على بعد ١٠٠ ميل من مخا) وبدء
دولة حمير التي تفرعت عن سبأ . وظهر اسمها
لأول مرة في النقوش سنة ١١٥ بوصف ملوكها
ملوكا لسبأ وذي ريدان . امتد عهدها الاول
حتى عهد ملكها شمر يرعش (٢٧٥ - ٣٠٠ م)
وعهدها الثاني حتى سنة ٥٢٥ م (وهو عهد
التبابعة) حين سيطرت على اليمن
وحضرموت وتهامة . حلت عاصمتها ظفار
محل مأرب وقرناو في أوج ازدهارهما . حاول
الرومان بعد سيطرتهم على الحوض الشرقي
للمتوسط في القرن الاول ق . م . الاستيلاء
على اليمن (حملة ايليوس غالوس سنة
٢٥ ق . م) ففشلوا . بينما نجح الأحباش
(وكانت حمير سيطرت عليهم منذ القرن
الأول ق . م .) في غزو اليمن بتحريض
الروم سنة ٥٢٥ م . وقد حاولوا السيطرة على طريق
التجارة العالمية عبر مكة الى الشام في حملة
« أصحاب الفيل » المشهورة . لكنهم فشلوا . ثم
استطاعت اليمن التحرر منهم على يد سيف بن ذي
يزن الذي أعانه الفرس على ذلك . بسبب
مصلحتهم التجارية والسياسية .

حضارة عرب الجنوب

انتقل التألق أحيانا من مركز الى آخر حسب العصور . لكنها جميعا اشتركت في ملامح حضارية واحدة وفي منح اليمن لقب « البلاد العربية السعيدة » .

ليس يعرف بالضبط أصل التكوينات البشرية في اليمن . يظن انها هجرات قديمة من الشمال أو الغرب . المناخ والأمطار والخصب في الوديان والسفوح سمحت بالتوطن المتكاثف ونشوء الزراعة والقرى .

التقدم الحضاري الذي عرفه الجنوب منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن السادس بعده . يضع اليمن في مصاف الحضارات الاولى في العصور القديمة . المراكز الحضارية تعددت كثيرا فيها . كما



الرخامي عن درجة عالية من دقة النحت والتعبير المتأثرة بطرائق الاغريق . وكان في مكان العينين حجر كريم أبيض . على العادة في عدد من تماثيل اليمن . وأما التمثال الملكي (ب) فيكاد يكون في ملامح الرأس والموقف والأيدي من تماثيل ما بين النهرين المتقنة الدقيقة التعبير .

(١) - الحضارة اليمنية القديمة ولدت في البر والبحر معا . الخصب الزراعي كان يقابله المغامرة البحرية . اليمنيون كانوا فينيقيي المحيط الهندي . احتكروا هذا المحيط حتى القرن الخامس عشر . بينما ضاع الفينيقيون في الزحام على البحر المتوسط . هذا المركب البسيط تطور لديهم الى مراكب ضخمة وصلت شرقي افريقيا وسواحل الهند بعد أن كشفوا سر الرياح الموسمية .

(٢) - فن النحت اليمني متنوع لا في الموضوع فحسب ولكن في الاتقان الفني ايضا والسبب في ذلك تعدد عصوره التي استمرت ١٥ قرنا على الأقل واختلاف شعوبه وتباين طبقات وبراعات منتجيها بالإضافة الى أن بعض الآثار الباقية منه مستوردة او مقلدة لأعمال الفن الهلينستي ان لم يكن النحاتون أنفسهم ممن جيء بهم الى اليمن لبعض أعمال النحت وهكذا فإن الازميل الذي نحت عددا من نقوشهم هو ازميل بدائي . بينما يعبر الوجه القبري (أ)



تجارة اليمن

لم يعتمد الاقتصاد اليمني على الزراعة فقط ولكن على التجارة في الدرجة الأولى (١). النشاط التجاري هو الذي منح اليمن غناها وشهرتها. استفادت في ذلك من عوامل عديدة، منها ندرة منتجاتها الخاصة المطلوبة عالمياً كالبخور للمعابد وغيرها. حضرموت هي التي تنتج أصنافه الجيدة (اللبان) والعود. كما ينتج المر والصمغ في الصومال

فحضارة اليمن هي في الأصل زراعية، وقد تطورت لديهم تقنيات الزراعة والري تطوراً كبيراً. كانوا يزرعون السفوح بعد تحويلها إلى مدرجات، ويحفرون الآبار والصهاريج في الصخر ويقيمون السدود على مجاري السيول. ويمدون منها القنوات المنظمة إلى مسافات بعيدة وينشؤون الجنات. في اليمن حتى اليوم بقايا المئات من هذه السدود التي اشتهر منها سد مأرب وهو من عجائب الفن الهندسي.



وفي الجنوب اليمني ايضاً . استفادت اليمن ايضاً من اطلال شواطئها على المحيط الهندي . وكثرة موانئها الطبيعية عليه . ومعرفة ملاحيتها بأسرار الرياح الموسمية . وتنوع منتجات الهند وافريقيا . وغلائها والطلب عليها في حوض المتوسط . كالتوابل والقرفة (الدارسين) والعسل والشمع والبهارات والأحجار الكريمة والزعفران والابنوس وأنواع الانسجة الارجوانية والموشاة بالذهب والقطنية

والحريرية . حافظ اليمنيون الى ذلك على اسرار مصادر هذه البضائع وأحاطوها بالأساطير المخيفة أحياناً . ضمنوا بهذا احتكارها لأنفسهم ما يزيد على عشرة قرون . أقام ايضاً اليمنيون شبكة من الطرق البحرية في المحيط الهندي وجعلوا من بلدانهم وموانئهم مخازن تجميع للبضائع ومحطات تحرك . كذلك نظموا طرقهم البرية المتصلة بما بين النهرين والشام ومصر . عبر الجزيرة



ب (علة فيها) وفي العربية ٢٨ (منها حروف العلة الثلاثة المزدوجة مع مخارجها) . في الصورة نقش أثري محفوظ في المتحف بصنعاء وهو نموذج من أنوف النقوش الموجودة .

(٥) - النقوش التي تركها اليمنيون والتي تمثل جوانب من الحياة العامة ليست كثيرة ولكنها في معظمها متصل اما بالزراعة أو بالتجارة . النقش (أ) نقش على حجر مدفن فيه فلاح يقود ثورين ومن فوقه

٥ ق . م على الطريقة الاغريقية القديمة وتسمى طريقة دوران الثور . فالسطر الأول ينتهي في الشمال ليبدأ الثاني من الشمال وحين ينتهي يبدأ الثالث من اليمين وهكذا . على ان النقوش كتبت بعدة لهجات لغوية . ونقوش قبان المبكرة مثلاً كتبت بلغة خليط من لهجاتي قبان وسبأ . وقراءة أحرف المسند سهلة لأن اللغة العربية الجنوبية احتفظت بأنتى أصوات الحروف وكتبتها . ففي الحميرية ٢٩ حرفاً (ولا حروف

(٤) - اقتبست الألفباء اليمنية القديمة (المسند) في البداية عن الألفباء الكنعانية - الفينيقية التي شاعت في سورية منذ القرن ١٩ ق . م . وهي أحرف ليس فيها حروف علة . وتظهر الوثائق المنقوشة عليها في هيكل فينوس - الزهرة . من أطلال تمنع أن ترتيب الحروف الأبجدية اليمنية ترتيب خاص . أما اتجاه الكتابة فكان قبل القرن السابع ق . م . من اليمين الى الشمال كالعربية . وقد كان في القرنين من ٧ الى

كتابة بالمسند . والنقش من حوالي القرن الرابع أو الخامس ق . م . النقش الآخر (ب) يمثل وسيلتي النقل والتجارة اليمنية ، الحصان والجمال وهو من العهد الحميري .

العربية . أعانهم على ذلك استئناسهم المبكر للجمال . وإقامة مستعمرات من المحطات التي تسكنها جاليات منهم تؤمن التموين والحماية للقوافل .

حاول الرومان والاعريق منذ القرن الاول ق . م . التعرف الى اسرار الملاحة في المحيط الهندي . نفذوا تدريجيا اليه أول الأمر . فلما سيطروا على البحر الاحمر في العصر الحميري الاخير ، ضعفت التجارة اليمنية ودخلت في دوامة المنافسة السياسية - الدينية التي قامت (بتحريض الروم والمسيحية) بين الحبشة واليمن . وانتهت بسيطرة الحبشة عليها . فلما وجد الساسانيون ان تجارة اليمن صارت في مصلحة الروم جهزوا حملة أعانت على تحرير اليمن . ليضمنوا بذلك السيطرة على تجارة المحيط الهندي عبر الخليج واليمن معا .

الصناعة وال عمران

مع النشاط التجاري ، اشتهرت اليمن بعدد من الحرف كالسيوف اليمانية والرماح الخطية ، وصياغة الحلى مع الحجارة الكريمة ، والنسيج (البرود المخططة) والتعدين واستخراج الذهب . ساعد الغنى على تطور العمران والتقدم في هندسة البناء (٣) وقيام عدد كبير من المدن الرائعة (براقش ، مأرب ، قرناو ، ظفار ، تمنع ، تريم ، شبوة ، موزا ، صرواح ، نجران) فيها القصور ذات الطوابق العديدة (مثل غمدان) حتى دعت اليمن بلاد القصور . وفيها المعابد الضخمة الكثيرة (في تمنع وحدها ٦٥ هيكلًا) . هذا عدا الاسوار حول المدن والقلاع وعدا المنحوتات المختلفة (٢) .

الكتابة والدين

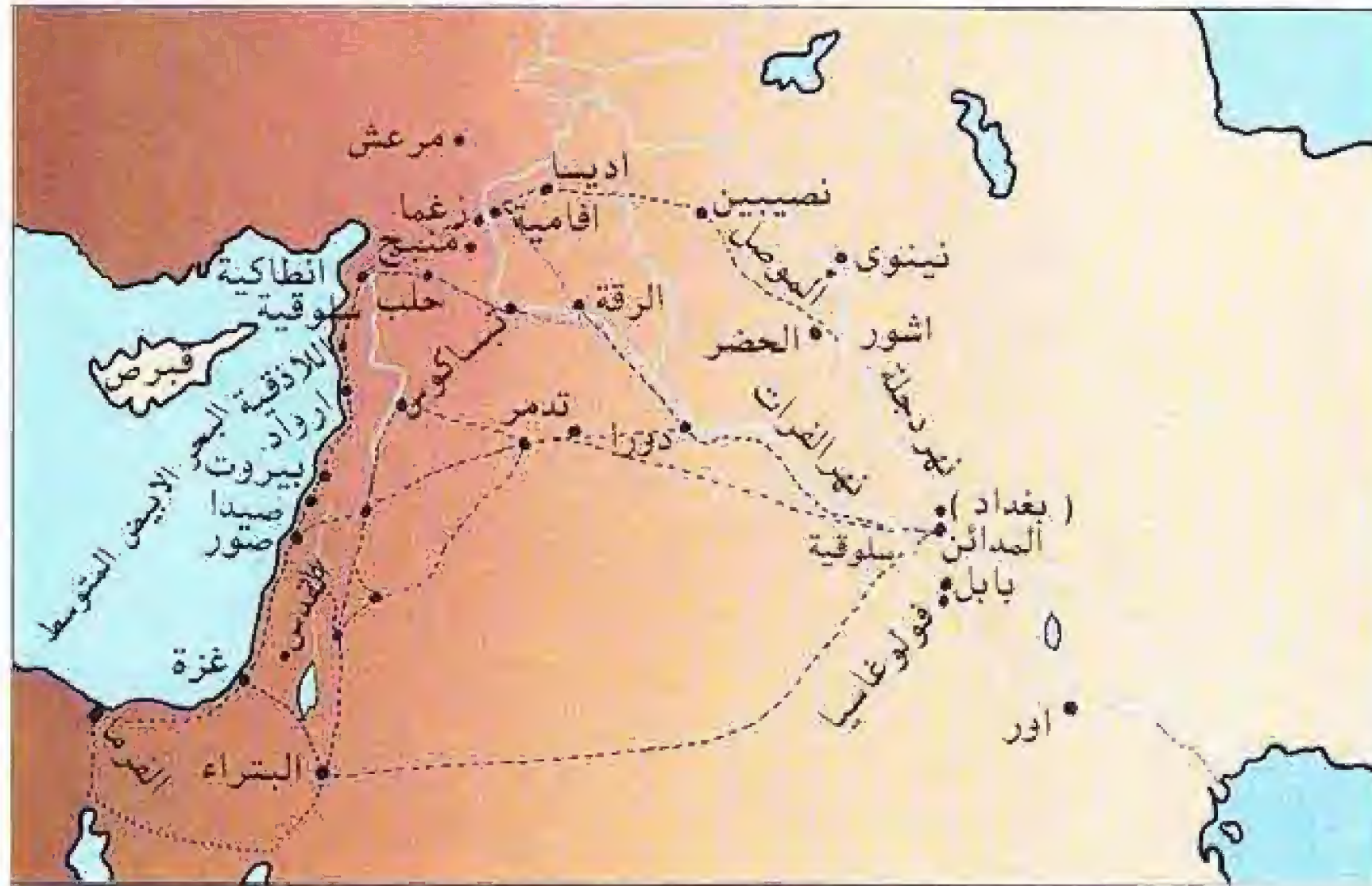
كان لأهل اليمن لغتهم العربية المختلفة الى حد ما عن اللغة الحالية . كانت تحوي عددا من اللهجات . لها كتابة تسمى المسند (= الخط) مأخوذة عن الفينيقية تتكون من ٢٩ حرفا (٤) . تكتب منفصلة عن بعضها البعض . ومعظمها له شكل الخطوط العمودية . نقوش اليمن كلها مكتوبة بالمسند . أقدمها يعود الى القرن التاسع ق . م . ظل هذا الخط معروفا حتى ما بعد الاسلام بأربعة قرون .

أهل اليمن كانوا عميقي التدين . عبدوا معبودات شتى وأقاموا المئات من المعابد . أشهر المعبودات مثلث الزهرة - الشمس - القمر (عثر - ود أو المقه - نكرح) . كما عبدوا إل الذي كان اسمه يتصل بعدد من اسمائهم . وذي سماوي (اله السماء) . كان لديهم طبقة كهنوتية ذات نفوذ . تسربت اليهودية الى اليمن قبل عهد المسيح كما تسربت بعد ذلك المسيحية . اعتنق الملك الحميري ذو نواس اليهودية كيذا بالأحباش . وأجبر المسيحيين على اعتناقها بالقتل والتحريق (حادثة الاخدود). كان من نتائج ذلك حملة الأحباش - بتحريض من الروم - على اليمن واحتلالها . وبناء كنيسة القليس الشهيرة في نجران . حاولوا احتلال مكة في حملة الفيل سنة ٥٦٥ المعروفة . حضارة عرب الجنوب كان لها امتداد عبر البحر الأحمر قامت عليه حضارة أكسوم . كما ان جماعات يمنية هاجرت في مناسبات مختلفة نحو الشرق والشمال قبل الميلاد وبعده . منها قبائل الازد التي أهلت عمان وعسير ، ومنها جماعات الفساسنة ولخم والمناذرة وكندة وطبي .

دول عرب الشمال

الشموديين واللحيانيين وعرب الجوف فانها كانت قائمة قبل ذلك . ولم تنقطع أبدا بعد ذلك . وحين كانت هذه الجماعات العربية تتراجع في التجارة والقوة خلال العهد الهلينستي (في القرون الثلاثة السابقة للميلاد) . كانت شعوب عربية أخرى تقوى لتحل محل السابقين . ولتؤلف دولا ذات مكان معروف واضح في الحضارة والتاريخ والعمل التجاري (١) . ومنها بنو الأبحر في

العلاقات بين الجزيرة العربية والهلال الخصيب عبر طرفيه الشرقي (جنوب العراق) والغربي (جنوب الشام) علاقات قديمة . وإذا كانت أخبارها التاريخية الثابتة تعود الى مطالع الألف الأول قبل الميلاد وتحدث عن



(١) - المثلث الممتد ما بين تدمر وخليج العقبة والخليج العربي كان خلال القرون التي سبقت الميلاد والتي أعقبته عقدة المواصلات التجارية كلها في العالم القديم . القوافل كانت تخلق محطاتها في شبكة واحدة تغطي المنطقة وتتفرع منها .

(٢) - تسلم الإمبراطور تراجان حكم الإمبراطورية الرومانية ما بين سنتي ٩٨ - ١١٧ م . بعد أن قضى على مملكة الأنباط سنة ١٠٦ بدأ العمل مباشرة في إقامة عمود تذكاري يخلد حروبه المختلفة وانتصاراته . استمر نقش هذا العمود سبع سنوات . هذه اللوحة (أ) منه يظهر فيها تراجان وهو يتحدث الى جنوده في المعسكر . معظم النقوش تتعلق بحروبه في داسيا (رومانيا) . حين ضم الأنباط الى الإمبراطورية أصدر ميدالية تذكارية (ب) يخلد فيها أيضا نصره . بينما سمح لبصري أن تصدر نقدها الخاص وعليه صورته . وصورة معبودها ذي الشرى (ت) .

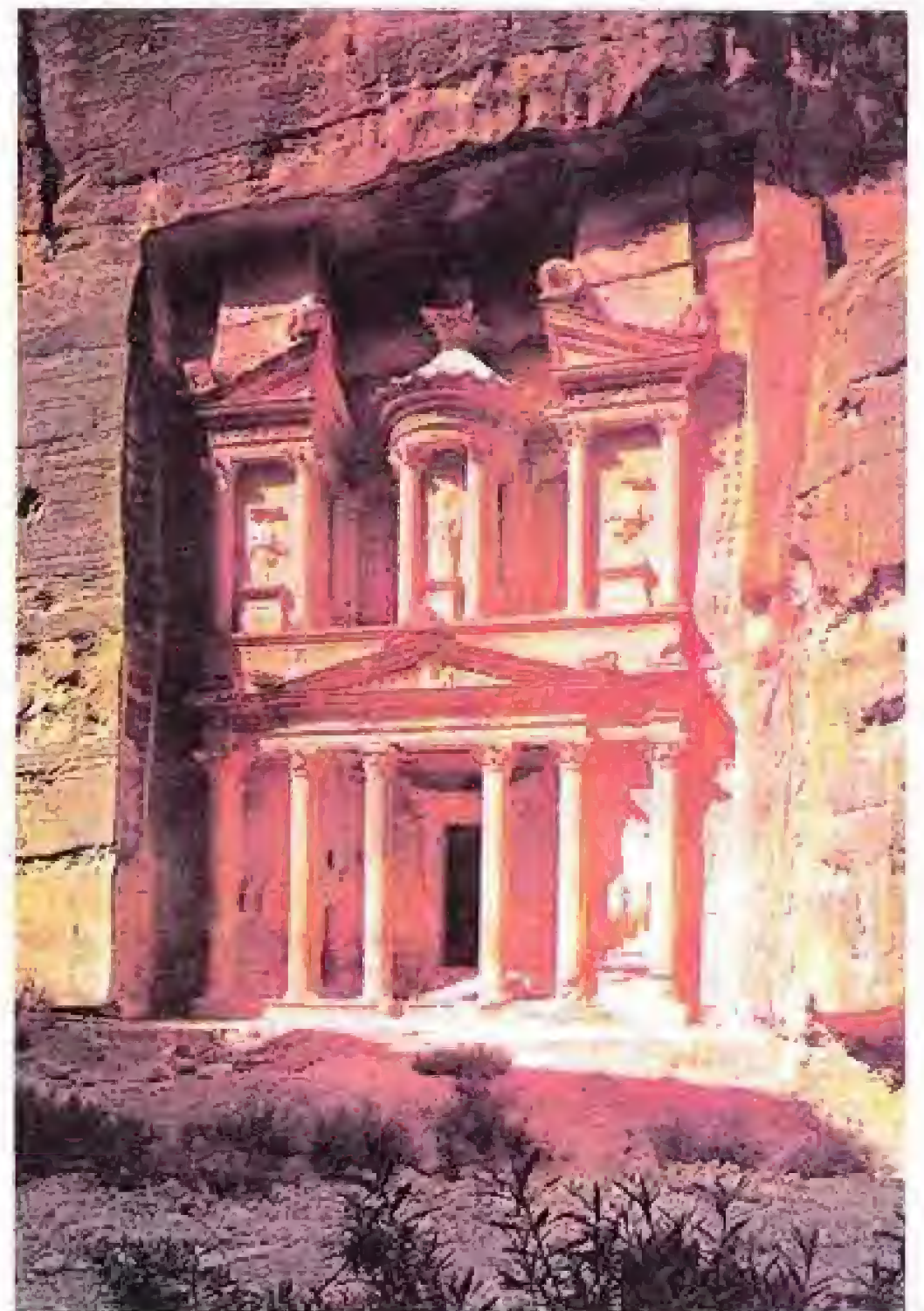
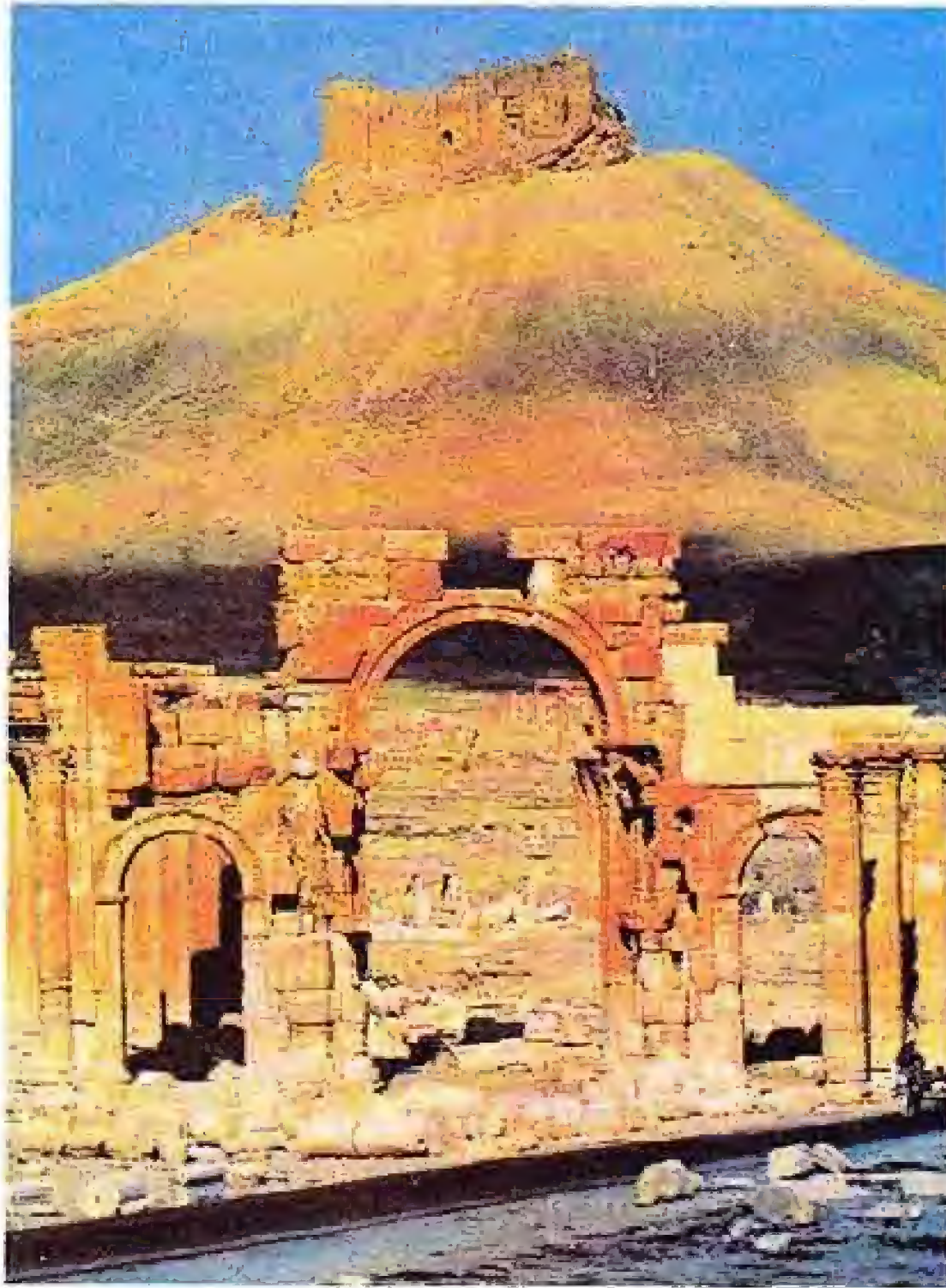


الرها . وشمس الكرام في حمص واليطوريون
في عنجر . على أن أهمها :

١ - الأنباط :

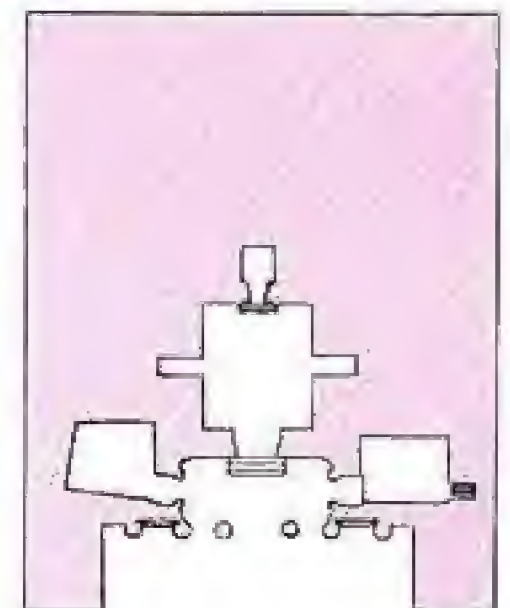
هم في الأصل من عرب جنوبي
الجزيرة . ورد ذكرهم في النصوص الاشورية
منذ مطلع القرن السابع ق . م . وقد
استوطنوا الجزء الجنوبي من الأردن . وقويت
شوكتهم هناك بالتدريج منذ القرن الخامس

ق . م . اذ أصبحت بلادهم وعاصمتهم البتراء
مركزا هاما لقوافل التجار بين الجنوب وثغور
البحر المتوسط . بلغت مملكة الأنباط أوج
عزها في القرن الذي سبق الميلاد والقرن
الذي لحقه ووصلت سلطتها الى دمشق (٣) .
حافظوا على منعتهم واستقلالهم تجاه
السلوقيين . ثم أيام الرومان الذين احتلوا سورية
ثم مصر (سنة ٦٥ ثم سنة ٣١ ق . م) . تعاونوا مع
الطرفين . لكنهم في النهاية ما لبثوا ان



وكانت لهم وكالات وجاليات في
بابل وفولوكاسيا (قرب الكوفة)
وفي الشام والمدن الفينيقية
والاسكندرية وروما (حيث
كان لهم معبد خاص) وامتد
نشاطهم الى داسيا (رومانيا)
والغال واسبانيا . وكانوا
يستعملون عدة لغات في وثائقهم
واللاتينية في مكاتبتهم الرسمية .
(٤) - كانت تدمر فيما بين
القرنين الثاني والثالث للميلاد
مركزا عالميا للتجارة تمر به
بضائع الصين والهند والجزيرة
العربية الى روما عبر انطاكية
وافسوس ورودوس وبيريه . لم
يكن التدمريون مجرد نقلة
للتجارة ولكن تجارا لحسابهم
نظموا القوافل والمحطات .

(٣) - يسمون هذا البناء (أ)
المنحوت في الصخر بارتفاع ٤٤
م « خزنة فرعون » . وهو قبر أو
معبد للحارث الثالث (٨٧ - ٦٢
ق . م) أشهر ملوك الأنباط
الذي أنشأ في البتراء عددا من
الأبنية الرائعة منها المسرح .
المخطط (ب) يمثل الغرف
الثلاث المنحوتة في الداخل .



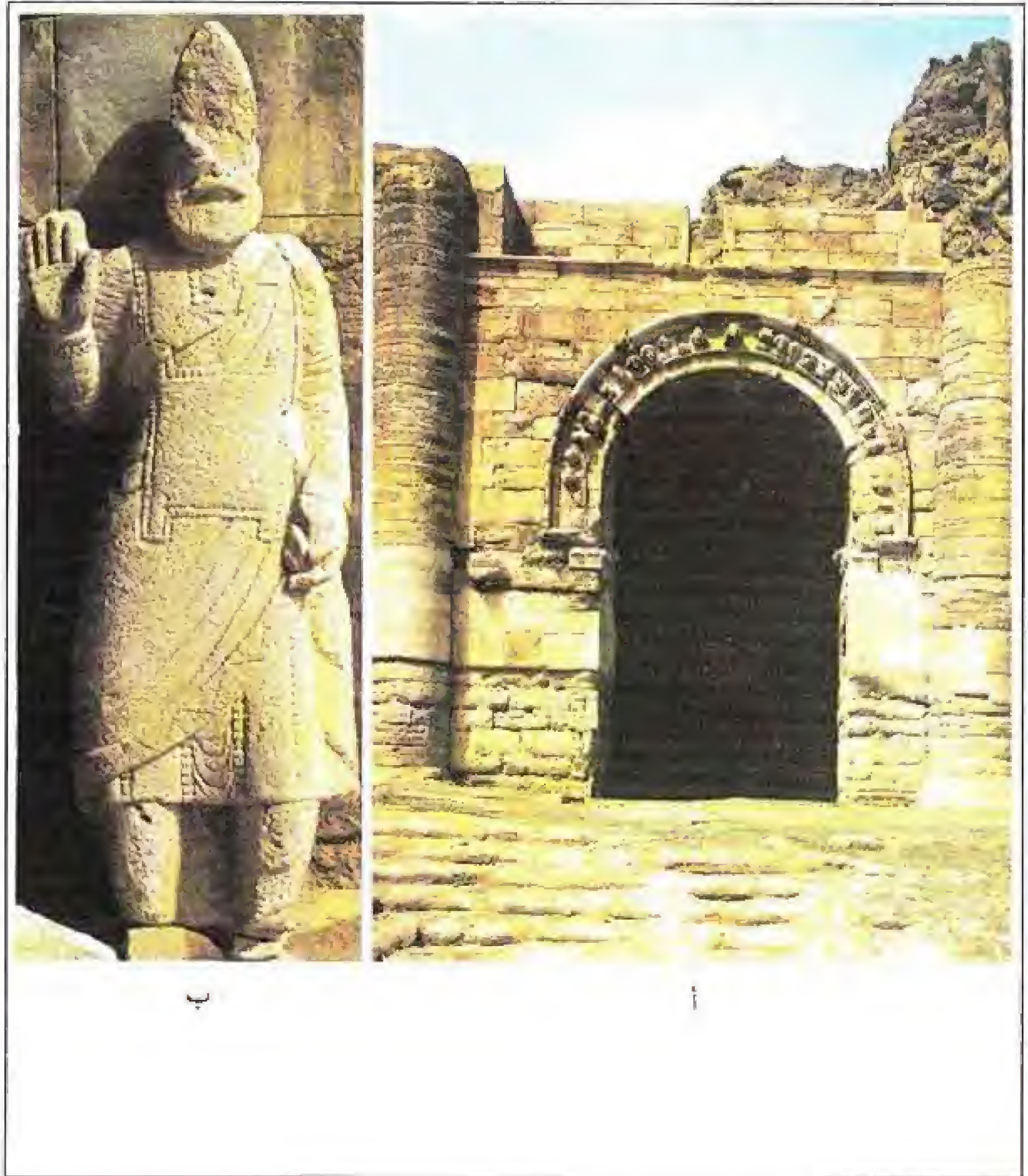
اصطدموا بالجشع الروماني أكثر من مرة حتى احتل تراجان (٢) عاصمتهم سنة ١٠٦ ثم أضحت بلادهم مقاطعة رومانية سنة ١٦٠ م . باسم الولاية العربية الصخرية . شملت بلدة بصرى التي جعلت عاصمة لها ، وربطت مع خليج ايلة (العقبة) بطريق روماني . مع ان سلطان الانباط السياسي قد زال فان نشاطهم التجاري استمر عدة قرون بعد ذلك . وكانت قوافل « النبط » في اوائل الدعوة الاسلامية

تسير بين الجوف والشام ومكة .

٢ - تدمير

هي في الأصل واحة في قلب بادية الشام . دلت الحفريات على وجود مجتمع بشري فيها منذ العصر الحجري القديم . عرف هذا المجتمع الزراعة وتدجين الحيوان في العصر الحجري الحديث . أول اشارة تاريخية لتدمير تعود الى مطلع الألف الثاني ق . م .

التجاري مع تدمير وتعاونت في تنظيم قوافل التجارة مع المملكة الأرمنية التي كانت قائمة في أعالي الجزيرة . الرحلة من موانئ العراق الى البحر المتوسط تستمر ٢٥ الى ٣٥ يوما . حين دمر شابور الأول (٢٤١ - ٢٧٩) مدينة الحضر سنة ٢٤١ انفردت تدمير بخطوط القوافل . كانت مدينة الحضر ذات سور دائري يتكون من جدارين قطره حوالي ٢ كم . يحيط به خندق عميق ويقوم فيه ١٦٣ برجا مع عدد من القلاع وللمدينة أربعة أبواب تمتد منها شوارع أربعة تتقاطع في وسط المدينة حيث يقوم المعبد الأكبر وهو أضخم أبنية الحضر (١) (٤٣٧٥ × ٣٢٢ م) ويشبه الحصن من الخارج . وكان أهل الحضر قبل بناء السور يهتمون فيه وله سبعة أبواب . وتقوم من حوله مجموعة من المعابد كشف عن ١٢ منها . تماثيل الحضر (ب) كثيرة جدا بعضها فيه التأثير الساساني وبعضها اغريقي وقسم ثالث ذو ازميل بدائي خشن .



ب

ا

(٥) - ورثت الحضر . الى حد كبير تجارة الانباط فترة محدودة . بعد سقوط دولتهم في مطلع القرن الثاني . يبدو ان مركزها الديني وموقعها الاستراتيجي هما اللذان أعانا

على رقم اشورية وبابلية . في ذلك العهد سكنها العموريون . ثم صارت في أواخر الألف الثاني ق . م . للآراميين الذين اختلطت بهم القبائل العربية بالتدريج . كانت تدمر تشارك في العمل التجاري في القرون التي سبقت الميلاد . فلما ضعفت البتراء بعد احتلال الرومان لها وتكاثفت الطرق التجارية القادمة من الخليج العربي . عبر بادية الشام . ازدهرت تدمر . بلغت أوج قوتها التجارية والسياسية في القرنين الثاني والثالث للميلاد . معظم آثارها الرائعة الباقية تعود الى هذه الفترة .

استفادت تدمر من موقعها في البادية على الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية . كان ارتباطها بها اسما لحدا كبير . حظيت من الرومان بالكثير من التقدير بسبب مكانتها الحربية والاقتصادية (٤) . لكنها أخذت سمعتها السياسية الضخمة ايام أميرها أذينة ٢٦٠ - ٢٦٨ م الذي هزم شابور الأول ملك الساسانيين . حين أراد غزو الشام سنة ٢٦٥ م . وطارده حتى عاصمته المدائن . منحته الامبراطورية الرومانية لقب (دوق الشرق) . وصارت سيادته الاسمية تشمل مصر وسورية والاناضول وارمينية . ولكنه قتل سنة ٢٦٨ . تولت الوصاية بعده على عرش تدمر زوجته زنوبيا (الزباء) . وتسمت « بملكة الشرق » . وقررت الاستقلال عن رومة . فطردت جيوشها حتى انقره . وصارت سيدة المشرق كله من مصر الى الاناضول .

لكن الرومان حشدوا لها قواتهم في البحر والبر . في الوقت الذي كانت تخشى هجوم الساسانيين من الشرق . هزمت جيوشها في حمص . وحاصرها الامبراطور اورليان في تدمر

سنة ٢٧٢ ثم فتح المدينة . بينما اسرت زنوبيا لتقضي أيامها الأخيرة في روما . لما ثارت تدمر بعد ذلك عاد عليها أورليان فدمرها . وخسرت مكانها التجاري بسرعة اثر ذلك .

٣ - مملكة عربايا (الحضر مدينة الشمس)
الحضر واحة قديمة جنوب غرب الموصل . أخذت في الازدهار الواسع . مثل تدمر . منذ القرن الأول للميلاد . كمركز عسكري على حدود الفرس والرومان . وكمركز ديني أيضا لقبائل المنطقة . زادت قيمتها مع تكاثف الحركة التجارية عبرها . حكمت فيها سلالة عربية أكثر من ثلاثة قرون . بدأت بأمر عربي اسمه سنطروق (لدى العرب الساطرون) وكان يلقب بملك العرب . عرفت المملكة باسم عربايا وكانت ضمن النفوذ الفارسي عذيلة تدمر بالنسبة لروما . اشتهرت ايضا بالقوة الحربية (٥) . صدت هجوم الامبراطور تراجان عليها سنة ١١٧ م . كما فشل الامبراطور سبتيوس سيفروس في اقتحامها سنة ١٩٨ - ١٩٩ م . بعد أن قذفته بقذائف نارية عرفت بالنار الحضرية وبأقواس مبتكرة .

بعد هذه المعركة استقلت الحضر عن النفوذ الفارسي . لكن ظهور الاسرة الساسانية واستيلاءها على العراق سنة ٢٢٠ جعل أهل الحضر يواجهون الساسانيين ويحالفون الرومان . لم يستطيعوا المقاومة طويلا لأن شابور الأول حاصرها سنة كاملة (٢٤٠ - ٢٤١) فلما دخلها تركها بعد النهب خرائب .

لم تسترد الحضر مكانتها بعد ذلك بسبب تغير الحدود الساسانية الرومانية . وتحولها الديني . مع الساسانيين . الى الزرادشتية .

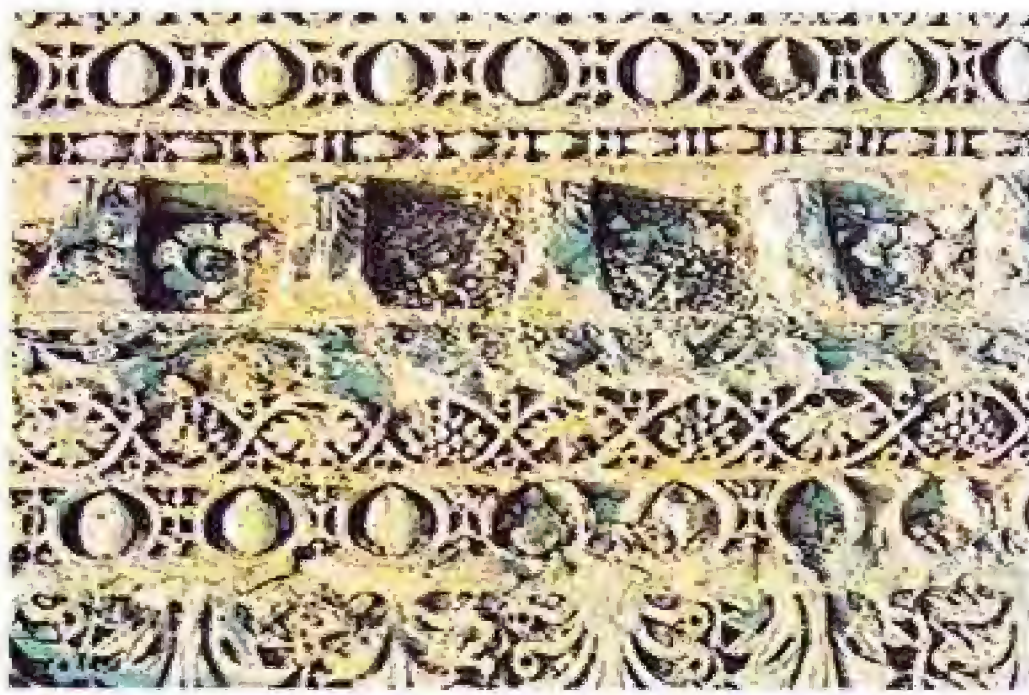
حضارة عرب الشمال

أوروبا منذ أواسط القرن ١٨ . أما البتراء فقد عرفت عالميا بعد ان زارها وكتب عنها الرحالة بوركهارت سنة ١٨١٢ . وأما الحضرة فلم تصبح معروفة الا بعد أن تناولتها الحفريات الأثرية سنة ١٩٥١ بعد دراسة قيمة كتبها عنها بعثة أثرية ألمانية سنة ١٩١٢ .

المدن الثلاث

تمتد المدن الثلاث في خط قوس منحني

المدن الثلاث البتراء ، تدمر ، الحضرة تمثل مرحلة واحدة من حضارة العرب شمالي الجزيرة في القرون الأولى بعد الميلاد . آثار تدمر ، في قلب بادية الشام ، كانت تلفت الانظار منذ القديم الى أن ذاعت شهرتها في



نسخا من المدرسة الاغريقية . الا ان تمثال أبو ابنة دميون (ث) الذي نحت بالحجم الطبيعي يمثل تمام التمثيل نماذج النحت في الحضرة . الملابس على الرأس والجسد تحتفظ بكل طياتها السابقة . والوجه كامل السمات . أما اليد المرفوعة فهي علامة العبادة .

التي تظهر مع بل معبودات سماوية وهي بمثابة القادة لمجمع المعبودات التدمري .

(٢) - في تدمر ، كما في الحضرة ، تختلف درجة الاتقان الفني في المنحوتات . بعضها ازميل بدائي . وبعضها متقن الاتقان الزخرفي المدهش . الافريز التدمري (أ) يكاد يكون عملا من أعمال التطريز مع انه نحت في الصخر . ومثله تاج العمود الكورنشي (ب) . وهذا التفصيل من الباب الرئيسي (ت) وفي الحضرة أيضا نجد التفاوت نفسه في قوة النحت . وبعضه يكاد يكون

(١) - كان التدمريون ذوي شعور ديني عميق يتجلى في مختلف أعمالهم وخاصة في ما تركوا من آثار ومنحوتات وقبور . معبوداتهم كانت كثيرة العدد تقارب الثلاثين . رأسها وكبيرها أي المعبود الأعلى هو (بل) الذي لا يظهر وحيدا في المنحوتات . فأكثر الآلهة التدمرية تصور معه حسب المناسبات ولكنه أكثر ما يمثل مع قرينته بلتي ثم يرحبول . الثلاثي بل ويرحبول وأغلبول يتمتع بأكثر شعبية في تدمر وقد يظهر أغلبول مع ملك بل وبعل شمين (معبود السماء) كما في الصورة . المعبودات

واحد يخترق الصحراء بين العقبة وأعلى العراق . سكان هذه المناطق قبل الميلاد وبعده كانوا جموعا متكاثرة من أهل البادية العربية ، توغل بعضها في أراضي الهلال الخصيب ، وبقي بعضها الآخر على أطراف البادية ، خلال العهد السلوقي ثم الروماني ، ليشكل الممالك . لعب الموقع الجغرافي دوره العسكري والتجاري ليقفز بالممالك الثلاث أحيانا الى واجهة الأحداث السياسية . لكنه

في الوقت نفسه سمح لها بالوصول جميعا الى المستوى الحضاري الرائع . آثارها كلها تحمل التأثير الاغريقي - الروماني (٥) في العمران والسياسة ، والتأثر الآرامي في الثقافة واللغة والكتابة ، والأثر البابلي والبدوي العربي في الدين .

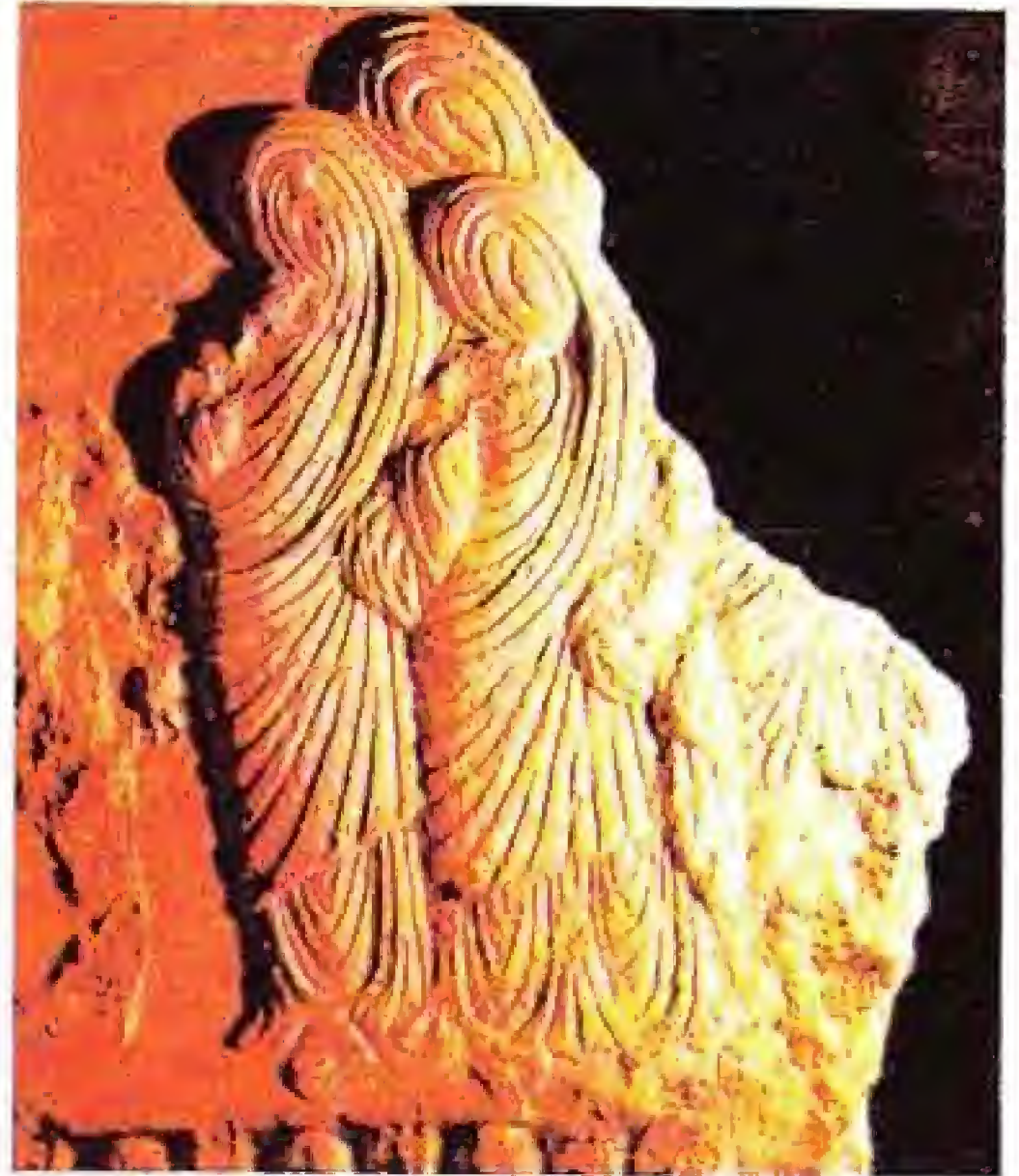
العمران

تتميز البتراء (أو الرقيم) بأنها المدينة



نفسه غني بالزخارف ، هيكله المركزي وهو أروع ما فيه محاط برواق محمول على أعمدة باسقة كانت ذات تيجان كورنثية من البرونز المذهب ، وفوقها أفريز نقش عليه صور مجنحة من الجن تحمل أكاليل مضمورة بالفواكه . وسقوف الأروقة عليها نقوش تمثل مشاهد دينية منها مشهد الطواف (أ) وفيه تمثال المعبود محمولا على جمل في قبة حمراء وكاهنات محجبات خلفه (ب) .

(٢) - يعتبر معبد بل من أكبر وأشهر الأوابد الدينية في الشرق القديم . منذ القرن الأول الميلادي بني بناؤه الأساسي على نشر من الأرض ، وظل يبنى ويتوسع حتى أواخر عهد تدمر الى أن أضحي بمقاييس ضخمة (٢٢٠ × ٢٠٥ م) أحيطت جدرانه بـ ٢٧٥ عمودا طول الواحد منها أكثر من ٨ مترا . لا يزال قائما منها سبعة في الواجهة المركزية وأقسام من ١٥٠ أخرى ، منحوتة من المرمر الأبيض أو الغرانيت السماقي . أمام المعبد قوس هائل وشارع عريض يزيد على كيلومتر هو شارع تدمر الرئيسي . المعبد

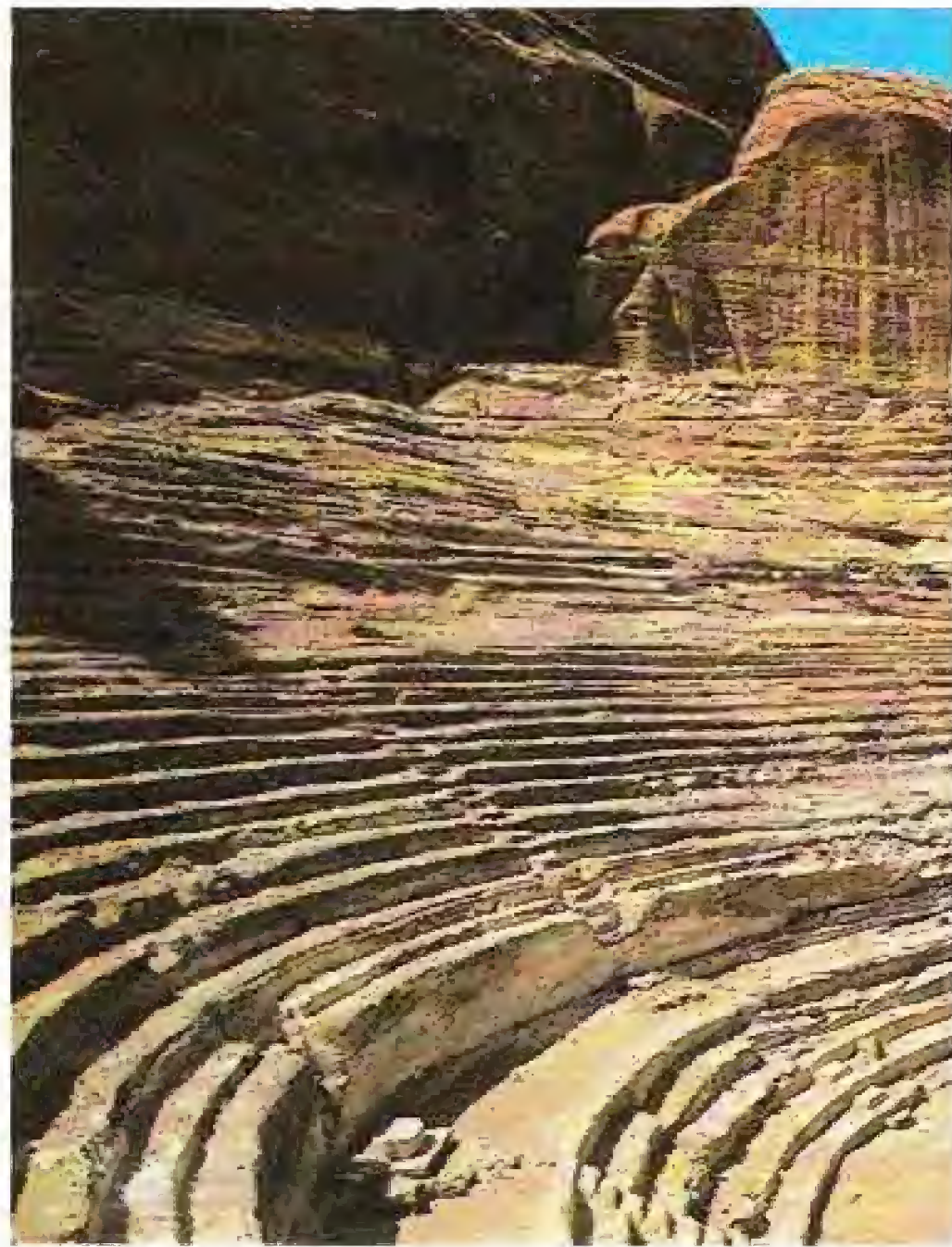


الحجرية (ومن هنا اسمها بطرا = الحجر) منازلها وأوابدها المدهشة منحوتة كلها في أعلى واد من الصخر الأحمر يدعى وادي موسى . نشأت المدينة محطة تجارية . لكن مدت نفوذها الى المناطق المجاورة فحصنت المدن . وحات القوافل ، واستغلت المناجم وحفرت الآبار ونقبت الخزانات ، وأجرت الأقنية داخل الصخور ، في نظام هندسي مدهش ، لارواء بطرا نفسها خاصة في فترات

الحصار والعدوان . كان الأنباط في أيامهم الأولى يمتنعون عن زراعة الشجر وبناء البيوت أو شرب الخمر . ويعتمدون التجارة والرعي والحرف في نظامهم الاقتصادي . اشتهروا بصناعة الخزف الرقيق وزخرفته بالنقوش الجميلة . كما سكوا النقود الفضية ، واستعملوا في كتابة لغتهم القريبة من عربية قريش ، أبجدية نبطية خاصة مشتقة من الآرامية . لكن مكاتباتهم



(٤) - المدافن مجال فني أبرز فيه التدمريون براعة خاصة . كانت مدافنهم التي يوجد معظمها في وادي القبور أسرية في الغالب ومن الحجر وعلى ثلاثة نماذج تخلو كلها من رهبة المقابر وتشبه أن تكون دارة أنيقة يلتقي فيها أفراد الأسرة . اللقاء الرمدي الحجري . متكئين أحيانا على الأرائك وفوقهم الأقواس المزينة بالأزهار . يسمونها « بيت الأبدية » . أول وأقدم القبور التدمرية كانت على شكل برج مربع . ازداد حوالى نهاية القرن الأول جمالا وسعة واتقاناً وصار يضم في داخله أربعة أو خمسة طوابق ويتجاوز في الارتفاع عشرين مترا ويتسع لمئات



مشاهد تمثل كبار المتوفين . في الصورة تمثال بولا ومولايا من القرن الثاني . أهل الحضر كانوا أيضا يبنون للمدافن أبنية في أبراج من الحجارة بشكل منتظم ويمارسون حرق الموتى أحيانا . أما أهل البتراء فنحتوا القبور كما نحتوا الكثير من المساكن والمعابد (٥) - كان طبيعيا أن تأخذ الحضارة الهلينستية ، ثم الرومانية ، مداها في التأثير على الأنباط . ومن ذلك ظهور المسرح في البتراء (الصورة) . بناء المدينة في أعالي وادي موسى الضيق . وبين جداريه المرتفعين ، لم يمنع الأنباط من تحويل مسقط من مساقط السيول الى مسرح مدرج واسع .

الرسمية والتجارية كانت بالآرامية .

أما تدمير : فتحمل طابع المدن الاغريقية - الرومانية بأبنيتها العامة والخاصة . أهم آثارها الباقية هو معبد بل الضخم (١) والشارع الأعظم (اكم) المحفوف بالأعمدة . والمسرح . والميدان - السوق (الآغورا) . والبوابة الكبرى المعروفة بقوس النصر . بالإضافة الى مئات المنحوتات والتماثيل والمدافن الأثرية المملأ بالتماثيل النصفية الجنائزية (٤) . عدا الحمامات . وسور المدينة البيضاوي الشكل والمدعم بالأبراج .

كان سكان تدمير يتكونون اجتماعيا من ثلاث طبقات : أحرار مواطنين . وعبيد وأجانب . المواطنون هم أبناء عدد من العشائر . وكان بين بعض هذه العشائر أحلاف .

عنى التدمريون بزراعة واحتهم ، وتنظيم الري والأقنية والسدود فيها . وحفروا الآبار للشرب والاحواض . لكن ثروتهم كانت تجارية . وكانت مكاتباتهم التجارية بالآرامية . والرسمية باللاتينية (أيام الرومان) والاغريقية . ولهم أيضا لغتهم التدمرية وكتابتهم المشتقة من الآرامية .

أما الحضر : فهي الى حد كبير تدمير الثانية في طابعها العمراني . لولا ان جو الزراعة والري كان أوضح في تدمير منه في الحضر . سور الحضر المزدوج دائري . في وسط المدينة يقوم المعبد الكبير للشمس (٤٣٨ × ٣٢٣ م) وله سبعة أبواب وثمة ١١ معبدا آخر في المدينة . على الطراز المعماري الهليني - الروماني . عدا المدافن على هيئة الأبراج . وبركة المدينة والآبار الكثيرة .

ومئات التماثيل المتنوعة (٤) .

استعمل في عمارة الحضر الحجر النحيت والجص . الايوان كان عنصرا أساسيا في البناء وكذلك تزيين واجهة الأواوين بالتماثيل والزخارف وأنصاف الأعمدة (٢) .

كانت تجارة الحضر . مثلها مثل تدمير والبتراء . تقوم على نقل الحرير والعطور والزيت والتوابل والأخشاب والبخور والاحجار الكريمة والمعادن والانسجة المختلفة والخمور . على ان طابع الحضر التجاري كان أقل وضوحا منه في المدينتين الاخرين لأن نظامها الاقتصادي كان يعتمد على المساحات الزراعية الواسعة حولها في السهول والسهوب الممتدة حتى سنجار وتلعفر .

كشف في الحضر حوالي ٣٠٠ نص كتابي كلها باللغة الآرامية . وبالأبجدية الآرامية بسبب تأثير هذه الثقافة . في تلك المنطقة . في تلك الفترة .

الدين

يتشابه المعتقد الديني لهذه الجماعات العربية . جميعها كانت تعبد الشمس . بأسماء مختلفة (ذو الشرى . شمس . شماش) . وكان ثمة لدى الجميع ثوابيث معبودة يتمثل فيها الشمس والقمر والزهرة . وبعل شمين (السماء) . مع عبادة اللات .

وكان لدى الانباط كعبة لذي الشرى يمثلها فيها حجر أسود مستطيل . وفي الحضر كعبة مملأ بالأصنام (هي معبد شمش) يؤمها الناس من الأقاليم بالذور والحج والطواف وكانت هذه الكعبة مركز النشاط الديني والاجتماعي . تقام فيها الأعياد وتجمع التبرعات وينزل الزوار .

الهند

«من ٣٠٠ الى ١٢٠٠ م»

اخرى في ظل أسرة بالافا .

سلالة جوبتا وامبراطوريتها

أسس ملوك جوبتا ، لاسيما سامودرا
جوبتا (حكم ٣٣٠ - ٣٧٥) ، وتشاندرا جوبتا
الثاني (حكم ٣٧٥ - ٤١٥) ، وكومارا جوبتا
(حكم ٤١٥ - ٤٥٥) ، امبراطورية عظيمة
سيطرت على جميع انحاء الهند الشمالية
تقريبا ، محافظين عليها احيانا بالقوة ،

بعد قرون من التصدع السياسي والسيطرة
الأجنبية ، توحدت الهند الشمالية ثانية في
عهد أسرة جوبتا الملكية (٣٢٠ ؟ - ٥٥٠) ،
وهي الحقبة الكلاسيكية في الهند . وفي الهند
الجنوبية ايضا ، نشأت تدريجيا دولة عظيمة



- (١) - في اللوحة النافذة في هذا الهيكل الذي يعود الى عهد جوبتا ، يبدو فيشنواثناء رقاده الكوني فوق حلقات حيوان « التاجا » ذي الرؤوس السبعة ، فيما تجلس قرينته لاكشمي عند قدميه .
- (٢) - هذه اللوحات الجدارية التي تمثل فتيات جميلات مرسومة على جانب صخرة ضخمة ، تقع في سيجيريا بشري لانكا ، حيث شيد مسكن ملكي محصن في القرن الخامس .
- (٣) - من اغرب اشكال المعبود شيفا شكل ناتاجارا ، ذات الازرع الأربعة ، وهي ترقص فوق جسد شيطان . وقد احاطت بها هالة من النار تلتهم العالم في نهاية الدهر . يُعتبر هذا التمثال من اروع تماثيل البرونز التي تعود الى عهد التشولا (القرن الحادي عشر) .
- (٤) - يبين هيكل قديم لشيفا في اوريسا الشكل المؤلف (شيخارا) لهياكل الهند الجنوبية . وقد بُني على منصة بالقرب من بركة ماء تستخدم في طقوس الوضوء .
- (٥) - اعظم الهياكل التي شيدتها أسرة بالافا الملكية في كانشي ، في الهند الجنوبية ، هو مجمع مامالا بورام او « ماها باليبورام » المعروف لدى العامة باسم « الباجودات

واحيانا بالدبلوماسية . أوجدت المواصلات الحسنة والأمن والرخاء النسبي جوا بلغت فيه الثقافة الهندية مستوى لا مثيل له . فقد بلغت أعمال الشاعر كاليداسا (لمع في القرن الخامس الميلادي) درجة من الاتقان ، حاول الكثيرون تقليدها لكن بدون جدوى ؛ كذلك تجلت العبقرية الهندية في الفن والهندسة ، في اروع اشكال الدقة والرمزية ، ولكن دون تركيز كبير على التفاصيل ، ذلك التركيز

الذي سيميز جزءا كبيرا من الفن الهندي . بعد القرن السابع .

تشهد على رخاء الهند المادي في هذه الحقبة . كتابات الحاج البوذي الصيني فا - هسيان (لمع ٣٩٩ - ٤١٤) الذي زار الهند في القرن الخامس .

في مطلع القرن السادس . غزت شعوب الهون الهند من الشمال الغربي . وتغلغلت حتى اواسط الهند (وكانت قد غزت قبل



(٦) - ان قطع النقد الذهبية العديدة الخاصة بأسرة جوبتا (يحوي كنز البايانا وحده ١٠٣١ نموذجا منها) هي مصدر رئيسي لتاريخ هذه الحقبة . فتوزيعها يعطينا فكرة عن المناطق التي حكمها مختلف ملوك الجوبتا ، كما يعكس سبعا المتكرر النشاط الاقتصادي .



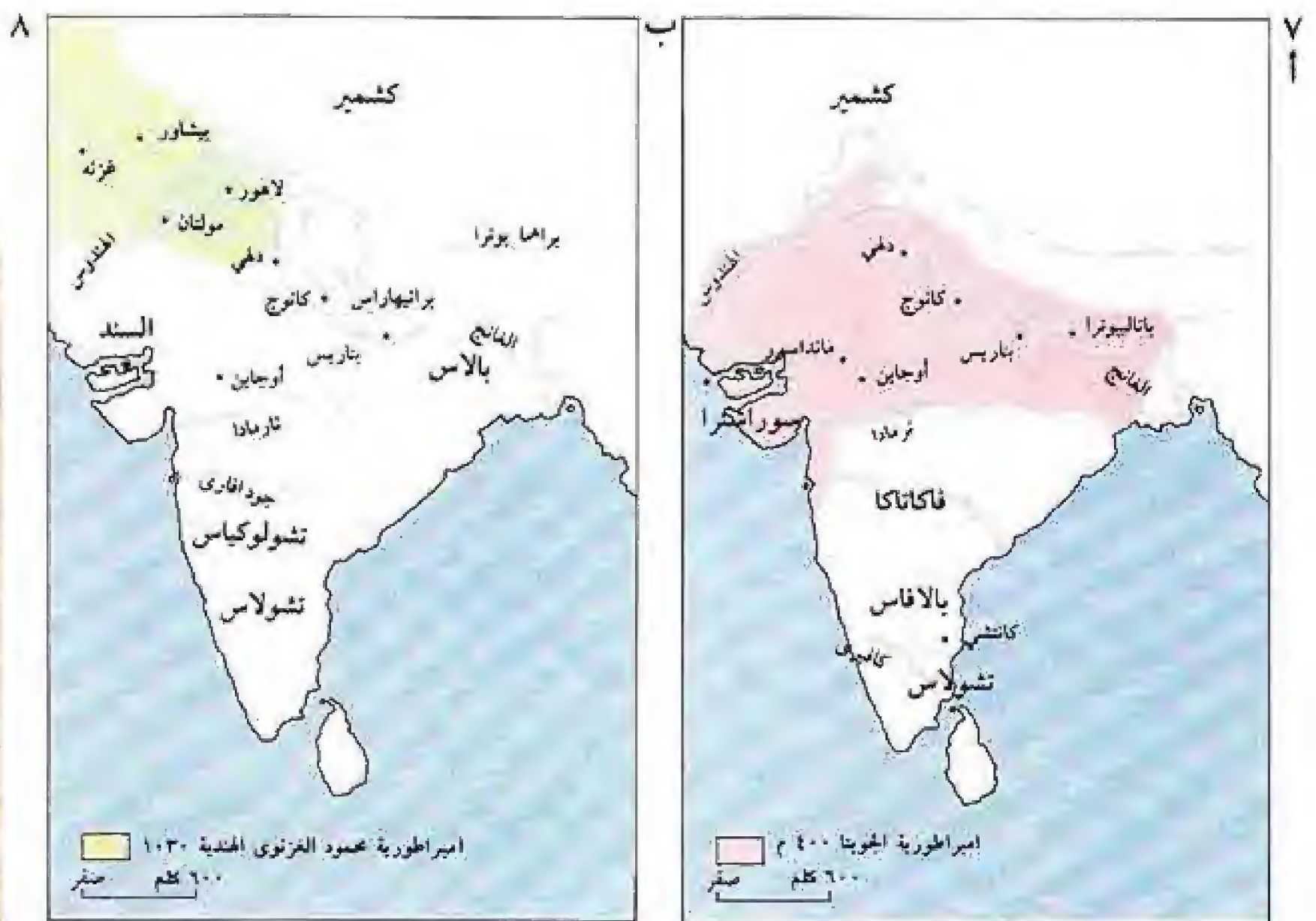
السبع » . الى الجنوب من مدراس . يشمل هذا المجمع الذي شيد في فترة ٦٢٥ - ٦٧٤ . عددا من الكهوف ومجموعة من المباني الضخمة الرائعة (التي تدعى الراثات) ، بالإضافة الى هذا الهيكل الساحلي المكسر لشيغا .

ذلك أوروبا حتى غربها) . غالبا ما اعتبر هذا الغزو للهند السبب الرئيسي في انهيار حكم الجوبتا . لكن هناك من يقول ان الهون لم يكونوا ليستطيعوا تحقيق أي نجاح لو لم تكن امبراطورية الجوبتا قد انحلت بسبب عوامل داخلية .

طرد الهون من الهند

رغم ان الهون طردوا من الهند بعد ٣٠

سنة ، فقد تقاسمت الهند الشمالية دول متنافسة في سوراشرت واورا براديش والبنغال . كما حدثت تغيرات هامة ايضا في الهند الشمالية . وذلك في الولايتين المعروفتين حاليا بمدراس وكيرالا . فمئذ بداية الحقبة المسيحية على الاقل ، ازدهر في هذه المناطق مجتمع ذو ثقافة راقية ، تجلت في أدب تاميل الكلاسيكي . وفي القرن الرابع الميلادي ، جعلت اسرة بالافا من



- (٧) - رغم ان امبراطورية الجوبتا (أ) كانت تمثل ذروة الثقافة الهندية الكلاسيكية . فان تأثيرها على الجنوب يكاد يكون معدوما . ورغم انعدام التماسك في الدولة . قاوم الشمال تقدم المسلمين بسهولة . ولم يفقد الا السند . الى ان بدأت امبراطورية محمود الغزنوي (ب) بالتوسع . ومع تأسيس سلطنة دلهي الاسلامية عام ١٢٠٦م اصبح التأثير الاسلامي دائما في الهند .
- (٨) - فيشنو هو أحد معبودات البرهمانية الرئيسيين والمعبود الأعلى لدى طائفة الفيشنافا . التي يجد بعض اتباعها شبا قريبا بين التجربة الدينية والعشق البشري . وقد ظهر كمخلص للبشر في عدة أشكال مختلفة . ولا سيما في عشرة تجليات (افاتاراس) اتخذ فيها شكل انسان او حيوان . واشهر تجسده هو كريشنا . الراعي الاكبر والملك الفيلسوف . اما بالنسبة الى التجليات
- (٩) - بوري هو أحد المراكز الدينية الكبرى في الهند . وهو يجذب عددا لا حصر له من الحجاج . من جميع انحاء البلاد . اثناء المهرجان السنوي للعربات المعروف بجاغانات .

مدينة كانتشي (كونجيفارام) مركزا لمملكة واسعة . كانت هذه المملكة اصغر من امبراطورية جوبتا الواقعة الى الشمال ، لكنها كانت ذات أهمية كبرى . فقد أسست أسرة بالافا شكلا ناجحا من المشاركة في الحكم ، بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية ، مما ساهم في توطيد الاستقرار السياسي . بقي الساحل الشرقي للهند الجنوبية تحت سيطرة البالافا ، حتى حوالي عام ٨٨٠ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى ١٢٠٠ ، وقع تحت سيطرة التشولا .

قدمت أسرة بالافا رعايتها لطبقة البراهمة ، التي كانت تقدم بدورها خدمات تربوية ممتازة . وفي مجالي الفن والهندسة بصورة خاصة ظهر نمط درافيدي معين . (نسبة الى اللغة المحكية في الهند الوسطى والجنوبية) بلغ ذروته في المعابد الضخمة ، والرسوم الصخرية النافرة في مامالا بورام (الباجودات السبع) (٥) . فوق ذلك ، ساهمت أسرة بالافا ، اكثر من أية أسرة هندية أخرى ، في نشر الحضارة الهندية في آسيا الجنوبية الشرقية .

تأثير هارشا الكانوجي

توحدت معظم أنحاء الهند الشمالية بصورة مؤقتة ، على يد هارشا الكانوجي (٦٠٦ - ٦٤٧) الذي تكشف سيرة حياته عن مستويات راقية من الحكم والازدهار ، وقد وصفت وصفا رائعا بقلم الكاتب السنسكريتي بانا ، والحاج الصيني هسوان تسانج (تجول في الهند بين ٦٣٠ و ٦٤٣) .

عقب انتهاء حكم هارشا ، عانت الهند الشمالية من تجزئة سياسية متزايدة ، اذ

أخذت الدول الكبيرة تنقسم الى وحدات صغرى ، كانت تعلن ولاءها في البدء للسلطة المركزية ، ثم تصبح مستقلة تدريجيا . هكذا أصبحت كانوج عاصمة هارشا ، عام ٧٥٠ ، مقرا لأسرة براتيهارا الملكية ، التي حكمت دون منازع ما يعرف حاليا بأوتار براديش والبنجاب وراجاستان . ولكن سلطتها الفعلية أصبحت ، قبل انتهاء القرن التاسع ، مقصورة على اجزاء من البنجاب وأوتار براديش ، بينما حكمت راجاستان أسر راجبوت المختلفة ، المتحدرة من أصل قبلي . أما بهار والبنغال فقد حكمتها أسرة بالا البوذية (٧٥٠ ؟ - ١١٥٠) ، ثم شاركتها الحكم منذ القرن العاشر أسر صغيرة أخرى .

في غمرة هذه الانقسامات غزا الفاتح المسلم محمود الغزنوي (من غزنة في افغانستان) (٩٧١ - ١٠٣٠) الهند الشمالية عدة مرات (بين عامي ١٠٠٠ و ١٠٢٦) (٧) . استطاع محمود ان يحقق هدفه الاساسي وهو نشر الدين الاسلامي في اجزاء كثيرة من الهند بالاضافة الى اثراء عاصمته بالغنائم ، أدى المزيد من التدهور السياسي ، الى غزوات اسلامية جديدة ، ومع أواخر القرن الثاني عشر ، كان معظم الهند الشمالية تحت سيطرة السلطنة الاسلامية في دلهي .

يشمل الأدب السنسكريتي ، في الحقبة اللاحقة للهارشا ، عدة اعمال ممتازة ، وان كانت لا تضاهي ما كُتب في الفترات المبكرة . ويعتبر « تاريخ كشمير » ، الذي يعود الى القرن الثاني عشر ، أكثر النصوص التاريخية عن الهند القديمة أهمية . شهدت هذه الحقبة المتأخرة أيضا تحقيق عدد من أعظم الانجازات في مجالي الفن والهندسة .

الفن الهندي حتى المغول

بالطبيعية وبالأسلية . وهي تعكس فهما عميقا لكيفية معالجة الجسم البشري سواء في الحجر أو البرونز . كذلك كانت تصنع هناك تماثيل من الطين بأسلوب بدائي الى حد ما ، ومن الأرجح انها كانت نماذج من الفن الشعبي . على عكس ذلك ، حفرت ايضا هناك بعض الاختتام من حجر الطلق على شكل حيوانات وأجسام بأسلوب شكلي محكم .

يمكن اعادة بداية الفن الهندي الى حضارة الهندوس في هَرَبَا وموهنجودارو (الباكستان) التي ظهرت حوالي ٢٣٠٠ ق . م . فقد وجدت في هذين الموقعين بعض نماذج صغيرة من المنحوتات التي تتسم معا



(١) - هذه المخطوطات المزينة على ورق النخيل والتي تعود الى القرن الثاني عشر هي من أولى الأمثلة التي وصلتنا من الرسم الهندي غير الجداري . من المحتمل انه كان ثمة نماذج . من هذا التصوير

أقدم منها لم تصلنا . لأن هذه المخطوطات تدل على درجة رفيعة من التطور . خلافا لبعض المنمنمات الهندية التي نشأت عنها ، لم يكن القصد من هذه الرسوم بالضرورة تزيين النص . بل احاطته بهالة من القدسية .

اتقان تقنية النحت

في الفترة التاريخية التي تقع بين هذه الحقبة وبين العصر المورياني (٢٢٠ - ١٨٥ ق. م) ، يبدو بوضوح ان الفنان الهندي توصل الى السيطرة على مادته سيطرة تامة . فتيجان اعمدة اشوكان ، كتلك التي نجدها في سارناث ، والتي اتخذت شعارا وطنيا للهند . تحمل اسودا مؤسلة وتنم عن ارتباط كبير بالشكل الطبيعي في طريقة حفر أجسام

الحيوانات في الحجر الرملي المصقول . كانت هذه التقنية من خصائص النحت المورياني ، وقد استمرت حتى وقت قصير لاحق . كذلك كان للتماثيل المصنوعة على اسلوب ياكشي (٩) سطح حجري مصقول ، مع انها لا تعود الى الحقبة الموريانية . ربما كانت هذه التماثيل تستعمل للعبادة ، وان كانت تماثيل النساء تتميز بمعالجة غير روحانية لجسد الانثى . نعثر على هذا الجمع

(٤) - لتمثيل أرواح الاشجار المنحوتة على هذا العمود من بهاروت العائد الى القرن الأول ق. م شكل يمتاز بتنوّات منخفضة وبتصميم أكثر شكلية من بعض تماثيل أرواح الاشجار اللاحقة . ساهمت هذه التماثيل مساهمة فعالة في تطور الفن الهندي فيما بعد . ليس ثمة فن اختلطت فيه المفاهيم الدينية مع طرق التعبير الفني بنجاح كما في الفن الهندي .

(٥) - صنع تمثال بوذا الانيق هذا من الحجر الرملي في ماثورا في عهد الجوبتا حوالي القرن الخامس الميلادي . وهو فيما يعبر عن تأمل هادئ ، يتم عن احساس بالشكل والاسلوب التزييني .

(٦) - يمكن تلمس التأثير الهلينستي المتأخر في اسلوب هذه الصورة التي تمثل بوذيساتفا من جاندارا والتي تعود الى ما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين . استعملت في منحوتات هذه الحقبة موضوعات عدة . شاعت في الفن البوذي المتأخر .



في تنوّات صخرية طبيعية . شبيهة بتلك التي توجد في كايلاساناثا في ايلورا . فقد نحتت في الهند الجنوبية الشرقية ، في القرنين السابع والثامن ومن صخور الغرانيت ، بالقرب من شاطئ ماها باليبورام ، سلسلة من الهياكل والقطع الناقرة الضخمة (مثل هذا الرسم الذي يبين النزول الى نهر الغانج) ، وهي تنم عن سيطرة تامة على الشكل والتصميم ، لاسيما عندما تصنع من مادة صعبة كهذه .

(الوسط) النقطة المركزية من المشهد بكامله .

(٣) - كانت الهياكل القائمة بذاتها تنحت ايضا في الهند ،

(٢) - في كهوف اجانتا الشهيرة ، نحت كل تفصيل من الرسوم في الصخر الصلب المؤلف منه جانب التل . نحتت هذه الرسوم بين القرنين الثاني ق. م والتاسع الميلادي . تشبه قاعة العبادة البوذية من القرن السابع الظاهرة هنا كنيسة مسيحية بصحنها ، واجنحتها ذات الأعمدة . واجزائها الناتئة نصف الدائرية . تؤلف القبة (فوق) وتمثال بوذا الجالس

بين العنصرين الروحي والحسي في جميع مظاهر الفن الهندي . كذلك لم يكن من غير المؤلف تزيين الأجزاء الخارجية من الهياكل الكهفية بأزواج من الأجسام المتعانة (ماثونا) في سياق ديني أو في اوضاع جنسية مثيرة .

من المحتمل ان المعبودات الرئيسية لم تكن تمثل بشخصها ، بل بواسطة رموز ، حتى حدث تطور هام في القرنين الاولين

الميلاديين ، نتيجة لظهور مذهب « باكتي » اي العبادة الشخصية للمعبود . اذ اصبحت صور الاشخاص موضوع الايقونة الرئيسي . يبدو ان التغير حدث في مكانين مختلفين في وقت واحد . هما جاندارا (٦) وماتهورا ، مع حدوث بعض التأثير المتبادل بينهما .

التأثير الهلينستي على النحت في جاندارا ، ونتيجة للنزعة الهلينستية



على أوجه الشبه التي يتفق فيها مع أشكال أخرى وجدت في سانشي وبهاروت ، ان يكون تمثالا لمعبود روح الشجرة (ياكشا) . ترمز كاشحة الذباب الى القوة ، وهي العلامة البصرية الوحيدة التي تثبت ان هذا الشكل ليس لأدمي عادي ، وهو ما يجعله يختلف اختلافا واضحا عن المنحوتات المتأخرة ، التي تمثل أشكالا من المؤكد انها تمثل معبودات

جميع الطوائف . يتمثل هذا الاسلوب في الشكل الجيني الظاهر هنا للمعبودة الأم أمبيكا . من القرن الحادي عشر .

(٩) - تمثال لشخص يحمل كاشحة للذباب مصنوع من الحجر الرملي المصقول ، وقد وجد في ديدارجان (بهار) . ويعود الى القرن الأول الميلادي . من المحتمل ، بناء

لهذه المعبودة عدة أذرع كبعض المعبودات الهندية الأخرى ، وهذا أمر ضروري لاعطاء المعبودات الصفات التي ترمز لقوتها من جهة ، وتميزها عن غيرها من جهة أخرى . تحمل « دورجا » شعارات عدد من المعبودات المتعانة للقضاء على الشيطان .

(٨) - انتجت أوريسا اسلوبا محليا مميزا للنحت ، اقتبسته

(٧) - يتمثل فن ميسور الهندوسي في القرن الثالث عشر في هذه المنحوتة ، التي كانت في الأصل تؤلف قسما من تصميم معقد يزين الجزء الخارجي من هيكل . نحتت تفاصيلها بدقة خاصة كما في شغل المجوهرات والملابس . والمواضيع التزيينية الأخرى . وهي تمثل شكل المعبودة الانثى « دورجا » منتصرة على الشيطان الجاموس « ماهيشا » .

الكامنة التي بقيت في أعقاب الانتشار الشرقي للثقافة اليونانية . نشأ أسلوب للنحت تأثر عميقا بالأفكار الهلنستية . لم يقتصر تأثير هذه الأفكار على الاهتمام بالجسم الانساني . ومعالجة ثنايا الثياب وحسب . بل كان لها ايضا اثر في التجسيد المثالي للقوى المعبودة الخارقة . وبينما كانت جميع المنحوتات تقريبا في جاندارا بوذية فقط . وجدت في ماتهورا المنحوتات البرهمانية والبوذية جنبا الى جنب . وفي ماتهورا ايضا كان أسلوب الاشكال أكثر هندية . وكان الحجر المستعمل في الغالب حجرا رمليا أحمر أو أسمر مرقشا عوضا عن الصخر المتبلور (شيست) الرمادي الذي صنعت منه معظم المنحوتات الحجرية في جاندارا . ان تماثيل بوذا ماتهورا المتأخرة (عهد الجوبتا) (٥) . التي تبدو فيها الثياب وكأنها تلتصق بالنصف الأعلى من الجسم كما لو كانت مبلولة . أصبحت في وقت لاحق النموذج لعدد من تماثيل بوذا التي صنعت حينما انتشرت الثقافة البوذية .

مع ان ابنية الآجر والحجارة كانت مستعملة . فمعظم اشكال العمارة الباقية منذ أولى القرون الميلادية لا تشتمل الا على كهوف ومدافن بوذية . ثابتة الشكل (ستوبا) (٥) . نحتت هذه الكهوف . كتلك التي وجدت في كارلي وألورا وأجانتا . في طبقات الصخور الطبيعية . خصوصا بين القرنين الثاني ق . م والقرن التاسع الميلادي . وذلك لجعلها أمكنة للعبادة لاتباع الديانات الثلاث الرئيسية في الهند . البرهمانية والبوذية والجينية . بعض الكهوف كان خلوا من الزينة .

كذلك نحتت هياكل كبيرة قائمة بذاتها

في الصخر . في كل من الدكن الغربية . والجنوبية الشرقية . كانت أجملها هياكل ماها بليهورام الشاطئية (٣) .

دونت نظريات فني النحت والعمارة وكيفية تطبيقها العملي في نصوص (سيلباساستراس) وكانت على الأرجح واسعة الانتشار . على الرغم من ذلك . بقي الفن الهندي يتميز بالتنوع والحساسية . في معالجته للمواضيع الدينية . يتضح ذلك خاصة عند مقارنة المنحوتات البرونزية بمنحوتات أوريسا الحجرية التي تعود الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر (٨) . على العكس من ذلك . نشأ أسلوب معقد ومضطرب في مايسور اثناء حكم اسرة هويشالا الملكية .

قبيل ذلك وحتى الفتح الاسلامي . ازدهر في البنغال وبهار فن حقبة بالاسينا (من القرن الثامن حتى الثاني عشر) وذلك بفضل رعاية ملكية سخية واندفاع ديني عارم . وصنعت منحوتات برونزية وحجرية . بأنواع وأعداد كبيرة جدا (٧) . كان لها تأثيرها في جميع أنحاء آسيا الشرقية .

نماذج باقية من التصوير الهندي بلغ التصوير ايضا مستويات رفيعة من الاتقان . كما تدل على ذلك الرسوم الجدارية الموجودة في الهياكل الكهفية . في الدكن الغربية (مثل تلك التي توجد في أجانتا) . تشير هذه الصور الى حقبة طويلة من التطور . ومن المؤكد تقريبا . انه كانت توجد ايضا أشكال أخرى من التصوير . لم يبق منها شيء . بقيت ايضا نماذج أخرى . منها مخطوطات مزينة من سعف النخيل (١) . وهي تدل على اتقان للخط والالوان الزاهية .

الصِّين

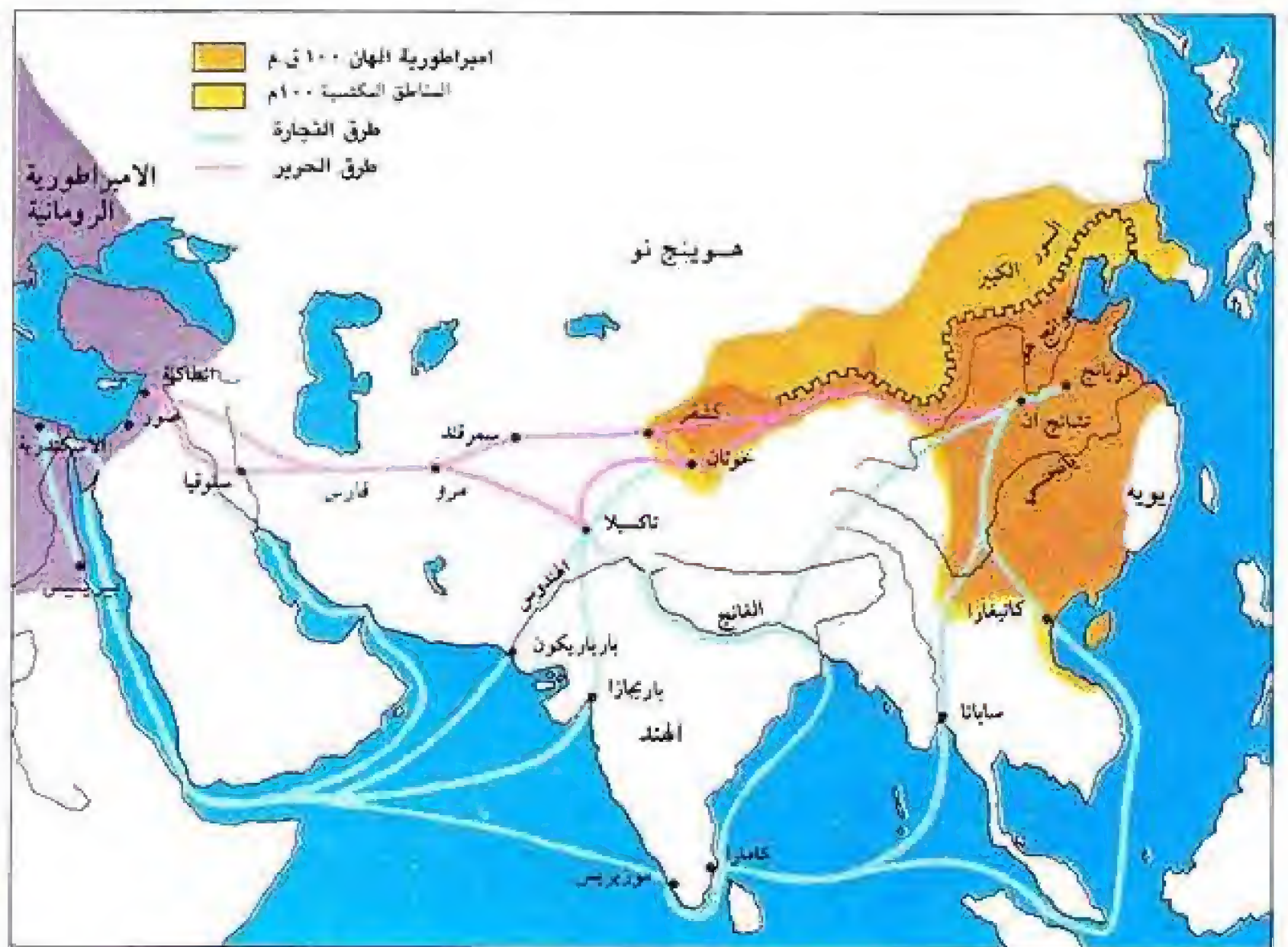
« بين سنة ١٠٠ ق.م. و ٦١٨ م. »

حكمت هذه القبائل الصين لفترة اطول من فترة اية اسرة اخرى . وكانت مساهمتها الكبيرة في تاريخ الصين ، انها شهدت ولادة الفلسفة الكونفوشية ورواجها الشعبي .

حوالى ١٠٣٠ ق . م . قدمت من الصين الغربية مجموعة من القبائل تدعى تشو وخلعت اسرة شانج (١٦٠٠ ؟ - ١٠٣٠ ق . م) عن عرشها . وهي الاسرة الحاكمة الاولى في تاريخ الصين المدون .

اسرتا تشو وتشين

على عهد اسرة تشو (١٠٣٠ ؟ - ٢٢١ ق . م) حدثت تطورات عديدة كبرى . فقد امتدت المملكة نحو البحر شرقا ونهر اليانجسى



٣ تنانين يمسك كل منها كرة في فمه . حول قاعدة الاناء ، تجلس ثمانية ضفادع فاعرة أفواهها . من شأن أي زلزال في أي نقطة من تقاطع البوصلة ان يسبب سقوط الكرة التي يحملها التنين المقابل لذلك الاتجاه . في قم الضفدع الجالس تحته ، فيتبين من ذلك اتجاه الهزة الأرضية . اخترع هذه الآلة فلكي ورياضي وشاعر ومؤلف شهير اسمه تشانج هنج .

الصيني من هجمات القبائل الرحل التي كانت تحتل النجود الواقعة في الشمال والغرب النائيين . استمر البناء في عهد الاسر المالكة اللاحقة وتم وصل اقسام شتى من السور ، حتى امتد اثناء حكم اسرة مينج (١٣٦٨ - ١٦٤٤) على مسافة ٢٤٠٠ كلم .

(٣) - تحمل اول آلة صينية معروفة لقياس الزلازل ثمانية

(١) - اتسعت رقعة الصين تحت حكم اسرة هان . بعد توحيدها على يد اسرة تشين . كان على الصين حماية تجارة الحرير النامية . الا ان آسيا الوسطى بقيت عرضة لتهديدات القبائل الرحل .

(٢) - بدأ بناء سور الصين العظيم في عهد اسرة تشو في القرنين الرابع والثالث ق . م . كان الغرض منه حماية الشعب

جنوباً وحدود سيتشوان الى الجنوب الغربي .
ومع استمرار التوسع ، قامت دول شبه
مستقلة ، تهتم بالثقافة والدين ، اكثر من
اهتمامها بالسلطة السياسية . وكانت تدفع
الجزية للامبراطور وبلاطه .

الا ان توازن القوى الدقيق ، بين الدول
الخاضعة للامبراطور ، لم يلبث ان انهار .
فبدأت حقبة « الدول المتناحرة » (٤٧٥ - ٢٢١ ق . م) .
انثاء حقبة الصراع العنيف هذه ،

ازدهرت الافكار الفلسفية والاخلاقيات ،
ونشأت طبقة اجتماعية مثقفة جديدة . كان
على رأس الحكماء كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق . م)
الذي ألح في تعاليمه على الواجبات
نحو العائلة والمجتمع ، اكثر مما أهتم
بالأموات . بتأثير من أفكاره ، تدهور نظام
الاقطاع القديم ، ونشأ تقليد من التعاون
الوثيق بين الفكر الفلسفي والعمل السياسي
في الصين .



(٥) - عثر على هذا
الحصان السماوي الذي
يعود الى عهد أسرة هان
في عام ١٩٦٩ في قبر
قرب وو - واي في
مقاطعة كانسو . كان
الحصان الطائر موضوعاً
شائعاً في فن أسرة
الهان .



(٦) - غطاء محور
عجلات عربة يعود الى

حقبة تشو الوسطى (القرن
السابع ق . م) . يزين رأس نمر
مسمار العجلة الذي يشبهها في
موضعها . كانت العربات التي
أخذت منها هذه المحاور
تستعمل على الأرجح لأغراض
احتفالية .

اثواب اليشب المرتخية ، وهو
كل ما بقي من الزوجين
الملكيين . كان من المعتقد ان
لليشب خواص سحرية . لحفظ
كل ما يوضع فيه الى الأبد .
كانت الثياب مصنوعة من ١٢
قطعة لكي تغلف الجسد كلياً .



صخرة على جبل لينج ، في
مقاطعة هوبي . كانت الابواب
الحجرية الضخمة التي تؤدي
الى حجرات الدفن ، موصدة
بحديد مصبوب . وكان حجم
القبرين يبلغ حوالي ١٢,٥ متراً
مربعاً . وجد بعض الرماد تحت

(٤) - دفنت الاميرة تويوان
بهذا الثوب المصنوع من
اليشب . كانت هذه الاميرة
قرينة الامير ليوشنغ الذي مات
قبلها بوقت قصير عام ١١٣
ق . م . اكتشف قبرهما صدفة
بعض الجنود عام ١٩٦٨ داخل

كان هذا العهد ايضا مرحلة تغيير تقني عظيم . فقد حل الحديد محل البرونز . لاسيما في صناعة الاسلحة . واكثر الري المحاصيل الزراعية . وزاد اختراع السرج الصدري فعالية الحصان الى حد كبير . تدريجيا . امتصت الدول المتفوقة عسكريا واقتصاديا الدول الصغرى والضعيفة . حتى لم يبق سوى متنازعين رئيسيين هما اسرة تشو الحاكمة في الجنوب . واسرة تشين الحاكمة

في الغرب . في آخر الامر . أصبح أفراد اسرة تشين حكاما مطلقين ووحيددين للصين . فشهد عام ٢٢١ ق . م توحيد الصين للمرة الاولى في عهد « اول امبراطور » يحكمها وهو شيه هوانج تي (٢٥٩ - ٢١٠ ق . م) (٩) . ابطال الحاكم الجديد نظام التشو السياسي واعاد النظام الاقطاعي القديم . قسّم البلاد الى ٣٦ مقاطعة . أقام عليها موظفين مسؤولين تجاهه مباشرة . كذلك أكمل بناء



٧



٨

(٧) - هذه النسخة عن رسم نافر من عصر اسرة الهان . تبين احد الرماة من الغزاة . على حصانه السريع . لف العنان حول رقبة الحصان . لكي يتسنى له ان يطلق سهمه بحرية . ولما كان يرمى من على صهوة جواده . كان يتمتع بسرعة وحركة فائقتين . كان هؤلاء الغزاة يشكلون خطرا دائما على حكم اسرة الهان .

القرن الخامس الميلادي . وهو يمثل بوذا سكياموني . في وضع يظهره على انه مانح الشجاعة . يجلس بوذا تحت بعض اشجار السال . يحيط به تلامذته واعضاء جماعة بوديساتفا . وبينهم اناندا تلميذه المحبوب . وماهاكاسيايا الذي أصبح قائدا بعد وفاته . فوقه تدور معبودات اناث حاملة اكاليل من الزهر .

للصين بكاملها . من التنازير الأخرى التي اتخذها توحيد اللغة . وبناء نظام طرق دفاعي . لكن الضرائب والعمل الاجباري أدت الى ثورة الفلاحين وسقوط الاسرة الحاكمة .



(٨) - صنعت مدرسة النحاتين البوذيين هذا النصب من المرمر الابيض . في القسم الاول من

(٩) - كان أول من امر بتوحيد الأوزان والمقاييس هو : شيه هوانج تي . أول امبراطور

السور العظيم ودعّمه (٢) ، وهو يمتد اليوم مسافة ٢٤٠٠ كلم ، من مقاطعة كانسو الجنوبية حتى ساحل بكين الشرقي . يذكر التاريخ شيه هوانج تي كامبراطور مستبد وعملي ، أحرق جميع الكتب الموجودة ، مستثنيا فقط المؤلفات التي تعالج مواضيع الزراعة والطب والصيدلة . بعد وفاة الامبراطور الأول ، انهار الكيان السياسي بسرعة في ظل حكم الامبراطور الثاني الضعيف الذي قتل عام ٢٠٧ فانهى بذلك عهد اسرة تشين .

أسرة هان : التربية والثروة

برز من خلال الفوضى التي تلت ذلك ، مرشح ناجح للعرش هو ليو بانج (٢٤٧ - ١٩٥ ق . م) الذي أسس أسرة هان عام ٢٠٦ ق . م (١) . حاولت اسرة هان ، في بادئ الأمر ، ان تحكم على اسس نظام حكم تشين . لكن بعد قرن تقريبا ، تقلص مبدأ الحكم المحلي الوراثي . واصبح المرشحون للحكومة المحلية ينتخبون على أساس امتحانات عامة . وفي عام ١٢٤ ق . م ، انشئت جامعة امبراطورية ، لدراسة الروائع الكونفوشية . كان طلاب هذه الجامعة يتلقون ثقافة تهيوهم للحكم ، وزاد عددهم بسرعة ، حتى بلغ في نهاية حكم تلك الاسرة ٣٠٠٠٠ تقريبا . كذلك تأسست مدارس اقليمية . وقد ساعد اختراع الورق ، على تطور الجهاز الاداري ، وتعزيز التربية . كما حل الحبر والريشة محل ادوات الكتابة الحادة .

انتعشت الفنون بفضل رعاية الدولة لها . وتجلت ثروة اسرة هان المبكرة في فخامة قبورهم (٦) . ويمكن القول اجمالا ان معظم انجازات هذه الحقبة يعكس احتياجات جهاز

بيروقراطي حكومي : فقد طور المهندسون تقنيات الري ، واخترعوا ساعات مائية ، كما اخترعت مزاول شمسية وآلات لقياس الزلازل (٣) .

حتى ذلك التاريخ ، لم يكن للصين اتصال يذكر بالعالم الخارجي ، ولكن رقعة الامبراطورية اتسعت تحت حكم أسرة هان ، ففتحت طرق القوافل ، بما في ذلك طريق الحرير القديمة التي كانت تصل سلسلة من الواحات المحيطة بسفوح التلال في حوض تاريم مع بلاد ما بين النهرين وسوريا . كانت الأفكار تنتقل مع التجارة ، وكان ابرزها الديانة البوذية (٨) التي جيء بها من الهند ، في ظل اسرة هان ، والتي أصبحت بحلول القرن السابع قوة رئيسية في الصين . أصبحت الصين دولة كبرى للمرة الاولى ، في عهد اسرتي تشين وهان . لكن طبقة الموظفين الكبار (ماندارين) ، الذين كانوا ينتخبون بعناية بواسطة امتحانات علمية ، أصبحت فاسدة وانضمت الى كبار ملاكي الارض في قهرهم للفلاحين . فنشبت ثورة عامة عام ٢٢٠ م اطاحت بأسرة هان .

تفكك الامبراطورية

خلال القرون الثلاثة والنصف التالية ، تعاقب على الحكم عدد من الأسر لفترات قصيرة . ولم تتوحد البلاد ثانية حتى عام ٥٨١ م على يد أسرة سوي ، فازداد الرخاء ، وخفضت الضرائب ، الا ان الامبراطور الثاني كان مبذرا ، فرفع الضرائب . وفي عام ٦١٨ م اغتاله أحد ضباطه ، وهو لي شيه مين (الامبراطور لي يوان) الذي أسس أسرة تانج .

كونفوشيوس والكونفوشية

المحفورة على تلك العظام ، تبرز صورة عالم تسيطر عليه ارواح الملوك الموتى (تي) ، والأجداد ، وقوى الطبيعة ، والأرواح الحارسة . بعد ان خلعت اسرة تشو (١٠٣٠ ق . م - ٢٢١ ق . م) اسرة تشونج ، ادعى ملوكها ان اسرتهم مدعوة من السماء لحكم البلاد . وكان من المعتقد ان السماء (تيين) ، أو الجد الأعظم (شانج تي) يحكم الكون ، ويحدد فصول السنة ، ويمنح الخصب للناس والحيوانات ، وينظم

من شأن آلاف العظام المستعملة في العرافة ، والتي بقيت من عهد أسرة شانج (١٦٠٠ ق . م - ١٠٣٠ ق . م) ، ان تهدي علماء الآثار الى شكل الديانات التي كانت شائعة في الصين القديمة . فمن النصوص



لأبناء الارستقراطيين ، وتجوّل بين ولاية وأخرى ، أملا في ان يجد بعض الحكام الذين يطبقون تعاليمه . الا انه لم يلاق سوى عدم الاكتراث ، وفي بعض الاحيان ، سوى العداء . في الحقيقة ، كان الاعتراف بكونفوشيوس كمعلم اخلاقي اثناء حياته مقتصرًا على حلقة صغيرة من تلاميذه . مع الأيام أضيفت الى شخصيته ملامح جعلته المعلم الأقدس .

(٣) - تقديم القربان والثناء على الملك وقوانينه تظهر على هذه الصورة المأخوذة من « شيه تشينج » . احدى الروائع الكونفوشية .

(٤) - هذه الصورة المرسومة على الحرير والتي تعود الى عهد أسرة مينج (١٣٦٨ م - ١٦٤٤ م) تبين كونفوشيوس ، كمعلم مثالي ، أو « ملك غير متوج » . في حياته كان مربيًا

البلاط الشبيهين بهذا الماندارين . بدراسة الروائع الكونفوشية ، ولم تلبث دراسة هذه الآثار أن شاعت بين الطبقات المثقفة ، وصار من الضروري اجتياز امتحان فيها ، قبل مباشرة خدمة البلاد ، أو الحصول على الترقية . أخيرا نشأت طبقة بيروقراطية كبيرة مدربة على الطريقة الكونفوشية حملت ادارة الصين عبر القرون .

(١) - ان هيكل السماء في بكين ، بسقوفه الثلاثة ، ومزاره المقبب بالذهب والأجر الأزرق ، هو من اروع المباني في الصين . هنا كان الامبراطور نفسه يؤدي دور الكاهن الأعظم امام الشعب . وما زال هذا الهيكل نصبًا وطنيا حتى اليوم .

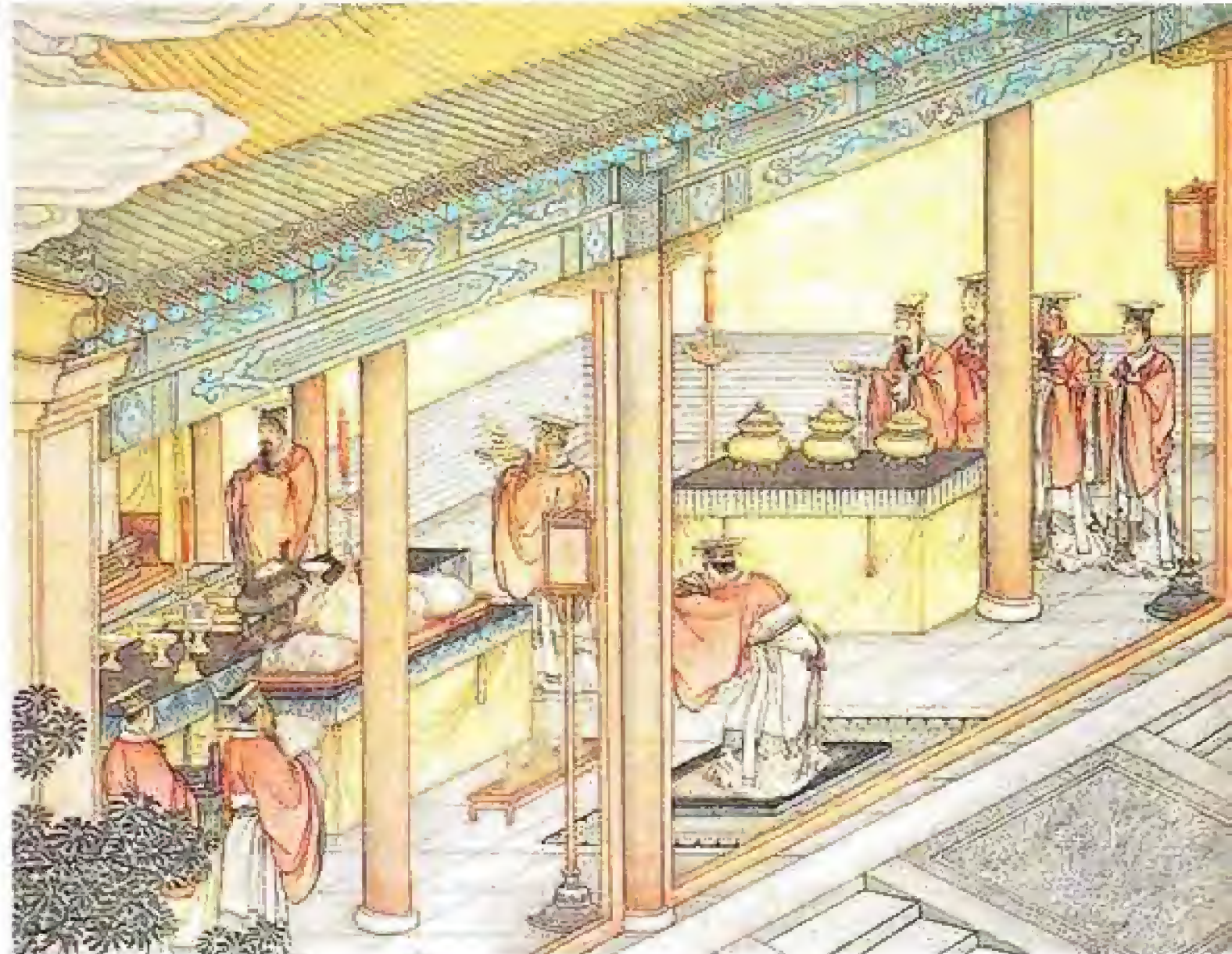
(٢) - كان يعهد ، حتى قبل الحقبة المسيحية ، لموظفي

دورة الموت والتجدد . وكان الامبراطور ايضا كاهنا ، يمارس الطقوس اللازمة لانتظام سير الأحداث الطبيعية .

حياة كونفوشيوس

ثمة وثائق بقيت من عهد أسرة تشو ، يعتقد ان كونفوشيوس قد استشهد ببعض نصوصها ، او ربما يكون قد جمعها ونسقتها . وهي تؤلف جزءا من التراث ومن العقيدة

التقليدية القديمة ، التي تنطوي على القول بالقوتين المكملتين الواحدة للأخرى ، بين ويانج (٦) ، وبواجب احترام السماء والاجداد ، (٨) . ذلك القول الذي ورثه كونفوشيوس . كذلك بشر بعض المعلمين الكونفوشيين المتأخرين ببعض معتقدات ديانة تشو . ان اسم كونفوشيوس هو الصيغة اللاتينية للاسم الصيني كونج وهو المعلم كونج الذي ولد في مدينة لو المستقلة في



(٥) - هذه الصورة الخيالية تمثل ملتقى ثلاث طرق للتفكير في الصين القديمة . قد لا يكون كونفوشيوس (الى اليمين) الذي يظهر هنا كرجل طاعن في السن . وقد لا يكون البوذا (في الوسط) ، وهو الراهب ، قد زار الصين ، الا ان الاخلاق والاسماء الكونفوشية ، والتشوف الطاوي الطبيعي ، والتشف البوذي لعبت جميعها دورا تكوينيا في البنية التقليدية للدين والفن والحياة الاجتماعية في الصين .



شمالي الصين عام ٥٥١ ق . م وتوفي عام ٤٧٩ ق . م . كان كونفوشيوس ينتمي الى عائلة ارسقراطية . لكنه نشأ نشأة فقيرة نسبيا . ولما خاب أمله بالعمل السياسي ، وجد عمله الحقيقي في تدريب الشبان على الخدمة المدنية (٥) .

أسس كونفوشيوس مدرسته الخاصة . وكانت من اولى المدارس من نوعها في الصين . ودون ان يدعي الابتكار علم ما كان

يعتبره أفضل جوانب الحكمة القديمة . مع ان كونفوشيوس كان يدعي انه يحافظ على التراث القديم او يبعثه ، فقد فسر الوثائق بطريقته الخاصة . وصاغ نظاما أخلاقيا ومسلكيا أثر على الصين منذ ذلك التاريخ .

عند بلوغ كونفوشيوس سن الخمسين ، عين في مجلس الدولة . وقد ذهب بعضهم انه كان رئيس وزراء لو ، لكنه لم يكن راضيا عن منصبه . فأخذ يتجول في الولايات



(٦) - في هذه الصورة يحمل بان كو ، وهو شخصية اسطورية ، رمزي بين ويانج اللذين يظهران في التعاليم الكونفوشية .

القديم الأقدس » .

(٨) - كانت الاواني الطقسية البرونزية تستعمل في القرابين والمراسم الدينية . منذ أقدم العصور . هذه الاواني المصقوفة على المذبح او حوله تحمل اشكالا واقنعة لها اشكال تقليدية . تصف نقوشها مراسيم ملكية ودينية . وهي تقاليد أثرت في الفكر الكونفوشي .

(٧) - يمكن رؤية قبر كونفوشيوس حتى يومنا هذا في تشوفو . في مقاطعة شانتونج . امام القبر ، تقوم لوحة حجرية . ومذبح عليه شموع . وأوان للبخور . وتحمل اللوحة نقشا بسيطا : « المعلم



المجاورة بدون ان يلاقي اي نجاح . بل جابهه الكثير من العنت . فعاد الى بلاده خائب الامل . وقضى السنوات الأخيرة من حياته في التعليم والدراسة .

أدب كونفوشيوس وتعاليمه

ينسب الى كونفوشيوس تقليديا تأليف . أو على الأقل . تحرير الروائع الكونفوشية الخمس . وهي « كتاب الشعر » و « كتاب التاريخ » و « كتاب التغيرات » و « اخبار الربيع والخريف » و « كتاب الطقوس » . لكن القليل من هذه الاعمال يمكن نسبته اليه نسبة صادقة . اما تعاليمه الحقيقية فينطوي عليها كتاب « المنتخبات » (لون يو) . وهو كتاب صغير يحتوي على اقواله . كما دونها تلاميذه .

تدعو « المنتخبات » الى حياة من الصلاح (جين) تشمل التهذيب والاخلاص وايثار الغير على النفس . وتطلب من الحكام ان يسعوا وراءها . وان كادت تكون من صفات القديسين . على الملك المثالي ان يحكم بموجب مبدأ الخير والصلاح . وينظم سلوكه بواسطة الطقوس (لي) . لا تقتصر هذه الطقوس على العبادة الدينية . بل تتعلق باللباس وآداب السلوك والاخلاق الشخصية . وقد دعا كونفوشيوس ذلك « سيرة » الرجل الشهم الحقيقي . واعتبرها مثله الأعلى . كذلك دعا الى البر (هيساو) بالوالدين والأجداد . ووضع سلما للعلاقات البشرية : بين الحاكم والمحكوم . وبين الأب والابن . والأخ الأكبر والأصغر . والزوج والزوجة . والصديق وصديقه . كان كونفوشيوس يؤمن بالكائن الأسمى . ولكنه كان يقول بأن خدمة الله

تبقى دون فائدة اذا أهمل المرء خدمة الانسان .

كان كونفوشيوس ومعاصره لاوتسي (٦٠٤ - ٥٣١ ق . م) معلمين . لا مؤسسي ديانات . الا ان مؤلفاتهما المزعومة باتت الاسفار المقدسة للكونفوشية والتاوية . وجزءا من ثقافة الصين بكاملها (٤) . واصل تعاليم كونفوشيوس ووسعها . بعد ذلك بقرن . مينشيو (٣٧٢ - ٢٨٩ ق . م) وهسون تسو . خلال بضعة قرون اصبحت التعاليم الكونفوشية هي العقيدة الرسمية للدولة . واساس تصرفات الطبقات الرسمية (٢) .

دور كونفوشيوس في التاريخ

قبل الحقبة المسيحية . كان الاباطرة يقدمون الاضحيات على قبر كونفوشيوس (٧) . وهي ممارسة استمرت عدة قرون . الا ان كونفوشيوس لم يكن الها له تماثيل ورسوم . بل كان سلفا او حكيما عظيما . يحاط بالاحترام على انه « معلم عشرة آلاف جيل » . مع ذلك . فقد أدت تقاليد تبجيل الأجداد لدى الصينيين . والحاح كونفوشيوس نفسه على البر بالوالدين . الى اعتبار مراسم عبادة الاجداد جزءا من الكونفوشية .

في العصور الحديثة . هوجم كونفوشيوس كاستقراطي اقطاعي كما وصف بأنه اعظم معلمي الصين القديمة . ما زال الصينيون يبجلون الموتى . كما يستمر انفاق الكثير من الوقت والمال . في سبيل حفظ الهياكل (١) والمقابر . وما زالت الصين الحديثة متأثرة الى حد كبير بالكونفوشية على الرغم من التحول عن التقاليد الذي جاءت به المثل الماركسية المطبقة في الصين .

اليابان

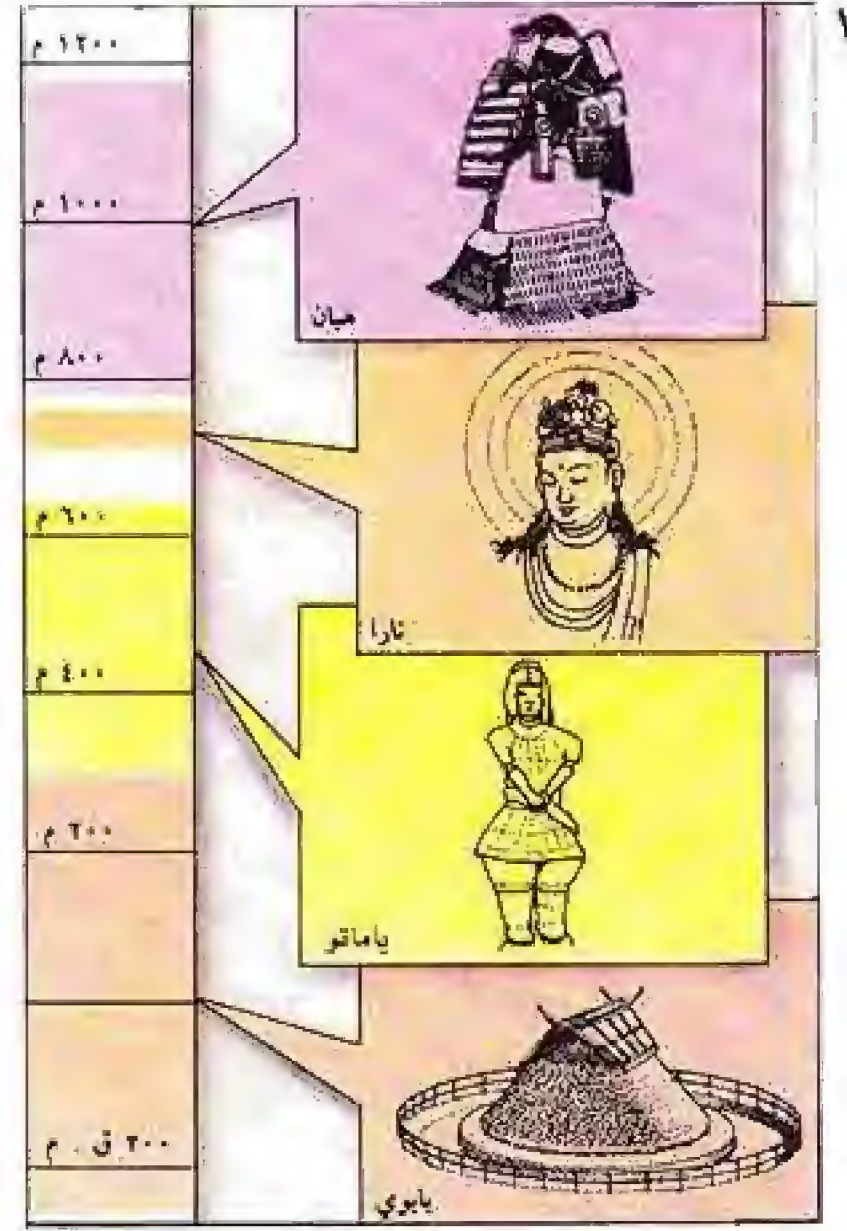
« بين ٢٠٠ ق.م. و ١١٨٥ م. »

أنتجت آلات وأسلحة أشد فعالية ؛ دولاب الخزاف الذي زاد انتاج الأنية الخزفية ؛ لكن ما كان أهم من هذين الأمرين هو ادخال الأرز وطرق ريّه التي جعلت الزراعة المستقرة تحل محل القنص والصيد . قامت الحضارة اليابوية على قرى زراعية .

توحيد اليابان

في القرن الثالث الميلادي ، وصفت وثيقة

منذ بداية القرن الاول الميلادي ، جاءت الى اليابان امواج متتالية من المهاجرين القادمين من البر الاسيوي . عن طريق كوريا في معظم الاحيان . جالبة معها ثلاث مهارات رئيسية : عملية صب الحديد والبرونز التي



الصينية بأنه كان لها « عين » جوفاء يزعمون ان الروح تدخل منها الى الجسم .

(٣) - هذه الصورة الجدارية لمعبود بوذي في هيكل كوندو هوريوجي في نارا رسمت بأسلوب فن التصوير التانجي المعاصر . في القرن السابع أو الثامن . وهي تكشف عن الاصول الهندية للبوذية .

(٣٠٠ م - ٦٣٥ م) . هناك ايضا تماثيل للحيوانات والمباني والمراكب بالاضافة الى تماثيل للرجال والنساء . كانت فكرة تمثال بشري خاص بالقبور . جزءا أصليا من تراث شنتو . اذ عندما أخذ الصناع البوذيون يؤثرون في الفنانين اليابانيين ، فانهم اعطوهم دقة الصنع . وليس الأفكار الاساسية . تختلف تماثيل هانيوا اليابانية عن التماثيل

بدأت اليابان ترسل بعثات رسمية وتلامذة الى الصين في عهد تانج .

(٢) - تمثال هانيوا هو تمثال أجوف من الفخار . مصمم ليكون مقرا للروح . وكثيرا ما كان يقام على روابي الدفن الخاصة بزعماء القبائل . واعضاء الاسرة الامبراطورية . هذا التمثال المصغر لمحارب يلبس درعا يعود الى حقبة ياماتو

(١) - استقرت المسالك التي دخلت منها الثقافة الصينية والديانة البوذية الى اليابان . أثناء القرنين التاسع والعاشر . تعود الاتصالات بين البلدين الى حوالي عام ٤٠٠ م . عندما ارسل ملك بايكتشي . في كوريا . علماء الى اليابان ومعهم كتابات كونفوشية . ثم حمل الكوريون في القرن السادس الى اليابان كتابات ومنحوتات بوذية . وعندها

صينية لتأريخ الأحداث أسمها « واي تشيه » .
اليابان كبلد فيه اكثر من « ١٠٠ جماعة » .
وحدثها الملكة ييميكو . فقد توصل بعض
الزعماء القبليين (أوجي) الى التمتع بسلطة
كافية لتنظيم بناء قبور واسعة . متعددة
الحجرات . وقامت احدى هذه الاسر . مدعية
انها متحدرة من معبود الشمس الانثى . تنزعم
تحالفا ضعيف الروابط بين قبائل قوية .
مع حلول القرن السادس . استطاعت اسرة

ياماتو الامبراطورية هذه (٢) ان تتدخل في
الخلافت الكورية الداخلية . مما أدى الى
الاحتكاك بالأفكار والمهارات الصينية . التي
كانت قد اجتاحت شبه الجزيرة الكورية .
أدى هذا بدوره الى تحول ثان أعمق في
الحياة اليابانية .

لقد دخلت البوذية (٣) والكونفوشية .
والطب وعلم الفلك وهندسة البناء الصينية
والخط الصيني الى اليابان في القرنين



(٥) - قام شوتوكو تايشي
(٥٧١ - ٦٢١) بدراسة عميقة
للبوذية . وأسس بعض الهياكل
الهامة الشبيهة بهوريوجي في
نارا . كذلك حاول ادخال
الافكار الكونفوشية الى الدولة
اليابانية . ونشر تشريعا
حكوميا عام ٦٠٤ . وهو يظهر
في الرسم في الزي الصيني .
والصورة مرسومة كما ترسم
الصور الامبراطورية .

(٤) - قاد ميناموتو يوريتومو
(١١٤٧ - ١١٩٩) الجيوش التي
قضت على سلطة اسرة تايرا عام
١١٨٥ . هذا الصراع الذي خلده
« قصة جينجي » أوحى بعدد
من الآثار الأدبية الهامة . يبدو
هنا . باللباس الرسمي .
يوريتومو الذي أقام عاصمته في
مقاطعته الخاصة . بعيدا عن
العاصمة الامبراطورية .



السادس والسابع (١) ، واخذ العلماء اليابانيون يترددون على الصين (٦) ، وسرعان ما عمل حكام اليابان المركزيون على تنظيم دولتهم ، على غرار بيروقراطية امبراطورية تانج الصينية . وفي عام ٥٩٢ م ، اصبح شوتوكو تايشي (٥) وصيا على العرش ، فبدأ برنامجا خاصا لنشر البوذية ، وبسط سلطة « اسرة ياماتو الامبراطورية » على البلاد .

في عام ٦٤٦ ، اشتملت التدابير ، التي تعرف باصلاحات تايكا ، على وضع حقول الأرض تحت سلطة الامبراطور ، وفرض ضرائب نظامية ، وتوسيع شبكة الموظفين الامبراطوريين . انشئت ايضا في وسط الدولة الجديدة عاصمة على الطراز الصيني ، اسمها هايجو (نارا) ، بقصورها وهياكلها وشوارعها المستقيمة العريضة الرابطة بين المباني العامة . الا ان النظام الصيني الخاص



(٦) - تبين دروع يابانية من حقبة كاماكورا الفن المقترن بالحقبة الهايانية المتأخرة ، وبظهور الطبقة العسكرية الاقليمية ، التي كانت تتطلب مهارات حرفية كبيرة . كثيرا ما كان المحاربون يهدون دروعا فاخرة الى المعابد الهامة . وقد أعطت مثلهم الشخصية أهمية كبرى لمبادئ الكرامة والباطة .



(٧) - تعود هذه النسخة الخطية لنص سوترا (سفر من الأسفار البوذية) الى الحقبة الهايانية المتأخرة . كان من المعتقد أن القيام بنسخ أجزاء السوترا باليد ، هو إحدى الوسائل المؤدية الى الولادة الثانية في الفردوس . كان ذلك أحد مظاهر العبادة البوذية (عبادة الجودو) ، التي نشأت في أواخر القرن الثاني عشر ، وألخت كثيرا على قيمة حياة الآخرة .

بامتحانات الخدمة المدنية لم يقتبس قط .
وبقيت الأسر القوية في المقاطعات مستقلة
الى حد كبير . وفشل تطبيق نظام التعبئة
العسكرية . مع ذلك . جاءت قوانين عام ٧٠٢
مفصلة وشاملة .

ظهور أسرة فوجيوارا

بعد خمسين سنة من الادارة المستقرة .
تردّت أوضاع البلاط . فظهرت مخاطر جديدة
أخذت تهدد السلطة الامبراطورية . فأفراد
أسرة فوجيوارا الذين كانوا طيلة القرون
الأولى موظفين حكوميين مخلصين توصلوا
الآن . بتزويج بناتهم الى الباطرة . وبحبك
المؤامرات البارعة . الى السيطرة على
البلاط . وفي عام ٨٥٧ أصبح فوجيوارا
يوشيفوسا كبير الوزراء . بعد ذلك بقليل .
اعتلى حفيده الطفل عرش الامبراطورية .
وتولى هو منصب الوصي على العرش .

كانت العاصمة . هايان . مسرحا
لإنجازات ثقافية بارزة . فبينما كانت أهم
فنون هايجو (نارا) متأثرة بأسلوب تانج
الصيني . قطعت المملكة الجديدة روابطها
مع البر الآسيوي . ووطرت أساليب فنية تعبر
عن الاحاسيس اليابانية الصرف . فغدا فن
العمارة أقل توهجا وأكثر عذوبة ورقة .
وأخذت اللوائف المصورة تمثل موضوعات
تاريخية وأدبية . وحل خط صوتي جديد
محل الأحرف الصينية . ففتح المجال
بذلك لأشكال مرنة من التعبير (٧) . في
تلك الأثناء . ألفت سيدة . من سيدات
بلاط العاصمة هايان . رواية « قصة
جينجي » (١٠١٠ - ١٠٢٠) . وهي أشهر رواية
يابانية .

العائلات المحاربة وحياة البلاط

رافق تضاؤل سلطة الامبراطور ظهور
عائلات اقليمية تستمد قوتها من مصادر
جديدة . أخذ هؤلاء الأسياد يعززون
جيوشهم . لكي يتمكنوا من المحافظة على
القانون والنظام . ويحاربوا سكان الشمال
الاصليين . وهكذا أصبحوا مستقلين أكثر فأكثر
عن سلطة الامبراطور . كانت مزارعهم
المستقلة (شوين) تدفع مبالغ ضئيلة
للعاصمة . لكنها شجعت التطور الاقتصادي
لمقاطعات اخرى .

في القرن الحادي عشر . أدركت بطانة
الامبراطور مدى سطوة هذه الطبقة الجديدة .
فدعت اسر تايرا وميناموتو القوية لمساعدتها
على قمع الثورات الخطيرة . كانت اسرة
فوجيوارا تأمل في السيطرة حتى على هؤلاء
المحاربين الأشداء (٦) . الا ان افراد أسرة
تايرا لم يلبثوا ان حلوا محلها كأسياد نافذين
في البلاط والعرش . استعمل تايرا كيوموري
القوة والمكيدة للتغلب على منافسيه . وفي
عام ١١٨٠ نصب حفيده امبراطورا . بعد
عشرين سنة من الحكم . بدت اسرة تايرا
وكانها لا منازع لها في العاصمة . الا ان القوة
العسكرية كانت قد أصبحت آنذاك العامل
الحاسم الوحيد في السياسة . وهكذا ثارت
جماعة ميناموتو على الأسياد الجدد في هايان
كيو .

بين عامي ١١٨٠ و ١١٨٥ اشتبكت هاتان
العائلتان وحلفاؤهما في حرب اهلية شاملة
أدت . في عام ١١٨٤ . الى تدمير قوات اسرة
تايرا البرية . وبعد ذلك بسنة واحدة الى
تدمير اسطولها ايضا . فاستتبّت السيادة على
اليابان آنذاك لعائلة ميناموتو (٤) .

نشأة العالم المسيحي الغربي الوسيط

السادس تبدو بحاجة الى التنصير ثانية . جاء النشاط التبشيري من روما ، على أثر نمو الرهبنة البندكتية وانتعاش البابوية . كان القديس بندكتوس (٤٨٠ - ٥٤٧ ؟) يعيش في ايطاليا عندما كان يحكمها القوط الشرقيون الاريوسيون . في حوالي عام ٥٠٠ . بدأ بندكتوس حياة تنسك في سوبياكو داعيا الى ممارسة الطقوس الدينية ، وحياة اجتماعية قائمة على نكران معتدل للذات .

كان غزاة الشمال الذين قضوا على الامبراطوريات الغربية في القرنين الخامس والسادس وثنيين ، أو أريوسيين ينكرون فكرة وحدة الآب والابن ويرفضون بعنف المسيحية الرومانية . كانت أوروبا اذن عند حلول القرن



٣ اديرة كلتيه وتأثيرها
+ اديرة التيجلو - سكسونية وتأثيرها

بتولتها وایمانها . يبدو ماتمها الاحتفالي . في لوحة لفيثوريو كارباتشيو (١٤٩٠) . اكتسب تقليد تكريم الشهداء المحليين أهمية متزايدة . خلال حقبة اعادة التنصير . وفي تلك الحقبة ارتفع عدد رفقاء القديسة أورسولا المستشهدين معها الى ١١٠٠ .

(٣) - يعتبر صليب روثيريل ، الذي يحتمل انه كان صليبا يستعمل في القدس أو للتبشير ، أجمل نصب من أنصاب الفن النورثميري . خلال النهضة الثقافية البريطانية في القرن السابع .

(٤) - قصة مصرع القديسة أورسولا هي أشهر روايات الاستشهاد في فترة الغزو الشمالي لأوروبا . فقد قتلت القديسة مع رفقاتها على يد الهون (المغول) في كولونيا عام ٤٥٤ . وهي تصر على

البلدان التي أصبحت أكثرها مسيحية بحلول عام ٦٠٠
+ البطريركيات
الامبراطورية الرومانية المقدسة

انشاء امبراطوريتهم . التي امتدت من سوريا الى اسبانيا . وضمت ثلاثا من البطريركيات الخمس الأصلية . أي انطاكية والقدس والاسكندرية .

(٢) - بقيت المسيحية والتعليم الكلاسيكي قائمين في ايرلندا بعد الغزوات الشمالية لأوروبا . وقد أسس المرسلون القادمون منها عددا من الأديرة الأوروبية . كما ان الانجلو - سكون الذين كانوا قد تنصروا على يدهم ، أسسوا عددا آخر .

(١) - بلغت المسيحية في أواخر عهد العالم الروماني أوسع انتشار لها حوالي عام ٦٠٠ . فقد استعاد جوستينيان في أواسط القرن السادس شمال افريقيا وروما ورافينا من يد القوط الأريوسيين . وفي الشمال كان قد تم تنصير الارلنديين . حوالي عام ٤٣٠ والفرنك عام ٤٩٦ . والبورغونيين عام ٥١٦ . والقوط الغربيين عام ٥٨٩ . كما بدأت الارساليات الانجلو - سكسونية عملها التبشيري عام ٥٩٧ . الا أن هذه الوحدة المسيحية المؤقتة . في حوض المتوسط . استمرت فقط حتى أنجز العرب في القرن السابع



وحوالي عام ٥٢٩ ، أسس دير مونتني كاسينو الذي أصبح أحد معاقل المسيحية والمدنية . في أوائل العصور الوسطى في أوروبا . وقد وضع « نظاما » لاتباعه من الرهبان ، يتصف بنزعة انسانية ، ويضمن استمرارية أفكاره ومؤسسته (٨) .

البابوية الروحية والزمنية

كان مؤسس بابوية العصور الوسطى هو

البابا غريغوريوس الكبير (٥٤٠ ؟ - ٦٠٤) (٧) ، الذي كان نصيرا حازما وداعية للحياة الرهبانية . جلس غريغوريوس على كرسي البابوية عام ٥٩٠ ، حين كانت سلطات حكام ايطاليا البيزنطيين تتدهور بسرعة . وفيما كان اللومبارديون الاريسيون يهددون بتحويل البابوية الى مجرد اسقفية لومباردية . أشرف غريغوريوس بنفسه على ادارة املاك الكنيسة ، في ايطاليا الوسطى



القرن التاسع . كانت توضع بشكل بارز ومنمق ، كما نرى في المذبح الكبير لكنيسة القديس أمبروسيو في ميلانو . التي زخرفها فولفينيوس الألماني حوالي عام ٨٣٥ .

(٥) - بشكل مدخل دير لورش في هيسن بالمانيا الغربية شاهدا على برنامج شارلمان لبناء كنائس جديدة .

(٦) - أصبحت الذخائر المقدسة جزءا رئيسيا من محتويات كل كنيسة . في



والجنوبية . ونظم الدفاع عن روما . وعين
حكام المدن الإيطالية الرئيسية . كما وقع في
٥٩٢ - ٥٩٣ صلحا مع اللومبارديين . دون
الرجوع الى الامبراطور الشرقي . منذ ذلك
الحين . أصبحت البابوية في آن واحد سلطة
زمنية وروحية في الغرب .

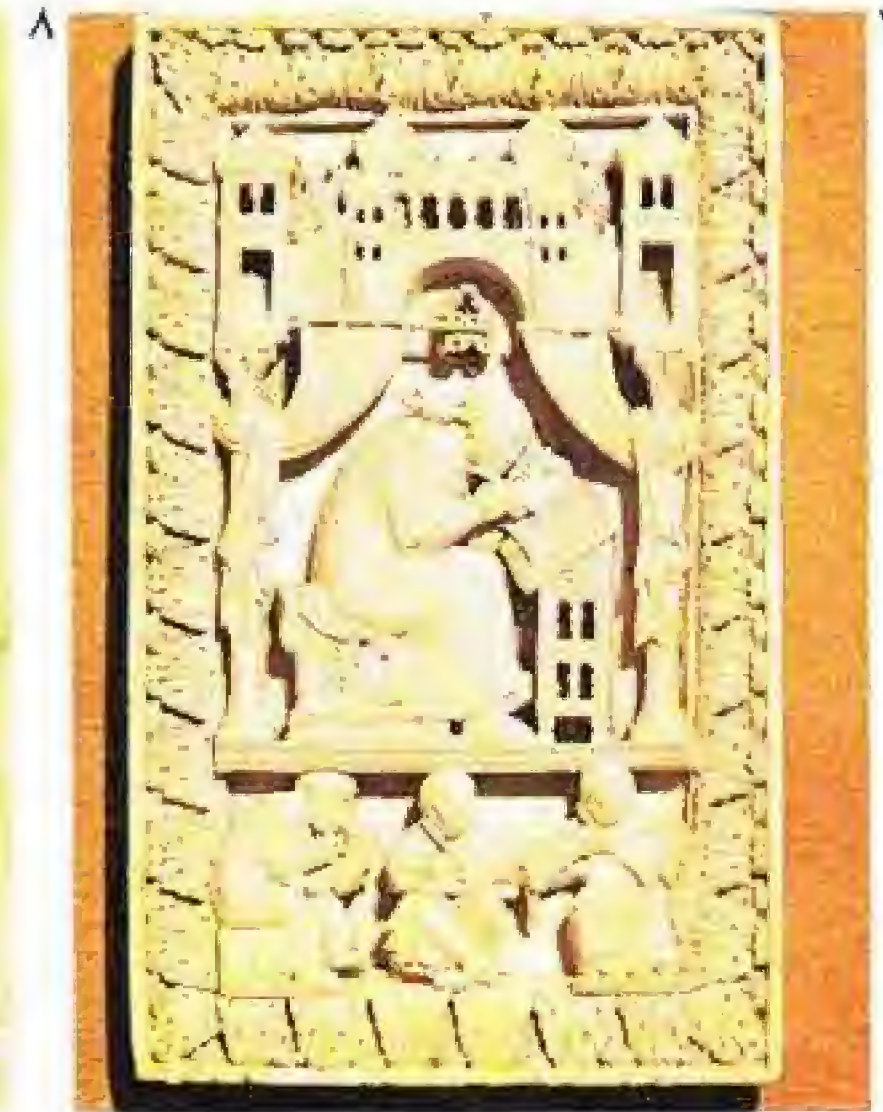
كان القرنك أول الغزاة الشماليين الذين
دخلوا في الكنيسة المسيحية . وذلك عندما
جرى تعميد مؤسس المملكة الميروفنجية .

الملك كلوفيس (٤٦٥ - ٥١١) في عام ٤٩٧
على الأرجح .

أرسل غريغوريوس راهبا اسمه أغسطين
الى انجلترا عام ٥٩٧ . بصحبة رهبان من
ديره الروماني الخاص . ليبدأ عملية تنصير
بريطانيا من جديد . الا ان بريطانيا عادت
الى المسيحية من بابين مختلفين :
فالارلنديون . الذين حافظوا على دينهم
المسيحي . بعد بعثة القديس باتريك عام

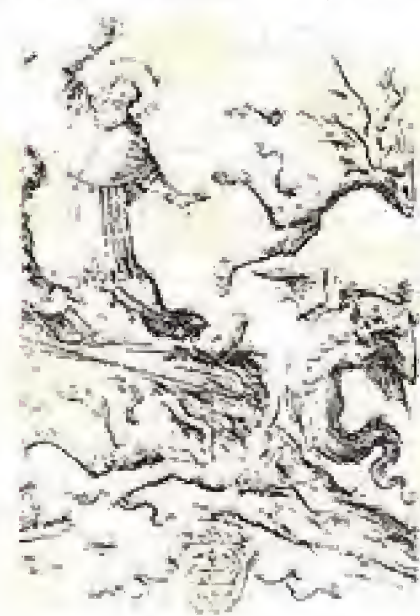


الطقوس الكنسية . تبدو هنا
ثلاثة الكنائس التي كُرست لهذه
المثل العليا .



(١٠) - يقال ان القديس
باتريك . وهو بريطاني
روماني من كمبريا . قد نصر
ارلندا في الفترة بين عامي ٤٣٠
و ٤٦١ . كانت ارلندا البلد
الوحيد الذي نجا من غزوات
القرنين الخامس والسادس .
بقيت المسيحية فيها سالمة . مع
العديد من المخطوطات التي
كانت تحتوي على الأدب
اللاتيني الديني والمسيحي .
كان الاندفاع التبشيري
الارلندي عاملا رئيسيا في اعادة
تثقيف أوروبا .

(٩) - شهد دير كلوني بداية
الاصلاح القائم على اساس
النظام البندكتي . والذي كان
يلج على التقيد التام
« بالنظام » ويشيد بفخامة



بالممتلكات البابوية . كما
انه . بإرساله أغسطين الى
انجلترا عام ٥٩٧ . ضمن تطلع
الكنيسة في بريطانيا نحو
روما . وليس نحو بيزنطة . أخذ
الترتيل الغريغوري اسمه من
اسم هذا البابا .

(٨) - جلس ليون التاسع على
كرسي البابوية من عام ١٠٤٩
حتى عام ١٠٥٤ . كان من انصار
الاصلاح الكلوني المتحمسين .
وشرع بتحسين مستويات
البابوية .

(٧) - انتخب غريغوريوس
الأول (في الوسط) لمنصب
البابوية . في فترة كانت روما
معرضة فيها لضغط اللومبارديين
الأريوسيين . الا أنه تمكن .
بفضل نشاطه وتفانيه وفهمه
للادارة . من اعطاء الكنيسة
الرومانية مكانة لم تتمتع بها من
قبل . كذلك وطّد مبدأ السلطة
البابوية في الشؤون الزمنية .
بمبادراته الدبلوماسية من
جهة . وبفرض سلطته من جهة
أخرى على « ميراث بطرس » .
الذي اتسع فيما بعد . وعرف

٤٤٤ (١٠) . كانوا قد أرسلوا القديس كولومبا (٥٢٣ - ٥٩٧) الى اسكتلندا حوالى عام ٥٦٣ ليؤسس دير أيونا وينصر البكتيين . وفي حوالى عام ٦٣٥ . توجه القديس ايدان من أيونا الى لنديسفارن لينصر الانجليز في نورثمبريا . هناك التقى الترانان الروماني والارلندي . وكانت النتيجة أرقى وأزهى ثقافة عرفها القرنان السابع والثامن في أوروبا (٣) .

التأثير الانجليزي الارلندي

توغل الارلنديون أيضا في أعماق القارة الأوروبية (٢) . ففي عام ٥٩٠ . أسس راهب آخر اسمه كولومبان (٥٤٠ - ٦١٥) أديرة في اناجراتوم ولوكساي . في جبال الفوج بفرنسا . وعندما طرد من بورجونيا . لانتقاده تصرفات حاشية البلاط . نزح الى ايطاليا ليؤسس دير بويو . الذي أسهم اسهاما كبيرا في تنصير اللومبارديين .

جاء تنصير فريزيا والمانيا . انطلاقا من بريطانيا . في القرن الثامن . كان رسول الفريزيين ويلبرورد (٦٥٨ ؟ - ٧٣٩) . الذي كان من اصل نورثمبري والتحق بدير في ارلندة . واصل بونيفاسيوس (٦٨٠ ؟ - ٧٥٤) . وهو انجليزي . رسالة البعثة التبشيرية في فريزيا عام ٧١٦ . ثم انتدبه غريغوريوس الثاني لتنصير الألمان في عام ٧١٩ . وهو الذي وضع أسس الكنيسة الكارولنجية . وقد قتل في فريزيا عام ٧٥٤ (٤) .

جرى تنصير القوط الغربيين الاريوسيين في اسبانيا . في مجمع طليطلة الكنسي الثالث عام ٥٨٩ . في أوروبا الشمالية . تأخرت عملية التنصير أكثر من ذلك . فقد

تنصرت السويد والدنمرك مؤقتا على يد القديس أنسكار في القرن التاسع . وبولونيا والمجر في أواخر القرن العاشر . والنروج بحد السيف . على يد القديس أولاف . في أوائل القرن الحادي عشر .

قبل ذلك بمدة . كان امبراطور الفرنك شارلمان (٧٤٢ - ٨١٤) قد استقدم مبشرين انجليز وارلنديين . لوضع أسس المسيحية الكارولنجية . التي دعمها ببرنامج نشيط لبناء الكنائس (٥) . كذلك شهد آخر القرن الثامن تحالفا بين البابا والأباطرة الفرنكيين ضد اللومبارديين . كما شهد بروز فكرة « الامبراطورية الرومانية المقدسة » بتتويج شارلمان سنة ٨٠٠ لهذه الامبراطورية . رافق نشوء « الامبراطورية الرومانية المقدسة » تدهور ملحوظ في المستويات الكنسية . فقد انتشرت السيمونية (اي شراء المناصب الكهنوتية) . واغتنت الأديرة . واصبحت متساهلة مع اعضائها . وأصبحت البابوية نفسها بالفساد .

اصلاح الكنيسة

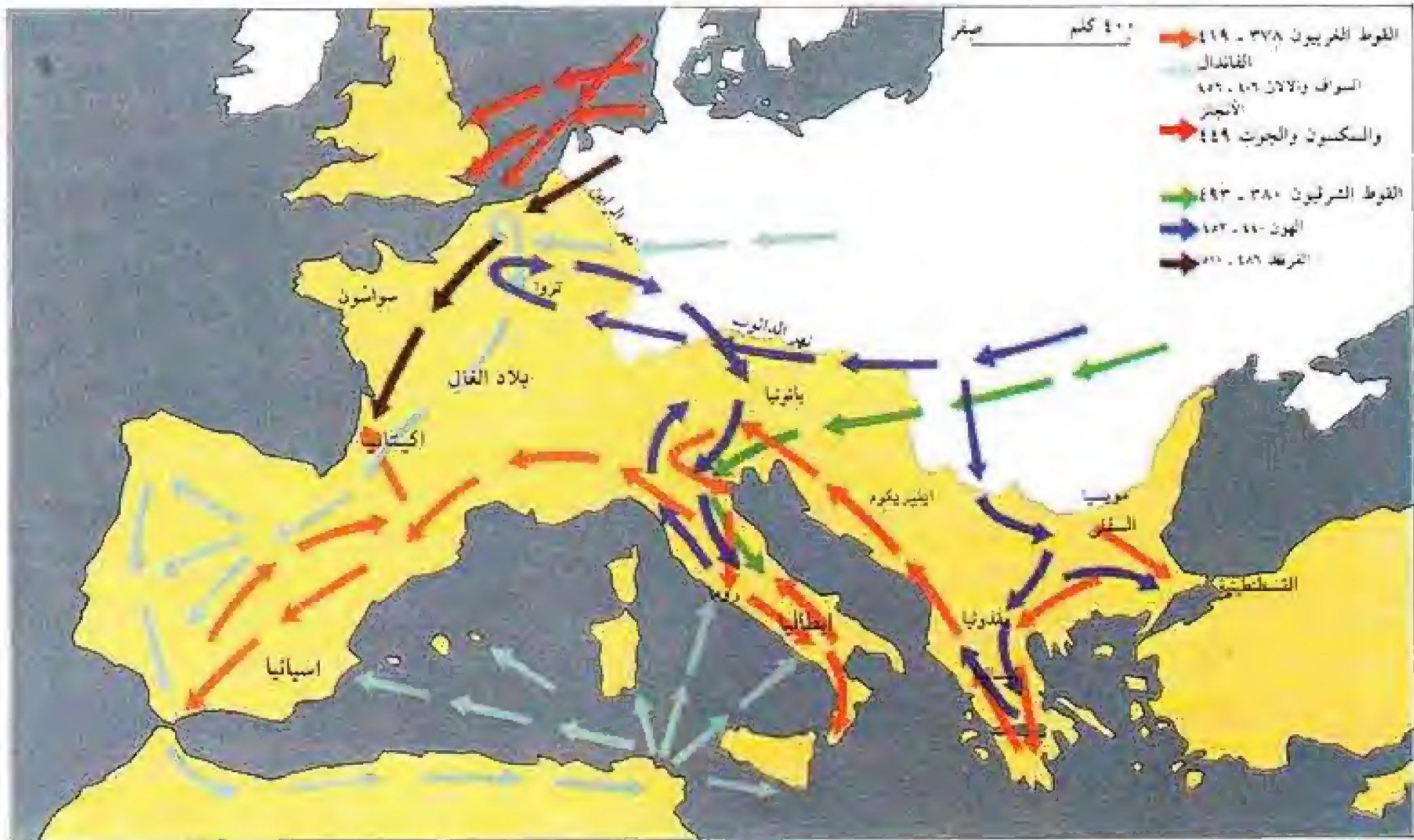
بدأت عملية اصلاح الكنيسة في دير كلوني . وهو دير بندكتي في بورجونيا (٩) . فقد جرى في هذا الدير . تحت أمره رئيسه أودو . تطبيق النظام البندكتي بحزم ودقة . ثم تسربت روح الاصلاح الكلوني الى جميع جوانب الكنيسة المسيحية الغربية . وبلغت ذروتها في عهد البابا ليون التاسع (٨) وغريغوريوس السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) . ولكن في عام ١٠٥٤ . وهو آخر عام من ولاية ليون التاسع . تم الانفصال النهائي بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية .

غزوات الشعوب الجرمانية

شعوب جرمانية غازية ، فهزم عدد منها ، واستقرت ، كشعوب مستوطنة مسالمة الى حد ما ، لكنها بقيت مسلحة . فدعا الرومان ايضا هذه الشعوب بالبرابرة .

في القرن الرابع . تعرضت الحدود الممتدة من بحر الشمال حتى البحر الأسود ، مروراً بنهري الراين والدانوب لضغط جديد ، من قبل موجة أخرى من الشعوب الجرمانية المعتدية . ضمت الفرنك والسكسون

كانت كلمة « برابرة » عبارة تحقير ، استعملها الرومان لوصف الشعوب التي لم تكن تنتمي الى حضارة اليونان والرومان ، في حوض البحر المتوسط . ومنذ عهد قيصر ، كانت تهدد حدود الامبراطورية الرومانية



(١) - بعد انهيار حدود الراين والدانوب ، أخذ الغزاة الشماليون يجولون بطريقة عشوائية ، داخل حدود الامبراطورية الغربية . ومع أنهم لم يكونوا يعملون بصورة منسقة ، فقد كانت لهم أربعة أهداف ، أولها القسطنطينية ومقدونيا وتراقيا ، وثانيها إيطاليا ، وثالثها بلاد الغال الشمالية الشرقية ، ورابعها أفريقيا الشمالية التي كانت مصدر الحبوب لأوروبا الغربية . وبدون خطة هجومية

- ١ - الجرث
- ٢ - الأنجيز
- ٣ - السكسون
- ٤ - الفرنك
- ٥ - البورجوند
- ٦ - الثورنجيون
- ٧ - السواك
- ٨ - الفاستال
- ٩ - القوط الشرقيون
- ١٠ - القوط الغربيون
- ١١ - الجيبيون
- ١٢ - الالان
- ١٣ - الهون



والبورجون والقوط الغربيين والقوط الشرقيين والسواف والآلان والفاندال والجيبديين (٢) . كانت مجتمعاتهم تقوم على القبيلة . وكانت قبائلهم صغيرة العدد نسبيا ، تتراوح بين ٢٥٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ نسمة . كان جميع الرجال الأكفيا جسديا جنودا ، وكان يتولى العبيد الزراعة . أثبتت جيوشهم المدعومة بالفرسان الأقوياء ، انها اصلب من أن تنال منها أقوى الفيالق الرومانية . كان هؤلاء الغزاة الشماليون

قد اعتنقوا المذهب الأريوسي الهرطوقي ، البغيض في نظر المسيحية الرسمية ، لأن أتباعه كانوا لا يعتبرون المسيح مساويا لله الأب . تدفقت هذه الشعوب غربا ، في أواخر القرن الرابع ، نتيجة التكاثر السكاني ، ونقص الغذاء لديها ، بالإضافة الى وصول الهون الذين كانوا من القبائل المغولية الرحل ، القادمة من آسيا الوسطى للنهب والسطو ، لا للاستيطان .



الفاندال لأفريقيا ، الذي أدى مع حلول عام ٤٢٩ الى محاصرة روما ، وسيطرة الفاندال على غربي المتوسط .

(٢) - كانت مواقع القبائل الشمالية الغازية المتمركزة الى الشرق من الحدود الرومانية على طول نهري الراين والدانوب ، تتغير باستمرار ، فبسبب قدوم شعوب محاربة

ممالك القوط الغربيين
ممالك الفرنجة
ممالك البورجونيين
ممالك القوط الشرقيين
ممالك الفاندال

سابقة ، سقطت قلاع الامبراطورية ، الواحدة تلو الأخرى . وكان الاندفاع نحو الغرب يشتد كلما قدمت قبائل جديدة من الشرق ، لاسيما قبائل الهون . كانت الضربة القاصمة للامبراطورية غزو



ب

ت

جديدة الى أوروبا ، تدفعها غربا ، بلا هوادة ، من آسيا الوسطى . عوامل الجوع وحياة البداوة الخشنة ، كان الضغط يستمر على حدود روما الشمالية الشرقية

التي كان الدفاع عنها يضعف تدريجيا حتى توصل الهون الى اجتياح ايطاليا عام ٤٥٣ ،

(٣) - أسس الغزاة الشماليون تدريجيا ممالك مستقلة في غرب أوروبا . وجدت المجتمعات الرومانية والتوتونية ، جنبا الى جنب ، في توازن قلق . وكانت قوة الغزاة العسكرية هي التي وفرت الطاقة الدفاعية التي هزمت الهون عام ٤٥٣ . بقي الهون رُحلا ، ولم يقيموا مملكة دائمة قط . ممالك الغزاة هي التي رسمت الحدود القومية .

(٤) - كانت صناعة المعادن هي أعظم إنجاز لفن الغزاة الشماليين ، لكن هذا الصنوع المذهب والمفضض ، المصنوع في بلاد فارس الساسانية في القرن السادس (ب) ، يعادل أية من المصنوعات المعدنية الرومانية الشرقية المعاصرة . في الغرب ، كان الانتاج يتراوح بين نقش التاج القوطي الغربي التوتوني الصارم (أ) ، وبين الجوهرة المدعوة جوهرة ألفريد الانجلوسكسونية (ت) ، وهي مصنوعة من المينا الأوروبي المقطع ، ولها ملامح كلاسيكية ، وفيها صورة للربيع .

الامبراطورية الرومانية الشرقية

كان الغزاة يهددون الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) . على جميع الجبهات الأوروبية (١) .

بعد وفاة ثيودوسيوس الكبير عام ٣٩٥ ، تحرك القوط الغربيون في ميسيا الدنيا . بقيادة ألياريك (٣٧٠ ؟ - ٤١٠) . إلا أن الامبراطور الشرقي (البيزنطي) أركاديوس أقنعهم بالتوجه غربا ، منصبا ألياريك « زعيما

على الجنود » في ايلييريكوم (المنطقة الساحلية من يوغوسلافيا الحالية) . فقد ألياريك ، بوصفه قائدا رومانيا ، هجوما جرمانيا على ايطاليا في ٤٠١ - ٤٠٣ . ثم عام ٤٠٨ ، وفي عام ٤١٠ استولى على روما .

في عام ٤٠٦ ، عبرت جيوش كبيرة ، من قبائل الفاندال والسواف والآلان ، نهر الراين ، نحو بلاد الغال التي كانت تعاني من نزاعات داخلية . في الادارة الامبراطورية . كذلك



(٧) - الرسم النافر الجداري الذي أنجزه روفائيل . بعنوان « صد أتيل » (١٥١٣) يمثل أتيل وأتباعه من الهون . وقد جابههم البابا لاوون الأول الذي لم يحمه - حسب الروايات - سوى تدخل خارق من القديسين بطرس وبولس . بعد أن صد أتيل من قبل الرومان والقوط الغربيين . قرب ثروا عام ٤٥٢ ، ومن قبل البابا في ايطاليا ، انسحب عائدا الى بانونيا . وتوفي ليلة عرسه . نتيجة انفجار احد شرايينه . هذه الأحداث الأربعة أنقذت تراث الحضارة الرومانية من الدمار .

(٦) - حين اعتنقت القبائل الجرمانية المسيحية . كان المذهب الذي اعتنقته هو الاربوسية . التي كانت تنكر مساواة المسيح لله الأب . عندما أسس تيوديريك عاصمة مملكته في رافينا . بنى كاتدرائية ويينا للمعمودية ، على المذهب الاربوسي . تظهر الفسيفساء . في ذلك البيت . الطريقة التقليدية لمعمودية المسيح . مع صف من الرسل . ويدل وجود المباني الاربوسية والكاثوليكية . جنباً الى جنب . في المدينة نفسها . على روح التعايش التي كانت سائدة في ايطاليا في ظل حكم تيوديريك .

(٥) - أثناء هجوم قبائل الفرنك على بلاد الغال . في القرن الخامس . كان جميع رجالها الأحرار محاربين . كان الجيش الفرنكي مؤلفا . بالدرجة الأولى من المشاة . لا من الفرسان ، وكان اشهر اسلحتهم الفأس المسماة ، فرنيسكا (١) مع أنهم كانوا يحاربون أيضا بسيف حاد (٢) . وبالأقواس والأسهم (٣) . ولما كانت المعادن نادرة في ذلك الحين . كان الترس المستدير (٤) يصنع من الخشب المغلف بالجلد المشدود . كان المحاربون يلبسون الصدريات الضيقة (٥) والخوذ المزينة بالريش (٦) .

أدت هجمات مماثلة ، مقرونة بالصراع الداخلي ، الى انسحاب آخر فيلق روماني من بريطانيا فتسنى بذلك لقبائل الانجلز والساكسون والجات أن تغزو البلاد . ثم اجتاحت الفاندال بلاد الغال وتقدموا نحو اسبانيا عام ٤٥٨ . وفي ٤٢٩ وجهوا بقيادة جيسريك (٣٩٠ - ٤٧٧) أعنف ضربة للإمبراطورية الغربية ، بغزوهم لأفريقيا .

أول الأمبراطوريات الجرمانية

في عام ٤١٦ ، أسس البورجونيون في بلاد الغال أول الممالك الجرمانية . داخل حدود الامبراطورية القديمة ، وانتشر الفرنك في أنحاء فرنسا الشمالية ، فكانت النتيجة أن أخذ شكل أوروبا الغربية الجديد . (أي بعد الحقبة الرومانية) يبرز بالتدريج . الا ان أي أمل في السلام تبدد عندما هب الهون ، الذين كانوا مستقرين طيلة قرن تقريبا ، في المنطقة المعروفة اليوم باسم هنجاريا ، وأخذوا يهددون الشرق والغرب معا . بتحالفهم مع الشعوب الجرمانية المحكومة سابقا . وفي عام ٤٥٠ عندما رفضت الامبراطورية دفع أية كمية اضافية من الذهب للهون ، لقاء وقف تهديدهم ، ما كان من هؤلاء الا أن غزوا بلاد الغال ، بقيادة أتिला (٤٠٦ - ٤٥٣) .

كان الهون بخيولهم القوية وطاقة جلدتهم الخارقة ، يشكلون قوة لا تقهر بسهولة ، ولم يتوقفوا الا عند مدينة تروا عام ٤٥٢ . عندما وُحِد الفرنجة والقوط الغربيون قواتهم مع الرومان . عندها تحول أتिला جنوبا وهدد روما ، ولكنه مات عام ٤٥٣ (٧) .

وطد الفرنك سلطتهم تدريجيا على بلاد الغال . وفي عهد كلوفيس الأول (٤٦٥ - ٥١١)

أقاموا فيها دولة موحدة تدين بالدين المسيحي الرسمي (مجمع أورليان ٥١١) . بعد خلع أغسطسولوس ، آخر الأباطرة الغربيين عام ٤٧٦ ، أصبح الجندي الجرمانى أودواسر (توفي ٤٩٣) حاكما على إيطاليا . وفي تلك الاثناء ، كان القوط الشرقيون قد غادروا منطقة البحر الأسود ودخلوا ، بعد سقوط الهون ، منطقة بانونيا ومنها انتقلوا الى أيليريكوم . وبقيادة تيوديريك قاموا منذ عام ٤٧١ بنهب مقدونيا وبيساليا . وفي عام ٤٨٧ زحفوا على القسطنطينية . هناك دفع الامبراطور زينون لملكهم تيوديريك ثمن ارتداده عن القسطنطينية . وأقنعه بالتوجه نحو إيطاليا ، وخلع أودواسر . هزم تيوديريك أودواسر على نهر أدا عام ٤٩٠ . وبعد حصار رافينا لمدة ثلاث سنوات ، استسلم أودواسر فقتله تيوديريك غيلة . وأسس مملكة القوط الشرقية في إيطاليا (٦) .

الامبراطورية الشرقية

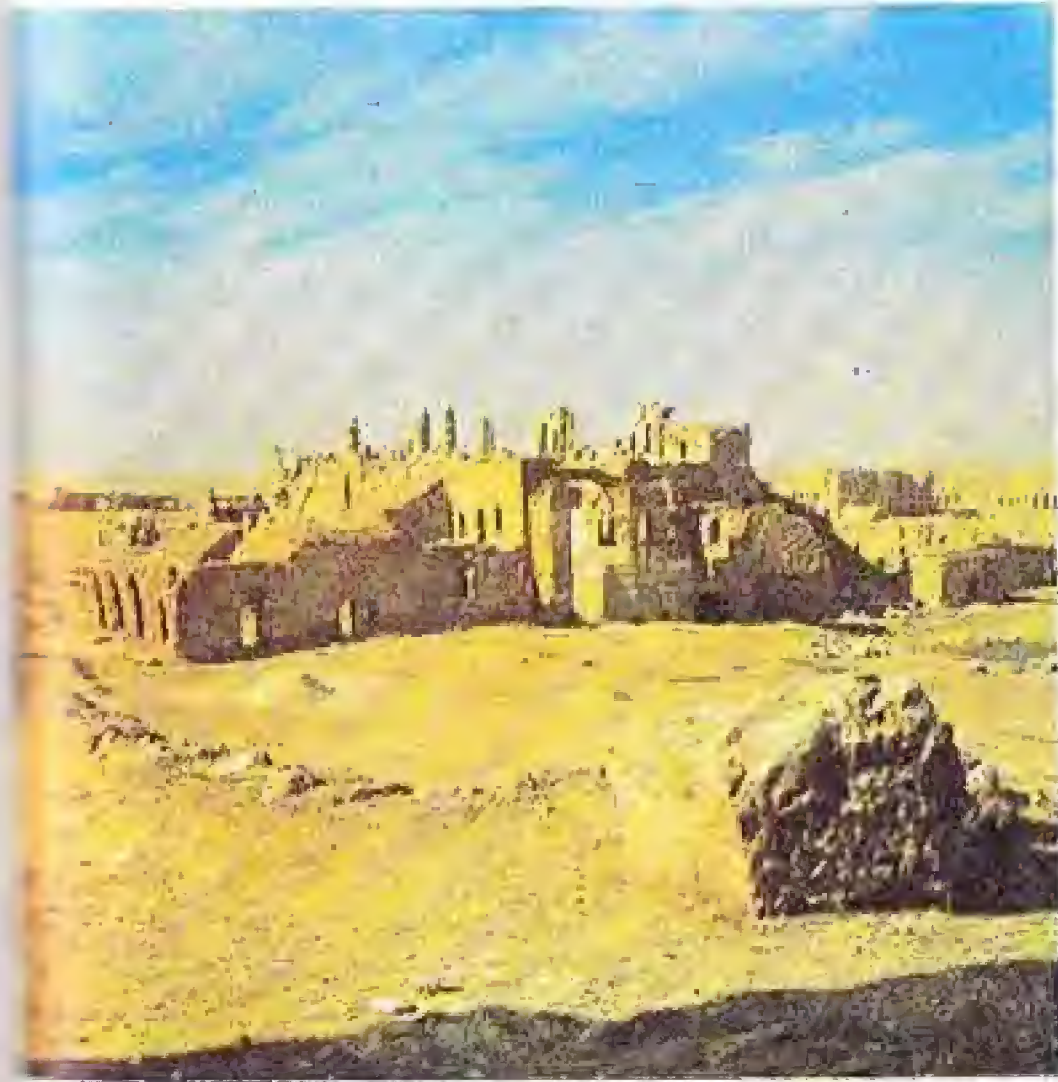
تفادت الامبراطورية البيزنطية معظم أخطار الجرمان والهون . وذلك بتحويل اتجاههم الى الغرب . في الشرق ، حارب الامبراطور جوستينيان (٤٨٢ - ٥٦٥) مدة ٣٥ سنة ملك الفرس كسرى أنوشروان (حكم ٥٣١ - ٥٧٩) . وفي حوض البحر المتوسط انقلب ميزان القوى مؤقتا . بعد احتلال جوستينيان لأفريقيا ثانية (٥٣٣ - ٥٣٤) ، ولايطاليا (٥٣٦ - ٥٥٤) . الا أن كل هذه الجهود ذهبت سدى في القرن التالي . عندما سيطر العرب على جميع اراضي الامبراطورية من الشرق الأوسط حتى أفريقيا الشمالية ، وراحوا يحاصرون القسطنطينية سنويا .

أطراف الجزيرة العربية قبل الاسلام

(١) انه سحق هجرة بدوية واسعة من العرب، وردّها الى الصحراء ، كما دمر مدينة الحضر ، وحاول احتلال تدمر .

الهام في الأمر ان ظهور الساسانيين بدل الاخمينيين في فارس والعراق ، ثم تحول الامبراطورية الرومانية الى امبراطورية بيزنطية مشرقية يتبعها الشام ومصر وشمال افريقية ، هذا وذاك جعل منطقة الهلال الخصيب منطقة حدودية بين القوتين ومسرح

الفترة السابقة للإسلام من تاريخ العرب تسمى عادة باسم الجاهلية . ليس ثمة تحديد لمبدأ تلك الفترة . ربما أمكن ارجاعها الى مطلع القرن الثالث الميلادي وعهد سابور الأول (ذي الأكتاف) الذي يظهر من الأخبار



١٢



ب

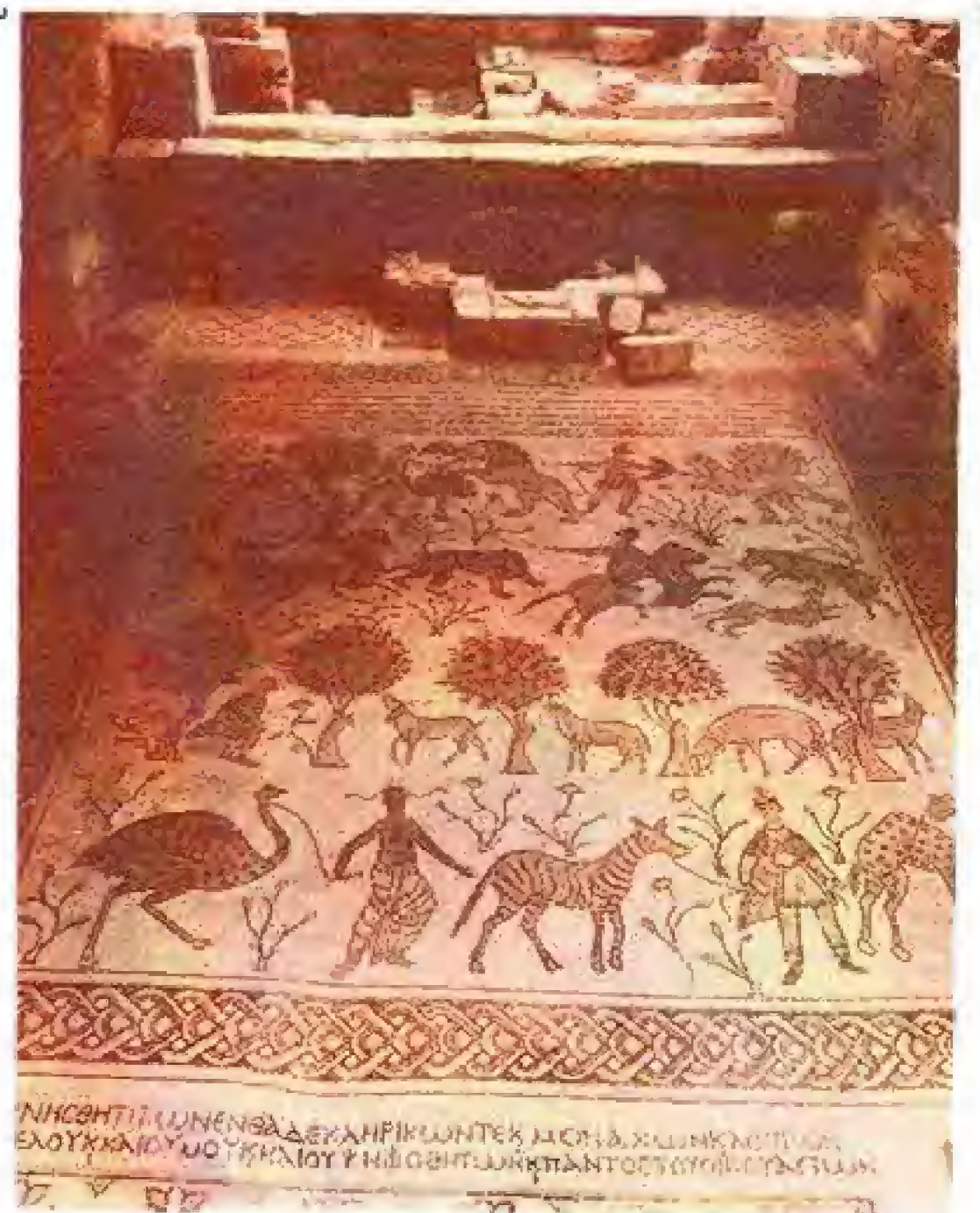
(١) - سابور ذو الأكتاف (ابن هرمزد الثاني) دام حكمه سبعين سنة بين ٣١٠ - ٣٧٩ هو العاشر بين الساسانيين . حين وصله التاج كان قاصرا فحكمت أمه أولا . لقب ذي الأكتاف يعني عريض الكتفين ضخما يتحمل اعباء الحكم . بعض مؤرخي الفرس يذكره بأنه

هون ستبا وتعني بالفارسية النقب أو منقب الأكتاف وخالف الأكتاف . وهي عقوبة كانت معروفة لدى الساسانيين . حارب الروم طويلا واضطهد المسيحيين . بنى عدة مدن . ورسمه هنا على صحن من الفضة يرجع الى عهده في القرن الرابع الميلادي .

حروب دورية . ولما كان القرن الثالث للميلاد قد شهد زوال تدمير والحضر . بعد أن زال الأنباط قبلهما بأكثر من قرن ، فقد وجدت المجموعات البدوية الوافدة بتدفقات مستمرة على هذه المنطقة ، مهمة حربية جاهزة للعمل بجانب هذه القوة أو تلك . كما دفع ذلك القوتين الى استخدام الوافدين الصحراويين لحماية المناطق الحضرية من الجماعات الجديدة اللاحقة بعدهم ، ولحراسة

قوافل التجارة ، وسلامة طرقها ، ولدعم القوى العسكرية في فترات الحروب . هكذا بدأت بين البادية العربية وكل من الساسانيين والرومان علاقات جديدة تمثلت في عدد من الممالك :

١ - المناذرة : مع ظهور الساسانيين في العراق في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي ، كانت مجموعات من القبائل العربية قد دخلته من الجنوب المفتوح على



(٢) - تبني الغساسنة المذهب اليعقوبي من المسيحية . وهو المذهب الذي كان شائعاً في الشام وإن لم يكن الروم رسمياً بالراضين عنه . ويقول بالطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفسيتية) . الحارث الثالث دعم هذا المذهب في سورية بأخذ نوع من القبول الرسمي البيزنطي له . بنى الغساسنة الكنائس وعنوا بالرصافة (أ)

(سرجيو بوليس على اسم أحد أبناء الكنيسة المدفون فيها) وكانت لهم فيها منازل وصلات واسعة ، كما كانوا يقدمون النذور والهدايا لكنائسها . يعزو بعضهم بناء كاتدرائيتها (ب) للحارث الثالث الذي بنى سور الرصافة . وقام الملك الأيهم الغساني بإصلاح وترميم صهاريج المدينة ومد المياه إليها .

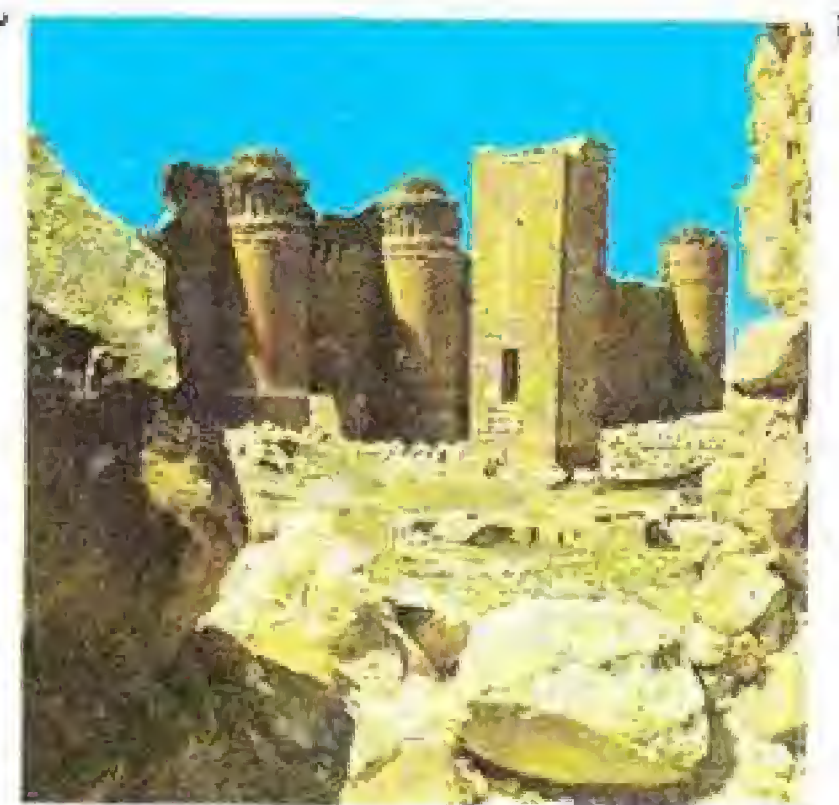
(٣) - في أيام الغساسنة . بنيت كنائس كثيرة (ب) . وكان الفن السائد ، بطبيعة الظروف التاريخية ، الفن البيزنطي . ومن ثم فالكتابات التاريخية والنقوش التي توجد على الأبنية هي باليونانية . والأماكن التي توجد فيها آثار من تلك الفترة كثيرة . وهنا صورة لفسيفساء (أ) في كنيسة

في جبل نبو ، في أواسط الأردن على مقربة من مادبا . أعيد بناء هذه الكنيسة سنة ٥٣١ ، ويقول النقش فيها أنه تم أيام كان الأب الياس راعياً للكنيسة والطائفة . وتمثيل مناظر الصيد والقنص كان مألوفاً شائعاً في الأبنية الكنسية ، في ذلك العصر . مع المشاهد الدينية .

البادية . هي قبائل تنوخ . أصلها غير معروف بوضوح ولعلها تحالف من قبائل شتى . استغلت ضعف الاخمينيين فتوطنت غربي وادي الفرات ، متعاونة مع تدمير والحضر . ثم تحالفت مع الساسانيين ايام زعيمها جذيمة الابرش . فلما قتل تزعمها ابن اخته عمرو بن عدي الذي يعتبر مؤسس اسرة آل لخم التي تحدر منها ملوك المناذرة . استفاد عمرو من سقوط تدمير والحضر

فأضحى يسيطر على البادية وتجاريتها حتى حدود الشام . اتخذ مقرا له في الحيرة التي صارت بسرعة مركزا عسكريا وتجاريا وزراعيًا معا ، قرب طيسفون (المدائن) ، عاصمة الساسانيين . امرؤ القيس بن عمرو المتوفي سنة ٣٢٨ م . سمى نفسه في نقش وجد على قبره « ملك العرب كلهم » . أبرز الملوك المناذرة بعده هو النعمان الأعور (٤٠٠ - ٤١٨) الذي اشتهر عسكريا بكتيبتيه :

(بالتحديد الأموي) . وأطلال قصر البرج الذي بناه المنذر بن الحارث (٥٦٩ - ٥٨١) .



(٥) - تألق الغساسنة في القرن السادس بأعمال الحارث بن جبلة (نحو ٥٢٩ - ٥٦٩) الذي عاصر الامبراطور جوستنيان في كل عهده (الصورة) والذي هزم المناذرة سنة ٥٢٨ وقمع ثورة السامرية سنة ٥٢٩ ونال من الامبراطور جوستنيان لقب فيلارك وبطريق . ثم استمر يقاتل المناذرة حتى نال عليهم الانتصار الحاسم في معركة حليلة (قرب قسرين) التي قتل فيها المنذر بن ماء السماء سنة ٥٥٤ وأضحت مشهورة بين العرب حتى ضرب بشهرتها المثل « ما يوم حليلة بسر » . انتقم المناذرة لأنفسهم بعد ذلك سنة ٥٧٨ ثم خسروا سنة ٥٨٠ . هذه المعارك انهكت القوى العربية القائمة على الحدود البيزنطية والفارسية ومهدت لانهايار أوضاعها السياسية كليا في مطلع القرن السابع . فلم تكن موجودة أيام الفتح الاسلامي كقوى حماية ودفاع .

(٤) - كان الغساسنة . آل جفنة . في نظر أنفسهم ونظر الروم . ملوك بادية لا ملوك حضر . كانوا أمراء البادية الشامية . لهذا ظلوا جوالين بين أقصى شمالها والجنوب . لهم صلاتهم مع الرصافة ومع البادية التدمرية ومع حوران وسهوب الأردن . حتى جيشهم - على ما يظهر - كان جيشا بدويا لم يأخذ شكل الكتائب الرومانية . ولم يكونوا يمتلكون أيا من الأماكن المحصنة أو من المدن التي تقوم فيها مراكز الجيش البيزنطي مثل دمشق وبصرى أو حتى مثل تدمر . حتى قصور الجابية وجلق التي ذكرت في الشعر لم يبق لها أثر . بقي قصر الحير (أ) الغربي والشرقي



الشهباء والدوسر ، وبانه بنى قصر الخورنق والسدير . في النصف الثاني من القرن ٦ دخل المناذرة النصرانية ، ونشروها في البحرين . سقطت الاسرة اللخمية زمن النعمان الثالث (ابي قابوس ٥٨٠ - ٦٠٢) بمقتله على يد الساسانيين ، قبل الفتح الاسلامي بخمس وثلاثين سنة . كان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي . ولهم كتابة مشتقة عن الآرامية صارت فيما بعد أصل الكتابة الكوفية العربية .

٢ - الغساسنة

فرع من قبائل الأزد التي تحركت من اليمن نحو عمان ونحو الشام ، حوالي القرن الرابع . كان بنو سليم وبعض قبائل العرب الأخرى قد سبقوا الغساسنة وتعاملوا مع السلطة البيزنطية . في أواخر القرن الخامس استقر الغساسنة في أطراف البادية بزعماء آل جفنة . ثم أثبتوا قوتهم الحربية ، وحلوا محل سليم في حماية الحدود والقوافل ، وأخذ المعونة السنوية على ذلك من البيزنطيين ، بعد أن دخلوا المسيحية أيضا على المذهب المونوفيسي (الشامي) .

كان العرب يسمون الغساسنة بالملوك . بيزنطة منحتهم (الاكليل) . ثم منحهم الامبراطور البيزنطي التاج سنة ٥٨٠ . لكنه حين هزم أمام الفرس نسب الهزيمة الى المنذر الغساني ونفاه الى صقلية . لما ثار أولاده على بيزنطة تصدعت أحوال العرب في الشام ، وفقدت جبهة البادية استقرارها . حين احتل الساسانيون الشام (٦١٣ - ٦١٤) ثم جاء الفتح الاسلامي بعده سنة ٦٣٢ وضع هذا كله النهاية للملك الغساني .

بنو الجلندي (المعوليون) :

هم زعماء موجة الهجرة العربية الثانية من الأزد الى عمان في القرن الخامس الميلادي . توحدت المجموعات الأزدية السابقة واللاحقة (بنو هناة وبنو المعاول) تحت زعامتهم . كانت السلطة في الساحل المأهول من عمان للفرس ، ومركزها الرستاق . عين الفرس زعيم المعاول جلندي على عرب عمان . وكان لهم في البحرين واليمن قائد (أصبهذ) . تحول بيت المعاول في القرن السابق للإسلام الى بيت ملك وصار اللقب اسما للأسرة .

حين ظهر الاسلام وجد أهل عمان فيه ، بجانب الدين ، وسيلة للتخلص من سيطرة الفرس ، فسرعان ما قبلوه بزعماء جيفر وعبد ، ولدي الجلندي المستكبر .

لا نعرف الكثير عن حضارة عمان القديمة لكن حضارة المناذرة والغساسنة كانت ، رغم سماتها البدوية ، متأثرة بحضارة الهلال الخصيب . الحيرة كانت مدينة في العمران والسياسة تسيطر على الخليج العربي . أما الغساسنة فكان مقرهم في الجابية بالجزولان . ثم في جلق بالقرب منها . ولهم النفوذ ما بين الرقة الى شمال الحجاز ، وهي مناطق كانت تحوي أكثر من ٣٠٠ قرية عامرة بنوا فيها السدود والصهاريج للري (٤) لكنهم كانوا يفضلون التنقل فبنوا عددا من الحصون والقصور البدوية (١) منها قصر الضمير ودير قصر الحير الغربي) كما عنوا ببناء الكنائس والأديرة .

كان كل من المناذرة والغساسنة يمثلون التحضر العربي ، يفد عليهم زعماء العرب في قصورهم ، ويستقبلون الشعراء ، ويجزلون لهم العطاء .

العرب قبيل الاسلام

كان قلب الجزيرة في الحجاز خاصة وفي نجد ما بين النصف الأول من القرن السادس ومطالع السابع - وهي فترة العصر الجاهلي - قد وصلت الى حالة من الاستعداد الواسع لتقبل القفزة الحضارية الضخمة التي سيأتي بها الاسلام . الجاهلية كانت عصر ما قبل النهضة . في عدد من المناطق كانت تتبلور عناصر ثقافية ومحاولات في التنظيم السياسي والاقتصادي والتقدم الفكري والديني تمهد

كانت أطراف الجزيرة العربية دوماً (في اليمن وعمان والمناطق المتصلة بالشام وما بين النهرين) ، أكثر تقدماً من وسطها النجدي - الحجازي الذي تغلب فيه البداوة وحضارة الواحات ، الأسباب واضحة . مع ذلك

فلما أبوا حفر لهم أخدوداً وحرقتهم فيه . عند الأخدود كان ثمة معبد ضخم ما تزال أطلاله الحجرية موجودة .

(٣) - الأحواض الحجرية التي عثر عليها في آثار الجزيرة عديدة لكن حجمها صغيرة . أما هذا الحوض فيسميه الناس « محلب الناقة » لأنهم يربطونه بناقة صالح رغم أنه أكبر بكثير من أن يكون محلباً . (قطره ٤.٥ م بعمق ٢.٥ م) . عثر عليه في معبد لحيان في الخريبة (العلا القديمة) ولعله كان للسقاية في المعبد .

(٤) - يكشف شرق الجزيرة العربية يوماً بعد يوم عن تراثها العريق واتصالها المستمر بالحركة الحضارية العالمية . هذان العقدان (أ ، ب) وجدا في أحد قبور جاون (رأس تنورة) وهما دليل المستوى القديم في الثروة والتجارة في تلك المنطقة . التي كانت تحوي بلدة الجرها الشهيرة في تاريخ الخليج في العصر الهلنستي . وجزيرة تاروت ومدينة تاج .



(٢) - كانت نجران قبل الاسلام على المسيحية في أغلبها وقصة الأخدود فيها معروفة حين تهود ملك اليمن الحميري ذو نواس وأراد أهل نجران على اعتناق اليهودية

القوافل التجارية التي كانت تتوغل على طرقها بكل اتجاه لم تكن تحمل البضائع فقط ولكن الافكار والمعتقدات والمبكرات الانسانية أيضا .

(١) - رغم سيطرة الجفاف وصعوبة الحياة البدوية في الجزيرة العربية عامة فقد دخل أهلها منذ العصور القديمة تيار الحضارات العالمية وكانوا أحد عوامل اللقاء والتمازج بينها .

كلها لنصر النهضة الاسلامية القادمة وتشمل الخليج العربي (٣ ، ٦ ، ٧) كما تشمل نجران (٢) والحجاز . فقد كانت هناك عدة محاولات قديمة مجهولة لاقامة دول بين شمال الحجاز والشام آخرها مما بقيت بعض أخباره :

مملكة كندة :

هي قبيلة يمانية يحوط تاريخها الغموض

الكثير بسبب اختلاف الرواة في أخبارها . النقوش المكتشفة حديثا أوضحت انها كانت في شمال نجران حوالي سنة ٦٠ ق . م . ثم سكنت (أو سكن قسم منها) تهامة . ثم كانت في اوائل القرن الرابع الميلادي واحدة من ثمانية تجمعات عسكرية تؤلف جيش حمير . ثم كانت حوالي سنة ٤٢٥ مع حملة الملك الحميري على اواسط الجزيرة وأخذ زعيمها منه حكم قبائل معد . أول الملوك حوالي سنة



١٤



٢



١٥



٣

٤٥٠ هو حجر بن عمرو آكل المرار وقد استقر في غربي نجد . بلغت الاسرة أوجها في عهد حفيده الحارث بن عمرو الذي حكم أكثر من أربعين سنة . عين أولاده لحكم القبائل المختلفة . أنهى حرب البسوس بين بكر وتغلب . حاول أن يزاحم الغساسنة حين استقروا في الشام ف فشل ثم صار صديق بيزنطة . حاول الحلول محل مناذرة الحيرة (ولعله اعتنق المزدكية) . ففتك هؤلاء

بالأسرة الكندية سنة ٥٢٩ م . كانت تلك هي الضربة القاضية عليها . مات الحارث بعدها أو قتل في بني كلب . وتوزعت المملكة بين أولاده . كبيرهم كان حجر الذي حاول منع تقسيم المملكة . وقتل في حربه مع بني أسد الثائرين عليه . حاول ابنه الأصغر امرؤ القيس (الشاعر العربي الأول) المولود حوالي سنة ٥٠٠ م أن يثأر لأبيه . واستنجد في النهاية بالروم لاسترداد الملك . لكنه توفي



١٦



٥

ب



مدينة تاروت في قلبها ويقوم ميناء دارين الشهير بنشاطه التجاري في جنوبها .

فهذه الجزيرة الصغيرة كانت منذ عصر السلاط الأولي لبلاد ما بين النهرين محطة تجارية بالقرب من الجرهاء . تقوم

أحيانا الى الثلاثين مراكز حضارية تنكشف مع التنقيبات آثارها . هنا وهناك . من هذه المواقع موقع ثاج (في الاحساء) الذي وجدت فيه أطلال مدينة كاملة ذات سور ترجع الى اواخر القرن الرابع ق . م . كما وجدت بقايا مدينة اغريقية الطابع بالقرب منها (في قرية الحنا) . الأواني الفخارية (أ) وجدت في ثاج وهي من القرن الرابع الميلادي أما النقش (ب) فهو يمثل أربعة نساء نقشت على حجر صابوني وقد وجدت في جزيرة تاروت . ويعيد الأثريون عهدها الى حوالي ٤٥٠٠ ق . م .

(٥) - نقش النمارة مشهور لدى الأثريين فهو مؤرخ ويعود الى سنة ٣٢٨ م . وقد وجد في قصر النمارة بجبل العرب في سورية . الخط الذي كتب به خط نبطي متأخر ولغته عربية مشوبة بشيء من الآرامية (والنص في الصورة مترجم) وهو يمثل مرحلة انتقال في الكتابة (وفي اللغة الى حد ما) من الآرامية النبطية الى الخط العربي .

(٦) - سواحل الخليج لم تكن ممرا للحضارة فقط ولكن مستقرا أيضا . وجدت فيها قبل الاسلام بقرون طويلة تصل

في أنقرة . بينما كانت بقايا الكنديين في نجد ينسحبون الى حضرموت . لعل ذلك كان في أواسط القرن السادس .

التنظيم السياسي في الحجاز

مكة محطة تجارية قديمة السكنى . تميزت بوجود الكعبة فيها . فثل الرومان ثم الروم والأحباش في السيطرة عليها . استطاعت في القرن السادس أيام زعيمها قصي بن كلاب أن تستفيد من الحروب بين الروم والفرس فتتنظم أحوالها في شبه جمهورية أوليغاركية : فاللواء لبنى عبد الدار . والقيادة لبنى أمية . والحكومة (وهي أموال المعبودات) لبنى سهم . والأعنة لغيرهم . الوظائف الدينية بدورها كانت مقسمة بين الأسر كالحجابه (مفاتيح الكعبة) والسدانة . والسقاية والرفادة (وهي أمور المال) والنسب . والعمارة .

نظمت قريش أيضا الأشهر الحرم السنوية فلا حرب فيها . كما فرضت من حولها منطقة حراما فلا سلاح يحمل فيها . جعلت لقافلتها التجارية نظاما في رحلتى الشتاء والصيف . عقدت لذلك الاحلاف مع اليمن والشام والجزيرة . كان لقريش « ندوة » أشبه بمجلس الشيوخ يجتمع فيها كبارها أو « الملأ » وتتخذ فيه القرارات المتصلة بالمصلحة العامة . لعبت دورها في مطلع الدعوة الاسلامية .

في يثرب : كان تطور مماثل تقريبا يجري في هذه الواحة . التي سكنها الأوس والخزرج من اليمن . وبعض العرب المتهودين . كانت بينهم منافسات ووقائع . ثم اتفقوا قبيل هجرة الرسول اليهم ان يكون عبد الله بن ابي السلولي الخزرجي ملكا عليهم .

كانوا يعدون له التاج حين تمت الهجرة . فانقلب وصار رأس المنافقين .

مثل ذلك جرى في بني حنيفة . وفي بني سليم ايضا ولبس زعمائهما التيجان .

التطورات الاقتصادية والدينية :

عرف العرب تنظيما تجاريا شاملا تجلى في الاسواق التي كانت تطوف الجزيرة في دورة سنوية كاملة . بتواريخ محددة وتعتبر مواعيدها ومواقعها حرما ما امتد السوق . كانت مواسمها الكبرى مناسبات دينية وأدبية واجتماعية بجانب التجارة . وأشهرها سوق عكاظ قرب مكة .

وكانت الجزيرة على جانب من التطور الفكري يتجلى في ناحيتين :

- ١ - الشعر الجاهلي الذي يكشف في تقاليده الشعرية وبحوره وقوافيه وموسيقاه ومواضيعه وتعاييره عن تطور فني طويل .
- ٢ - واللغة العربية التي تعبر في مفرداتها ودقائقها وتراكيبها عن مستوى رفيع لا يمكن ان ينجم الا عن مستوى مماثل من الفكر (٥) . وفي الدين : عرفت بلاد الحجاز ونجران واليمن الديانتين اليهودية والمسيحية . كما تسربت اليها الزرادشتية في البحرين وعمان . لكن الوثنيات المختلفة كانت هي السائدة . على ان هذه الجماعات الوثنية كانت قد بدأت تعتبر الاصنام وسيلة الى الله . وظهر بين جماعات الحجاز وفي مكة جماعة الأحناف . أتباع دين ابراهيم . الذين مهد وجودهم لتقبل الاسلام . كما كان الحج الى الكعبة يجمع العرب على قبلة واحدة . والجدل الذي كانت قريش وغيرها تثيره مع الرسول (ص) يعكس مستوى الفكر الديني لديها .

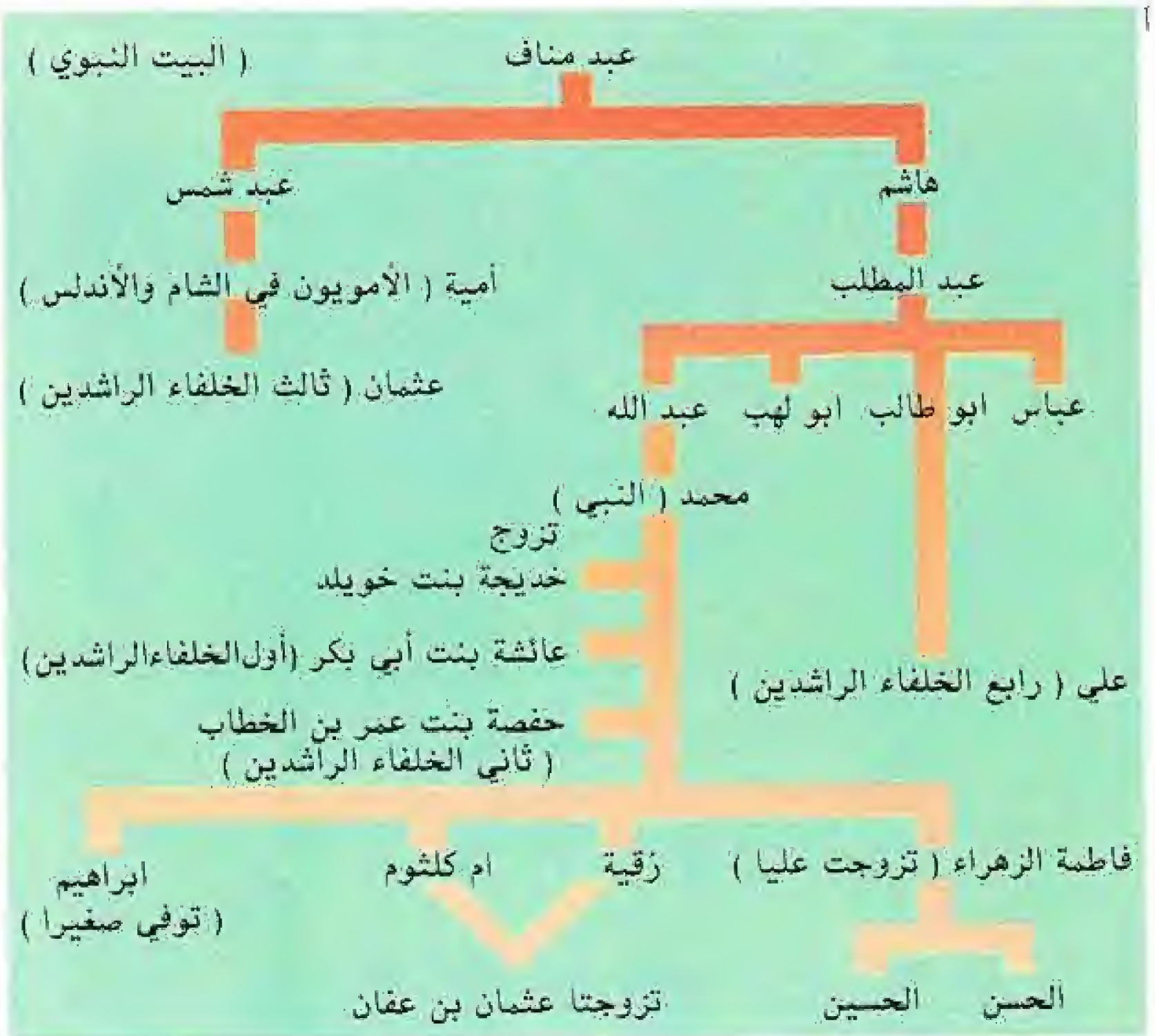
عالم الرسول

ولد محمد بن عبد الله (ص) حوالي سنة ٥٧٠ م ، في مكة ، في أسرة ذات مكانة في قبيلة قريش وان تكن غير ذات يسار . جده الأعلى (قصي) يعزى اليه فضل حلول قريش محل خزاعة في مكة (١) . جده الأول هاشم هو أول من سن رحلتي الشتاء والصيف لقريش . جده المباشر عبد المطلب أعاد حفر بئر زمزم للحجيج بعد أن درست . طفولته امتلأت باليتم . ثمة اختلاف في موعد

ينفرد محمد بن عبد الله (ص) بأنه الوحيد بين الأنبياء الذي تقع حياته كلها في ضوء التاريخ . دقائق أعماله ، وخاصة بعد النبوة ، معروفة ، وتعتبر سنة حياة وعمل لمئات ملايين المسلمين عبر القرون .

الجنوبية القحطانية . قريش التي تأتي من كنانة هي أرومة الرسول الأعظم . وكانت تنزل مكة وما حولها (فهناك قريش البطاح وقريش الظواهر) .

(٢) - واحة خيبر هي كبرى مجموعة من الواحات في شمال المدينة (على ١٥٠ كم منها) ، فذك ووادي القرى وغيرها الى تيماء والى مدائن صالح والعلا . كان يسكن خيبر ومجموعتها قبائل تهودت . وكان قسم من هؤلاء اليهود يسكن يثرب عند الهجرة . كان هؤلاء حسب تقاليدهم الدينية ينتظرون النبي المخلص . فلما ظهر الرسول من الأميين (أي من غير اليهود) ورأوا انتصاره وانتشار دعوة الاسلام أخذوا في التآمر عليه . أخذهم الرسول بالحسنى وبالصبر على النفاق وبالرفق ان نقضوا العهد فلما لم يجد سبيلا الى التعايش معهم حاربهم . ولما علم ان أهل خيبر أقاموا حلفا لمحاربته تحرك اليهم في مطلع سنة ٨ هـ / سنة ٦٣٠ م . فهاجم أطامهم (حصونهم) وهي أكثر من



الشمال أو يمن وقيس . الشجرة التي يضعها النسابون للقبائل العدنانية (ب) والقبائل القحطانية ليست بالموثوقة تمام الثقة ولكنها على أي حال تعطي فكرة عامة عن توزيع قبائل العرب المعروفة بالشمالية العدنانية ، مقابل

ومن بني مرة ، أخوة كلاب . كان بنو تيم قبيلة أبي بكر الصديق . ومن أخوة هاشم عبد شمس جد الأمويين . للباحثين في التاريخ القديم آراء تنفي في معظمها التقسيم التقليدي للعرب الى شعبين هما قحطان وعدنان أو عرب الجنوب وعرب

(١) - عبد مناف ، جد الرسول . يحفظ النسابون نسبه ويروون أنه ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر (قريش) . كان من أخوة مرة ، عدى جد القبيلة التي كان ينتسب إليها عمر بن الخطاب

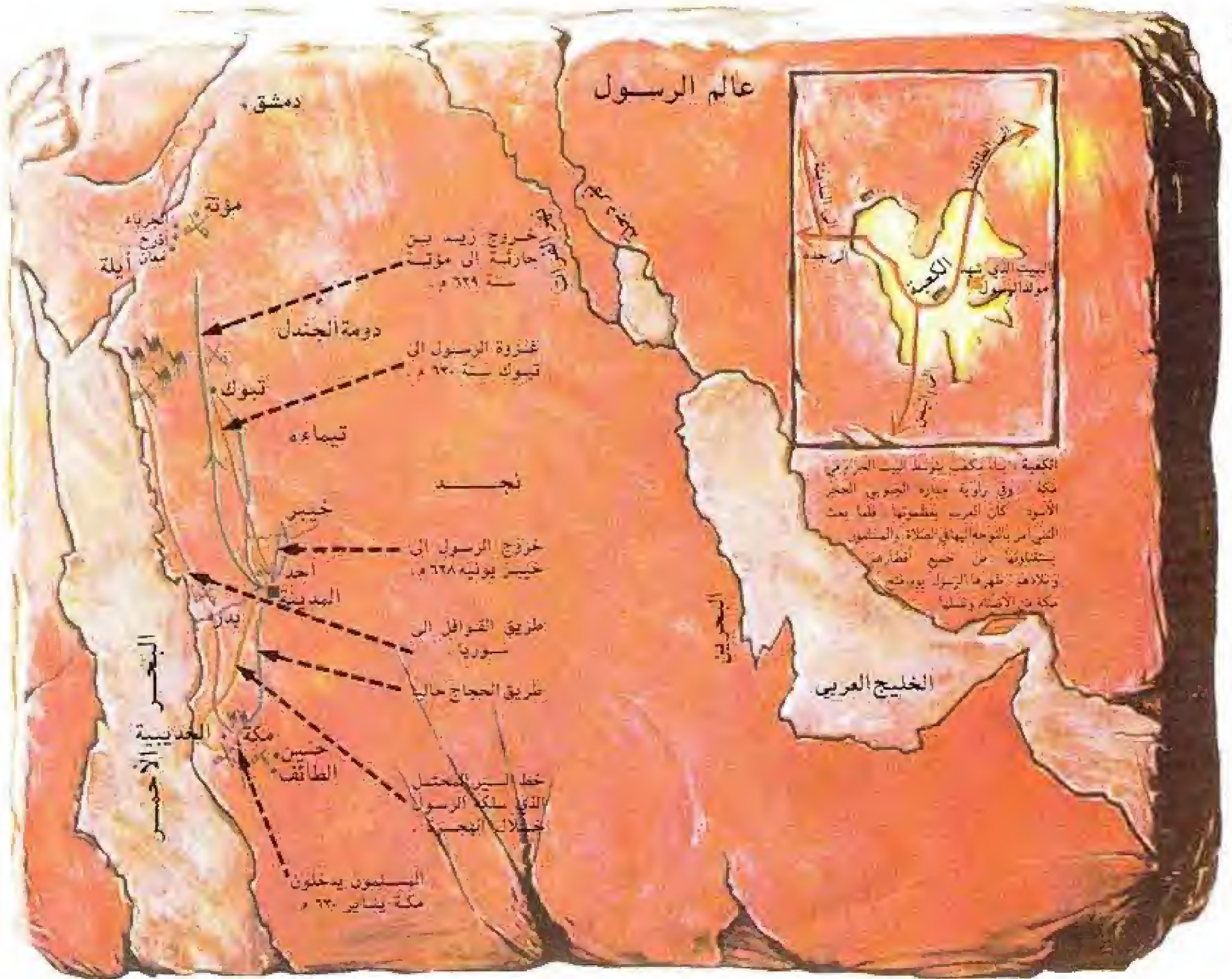
الاسلام الذي اشتق اسمه من اسلام الامر الى الله .

قضى الرسول (ص) بعد ذلك ثلاث عشرة سنة يدعو الى عبادة الله الواحد الأحد . لم تكن الدعوة سهلة ولا تجاوزت الاستجابة النفر القليل من الأهل والأصحاب وبعض المستضعفين . أما معارضة قريش للرسالة فتصاعدت من اللامبالاة ، الى الهزء والرفض ، الى المقاطعة والمكيدة ، وتعذيب

المستضعفين من المسلمين أشد العذاب . كانت الدعوة الاسلامية تهدد مكانة قريش الدينية ومواسمها الرابعة من الحج والأرض الحرام . وتلغي عقائدها الموروثة .

الهجرة

اذن الرسول لبعض أتباعه بالهجرة الى الحبشة لاجئين . التمس التأييد من غير قريش في المواسم وبخاصة بعد وفاة زوجته



(٤) - المغازي النبوية كانت الموضوع الأول الذي اهتم به المؤرخون المسلمون الأولون بتسجيله التفصيلي لثأنها السياسي والتشريعي ولأنها الأساس الذي قامت عليه دولة الاسلام . على الخارطة تظهر التحركات الأساسية لهذه المغازي ومكان المواقع الكبرى التي تمت في بدر وأحد وحنين والطائف وخيبر وتبوك ومؤتة . كما يظهر طريق الهجرة الى المدينة وطريق القوافل الى الشام واليمن . وفي الزاوية العليا من الرسم نجد قرب مكة مع الطرق الرئيسية الخارجة منها الى اليمن والشام والعراق .

وعمه . حين لقي الاستجابة من بعض أهل
يثرب ثم استوثق منهم في بيعة العقبة الثانية
اذن لأصحابه بالهجرة إليها . ثم هاجر بنفسه
سرا (مع صاحبه الصديق أبي بكر) ١٢ ربيع
الأول سنة ١ هـ / ٢٤ أيلول (سبتمبر) سنة
٦٢٢ . كانت هذه الهجرة نقطة التحول الكبرى
في تاريخ الاسلام . كان قبلها دعوة دينية
فأضحى دينا ودولة . وكان جماعة مضطهدة
فصار أمة وبلدا ونظام حياة .

استقبل الرسول في يثرب بأكبر
الترحاب . أول ما فعله كان بناء المسجد .
وبجانب منه نزل مع أهله . كانت يثرب
مجموعات ثلاثا من الاوس والخزرج ويهود .
فلما انضاف اليهم المهاجرون كان من
الضروري تنظيم الجماعة كلها . هكذا أصدر
الرسول « الصحيفة » التي يعتبرها المؤرخون
دستور المدينة . اعتبرت الصحيفة المسلمين
« أمة دون الناس » وأخت بين المهاجرين
والأنصار (أهل المدينة) . وأمنت اليهود على
حريتهم الدينية .

غضبت قريش كل الغضب لهذه الهجرة
وبخاصة حين خرج الرسول بثلاثمائة ونيف
من أصحابه يحاولون منع الطريق على قافلة
التجارة القرشية التي كانت قادمة من الشام .
خرج القرشيون بألف من المقاتلين . المعركة
التي تمت بين الطرفين في بدر (١٧ رمضان
سنة ٢ / ١٤ مارس ٦٢٤) سجلت أول نصر
اسلامي على قريش . كما وطدت « الأمة »
الجديدة التي بدأت الظهور في يثرب . رغم
ان القرشيين ثأروا لأنفسهم بعد سنة في واقعة
أحد . الا ان الجماعة الاسلامية كانت قد
تجاوزت نهائيا مرحلة النشأة . صارت قوة
متنامية . حاولت قريش غزوها في المدينة

نفسها بغزوة الخندق (سنة ٥ هـ / ٦٢٦)
وجندت لذلك الأحزاب معها ففشلت .

فتح مكة

بعد سنتين قرر الرسول دخول مكة
مسالما للعمرة مع أصحابه . واضطربت قريش
وصالحته على تأجيلها الى السنة التالية . في
ذلك الوقت كاتب الرسول الأعظم زعماء الأمم
بالاسلام (٣) . وانضم لدعوته العديد من
القبائل . وأرسل الغزوات نحو حدود الشام
(٢) . ولما نقضت قريش الصلح سار الى
مكة في عشرة آلاف مقاتل ففتحها (سنة ٧ هـ
رمضان / ٦٣٠) وحطم أصنامها .

كان العام التاسع للهجرة « عام الوفود »
على الرسول من كل فج وعام الحج الأكبر .
وفي السنة العاشرة كانت حجة الوداع . بعد
ثلاثة أشهر لحق الرسول (ص) بالرفيق
الأعلى (الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ / ٨
يونيو سنة ٦٣٢) .

يقوم الاسلام على الوحدانية المطلقة .
والله رب العالمين . والاسلام للبشر كافة .
عباداته هي الصلاة والصيام والزكاة والحج من
استطاع اليه سبيلا . كتابه هو القرآن الذي
يجمع كلام الله المنزل بالوحي على الرسول .
آياته المكية حارة الايمان فيها الدعوة . أما
المدنية فأكثرها للتشريع وللقيم الاجتماعية
المثلى . وفيها تحريم الخمر والربا .

من أهم ميزات الرسول (ص) انه كان
اتحادا لا نظير له من التأثير الديني والدنيوي
معا . المستمر منذ ١٤ قرنا . ومن أهم آلاء
الاسلام انه رفع عيون الانسان وقيمه من
الارض الى السماء . ودعا الى الصفاء الروحي
والأخوة الانسانية .

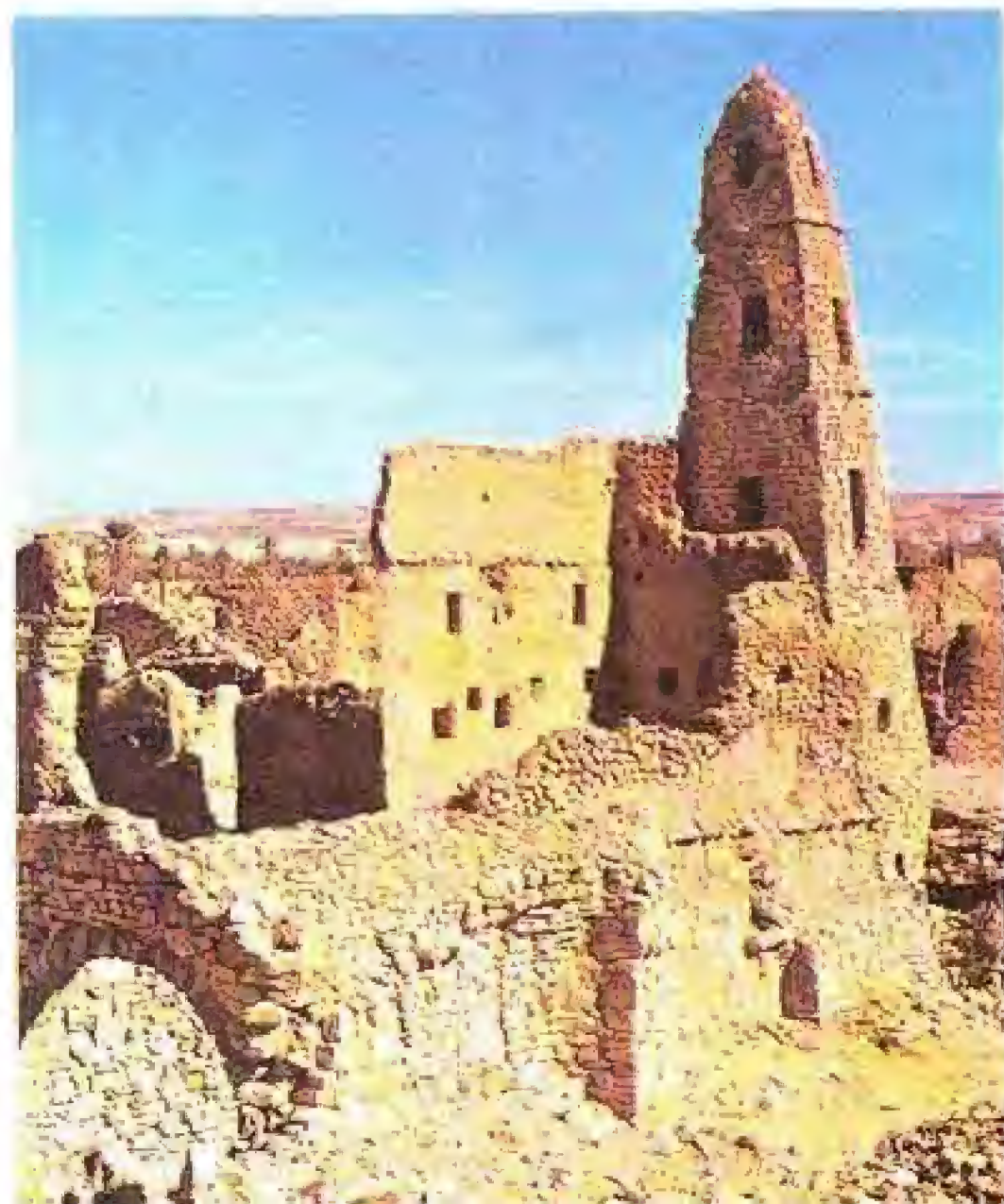
الفتوحات الإسلامية^(١) في المشرق

ارجاءه منذ أيام الاسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م .) . كان من أبرز نتائج هذه الحركة انتشار الاسلام في معظم العالم القديم وانتصار اللغة العربية معه على بقية لغات العالم . هذان الحادثنان يفوقان في مغزاهما الحضاري الفتوحات العسكرية نفسها وان كانا نتيجة لها . فقد دخلت نهائيا في نطاق الاسلام والعروبة وارتبطت بعضها مع بعض بلدان شتى من آسيا وافريقيا وذات ثروات

تمتاز الفتوحات الاسلامية بعدة خصائص تاريخية تجعل منها ظاهرة تكاد تكون فريدة في التاريخ الانساني . فقد امتد الفتح في زمن يسير حتى شمل اجزاء العالم القديم الذي لم يشهد قبل ذلك سلطة مماثلة توحد



(١) - كان العرش الكسروي في المدائن عشية الفتح الاسلامي في حالة قاسية من الاضطراب . بين موت كسرى الثاني سنة ٦٢٨ والفتح توالى عدد من الملوك . في أربع سنوات تقريبا ولي عرش ايران عشرة ملوك على الأقل حتى اتحدت المملكة أخيرا بجهود عظماء اصطخر والقائد رستم في تنويع يزدرجر الثالث سنة ٦٣٤ (عمره ١٦ سنة) الذي أخرج بعد أن أعياه دفع الفتح العربي العلم الملكي الجلدي (درفش كاويان) . بعد ثلاثة أيام من المعارك الدامية في القادسية سنة ٦٣٦ / ١٥ هجرية سقط العلم بيد العرب وقتل القائد رستم ودخل الجيش الفاتح مدينة طيسفون (المدائن) عاصمة الساسانيين سنة ٦٣٧ . في الصورة بقايا القصور الملكية فيها . وهي معروفة باسم : طاق كسرى



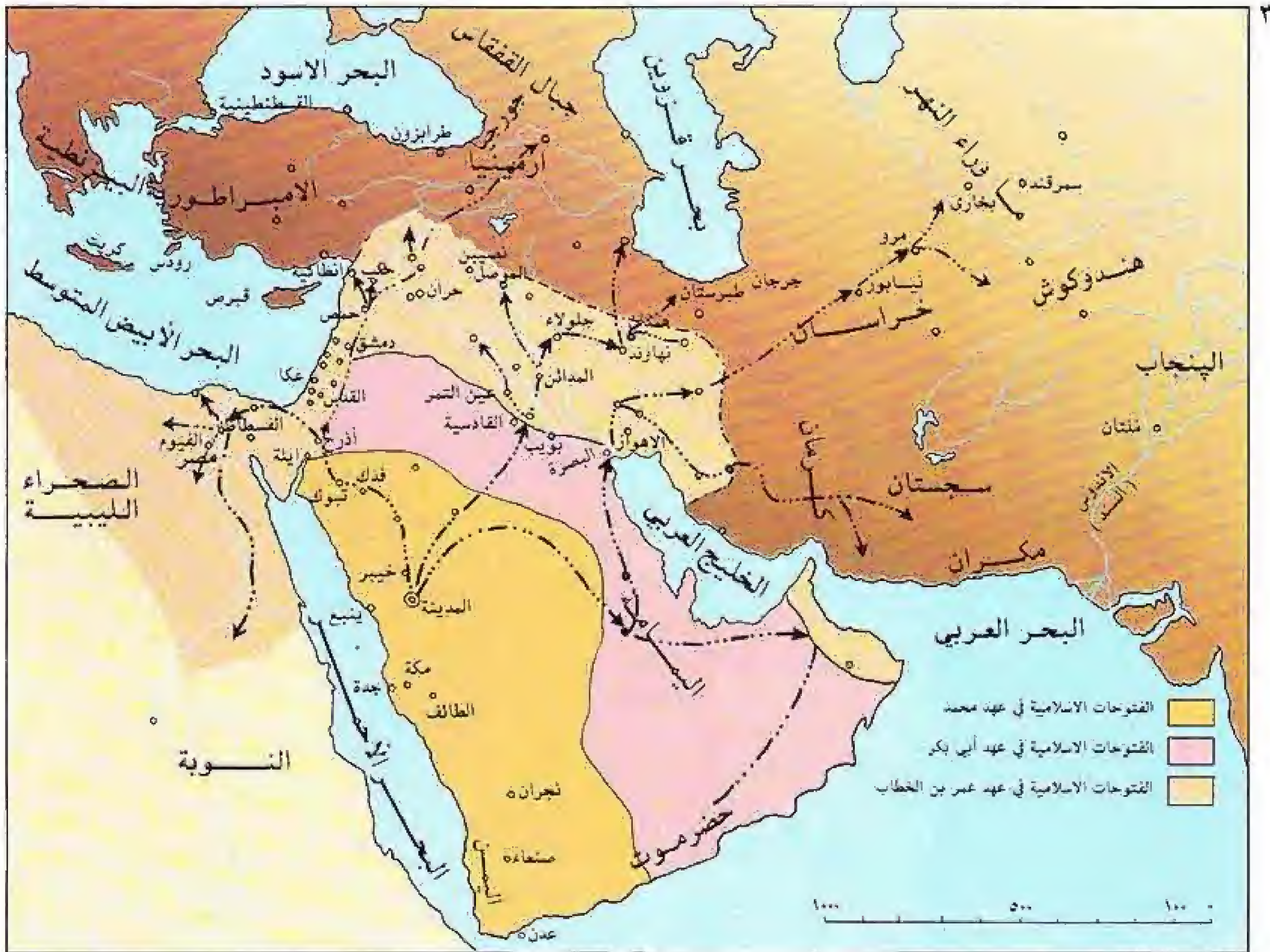
(٢) - بعد اخماد حركات الردة وامتداد الفتوح كان بناء المساجد في أنحاء الجزيرة العربية دليل استقرار الاسلام فيها وتوفر الغنى الكافي لها . المساجد الأولى في جملتها درست أو تغيرت ملامحها بالتجديد والاصلاح . الأطلال في الصورة بقية مسجد أقيم في عهد عمر بن الخطاب عثر عليه في واحة الجوف عند التقاء طرق الشام والعراق بطرق الجزيرة الى الخليج .

زراعية وتجارية ومعندية طائلة .

وتقاليدها في العمل والحياة . فحارب
العديدون من أبناء هذه الشعوب في صفوف
المسلمين الفاتحين شرقا وغربا . كان لهم شأن
كبير في افتتاح المناطق المجاورة لبلدانهم
القديمة (كالفرس في فتح بلاد ما وراء
النهر ، والمغاربة في فتح الأندلس) . نتيجة
للفتوح أعيد توزيع الأراضي التي كانت مجتمعة
في أيدي الطبقات الحاكمة القديمة ، أما
الباقى فتركت لأصحابها مقابل الخراج .

الفتوحات الإسلامية والعالم القديم

أدت سرعة الفتوحات ، في البدء ، الى
الحفاظ على مؤسسات الدول السابقة وانظمتها
في المناطق المفتوحة . نجم عن ذلك بدوره
ثبات مجرى الحياة العامة لاسيما حين أبقت
السلطات العربية الفاتحة للشعوب المغلوبة
حريتها الدينية ، ومصادر رزقها المعتادة .



(٣) - سبقت معركة القادسية الحاسمة كما أعقبها سلسلة من المعارك بين العرب والفرس كان منها أولا ذات السلاسل (كاظمة) ثم الأبله والولجة والثني ثم معركة نهر الدم . برز فيها جميعا خالد بن الوليد والقعقاع بن عمرو التميمي وانتهت باحتلال الحيرة ثم الأنبار . حين ترك خالد العراق الى الشام كان المشي بن حارثة الشيباني الذي انتصر في معركة عند بابل هو الاسم الأول مع قبيلته بني بكر . في معركة البويب ، وان توفي بعد ذلك من جراحه . فتولى سعد بن أبي وقاص الذي قاد معركة القادسية ضد جيش الفرس معركة عند بابل هو الاسم الأول مع قبيلته بني بكر . في سنة ٦٣٧ (٦٣٧) . أمر عمر بن الخطاب عند ذلك بعد احتلال المدائن سنة ٦٣٨ بجعل الكوفة والبصرة معسكرين للجيش العربي .

وأعيدت الى التداول كميات الذهب والأموال الطائلة التي كان الفرس والروم قد كدسوها . في الحواضر الكبرى . خلال حروبهم الطاحنة التي سبقت الفتح . فتحت طرق التجارة العالمية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط بوقوعهما في أيدي العرب . سمح ذلك كله باستصلاح الاراضي ونشاط الحركة التجارية وازدهار المدن (٢) . لاسيما تلك التي خطها الفاتحون . كالبصرة والكوفة والفسطاط

والقيروان .

جرت الفتوحات ، على موجات متتالية ، وفي فترات تاريخية متلاحقة . ولأسباب متعددة وكان الجهاد في سبيل الله أساسا لها . وقد انضفت اليه اسباب أخرى منها التكاثر السكاني في الجزيرة . ومنها الرغبة في الغنائم المتاحة (٥) . كما أعانهم على النصر براعة استغلال القوى وحسن استخدام الجمال في الانتقال السريع . امتدت الفتوحات ، في



٤

ونشأ جيل أولاد الصحابة الفاتحين على الرفاه وحب الحياة الرخية . كان وادي النعيق أحد مواقع الراحة حول المدينة بنى فيه أهلها القصور والبيوت . في الصورة قصر عروة بن الزبير بن العوام هناك كما هو اليوم وبجواره بئر أعذب منها . ليس بالمدينة بئر أعذب منها . وعروة (٦٤٣ - ٧١٢) كان يعد أحد فقهاء المدينة السبعة وأحد المؤرخين . وأخوه عبد الله بن الزبير ظل خليفة حوالي عشر سنين (٦٨٢ - ٦٩٢) .



(٥) - تراكتت الأموال اثر الفتوح في المدينة . عاصمة الدولة فعرفت فترة من الرخاء لم تعرفها من قبل ولا من بعد .

اللوحه من الفضة تعود الى ما قبل عصر الميلاد وتصور مولد اهورامزدا وأهرمن اللذين يمثلان معبودات الخير والشر.

(٤) - عند الفتح الاسلامي كان العالم القديم مقسوما بين ديانيتين ، المسيحية على حوض البحر المتوسط كله والزرادشتية في ايران . وكما كان في المسيحية مذاهب متعددة كذلك كان للزرادشتية مذاهبها المتصارعة . أقامها زرادشت في القرن السادس ق . م . على اساس عبادة اله الخير اهورامزدا (يزدن) لمعونه على قهر اله الشر أهرمن . الأول هو مصدر السعادة والصحة والنور والخلق . والثاني هو النقيض له . هذه

وقت واحد نحو الشرق الاسيوي والغرب الافريقي .

فتح العراق وبلاد فارس

تمتد فترة الفتوحات الأولى منذ وفاة الرسول (ص) (١١ هـ / ٦٣٢ م) . حتى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٣٥ هـ / ٦٥٦ م) .

مهدت للفتوحات سلسلة من الغزوات في اتجاه الشام والعراق (٣) كان نجاحها حافزا للخلفاء الراشدين على توسيع رقعة القتال ، وتنظيم اساليبه ، وتوفير الاسباب المادية والبشرية لامتداده . معركة القادسية (ربيع سنة ٦٣٧ م) كانت المعركة الفاصلة مع الامبراطورية الساسانية التي انهارت بعدها . قادها سعد بن ابي وقاص (١) . وصلت راية الفتح الاسلامي في هذه الفترة حتى مدينة بلخ (شمالي افغانستان حاليا) . وشملت العراق ومعظم بلاد فارس باستثناء بعض المناطق الى الجنوب من بحر قزوين . كانت خراسان الخصبة أهم المناطق التي وصلها الفتح وأبعدها . الا ان الحرب الاهلية التي نشبت بين معاوية وعلي أوقفت مؤقتا هذه الفتوحات الاولى . أنهت هذه الحروب ، في المشرق . كيانا سياسيا مضى على وجوده أكثر من ٢٠ قرنا وكان خلال الألف سنة التي سبقت الاسلام احدى قوتين هما أعظم قوى العالم . لها تكوينها السياسي والعسكري (الاخميني - الساساني) . وسلالتها الملكية الوطيدة ، ودينها القومي الزرادشتي (٤) .

موجة الفتح الثانية في المشرق

بدأت زمن الخليفة الاموي الوليد بن عبد

الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) . اذ قاد قتيبة بن مسلم الباهلي جيوشا من العرب والموالي . في سلسلة من الفتوحات . حملت المسلمين الى ما وراء النهر (أي نهر جيحون ، وهو الآن نهر آموداريا) . ففتح بخارى وسمرقند ثم بلاد خوارزم ، ثم سار قتيبة حتى اجتاز نهر سيحون (سرداريا) . على الطريق التجاري العالمي الى الصين .

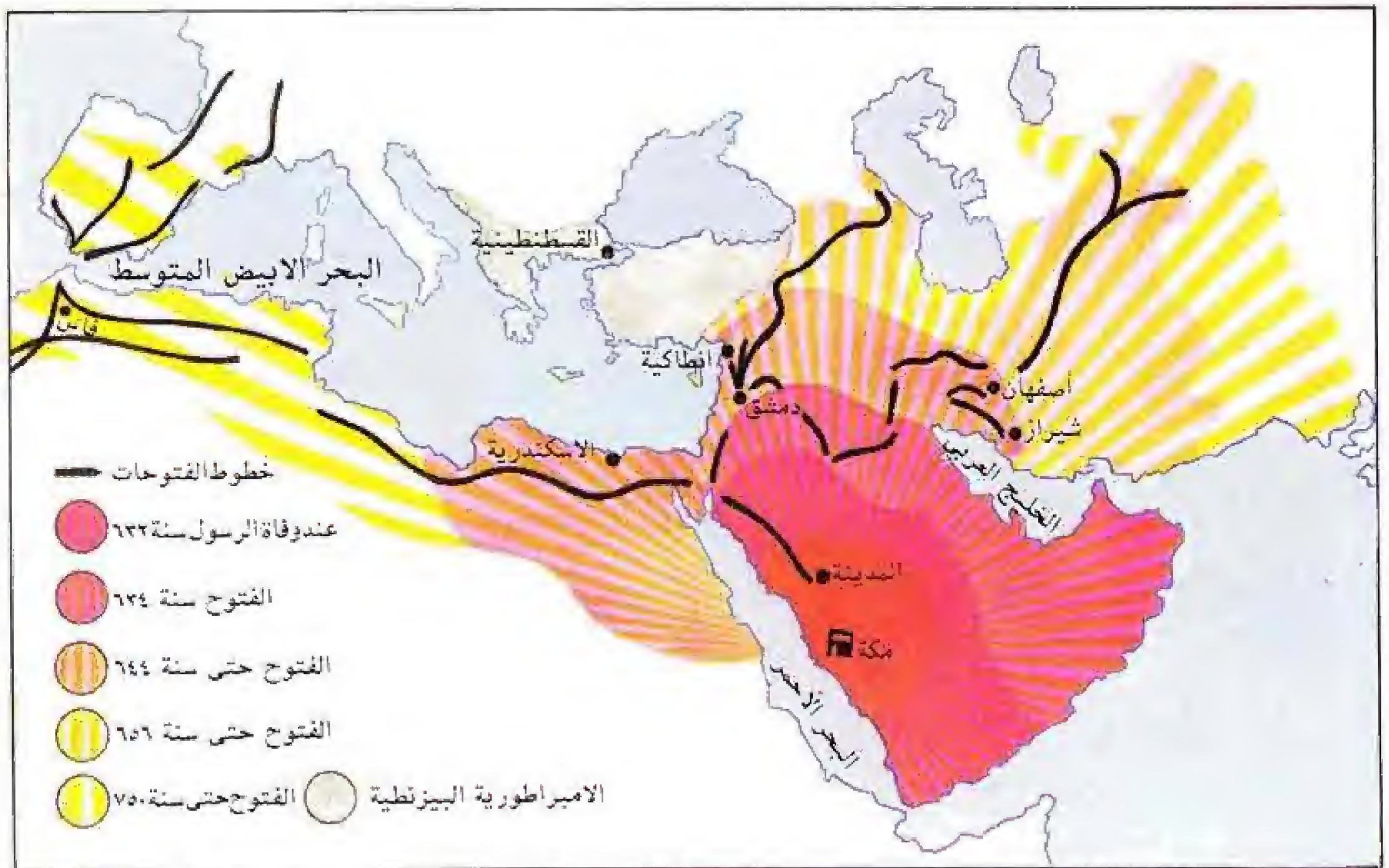
في الزمن نفسه تقريبا ، سار الفاتحون في اتجاه الهند بقيادة محمد بن القاسم الذي افتتح السند (اقليم كراتشي حاليا) . من ثم توجهوا الى البنجاب حيث اصبحت مدينة ملتان (الى الجنوب الغربي من مدينة لاهور حاليا) حاضرة من حواضر الاسلام الهامة في شمالي القارة الهندية .

هكذا بلغ الفتح الاسلامي مشارف الصين والهند . غنم الفاتحون بفضله غنائم طائلة ومواقع جغرافية استراتيجية أدت الى تغييرات جذرية في مجرى التاريخ الاقتصادي العربي الاسلامي . وفي مجرى الحضارة العربية الاسلامية . ذلك ان الفاتحين قد اتصلوا بحضارتين عريقتين في القدم هما الصينية والهندية . فأغنوا بذلك التراث الاسلامي المتفتح . خلقت هذه الموجة من الفتوحات اقليمين جديدين من اقاليم الاسلام : اقليما تركيا - خوارزميا . في الشمال ، صيني الطابع ، واقلما سنديا في الجنوب هندي الطابع . بالاضافة الى الاقاليم الفارسية السابقة . وعلى كل حال فان هذا التوسع العربي الاسلامي المنقطع النظير . كان سياسيا واقتصاديا أيضا ، وقد نجمت عنه أعماق التغيرات في تاريخ البقاع المفتوحة والتاريخ الانساني .

الفتوحات الإسلامية^(٢)
في المغرب

متفرقة . امتدت أولا عبر الشمال الافريقي حتى أقاصي المغرب . ثم انشنت فعبرت مضيق جبل طارق الى ايريا وجنوب فرنسا . بعد ذلك بفترة من الوقت انشنت باتجاه افريقيا الشرقية والوسطى والغربية . مع هذا التوسع الجغرافي لم يحاول المسلمون اجتياز الشقة المائية الضيقة وهي البحر الأحمر الى الحبشة (٤) . انتقل الاسلام اليها سلما مع التجار .

شملت الفتوحات الاسلامية غربا منطقة حوض البحر الابيض المتوسط . عدا شواطئه الشمالية . كما شملت فيما بعد أيام العثمانيين مناطق واسعة من اوروا الجنوبية الشرقية والوسطى . كانت الفتوح على دفعات



الملك بن مروان حسم الفتح في
أفريقية . ندب لذلك حسان بن
النعمان الغساني . الذي فتح
قرطاجة عنوة سنة ٦٩٥ ثم هزم
الكاهنة البربرية التي كانت
بالتعاون مع الروم قد استولت
على أفريقية وخربتها . كانت
الهزيمة سنة ٧٠٣ نهائية وبدأ من
بعدها استقرار الفتح ونشر
الاسلام .

نصبه له البربر وزعيمهم كسيلة
عند بلدة بسكرة سنة ٦٨٣ ما
يزال قبره في مكان استشهاده
وعليه جامع في قرية سيدي
عقبة شرقي الجزائر . بعد
خمس سنوات استطاع زهير بن
قيس البلوي أن يهلك كسيلة
وجماعته عند بئر حمس (قرب
القيروان) لكنه قتل غيلة في
عودته الى مصر . فقرر عيد

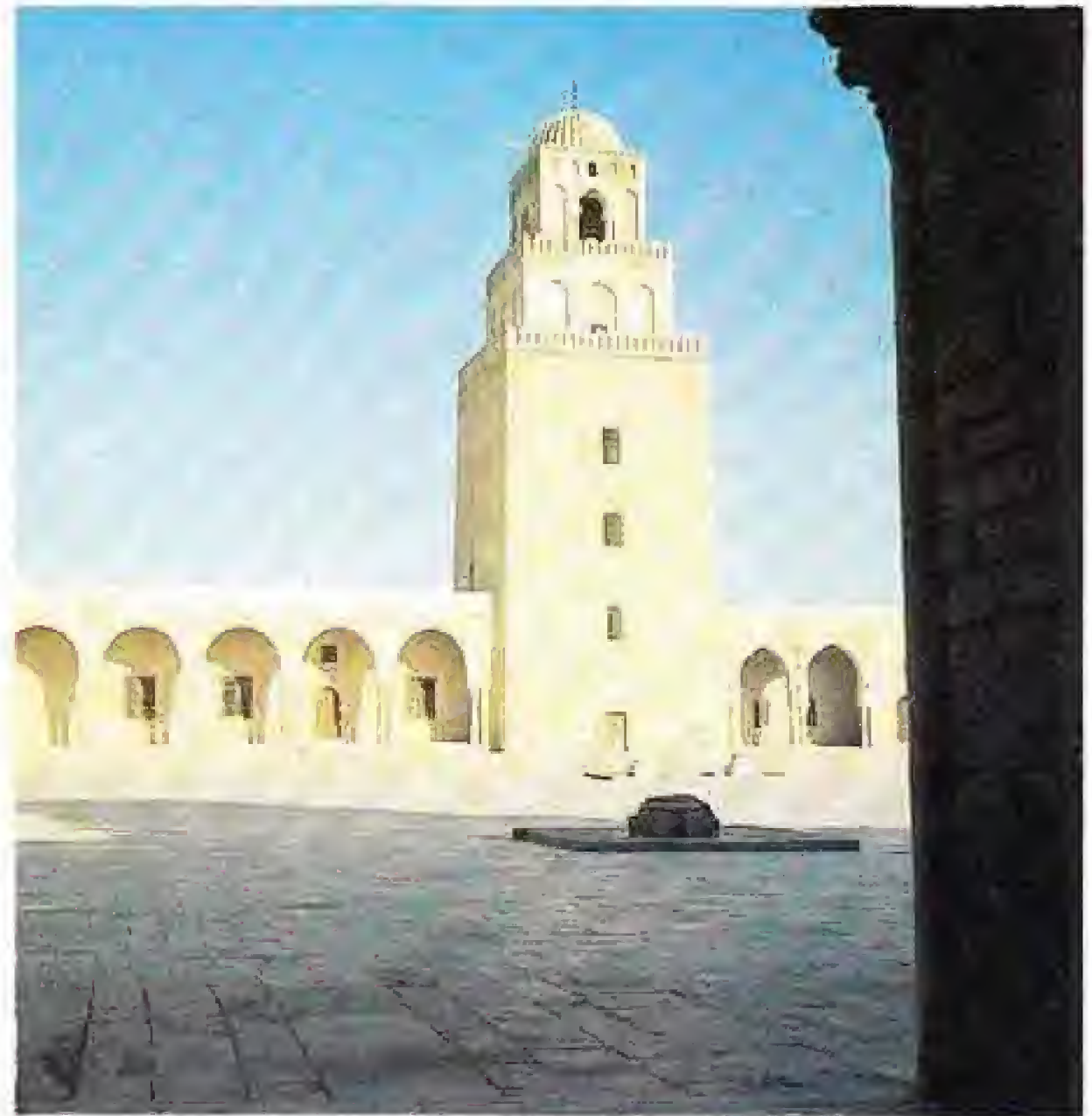
الأولى ما بين سنتي ٦٤٣ - ٦٧٠
كانت ما بين الفتح
والاستكشاف ثم فيها فتح برقة
وفزان وطرابلس والانساح
حتى افريقية على يد عبد الله
بن سعد . حين جاء عقبة بن
نافع بدأ الفتح المستقر سنة ٦٧٠
هو المرابط الأول . بنى
القيروان سنة ٦٧٠ لتكون قاعدة
الفتح ورباطه . قتل في كمين

(١) - استمرت عمليات الفتح والاستقرار في شمالي أفريقيا فترة تقارب سبعين سنة وذلك لسببين . أولهما القوة البحرية البيزنطية التي كانت تمد الحاميات . وترسل الهجمات عبر جناحها الغربي في صقلية وإيطاليا . والثاني المقاومة المحلية التي تمثلت في بعض القوى البربرية . العمليات

فتح سوريا ومصر

في الموجة الأولى من الفتوحات الإسلامية غرباً حمل المسلمون راية الفتح ، حتى قبل وفاة الرسول الأعظم الى اطراف سورية الجنوبية ثم دخلوا الشام أيام ابي بكر وعمر ، ودخلوا في الوقت نفسه مصر في فترة قصيرة جداً ، بعد سلسلة من الانتصارات الحربية الباهرة على الروم (البيزنطيين) في البر والبحر . وكانت المعركة الحاسمة معهم

هي معركة اليرموك (سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م .) في وسط الشام التي قادها خالد بن الوليد وانسحب الروم نهائياً بعدها من سورية (٥) . من بلاد الشام انتشر الفاتحون شمالاً في الاناضول والجزيرة وارمينية حتى تخوم البحر الاسود الشرقية . في الوقت نفسه كانت مصر تفتح على يدي عمرو بن العاص . دام فتحها ما بين سنتي ٦٣٩ و ٦٤١ وسقط في النهاية حصن بابليون الذي اقيمت عنده الفسطاط .



(٢) . كما فعل العرب في العراق والشام ومصر . من بناء المدن المعسكرات لتكون مواقع فتح متقدمة كذلك رأى عقبة بن نافع أن يفعل في افريقية وأن يبني مدينة تكون رباطاً للمجاهدين . يذكرون أنه كان بموضع القيروان شجر كثيف تسكنه السباع فنظفه عقبة أولاً بالنار ثم خطط المدينة فجعل فيها المسجد ودار الامارة

والذخائر ومن حول ذلك مساكن القبائل . كمل البناء في اربع سنوات (٦٧٠ - ٦٧٤) . جامع القيروان (الصورة) بنيت جوامع عديدة في موقعه نفسه منذ بناء عقبة بن نافع . لقد جدد هذا الجامع سنة ٧٠٣ ثم بني جامع آخر مكانه سنة ٧٧٢ . أما الجامع الحالي فقد بناه سنة ٨٣٦ الأمير زيادة الله بمقاييس المستطيل الذهبي .

مخطط الجامع يشبه المسجد الأقصى . مئذنته مربعة بارتفاع ١١ متراً وبثلاثة طوابق وتحمل الطابع العسكري تماماً كالجدران الخارجية المدعمة والمزودة بالأبراج .

(٣) - لعب « الجمل » دوره في عملية السوق العسكري والتحرك العربي السريع بين الجبهات . كما لعبت الخيل

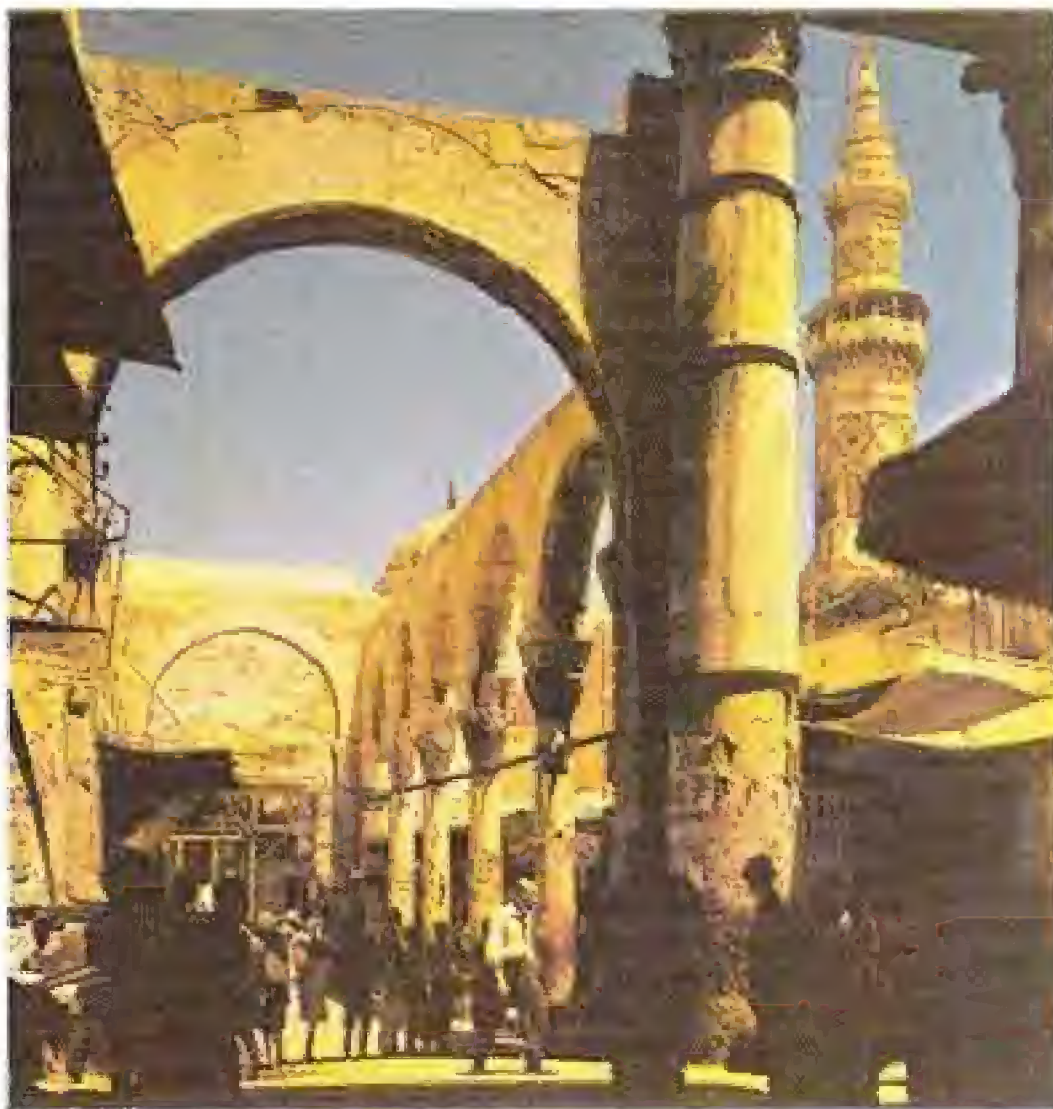
دورها . اثنى في حركة الجيش الرومي البري على الطريقة الرومانية القديمة أعان المجموعات العربية القليلة على ضربه والانتصار عليه وبخاصة في افريقية حيث تقل حاميات بيزنطة . الصورة رسمت في الأصل لتزيين نسخة من مقامات الحريري (موجودة في المكتبة الوطنية في باريس) .

(مصر القديمة اليوم) ثم استسلمت الاسكندرية سنة ٦٤٢ . بعد ذلك بسنة واحدة كان الفاتحون يفتحون بنغازي . وينساحون وراءها حتى افريقية .

رغم ان القوى العربية كانت قوى برية (٣) في الاساس الا ان قيادتها في الشام (وكانت لمعاوية) أدركت ضرورة الاسطول البحري لحماية الفتوح ولمتابعتها . غزا معاوية بنفسه قبرص (سنة ٣٠ هـ / ٦٤٩ م)

ثم حقق المسلمون أول وأهم نصر بحري لهم في معركة ذات الصواري (شمال قبرص سنة ٣٥ هـ / ٦٥٤ م) حين دمروا الاسطول الرومي . وكان بقيادة امبراطور الروم . واضطروا للهرب . نتيجة المعركة كانت ان الحوض الشرقي للبحر المتوسط صار بيد الاساطيل العربية .

بدأ اثر ذلك الاعداد لغزو القسطنطينية عاصمة الروم . تمهيدا لذلك أرسلت الغزوات



(٤) - علاقة الحبشة بالعرب تعود الى عدة قرون قبل الميلاد وكانت سبب ظهور حضارة أكسوم . وعلاقة الاسلام بها تعود الى أيام الهجرة الأولى السابقة لهجرة المدينة . كانت العلاقات دوما تجارية مع الأحباش . لكن الدين الاسلامي انتشر مع العلاقات التجارية في شمال شرقي الحبشة وبخاصة في القرون ١٠ - ١٣ م . وأصبحت المنطقة من أرخبيل دهلك ومصوع الى بلاد الصومال تدين بالاسلام وتتكلم العربية الخليفة . امتد الانتشار الاسلامي عميقا بعد ذلك .

(٥) - نزل العرب الفاتحون من الشام في أرض لهم معها صلات قديمة ولهم فيها أهل وتجارات لذلك تمركزت المقاومة في الروم الذين كانت لهم مدنها أو احيائهم في المدن القديمة . ولما هزموا في اليرموك جلوا عن الشام كله . حين دخل الفاتحون دمشق كان المعبد الوثني القديم في وسطها قد تحول كنيسة ولكنه كان يحتفظ ببواباته المزخرفة الضخمة . الصورة لبقايا البوابة الغربية التي ما تزال قائمة اليوم عند مدخل الجامع الأموي .

على رودوس واقريطس (كريت حاليا)
(سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م) وتوجهت حملة برية ،
بقيادة يزيد بن معاوية ، حاصرت
القسطنطينية سنوات (٦٧٣ - ٦٧٧ م) ولكن
ابتكار النار الاغريقية أفشل الحملة . الحدود
الأناضولية التي قامت بعد هذه الفتوح لم
تتغير بشكل ملحوظ ، ورغم الحروب ، الى
أن جاء السلاجقة في القرن الحادي عشر .

فتح شمال افريقيا

في شمال افريقيا استمرت الفتوحات ، في
هذه الفترة ، دون انقطاع تقريبا . ففي العام
٥٠ للهجرة (٦٧٠ م) فتح المسلمون افريقيا
نهائيا وخط القائد عقبة بن نافع مدينة
القيروان (٢) التي اصبحت فيما بعد عاصمة
من عواصم الحضارة الاسلامية في المغرب .
بلغ الفاتحون بعد هذا التاريخ بقليل مدينة
تلمسان (شرقي الجزائر حاليا) . وعاد عقبة
فيما بعد الى الفتح فوصل المغرب الاقصى
مفتتحا مدينة طنجة ، وذلك قبيل مصرعه
وهو عائد عند بسكرة (سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م) .
أما ما تبقى من المدن الساحلية ، فقد سقطت
الواحدة تلو الأخرى ، وكان من أهمها مدينة
قرطاجة ، عاصمة البيزنطيين في شمالي
افريقيا ، التي سقطت عام ٦٩٦ م .

موجة الفتوح الثانية

في الموجة الثانية من الفتح أيام الوليد بن
عبد الملك عبر طارق بن زياد مضيق البحر
وفتح نصف بلاد الأندلس تقريبا ، وتبعه القائد
موسى بن نصير الذي فتح ما تبقى منها ،
باستثناء جزئها الشمالي (سنة ٧١١ - ٧١٣) .
استقرت الحدود مع الفرنجة عند جبال

البرتات (البيرنة) . ولكن الفتح استمر في
جنوب فرنسا ووسطها حتى وادي الغارون
واللوار مدة قرن . من المعارك الهامة معركة
بلاط الشهداء التي استشهد فيها عبد الرحمن
الغافقي سنة ٧٣٢ م . وقد حملها الفرنسيون
بالأهمية لتمجيد قائدهم شارل مارتل مؤسس
الأسرة الكارولنجية . لكن الوجود العربي استمر
قرنا آخر في جبل القلال قرب « كان » .

لم تتغير حدود الدولة الاسلامية الا قليلا
بعد موجة الفتوح الثانية أيام الوليد بن عبد
الملك الذي حاول بدوره فتح القسطنطينية .
العباسيون كانوا يعتبرون الحدود التي وصلتها
الدولة نهايات فبدلوا همهم للدفاع عنها بينما
كان الامويون يعتبرونها بدايات لا يصلون
الى نقطة الا اعتبروها معبرا للتجاوز .

أهم ما تم أيام العباسيين من التوسع كان
في بعض بلاد تركستان . أما عدا ذلك فقد
قامت قوى بحرية اسلامية بالتوسع في
المتوسط فأخذت خاصة جزيرتين :

الأولى : كريت التي احتلتها قوة من أهل
الاندلس هم جماعة الربض الذين طردهم
فلجأوا الى الاسكندرية ، ثم أخرجوا منها
فاحتلوا كريت (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) وأقاموا
فيها حكما اسلاميا استمر حتى ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

الثانية : صقلية وقد غزاها الأغلبة منذ
سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م . وهم اسرة حكمت
افريقية منذ عهد الرشيد . وتدين بالولاء
الاسمي للعباسيين . بذلوا في فتح صقلية
وجنوب ايطاليا كثيرا من الجهد والمال
والزمن . لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية .
دام الحكم الاسلامي في صقلية حوالي قرنين
ونصف القرن حتى أخذها النورمانديون
بالتدريج بين سنتي ١٠٠٦ م وسنة ١٠٩١ م .

الاسلام في عصره الذهبي

١٣٢ هـ / ٧٥٠ م .

- العصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ الى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م حين سقطت بغداد في ايدي المغول . ويلحق به عصر الخلافة العباسية السورية الذي ظهر في القاهرة تحت ظل المماليك منذ سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م حتى سقوطهم على أيدي العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م .

عند وفاة الرسول (ص) حلت مجموعة

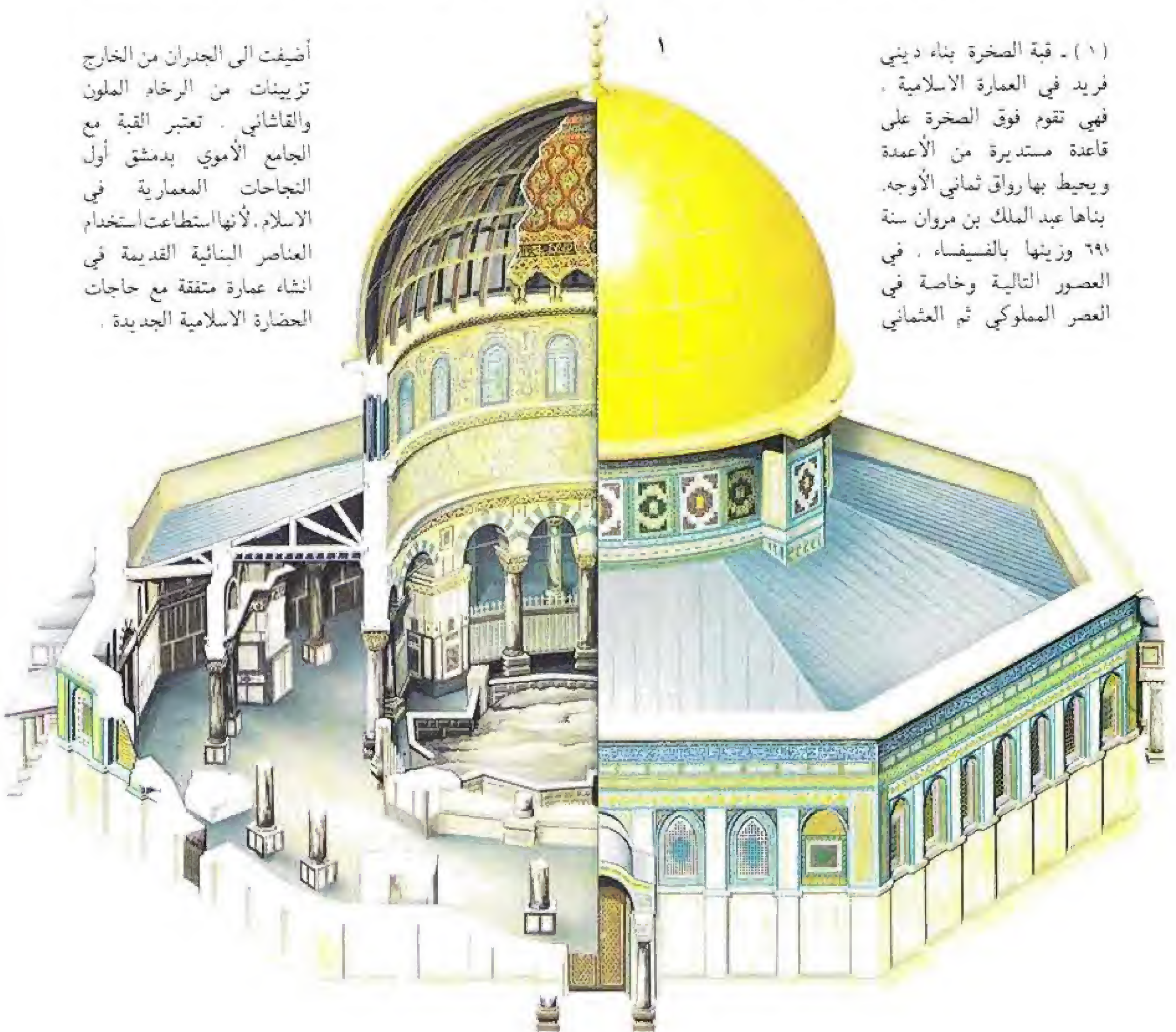
تاريخ الاسلام الذي بدأ بعهد الرسالة يقسمه المؤرخون الى عصور :

- عصر الخلفاء الراشدين الاربعة ما بين سنة ١١ هـ الى سنة ٤٠ هـ (٦٣٢ - ٦٦١) .

- العصر الأموي من سنة ٤٠ هـ الى سنة

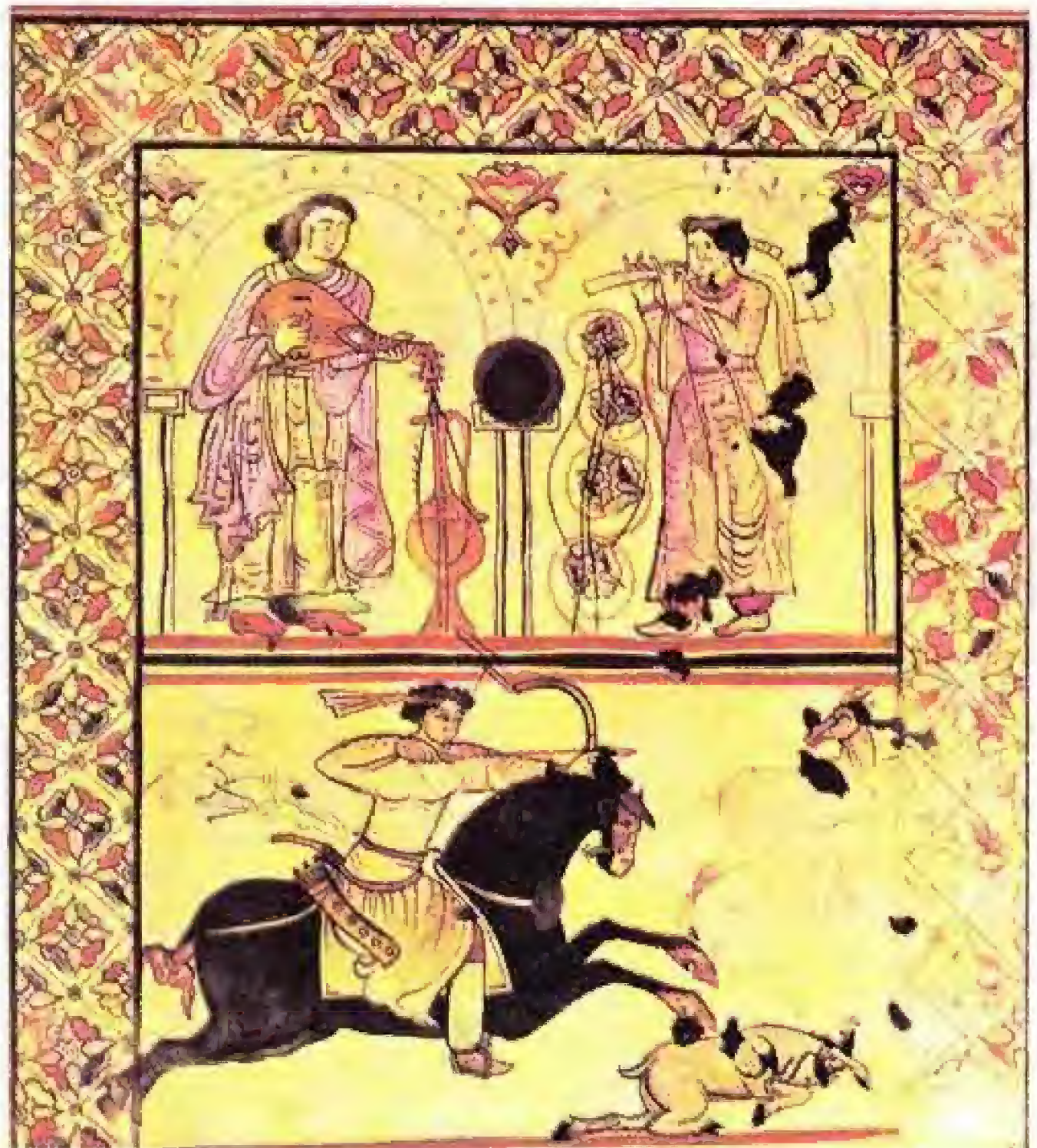
(١) - قبة الصخرة بناء ديني فريد في العمارة الاسلامية . فهي تقوم فوق الصخرة على قاعدة مستديرة من الأعمدة ويحيط بهارواق ثمانية الأوجه . بناها عبد الملك بن مروان سنة ٦٩١ وزينها بالفسيفساء . في العصور التالية وخاصة في العصر المملوكي ثم العثماني

أضيفت الى الجدران من الخارج تزيينات من الرخام الملون والقاشاني . تعتبر القبة مع الجامع الأموي بدمشق أول النجاحات المعمارية في الاسلام . لأنها استطاعت استخدام العناصر البنائية القديمة في انشاء عمارة متفقة مع حاجات الحضارة الاسلامية الجديدة .



الصحابة مشكلة رئاسة الجماعة الاسلامية ، في اجتماع بسقيفة بني ساعدة ، بايعوا فيه ابا بكر الصديق لخلافته . لم يدم عهده سوى سنتين قام فيها بعملين هامين : قمع المرتدين الذين كانوا ، حتى قبل وفاة صاحب الرسالة ، قد انتقصوا على السلطة الاسلامية في الجزيرة ، وارسال الجيوش للفتوح . عهد ابو بكر بالخلافة الى عمر الذي تابع الفتوح . وتابعتها من بعده عثمان بن عفان . خلافة

علي بن ابي طالب تمرد عليها بعض الصحابة . اخمد حركة بعضهم (معركة الجمل سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م) لكنه اضطر لمحاربة معاوية طويلا (معركة صفين سنة ٦٥٧) فلما قتل في مؤامرة . كان معاوية أقوى الصحابة مركزا فاستطاع نوال الخلافة . تميز عصر الراشدين عدا التوسع والفتوح . بتنظيم الدولة الجديدة . وبناء المدن ، والنزوح الاستيطاني العربي الى منازل الفتح ، وتراكم



(٢) - كان من عادة الخلفاء الأمويين بناء القصور في البادية . منها قصر الحير الغربي بناه هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣) على الطريق من تدمر الى دمشق سنة ٧٢٨ يتألف من مجموعة قصرين كبير وصغير ولهما سور

واسع يزيد على ٦ كم . وثمة قناة تنقل الماء من سد بعيد جدا يجمع السيول وثمة مزرعة واسعة حول الأبنية . قاعات القصر كانت مزينة والصورة من قاعة الصيد فيه . نقلت مع بوابة القصر الى متحف دمشق .

(٣) - وجد هذا الابريق البرونزي في الفيوم مع بعض الحاجات البرونزية الأخرى وهو يعود الى القرن الثامن الميلادي ويظنون انه لمروان (الثاني) ابن محمد آخر خلفاء بني أمية الذي قتل في بوضير بالفيوم سنة ٧٥٠ م . زخارفه

المنقوشة عليه مذهشة الدقة والجمال مقاييسه ٢٨ x ٤١ سم . وهو من محفوظات المتحف الاسلامي في القاهرة وله مثل في متحف متروبوليتان في نيويورك . وهما من المصنوعات المعدنية القليلة الباقية من العهد الأموي .

الثروات بيد قادة العرب نتيجة الغنائم ، وتملك الأرض ، وظهور الاتجاهات السياسية المتعارضة . برغم ان الخليفة الثاني ذهب ضحية الفتوح والثالث ضحية الفاتحين والرابع ضحية التنافس . الا ان العهد الراشد بقي في الأذهان النموذج المثالي لعصر الايمان والتقوى .

العصر الأموي

بدأ بمعاوية . وكان انقلابا في طريقة

الحكم المشيخي الذي مثله الراشدون . أدخل معاوية طريقة الحكم الوراثي التقليدية في المشرق . مهارته السياسية مكنته من الخلافة عشرين سنة ، ثم اعطاها لابنه يزيد (٤٠ سنوات أخرى) حتى تخلى عنها حفيده . فنهض لها فرع آخر من البيت الأموي (مروان بن الحكم وابنه عبد الملك) . استطاع التغلب على الصعوبات والطامعين . استمر العصر الأموي تسعين سنة توالى خلالها ١٤



(أ) وأطلاله قرب أريحا في غور الأردن) نجد نموذجا من الفسيفساء رائع الجمال في أرض الحمام . نرى في (أ) جانبا منها لأسد يفترس غزالا . أما (ب) فنموذج من الزخارف التي تزين أعلى الجدران في باحة القصر بطائر الحجل الملون .

(٥) - مجموعة الفسيفساء التي وصلتنا من العصر الأموي في الشام تمثل مرحلة الأوج في هذا الفن التزييني سواء في جمالها واتقانها أو تنوع مواضيعها كما تمثل في الوقت نفسه مرحلة النهائي في هذه الصنعة الفنية . في قصر المفجر الذي بني حوالي سنة ٧٤٣

رائعة من الصور الفنية تظهر فيها مشاهد الاستحمام والصيد وطراد الغزلان وحمر الوحش مع كلاب الصيد . وبعض المشاهد الموسيقية . وفي إحدى القباب تتمثل قبة السماء مع الأفلاك فيها والنجوم . يعتبر القصر ثروة فنية ، أو وثيقة حول التصوير في الشام في العصر الأموي .

(٤) - يقوم قصر عمرة في البادية شرقي الأردن . بناه حوالي سنة ٧١١ الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) ليكون منتجعا للراحة والصيد . وأقام فيه عدا أركان السكنى قاعة للعرش وثلاث قاعات للحمامات . أهم ما فيه ان جدرانه قد زينت بمجموعة

خليفة . حكم ثلاثة منهم ستين سنة (معاوية . عبد الملك . هشام) وحكم الوليد بن عبد الملك عشرا . بلغت الدولة الاسلامية خلال هذا العصر أقصى اتساع لها . بعد الموجة الثانية من الفتح ايام الوليد (٨٦ - ٩٥ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) وأخيه سليمان (٩٥ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٨ م) . صارت الدولة الأولى والكبرى في العالم . تبلورت الاتجاهات السياسية في أحزاب اتخذت لمواقفها أسسا دينية : كالخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة . عبد الملك وولاته عربوا دواوين الدولة والنقود مسجلين أولية الثقافة العربية والاستقلال الاقتصادي . سيطر العرب على البحر المتوسط (بعد معركة الصواري سنة ٣٤ هـ / ٦٥٥ م) . فتحركت التجارة العالمية حرة تحت سلطانهم بين الهند وأوروبا . ظهرت الملكيات الزراعية الواسعة . كثر الذهب في الولايات المركزية من الدولة بسبب عودة كمياته المجمدة قديما الى التداول والاكثار من استخراجها . بنيت جوامع وقصور عديدة (١) و (٢) و (٤) في الناحية الثقافية . بدأ تعريب الثقافات القديمة . والجدل في الدين ونشط الشعر والأدب . وتنظمت الكتابة العربية ووضعت أصول النحو .

دولة العباسيين

استطاع تنظيم سري قاده أحد أحفاد العباس (عم النبي) أن يفجر ثورة عربية في خراسان نجحت في النهاية في احتلال العراق . ثم النصر على مروان بن محمد آخر الأمويين (معركة الزاب سنة ١٣٢ هـ) ثم قتله (٣) في الفيوم بمصر .

بدأ العصر العباسي بخلافة ابي العباس سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ثم أخيه أبي جعفر سنة

١٣٦ هـ / ٧٥٤ م الذي كان جميع خلفاء بني العباس . بعد ذلك . من نسله . توالى من العباسيين حتى سنة ٨٦١ م . ثمانية خلفاء كان أبرزهم المنصور (حكم سنة ١٣٦ - ٢٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م) والرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٧ - ٨٠٩ م) والمأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٤ - ٨٣٣ م) وأخيرا المتوكل (٢٣٤ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٨ - ٨٦١ م) . كان العصر كله متمما وتطورا في مختلف النواحي للعصر الأموي .

السياسة العباسية

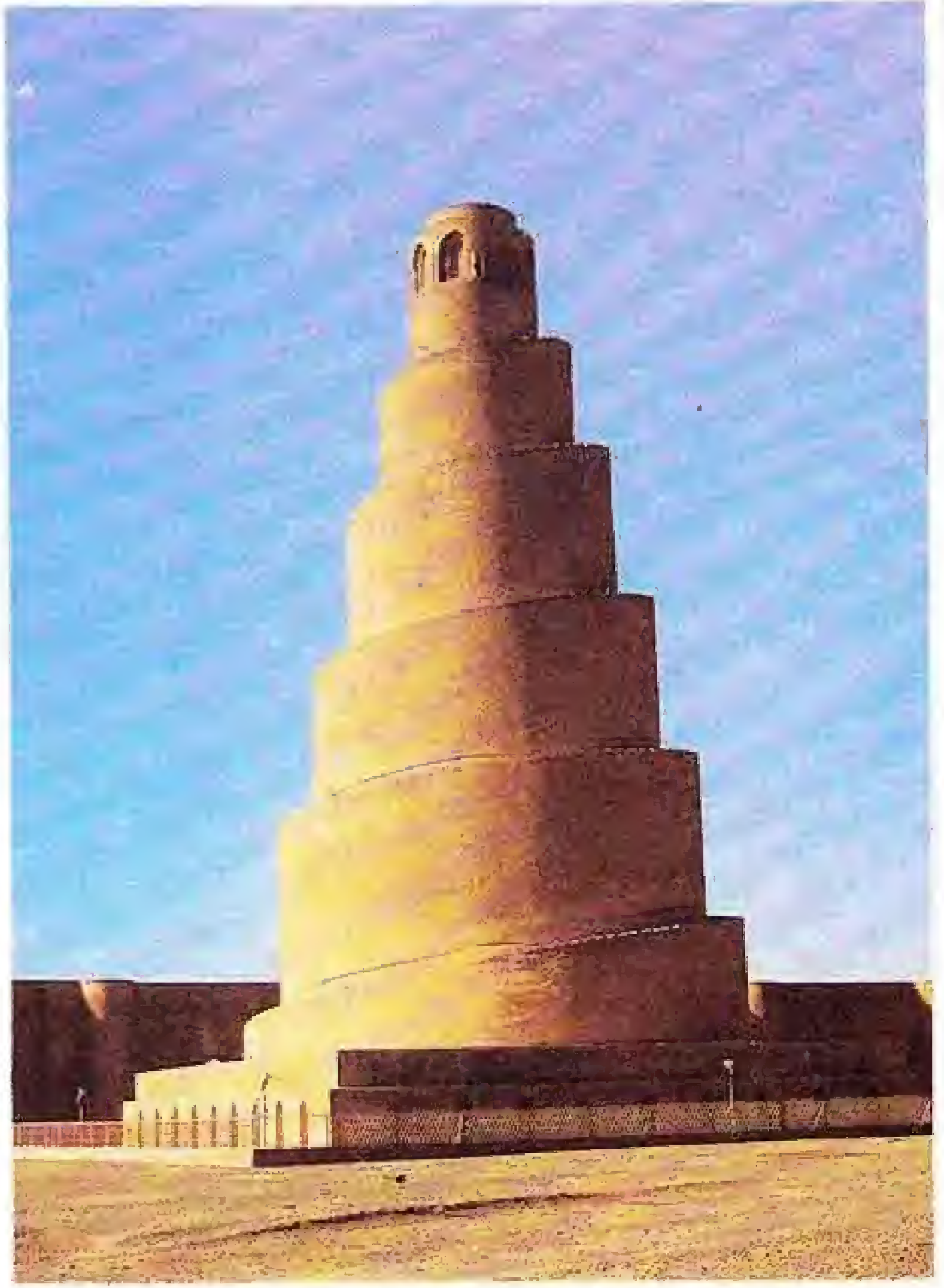
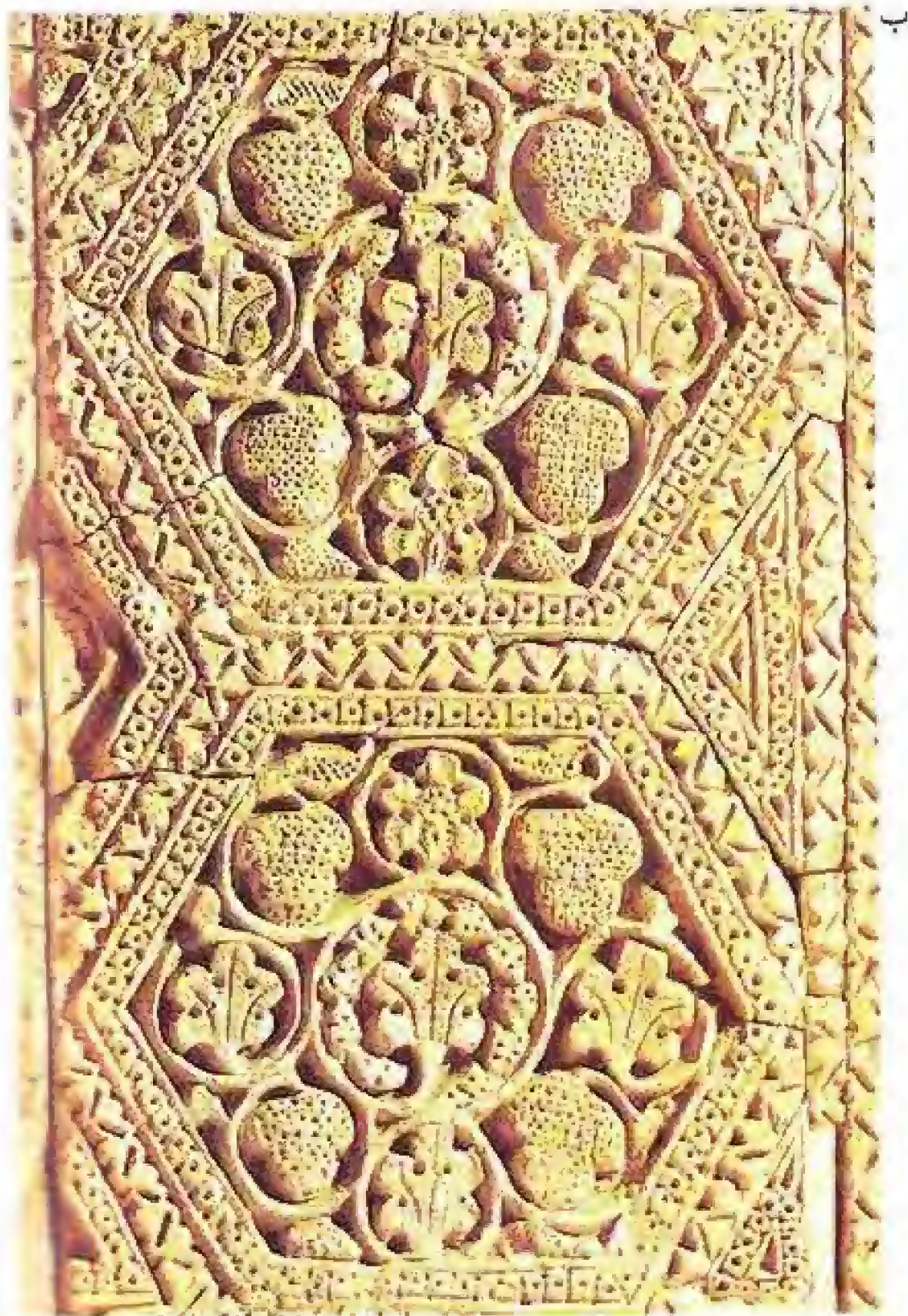
لم تتغير سياسة بني العباس كثيرا عن الأمويين في العهد العباسي . ظل العلويون كالخوارج هدف القمع وأضيف اليهم الأمويون الذين تمكن أحدهم (عبد الرحمن الداخل) أن يهرب ويقتطع الاندلس امانة له ولأبنائه . السياسة الخارجية اعتمدت الدفاع عامة لا الهجوم . في الداخل أيد العباسيون السنة والجماعة . أصيبت دولتهم بهزة كبيرة في خلاف الأمين والمأمون حتى قتل الأمين . تعقدت الادارة ودخلها اعداد من الفرس والسراني المسلمين وغيرهم .

توطد بالتدريج منصب الوزارة التي كان البرامكة أشهر من تولاها ثم نكبهم الرشيد (مطلع سنة ١٨٧ هـ) . أوجد المعتصم جيشا نظاميا كبيرا من المماليك الاتراك . نشطت الزراعة والتجارة العالمية وبخاصة في العراق . فتكونت طبقة من الخاصة « مقابل فقر العامة » . بنى المنصور بغداد (سنة ١٤٥ - ١٤٨ هـ / ٧٢٦ - ٧٦٥ م) ثم بنى المعتصم سامراء (٢٢٠ - ٢٢٥ هـ / ٨٣٥ - ٨٤٠ م) عاصمة للدولة .

الخلاف

موافقة الجماعة الإسلامية . وتلك هي « البيعة » . لكن سلطاتها المطلقة ، بسبب الهامش الواسع بين النصوص الالهية العامة وخصوصيات الواقع الحياتي ، جعلها مجال الخلاف العملي والفكري . لذلك كان تطورها التاريخي يلخص التاريخ الاسلامي كله . وكان الخلاف حولها يفسر الكثير من أحداثه . ومن الاختلافات الفقهية والسياسية بين الفرق والأحزاب .

الخلافة مؤسسة اسلامية محضة . ونظام سياسي خاص بالاسلام . تختلف عن الملك بأنها دينية - دنيوية معا لأن الدولة ذات طبيعة دينية ، وبأنها منصب تنفيذي باعتبار ان التشريع الالهي موجود ، وبأنها تحتاج الى



سامراء وخاصة بالزخارف الجصية البارزة ومن نماذجها (الصورة ب) . بالإضافة الى الرسوم الجدارية . انتشر هذا الاسلوب وتنوعت عناصره الزخرفية في العمارة الاسلامية .

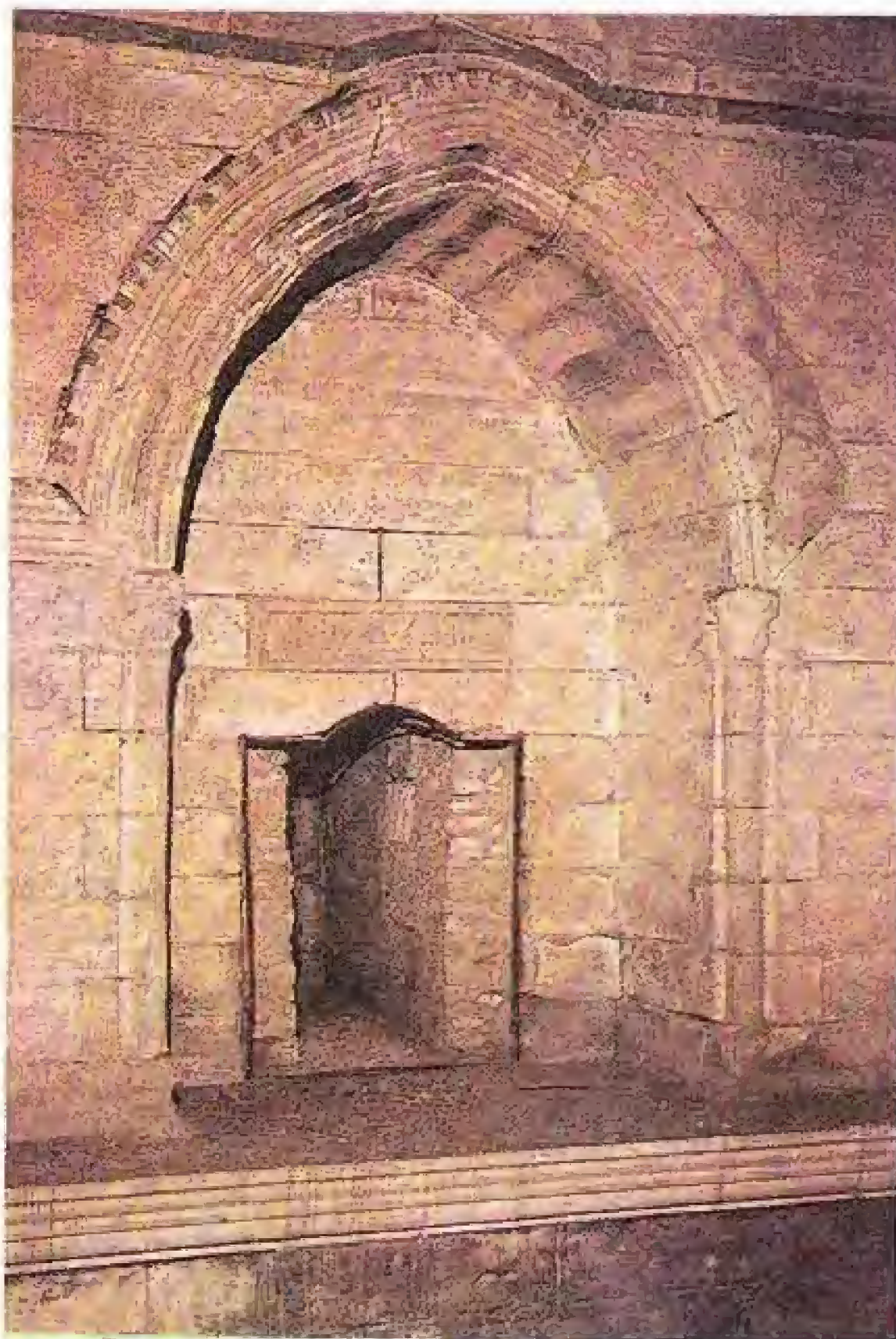
خارج الجامع على شكل برج وعلى نمط الزقزاق القديمة في ما بين النهرين فهي ملوية (أ) ولم يتكرر نموذجها في غير عصرها . وأسرف الخلفاء والكبراء في تزيين قصورهم في

القرن التاسع) . تميز مسجدتها الأعظم باتساعه الضخم (٢٦٠ × ١٨٠ م) ليكون متناسبا مع حاجة العاصمة وكثافتها السكانية . والخلافة العباسية في الأوج . كما تميز ببناء المئذنة

(١) . حاول المعتصم أن يتخلص من أجواء بغداد ويبني لنفسه ولجيشه الجديد التركي مدينة أخرى فكانت (سامراء) التي أضحت عاصمة الدنيا حوالي خمسين سنة (خلال

مر منصب الخلافة بتطورات طويلة ، متنوعة ، سواء من حيث توارثها (ولاية العهد) أو من حيث السلطات . الخلفاء الأوائل وهم الراشدون الأربعة لم يكونوا من أسرة واحدة وإن كانوا جميعا من قريش . كان استخلافهم نوعا من الانتخاب المحدود . اختارهم وجوه المسلمين . في المدينة . وبويعوا البيعة الخاصة . ثم بايعهم المسلمون في الأمصار البيعة العامة .

الخلاف الذي أثاره معاوية بن أبي سفيان ضد الخليفة الرابع علي ، أدى إلى القتال . أعلن نفسه أميرا في القدس (سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م) . فلما قتل علي بعد عدة أشهر ، استمال الناس وأخذ بيعتهم لخلافته . التطور الهام الذي أدخله على المنصب هو تحويله من الانتخاب إلى الوراثة ، باعطائها لابنه . أصبحت الخلافة بعده في أسرة واحدة . صارت ملكا أقرب إلى السياسة منه إلى الدين .



وجدنا لهم اتفاقا على بعض المشاريع الهامة ومنها مثلا إقامة مقياس لنهر النيل في جزيرة الروضة بجانب الفسطاط . بناء المأمون ثم أصلحه المتوكل سنة ٨٦١ . الصورة للباب الداخلي .

(٣) - كان من عادة الخلفاء العباسيين خاصة تمويل عدد من المشاريع العامة في الأقاليم بالإضافة إلى بناء المساجد . وإذا تركنا جانبا عنايتهم كغيرهم بالحرمين الشريفين

خاصة . اتخذوه بعد أن كسر الرهبة الفاطميون . في الصورة أحد أبواب جامع قرطبة الذي يلخص أمجاد الأمويين في الأندلس . ظل يبني ويزين ٢٠٠ سنة .

(٢) - يرتبط اسم قرطبة بالامارة ثم الخلافة الأموية . ظل أمويو الأندلس يتسمون بالأمراء ١٧٩ سنة لأن لقب الخلافة . في القرون الثلاثة الأولى للإسلام . كان ذا رهبة

نظريات الخلافة

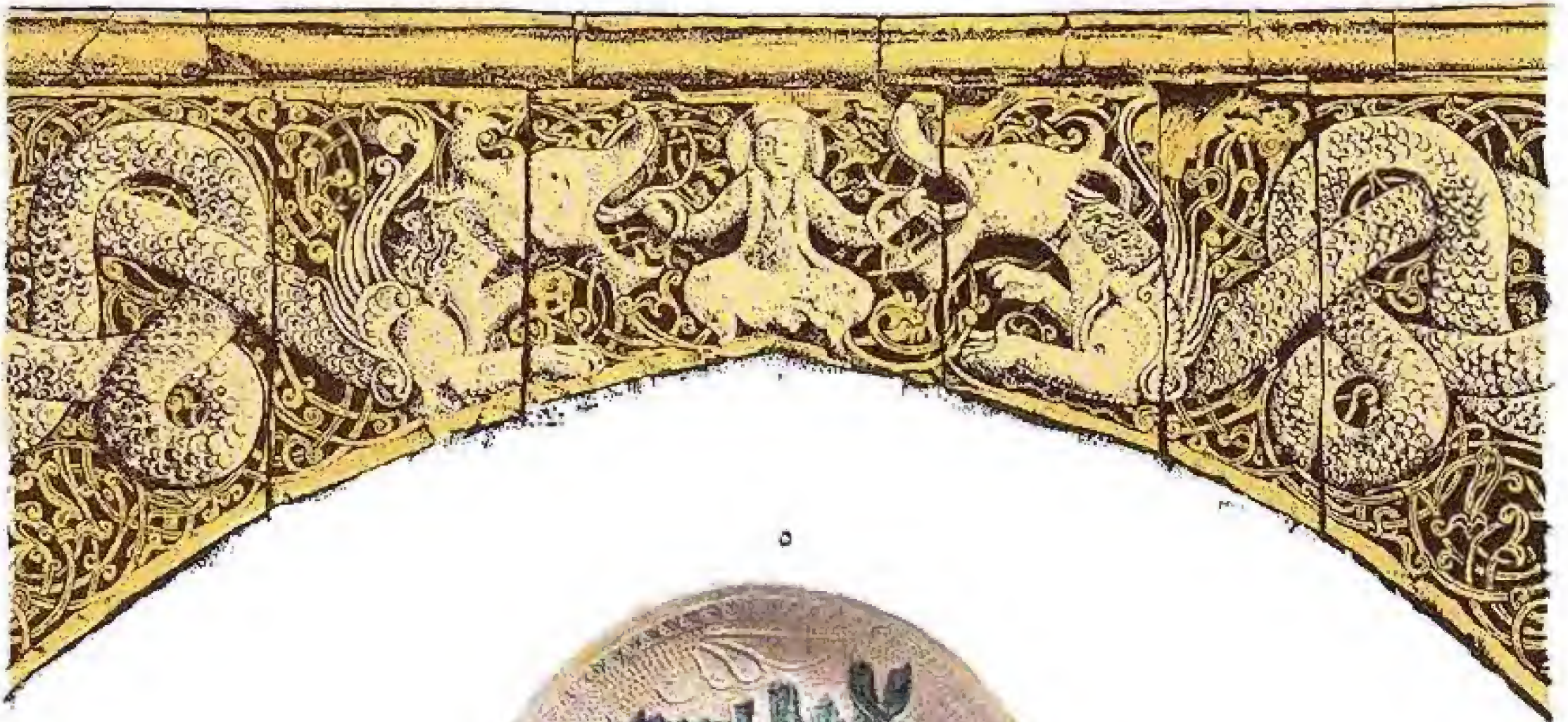
خلال العهد الأموي ظهرت ثلاث نظريات

في الخلافة :

١ - الذين بقوا على مشايعة علي وبنائه عرفوا « بالشيعية » . قبلوا مبدأ الوراثة . لكنهم حصروه في آل محمد بوصفه حقا الهيا . مع الأيام تفرعت عنهم فرق عديدة حارب بعضها واستشهد زعماءها . أهم التفرعات كانت في مطالع العصر العباسي حين قام الاختلاف

حول الامام السابع ابن جعفر الصادق . فبعضهم تبع ابنه اسماعيل وهم السبعية . وبعضهم اتبع ابنه الآخر موسى الكاظم وبنائه من بعده حتى الامام الثاني عشر (المهدي المنتظر) وهم الجعفرية .

٢ - الذين رفضوا الامام عليا ومعاوية هم الخوارج . قالوا بأن الخلافة لمن يصلح لها من المسلمين . قاتلوا طويلا دون هذا الرأي وكانت منهم عدة فرق . بقي منها حتى اليوم الاباضية .



(٤) - استفرغ الخلفاء العباسيون جهودهم في بناء القصور في بغداد في العصور المتأخرة . شكلت ما يشبه المدينة على الضفة الشرقية ومع ان ذلك دام خمسة قرون ونيف فلم يبق من بغداد العباسية الا القليل من الآثار . عوامل كثيرة أتت على مظاهر العمران فيها منها الغزوات والاهمال ومنها مادة البناء (بالبن والاجر) التي لا تقاوم الزمن . حتى سنة ١٩١٧ كان أحد أبواب مدينة بغداد ما يزال قائما فهدم . بنى الخليفة الناصر ذلك الباب سنة

ربخاسة في رسم الزخارف تحت الطلاء بلون واحد أو ألوان متعددة . مما ساعد على هذا التطور ما استوردته الطبقات الغنية في العصر العباسي من خزف الصين . كان الابتكار الهام الذي اهتمت اليه الخزافون في العراق هو اكساب الاناء الخزفي بريقا معدنيا بعد طلاؤه بالدهان أو زخرفته البارزة . اشتهرت بذلك بغداد وسامراء والرقّة والحيرة . هذا الطبق زخرف بكتابة عربية بارزة من صنع الحيرة في القرن العاشر أو الحادي عشر .

(٥) - من الآثار العباسية التي بقيت والتي تتوزعها المتاحف مجموعة من القطع الخزفية الثمينة فيها الصحاف والجرار والأكواب . وهي تكشف عن تطور كبير في هذه الصناعة .

٦٨ هـ / ١٢٣١ م وكان آخر ما أضافه خلفاء بغداد الى تلك المدينة قبل سقوطها بيد المغول سنة ١٢٥٨ . يعلو الباب افعوانان لعلهما طلسم لحمايتها لذلك كان يدعى باب الطلسم

٣ - جمهرة المسلمين التي رضيت بالأمر الواقع وبالحكم الأموي عرفت بأهل السنة والجماعة . فيما بعد جاء بعض الفقهاء كالماوردي (ت سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨) وصاغ رأي السنة في الخلافة في نظرية متكاملة ذات شروط وأوصاف محدودة . أهمها أن يكون الخليفة من قريش . لكنها جاءت لاحقة للواقع لا مؤسسة له .

الخلافة العباسية

أعلن العباسيون الثورة على الأمويين باسم « آل محمد » لكنهم حين وصلوا الحكم اعتبروا العباس عم الرسول (ص) هو الوارث الشرعي دون ابن عمه علي . على هذا أقاموا نظريتهم . فيما عدا ذلك اصطنعوا الموقف الأموي نفسه بكامله . اعتمدوا « السنة والجماعة » أساسا لدعم الخلافة . قاتلوا العلويين والخوارج على السواء . لم يضعوا نظاما لولاية العهد فبقيت الوراثة أسرية . تحديد الخليفة المقبل متروك للخليفة السابق . الذي كثيرا ما يعين عددا من أولاده لولاية العهد . أساء ذلك إلى العباسيين كما أساء قبلهم إلى الأمويين .

اصطبغت الخلافة العباسية بالصبغة الدينية أكثر من الأموية . تبنت نظرية التفويض الإلهي التي كانت سائدة في الإمبراطوريات القديمة ولدى الساسانيين ومزجت الدين بالملك . لكن تكاثر المسلمين من غير العرب ، ودخولهم في الدولة وتمازج الثقافات وتشعب الآراء الدينية - السياسية وخصومات الورثين للعرش ولجوء الدولة في النهاية إلى اصطناع الترك في الجيش ، والهرب من بغداد إلى عاصمة أخرى هي

سامراء (١) . كل ذلك أضعف من نفوذ الخلفاء . منذ أواسط القرن الثالث كان الطابع الديني للخلفاء يزداد على حساب النفوذ السياسي . حتى صاروا في القرن الرابع وما بعده مجرد رموز دينية أمام الحكام من البويهيين (٥) والسلاجقة . حين دمر المغول بغداد (٤) سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ وأزالوا الخلافة العباسية لم يكن للخليفة سوى رقعة صغيرة من الأرض لا تتجاوز جنوب العراق (١) .

الخلافات الأخرى

لم يبق العباسيون هم الخلفاء الوحيدين . شاركهم الخلافة أيضا :

- الفاطميون : وهم أئمة الشيعة السبعية . أقاموا خلافتهم في المغرب ثم في مصر والشام (ما بين ٢٩٧ - ٩٠٩ / ٥٦٧ - ١١٧١) وكانت خلافة زاهرة هامة ألغاه صلاح الدين الأيوبي .

- الأمويون في الأندلس : تسموا بالأمراء فترة طويلة في قرطبة (٢) ثم بالخلفاء اعتبارا من سنة ٣١٦ / ٩٢٨ أيام عبد الرحمن الثالث . ولكن خلافتهم انهارت مع نزاعات ملوك الطوائف (سنة ٤٢٢ / ١٠٣١) .

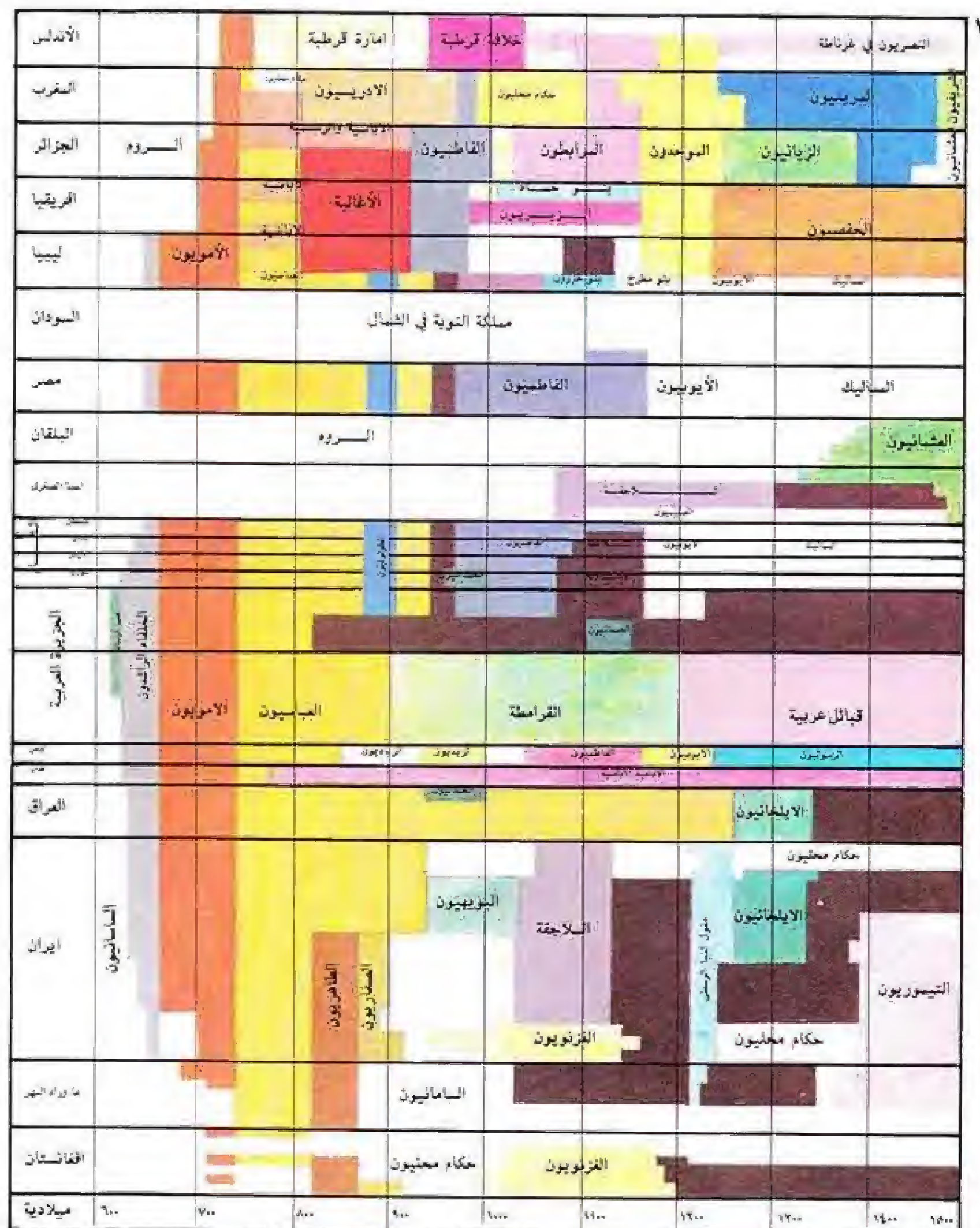
حاول الملك الظاهر بيبرس (حكم ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) في أول العهد المملوكي إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ونصب فيها خلافة (سنة ٦٥٩ / ١٢٦١) دامت طوال العهد المملوكي . لكنها كانت لقباً فارغا مهمته منح الشرعية لسلطين المماليك . أهملها العثمانيون بعد أن فتحوا مصر سنة ١٥١٧ . سلاطينهم المتأخرون استخدموا اللقب فيما بعد وبخاصة السلطان عبد الحميد ، لكن كمال أتاتورك ألغاه سنة ١٩٢٤ .

الأحكام السلطانية

دار الخلافة الاولى . ويباشرون امامة الصلاة بأنفسهم كما يباشرون القضاء . ينوب عنهم في هذين الامرين بالامصار الولاية والقضاة منذ عهد عمر بن الخطاب (الذي ظهر الديوان ايضا في عهده لتسجيل الجند ومقادير الغنائم والعطاء) . تعقدت رسوم دار الخلافة في العهد الأموي بالتدريج . ظهر الحاجب وديوان الحاكم والقصر في مركز الخلافة بدمشق . وكثرت الدواوين .

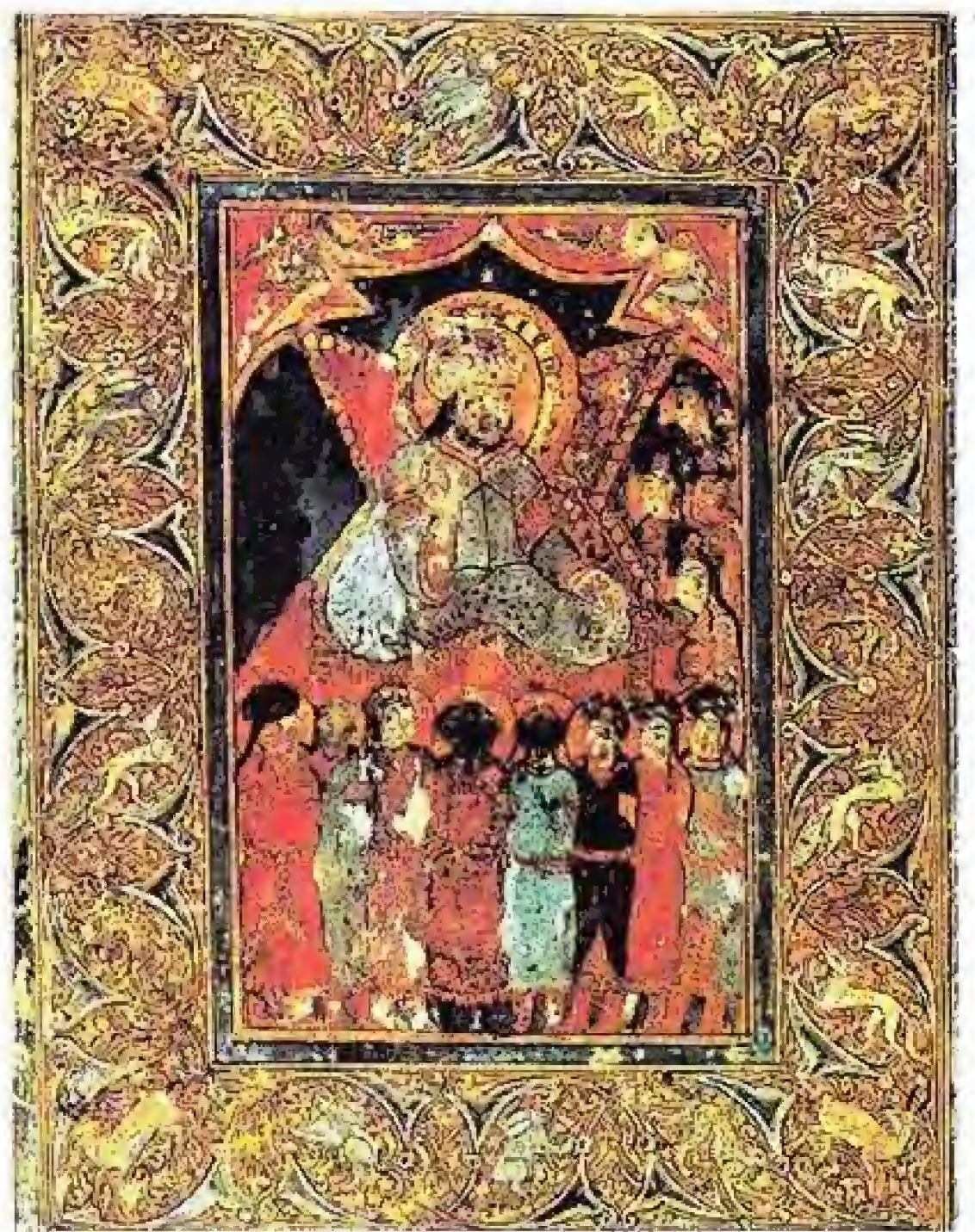
أدار الخلفاء الراشدون دولة الاسلام الاولى بأسلوب مبسط مباشر يستند الى الشورى . كانوا يشرفون على أمور الأمة العسكرية والسياسية والمالية والقضائية والادارية من منازلهم نفسها . أو من المسجد النبوي . وهو

(١) - الرقعة الجغرافية الواسعة التي امتدت عليها الفتوح الاسلامية . مع تباين شعوبها وحضاراتها . خلقت للادارة الاسلامية مشكلة أساسية هي ضرورة اعطاء الوالي الاقليمي قدرا واسعا من السلطة للتصرف والادارة . لم يكن ذلك خطيرا من حيث النظام العام لأن الشرع الاسلامي كان المرجع الأول والأخير للجميع ولكنه من الناحية السياسية ، وخاصة حين ضعفت السلطة المركزية اعتبارا من العصر العباسي الثاني (أوسط القرن التاسع) أدى الى تحول السلطات المحلية دولا وراثية هي ما يسمى بالدول المنقطعة . اللوحة تروي قصة ظهور وغياب الدول في الأقاليم المختلفة . ضمن اطار العالم الاسلامي الواحد . لكن النظام الاداري في هذه الدول كان متشابها في الخطوط الأساسية . فالحاكم (أيا كان لقبه) عمله تنفيذ أوامر الشرع وأن كان من ناحية أخرى مطلق السلطة . ورأس الجهاز الاداري هو الوزير أو الكاتب . والقضاء سلطة دينية الطابع .



أبقى الأمويون الأجهزة الحكومية السابقة على حالها ، فكانت تكتب بالبهلوية في العراق وإيران وبالسريانية في الشام واليونانية وبالقبطية في مصر . لما جاء عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ - ٨٥ / ٦٨٥ - ٧٠٥) عرب الدولة : بتعريب الدواوين في الشام والعراق ومصر وتعريب النقود . وتنظيم شبكة الاتصال مع الولايات بالبريد والديوان المركزي . في العصر العباسي ساد الحكم المطلق .

صارت للخلفاء القصور والحاشية (الخاصة) والمراسم والتقاليد . بلغت الحجابة لديهم مرتبة عليا تعادل مرتبة المستشار . وصار للدخول عليهم رسوم منظمة . اتخذوا الألقاب ذات الطابع الديني ، أحاطوا أنفسهم بمظاهر التبجيل ومنها تقبيل الأرض بين أيديهم . دخل البلاط منذ أيام المنصور شخصيتان : الطبيب والمنجم . لكن رسوم دار الخلافة بلغت أوج التعقيد



(٢) - في الإدارة الإسلامية . رغم الطابع الديني للدولة . لم يمتنع الحكام عن استخدام غير المسلمين فيها منذ أوائل العصر الأموي حتى العصر المملوكي . وبرز منهم كتاب كبار كأمين المقفع والفضل بن سهل في الدواوين ووزراء معروفون (كأمين كلس في العهد الفاطمي) . وأطباء في البلاط . كما كانت جباية الأموال وجرائدها في مصر والشام والعراق وإيران في أيدي الكثير من أهل الذمة . في لوحة من كتاب مقامات الحريري (أواسط القرن ١٣) رسم للسلطان أو الخليفة وأمامه في حاشيته مختلف الشعوب .



(٣) - صناعة النسيج ازدادت رقيا في الصور والألوان والتقنية خلال العصر العباسي سواء في إيران أو العراق أو مصر . لكن اختلفت الأقاليم بعناصر التزيين والألوان . في إيران مثلا استخدمت زخارف حية ونباتية الى جانب العناصر الكتابية التي كانت تمنح النسيج الطابع الاسلامي . بعض العناصر الحية كانت حيوانات مجنحة تحمل تأثير الحضارات المجاورة . قطعة النسيج هذه من نسيج زندان ، تحمل مع الطابع الساساني التقليدي ملامح الفن الصيني .

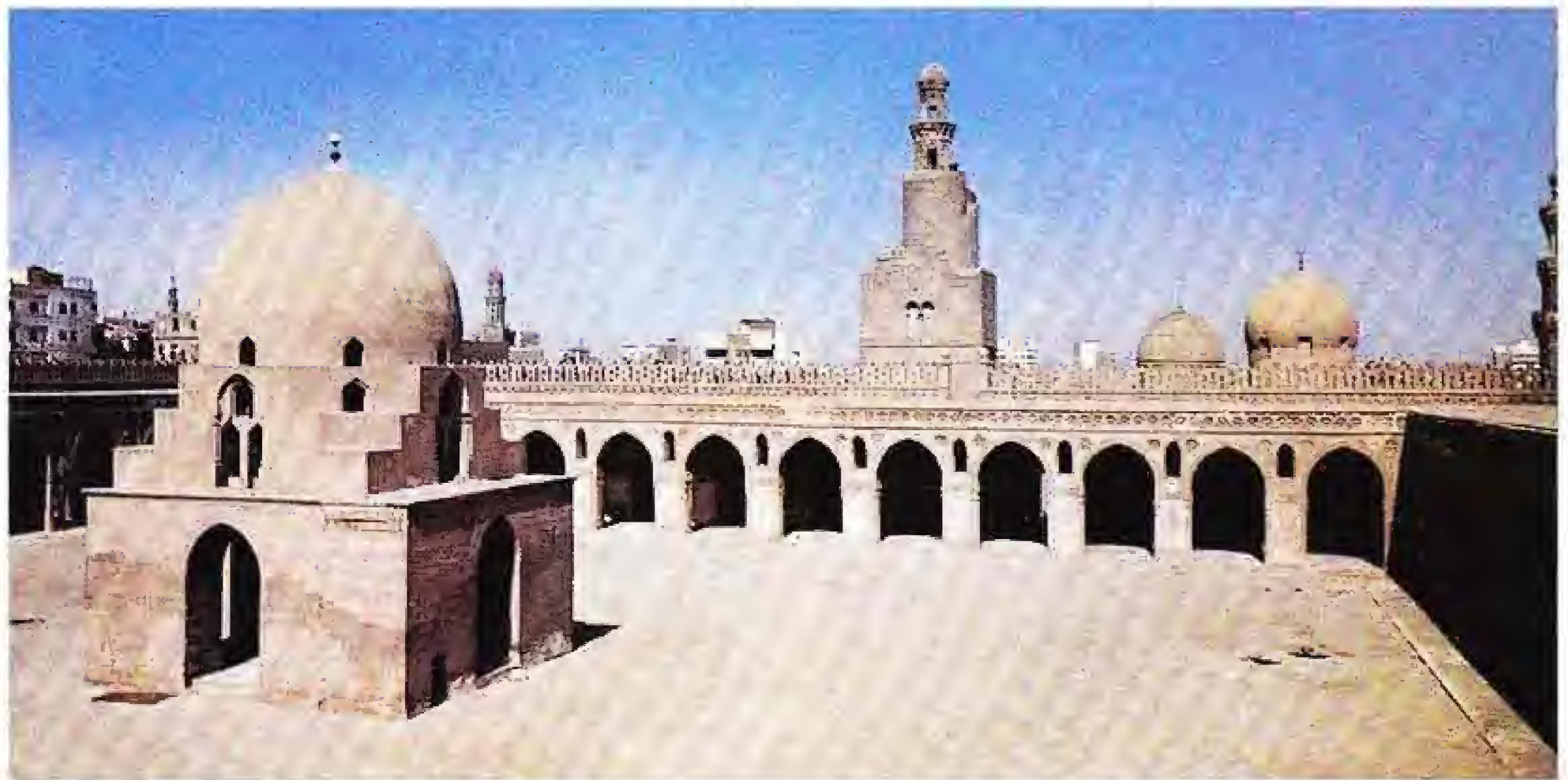
والتنظيم والفخامة لدى الخلفاء الفاطميين في مصر .

الوزارة والدواوين

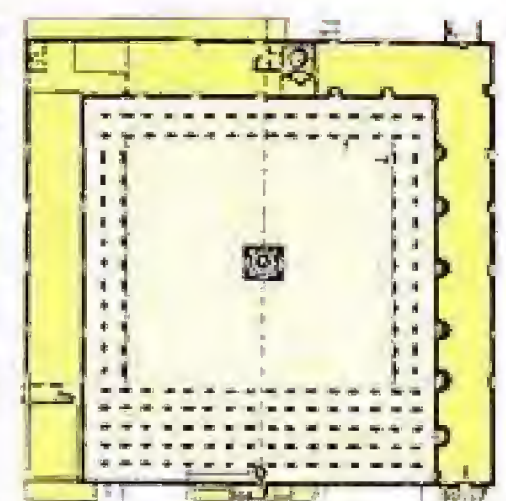
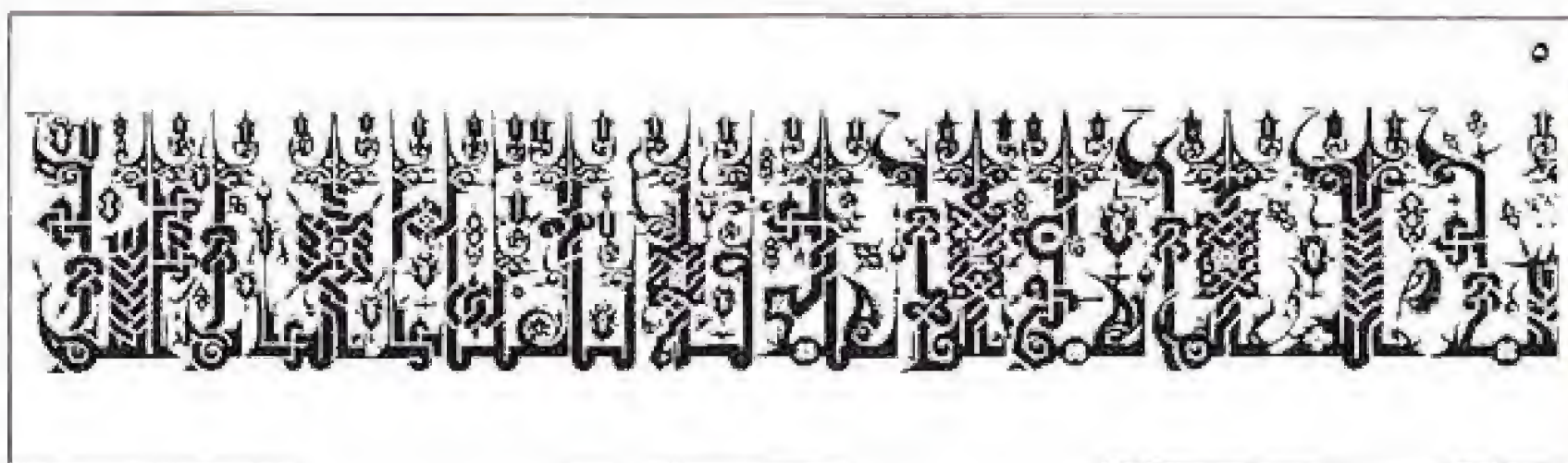
ظهر هذا المنصب بالتدريج خلال العصر العباسي الأول مع تعقد ادارة الدولة . كان يقال لمن يعاون الخليفة انه وزيره . الشخصيات الهامة من هؤلاء المعاونين (كالبرامكة) ساهمت في ايجاد هذا المنصب

بشكل رسمي منذ ايام المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧) . بعض هؤلاء الوزراء كانوا من الثقة بحيث يفوضهم الخليفة في كل أمر . وبعضهم كان مجرد منفذ لأوامر الخليفة . فيما بعد قسم الماوردي الوزارة قسمين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ .

احتكرت الوزارة العباسية أحيانا بعض الأسر (بنو برمك ، بنو سهل ، بنو الفرات ، بنو الجراح) حين ضعف الخلفاء ضعفت معهم



١٤



(٥) - تطور التزيين بالخط المسجد الأكبر فيها تقريبا . الصورة (أ) لمسجد ابن طولون مع مثذنته الملوية . وفي الصورة (ب) مخطط المسجد

الاستيلاء بسبب خلافاته مع رجال السلطة في بغداد . بين هذا وذاك أقام ابن طولون لنفسه بلاطا مصغرا عن بلاطات العاصمة سامراء . حتى مسجده بناه على شكل

(٤) - أحمد بن طولون كان في أول ولايته لمصر من ولاية الاستكفاء الذين يعطون الولاية ليكفوا الخليفة أمرها مقابل مبلغ سنوي مقرر . في أواخر عهده ثمرد فصار من ولاية

الوزارة . حتى اذا جاء البويهيون الى بغداد سنة ٣٢٤ بعد فترة الاضطراب العسكري (٣٢٠ - ٣٣٤) لم يكن قد بقي من الوزارة الا الاسم .

ظهر منصب الوزارة أيضا لدى الخلافة الفاطمية في مصر ، ورافقها قوة وضعفا حتى انهيارها . كما ظهر لدى الأمويين في الاندلس لكنه اندمج مع وظيفة الحاجب كما تعدد مع تعدد الاعمال للمال والرسائل وغيرها .

جهاز الادارة كان يقوم على « الديوان » . الديوان الأول أوجده عمر بن الخطاب (سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م) فما لبث ان أصبح صاحبه رأس الجهاز الاداري . تعددت الدواوين بالتدريج في العصر الأموي وتعددت في العصر العباسي . وكان لها كتابها ومحفوظاتها من الرسائل وجرائد الخراج والضرائب (٢) صارت الكتابة تخصصا له مستلزماته . وجدت في الولايات دواوين مماثلة لها بدورها تقاليدها . مع الايام صارت الدواوين نظاما بيروقراطيا كاملا . نجد تنظيماته وتخصصاته ورسومه الدقيقة في العهد المملوكي .

الولاية والعمال :

كان الولاية في القرنين الاولين من التاريخ الاسلامي مصغر الخلفاء في أمصارهم . تعطى لهم الصلاة (أي امامة الصلاة وقيادة الجيش) ويرسل معهم العامل لجباية المال . وقد تجمع العمالة مع الامامة . يحتجزون بعض المال لادارة القطر ويرسلون الباقي الى الخليفة . رقابة الخلفاء على الولاية كانت تتم بواسطة صاحب البريد الذي كان عين السلطان ، يرسل اليه مباشرة بجميع

اخبار الولاية من اقتصادية وقضائية وسياسية . حين ضعفت الخلافة العباسية في المركز في اواسط القرن الثالث (٩ م) أخذ الولاية نوعا من الاستقلال اللامركزي . بلغ أحيانا درجة ظهور الأسر الحاكمة محليا منهم . وقد سميت بامارة الاستيلاء (٤) . صار الولاية يقلدون الخلفاء في البلاط والعمران والثقافة . مما أغنى الحضارة الاسلامية وأدخل عليها في دول المشرق خاصة (١) تأثيرات هندية وصينية .

القضاة :

الخليفة نظريا هو القاضي ، ولكن ترامي الدولة دفع عمر بن الخطاب الى تسمية القضاة . وله في ذلك عهد مشهور . كان الخلفاء فيما بعد يعينون بانفسهم قضاة الامصار ، لكنهم يجلسون بانفسهم للمظالم . ثم ظهر في بغداد منذ ايام الرشيد منصب قاضي القضاة الذي يشرف على العملية القضائية في الامصار ، ويعين لها القضاة بأمر من الخليفة . كان بعض المتدينين يتخرجون من تولي هذا المنصب في القرون الاولى ، ثم صار بعضهم يطلبه . في عصور الانحطاط . لما به من سلطة ومغانم . تعدد القضاة في العهد المملوكي حسب المذاهب الأربعة .

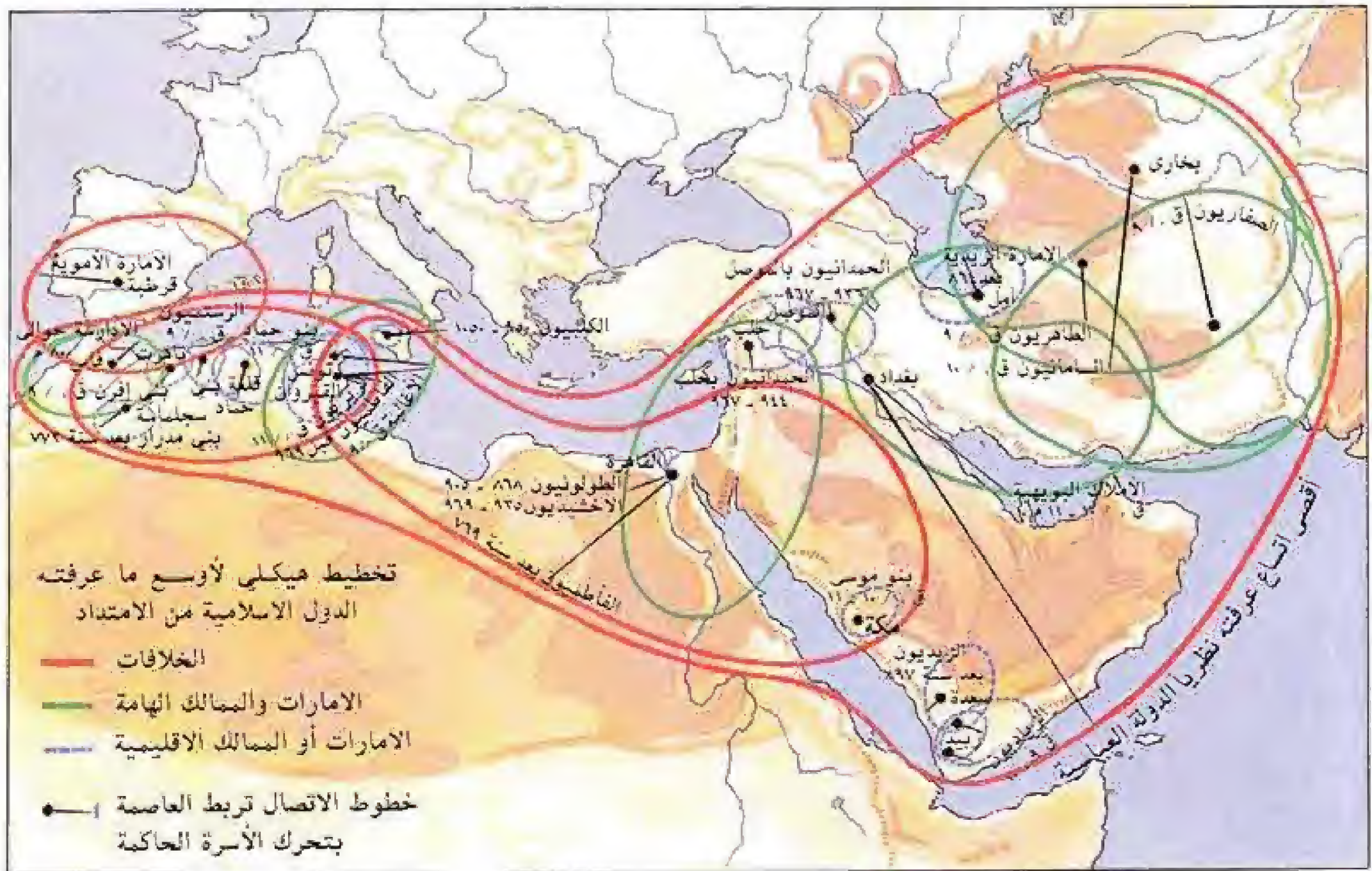
لعل أهم ما يضاف هنا ان حياة المدن في الاسلام كانت تخضع للرقابة الشرعية في الصحة والتعليم والاقتصاد والمعاملات والأسواق والأخلاق العامة والدين . يقوم بذلك شخص ذو مكانة وسلطات مطلقة هو ، المحتسب ، وله ايقاع العقوبة الفورية التي تبدأ بالنصح وتنتهي بالسجن . مرورا بالتعزير والضرب .

تسُدُّع الأمبراطورية

الخزر ، وامبراطورية بيزنطة ، ومملكة شارلمان الفرنجية ، وامارة الاندلس الأموية ودول الخوارج في افريقية والمغرب .

في سنة ٢٤٧ / ٨٦١ تأمر قواد الجيش الأتراك على الخليفة المتوكل فقتلوه . كان ذلك نقطة الانقلاب في صراع عناصر القوة والضعف في الدولة . الجند الاتراك الذين أرادهم المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧) آلة حرب تملكها الخلافة أصبحوا بعد المتوكل هم الذين

كانت الدولة العباسية حتى أواسط القرن الثالث هـ / ١٠ م ما تزال وحدها الدولة الاولى والكبرى والأقوى في العالم . الدول الأخرى كانت تطيف بها ، وكلها ، باستثناء الصين . كانت أصغر وأضعف . بما في ذلك دول



صور الأمراء لأن البلاطات الصفري فرضت نفسها على الجو الفني . في هذا الطبق الذي صنع في نيسابور في القرن العاشر (قطر ٣٠ سم) صور الرسام رحلة صيد لأحد الأمراء فيه الأمير على فرسه وقد هاجمه من الخلف نمر . في الرسم أثر التقاليد الساسانية .

اعجاب ودهشة ويذكرون منها السيوف المحلاة بالذهب وأحجار الزمرد والجوهر وأستار الحرير والديباج المنسوج بالذهب . لم يبق من ذلك كله الا النذر اليسير جدا ومنه هذه المنحوتة العاجية للصيد بالصقور .

(٣) - يكثر في الخزف الإيراني بعد القرن العاشر رسم

استيلاء تعبر عن ولائها الشكلي للخليفة العباسي بالخطبة له ونقش السكة باسمه . في المغرب اختلف الأمر . أمراء الاستيلاء سموا أحيانا أنفسهم بأمراء المؤمنين والخلفاء .

(٢) - كان غنى الفاطميين وترف قصورهم موضوع حديث المؤرخين دوما . تحفهم مصدر

(١) - منذ بدأت الدول المنقطعة عن الخلافة العباسية الأم في الظهور . كان من الصعب ضبط تطوراتها . قواها المحلية كانت هي التي ترسم حدودها على حساب القوى المجاورة . في المشرق (اعتبارا من مصر قبل العهد الفاطمي حتى السند وتركستان) كانت كلها منذ القرن الثالث امارات

يملكون الخلافة ويتحكمون بالخلفاء . كما جعلوا يصطرون مع الوزراء . ومع بعضهم بعضا على السلطة والمكاسب . زاد في الضعف توالي الثورات في المنطقة المركزية من الدولة (العراق) .

نجم عن ذلك كله ضعف الادارة المركزية (١) وظهور القوى المسيطرة في أقاليم الدولة . على شكل دول متصلة بالولاء الشرعي مع الخلافة . بعضها كان يفرض نفسه

فرضا على المركز . وبعض كان من قوى الجند المركزي ولكن طموحاته كانت توصله الى الاستقلال الذاتي . على ان التصدع السياسي للامبراطورية لم يؤثر أي تأثير على نشاطات الحضارة العربية الاسلامية التي بلغت أوجها في القرنين التاسع والعاشر . ولا على تزايد الوحدة بين أقاليمها فنا واقتصادا وثقافة . رغم توزع الحركة الحضارية على الأقاليم بعد التمرکز ببغداد .



كلها مع الولاء للخلافة ببغداد . انتهى الاسلام في تركستان . السامانيون على يد الغزنويين (سنة ٩٦٢ - ١٠٣٧) .

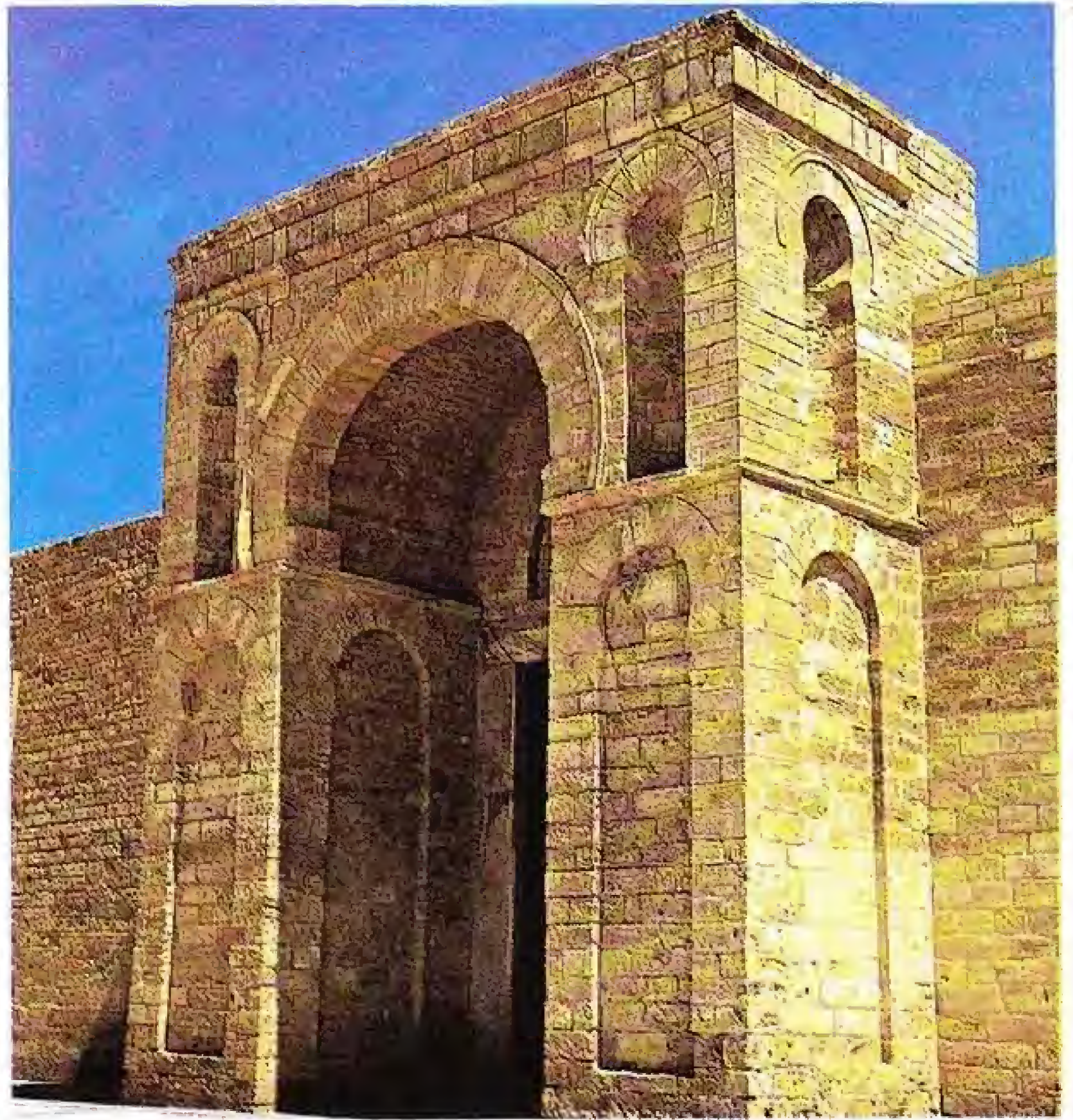
أهم ما قام به السامانيون تشجيع العلم والصناعة والعمارة ونشر

(٤) - قامت الدولة السامانية (٨٩٢ - ٩٠٨) الذي نرى هنا مدفنه في بخارى (بني حول سنة ٩٤٣) . حفيده نصر الثاني ابن أحمد شملت مملكته ايران أشهر السامانيين اسماعيل

الدول المنقطعة في المشرق

أول الدول الاقليمية لم تظهر في المشرق . ولكن مع الأمويين في الأندلس ثم مع الاغلبة في افريقيا أيام الرشيد (سنة ١٨٦ / ٨٠٠ م) . تطرف تلك الاقاليم في الغرب كان من دواعي قبول بغداد بالأمر الواقع في الأندلس ثم بالولاية الوراثة في افريقيا . في أيام المأمون ظهرت دولة مماثلة في المشرق وخراسان هي الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ / ٨٢٠ -

٥



(٥) - كان أقصى ما استطاعت الخلافة العباسية عمله في عصرها الأول في افريقية هو توطيد نفوذها الاسمي عن طريق الاغلبة . باقي المغرب قامت فيه دولتان للخوارج ودولة للعلويين (الادارسة) مع امارات أخرى . حين قامت الخلافة الفاطمية في القيروان ابتلعت معظم هذه الدول

(٨٧٢) ثم حلت محلها الدولة الصفارية (٣) ، التي ملكت فارس وبعض السند . ثم جاء السامانيون (٤) (٢٦١ - ٣٨٩ / ٨٧٤ - ٩٩٩) . وأخيرا الغزنويون الذين أسسوا دولتهم في غزنة سنة ٩٦٢ فشملت ما بين اطراف العراق حتى البنجاب . انتهت على يد السلاجقة سنة (١٠٣٧) الذين احتلوا في أيام طغرل بك المشرق العباسي كله ثم حلت دولتهم في اطار الخلافة العباسية كلها . وملأته زمن



سنة ٩١٦ وهو أحسن ما يمثل الفن الفاطمي في افريقيا .

(٦) - احتل السلاجقة جميع أراضي الخلافة العباسية وحددوا قواها . الا ان أثرهم ظهر خاصة في اقليمين وبشكل متناقض : فالأناضول الذي احتلوه صار مع الأيام تركيا واما ايران فزاد وجودهم في دعم طابعها الفارسي حتى فنونهم في ايران تأثرت بهذا الطابع ، ومع ندرة نحتهم للتماثيل فقد وجدت لهم منحوتات منها هذا الرأس لأمير سلجوقي من القرن ١٢ - ١٣ ويظهر فيه رغم الملامح التركية التأثير المحلي الفارسي .

واخضعت الباقي . بنى الخليفة الفاطمي الاول عبيد الله المهدي عاصمة جديدة له هي المهديّة جعلها كالحصن . جامعها الكبير هذا بنى حوالى

السلاجقة الكبار (ألب أرسلان وملكشاه) .
العاصمة بغداد نفسها وقعت بعد ٨٧ سنة
من تسلط العسكري التركي الذي أعقب
مقتل المتوكل في أيدي (بني بويه) . هم
من الديلم الشيعة . نشأت أمارتهم في شيراز
سنة ٣٢٠ / ٩٣٢ وتوسعت في غرب إيران
وسرعان ما استطاع أحمد بن أبي شجاع مؤسس
الدولة أن يدخل بغداد سنة ٣٣٤ / ٩٤٥ ويفرض
نفسه على الخليفة العباسي . استمرت الدولة
البويهية أكثر من قرن . اتخذ أمراؤها لقب
الملوك وأخذوا من الخليفة ألقاب معز الدولة
وعضد الدولة وبهاء الدولة . قاموا بعدد من
مشاريع الري والبناء . أنهارهم السلاجقة سنة ١٠٥٥ .

في الشام ومصر

في شمال العراق والشام (الموصل -
حلب) قامت في معظم القرن الرابع الدولة
الحمداية . التي اشتهر منها سيف الدولة
الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦ / ٩٤٤ - ٩٦٧) بحروبه
مع الروم وبلاطه الفخم . حظ هذه الدولة
السيء جعلها دولة حدودية . في الوقت الذي
كان فيه الروم يحققون نهضة عسكرية واسعة
اكتسحوا فيها الحدود الإسلامية التقليدية في
كيلكية والجزيرة واحتلوا عددا من الثغور
والعواصم منها طرطوس وانطاكية . وصل
مدهم الحربي ذات مرة الى دمشق . في
مطلع القرن الخامس حلت محل الحمدانيين
دولة بني عقيل في الموصل (٣٨٦ - ٤٨٩ /
٩٩٦ - ١٠٩٦) ودولة بني مرداس في حلب
سنة (٤١٤ - ٤٧٢ / ١٠٢٣ - ١٠٧٩) استمرت
الدولتان حتى الغزو السلجوقي (٦) .

مصر وجنوب الشام كان مصيرهما
متشابها . تسلم القائد التركي أحمد بن

طولون مصر سنة ٢٥٤ / ٨٦٨ فأسس فيها مع
جنوب الشام الدولة الطولونية (حتى سنة
٢٩٢ / ٩٠٤) . بعد فترة ثلاثين سنة تكررت
العملية ذاتها على يد محمد بن طغج
الاخشيدي مؤسس الدولة الاخشيدي (٣٢٣ -
٣٥٨ / ٩٣٥ - ٩٦٩) التي حكم في السنوات
العشرين الأخيرة منها كافور الاخشيدي
(ت ٣٥٦ / ٩٦٦) . الدولتان استغلتا النشاط
التجاري في الشام ومصر لدعم استقلالهما المحلي .

دول افريقيا والمغرب

في أواسط عهد الرشيد كان المغرب
الاسلامي موزعا بين أربع قوى :

١ - دولة الادارسة في شمال المغرب
الاقصى (٧٨٩ - ٩٧٤) أسسها ادريس حفيد
الحسن بن علي الذي فر من الانتقام العباسي
ضد الثورة العلوية في الحجاز سنة ٧٨٥ ثم
ابنه ادريس الثاني . بنى الاثنان مدينة فاس
(٢) بقسميها عاصمة لهما .

٢ - دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب
المغرب الاقصى (٧٥٧ - ٩٠٩) كانت للصفرية
ولها امامها . شأنها الكبير أخذته من موقعها
على الخط التجاري بين السودان الغربي
والمغرب . تجارتها كانت ناجحة رابحة
لمرور الذهب الافريقي عن طريقها .

٣ - الدولة الرستمية في تاهرت والمغرب
الاوسط للاباضية (٧٧٧ - ٩٠٩) ازدهرت
بدورها نتيجة التجارة بين الصحراء وبين
حوض البحر المتوسط .

٤ - دولة الاغالبة (٨٠٠ - ٩٠٥) مؤسسها
ابراهيم بن الاغلب . فوض اليه الرشيد امر
افريقيا وراثيا . فكانت أول دولة عباسية
لامركزية . عاصمتها القيروان .

شمال أفريقيا العربي « بين الفتح والقرن ١١ م. »

ما كاد الفتح العربي لمصر يتم سنة ٦٤١ حتى امتد نحو برقة لتأمين الجبهة الغربية من الروم . مرحلة الاستطلاع استمرت حتى سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م . ووصلت طرابلس وفزان وافريقية . مرحلة الفتح المنظم جاءت ما بين

سنتي ٥٠ - ٩٠ / ٦٧٠ - ٧٠٩ . قاد مرحلتها الاولى حتى سنة ٦٨٤ عقبة بن نافع الذي وصل المحيط . برز في المرحلة الثانية حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير الذي استكمل فتح المغرب والاندلس . سار تنظيم الادارة ونشر الاسلام واللغة العربية جنبا الى جنب مع الفتح .

اعتبر البربر الحكم الجديد تحريرا لهم . انتهز حسان اسلام البربر فجعل أكثر جيشه

(١) - أثرت القيروان في تاريخ

افريقيا والمغرب في أمور كثيرة . منها نشر المذهب المالكي هناك . منذ القرن العاشر . فضل ذلك الى أبي سعيد سحنون التبوخي (٧٧٧ - ٨٥٤) . ولد بالقيروان ودفن بها . رحل الى المشرق وحين عاد سنة ٨٠٧ أظهر علم المدينة ومذهب مالك . لقب سراج القيروان وكان له ٧٠٠ عالم من تلاميذه . بجانب القيروان كان المركزان الدينيان الهامان . في افريقيا والمغرب هما : الجامع الكبير في تونس (الزيتونة) وجامع القرويين . الزيتونة أسس في شكله الأول سنة ٧٣٤ على يد والي الأموي عبيد الله بن الحجاب ثم أعاد الأغالية بناءه كلياً (٨٦٤ - ٨٦٥) على نفقة الخليفة العباسي المستعين . أما جامع القرويين في فاس فهو أقدم جوامع المغرب اليوم بنته سيدة قيروانية (فاطمة بنت محمد المهري) للهار بين من الفاطميين في القيروان أواخر القرن ٩ . ثم توسع المسجد مرات . وأعاد بناءه كله علي بن يوسف المرابطي (١١٣٥) (٨٥ × ٧٠ م) . وصار جامعة دينية قامت بدور الأزهر في المغرب .



منهم . قسم لهم في الفياء والأرض . أسس مدينة تونس وأقام فيها دارا لصناعة السفن . مهد ذلك كله لفتح الاندلس فيما بعد .

عهد الولاة

بعد موسى بن نصير ، تقلبت افريقيا والمغرب بين الهدوء والاضطراب أكثر من ثلاثين سنة . قتل الوالي يزيد بن ابي مسلم (سنة ٧٢٠) الذي أراد أن يسومها مثل سياسة

الحجاج الثقفي بالعنف والشدة . حين كثرت المظالم والضرائب (على يد عبيد الله بن الحبحاب) ، لم يكن ذلك سببا في انتشار الافكار الساخطة على الحكم الأموي فقط ، ولكن في قيام الثورة عليه أيضا (سنة ٧٣٩) . كانت أفكار الخوارج التي يؤت من النصر في المناطق المركزية من الدولة ، قد ابتعدت لاجئة الى الاطراف القصية ، مثل سجستان وعمان وافريقيا . فوجد فيها البربر

(٢) - منطقة المغرب الأقصى لم تستطع في القرون الاربعة الاولى للاسلام أن تقوم بدور سياسي هام رغم قيام الدولة الادريسية فيها منذ سنة ٧٨٥ . ذلك أنها وقعت بين قوى افريقية والاندلس . وخاصة عند تنافس الخلافتين الفاطمية والاندلسية . سقطت تحت ضربات الحكم الثاني (٦٦١ - ٩٧٦) . أخذت المنطقة دورها حين قام المرابطون ثم ارتفعت بعدهم راية الموحدين (الصورة) .

(٣) - بنى الفاطميون في افريقيا ، بعض المدن (كالمهدية والمنصورة) والجوامع ومنها جامع اجدابية . بدأ في عهد المهدي بين سنة ٩١٨ - ٩٢٨ وتم في عهد القائم . بعد فتح مصر . حين انتقل المعز اليها سنة ٣٦٢ . مر بطرابلس فأهدى أهلها ناقة محملة بالذهب بنوا به جامع الناقة . على الطريق كان قد بنى عددا من القصور كالحصون ، منها قصر أجدابية الذي نرى أطلاله .



خاصة ما يتوافق مع فهمهم لمبادئ الاسلام في التسوية والعدل وشرعية الثورة على الظلم .

وفد على المغرب مذهبان من المذاهب الخارجية : الصفرية مع عكرمة الصفري الذي انتشرت افكاره في جنوب المغرب الاقصى . والأباضية مع سلمة بن سعيد الاباضي الذي راجت افكاره في المغرب الاوسط وحتى افريقيا وطرابلس .

كان المذهبان . رغم آرائهما السلمية في المشرق ، خميرة الثورة التي اندلعت سنة ٧٣٩ في المغرب كله . القوى التي جمعت وأرسلها الخليفة هشام بن عبد الملك هزمت مرة بعد مرة . قبل ان تستطيع النصر سنة ٧٤٣ . لكن اضطراب الأمر في مركز الخلافة . ثم سقوط الدولة الاموية سنة ٧٥٠ وانشغال العباسيين بالمشرق طويلا . ترك افريقيا والمغرب منطقتين تواجهان وحدهما تقرير المصير .

(٥) - المشاريع المائية كانت من أهم أعمال الأغلبية . غنى بها خاصة ابو ابراهيم أحمد بن الاغلب الذي بنى الماجل الكبير في القيروان . شرع ببنائه سنة ٨٥٩ وأتمه سنة ٨٦٢ . قطره ١٢٨ م . يسبقه ماجل صغير لترسيب الطمي وفي وسطه مجلس للأمير . في أواسط القرن الحادي عشر كان هناك ١٥ ماجلا غيره تجمع الماء للمدينة .



(٤) - امتد فتح الأغلبية لصقلية ٦٦ سنة (٨٢٨ - ٩٠٣) . كان ملحمة طويلة لأن الامبراطورية البيزنطية كانت وراءها . اقتحموها حصنا حصنا . مزارة (سنة ٨٢٧) . بالرمو (سنة ٨٣١) . مسينا (سنة ٨٤٣) . ياني (سنة ٨٥٩) . سرقسطة (سنة ٨٧٨) . تورمينا (سنة ٨٩٢) وأخيرا انتهى الفتح بسقوط كوزنتسيا (سنة ٩٠٣) . وخروج الروم نهائيا منها . سجل مخطوط بيزنطي حصار مسينا للمؤرخ حنا سكيليترس .

عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، والى الامويين استغل الفرصة فأضحى شبه مستقل في الولاية . بعد ان قضى على ما قام من ثورات الاباضية ضده . وكانوا قد اختاروا اماما منهم في طرابلس ، كما فعل الصفرية من قبل في المغرب . لكن حكم بن حبيب انتهى بمقتله ، وانقراض بني حبيب من تلك المناطق ، وغلبة الجماعات الخارجية . العباسيون حاولوا دون طائل مد نفوذهم فيها . الى ان استطاعوا السيطرة على افريقيا فقط بعد سنة ٧٦٨ .

الأغلبة ودول المغرب

سمح الرشيد للأغلبة بالحكم الوراثي في افريقيا . ليكونوا قوة حدودية . وقد جعلوا عاصمتهم القيروان (١) مدينة الشمال الافريقي كله . قاموا بعدد من مشاريع الري (٥) والعمران ، ورعاية الثقافة . بنوا أسطولا بحريا هاما استطاعوا به . بعد الجهد الطويل ، فتح صقلية (٤) والسيطرة على التجارة بين حوضي المتوسط . من ورائهم الى الغرب كانت تعاصرهم الدولة الرستمية في تاهرت . والمدنارية في سجلماسة . ودولة الأدارسة في شمال المغرب .

الخلافة الفاطمية

انتهت هذه الدول جميعا - عدا الأدارسة - مطلع القرن العاشر على يد الفاطميين . الداعية الفاطمي أبو عبد الله الشيعي استطاع نشر الدعوة الشيعية للإمام الذي كان مختفيا في الشام ، واستفاد من القوى القبلية في الاستيلاء على افريقيا كلها . وجاء الامام عبيد الله المهدي فأعلن الخلافة الفاطمية في

القيروان سنة ٩١٠ .

وطد المهدي وخلفاؤه خلافتهم الافريقية بقمع الثورات العنيفة وبناء العاصمة المهدية (٢) ثم المنصورة . وتزاحموا في النفوذ في المغرب وفي البحر مع أمويي الأندلس . سيطرتهم على جميع طرق التجارة والذهب بين افريقيا الغربية واوروبا مكنتهم من الغنى . ومن تمويل الفتح الناجح لمصر والشام سنة ٩٦٩ بقيادة جوهر الصقلي الذي بنى القاهرة فورا لسيدته المعز لدين الله فانتقلت الخلافة نهائيا اليها سنة ٩٧٣ . بلغت الخلافة الفاطمية أوجها في عهد الخليفين العزيز والحاكم (الذي تأسس حوله المذهب الدرزي) ثم كان أكبر اسم فاطمي في القرن الخامس (١١ م) هو المستنصر الأول الخلفاء عهدا (٤٢٧ - ٤٨٧ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤) . تميزت خلافة الفاطميين بغناها ودعوتها الشيعية المنظمة (مركزها الجامع الأزهر) ونشاطها البحري التجاري وحضارتها الباذخة وقصورها الرائعة . عاصرت الحملة الصليبية حوالى ٧٥ سنة قبل أن ينهي صلاح الدين وجودها سنة ٥٦٧ / ١١٧١ .

على ان انتقل الفاطميين الى المشرق وانشغالهم به . أضعفا شأنهم في افريقيا والمغرب تدريجيا ، مما سمح باستقلال ولايتهم هناك . فظهرت في القيروان دولة بني زيري (٩٧٢ - ١١٤٨) التي خسرت صقلية أمام النورمنديين ، ودولة بني حماد في الجزائر (١٠٠٧ - ١١٥٢) . انتهت هاتان الدولتان بظهور الموحدين في المغرب (١١٣٠ - ١٢٦٩) بعد فترة المرابطين (١٠٥٦ - ١١٤٧) ، والسيطرة على المغرب الاسلامي كله حتى طرابلس ، مع الأندلس .

الأندلس عصر الاسارة

تزاحم السابقون واللاحقون من العرب والقيسيون واليمنيون منهم على منازل الارض والسيطرة . أما البربر فظلت فيهم رغم اسلامهم واستعرا بهم اللغوي لغتهم البربرية وترابطهم القبلي . المهزومون بدورهم من القوط والايبيريين كانوا يحتفظون بالاقسام الشمالية الجبلية من اسبانيا . وظلت قواعدهم الشعبية على لغتها ونصرانيتها في المناطق المفتوحة لم يمسه الفاتحون .

تحولت الاندلس بعد مرحلة الفتح الاسلامي التي امتدت ما بين سنة ٧١٤ م / ٧٥٦ م الى رباط جهاد . كانت ولاية اسلامية بعيدة ذات تركيب معقد اثنولوجيا وسياسيا ودينيا . اشترك في الفتح العرب والبربر .



الأراضي المسيحية
الأراضي الإسلامية
حدود داخلية

(١) - تغيرت الحدود الإسلامية -
الاسبانية دون انقطاع . التغير في القرن الثامن كان من جهة العرب . منذ مطلع القرن التاسع استقرت الحدود نسبيا قرابة القرنين . اعتبارا من أواسط القرن الحادي عشر بدأت حروب الاسبان الصليبية (الاسترداد) . أخذوا طليطلة سنة ١٠٨٥ . أهم غزواتهم جرت في القرنين ١٢ وخاصة ١٣ . لم يبق بعدها سوى غرناطة التي انتهت سنة ١٤٩٢ .

توالى على الأندلس في هذه الفترة ٢٠ واليا . امتلأت أيامهم بالخلاف المأسوي ، ولم يتوقف الجهاد . ومشاريع الري والعمران . أشدها وطأة كانت الأعوام العشرة السابقة لظهور عبد الرحمن الداخل الأموي (سنة ٧٥٦) هناك .

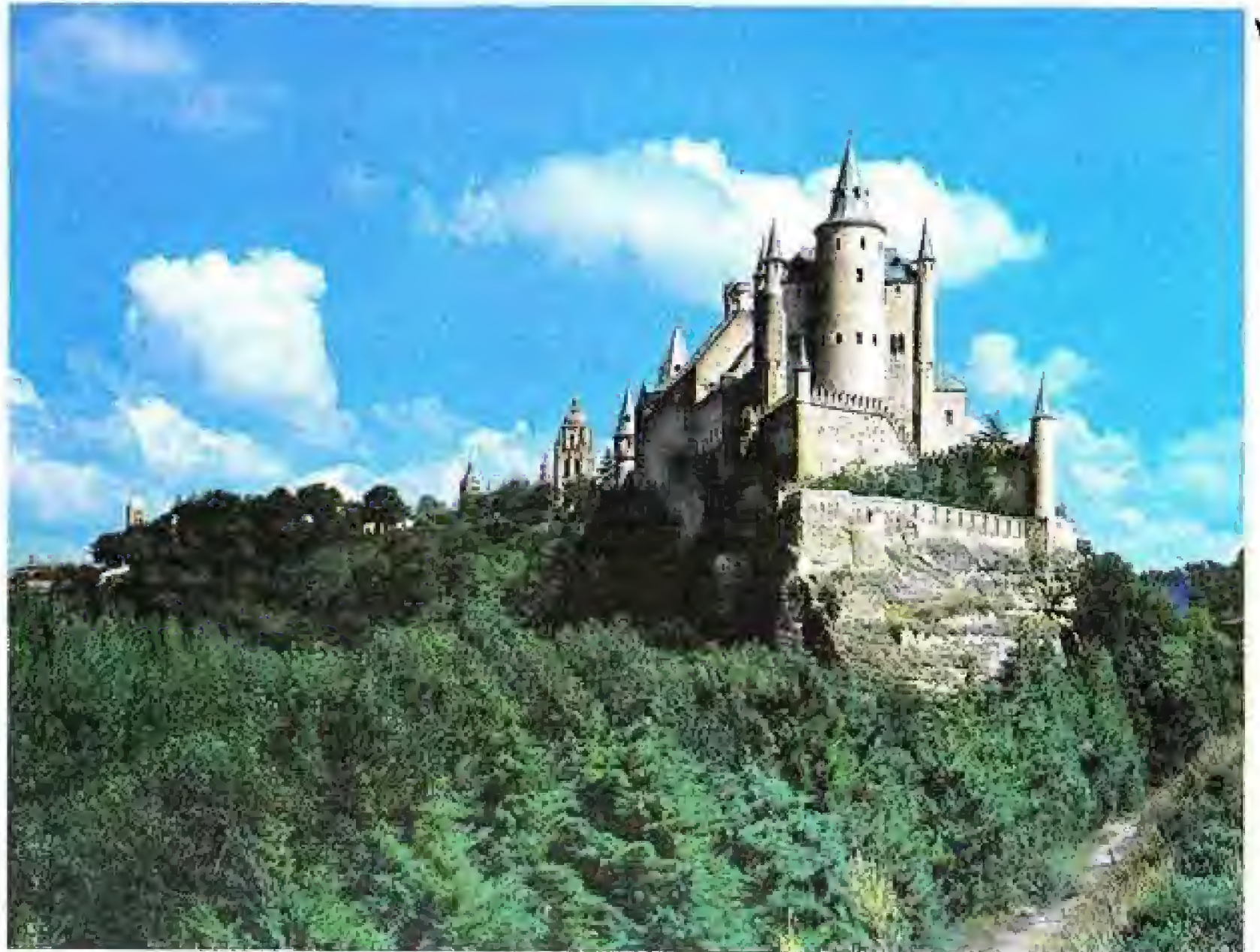
تأسيس امارة الأندلس

في هذه السنة جرت معركة المصارة

(على نهر الوادي الكبير) التي انتصر فيها هذا الامير الهارب من العباسيين على القوى المناوئة المحلية . كان دخوله بعدها الى قرطبة فتحا جديدا للأندلس . وصوله الى الحكم والمتغيرات السياسية التي جاء بها لم تنعكس على الأندلس فقط ، ولكن على نظام الخلافة الاسلامية . فاستقلاله كان أول انقسام في الدولة الاسلامية .

واجه عبد الرحمن عددا من المشاكل

(٢) - تقع طليطلة في وسط قشتالة . وكانت من الثغور الأندلسية . لكن تاريخها مغمم بالثورات . سكانها كانوا من المولدين ، مثلها كانت لشبونة وسرقطة . عوامل اجتماعية واقتصادية كانت تغذي ثوراتها . أخطرها ثورة ابن حفصون التي انتهت بضعفه المتماذي وتنصره قبل موته سنة ٩١٧ . آلت طليطلة أيام الطوائف الى آل ذي النون ثم كانت أول مكاسب الاسبان الكبيرة سنة ١٠٨٥ .



(٢) - كما برز الحمانيون وسيف الدولة ضد الروم . تميز في الجبهة الأندلسية أسرة مغيث الرومي . واشتهر عبيد الله حفيد عبد الرحمن الداخل في عمليات الجهاد في الثغور التي كانت بدورها أيضا مضطربة الولاء . خلال هذه الحروب زرعت الحدود . كما في الشرق . بالحصون والقلاع التي يتناولها الطرفان . قلعة شقوبية منها . وكانت في الأصل عربية بنيت في القرن ١١ . أعيد بناؤها في القرن ١٤ نمودجا لقلاع قشتالة .

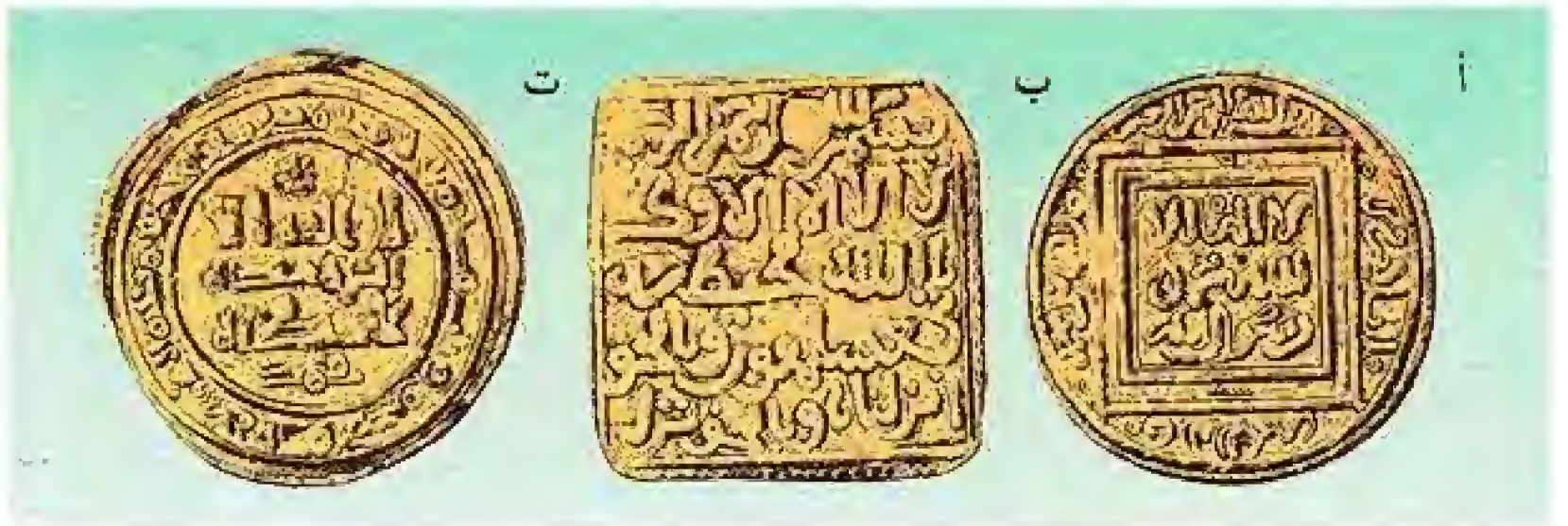
الداخلية والخارجية . نجح في التصدي لها بشجاعة . الأولى تنظيمية بحتة تتعلق بتوحيد المجتمع الممزق واصلاح الادارة وانشاء جيش غير متنافر قبليا أو عنصريا . المشكلة الثانية كانت التخلص من بقايا القوى المناوئة التي لجأت الى الشمال . أخطر منها كانت المشاكل الخارجية الثلاث :
- احباط محاولة الثورة التي دبرها الخليفة العباسي المنصور ضده .

- اخماد التحركات القوطية التي بدأت تطل في الشمال .
- التصدي للغزو الفرنكي الذي قاده شارلمان اشهر ملوك الكارولنجيين عبر جبال البرقات (البيرنة) ضد الاندلس بالاتفاق مع القوى الحاكمة الانفصالية . وبالمساندة الكاملة من البابوية . فشل شارلمان ولقي جيشه في العودة أشنع الهزيمة (٧٧٨ م) . خلدت ذلك (انشودة رولان) المشهورة . جاء الداخل

(٤) - تأثر كثير من الاسبان . دون أن يعتنقوا الاسلام ، بالحياة الاسلامية وتقاليدها . واقتخروا بتكلم العربية ونظم الشعر . وهؤلاء هم المستعربون . الفارو القرطبي ، أسقف قرطبة ، له كلمة مشهورة يتحسر فيها على ولع النصارى الاسبان بالأدب العربي والفلسفة الاسلامية بينما يهملون اللاتينية وشروح الأناجيل ، ويكتبون بالعربية ويزدرون الكتابة بغيرها . التأثير الاسلامي نفسه واضح في الفنون . حتى الرسم . في مخطوط لاتيني من القرن ١٣ نجد صورة لقطاف العنب وأعمال الحقل . وتظهر فيها التأثيرات الاسلامية بجانب تقاليد الرسم في القرون الوسطى .



(٥) - الدناثير الأندلسية كانت مرغوبة جيدة العيار في أوروبا وحوض المتوسط . من نماذجها (أ) ثلث دينار ضرب في أفريقيا حوالي سنة ٧٠٤ . (ب) دينار من ضرب عبد الرحمن الثالث في الزهراء . (ت) دينار من ضرب عبد المؤمن أول الموحدين (١١٣٠ - ١١٦٣) .



بجيشه بعد ذلك فأنهى الثائرين .

مغامرة عبد الرحمن الداخل لم توطد فقط قواعد دولة أموية في الأندلس دامت قرنين ونصف القرن . لكنها أيضا وطدت دعائم الحكم والحضارة الإسلامية هناك ثمانية قرون . بجانب الجهود السياسية والعسكرية . قام عبد الرحمن الداخل خلال إمارته التي دامت ثلاثا وثلاثين سنة (حتى سنة ٧٨٨) بعدد من الأعمال أثرت في تكوين الشخصية الحضارية للأندلس . منها تأسيس جامع قرطبة المشهور .

مشاكل الامارة الاندلسية

توالى على امارة الأندلس بعد عبد الرحمن سبعة أمراء قبل أن تتحول في مطلع القرن الرابع الى خلافة على يد عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦٠) . كانت أيام عبد الرحمن الثاني الأوسط (٨٢٢ - ٨٥٢) وبعض أيام ابنه محمد (٨٥٢ - ٨٨٦) فترة الأوج في تاريخ الامارة ومجدها .

لم تكن حياة هذه الامارة بالهادئة . ولا كانت مشاكلها بعد التأسيس أقل خطرا منها أيام المؤسس . عانت داخليا من تعقيد عناصرها السكانية والاجتماعية والدينية . فعرفت عددا من الاضطرابات الخطيرة منها :
- ثورة الربض : (ضاحية قرطبة) . وقد اضطرب كله بتحريض الفقهاء ضد الحكم الأول (٧٩٦ - ٨٢٢) الذي أحرق الربض وطرده أهله (سنة ٨١٧) . قسم منهم هو الذي فتح كريت . وانشأ دولة إسلامية فيها (٨٢٧ - ٩٦١) .

- حركات المولدين : (الذين أسلموا من أبناء البلاد) . كان سكان الثغور منهم

يثورون وخاصة طليطلة (٢) . أخطر حركاتهم قادها عمر بن حفصون . استمرت خمسين سنة (٨٨٠ - ٩٢٨) وهددت قرطبة .
- حركات المستعربين : (الذين تكلموا العربية ولم يسلموا) . استغل رجال الدين جو التسامح فحرضوا جماعات منهم على الاستشهاد بشتم مقدسات الإسلام .

المشاكل الخارجية للامارة

من الناحية الخارجية عرفت امارة الأندلس الأموية أحداثا أخرى :

- هجوم الشماليين (الفايكنغ) : نهبوا اشبيلية (سنة ٨٤٤) ومدن الوادي الكبير . ودمروا موانئ شرق الأندلس وجنوبها سنة ٨٥٩ قبل أن يسحق أسطولهم سنة ٨٦١ .

- فتح جزر البليار : (سنة ٩٠٢) وكانت السيطرة عليها هامة استراتيجيا وتجاريا .

- صد هجمات الامارات الإسبانية في الشمال : وكانت تقوى وتتوحد بالدعم البابوي والفرنجي . أخذت تسمى الهجمات حرب الاسترداد . تصدى للجهاد الدفاعي ضدها خاصة أسرة مغيث الرومي .

وأخيرا عانت الامارة الاندلسية في النصف الثاني من القرن التاسع أزمات داخلية شديدة أفقدت الحكم المركزي سلطانه (منها ثورة ابن حفصون) وتوزع الأمراء المحليون حكم المدن (سرقسطة ، جاليقية ، بيشتر وغيرها) . يسمي المؤرخون هذه الفترة بعصر الطوائف الأولى . أنقذ الامارة منه عبد الرحمن الثالث الذي أقام عصر الخلافة .

الأندلس^(٢)

عصر الخلافة والطوائف

تولى عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١)
امارة الأندلس وهي غارقة في الاضطراب .
عمل نصف قرن للنهوض بها . كان المؤسس
الثاني . أعماله مدت في عمرها قرنا آخر رغم
ضغط الظروف الداخلية والخارجية . أنهى عبد

الرحمن ثورة آل حفصون بعد حرب متبادية
لهم دامت ١٦ سنة . أخضع خلالها أيضا أمراء
الطوائف المستقلين . أنزلهم من حصونهم
ونقلهم الى بلاطه للعمل في الجيش . حين
انتهى من ذلك قضى ثماني سنوات أخرى في
اخضاع أمراء الثغور الوريثيين ثغرا ثغرا :
بطليوس (٩٢٨) ، طليطلة (٩٣٢) ،
شتبرية (٩٣٣) ، وأمراء الثغر الأعلى
(٩٣٤) . أوقف خطر الدول القوطية الشمالية



بالقوة فلم يتغير الشريط الحدودي الشمالي في عهده . في الوقت نفسه دخل عبد الرحمن في زحام سياسي عسكري اقتصادي مع الخلافة الفاطمية التي نبتت سنة ٩١٠ قبيل مطلع عهده في افريقيا . وأخذت المغرب . وحاولت الامتداد الى الاندلس . قارعها طويلا في العمليات التجارية والعسكرية وفي المؤامرة والتجسس والدعاية والنزاعات القبلية . احتل بعض الموانئ والبقاع في

المغرب . وأمام لقب الخلافة الذي اتخذه الفاطميون اتخذ عبد الرحمن ايضا لقب الخليفة (أواخر سنة ٣١٦ / ٩٢٨) وأمير المؤمنين . فلما انتقلوا الى مصر سنة ٩٦٩ استراح خلفاء الاندلس منهم .

عصر الخلافة الأموية

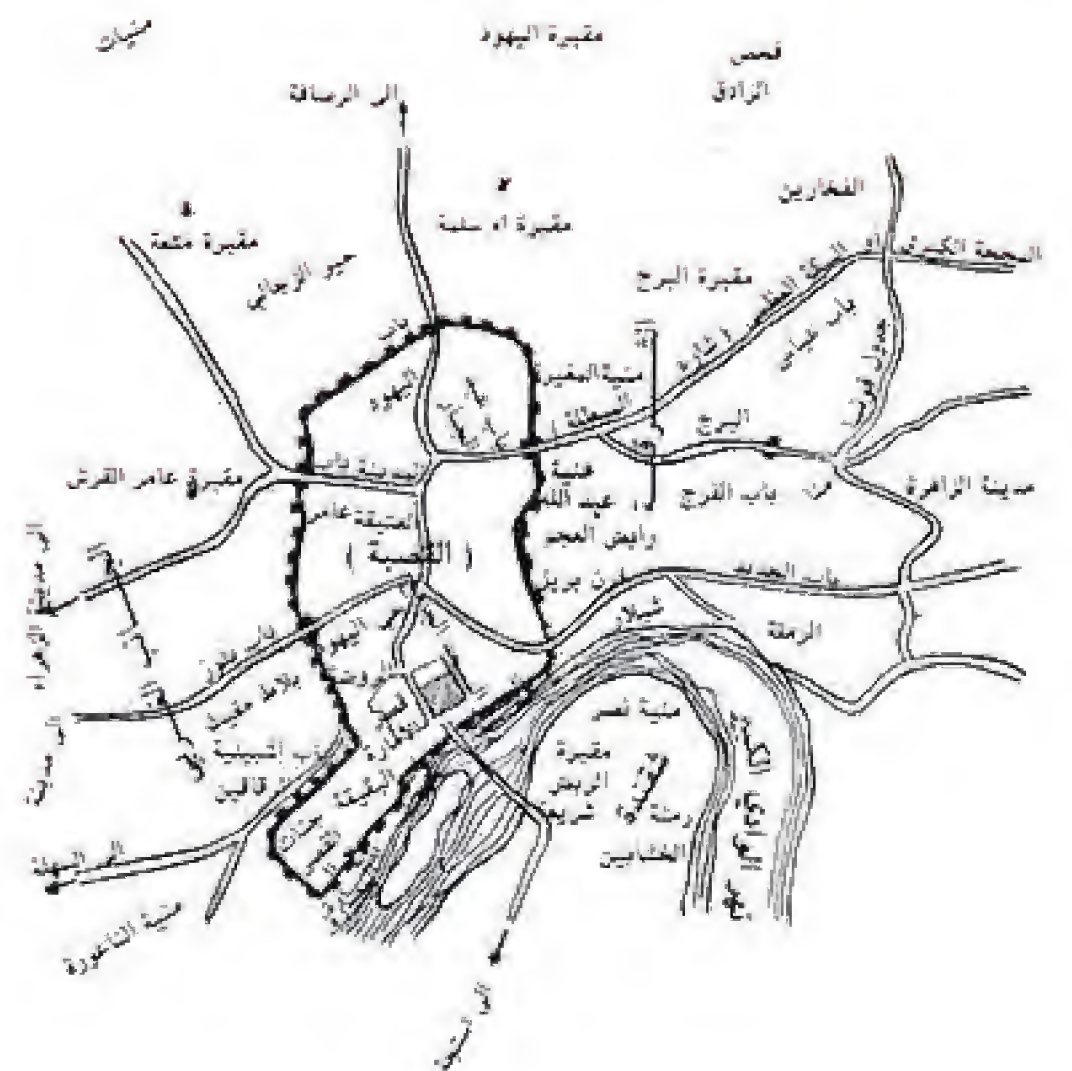
بعد ربع قرن من الجهد العسكري والسياسي عادت الاندلس دولة متماسكة قوية

وكانت أروقة تغص بالعلماء والفقهاء والطلاب . وما يزال يدهش الزائرين في روعة بنائه وغاية أعمده الرشيق المتراكبة وزخرفته ومحاربه وقبة المحراب من الداخل (أ) . أبعاد هذا الجامع واسعة (١٨٢ × ١٣٢ م) ويشبه المسجد الأقصى في مخططة المستطيل . بنى عبد الرحمن الثالث منارته المربعة سنة ٩٥١ . بعد سقوط قرطبة أقيمت في قسم منه كاتدرائية .



(٢) - صارت قرطبة زمن عبد الرحمن الناصر (النصف الأول من القرن العاشر) واحدة من مدن العصر الثلاث العظمى . بجانب بغداد والقسطنطينية . أغلى الجواهر والتحف والجواري والكتب لم تكن تجد سوقا رائجة في غيرها . أحيائها والأرباض (٢١ ربا) تزدهم بالمنازل والقصور (٦٣٠٠) والمساجد (٢٨٧٧) وبمئات الفنادق والحمامات . وتبلغ حوانيت المتاجر فيها ٨٠ ألفا وبيوت السكنى ٢١٣ ألف منزل لأكثر من نصف مليون من السكان . عدا الغرباء والعابرين والجند .

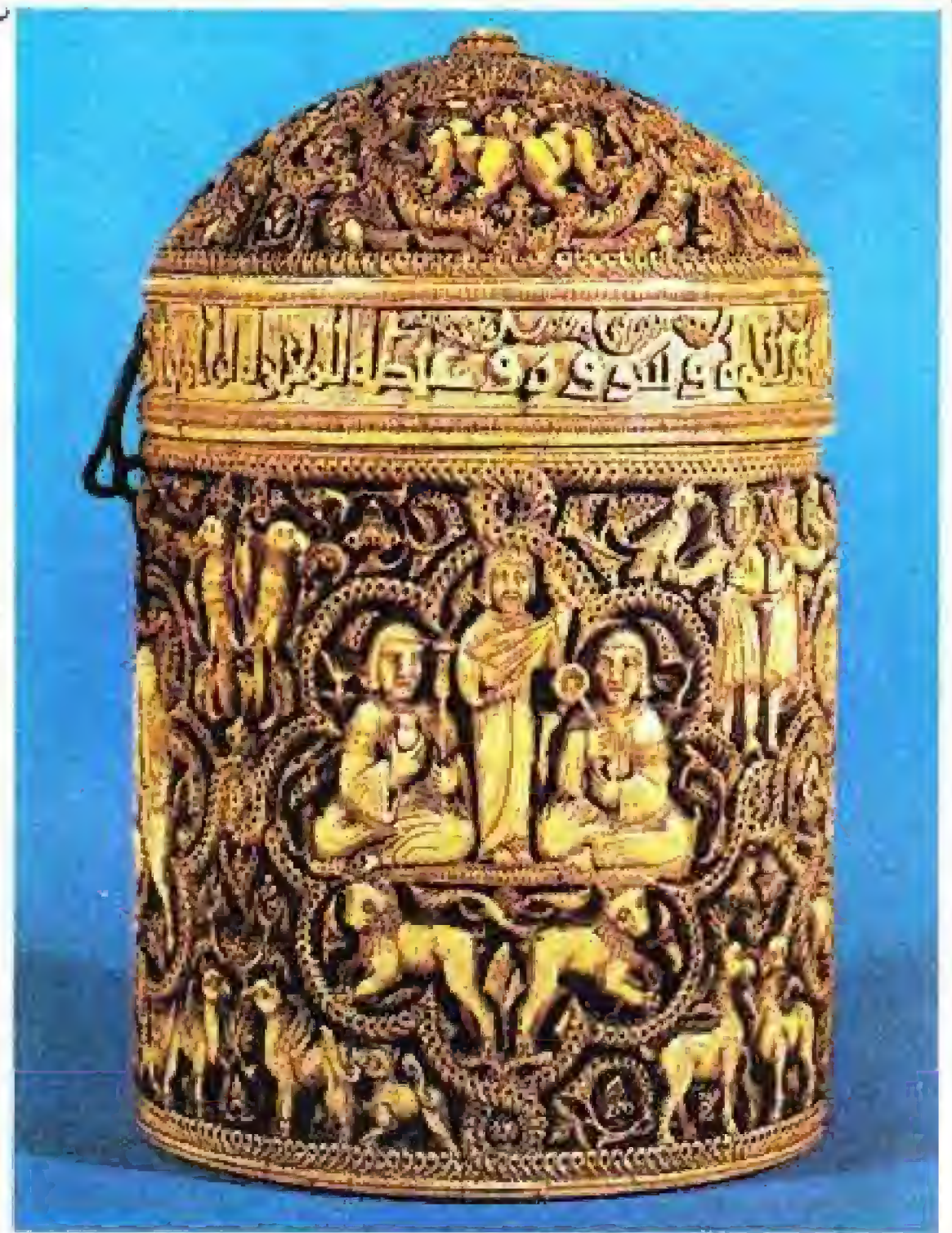
(١) - عني الأمويون في الأندلس . كما في المشرق . بالعمارة والبناء . بنوا عددا من المدن منها مرسية (سنة ٨٢٥) والمرية (سنة ٩٥٥) وأعادوا بناء لاردة (سنة ٨٨٣) كما بنوا في شواطئ المغرب مدنا تجارية منها وهران (سنة ٩٠٣) وتونس (سنة ٨٢١) وأصيلة داخل المغرب . غدا بناء الزهراء والزاهرة حول قرطبة . وبناء الحصون الكثيرة وعدد من الجوامع الكبرى في اشبيلية وجيان ولاردة والمرية وغيرها . وأعظمها دون شك مسجد قرطبة العظيم (ب) الذي استمر بناؤه والاضافة اليه حوالي قرنين . وترك فيه كل أمير أثرا .



حول قرطبة (٢) . صارت من أبرز الدول يومذاك غنى وقوة وتنظيماً وحضارة . كانت تسيطر بموقعها وبجزر الباليار وما يتبعها من (جبل القلال) جنوب فرنسا على تجارة الحوض الغربي للمتوسط .

الحكم الثاني المستنصر الذي خلف أباه كان مثقفاً أكثر مما كان سياسياً أو عسكرياً . ترك شؤون الدولة لمساعديه . نشأ نتيجة لذلك بجانبه مجموعتان من القوى : الخدم

الصقالبة ورجال البلاط . بعد موته استطاع محمد بن أبي عامر اليماني المنصور أن يستأثر بالسلطة . كان أقوى شخصيات البلاط بجانب الخليفة الصغير (هشام الثاني المؤيد ٩٧٦ - ١٠١٣) . تأيد مركزه بغزواته الموفقة في الجهاد (٥٢ معركة) وبنجاحه في تغيير بنية الجيش ، ومرونته السياسية ، وحبه الأدب وشعبيته . حتى غطى على الخلافة . سمى المؤرخون عهده بالدولة العامرية . حين توفي



(٣) - حفر العاج . هذه الحرفة الفنية الارستقراطية اشتهرت بها قرطبة المدينة العالمية الغنية . ما بين القرنين العاشر والحادي عشر . حين انهارت الخلافة الأموية ونهبت قرطبة لجأ نقاشو العاج مع غيرهم من الحرفيين الى كوينسا في رعاية

ملوك طليطلة . من العاج القرطبي . على اسطوانية (أ) صنعت لرجل اسمه المغيرة سنة ٩٦٨ . وصندوق صنع لولي العهد هناك سنة ١٠٤٩ (ب) .

(٤) - الزهراء مدينة - مأساة . بدأ بناءها عهد الرحمن الناصر

سنة ٩٣٦ بجانب قرطبة بالرخام والذهب والتماثيل والنوافير وبركة الزئبق وأقفاص الوحش والطيور . وأتمها الحكم المستنصر سنة ٩٨٥ . حتى أصبحت قنطرة الناس . كانت تضم ١٣ ألف ساكن . لكنها خربت سنة ١٠٠٨ فلم يبق منها

الا بعض الآثار والنقوش كهذه النافذة . مثل ذلك كان مصر مدينة (الزاهرة) التي بناها المنصور بن أبي عامر سنة ٩٧٨ في تسع سنوات فلم تعيش سوى ثلاثين سنة ودمرت في ثورة المهدي ضد العامريين سنة ١٠٠٠ الذي استصفها وأباحها .

بعد ٢٦ سنة من الحكم سنة ١٠٠٣ ، ترك فراغا لم يستطع أولاده ولا الخليفة سداده . فعانت خلافة الأمويين تدهورا سريعا ما لبث ان صار أمرا واقعا ب وفاة هشام الثاني سنة ٤٠٣ وعدم قيام خلف له .

ملوك الطوائف

تمزقت السلطة بين عدد من الامراء في مدن الاندلس . عاشوا فترة في « وهم الخلافة » حتى أعلن وزير قرطبة ابن جهور الغاء الخلافة سنة ١٠٣١ . كان عصر ملوك الطوائف قد بدأ قبل ذلك بعشرين سنة .

عادت الاندلس مع هؤلاء الملوك في القرن الخامس هـ / ١١ م دويلات صغيرة اتخذ اصحابها الالقاب الملكية . منهم بنو جهور في قرطبة ، وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو هود في سرقسطة ، وبنو زيري في غرناطة وغيرهم .

تميز في هذه الفترة مجاهد العامري (ت سنة ١٠٤٤) صاحب دانية وجزر البليار بقوته البحرية التي سيطرت على الحوض الغربي للمتوسط . حتى في عهد ابنه علي (ت سنة ١٠٨١) . هذا التمزق السياسي وما نجم من الحروب والمؤامرات شجع الدويلات الاسبانية على توحيد مواقفها والبدء الجدي في حرب الاسترداد الصليبية مدعومة من البابوية ومن الفرنجة . كان اعظم انتصاراتها المبكرة سقوط طليطلة بيد ملك قشتالة سنة ١٠٨٥ مما أدى الى تحرك المرابطين من المغرب . وتدخلهم لحماية الاندلس مبتدئين باشبيلية بلد المعتمد بن عباد .

حضارة الاندلس الأموية

الصورة الحضارية لاندلس الأمويين

تختلف تماما عن الصورة السياسية . حتى في عهد ملوك الطوائف . التألق الحضاري الذي جعل قرطبة واحدة من مدن الدنيا كان نتيجة ثلاثة قرون من الفعالية والتطور .

اهتم الأمويون بتطوير الزراعة وجلب الزراعات الجديدة (كالنخيل والنانج) وتنشيط التجارة العابرة بين المغرب وأوروبا . وكانت الاندلس بين القرنين التاسع والحادي عشر حلقة اساسية في دورة الذهب العالمية المتحركة بين غرب افريقيا وأوروبا . كما كانت مدنها ومرافئها سيدة التجارة العالمية في الحوض الغربي للمتوسط . وانعكس ذلك بوضوح في البذخ العمراني ورفاه الحياة .

غنى الدولة ظهر في تضاعف وارداتها زمن عبد الرحمن الثالث دون فرض ضرائب جديدة . وفي تجاوزها أزمات الجفاف والطواعين . وفي أعمالها العمرانية الضخمة التي كان منها مئات المساجد والأسوار والقلاع والجوامع الكبرى . وعدد من المدن (١) .

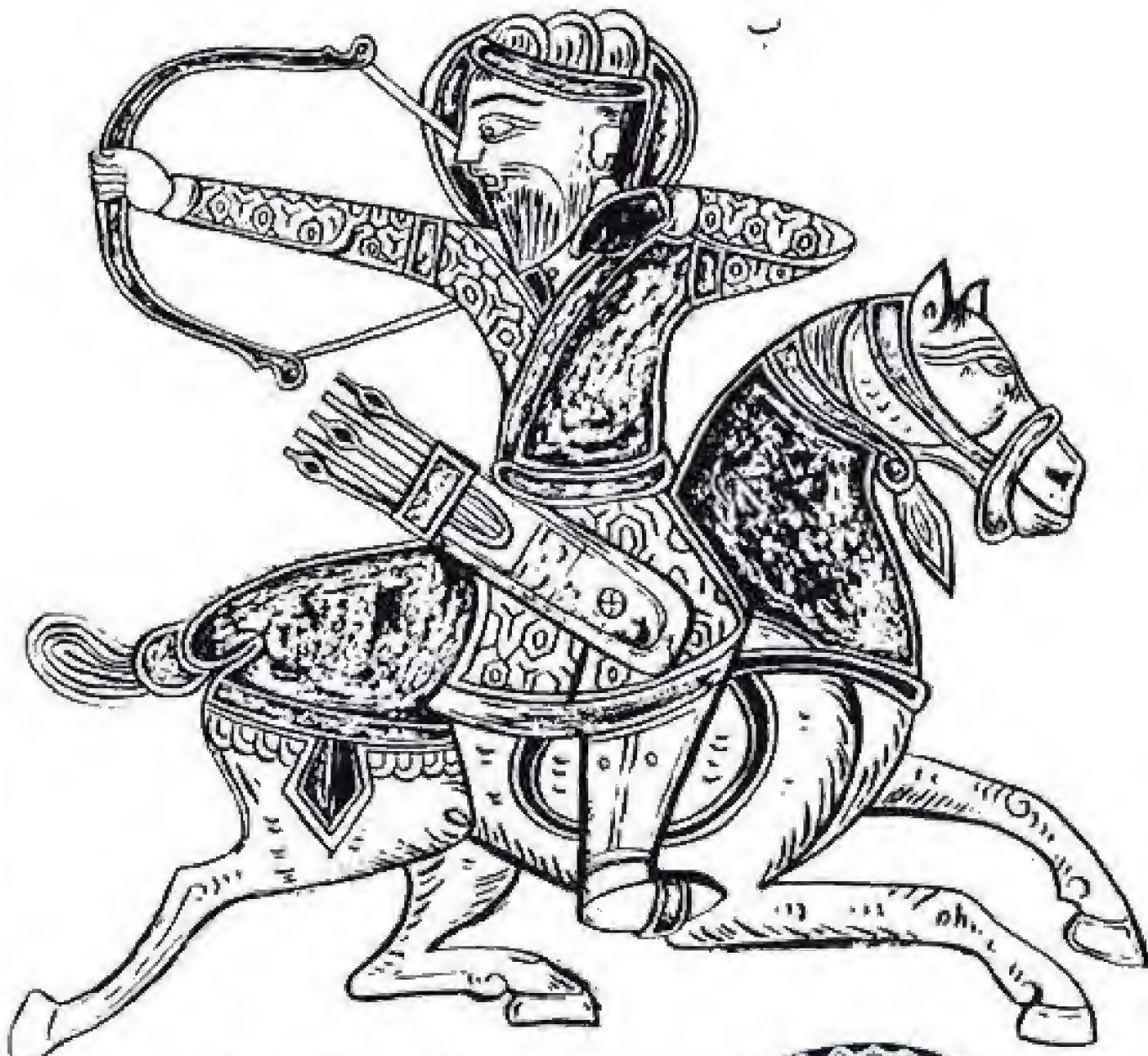
حضارة الاندلس كانت متأثرة بالشرق في فتراتنا الأولى خاصة . تقلده في العمران والثقافة وتقاليده المجتمع . واذا اتبعت المذهب المالكي بدل الاوزاعي . منذ عهد الامير الثاني هشام ابن الداخل . فان علوم الدين والاداب والشعر والعلوم الأخرى كانت مستمدة أو مقلدة أو مكملة لما ينتجه المشرق . الشهرة التي نالها زرياب مغني الرشيد في الاندلس . وتأثيراته الاجتماعية والثقافية كانت رمزا لكل ذلك . لكن الاندلس بدأت تتميز باساليبها وأذواقها الخاصة منذ عصر الخلافة . ودللت على تميزها في الشعر والموشحات والازجال وفي اساليب البناء والتزيين الكثيف والفنون وحياة المجتمع .

البحيش والاسطول

الجهاد والايمان في الدفاع وفي نشر الدعوة .
بالنصر على الردة اجتازت دولة الاسلام أول
ازمة كبرى هددتها بالتمزق .

حركة الفتوح جمعت هذه المعاني والقوى
معا . العرب وحدهم كانوا قوام الجيوش
الفاتحة . الموجة الثانية من الفتوح (١) زمن
الوليد بن عبد الملك كانت أصعب لتناقص
الغنائم وتضخم عطاءات الجند وطول المسافات
بين المقاتلين وقبائلهم . تطوع فيها اهالي

كان فرض الجهاد على المسلمين بعد
الهجرة . وتكوين قوة عسكرية منهم تنتصر
في معركة بدر . نقطة تحول في تاريخ
الاسلام . الدولة الاسلامية بدأت بذلك
وجودها الفعلي . مغازي الرسول أثبتت فاعلية



(١) - كان الحصان جزءا
أساسيا من عملية الحرب
الاسلامية منذ الفتح حتى نهاية
العصر المملوكي . للمشاة دورهم
واستعمل بعض الملوك القبيلة
في المشرق لكن الخيل كانت
دوما أداة الحرب . الفارس
(أ) تمثال خزفي من
القرن الثاني عشر (صنع
الرقعة) والرسمان (ب)
و (ت) على الخزف من
العراق ومصر (القرنان ١٠ و ١٣) .



الحدود في خراسان والشمال الافريقي على
أساس الرزق . لكن العرب ظلوا يحتكرون
العطاء وصناعة الحرب والتسجيل في
الديوان ، في نوع من الجندية الاجبارية .
مقامهم كان خاصة على الحدود وكثيرا ما
كانوا يجمرون اي يمنعون من العودة في
الشتاء الى اهلهم . أو كانوا هم انفسهم
يتشاقلون عن الحرب فتضع الدولة
مكانهم في العطاء جندا آخرين .

الجيش العباسي
العهد العباسي : أتى معه الى الجيش
ببعض التطور . فقد برزت القوى العربية
القادمة مع الثورة العباسية من خراسان وبرز
ابنائها من بعدها وكونوا جيشا نظاميا تابعا
للدولة . خلال ذلك كثر المسلمون من غير
العرب ودخلت جماعات منهم في الجيش
وبخاصة من خراسان نفسها . بينما كان
العرب انفسهم ينصرفون - مع توقف الفتوح -



الفاطمية (القرن ١٠ - ١١) وفي
(ب) مقبض سيف من العاج
صنع قرطبة وهي في أوج
اتقانها لحفر العاج في القرنين
١١ - ١٢ . أما (ت) فهو سيف
ابي عبد الله الصغير .

(٣) - عملية الحصار وهي لب
العملية العسكرية الهجومية .
صورها الفنانون المسلمون كثيرا .
من ذلك هذه الصورة على طبق من
الفضة نرى فيها الرماة في أعلى
القلعة والفرسان حول السور .

(٢) - كانت بعض الأسلحة
الفردية بجانب عملها الحربي
تتحول بالأعمال الفنية الى
حلية وزينة . ثمة كميات من
الاسلحة المزخرفة والمنقوشة
بالكتابات او المكففة بالذهب
والفضة كانت تستخدم في
العادة للاستعراضات العسكرية
التي كانت تجري باستمرار
يستعرض فيها الخليفة أو الأمير
بكامل لباسه الحربي قواده
ويوزع الجوائز أو زيادة الرزق .
في (أ) بوق عاجي من مصر

عن الخدمة العسكرية والعطاء . وعن الجيش النظامي ، الى اعمال الدولة والحياة المدنية . لم تعد طرائقهم ايضا في القتال صالحة لتطور آلة الحرب العباسية التي اضحت تعتمد السلاح الثقيل وحرب الحصار وتنظيم رماة السهام والفرسان واستخدام النفط والمجانيق وقذف الابراج مما يتطلب الخبرة والتدريب الطويل في الثكنات . رأى المعتصم اهمال العرب لصناعة الحرب

فأسقطهم من الديوان . وخاف الجيش الخراساني فاختر ان يجعل جيشه من العبيد المرتزقة . وهكذا بالغ في شراء الاتراك (٥) فلم يمض وقت قصير حتى صارت القوى المسيطرة في الجيش منهم . مع وجود الديلم والفرس والزنج والعرب فيه . سرعان ما وقعت بغداد بما وقعت به روما من قبل . من سيطرة قادة الجيش الترك هؤلاء سيطرة جرت الخلافة الى الحضيض .



(٤) - على هذا الطبق الخزفي الذي صنع ورسم في ايران في القرن الثالث عشر صور الخزاف الفنان معركة حربية كاملة . تخليدا على ما يظهر

لانتصار أصحابها الذين كتب اسماءهم بجانب صورهم أثناء حصار أحد الحصون . ونرى المنجنيق والفيلة في جانب من الصورة .

(٥) - اعداد الجيوش اختلفت من عصر لعصر ومن دولة لدولة . جيش العراق في القرن التاسع كان حوالي ١٢٥ ألفا بالإضافة للمتطوعين . ملابس الجنود اختلفت بدورها

حسب العصور . المماليك الترك كانوا مادة الجيش منذ القرن التاسع . في رسم جداري بسمراء (من القرن ٩) يظهر هذا الجندي وهو يحمل غزالا .

تكوين الجيوش الاسلامية التالية :

الجيش الفاطمي كان فرقا منظمة بالتطوع والرزق على الاساس العرقي . فهناك الزنج والمغاربة والعرب والأرمن والترك . وكان في القيادات بعض الموالي من المعتقين . السلاجقة حاربوا بجمهرة الشعب التركماني من الغز . لكنهم سلموا اعظم القيادات لأمرأء الأسرة او لمماليكها الذين حمل معظمهم لقب أتابك (ومنهم آل زنكي) . الايوبيون عادوا الى تكوين الجيش من المماليك المشترين فما لبث هؤلاء أن أخذوا الحكم منهم . وكونوا دولة المماليك التي استمر سلاطينها على التقاليد نفسها وتكوين الجيش من عبيد مختلف الأمم .

نظام التعبئة للقتال تطور مع القرون . كان في عهد النبي صفا واستخدم العرب في الفتوح ومن بعدها الكتائب ونظام الخميس (جناحان قلب ومقدمة وساقة) . كان يرافق الجيش النفاطون والنقابون وضاربو المجانيق والعيون (الجواسيس) والحدادون والنجارون . عدا القضاة والاطباء والمؤذنين والقراء والحمالين والباعة . رغم بقاء السيف (٢) والرمح والسهم والدروع أسلحة فردية اساسية فقد تطورت لدى العرب الاسلحة الجماعية : مثل راميات السهام والمنجنيق والدبابة وأدوات النفط وصنعة الأبراج (٣) وآلات النقب . وظهر على الحدود البيزنطية وفي المغرب نظام الأربطة . وهي حصون للمتطوعة يقيمون فيها للعبادة والحرب . وحيانا لفداء الأسرى او الانذار بالأخطار .

الاسطول :

تعامل العرب مع البحر منذ أقدم الأزمنة .

قبل الاسلام بقرون طويلة كانت لهم اساطيلهم في المحيط الهندي والخليج العربي . الفتوحات العربية الاسلامية وان كانت برية الا انها سرعان ما احتاجت الى الأسطول وبنته في البحر المتوسط منذ عهد عثمان بن عفان . حقق هذا الأسطول نصره الكبير في ذات الصواري سنة ٦٥٤ . غنى الأمويون بعد ذلك بأساطيل البحر وان دمر الروم اسطولهم في شرق المتوسط قبل سقوطهم بثلاث سنوات . بسبب الحرب الاقتصادية بين الطرفين . العباسيون كانوا قاريين . أهملوا البحر .

الاسطول التجاري الاسلامي في القرن الثالث والرابع وصل الصين وشرقي افريقيا . أما في البحر المتوسط فكان البحر للدول الاسلامية المنفصلة مثل الطولونيين والاغالبة وكريت وجزيرة ميورقة . ثم ظهرت البحرية الفاطمية في القرنين الرابع والخامس . كان الصراع الاقتصادي السياسي بينها وبين البحرية الايطالية خاصة احد اسباب الحروب الصليبية التي سيطرت فيها الاساطيل الاوروبية على هذا البحر وتجارته .

كانت سفن المحيط الهندي تبنى بربط الخشب بالألياف بينما تجمع في البحر المتوسط بالمسامير . أما السفن الحربية فكانت عامة نوعين : كبيرة كالבوارج تتسع الواحدة لألف رجل . وصغيرة كالطرادات لا تتسع لأكثر من مائة . وتزود البوارج بالمجانيق والابراج وآلات قذف النار . وثمة أنواع أخرى منها البدن والبغلة والجفن والحراقة .

استخدم العرب منذ القرن الحادي عشر على الأرجح البوصلة لتوجيه السفن . وكانت الملاحة لديهم علما له كتبه وجداوله ومعارفه .

المجتمع الاسلامي

تتكلم لغات شتى منها اللاتينية والبربرية واليونانية والسريانية والفارسية . الفتح جعل الطبقة العليا الحاكمة من العرب ، وجعل دينهم الاسلامي هو الدين الأول ولغتهم هي اللغة الأولى .

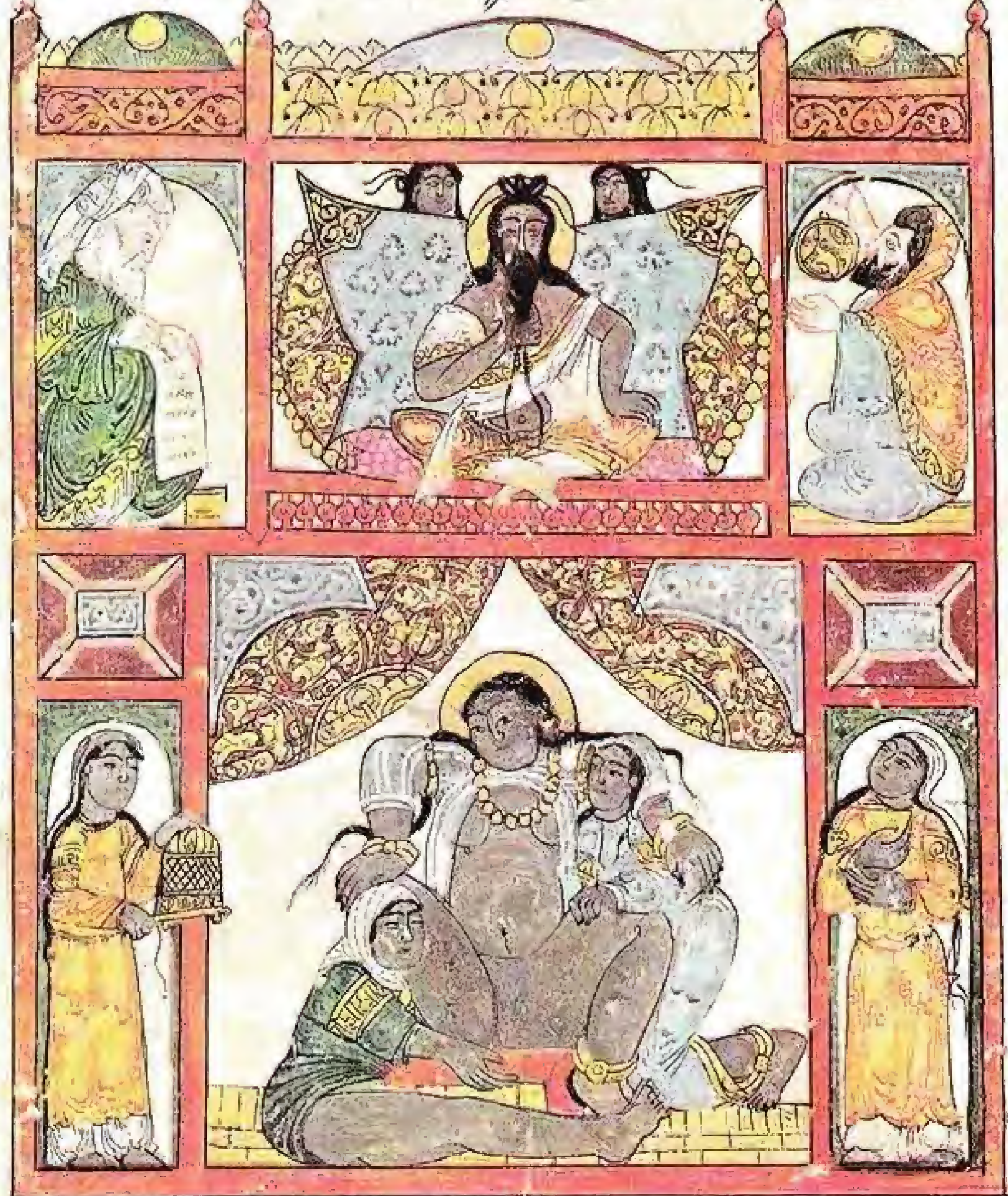
على هذا الأساس ترتبت طبقات المجتمع الاسلامي الأول . الفاتحون المسلمون هم الطبقة الاولى ، والآخرون هم في « ذمة » المسلمين . لم يمض قرنان على ذلك حتى

قامت الدولة الاسلامية بعد الفتوح وتحت اجنحتها عناصر شتى من قوط وبربر وقبط وآراميين وفرس وترك . يدين معظمهم بالمسيحية . عدا الفرس الذين كانوا على المجوسية (الزرادشتية) . كانت هذه الشعوب

(١) - طبقة الخاصة كانت تعني الطبقة الارستقراطية في المجتمع الاسلامي . لم تكن مغلقة . كان يدخل فيها بيت الخلافة وآل البيت كما يدخل الكبراء في الوظائف والحكام ورجال المال والتجارة وقادة الجند . ملامح من حياة الخاصة نجدها في الصورة ، فثمة رسم الولادة والقابلة مع الخادم تعينان السيدة ، بينما وقفت جاريتان بالماء الساخن والثياب ، وفي الأعلى والد الطفل ينتظر . بينما أحد الشيوخ يدعو في جانب وآخر يستخرج طالع المولود في الجانب الآخر (من رسم الواسطي سنة ١٢٣٧) .

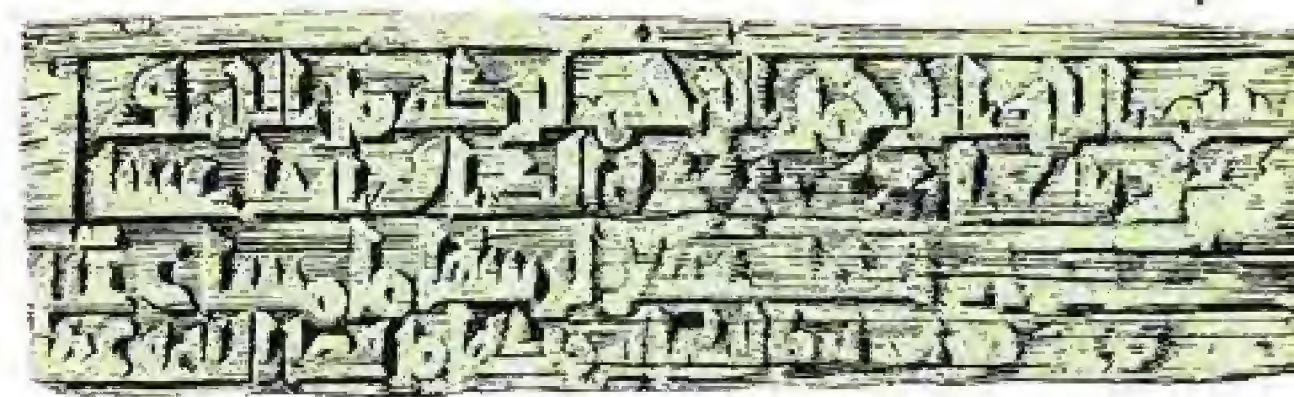
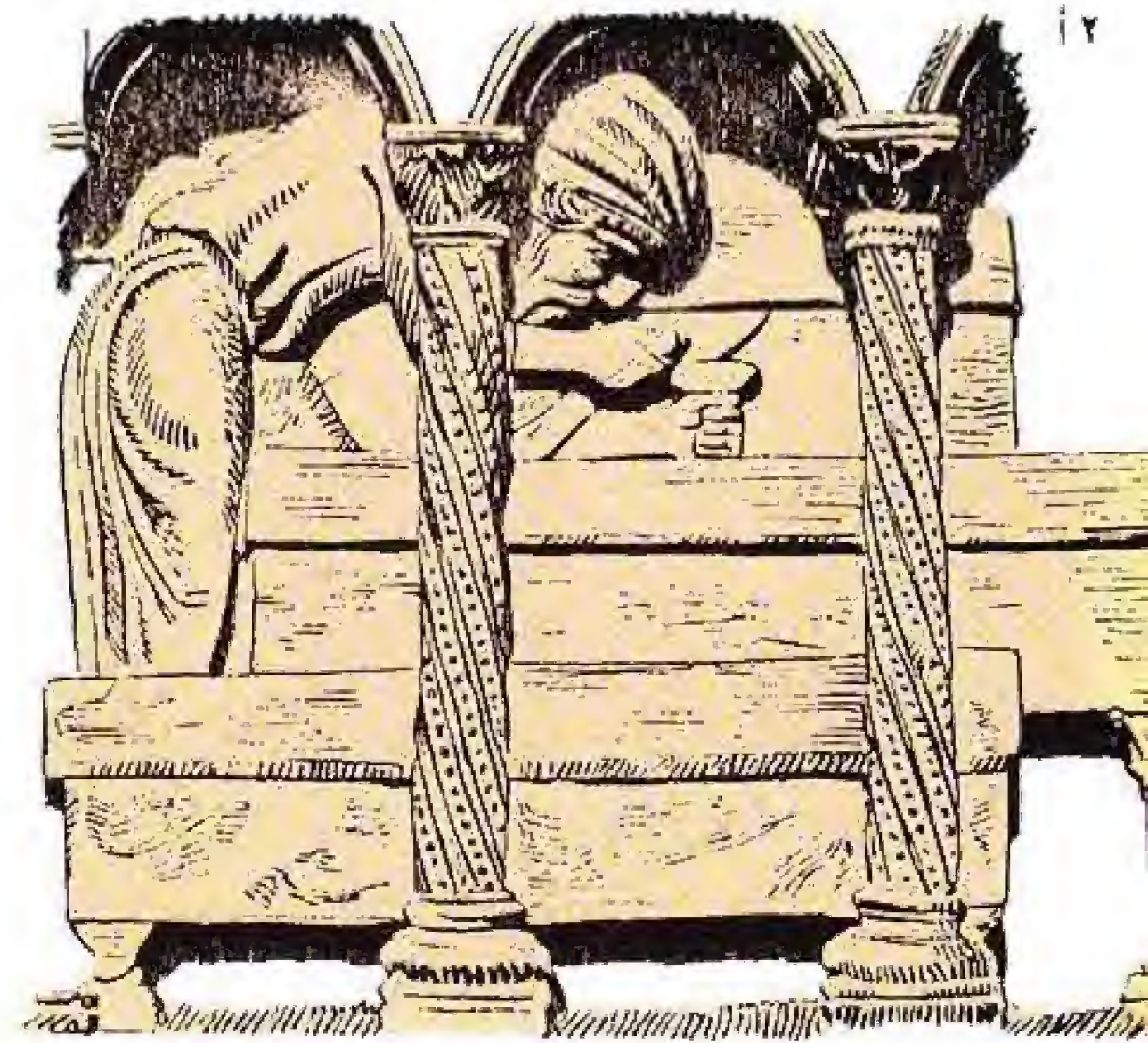
(٢) - نستطيع أن نعد في المدن الاسلامية ما يزيد على ٤٠٠ حرفة (صنف) لكل منها تقاليد وأسواقها الخاصة وأخلاقها وحاميتها من الأولياء والأنبياء . وفيها المراتب من شيخ الكار . الى المعلم ثم الخلفة ثم الصانع ثم المبتدئ . الانتماء للصنف له شعائر احتفالية أهمها الشد والقسم . تتم رقابة الدولة عليها من قبل المحتسب وشيخ الكار . في

وَلَسْتُ لِمَا مَالِي عَمَّا فَكَتَفِي أَبُو رَيْدٍ بِالْحُلَّةِ وَهَبَ لِلْحُلَّةِ فَلَمْ يَبِحْ الْوَالِدُ

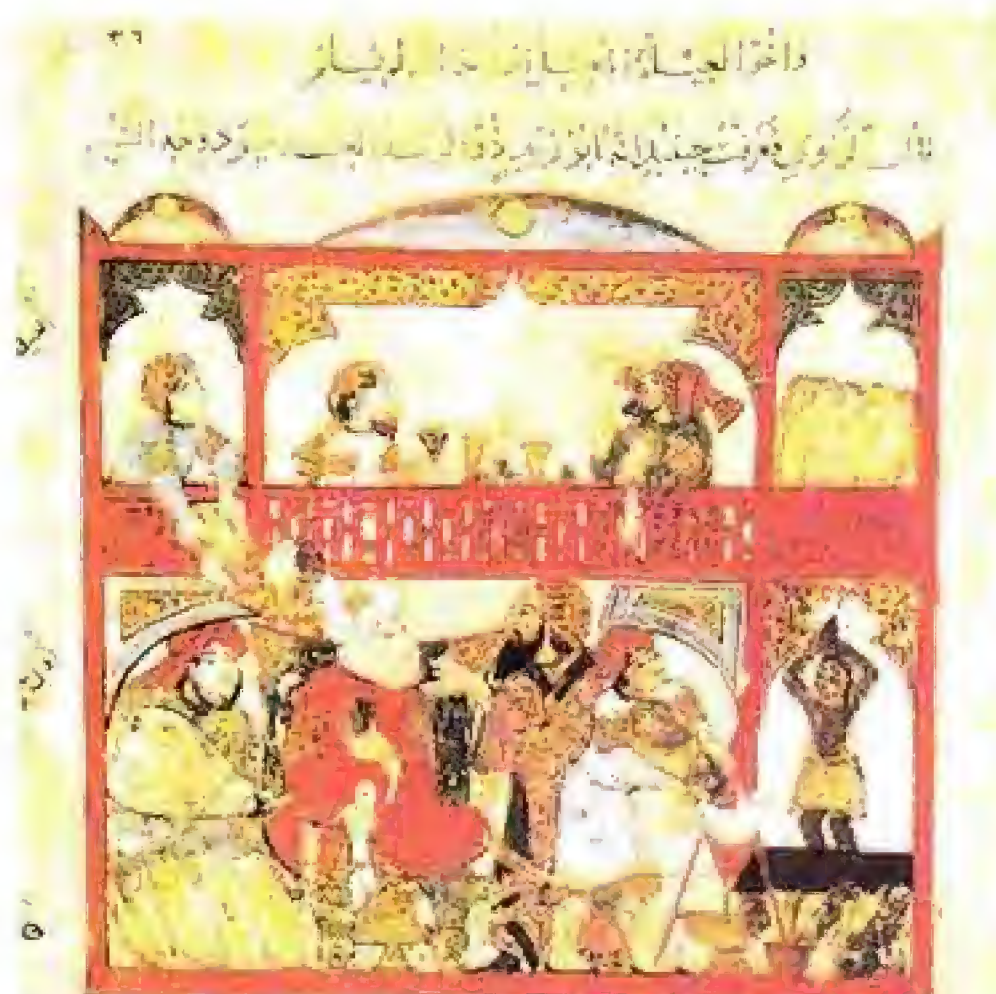


تبدلت الصورة تماما بتكاثر المسلمين غير العرب . وانتشار اللغة العربية بين رعايا الدولة . بقيت بعض البقايا من الصورة الاولى . لكن المجتمع الاسلامي صار ذا طبقات متداخلة معقدة بعض التعقيد : دينيا . كان هناك المسلمون وأهل الذمة (من النصارى والمجوس) ولكل جماعة تنظيمها الديني . من الناحية الاجتماعية . ظهرت على أساس السلطة والمال طبقتا الخاصة (١)

والعامة . تشمل الاولى الحكام وكبار الموظفين والعلماء والمتمولين والملاكين والتجار سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين . والثانية مجموعة من الطبقات فيها التجار الصغار والباعة وأصحاب الحوانيت والحرفيون وفيها الزراع والحراثون وفيها الحمالون وأهل الكدية والشطار والعيارون ممن يسمون بالغوغاء . كانت هذه الجماعات كثيرة العدد جدا في المدن الكبيرة كبغداد والقاهرة



(١) نجار يعمل (ب) تملك دكان بالفسطاط (القرن ٩) .
(٢) - حياة التدين والجند
(أ) وحياة اللهو (ب) كانتا تتجاذبان المجتمع الاسلامي ولهما في كل عصر أجواءهما



وساوي فله من ذرعه فخر وكرم فقلت له لعلك لا تفهم اذا لم يفهمه الا انا
استغفر الله من الجاهل المذنب وذميرته يبكى وفكره يشبه بابا الفيلسوف

القرنين التاسع والعاشر . والمسيطرين على
الحكم والثروات والأرض .

تعقد البنى الاجتماعية

ازدادت البنى الاجتماعية تعقيدا بعد
ذلك ، فقد قدمت مجموعات الجيش الفاطمي
من المغرب (ومعظمها من قبائل البربر)
وقدمت من المشرق جموع الترك السلاجقة ،
فصار هؤلاء وهؤلاء هم الطبقة السياسية -

وقرطاجة ، ولها خطرها وثوراتها ، كما ان لها
أحيانا تنظيماتها ورؤساءها ودورها السياسي .
تأتي بعد هذه الطبقة ، طبقة أدنى منها هي
طبقة العبيد ، وهي بدورها طبقات ،
عناصرها من مصادر شتى : تركية وصقلية
ورومية وزنجية وهندية .

دخول العبيد الترك في الجيش منذ عهد
المعتصم فتح لهم باب السياسة والحكم .
صاروا قواد الجيش والسياسة . ما بين اواسط



٥



٤

ب



(٥) - جمهرة المجتمع
الاسلامي كانت من المزارعين
وتعيش في الريف . هي أصل
الثروة وتعاني من الكوارث
الطبيعية والحربية ، تجلت
العناية بالزراعة في مشاريع
الري ، كالتواوير والصهاريج
والسدود ، وفي الكتب التي
ألفت للفلاحة ، الصورة رسمت
لقصة حب أندلسية (قصة
رياض ورياض) مخطوط في
الفاطكان من القرن ١٣ .

(٤) - لعبة الشطرنج كانت من
ألعاب التسلية الارستقراطية
يتبارى فيها الخلفاء والكبراء
ويتأقون في رقعتها وحجارتها .
في (ب) حجر شطرنجي للشاه
صنع من العاج المزخرف في
القرن العاشر أو الحادي عشر .
أما اللعبة فتراها بين لاعبين من
العرب (أ) في معسكر
حربي . والصورة مأخوذة عن
مخطوط لاتيني كتب سنة ١٢٨٢
محفوظ في الاسكوريال .

العسكرية الأولى في الشرق العربي . كان في هذه الطبقة أيضا مماليك للخلفاء الفاطميين ولسلاطين السلاجقة تسلموا القيادات . في الوقت الذي كان فيه العرب البدو يخرجون من الجزيرة العربية وينساحون في العراق والجزيرة والشام ومصر حتى شمالي افريقية (الهجرة الهلالية) . زال الفاطميون بعد ذلك وخمدت الحركة البدوية مع الحروب الصليبية . لكن النظام السلجوقي عاش مع الاتابكة والايوبيين ليفتح المجال للمماليك (وهم قادة الجيش) كي يصبحوا هم الحكام والطبقة الأولى الاجتماعية والعسكرية والسياسية في المجتمع الاسلامي (٢) .

المجتمع في العهد المغولي - المملوكي
هكذا . في أواخر القرن الثالث عشر . كانت الصورة القديمة قد اختلفت . المجتمع الاسلامي في ايران كان على حاله القديم ولكن تعلوه طبقة المغول الحكام (بعد انهيار بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨) وقد استعاد باللغة الفارسية خصوصيته ضمن الاطار الاسلامي .

أما في الشام ومصر فقام تحالف مصلحي بين ثلاث طبقات : المماليك والعلماء وكبار المتمولين . صارت هي طبقات المجتمع العليا مقابل الطبقات العامة من الحرفيين (٢) والباعة والزراع والحراثين . وأما في المغرب فان سيادة المجتمع كانت منذ القرن الخامس قد صارت للقبائل البربرية التي اسلمت وتعربت لغويا ونزلت من الجبال . برزت أولا صنهاجة الضاربة في الصحراء (في بني زيري وحماد والمرابطين) وقبائل السوس (في الموحدين) . ثم جاء الزناتيون (في بني مرين وبني عبد الواد) والمصموديون (في بني حفص) .

الزراعة والحرف

رافق هذه التغيرات السياسية - الاجتماعية ، تطورات تقابلها على المستوى الاجتماعي الاقتصادي . فقد ترك الفتح الاسلامي الأرض لأصحابها مقابل الخراج . بينما وزع (الفيء) والأرض الموات (٥) على الفاتحين مقابل العشر . هكذا وجدت طبقة من ملاكي الأرض عربية وغير عربية في كل قطر . لكن ذابت الفروق العنصرية مع الايام . وبينما تحول المجتمع القبلي العربي الى العمل الزراعي . حلت في ملك الأرض تلك الطبقات الجديدة من الجند وكبار الدولة في العصر العباسي .

حين سيطرت الطبقات العسكرية الأجنبية منذ القرن التاسع على الحكم سيطرت معه على الأرض الزراعية بوصفها مصدر الثروة . استمر ذلك حتى العهد العثماني . وكان الريف في كل الأحوال يدفع ثمن النكبات الطبيعية (من فيضان وجفاف وأوبئة) والعسكرية .

في المدن ظهر بالتدريج منذ القرن التاسع أيضا نظام الأصناف (الطوائف الحرفية) . واهتم تخطيط المدينة العربية اهتماما بالغا بها . صار لكل حرفة أو صنعة سوق يختص بها . ورابطة حرفية بين العاملين فيها . اسهمت في ذلك بعض الأفكار الصوفية والفرق الدينية المعارضة . وبينما صارت الحرف بالتدريج كالوظائف السياسية والدينية وراثية . كان من واجبات أهل الصنف التضامن فيما بينهم ومعونة أهل حرفتهم القادمين من البلاد الأخرى . هذا التكافل الاجتماعي بالاضافة الى الاوقاف أعطى المجتمع الاسلامي الكثير من ملامح التعاون الانساني .

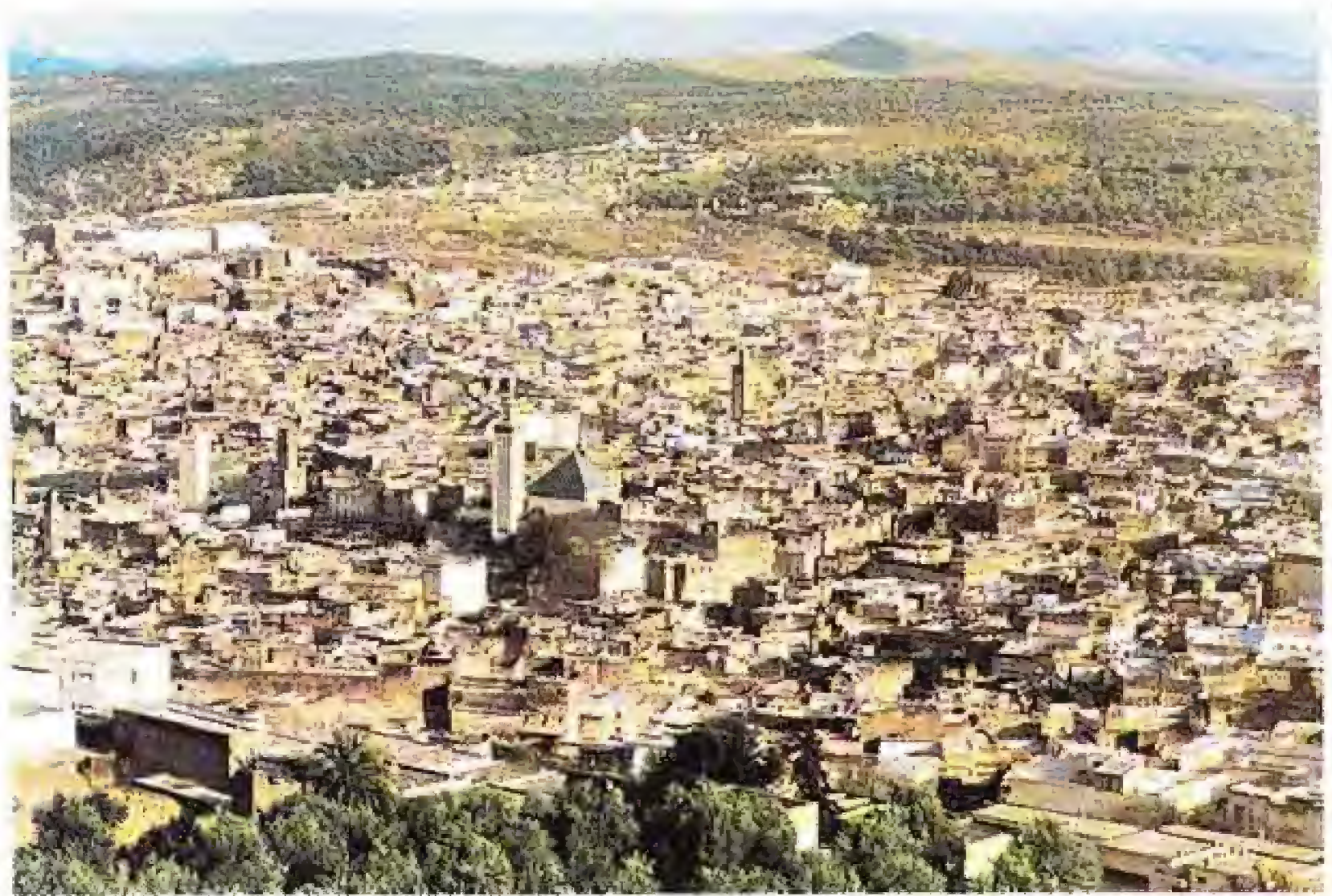
المدينة الإسلامية

نكاد نجد دولة اسلامية ناشئة الا واختطت لنفسها عاصمة تبنيها . وتبني بعدها مدنا أخرى عسكرية وسياسية وتجارية ، بالإضافة الى عشرات المدن - الحصون على الحدود . سكن العرب ، في الوقت نفسه ، مئات المدن القديمة في المناطق المفتوحة . وطوروها بالتوسعة والبناء بما يتفق مع حاجاتهم الحضارية . صارت الاسكندرية والموصل ودمشق وحلب وانطاكية والقدس ونيسابور

الاسلام بطبيعته مدني . وكان من أوامر عمر بن الخطاب في الايام الاولى للفتوح تأسيس المدن (الامصار) فكان منها البصرة والكوفة ثم القسطنطينية ثم القيروان . ظلت الدولة الإسلامية على هذا التقليد نفسه ، فلا

١٨

(١) - فاس هي أول عواصم المسلمين في المغرب الأقصى . أسسها علي الوادي الكبير ادريس الأول حوالي سنة ٧٩١ . بعد عشرين سنة أخرى أسست على العدو الأخرى للوادي فاس الأخرى توأم الأولى (عدوة القرويين مقابل عدوة الأندلسيين القديمة) . وحد المدينتين التوأمين يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ١٠٦٩ في سور واحد وبني الحمامات والفنادق والأسواق فصارت عاصمة المغرب الثانية . فلما اتخذها المرينيون عاصمة لهم بين القرنين (١٢ - ١٥) بلغت قمة ازدهارها . ذكروا أنه كان على نهرها ٣ آلاف رحي منها ٤٧٢ بالمدينة . وكان بها دار سكة في كل من العدوتين و ٩٣ حماما و ٧٨٥ مسجدا وأكثر من ٨٩ ألف منزل و ١٧ ألف مصرية (مشربية) و ٤٦٧ فندقا و ٩٠٨٢ حانوتا و ٣٠٩٤ نولا و ٤٧ مصنعا للصابون و ٨٦ للصبغة و ١١٦ للصباغة و ١٣ للحديد والنحاس و ١١٧٠ فرنا و ٤٠٠ لعمل الكاغد و ١٨٠ للفخار . كانت فاس يومذاك وارثة النشاط الاندلسي .



ب

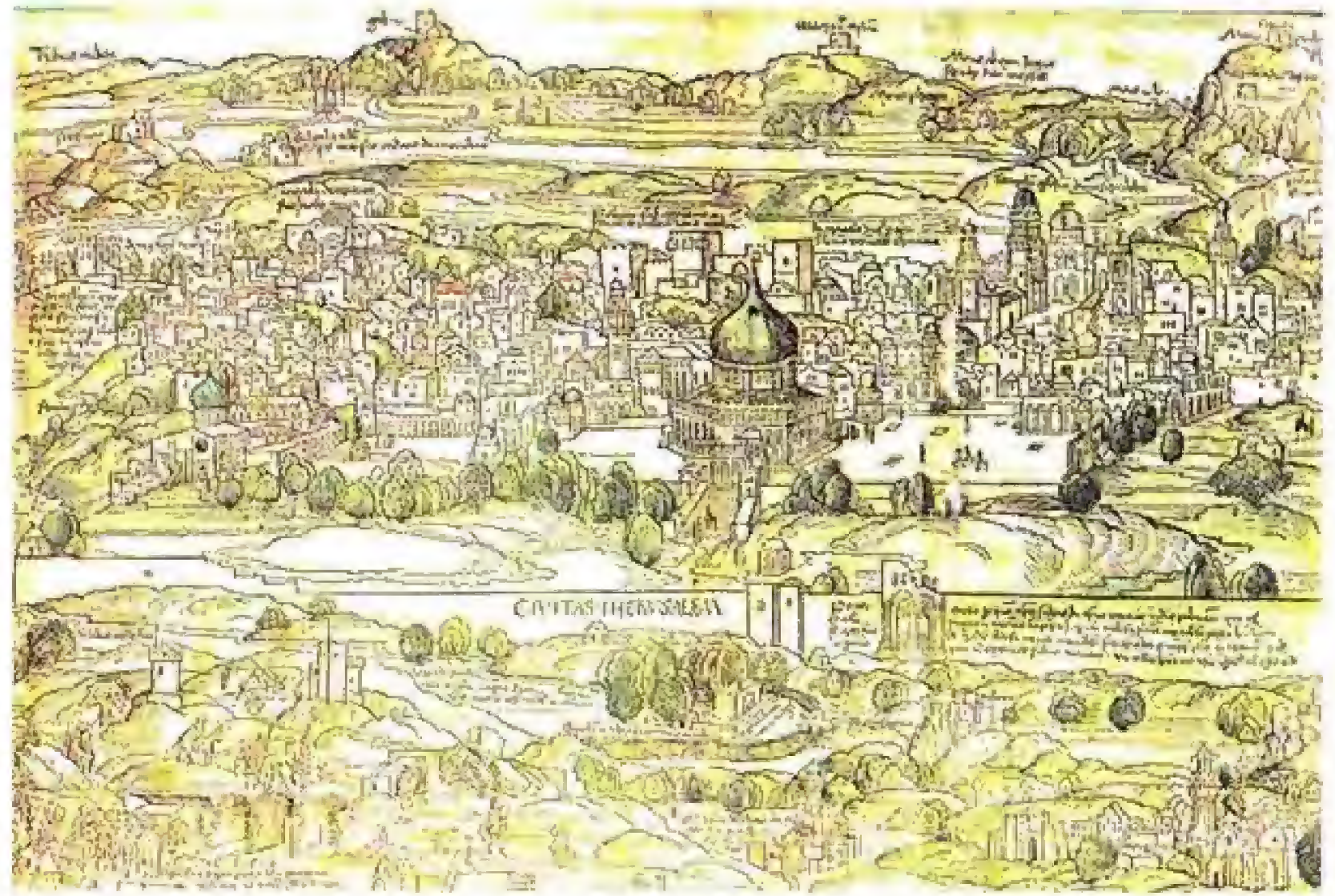
وبخارى وسمرقند وقرطبة واشبيلية وغرناطة
مدنا اسلامية أكثر بكثير مما هي من بناء
الأولين .

المدن الاسلامية

شيدت المدن الاسلامية الأولى معسكرات
للجند . بعد ذلك كانت المدن تبني عواصم
للحكام . وسكنا سياسيا ملكيا تقوم على
هامشه المدن . بنشاطاتها الاقتصادية

والفكرية . بنى المنصور بغداد (٧٦٢ - ٧٦٥)
منزلا له ولاصحابه . جعل قصره والجامع
والدواوين في وسطها . لما احتاجت الى الاسواق
جعلها خارج الاسوار نحو الجنوب (الكرخ) .
شيد المعتصم سامراء سنة ٢٢٠ هـ لتكون مقرا
للحكم والجند . اقام احمد بن طولون مدينة
القطائع . بجانب الفسطاط . قصورا له
ولجماعته . كذلك اقام جعفر الصقلي مدينة
القاهرة لسيده المعز الفاطمي (سنة ٩٦٩ م)

خاصة وقد يكون ثنائيا وثلاثيا
ومعه الخندق والأبواب . وغالبا
ما توجد قلعة صغيرة في
المدينة أو حصن يسكنه
صاحب السلطة . ثم تأتي
المؤسسات الاقتصادية .
كالأسواق وغالبا ما كانت ضيقة
مسقوفة يختص كل منها بصنف
معين . ثم الفنادق وقد تصل عدة
مئات . والقيسيات والوكالات
والارحاء . والأفران ومصانع
الورق والزجاج والصابون
والأنوال والمعاصر . أما الدباغة
والصباغة والفخار ففي خارج
المدينة . القدس (ورسمها هنا
صنعه أحد الحجاج الغربيين في
القرن ١٥) يمكن اعتبارها
نموذج المدينة الاسلامية .



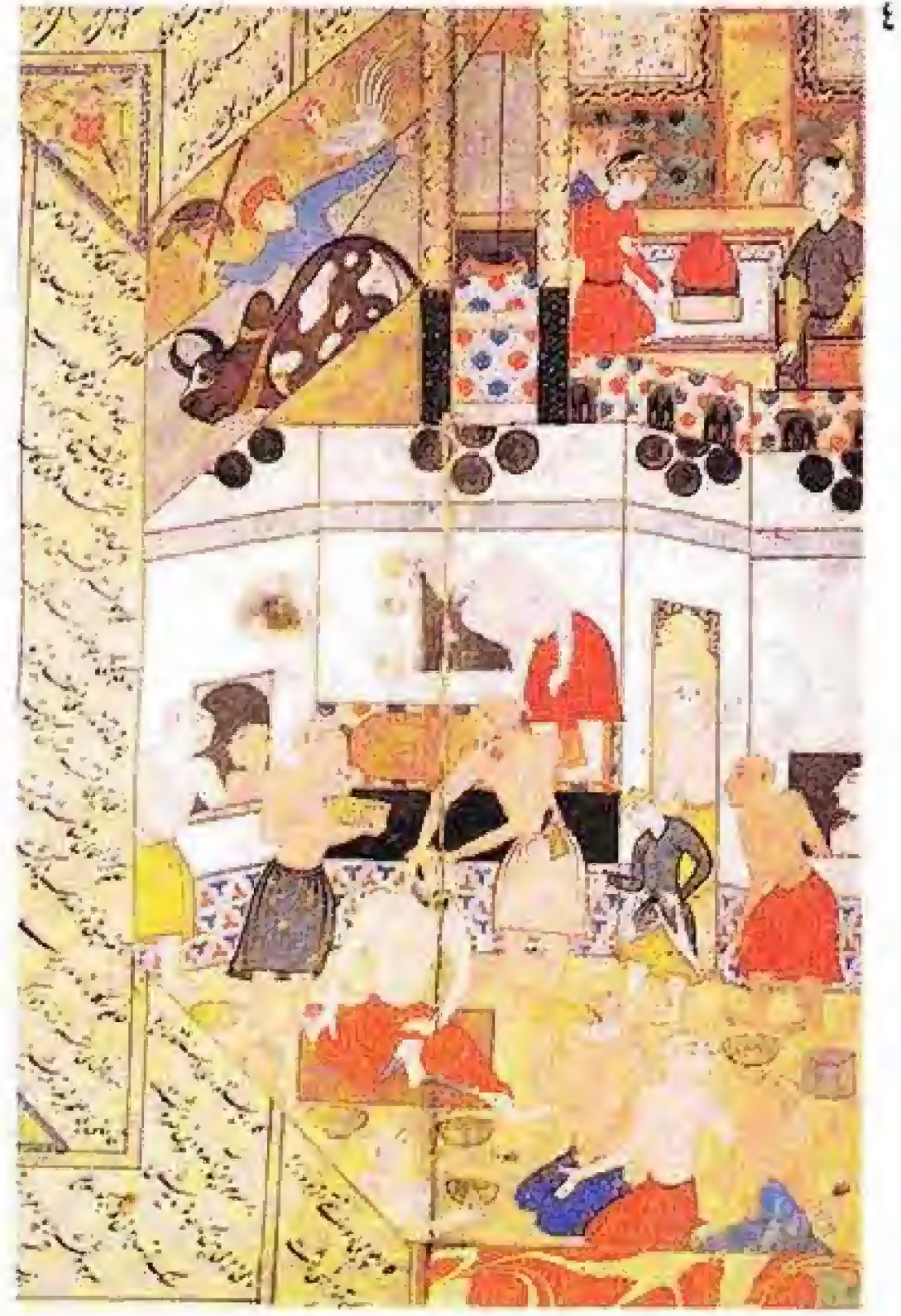
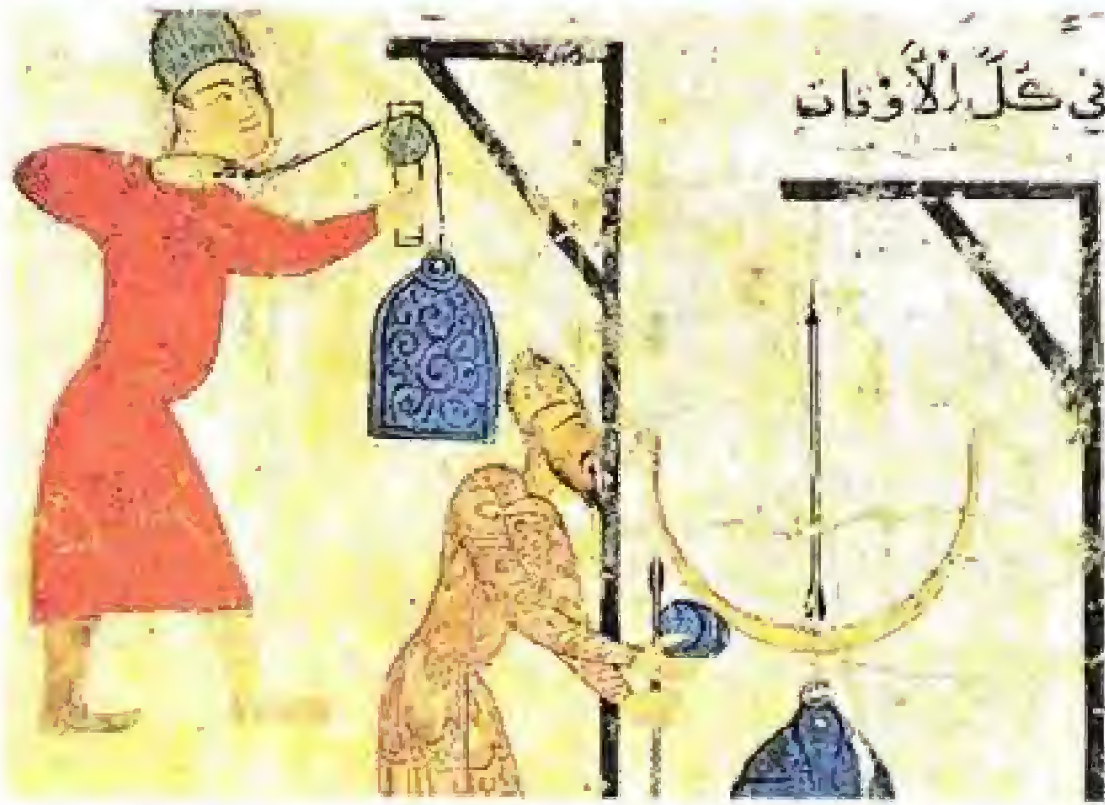
(٣) - بنيت المهديّة بين
سنتي ٩١٤ - ٩١٨ . المهدي
الفاطمي أرادها حصنا فاختار
موقعها على الساحل . ونقر
المرفأ (سعة ١٠٠ سفينة) في
الصخر . وأغلقه بالسلاسل
وجعل لها سورا على البر بأبواب من
الحديد . بنى بجوارها (زويلة)
للناس . زين قصره ببعض النقوش
ومنها رسمه وهو يستمع الى
موسيقى يعزف المزمار .



(٢) - منذ القرن العاشر أضحت
المؤسسات ذات الطابع الديني
في المدينة الاسلامية عنصرا
أساسيا من عناصرها التكوينية
وملامحها المميزة : كالمدارس
والزوايا والاربطة . وقد تكثر
لتزيد على المائة كما في دمشق
والقاهرة والقدس (في العهد
المملوكي) ويتصل بها غنى
مؤسسة الأوقاف الدارة عليها .
وتأتي بعد ذلك منشآت الدفاع
الحربي وهي السور بصورة

لتكون قصور الحكم والسكنى . القيروان تحولت من قاعدة حربية متقدمة في افريقيا سنة ٦٧٥ م الى مقر سياسي وحاضرة للتجارة والاسواق والمنازل ، حين اصبحت مركز الولاية الافريقية . لما جاء عبيد الله المهدي أول الفاطميين لم يأمن على نفسه واهله هناك الا حين بنى المهدي سنة ٩١٣ - ٩١٧ هـ جعلها قصورا ومرسى ضخما منقورا في الصخر ، وبنى بجانبها مدينة زويلة بالسور والخندق

والابواب والحرس والدكاكين لتكون للتجار واهل الحرف وسائر الناس . عبد الرحمن بن رستم حين أقام الدولة الاباضية في المغرب الاوسط بنى عاصمتها تاهرت سنة ٧٦١ على سفح جبل جزول الذي تغطيه الغابات . أقام بها الجامع والاسوار والدور والقصور . لم تلبث ان صارت بها الحمامات والاسواق والارجاء . وبالقرب منها المراسي تصلها بالاندلس . ابن واسول المكناسي زعيم الصفيرية بنى قبله



(٤) - الحمام الاسلامي من حيث البناء والتقليد متأثر بالحمام الروماني السابق له أما كمؤسسة اجتماعية صحية فهو اسلامي بحت . لأن النظافة والتطهر من أوامر الشرع . وقد تكاثرت الحمامات العامة في

المدن الاسلامية التكاثر الواسع لأن المياه في هذه المدن عامة قليلة الوجود معظمها في مناطق أقرب الى الجفاف الجغرافي . منذ القرن العاشر صار لكل حي في المدن حمامه الخاص . المنمنمة من مدرسة بهزاد (القرن ١٥) .

(٥) - حرف المدن كانت كثيرة جدا بسبب تفرع التخصص وتعدد الأصناف . فباعة النسيج أنواع وعماله أنواع . وباعة القطن غير باعة الحرير أو الكتان . ولكل جماعة صنف ورئيس ، وأهم من هذا ان لكل صنف حاميا روحيا من الأنبياء أو الأولياء . وحين تقام للمعامل حفلة « الشد » لدخول الحرفة كان للاحتفال طابع ديني . من الرسوم القليلة لهذه الطبقات العاملة . رسم بعض البنائين « أ » وبعض عمال « القبان » (الموازين) (ب) .

مدينة سجلماسة الصحراوية سنة ٧٥٧ . أقام بها الاسوار والبناء وجمع المياه وغرس النخيل . اتم بناءها بعد ذلك الشيخ المدراري سنة ٨١٥ فاخطط بها المصانع والقصور .

كذلك بنى ادريس الأول مدينة فاس (١) سنة ٧٩١ . وبنى يوسف بن تاشفين أول المرابطين عاصمته مراكش في جنوب المغرب . ونعد بالأندلس على الأقل ست مدن عربية .

المدن الخاصة بالحكام

كان الحكام أحيانا يخرجون من العواصم ليقيموا قصورهم مدنا صغيرة على مسافة منها . الأمويون بنوا قصورهم في البادية والغور (قصر المشتى وقصر الحير . وقصير عمرة) . الرشيد سكن الرقة والرصافة على حوض الفرات . المتوكل بنى المتوكلية شمال سامراء . ابراهيم بن الاغلب بنى العباسية سنة ٨٠١ جنوبى القيروان بالقصور والحمامات . حفيده ابراهيم بن احمد بنى سنة ٨٧٨ مدينة رقادة عاصمة ثالثة . بستة قصور وعدد من الحمامات والفنادق والاسواق . وجعل لها السور وخزانات الماء . الخليفة الفاطمي المنصور ترك المهديّة (٣) الى بلدة مجاورة سميت بالمنصورية جعل لها الابواب وتقل الاسواق وارباب الصناعات . المنصور ابو يوسف المريني بنى بجانب فاس مدينة البيضاء سنة ١٢٧٦ عاصمة له . عبد الرحمن الناصر بنى مدينة الزهراء قصورا رائعة له ولأهله قرب قرطبة . بنو الأحمر بنوا قصور الحمراء مدينة للحكم على مشارف غرناطة . يبقى أن نضيف ان المنجمين كانوا غالبا ما يستشارون في موعد البناء ومكانه .

مخطط المدينة الاسلامية

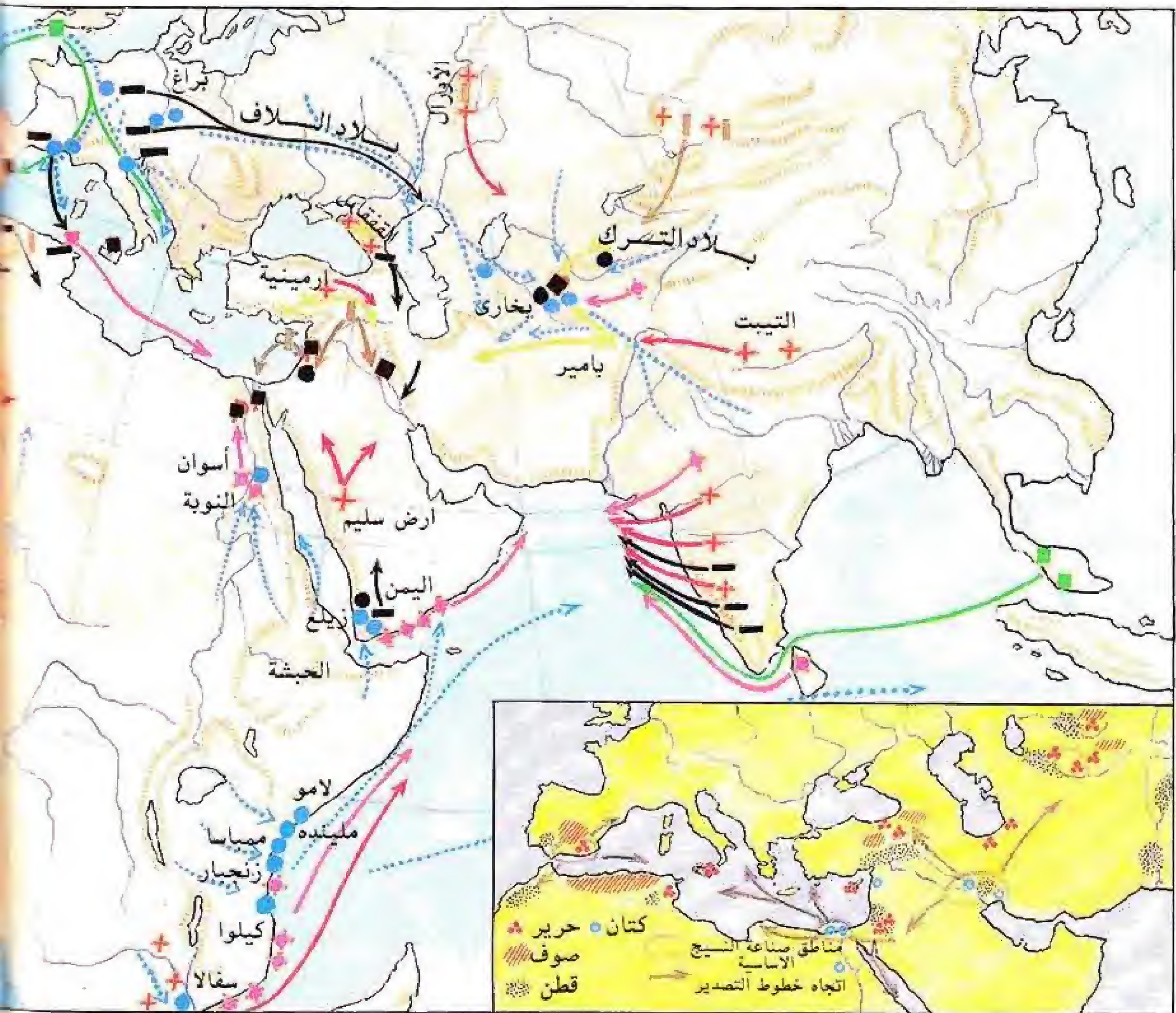
لم يكن ثمة مخطط محدد للمدينة الاسلامية . ولكن كانت فيها مؤسسات محددة . كانت تبني مربعة كالقاهرة أو مدورة كبغداد أو متطاولة كسامراء . ومعظمها بأسوار لسبب أمني . وتتجاوز ابنيتها السكنية الاسوار في أزقة متعرجة اعتباطية . لكن مركز المدينة الاسلامية كان على الدوام المسجد الجامع . هو نقطة الانطلاق في طبغرافيتها . وفي تحويل المدن القديمة . ويتوسط جميع المدن الاسلامية . فخامته . ترتبط في العاصمة بقيمة الدولة وبغناها . وفي المدن الأخرى بثروتها وكثافتها الديمغرافية . قلائل هي المدن التي وجد فيها أكثر من جامع واحد . لا يكون ذلك الا للمدن الكثيفة السكان (بغداد ٦ القاهرة ٧ البصرة ٣ فاس ٢ دمشق ٢) وان كانت توجد فيها المساجد بالمئات أحيانا . بجانب الجامع كانت تقوم دوما دار الامارة للحكم (وقد تكون قلعة) . ومعها الدواوين ودار الضرب . كما يقوم السوق الاساسي الذي تتفرع منه الاسواق الضيقة في الغالب . العناصر الثلاثة كانت قوام المدينة . معظم المدن الاسلامية كانت تحوي قسمين منفصلين الى حد ما . المدينة السياسية للدولة والخاصة . وفيها الجامع . ومدينة الحياة العامة للشعب . فيها الاسواق والحرف (٥) والسكنى .

أما المؤسسات فأهمها وأكثرها اناقة ما كان ذات طابع ديني . ثم تأتي منشآت الدفاع المختلفة . ثم المؤسسات الاقتصادية من اسواق وفنادق . ثم المنشآت الحياتية كالحمامات بالعشرات . وتنظيمات السقاية والري .

التجارة العالمية والنقور

قرون على الأقل . مع هذا العامل الجغرافي تداخلت عوامل أخرى منها : تشجيع الاسلام للعمل التجاري . الغاء العرب للحاجز السياسي القديم بين المحيط الهندي والبحر المتوسط . تحريكهم دورة الذهب بين افريقية وأوروبا وآسيا الغربية . حتى الهند . تراكم الثروات في العصر العباسي والفاطمي في العراق ومصر والاندلس . تزايد حاجات الرفاه الكمالية فيها . التقاء خبرات العرب التجارية

موقع البلاد الاسلامية في قلب العالم المتحضر كله . واتصالها المباشر بالهند والصين وتركستان وأوروبا وافريقيا الغربية والشرقية . وهي العالم المعمور يوم ذاك . جعلها مركز التجارة العالمية وممر طرقها كلها خلال عشرة

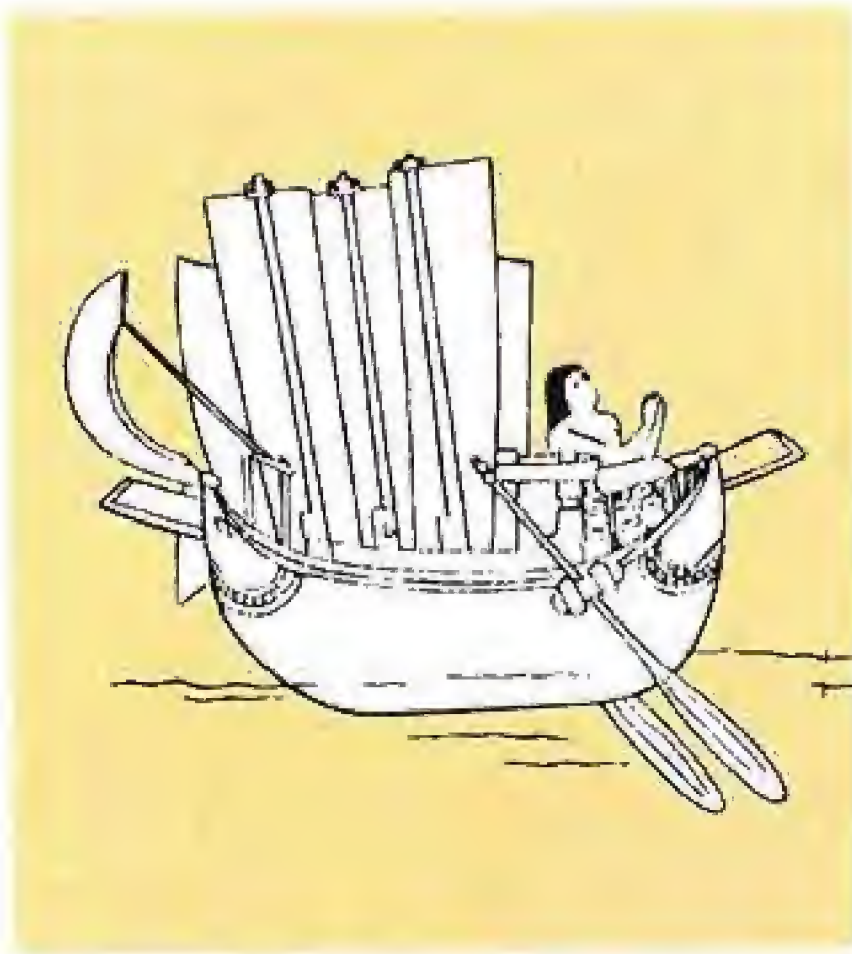


القديمة مع خبرات الشعوب الاخرى التي شكلت دولة الاسلام في العالم القديم كله . كل ذلك جعل التجارة الاسلامية في القرون المسماة بالوسطى هي التجارة العالمية الكبرى الوحيدة .

التجارة العربية العالمية

خدم العرب النظام التجاري العالمي بالدراسات الجغرافية الكثيفة وتسهيل نظام

المكوس ، وايفاد البعثات والسفراء ، واقامة المحطات على الطرق ، والفنادق في المدن ، وبناء السفن ، واستخدام الاسطرلاب والبوصلة فيها ، وتضخيم القوافل والحماية لها ، واقامة الجاليات الاسلامية في المدن والمرافئ الاجنبية (من القسطنطينية واتل عاصمة الخزر الى تمبكتو وغاد على حوض النيجر ، الى مقديشو وممباسا في شرق افريقيا ، وحتى خانفو في الصين) (٢) . هذا الى



(١) - تجار الخليج العربي (من البصرة وسيراف) وتجار عدن كانوا أبعد التجار انتشارا ورحلة . مع ذلك برز في التجارة ، بين الشرق والغرب في القرنين الثالث والرابع ، تجار الرادانية وهم من اليهود ، يطوفون أقصى أوروبا الى الصين ، ثم برز تجار الكارم . مركزهم في مصر ، استمروا حتى أواخر العصر المملوكي يسيطرون على التجارة العالمية . لهم وكالات في كل بلد . وتضامن عند النكبات . وأموال طائلة يقرضون منها السلاطين .

(٢) - التجارة العالمية كانت تعتمد خاصة على السفينة في المحيط وعلى قوافل الجمال التي قد تزيد الواحدة منها على ألف جمل عبر القارات . الطرق البحرية والبرية كان يكمل بعضها بعضا . هناك طريق الحرير البري القديم يأتي عبر الصين الى سمرقند وبخارى حيث يتفرع فرعين واحد يمر من شمال بحر الخزر الى (اتل) ثم القسطنطينية أو كيبف . وفرع اسلامي يصل الري ثم همذان الى بغداد حيث يلتقي بالطريق البحري القادم من خانفو (الصين) عبر مضيق

سنغافوره الى سرنديب وساحل الملبار ثم سيراف والبصرة . يتجه فرع منه الى شرق افريقيا عبر عدن ، كما يتجه فرع آخر من عدن الى قوص على البحر الأحمر ثم حوض النيل الى الاسكندرية . قوافل بغداد كانت تتجه الى موانئ الشام ومصر . كما تعبر آسيا الصغرى الى القسطنطينية . طريق شمال افريقيا يسير السواحل الى برقة وطرابلس والقيروان حتى فاس . منه فروع تخترق الصحراء الكبرى الى تشاد وحوض النيجر كما يتصل عبر صقلية وموانئ الأندلس بأوروبا .

اقامة البيوت المصرفية . وابتكار نظام السفتجة . (الحوالة المالية) . والصك (الشيك) .

ترك العرب في لغة التجارة العالمية الى اليوم عددا من مصطلحاتهم ومن اسماء السلع وخاصة النسيج . بلغت التجارة الاسلامية أوجها فيما بين القرنين الثالث والخامس للهجرة / ٩ - ١١ م . صار التاجر رمز الحضارة الاسلامية . المنافسة الوحيدة كانت تأتي من

بيزنطة التي كانت تحتكر الصلة مع شرق أوروبا والخزر وتناضل في حوض المتوسط الشرقي .

المنافسة الاوروبية

منذ القرن العاشر دخلت القوى التجارية الايطالية والاوروبية الغربية حوض المتوسط . الحروب الصليبية التي شنتها هذه القوى من الاندلس الى الشام عبورا بصقلية .



(٣) - لم تكن النقود التي صدرت في مختلف البلاد والعهود الاسلامية موحدة الوزن أو العيار سواء في الذهب أو الفضة . بصورة عامة كان وزن درهم الفضة القديم = ٣ غرامات تقريبا . ووزن الدينار = ٤,٢٣ غ من الذهب . مع ظهور الدولة الفاطمية ظهرت الدنانير

المغربية (ذات العيار الذهبي العالي) وانتشرت في تجارة المشرق . بعض العملات اشتهرت فترة طويلة بسبب جودة عيارها (أ) . (ب) أول دينار ضربه عبد الملك بن مروان . (ب) درهم أموي ضرب على الطراز البيزنطي .

(٤) - اختلفت المكايل والأوزان والمقاييس في العالم الاسلامي . من اقليم لآخر ومن مدينة لأخرى . وحدة القياس كانت الذراع وهناك أكثر من ثلاثين وحدة قياس آخر غيره منها القصبة والذراع الهاشمي . والبز . والعمرى . وحدة الكيل هي المد وهو مختلف وله أجزاء

وأصناف . وحدة الوزن تستند الى الدرهم (غير الدرهم النقدي) والى المئقال (= ١٠٥ درهم) . والرطل (= ٧٢ مئقالا = ١/٣ كغ حتى ١/٣ كغ) . المئقال = ٢٤ قيراطا والقيراط = ٤ حبات . الصنوج الصغيرة زجاجية والكبيرة حديد أو برونز كهذه السلجوقية (القرن ١٢) .

ولمدة تزيد على خمسة قرون ، كانت في أعماقها اقتصادية تجارية . رغم استرداد المشرق الإسلامي والمغرب أحيانا قوتهما الاقتصادية بين القرنين السابع والتاسع هـ ١٣ - ١٥ م إلا أن القوى الأوروبية استطاعت ، بنتيجة الاكتشافات الجغرافية ، تطويق العالم الإسلامي من الجنوب والوصول إلى الهند ، وإلغاء دور البحر المتوسط التجاري . ذلك النصر الاقتصادي هو الذي قضى على التجارة الإسلامية .

بضائع التجارة (١) كانت متنوعة كل التنوع . ولكن أوروبا كانت تصدر خاصة الرقيق والخشب والفراء مقابل الذهب والنسيج والتوابل والبخور والأحجار الكريمة . وشرق إفريقيا تصدر الذهب والعاج والعنبر والحديد والرقيق . والهند الفولاذ والأخشاب الثمينة والتوابل ونسيج القطن والعطور والجواهر مقابل الخيل والمصنوعات والزجاج . ومن الصين الحرير والورق والأواني مقابل العاج والنحاس والكافور .

النقود :

كانت الدولة الإسلامية ثنائية المعدن . تتعامل بالفضة والذهب معا . كان ذلك لأنها ورثت الأراضي الساسانية في الشرق التي كانت تتعامل بالدرهم الفضي ، ومعظم أراضي الروم ، على البحر المتوسط ، وكانت تتعامل بالدينار الذهبي . بالإضافة إلى أن مناجم الفضة عامة كانت في المشرق ومكان الذهب كانت في القسم الغربي من الدولة . أما قطع النقد الصغيرة فكانت من النحاس والرصاص .

ظلت دولة الإسلام حتى عهد عبد الملك

بن مروان ، تتعامل بالدينار البيزنطية نفسها وبالدرهم الساسانية ، وإن ضربت منذ عهد عثمان بعض الدراهم الإسلامية على طريقتها . الخليفة عبد الملك (٢) هو الذي عرب النقود جميعا في الدولة . بين سنتي ٦٩٢ - ٦٩٥ دخل من أجل ذلك في حرب اقتصادية مع الروم استمرت حتى آخر الدولة الأموية . كان خراج المشرق يقدر بالدرهم ، ومن الشام حتى المغرب بالدينار .

كان الدينار في مطلع العصر العباسي

يساوي ١٢ - ١٣ درهما . وكان ضربه يتم في بغداد وحدها . وسمح أحيانا لبعض المدن الكبرى بضرب الدراهم . نشوء الدول المنفصلة كالطولونية والახشيديّة والسامانية سمح لها بضرب نقودها الخاصة مع الاحتفاظ باسم الخليفة عليها ، رمزا للتبعية السياسية .

أما بلاد المغرب والأندلس فقد انفصلت بنقدها الخاص منذ انقطعت عن العباسيين (أواسط القرن ٨) ف ضرب الأمويون الدينار . وكثرت مناجم الفضة لدى الإدارة ، ف ضربوا الدراهم . وانفرد القرامطة في البحرين بضرب نقود ثقيلة جدا من الرصاص تتفق مع نظامهم .

كانت دور الضرب احتكارا للدولة وموردا من مواردها ، كما كانت رمزا لسلطتها . في أيام الأزمات المالية ، كانت السلطات تتلاعب بعملة الذهب والفضة في عملتها وتلزم الناس بقبولها .

انتشرت النقود الإسلامية ، مع التجارة ، في أقاصي المعمور ، فكانت هي عملة التبادل التجاري على البحر البلطي (حيث وجدت كميات أثرية منها) ، وفي حوض النيجر ، وفي الهند وسهوب تركستان ، وفي موانئ الصين وسواحل إفريقيا الشرقية .

التعليم والمدارس في الاسلام

في التاريخ الاسلامي كله بهذه الوظيفة المثلثة . لم يكن مكان عبادة فقط ولكن مكان تعليم . ومكان سياسة الناس والقضاء بينهم أيضا .

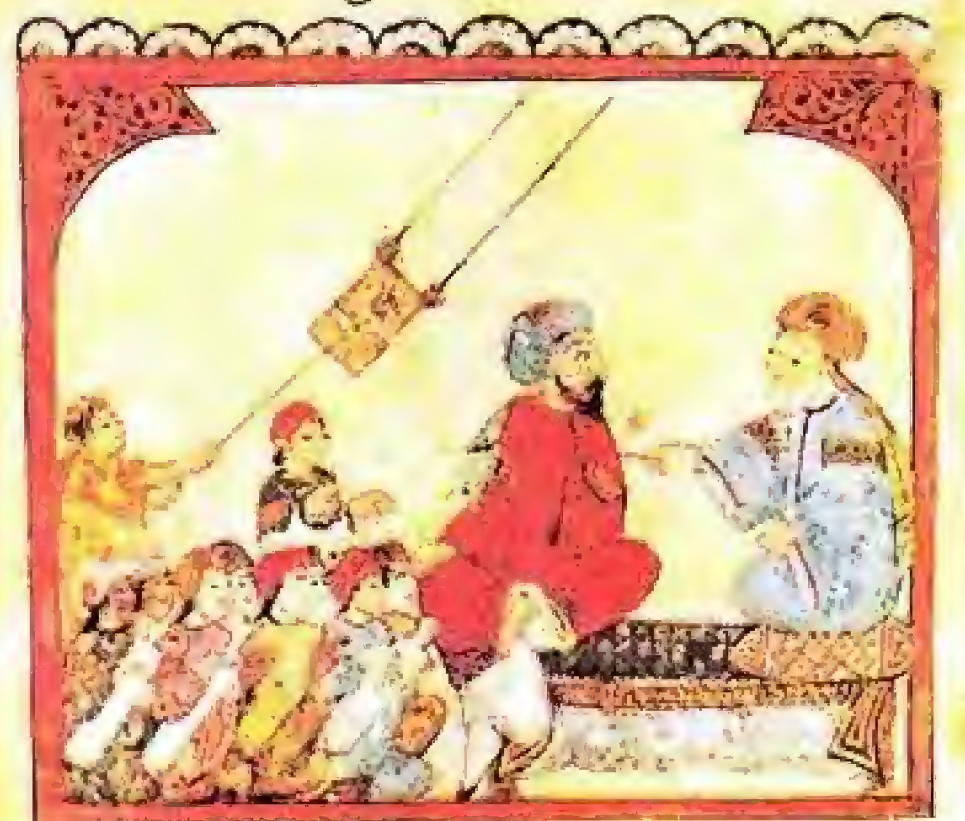
في العهد الأموي انتشرت مهنة تعليم الصبية . كان الحجاج من هذه الطبقة . تعليم الكبار كان يتم في المسجد . مادة التعليم هي القرآن وما يتصل به من لغة ونحو وتفسير وتفقه . لأولاد الخلفاء وكبار القوم كان ثمة

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » هذه الكلمة هي من تعليمات الرسول العربي . كان هو نفسه المعلم الأول لأصحابه . مسجده بالمدينة كان للصلاة وللعلم ولإدارة أمور الناس . احتفظ المسجد

- (١) - يمكن تقسيم مراحل التعليم في الاسلام الى ثلاث . كان يبدأ للصغار بنين وبنات بالخط والحساب وتنتهي المرحلة باحتفال بختم القرآن . ثم كان يستمر في المسجد بتعليم الأمور الدينية في الغالب وهي المرحلة الثانية . أما الدراسة العليا فكانت تتم في المدارس (لأمر الدين عامة) والبيمارستان للطب والمرصد للفلك وهي المرحلة الثالثة . وقد تتم في بيوت العلماء أنفسهم . صورة الكتاب (أ) رسمت لمخطوط لمقامات الحريري . مطلع القرن الثالث عشر . وعلماء الفلك (ب) من مخطوط شاهنشاه نامه في القرن السادس عشر .



تنبهت كسائر ما به فلبه والجمع أظلم لا بد من قبل المشرق عذرا للظلم
كأنه شجرة السافل والأصلح والبطل في هذا الجرد
السافل في شجرة السافل والأصلح والبطل في هذا الجرد
السافل في شجرة السافل والأصلح والبطل في هذا الجرد



بمنه في الدار والدار والدار والدار والدار والدار

وروي الحديث ، والشعر والأدب ، قبل أن يسجل هذا كله في الكتب ويصبح من علوم الاسلام .

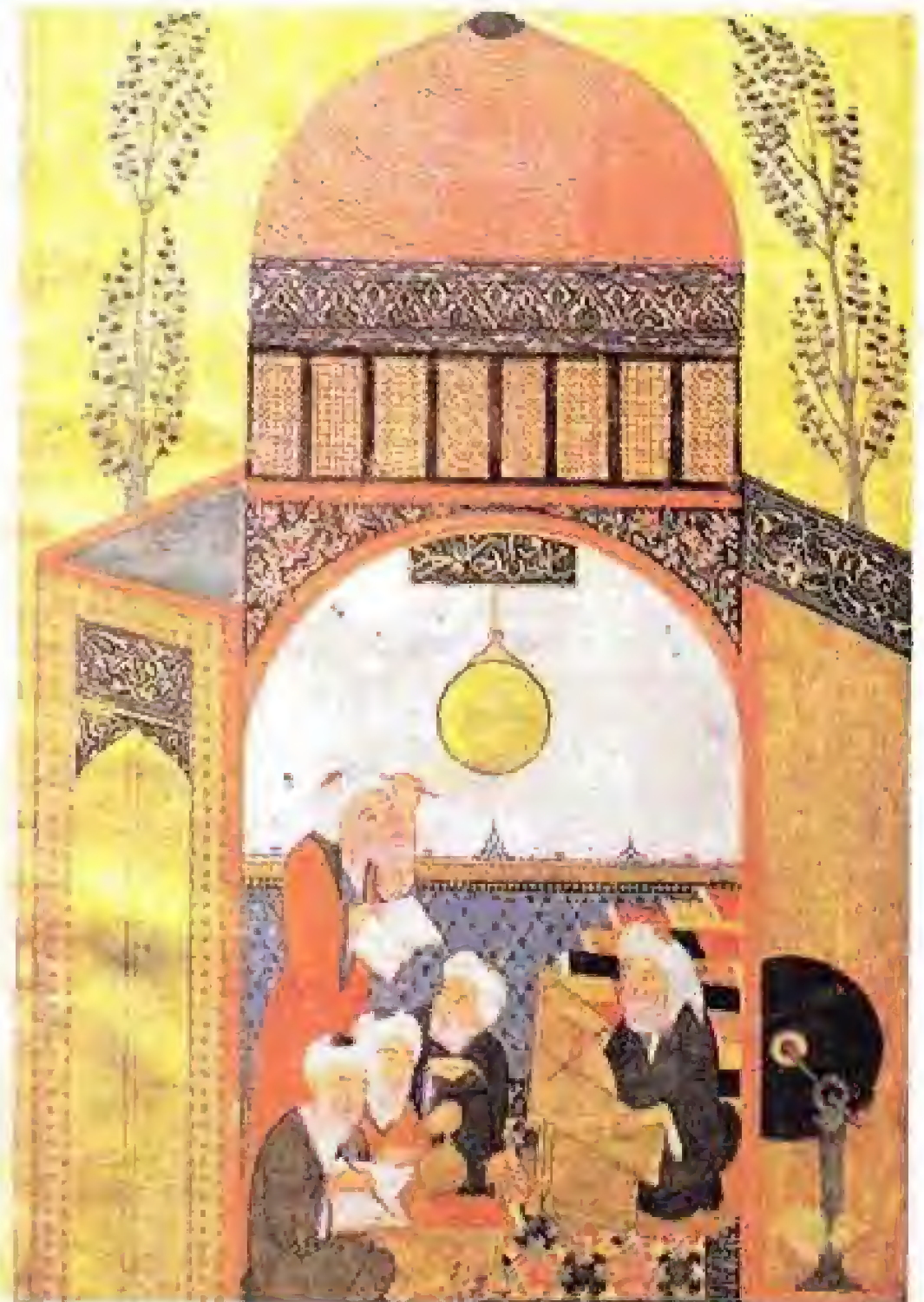
ظهور المدارس

ظلت المساجد مراكز العلم حتى القرن الرابع . حين عم الاسلام شعوب الدولة وغصت المساجد ، ولاسيما في خراسان ، بالمصلين والدارسين ، وصعبت الضوضاء على الطرفين

مؤدبون يختارون اختيارا من ذوي العلم والخلق القويم . كان للناس في المساجد والاسواق حلقات للدراسة والجدل وانشاد الشعر . لم تتطور لتصبح مثل المربد في البصرة ، وهو الصورة الاسلامية لعكاظ الجاهلية . لكن هذه الحلقات أفادت في تطوير الفهم للاسلام والتعمق به . فيها نشأ علم الكلام ، والاعتزال ، ونشأ النحو والمنافسة في معرفة اللغة ، والتفسير ، ومبادئ الفقه



ب



١٢

لذلك كان الطب يدرس نظريا أحيانا . أما الفلك فكان بناء المراصد يتبع رغبة بعض الحكام ، لذلك كانت دراسته في الغالب خاصة وفي بيوت العلماء وبالألات الفلكية البسيطة . في (أ) رسم بعض العلماء يدرسون الفلك من مخطوط يرجع للقرن ١٥ .

في القرن ١٤ . كانت هذه المدارس تقابل الجامعات اليوم . ولما كان الاهتمام منصبا على التكوين التربوي الديني وتهئية الموظفين . كان معظمها لعلوم الدين واللغة . البيمارستانات التي كان يدرس فيها الطب كانت أقل عددا ، لأنها كانت باهظة النفقة .

لسكنى الطلاب والشيخ ، وباحات واسعة . أما في الزينة فكانت تتراوح بين البناء العاري الحجري ، كما في كثير من مدارس الشام ، أو الزخرفة المحدودة ، كما في مصر ، أو أغنى التزيين كما في مدارس العطارين (ب) وبوعنانية والصهرنج التي بنيت في فاس

(٢) - من الصعب احصاء عدد المدارس الاسلامية . كانت تبلغ حتى أواخر القرن الخامس عشر عدة آلاف . ومن الصعب رسم مخطط عام لأبنيتها لأنها لم تتبع كالمسجد نظاما خاصا محددا للبناء . فلكل اقليم وكل عصر نمطه العمراني ، ولكنها عامة كانت تحوي قاعات

ظهرت ، في نيسابور وغيرها . ظاهرة انفصال حلقة الدراسة عن المسجد . انعزلت في مكان بجواره . وهكذا ظهرت المدرسة (١) .

أراد نظام الملك (ت سنة ٤٨٥) وزير السلاجقة في القرن الخامس أن يقاوم الدعاية المنظمة التي كان الفاطميون يبثون بها مذهبهم الشيعي السبعي . والمدارس التي أقامها البويهيون للمذهب الشيعي . فالتقط فكرة

المدرسة وطورها ليجعل منها ما يشبه الكلية الجامعية . انشأ في بغداد ، ثم في عدد من مدن إيران والعراق سلسلة من المدارس سميت بالنظامية . بنى لها الابنية الضخمة ، وأوقف عليها الاوقاف ، وعين لها المدرسين ، وخصص للطلاب فيها الجراية المعينة . سرعان ما انتشرت الفكرة في المشرق السني كله . لم يمض قرن حتى كانت المدارس بالعشرات تنشأ في دمشق والموصل وحلب والقدس ومرو



٣



٤

(٣) - نظام « الحلقة » في الدراسة كان نظام الدراسة طول العهد الاسلامي وفي مختلف الاقاليم . والحلقة كانت حرة الحدود مفتوحة لمن شاء . لأن النظام التعليمي كله حر . لم يكن ثمة شرط أو قيد يمنع أي راغب في العلم من الجلوس الى أي حلقة يشاء . وصاحب الحلقة . يحدد مكان

جلوسه للتدريس وموعده والكتاب الذي يدرسه . وقد يتلو من حفظه أو من كتاب أمامه (من تأليفه أو له حق روايته) . قد تضم الحلقة بعض النساء . وقد تصغر حتى لا تضم أكثر من بضعة نفر . أو تتسع الى عدة مئات فيتولى (المعيد) تكرار كلام الشيخ . ما يزال نظام الحلقة في الأزهر اليوم .

(٤) - المكتبات الضخمة في الاسلام كثيرة . ذكروا ان مكتبة الواقي كانت ١٢٠ حملاً . ومكتبة صاحب بن عباد ٢٠٦ آلاف مجلد وقفها حين توفي (سنة ٩٥٥) على مدينة الري . كان فهرسها عشر مجلدات . مكتبة القصر الفاطمي كانت تحوي حوالي مليون و ٦٠٠ ألف . منظمة الغرف ومكتبة آل عمار

في طرابلس التي أحرقها الصليبيون كان فيها مثل ذلك . في الأندلس والمغرب اشتهرت مكتبات قرطبة . وفاس . وبخاصة مكتبة القرويين . التي نرى في الصورة فناءها وهي أقدم جامعة في شمالي أفريقيا شيدت ملاصقة للجامع منذ أحد عشر قرناً .

وبلخ . حين الغى صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية تحول الأزهر (٣) وهو « جامعة الفاطميين الكبرى » الى مدرسة سنية . ثم بنيت معه عشرات المدارس . في العهد المملوكي . كان في دمشق وحدها ١٣٠ مدرسة . وفي القدس ٦٠ . وفي القاهرة أكثر من مائة . من أشهر مدارس بغداد كانت المستنصرية . وهي أشبه بالجامعة . بناها المستنصر سنة ١٢٣٤ وفيها الحمامات والمطابخ وتوزيع الطعام والشمع والصابون وأدوات الكتابة على الشيوخ والطلاب .

طرق التعليم ومواده

طريقة التعليم كانت في حلقات لها أوقات محددة وشيوخ معينون ومادة علمية معروفة . وتجري عليها أوقافها المرصودة لها . ويكتب الشيخ للتلميذ شهادته في ختام نسخته . بالسماع والاجازة بالرواية مع التفصيل الواضح . لذلك صار للحلقات مع الأيام رسومها واصولها . وكتبت المؤلفات في آداب العالم والمتعلم . كما أثار تباين الاوقاف بين مادة وأخرى تحاسد الشيوخ أحيانا وتنافسهم . المدارس المذكورة . كانت جميعا للعلوم الدينية . وقد تدرس فيها العلوم المساعدة كالمنطق وعلم الكلام ، أو العملية كالحساب . وظهرت كذلك مدارس خاصة للقرآن أو للحديث أو لبعض المذاهب أو بعض العلوم المعينة أو الكتب . أما الطب فكان يدرس في بيوت الاطباء . أو في البيمارستانات . وبعض الأطباء كالدخوار دمشقي حول بيته كلية طب ودرّس بها ووقف عليها كتبه وأمواله . في الربط والزوايا كان يجري تلقين الطرق الصوفية أيام المماليك والعصور المتأخرة (٢) .

الوراقة والمكتبات

كان في المساجد دوما ركن للكتب لخدمة الناس أهم ما فيه المصاحف . أما الأفراد . فينسخون لأنفسهم أو يستأجرون من ينسخ . ظهرت حوانيت الوراقين منذ كثر الورق في الاقاليم الاسلامية . أي منذ أواخر القرن الثاني للهجرة . وهي دور بيع الكتب . كان الجاحظ يكتريها في الليل ليقرأ . وفي عهد اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٩١ م) كان في بغداد أكثر من مائة وراق في سوق واحدة . الوراقة تشمل نسخ الكتب وتجليدها وبيعها وبيع الورق وأدوات الكتابة . كما كان بعض الوراقين بدورهم علماء وأدباء يرتزقون بهذه المهنة (مثل ابن النديم وياقوت الحموي) وكانت دكاكينهم مجمع الأدباء والشعراء والعلماء . ازدهرت الوراقة بسبب رغبة الناس في الكتب . والمغالاة أحيانا في جمعها واقتناء المكتبات الخاصة . فاذا تركنا المكتبات العامة الموقوفة خاصة في المساجد والمدارس لأهل العلم وجدنا الخلفاء والكبراء وذوي اليسار يتبارون في انشاء المكتبات العامة والخاصة . من أشهر هذه المكتبات . دار الحكمة . التي وجدت نواتها منذ عصر المنصور . ولكنها نمت زمن الرشيد واشتهرت باسم المأمون لأنه عززها بالكثير من ترجمات الفلسفة والعلوم . يقابلها لدى الفاطميين مكتبة القصر الفاطمي . ومن مكتبات الكبراء مكتبة صاحب بن عباد . وقد عرفت قرطبة بحب الكتب . كما اشتهرت نيسابور (٤) . هذه المكتبات لم تكن للدراسة فقط . وكان في معظمها فريق من النساخين . هم أشبه بالمطابع اليوم . كما كان بعضها مراكز دعوة دينية .

القرآن والحديث والفقه

وعلى المدنية الطول وأغلبها في التشريع .
عدد سوره ١١٤ سورة . نقل متواترا كتابة (٣)
وحفظا وترتيلا منذ عهد الرسول بدقة شديدة
لم يعرفها أي كتاب .

جرى جمع نصوصه كاملة زمن أبي
بكر . ونظمت آياته وسوره في مصحف
موحد الترتيب (١) زمن عثمان بن عفان .
يحتوي أوامر الله ونواهييه فهو المصدر الأول
والاساسي للتشريع في الاسلام (٤) .

القرآن كتاب الله المحكم أوحى به الى
الرسول (ص) منجما على مدى ثلاثة
وعشرين عاما هي « عصر الوحي » . نزل
بعضه في مكة وبعض في المدينة . يغلب
على آياته المكية القصر وهي في الدعوة لله

كبار العلماء المؤلفين في علم الدين : الفقه ، التفسير ، الحديث ، الكلام ، التصوف

عبد الله بن إمام	الفقه الإباضي	ت ٧٠٥
الحسن البصري :	تأثيرية الصوفيون	٦٤٢ - ٧٢٨
واصل بن عطاء :	رأس متكلمي المعتزلة	ت ٧٤٨
جعفر الصادق :	الفقه الجعفري	ت ٧٦٦
الأوزاعي :	الفقه الأوزاعي	ت ٧٤٤
أبو حنيفة :	المذهب الحنفي	٦٩٩ - ٧٦٧
مالك بن أنس :	الموطأ	ت ٧٩٥
الشافعي :	كتاب الأم	٧٦٧ - ٨٢٠
النظام :	(اعتزال)	ت ٨٤٥
أبو الهذيل العلاف :	(اعتزال)	ت ٨٥٠
ابن حنبل :	المسند	ت ٨٥٥
الجاحظ :	(اعتزال)	ت ٨٦٨
البخاري :	الجامع الصحيح	ت ٨٧٠
مسلم بن الحجاج :	الصحيح	ت ٨٧٤
داود الظاهري :	الفقه الظاهري	ت ٨٨٣
ابن ماجه :	السنن	ت ٨٨٧
ابو داود :	السنن	ت ٨٨٩
الترمذي :	الجامع الصحيح	ت ٨٩٢
النسائي :	السنن	ت ٩١٥
الجبالي :	(اعتزال)	ت ٩١٥
الحلاج :	(تصوف) كتاب الطواصين	ت ٩٢٢
الطبري (ابن جرير) :	جامع البيان في تفسير القرآن	ت ٩٢٣
الاشعري :	(الكلام) الابانة عن الديانة	٨٧٤ - ٩٢٦
الثعلبي :	الكشف والبيان عن تفسير القرآن	ت ١٠٣٥
الماوردي :	الأحكام السلطانية	ت ١٠٨٥

علوم القرآن

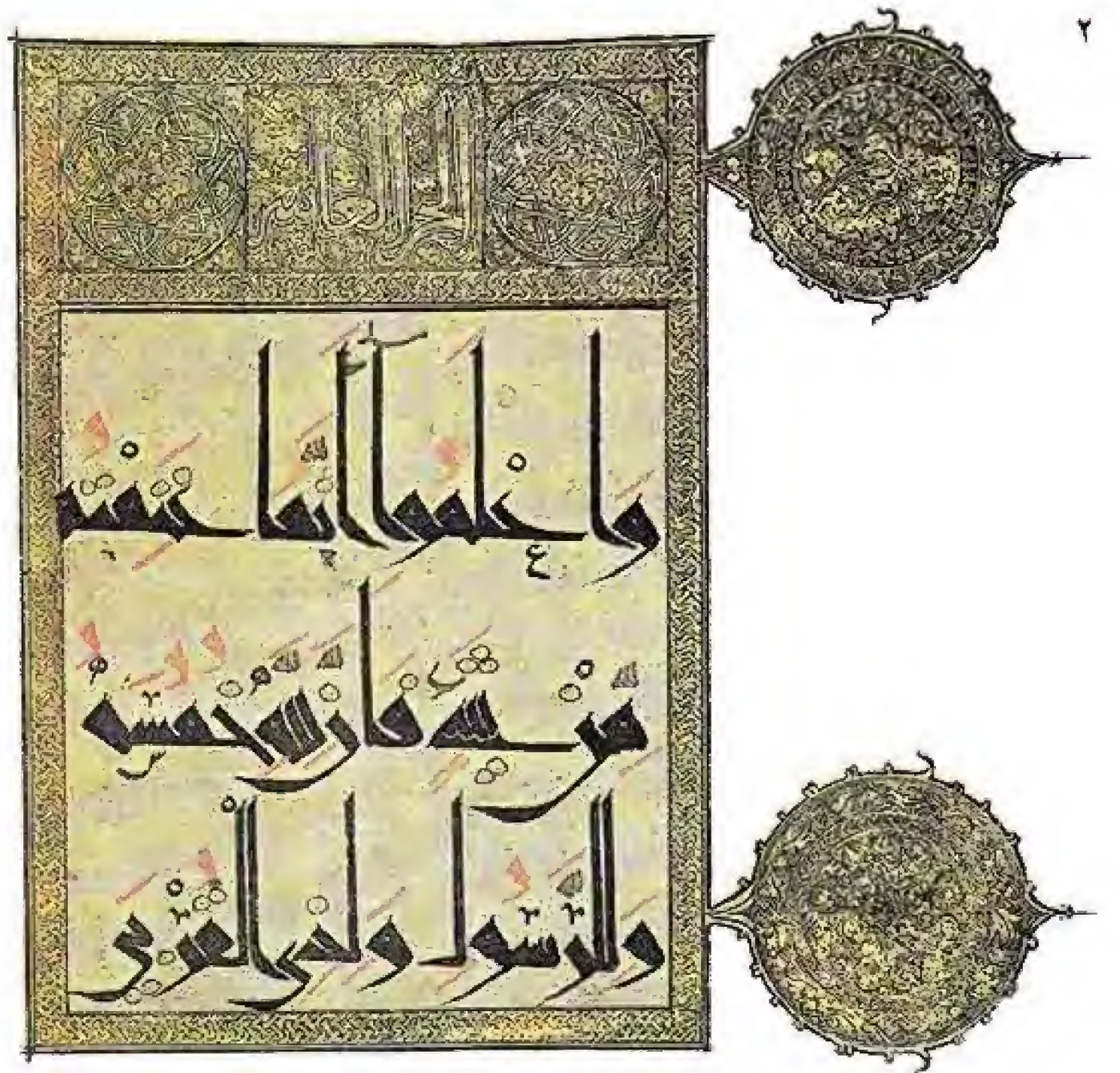
ما من كتاب كان موضوع دراسة في الاسلام ، وتفقه وتدبر وتأليف لدى المسلمين ، كما كان القرآن . ظهرت من حوله مجموعة من العلوم تسمى « علوم القرآن » ، يتناول كل منها ناحية من نواحيه منها : علم اسباب النزول أو علم القراءات وعلم اعجاز القرآن . على أن أهمها هو علم التفسير ، ويقصد الى بيان معاني الآيات وتوضيحها وكشف المراد

الدقيق منها . ازدادت الحاجة اليه بعد الفتوح ودخول غير العرب في الاسلام وتعدد الحياة والمشاكل .

ظهر في التفسير طريقتان :
التفسير بالمأثور : (أو المنقول أو الرواية) وهو تفسير الآيات بما اثر عن الرسول وأصحابه ، أو سمع عنه أو عنهم . من اشر هذه التفاسير كتاب جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري سنة

١٠٦٦ ت	النسب	البهقي :
١١١١	احياء علوم الدين	الغزالي :
١٤٤ ت	الكشاف عن حقائق التنزيل	الزمخشري :
١١٩٧ ت	بداية المبتدى	المرغنياني :
١٢١٠ ت	التفسير الكبير	الرازي :
١٢٢٧ ت	نصوص الحكم ، الفتوحات الحكيمة	ابن عربي :
١٢٢٨ ت	جند المذهب الحنفي	ابن قيمية :
١٢٥٠ ت	اجتهادات في المذهب الحنبلي	ابن قيم الجوزية :

(٢) - كان من البديهي أن يعنى المسلمون أشد العناية بالمصحف كتابة وتزيينا . كانت كتابته الأولى بالكوفية ولذلك ظلت المصاحف تكتب بها عدة قرون . لاسيما وأن شكلها العام تزييني أنيق . لكن تطور الكتابة العربية ما لبث أن ظهر في نسخ المصاحف بأنواع الخطوط الأخرى الأكثر سرعة والأوسع تداولاً . وهكذا وجدت مصاحف كتبت بالقلم الفارسي وبخط الثلث وبالخط المغربي . الى أن شاع في المشرق العربي عامة اعتباراً من العصر المملوكي . وبخاصة في العهد العثماني ، كتابته بقلم النسخ وهو القلم الذي تطبع به الآن المصاحف .



(٩٢٢ / ٣١٠) يقع في ثلاثين جزءا . سار على نهجه الكثيرون .

التفسير بالرأي : ظهر نتيجة تطور الحياة العامة وزيادة التدبر للآيات بالفلسفة . منه كتاب مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي سنة (٦٠٦ / ١٢١٠) ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي سنة (٦٨٥ / ١٢٨٦) ، والكشاف للزمخشري سنة (٨٣٥ / ١١٤٣) .

هناك تفاسير جمعت المأثور والرأي

كتفسير الطبري المتوفى سنة (٥٤٨ / ١١٥٣) أو فسرت القرآن على مذاهب معينة من الاعتزال أو الباطنية أو التصوف .

الحديث (أو السنة) :

وهو ما اثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير ، يفسر كتاب الله او يوضح ما لم يرد فيه . الحديث هو المصدر الاساسي الثاني للتشريع الاسلامي .



مذاهب سنية أخرى كمذاهب الأوزاعي والليث والثوري والطبري ومذاهب شيعية وخارجية ، جميعها تعتمد القرآن والسنة لاستنباط الأحكام . بذل الفقهاء خير الجهد الفكري في ذلك ، لكن آراءهم اختلفت في الطرائق والنتائج . بعضهم قبل الرأي والقياس والاجماع ، وبعض رفضها وتشدد في الاعتماد على الحديث ، وبعض رفض القياس وفتح باب الاجتهاد .

(٤) - القضاء الشرعي جزء اساسي من النظام الاسلامي . كان مجلس القاضي غالبا في الجامع . وخاصة في العصور الأولى . يساعد القاضي الشهود وهم يهتدون له الدعاوى . تنوع المشاكل الحياتية أدى الى ضرورة التعمق في الفقه والاجتهاد في الأحكام . ظهر نتيجة لذلك عدد من المذاهب الاسلامية منها المذاهب السنية الأربعة الباقية . وقد كان معها في القرون الأولى للإسلام

(٣) - مع تقدس القرآن تحول ما يتصل به فكريا الى علم ، وما يتصل به مادة الى فن . بجانب الكتابة والتأليف والتجديد ، صار الحامل عملا قنيا . منه النموذجان : (أ) كرسي (ب) منضدة .



لم يدون تدويننا شاملا منظما كالقرآن . ولكنه روي عن الصحابة الذين سمعوا الرسول أو شهدوا أعماله . نشأ عن ذلك دخول الوضع أحيانا على الحديث . نتيجة الخلاف السياسي أو الفقهي أو العنصري وصعوبة حصره وتحديد الصحيح منه .

علماء الحديث تصدوا بجدارة كبيرة للمهمة الضخمة التي اقتضاها نقده . وانشأوا مصطلح الحديث أو « علوم الحديث » وهي مجموعة العلوم التي تستهدف في النهاية بيان الصحيح منه . والتفقه فيه ليكون اساس التشريع مع محاولة التعليل والتأويل . ومنها علم الجرح والتعديل لنقد الرواة وسند الأحاديث .

بدأ تدوين الحديث بشكل منظم منذ مطلع القرن الثاني للهجرة . من اوائل كتبه الموطأ للإمام مالك بن انس سنة (٩٥ - ١٧٩ / ٧١٤ - ٧٩٥) ثم ظهرت في القرن الثالث مؤلفات عرفت لدى أهل السنة بالكتب الستة لشهرتها وتوثيقها وهي : صحيح البخاري (ت سنة ٢٥٦ / ٨٧٠) وصحيح مسلم (ت سنة ٢٦١ / ٨٧٥) وكتب السنن لابن ماجة سنة (٢٧٣) وابي داود السجستاني سنة (٢٧٣ / ٨٨٦) وجامع الترمذي (ت سنة ٢٧٩ / ٨٩٢) وسنن النسائي (ت سنة ٣٠٣ / ٩١٥) . في العصر نفسه ظهر من كتب الحديث المعتمدة المسند للإمام أحمد بن حنبل سنة (٢٤١ / ٨٥٥) .

أما الشيعة فلا يقبلون من الحديث الا ما صدر عن الرسول أو روي عن الائمة المعصومين . اشهر كتب الحديث لديهم هو (الكافي) للكليني (المتوفى سنة ٣٢٩ / ٩٤١) و (فقيه من لا يحضره الفقيه) لابن

بابويه القمي الصدوق (٣٨١ / ٩٩١) والاستبصار للشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧ . اهتم الشيعة كثيرا بعلم الرجال . ألفوا في ذلك الكثير من الكتب .

الفقه :

هو علم استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والسنة . أضيف اليهما لدى جمهور المسلمين الاجماع والقياس . وتردد أهل الحديث في قبول الرأي والاجتهاد الذي رضي به فقهاء الأمصار ذات الحياة المعقدة القديمة . بلغ الفقه مستوى عاليا جدا من التطور ما بين اوائل القرن الثاني الهجري الى أواسط القرن الرابع (٨ - ١٠ م) وفي أوائل هذه الفترة ظهرت مذاهب الفقه السني الأربعة :

- الحنفي . وينسب الى أبي حنيفة النعمان (المتوفى ببغداد سنة ٧٦٨) .

- المالكي . ويرجع الى مالك بن انس (ت بالمدينة سنة ٧٩٥) والى كتابه الموطأ .

- الشافعي . واضعه هو محمد بن ادريس الشافعي (ت بمصر سنة ٨١٩) في كتابه الأم .

- الحنبلي . وصاحبه أحمد بن حنبل وضع أصوله في كتاب المسند .

في الفترة نفسها ظهرت أيضا المذاهب المعروفة في الفقه الشيعي :

- الزيدي . نسبة الى زيد بن علي زين العابدين (قتل سنة ٧٤٠ م) . وينتشر في اليمن .

- الجعفري . نسبة للإمام جعفر الصادق (ت سنة ٧٦٦) . وهو المذهب في ايران .

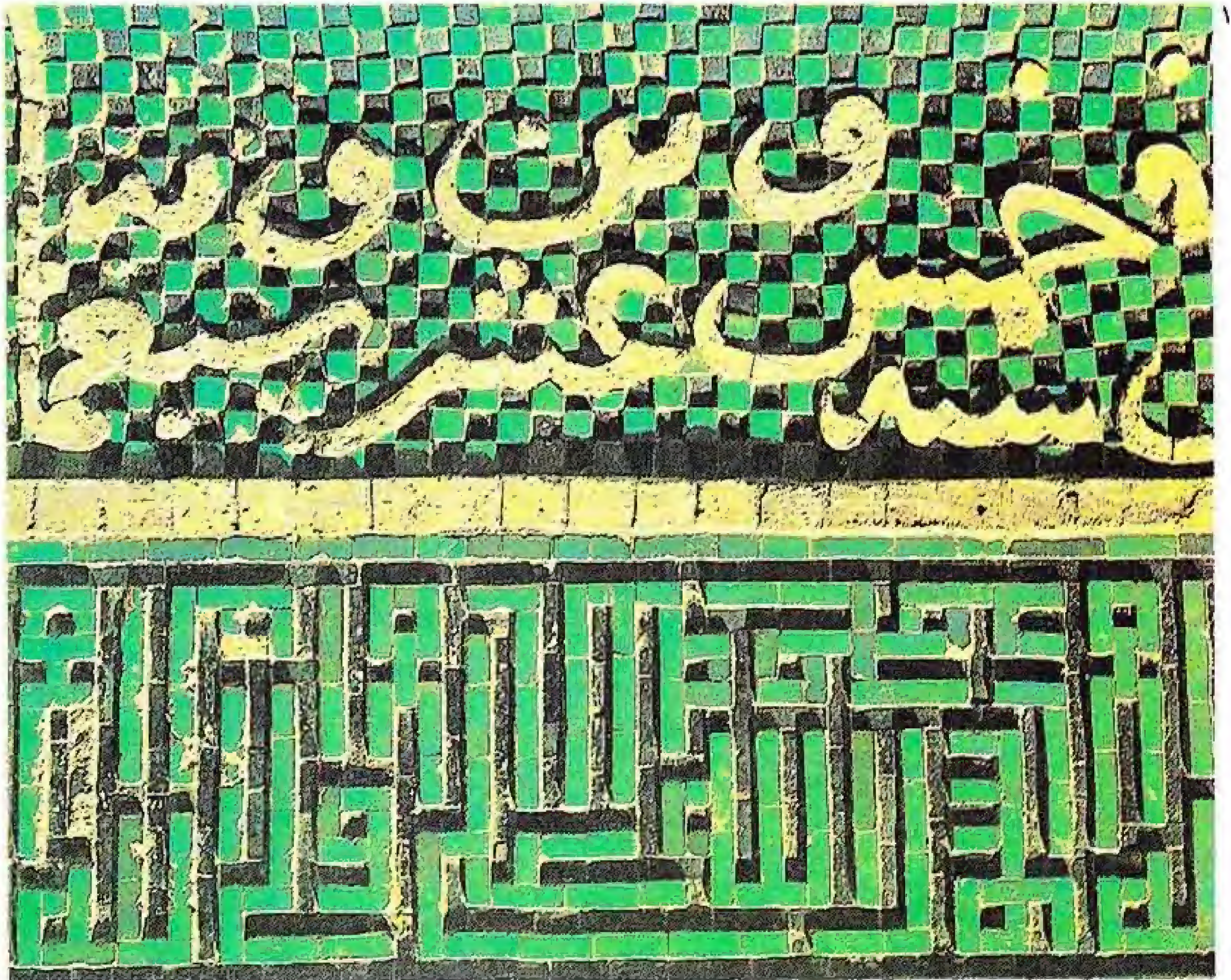
- الاسماعيلي . ويأخذ اسمه من اسماعيل ابن الصادق ، وتتفرع منه مذاهب عديدة .

أما الفقه الخارجي فبقي منه مذهب الا باضية وينسب الى عبدالله بن اباض (ت ٧٠٥) .

أعلوم اللسانية والكتابة العربية

اللساني الدقيق ، وغناها في المفردات والاشتقاق ، على أن تصبح بسرعة اللغة الأولى للمعرفة والثقافة والتجارة والسياسة في العالم خلال ثمانية قرون على الأقل . على هامشها عاشت الفارسية والتركية والبربرية خلال ذلك ، على أن معرفة العربية لم تكن بالأمر السهل بالنسبة لغير العرب ، فانها لم تكن مكتوبة ولا مجموعة الألفاظ ولا منظمة القواعد أيام الفتوح . وإذا كان من السهل

أصبحت اللغة العربية ، بعد ظهور الاسلام لغة الدين والفكر على امتداد الدولة . ساعد الاسلام على انتشارها لأنها لغة القرآن والحديث ، كما ساعد الحكم السياسي بوصفها لغة الحاكمين . ثم أعانتها خصائصها ونظامها



(١) - تظل نماذج التطور في الخطين الكوفي والنسخي . أكثر النماذج توفراً لأنهما أقدم الأقسام من جهة ، ولأنهما استخدمتا بكثرة لتزيين الأبنية سواء بالآيات القرآنية أو تسجيل أصحاب البناء وتاريخه . الكتابتان اللتان تظهران على واجهة خاتقاه ناتز في إيران تقدمان نموذجين من الخط النسخي والكوفي معا . مع تاريخهما سنة ٧٢٥ المعادل ١٣٢٤ م . استعمال الأجر في البناء هو الذي أوصل الخط الكوفي الهندي الظاهر في الأسفل بشكل كتابة من الأجر المغشى بطبقة من الخزف الأخضر . أما الكتابة النسخية في الأعلى فكانت أكثر صعوبة لاستدارة خطوطها .

تبني كتابة محددة لها ، اشتقت من النبطية فقد كان من الضروري بذل الجهود الكبيرة لجمع مفرداتها وترتيبها من جهة ، وتنظيم قواعدها من جهة أخرى . بدأ جمع وتدوين اللغة والمعاجم في القرن الثاني الهجري (٨ م) مع الأصمعي (٨٢٨ م) وأبي عبيدة وغيرهما . دونوها أولا في رسائل حول مواضيع معينة (الخيل ، الابل ، النخيل ، خلق الانسان) وكان أول من رتب الفاظ اللغة على حروف

الهاء هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ) واضع علم العروض أيضا ، وبدأ بحرف العين فسمى معجمه كتاب العين . ثم توالى وضع المعاجم في القرن الرابع خاصة .

النحو

ما كان للغة العربية ان تحافظ على سلامتها ، بعد توطن العرب في المنازل المفتوحة ، وكلام غير العرب بها . حين شاع



بالظالمين لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ... (الآية ٤٧ وما بعدها من التوبة) . وأما كتابة الصحن الخزفي (ت) المصنوع في العراق (القرن ١٠ - ١١) فهي تطور آخر باتجاه الكوفي الهندسي . الخط العربي علم واسع . الفلقشندي (١٣٥٥ - ١٤١٨) من كبار كتاب العصر المملوكي . كتب في موسوعته الضخمة (صبح الأعشى في صناعة الانشاء) ما يزيد على ٣٠٠ صفحة حول فن الخط وتاريخ الخط وتحسينه وهندسة الحروف وأنواع الأقلام .

(٢) - الكتابة الكوفية في القرن التاسع ، ومنها النص القرآني (أ) « فاتقوا الله واطيعون ... الآية » كانت مرحلة متطورة عن كتابة القرنين السابع والثامن . ومع ذلك عرفت الكوفية تطورا خاصا تزيينا في ايران لم يؤثر كثيرا في تطور الخط العربي وان كتبت فيه أعداد من المصاحف . نرى نموذجا من هذا التطور في صفحة من القرآن (ب) كتبت في فارس في القرن العاشر وفيها الآية الكريمة : والله / عليم

اللحن في قراءة آيات القرآن ارتاع الناس .
يقولون ان أبا الأسود الدؤلي وضع بأمر من
الامام علي بعض الارشادات النحوية . يبدو
انه تأثر فيها بالنحو السرياني والهندي . في
البصرة كان ذلك ، ثم تبعته الكوفة . وفي
المصريين بذل العلماء - وكثير منهم من غير
العرب - جهودا كبيرة لوضع القواعد التي تعلم
الناس صحة الكلام .

نشأت مدرستا البصرة والكوفة من هذه

الجهود . الفرق بينهما اعتماد البصرة على
القياس والكوفة على الرواية والسماع . حين
ظهرت بغداد ، انتقل نشاط البلدين اليها .
من أشهر علماء البصرة ، سيبويه (١٧١ - ٧٨٧)
صاحب (الكتاب) في النحو .

الكتابة العربية

ظل عرب الجنوب يكتبون حوالى خمسة
عشر قرنا قبل الاسلام بخطهم المشتق من

(٣) - هذه الصفحة من القرآن
الكريم كتبت بالخط الكوفي
الشائع في كتابة المصاحف في
القرن التاسع ، ولكن بالذهب
على رق أزرق . ينسب ظهور
هذا النوع من الخط الى
القيروان . كانت الكتابة
بالذهب على الرق والورق
الشمين في القرن العاشر في
الأندلس مقصورة على كتب
البلاط . يكتبها كتاب الدولة
المختصون بذلك الخط . ولعل
هذا المصحف من أعمالهم . ونقرأ
في الصفحة : واذكروه كما
هداكم ... (سورة البقرة ، الآيات
١٩٧ - ٢٠٣) .



(٤) - كانت الكتابة تجري
بقلم خاص من القصب (القلم
الغزار) يبرى ليكتب به لدى
الخطاط . عشرات من هذه
الأقلام مختلفة الثخن حسب
عرض الخط المطلوب . توضع
الأقلام في وعاء قد يتصل
بالدواة . الطبقة الارستقراطية
من الكتاب كانت لهم محابره
الارستقراطية تنقش وتكف
بالذهب والفضة . منها هذه
الدواة - المقلمة البرونزية
(صنع الموصل - القرن ١٣) .



الفينيقية والذي يدعونه المسند (= الخط) .
أما في الشمال . فكتب العرب في الفترة
نفسها بالخط الشمودي . قبيل الاسلام تسرب
الى شمال الجزيرة حتى مكة الخط النبطي
وتطور فيه رسم بعض الحروف . جرى هذا
الانتقال عن طريق جنوب سوريا . كما جرى
عن طريق الحيرة . التي كانت تكتب بالخط
نفسه قبل عدة قرون وعلاقتها مع مكة قوية
عبر دومة الجندل .

كانت حاجة تجار مكة الى الكتابة
كبيرة . لكن حاجة عصر الرسول والراشدين
اليها كانت أكبر . شجع الرسول على تعلم
الكتابة . وكان من حوله عدد من الكتاب
كتبوا بالاحرف النبطية . حسب ما تطورت
اشكالها لديهم . هذا التطور لم يكن موحدًا
ولذلك كان فيه ما سماه العرب بالخط
الانباري والخط الحيري قبل الاسلام . وما
سموه بالخط المدني والمكي والبصري
والكوفي بعده . وعرفت كلها بالخط
الحجازي في العراق . ولانت بسرعة اشكال
حروفه بسبب الحاجة الى المرونة والسرعة .
فاستخدم في الأغراض اليومية وفي
حركة التدوين والرسائل لدى الخاصة .
لكن الكوفة تميزت بالحفاظ على شكل
الحروف وتحديد كتابتها بشكل يابس
مائل الى الترييع . ما لبث هذا الخط
ان انتشر . عن طريق كتابة المصاحف
به (٢) . وعرف باسم الخط الكوفي .
مع ان الكوفة كانت تكتب أيضا
بالخطوط اللينة . ولعل « الكوفي » هو
نفسه الذي كان يسمى البسط
مقابل الكتابة اللينة التي عرفت
بالتقوير .

أقلام الخط العربي

مشى الخط العربي في التطور بعد
ذلك . خرج من الخط اللين السريع الخط
الذي سوف يعرف بالنسخ . بينما ظل
« الكوفي » بسبب ارتباطه الجمالي بكتابة
المصاحف يتطور بشكل زخرفي فقط (٣) .
لم تكن الكتابة العربية معجمة يومذاك
وخاف الحجاج الثقفي تصحيف القرآن . فأمر
بالاعجام أي بتنقيط الأحرف . ووضع الشكل
وابتكرت علاماته . في العصر العباسي
تعددت من القلم اللين النسخي الأقلام
بالتدرج . ظهرت خطوط سميت بمقادير
عرض الاقلام التي تكتب بها كالثلث والنصف
والثلثين . كما نسبت الى الأغراض التي
كانت تؤديها كالتوقيع والطومار والجليل . أو
اضيفت الى مبتكرها كالرياسي أو عرفت
بهيئتها كالمسلسل الذي ليس في حروفه
حرف ينفصل عن غيره . أو سميت احيانا
باسماء المدن والاقطار التي تكتبها
كالبغدادي . والمصري والفارسي والمغربي
الاندلسي بسبب ما اكتسب الخط في كل
قطر من خصائص محلية . صار في خط كل
قطر انواع وطرائق . فمنها الديواني
والريحاني والفارسي والرقعي (٤) . وانتهت
جودة الخط في مطلع القرن الرابع الى
الوزير ابي علي محمد ابن مقله
(توفي سنة ٣٢٨ / ٩٤٠) الذي بلغ بخط
الثلث والنسخ مبلغ الكمال . جاء من
بعده في الشهرة ابن البواب علي بن
هلال (ت ٤١٣ / ١٠٢٢) فصارت طريقته
في الخط مدرسة للخطاطين من
بعده . ومن أشهرهم ياقوت المستعصي
(توفي سنة ٨٦٩ / ١٢٩٩) .

الأدب العربي

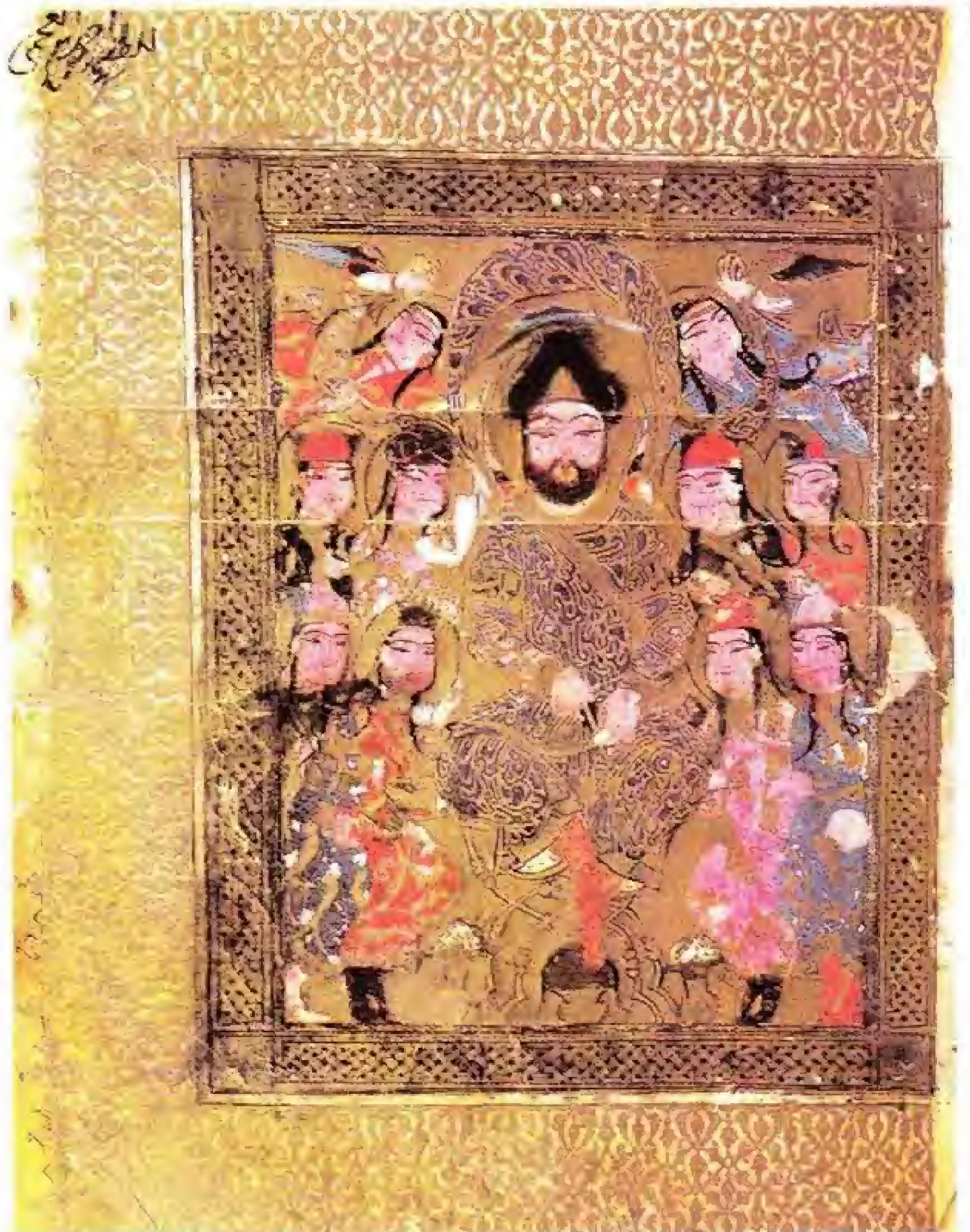
ظلت تروى شفاهها ، حوالى قرن وبعض القرن
في الاسلام، قبل ان تسجل وتدون . لهذا تشكك
الباحثون في نسبتها وظنوا فيها الوضع . لكن
كثرة عدد الشعراء (أكثر من ١٥٠) ، وتنوع
الأساليب تنفي الكثير من الشك .

المحاولات الاولى للشعر الجاهلي مجهولة
ضائعة . ما وصلنا هو شعر القرن السادس
الميلادي بعد ان بلغ الغاية في الاحكام لغة
واوزانا وقافية وموسيقى ونظام قصيدة . وقد

الأدب . (والشعر بخاصة) . كان من
الاهتمامات الأولى للفكر العربي . البيان له
عند العرب فعل السحر . حين الفتح كان
العنصر الثاني من ثقافتهم بعد القرآن والاسلام ،
هو الشعر الجاهلي ، « ديوان العرب » . روائعه

(١) - كتاب الأغاني واحد من
كتب الأدب العربي الكبرى ،
مجلداته التي تبلغ واحدا
وعشرين مجلدا حوت أخبار
الأدب ، ومن خلال ذلك الحياة
الاجتماعية والسياسية
والأدبية ، خلال القرون الأربعة
الأولى للإسلام . مؤلفه أبو
الفرج الأصبهاني (٨٩٧ - ٩٦٧)
هو حفيد آخر خلفاء بني أمية .
خزائن الكتب في المشرق
والمغرب غنيت بهذا الكتاب
الضخم وبعضها زينه بالرسوم
ونجد في الصورة غلاف هذا
الكتاب وقد رسم حوالى سنة
١٢٢٠ في الموصل (من مكتبة
فيض الله بأسطنبول) .

(٢) - قصة (مجنون ليلى)
قصة عربية مشهورة وكما نفذت
القصص الأجنبية الى العربية .
نفذت قصة المجنون الى
الفارسية ، ترجمت وكتبت نثرا
وشعرا وصورت بعض نسخها
كما نرى في الصورة التي تصور
زيارة المجنون للكعبة ودعائه
عندها لعل الله يشفيه من
حبها . (وهي من مخطوط
كتب ورسم في القرن الرابع
عشر) .



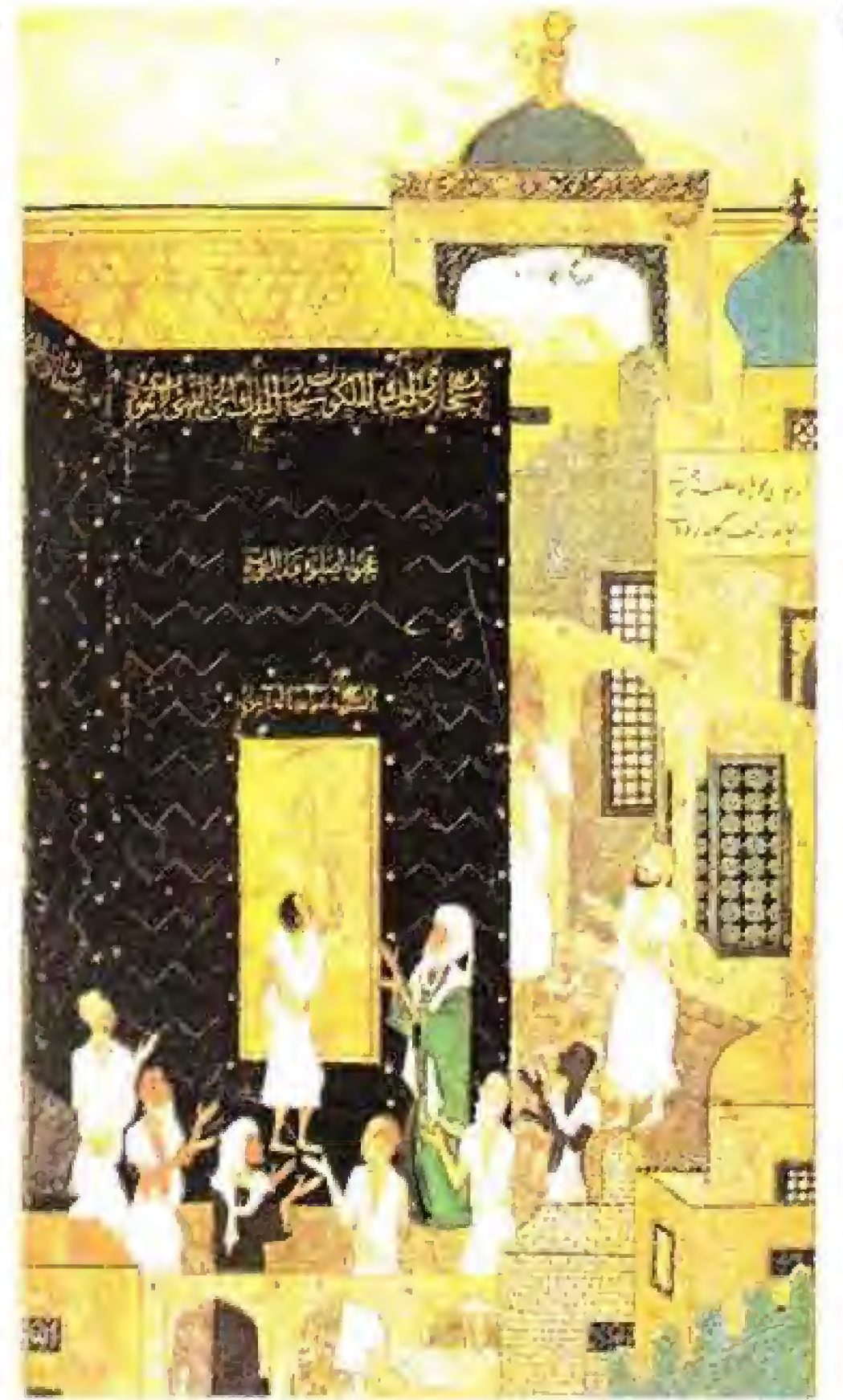
ضاع شعر اللهجات العربية المختلفة ، وشعر اليمن والجنوب ، وبقي شعر الجزء الشمالي من الجزيرة واللهجة القرشية . أشهر ما بقي هو المعلقات السبع أو العشر . وقد سميت بالمعلقات لجودتها . أول اصحابها واقدمهم هو امرؤ القيس وريث عرش كندة (المتوفى حوالي سنة ٥٥٠) .

كان الشعر الجاهلي يشارك في اسواق العرب بوصفه بضاعة الفكر . كما كان من

الاثر بحيث يرفع ويضع وينشر المآثر او المخازي . لسهولة حفظ الموزون من الكلام وللرغبة في روايته . تميز شعر الجاهلية بمتانته اللغوية وصوره الحسية والصحراوية .

الأدب في صدر الاسلام

الشعراء المخضرمون الاوائل امثال حسان بن ثابت شاعر الرسول (توفي حوالي سنة ٦٧٠) وكعب بن زهير (حوالي سنة ٦٦٢)



(٢) - ترجم ابن المقفع (ت سنة ٧٦٠) كليله ودمنة في قالب عربي جعله من روائع النثر . حكاياته بحث عميق في السلطة والسياسة يرويها (ب) بيدبا الفيلسوف لدبلشيم الملك . في (أ) مشهد من حكاية الأسد وابن أوى (من مخطوط رسم بسوريا أوائل القرن ١٣) .



والخنساء كان شعرهم امتدادا للشعر الجاهلي في مبناه ولكن بروح اسلامية .

يجب ان تنتظر ذهاب معظم القرن الهجري الأول لنرى الشعر يعاود مكانته في الجو الفكري . بظهور الثلاثي : الأخطل (ت حوالى ٩٥ / ٧١٣) وجريز (٧٣٢) والفرزدق (ت سنة ٧٣٢ ايضا) وظهور شعراء الغزل الحر (مثل عمر بن ابي ربيعة المتوفى سنة ٩٣ هـ / ٧١١) ومدرسة الحب العذري

(ومنها جميل بن معمر ت سنة ٧٠٠ وكثير عزة وقيس الملوحي) . ظهرت الكتابة الأدبية مع عبد الحميد الكاتب (٧٥٠) وابن المقفع (٧٦٠) (٣) .

الأدب العباسي

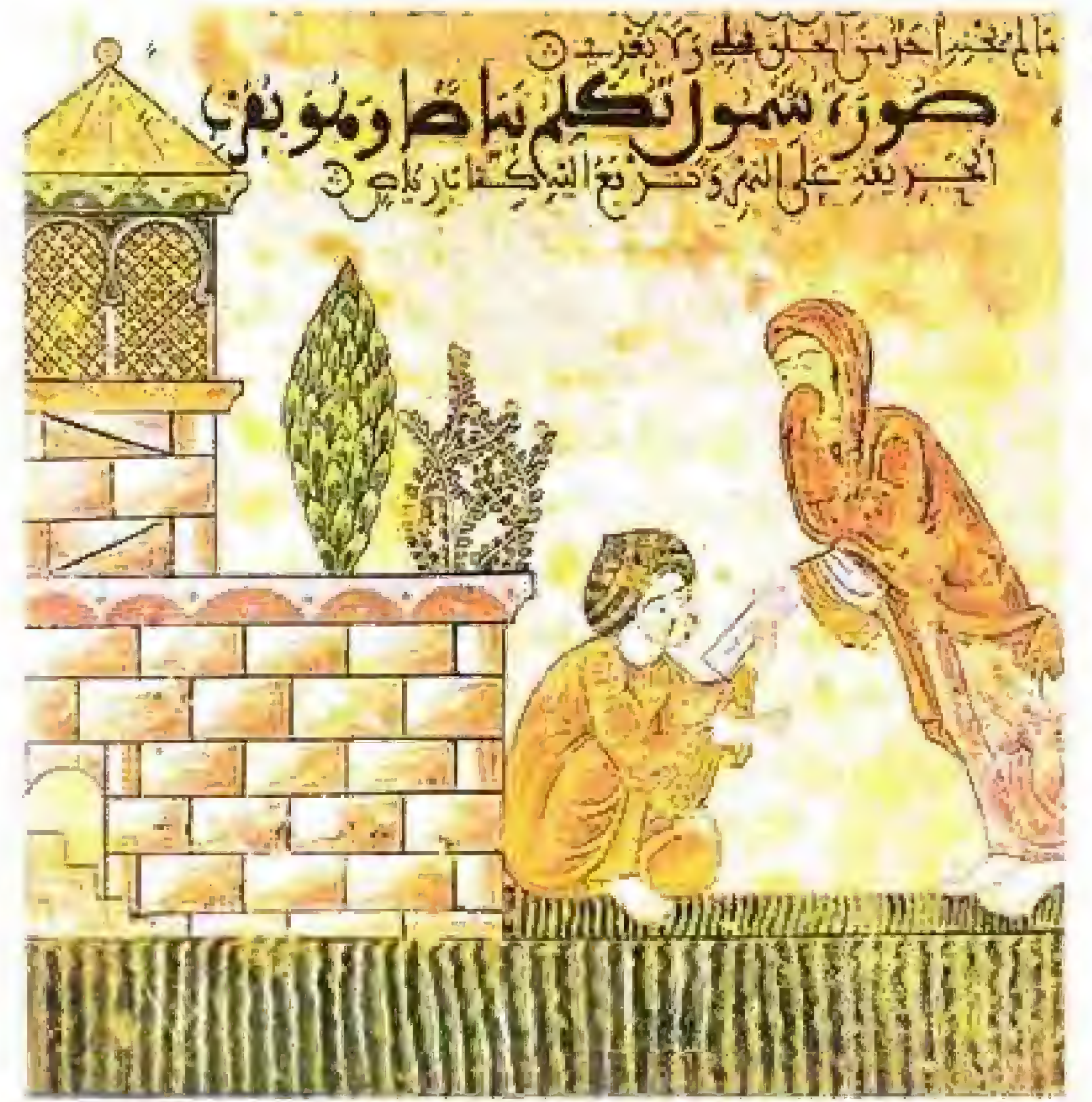
ما ان بدأ العصر العباسي حتى أخذت آثار التمازج الثقافي والحياة الحضرية والفكر الجديد تظهر في الشعر العربي . أصحاب



كتب القصص العربي فقط ولكنها أضحت من كتب القصص العالمي بعد أن ترجمت منذ أكثر من قرنين الى اليوم الى معظم اللغات الحية . وتركت تأثيراتها في الكثير من كتاب الغرب والشرق . اجتمعت قصصها من موارد مختلفة أخذت شكلها النهائي في العهد المملوكي . وهي رغم طابعها الخيالي تعكس الكثير من الأحلام الشعبية والواقع الاجتماعي .

على ٤٠٠ سمر كان يريد أن يبلغها الى الألف . كل سمر ليلة كاملة . من بين المخطوطات النادرة التي وصلتنا من القرن التاسع . قطعة (أ) من مخطوط يحوي نهاية قصة حب تقول ان الحبيبين ماتا في قبرين متجاورين وقامت نخلة بين القبرين تجمعهما .

(٦) - لم تعد ألف ليلة وليلة من



الصورة للمشهد المأسوي منها حين يسمع بياض ما جرى لحبيته من سوء فيقع مغشيا عليه . رسم المشهد في الأندلس أو المغرب لتزيين مخطوط من القرن الثالث عشر .

(٥) - ترجم الكثير من القصص عن الهندية والفارسية وغيرها كما أضاف المؤلفون العرب جانباً طيباً إليها وبخاصة من قصص الحب . هذه القصص جمع منها الجهشاري وألف ما يزيد



(٤) - في الأندلس والمغرب شاعت قصة حب تماثل قصص المجنون قيس الملوحي في المشرق . قصة بياض ورياض .

الأدب الشعبي

في الطبقات الشعبية كان أدب آخر يتكون قوامه القصة (٢) . من حصيلة القصص المتداولة تكونت حتى القرن الرابع نواة الف ليلة وليلة (٦) التي تطورت بالزيادة والتعديل حتى أخذت شكلها الأخير في العصر المملوكي . نشأ بجانبها قصص شعبي مماثل كتب بعضه في العراق والشام وبعضه في مصر فيما بين القرنين الرابع والثامن للهجرة (١٠ - ١٤ م) . وكان منه القصص المطولة : عنترة . الأميرة ذات الهمة . تغريبة بني هلال . الملك الظاهر . علي الزبيق وكلها تعكس آلام الجماعات الشعبية . في المغرب والاندلس كان الشعر والنثر يمشيان في خطى المشرق (٥) . اشتهر خاصة من الشعراء ابن هانيء الاندلسي (٣٦٢ / ٩٧٣) متنبى المغرب ، وابن زيدون (٤٦٣ / ١٠٧١) وابن خفاجة (٥٣٤ / ١١٣٩) . برز من الأدباء الكتاب ابن عبد ربه (٢٤٦ / ٨٦٠) صاحب كتاب العقد الفريد وابن حزم الظاهري (٤٥٦ / ١٠٦٤) صاحب « طوق الحمامة » وهو في الحب ، وقد ترجم الى عدد من اللغات .

في الاندلس تطورت صناعة الشعر في اتجاهين :

- كسرت تقاليد القصيدة بايجاد الموشحات للشعر الغنائي ومن كبار اصحابها ابو العباس التطيلي (٥٢٠ / ١١٢٦) .

- طورت الشعر الشعبي المعروف بالزجل . وجعلت منه نوعا ادبيا راقيا بجهود ابن قزمان (٥٥٥ / ١١٦٠) .

الاتجاهان معا اثرا في الشعر العربي وفي تطور الشعر الاسباني والفرنسي فيما بعد .

الشعر الجديد الاوائل عرفوا بالمولدين . شعرهم كان أكثر رقة وصنعة وصورا . بشار بن برد (قتل سنة ١٦٨ / ٧٨٤) وابو نواس (سنة ١٩٨ / ٨٠٣) كانا من الرائدین . تلاهما في القرن التالي ابو تمام (سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٦) والبحري (٢٨٤ / ٨٩٧) وابن الرومي (٢٨٣ / ٨٩٦) الى ان جاء المتنبي (قتل سنة ٣٥٤ / ٨٩٦) . فشكل هؤلاء جميعا قمة الشعر العربي وأخلد تراثه . لا يلحق بهم من بعد الا أبو العلاء المعري (٤٤٩ / ١٠٥٧) شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء .

تطور مماثل ظهر في النثر الأدبي . مع الايام . برزت . مع انتشار الورق واستبحار الحضارة . الكتابة الادبية . كان الجاحظ (توفي سنة ٢٥٥ / ٨٦٩) قمة النثر . يأتي من بعده طبقة من المترسلين ومن نقاد الأدب . خلال ذلك يدخل النثر مرحلة الصنعة والتكلف مع ابن العميد (٣٥٩ - ٩٦٩) والصاحب بن عباد (٣٨٥ / ٩٩٥) . يبلغ هذا الاسلوب المتكلف بالسجع والتجميل ذروته مع بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨ / ١٠٠٧) الذي ابتكر في الادب اسلوب المقامة . يقلده الحريري من بعده (٥١٦ / ١١٢٢) بعد هؤلاء أصبح التصنع البديعي سيد اساليب الكتابة حتى مطلع العصر الحديث .

لا يقتصر تراث الأدب العربي على هذه الجماعات المبدعة ، فان ثمة بجانبها أدبا نثريا لا يقل شأنًا عنها ، ومنه كتب أدبية خالدة مثل كتاب الاغانى لأبي الفرج الأصبهاني (ت ٩٦٧) ، والمقابسات لأبي حيان التوحيدي (ت ١٠١٠) ، ونشوار المحاضرة للتنوخي (ت ٩٩٤) ، وزهر الآداب للحصري القيرواني (ت ١٠٦٤) (١) .

المعلوم الانسانية

بين العرب . نجد اصداها في تذكير القرآن للناس بها . كما نجدها في أخبار العرب وأيامهم وفي قصصهم عن ملوك اليمن وغسان والمناذرة وفي رواية الانساب .

سيرة النبي ، ثم ظهور الاسلام وفتوحاته الصاعقة ، كانت من الاحداث التي هزت العرب هذا ، فأقبلوا يروونها . كما بحثوا عن تفاصيل الاشارات التاريخية القرآنية . وبعضهم بحث عن أخبار الشعوب الأخرى المغلوبة .

في سنة ١٦ هـ حين اتخذ عمر بن الخطاب عام الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي (ويعادل سنة ٦٢٢ م) لم يكن يضع أساس علم التاريخ ، ولكنه وضع التوقيت الزمني . التاريخ كانت معلوماته العامة شائعة شفاها



رسم أواخر القرن الخامس عشر .
نجد مشهد حصار تيمورلنك
للاستبارية في ازمير
سنة ١٤٠٣ .

موهبتهم الفنية . بعضهم تجرأ
فرسم السيرة النبوية . على ان
التصوير التاريخي انصب على
الفترات المتأخرة . في مخطوط

الأناضول العثماني بعد القرن
الثاني عشر . الرسامون وجدوا
في بعض النسخ التي تهدي
للملوك والكبراء مجالا لابرار

(١) - كتب التاريخ المصورة
ليست بالكثيرة . في التراث
الاسلامي المخطوط . وانما
كثرت في ايران ثم في

من مجموعة ذلك تكونت ثروة تاريخية تخصص الاخباريون في جمعها وروايتها . الاهتمام الاساسي كان أولا بالسيرة النبوية لأسباب واضحة . اكتملت اخبارها المروية على يد محمد بن اسحق (سنة ٧٦٨ م) ومحمد الواقدي (سنة ٨٢٢) . اهتم الاخباريون بالفتوح ، لاسباب ادارية . كان أبرز من كتبها البلاذري (المتوفى سنة ٨٩٢) . منذ القرن الثالث ، بدأت هذه الاخبار تسمى

بالتاريخ ، على يد خليفة بن خياط (سنة ٨٥٤) ومن بعده . في أواخر القرن نفسه ، يظهر ابن جرير الطبري (سنة ٩٢٢) أول المؤرخين الكبار . ظل عشر سنوات يملئ كتابه الضخم تاريخ الأمم والملوك .

التاريخ عند العرب

اهتمت الثقافة العربية بالتاريخ كل الاهتمام . ما من أمة صرفت عليه مثل الجهد

(٢) - الأطلس الجغرافي العربي مملوء بمحاولات رسم الخرائط للمناطق المعروفة من العالم وبخاصة للبلاد الاسلامية . معظم الخرائط في المخطوطات التراثية نقلت نقلا من الأصول التي وضعها مخططوها الأولون . وهؤلاء انما وضعوها على ضوء معارفهم الوصفية لا نتيجة فن خاص برسم الخرائط . ملاحو المحيط الهندي كانت لديهم خرائطهم الخاصة . ولكن الجغرافيين وضعوا مصورات أشبه بأن تكون هيكلية لا واقعية . وقصد بها لا الى تصوير الواقع الجغرافي الأرضي ولكن الى الدلالة الشكلية عليه . في عهد المأمون (أوائل القرن ٩) رسمت أول خريطة للعالم سميت « الصورة المأمونية » وقد ضاع أثرها وذكر المسعودي انها أكثر دقة

من خارطة بطليموس . خلال القرن العاشر ظهر كتاب « صورة الأرض » لمحمد بن موسى الخوارزمي . وهو فلكي رياضي . لكن الرحلات البحرية بعد ذلك ساعدت على عمق المعلومات الجغرافية وزيادة الخرائط في كتب الجغرافيا . لاسيما مؤلفات القرن العاشر الذي يعتبر قرن الجغرافيا العربية . من خرائط



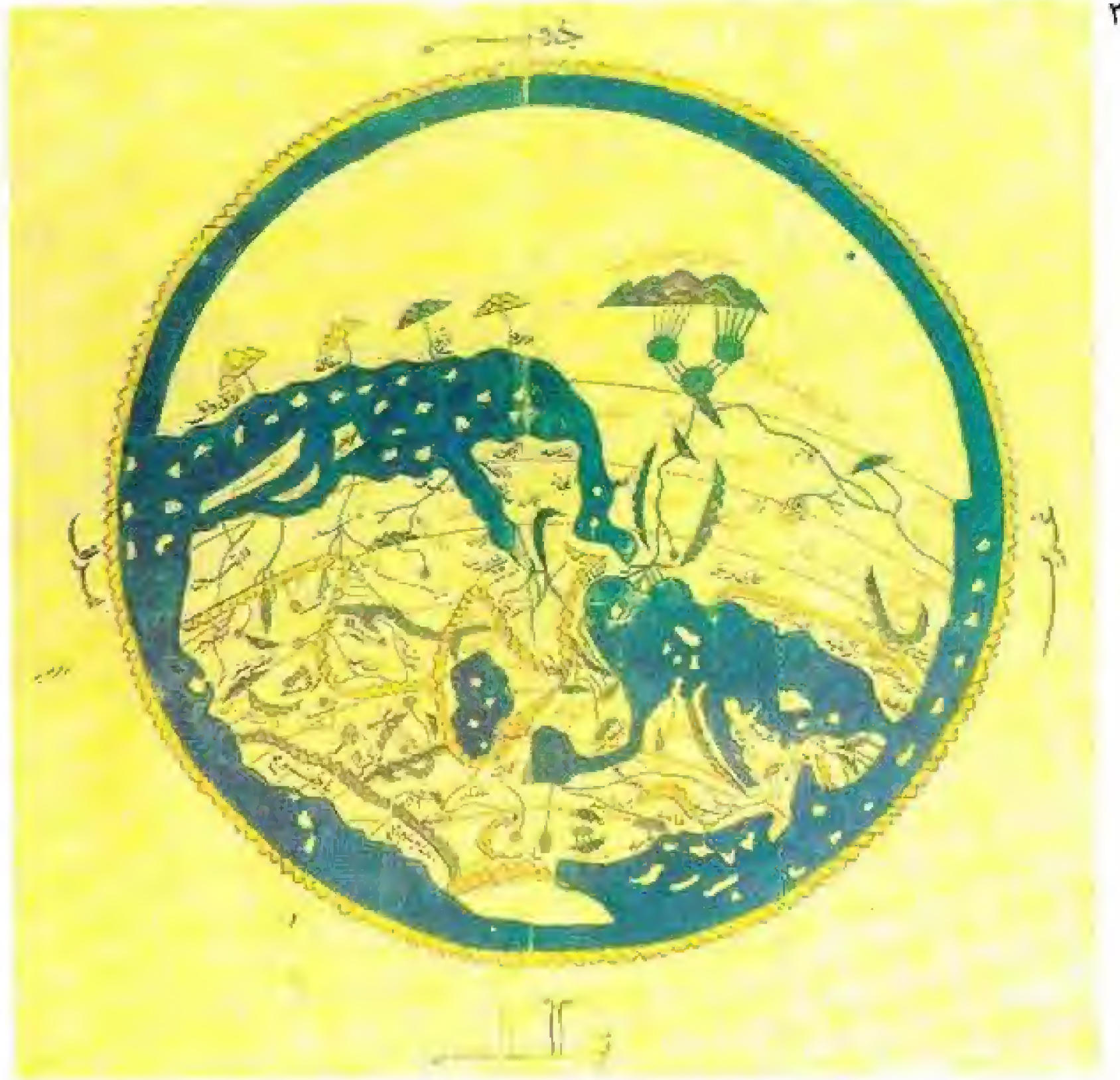
الذي صرفه علماء الاسلام . ألفوا فيه ما يزيد على عشرين ألف كتاب . بعضها في عشرين او اربعين او ثمانين أو مائة مجلد . من أشهر المؤرخين : المسعودي (سنة ٣٤٦) المؤلف الموسوعي . وابن الأثير (ت سنة ٦٣٠) صاحب الكامل في التاريخ .

بلغ التاريخ شأوا كبيرا منذ أواخر القرن ١٣ حتى أواسط ١٥ بصورة خاصة بظهور عدد من المؤرخين منهم : الذهبي

(١٣٤٩) صاحب تاريخ الاسلام . والمقرئ (١٤٤١) مؤرخ مصر المشهور . وقد ظهر في الأندلس كثيرون . منهم ابن حيان (١٠٧٠) مؤرخ الأندلس الكبير . ولسان الدين الخطيب الوزير الطبيب (ت سنة ١٣٧٤) .

كتب المؤرخون العرب في جميع ألوان التاريخ المعروفة : في التاريخ السياسي والسير وتراجم الرجال ومواضيع الحضارة . نظموا المعلومات التاريخية في الغالب على

القرن الثاني عشر (٦ هـ) . رسم الإدريسي مع الكتاب خارطة للعالم ترى صورتها في الرسم . الجنوب فيها مرسوم الى أعلى كما يقضي بذلك موقع مكة في الأعلى . الخارطة في رأي الاختصاصيين كافة ، ذروة في رسم الخرائط الاسلامي . توفي الإدريسي سنة ١١٦٥ . هذه الصورة أخذت عن مخطوط في مكتبة بودليان في اكسفورد . يعود الى القرن الرابع عشر . الجغرافيون الذين جاؤوا بعد الإدريسي ، كانوا في الغالب عيالا عليه . واتجهوا الى المعاجم الجغرافية (كياقوت الحموي) أو الموسوعات (كمسالك الأبصار للعصري) أو ذكر العجائب (مثل نخبة الدهر لشيخ الربوة وعجائب البلدان للقزويني) . قبيل عصر النهضة الأوروبية تقدمت الجغرافيا البحرية تقدما واضحا لدى العلماء المسلمين والبحارة ، في المحيط الهندي خاصة . بقي لنا من هذه الفترة كتب هامة في الملاحة البحرية ، منها كتاب العمدة المهرية لسليمان المهري وكتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد لابن ماجد .



صقلية المتنور فالف له كتابه المشهور : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي عرف بكتاب روجر . وهو تجميع للمعارف الجغرافية الاغريقية والعربية التي تكدست حتى

سنة ١١٠١ وتعلم في قرطبة قبل أن يقوم برحلات واسعة طويلة في المغرب الاسلامي وربما في بعض بلاد القوط والفرنجة . استقر به المقام في النهاية لدى الملك روجر النورماندي ملك

(٣) - يعتبر الشريف الإدريسي واحدا من أشهر الجغرافيين العرب ان لم يكن أشهرهم . لكن حياته غير واضحة المعالم تماما . بعض المصادر تذكر انه ولد في سبتة بالمغرب

الاساس الحولي . وأحيانا على تسلسل الخلفاء والملوك . أو على القرون . كان معظم المؤرخين من علماء الدين ، وإن كان فيهم الكثير من الكتاب موظفي الدولة . كتب التاريخ المتأخرة تضحمت جدا ، وصور بعضها المصورون (١) .

الجغرافيا :

اجتمعت في الجغرافيا العربية ، منذ وقت مبكر ، معارف العرب الجغرافية . مع المعارف المتوارثة عن اليونان . توسع اهتمام العرب بالجغرافيا بعد الفتوح لاتساع رقعة الدولة الإسلامية . وحاجاتهم لمعرفة الأقاليم . ولضرورات التجارة وطرق الحج والرحلة وحركة الجند .

في عصر الترجمة كانت كتب التراث الجغرافي القديم بين ما ترجم وبخاصة كتاب المجسطي لبطليموس ، الذي وسع معارف العرب في الناحية النظرية الفلكية . نجد أثره في مؤلفات جغرافيين القرن الثالث الهجري / ٩ م كالخوارزمي وابن الفقيه وابن رسته .

غير أن الجغرافيا العربية تجاوزت بسرعة هذه المرحلة تحت ضغط الحاجات العسكرية والإدارية والاقتصادية للدولة الإسلامية . ظهرت منذ بداية القرن الرابع وحتى أوائل القرن السادس ، مؤلفات الجغرافيا العربية الأصيلة . جغرافيو القرن الرابع خاصة ساعدوا بمؤلفاتهم في الجغرافيا الوصفية والبشرية على فصل هذا العلم عن الجغرافيا الرياضية الفلكية . كتاباتهم اعتمدت خاصة الدراسة المباشرة للأرض والناس على السواء ، وعلى المشاهدة الشخصية . صارت الجغرافيا على أيديهم علم المسالك والممالك . منهم

اليقوي (بعد سنة ٩٠٥) وابن خرداذبة (سنة ٩١٣) والاصطخري (٢) (سنة ٩٦١) وابن حوقل (٣) (سنة ٩٧٧) والمقدسي البشاري (سنة ١٠٠٠) . أهم ما أدخله هؤلاء على الجغرافيا هو استخدام الخارطة مع المتن للايضاح . أشهرهم بعد ذلك هو الشريف الإدريسي (ت سنة ٥٦٠ / ١١٦٥) صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أرفقه بخريطة للأرض المعروفة كلها (٤) . أخذ التأليف الجغرافي منذ القرن السادس شكل المعاجم والرحلات والموسوعات . ياقوت الحموي (١٢٢٩) وضع كتاب معجم البلدان . الرحالون وخاصة المغاربة وصفوا البلاد والجماعات التي رحلوا إليها مثل ابن بطوطة (١٣٧٧) . أصحاب الموسوعات كالنويري (١٣٣٢) في نهاية الأرب ، والعمرى (١٣٤٨) في مسالك الأبصار ، وضعوا في موسوعاتهم كل ما عرفوا عن البلاد المختلفة ليكون في خدمة رجال الإدارة .

علم العمران :

المؤرخون والمفكرون السياسيون في التاريخ الإسلامي سجلوا بعض الأفكار السوسولوجية والاقتصادية والسياسية . تفرد المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون التونسي (توفي بالقاهرة سنة ١٤٠٦) بتنظيمها وتطويرها وإقامة النظريات عليها ، وتكوين علم جديد سماه علم العمران . هو فلسفة التاريخ . وعلم الاجتماع في آن واحد . جاء ذلك في المجلد الذي جعله « مقدمة » لكتابه في التاريخ « كتاب العبر » . اشتهرت المقدمة في الغرب والشرق شهرة جعلت ابن خلدون ، في تاريخ العلوم الانسانية ، واضع علم الاجتماع وأحد فلاسفة التاريخ .

التعريب وتمازج الثقافات

وكثير من عناصرها وثني اغريقي . مراكزها في الاسكندرية خاصة وفي انطاكية . الاسماء البارزة فيها هي اسماء أفلاطون وأرسطو (٦) ثم أفلوطين صاحب الافلاطونية الحديثة . وأرخميدس وفيثاغورث وهيبوقراط . كان لهذه الثقافة امتداد في بلدة جنديسابور بارض الفرس (انشئت سنة ٥٢٩) لكنها كانت في حالة خمول وتشر اضواءها الأخيرة .

كانت المنطقة التي فتحها العرب في القرن السابع ، ذات تراث ثقافي عريق ، تراكم عبر ثلاثين الى اربعين قرنا من قبل . أهم الثقافات المتداخلة فيه هي : الثقافة الهلينستية المكتوبة باليونانية ،



النسخة الموجودة في المكتبة الوطنية في باريس والتي نرى في الصورة صفحتها الأولى ، كتبت في العراق على الأرجح أواخر القرن ١٢ . سجل في تزويقها اسم صاحبها محمد بن أبي الحسن بن الامام .

(٢) - من كتب الطب التي ترجمت للعربية كتاب الترياق (ضد السموم) المنسوب لجالينوس . صار مشهورا رغم انه مقالة محدودة . ترجمه الى العربية يحيى بن البطريق وله أكثر من نسخة مصورة منها

أخرى مثلها لعبت الدور نفسه مثل آل حنين بن اسحق وآل قره . أول رجالها هو جرجيس بن بختيشوع (٧٧٠ - ١٥٣) الذي استقدمه المنصور من جنديسابور ثم بختيشوع ابنه (المتوفى سنة ٧٩٨) .

(١) - آل بختيشوع ، الذين نرى رسم واحد منهم (عبد الله) في مخطوط بالمتحف البريطاني ، أسرة من النساطرة الأطباء لعبت دورها في الأوساط الثقافية العربية حوالى ثلاثة قرون . وهي نموذج لأسر

الثقافة الهلينستية المكتوبة بالسريانية .
ومعظمها مترجم عن اليونانية ، ولكنها تحوي
تراث الجدل واللاهوت المسيحي ايضا . كان
يحملها السريان ، ومراكزها في حران
ونصيبين ورأس العين . وكانت نشيطة حية
خلال العصر الاسلامي الاول .
الثقافة الفارسية ، وهي بهلوية اللغة
زارادشتية الدين ، مع التنوعات التي دخلت
على هذه الديانة بالمانوية (القرن ٢ - ٣ م)

وبالمزديكية (القرن ٦) . معظم التراث
الفارسي كان أدبيا ، أو علميا - فلسفيا
مترجما عن اليونانية .
يضاف الى ذلك الثقافة الهندية التي كان
تأثيرها يأتي بحكم الجوار والتجارة . لم تحل
اللغة السنسكريتية دون وصول نتائجها الى
العرب في الرياضيات والفلك والطب
والفلسفة .
هذه كانت الروافد الأربعة للثقافة المقبلة .



(٣) - تبني العرب المسلمون
بصورة عامة النظرية الطبية
الاغريقية التي أتى بها أبقراط
وجالينوس في التآلف بين
الأجزاء وفكرة التوازن
والأخلاط والانسجام والأمزجة .
وان صححوا فيها الكثير

وأخرجوها في ثوب اسلامي .
على وجه كتاب جالينوس
جوامع المقالة الأولى . نجد
تحت البسمة صور بعض علماء
الاغريق مثل مارسينوس
واندروماخوس في مخطوط
كتب سنة ١١٩٩ في العراق .

(٤) - ديسقوريدس اسم آخر
من الاسماء التي لمعت في اطار
الثقافة العلمية المترجمة عن
الأوائل . كتابه (ماثريا
ميدىكا = المادة الطبية) الذي
كتب سنة ٦٥ م . ترجم الى
العربية في القرن التاسع

الميلادي ويتناول ٦٠٠ عشب
طبي . ظل معروفا متداولاً في
العالم الاسلامي ولو أن عدداً من
علماء المسلمين طوروا بعده علم
النبات والعقار . الصورة هنا
رسمت سنة ١٢٢٩ لمخطوطة
كتاب الموجود في اسطنبول

حركة التعريب

منذ الفتح الاسلامي . بدأت حركة الاتصال والتعريب والتمازج بين « علوم الأوائل » هذه وبين الثقافة العربية المتمثلة : في الاسلام قرآنا وحديثا . وفي اللغة العربية والأدب والشعر . دوافع عديدة دفعت الى ذلك : منها الوضع السياسي المميز الذي احتله الاسلام . وأخذته لغة العرب بعد الفتح . ومنها الجدل المتبادل مع العقائد الأخرى والفضول

للمعرفة والحاجة العملية لبعض المعارف . كالطب والفلك والتاريخ . أعان على التعريب . التقارب اللغوي بين السريانية والعربية . وتجربة السريان السابقة في النقل عن اليونانية ونحت المصطلحات .

لم يكن قد مضى على الفتح نصف قرن حتى كانت بعض كتب الطب والتاريخ والكيمياء والفلك قد ترجمت الى العربية . الأمير الاموي خالد بن يزيد (المتوفى سنة



وفيشاغورث في الهندسة والموسيقى وغيرها و ١٧ كتابا لبطليموس القلوذي منها كتابه المشهور بالمجسطي . ألغى الأسماء اليونانية التي شاعت وأثرت كان اسم أرسطو الذي اعتبره العرب المعلم الأول وأكثروا من الاعتماد على فكره أو الفكر المنسوب اليه وخاصة في المنطق والطبيعة . الصورة هي لأرسطو وهو يعلم تلاميذه . صورهم الرسام العربي في أشكال وملابس عربية (من مخطوط مختار الحكم ومحاسن الكلم . القرن الثالث عشر) .



(٥) - كانت بغداد في القرون الأولى للعصر العباسي (٨ - ١١ م) ملتقى ثقافات العالم القديم . وعلوم الأوائل . تخصص بعض الترجمة فيها بكتب اليونان (وهم خاصة علماء السريان) وبعضهم بالترجمة عن الفارسية وبعضهم عن السنسكريتية . لكن الثقافة الاغريقية كانت الأوسع انتشارا . أسماء الاغريق وأقوالهم صارت شائعة في الوسط الثقافي . كما يظهر ذلك في كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم الذي نرى صولة (لصولون) من مخطوط

(٦) - كان مما نقل عن اليونانية والسريانية : ١٩ كتابا على الأقل لأرسطوطاليس وثمانية لأفلاطون (أو تنسب لأفلاطون) وعشرة كتب في الطب لأبقراط و ٦٤ كتابا لجالينوس وعشرة لأرخميدس . هذا الى ثمانية كتب أخرى في الطب لمؤلفين آخرين وبضعة وعشرين كتابا لروفوس . بالإضافة الى كتب اقليدس

٨٥ / ٧٠٤ أو سنة ٨٩) عمل على ذلك ، وأنفق فيه . مبادئ المنطق ومشاكل اللاهوت انتشرت بدورها مع الجدل اليومي وانتجت أوائل المتفلسفين أمثال غيلان الدمشقي والجعد بن درهم في أواخر القرن الأول للهجرة . حين جاء العباسيون . انتقل مركز ثقل الدولة الى العراق ، وأسهم الخلفاء العباسيون في تشجيع التعريب . الذي كانت تعمل عليه مجموعات وطبقات متعددة من السريان والهنود والفرس والقبط والعرب .

ال مترجمون

كان بين العاملين على التعريب ، جماعة رسمية تترجم للبلاط منذ زمن المنصور حتى المتوكل (مثل ابن بختيشوع (١) وابن ماسويه واسحق بن حنين) ويلحق بها جماعة تترجم لكبار الدولة (كالبرامكة) . لمثل هؤلاء انشئت دار الحكمة في قصر الخلافة . وعلى يدهم ترجمت بعض كتب الطب (٢) ، (٣) والفلسفة والنجوم خاصة . اسماءهم معروفة في معظمها لأن الترجمة تحولت معهم الى صناعة ارستقراطية . ومؤسسة من مؤسسات البلاط ، وصارت سبيل الغنى . حنين بن اسحق ، كان يأخذ من الخليفة المأمون وزن الكتاب المترجم ذهباً . بنو شاعر كانوا يرزقون جماعة النقلة وزن الكتاب فضة . أو يدفعون لهم ٥٠٠ درهم في الشهر . من هؤلاء التراجمة الرسميين آل بختيشوع وآل حنين وآل ثابت بن قرة الحراني .

بجانب التعريب الرسمي وجدت اعداد واسعة من المترجمين . لم يرتبطوا بجهات رسمية . ولكنهم أثروا الثقافة بما عربوا من ألوان الأدب والقصص والحكمة والازياج

وتفسير الأحلام والموسيقى والعقاقير (٤) والحساب والتاريخ والجغرافيا والهندسة وعلم الحيل والريافة (استنباط المياه) والفلاحة والفراسة والسحر والحيوان .

لا نعرف الا بعض أسماء هؤلاء المترجمين كابن المقفع مثلاً . وسلام الأبرش وعلي بن زياد التميمي . ونجهل مجموع الآخرين وهم مئات كانوا يرتزقون بالترجمة ، ويعملون بالتعاون مع الوراقين في امداد الوسط الثقافي بما يطلب من ألوان المعرفة .

حصاد التعريب

قبل أن يأتي عصر المأمون (مطلع القرن ٣ هـ / ٩ م) كانت أعمال الترجمة منتشرة على نطاق واسع يدل عليها ان قواعد المنطق والفلسفة قد اسهمت قبل ذلك العصر في تقعيد النحو العربي . وتنظيم اللغة واحكام الفقه . وتنمية علم الكلام . وفي ظهور علماء كبار في الكيمياء (مثل جابر بن حيان المعاصر للرشيد) . وفلسفة كبار (مثل الكندي المعاصر للمأمون نفسه) . وظهور اعداد من المنجمين والاطباء أيضا .

استمر عصر التعريب حوالى ثلاثة قرون . كان أوجها فيما بين اواسط القرن الثاني والثالث للهجرة . كان حصاد التعريب دخول علوم الأوائل كلها بما فيها من غث وثمين الى اللغة العربية (٥ ، ٦) . وتحول الثقافة العربية الاسلامية بالتدرج ثقافة عالمية . متعددة العناصر . واغناء اللغة العربية بمصطلحات وطرق من التعبير الفلسفي والعلمي لم تكن تعرفها .

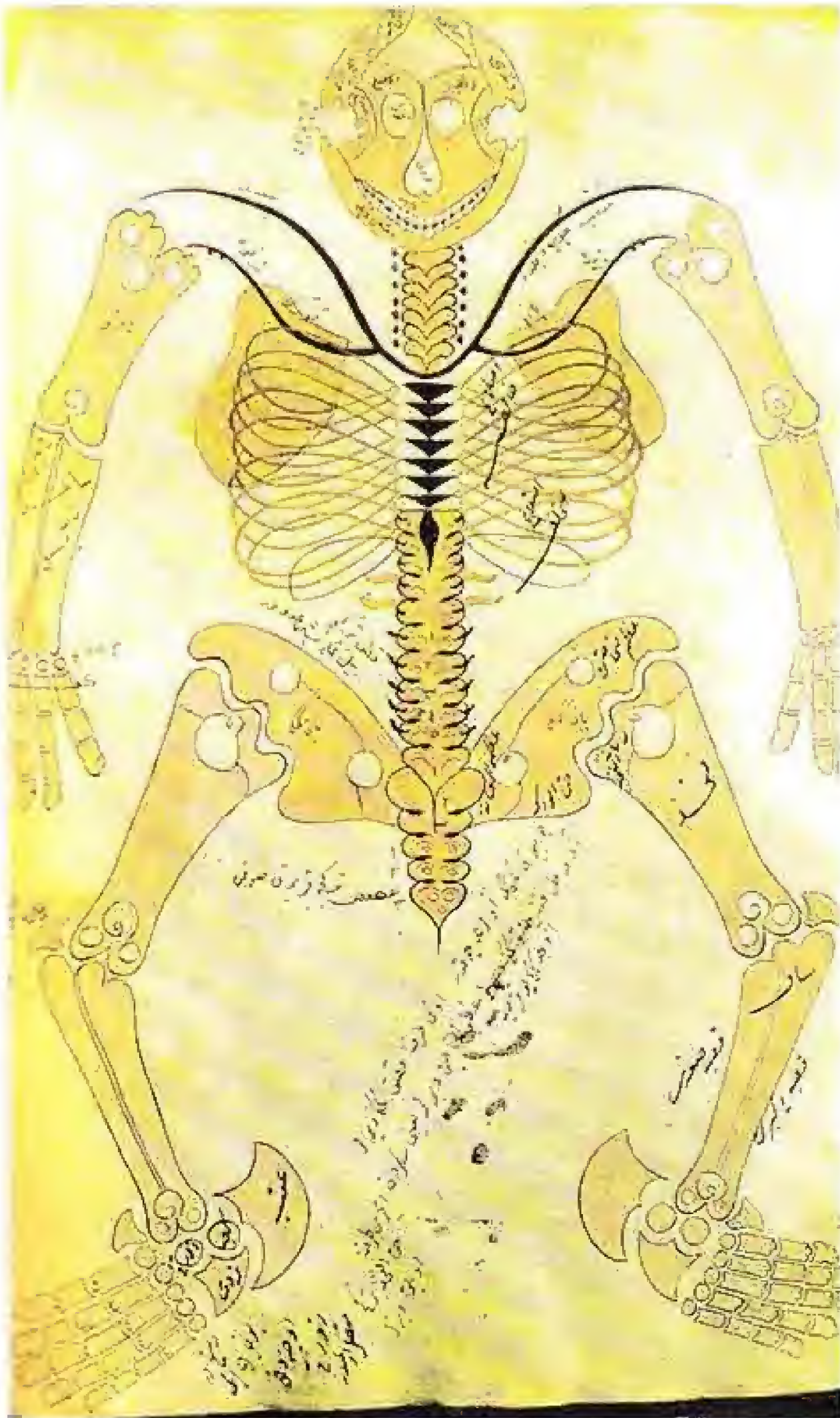
كانت حركة التعريب تجربة من أخصب التجارب الانسانية في التمازج الثقافي .

العلوم الطبّية عند العرب

العلمي الذي درسه بعضهم لدى الفرس والروم . هذا عدا المعرفة بالبيطرة وما يتصل بها .

بعد الفتوح والنزول في مناطق الحضارات القديمة . كان أول من اتصل به العرب من علماء الأوائل هم الأطباء . اتخذوا منهم أطباء لهم ، ثم ما لبث هؤلاء أن ترجموا لهم وألفوا بعض كتب الطب بالعربية . ومن ذلك أعمال ابن ائال طبيب معاوية ، وتيادوق طبيب

الطب تراث انساني . وقد أسهم العرب كثيرا في اغناء هذا التراث . في الجاهلية كان طب العرب على ثلاثة أشكال ، فمنه الطب بالسحر والكهانة والتعاويذ . ومنه الطب التجريبي بالأعشاب والكي . ومنه الطب



كتاب المنصوري لمنصور بن محمد سنة ١٣٩٦. والصورة (ب) من مخطوطة له في القرن ١٥. أما الحيوان فأكثر ما اهتموا بتشريح الخيل (أ) كما نرى في رسم لمخطوط رسم في مصر في القرن ١٥.

(١) - كان بعض الأطباء يخرجون من التشريح . مع ذلك لا يكاد يخلو كتاب طبي من الأمور التشريحية التي يحثها كبار الأطباء كابن سينا والرازي وعبد اللطيف البغدادي . من كتب التشريح

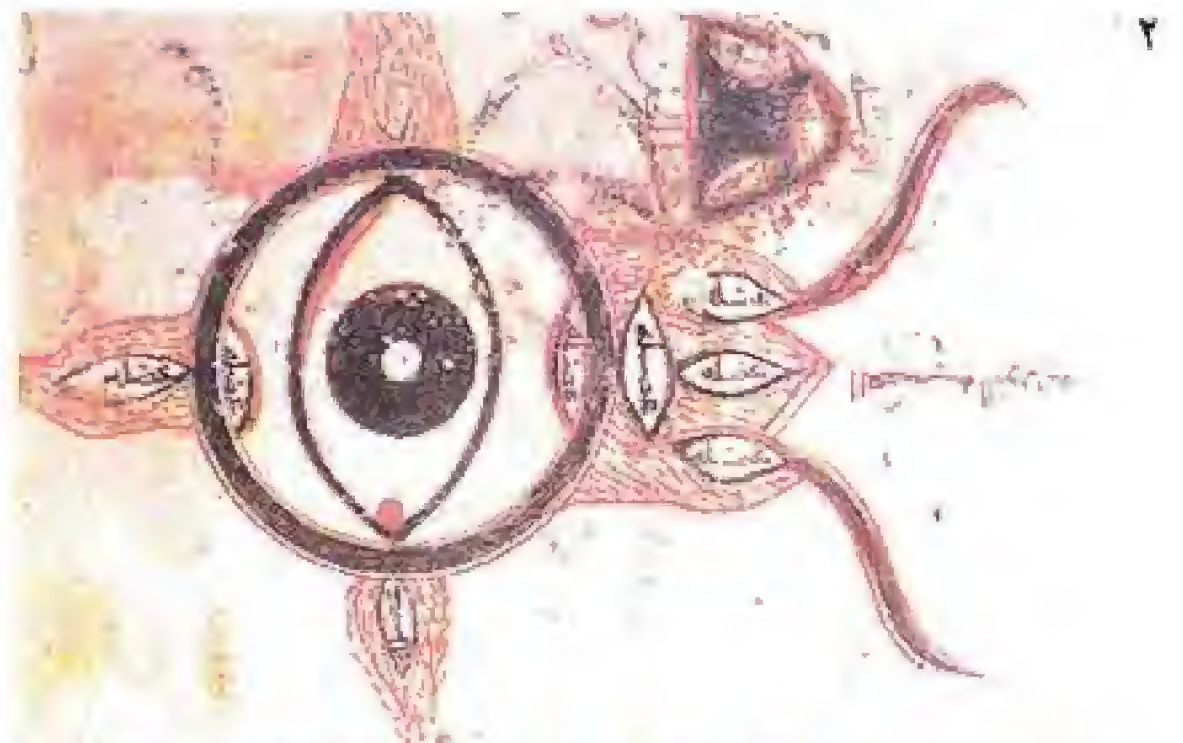
الحجاج وتاودون ، وعبد الملك بن أبجر الكناني طبيب عمر بن عبد العزيز ، وكلهم من القرن الهجري الأول (السابع) .

فتح هؤلاء الاطباء باب التراث الطبي المنحدر عن أبقرط (توفي سنة ٢٥٧ ق . م) وعن جالينوس (ت سنة ٢٠٠ م) وغيرهما . وجاء جبرائيل بن بختيشوع ، فترجم للمنصور كتب الطب اليوناني ، واستقدم يحيى بن خالد البرمكي أطباء الهند ، وفتح لهم

بيمارستانا ترجموا فيه الطب الهندي . تشكل من الرافدين خاصة حصيلة علمية واسعة ، زادت بأعمال الترجمة الأخرى بعد ذلك ، حتى لم يبق كتاب في التراث الطبي الا صار بالعربية . وولدت في الوقت نفسه لغة طبية عربية كاملة المصطلحات .

ظهور الطب العربي

في تلك الأثناء كان الاطباء العرب



أما في الطب في طبيعة الدماغ ومنافعه فوجب من أراد معرفة طبيعة العين أن يعرف طبيعة الدماغ تلك الأذن مبدأها منه وسرقات ما يرجع إليه وانما يعرف الانسان طبيعة الشيء ما عرفه وأما غايته التي هو مخصوص بها فلا تكف عجب علينا ان تعلم ما هذا الدماغ وما الذي في هو مخصوص به فقول ان كل عضو من الاعضاء كبد خدرين جواهر من صوره اعني من طبيعته والآخر من نوعه اعني من فعله ومنفعته اذ لا ينفك ايضا عن خاصيته في خدرين احدها كبد اذكر نام طبيعته وهو ان يولد ان الدماغ عضوا باردا ابرد اعضا البدن وارطها هو والآخر الاخر فيفعله والحاجة اليه وهو ان يولد ان الدماغ ابتدى الحس والحركة لئلا يرد به والسياسة وكل الحيوان كخصان الدماغ دون غيره من الاعضاء اما الكبد البول وهو ان الدماغ ابرد اعضا البدن وارطها فانه لا يبع سكام من الاعضاء مع الدماغ لانه ليس في البدن عضوا رطب من الدماغ لا ابرد منه وذلك لما انما ذكره له يبعد ايضا فيقول الدماغ وما



- (٢) - أشهر كتب الكحالة عند العرب كتاب عشر مقالات في العين لعنين بن اسحق ، الذي يعتبر بداية علم الكحالة العربي وأقدم تشريح لها . تنسب المقالات في الأصل لأبقراط وجالينوس . والصورة التشريحية هذه أخذت من مخطوط لكتاب حنين من القرن الثاني عشر (موجود في القاهرة) . الكحالة العربية تجاوزت هذه المقالات كثيرا على يد علي بن عيسى وعمار بن علي الموصلي المعاصر له .
- (٣) - درس ابن البيطار نباتات المغرب والمشرق وخاصة في كتابه (الجامع في مفردات الأدوية والأغذية) وهو معجم هجائي فيه أكثر من ١٤٠٠ عشب دوائي لا يقل ما اكتشفه ابن البيطار منها عن ٣٠٠ . كان يصور النباتات بالألوان . مع ذلك ظل لكتاب ديسقوريدس اليوناني القديم رواجه . رسم الكرمة مأخوذ من مخطوط فارسي من القرن الخامس عشر يحوي الترجمتين العربية والفارسية له .

ينبغيون أيضا . استوعبوا التراث وبدأوا يضيفون اليه من تجاربهم وخبراتهم . كانت مهنة الطب رائجة ، ومن وجوه الرزق الطيب ، لاسيما لمن يتصل بالخلفاء . بلغت ثروة جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد والبرامكة والمأمون ، حوالي ٨٩ مليون درهم . بعد أن جاء عدد من الأطباء المترجمين المؤلفين في وقت معا مثل يوحنا بن ماسويه (سنة ٨٥٧) وحنين ابن اسحق (سنة ٨٧٣)

ظهر الأطباء المؤلفون . كتب علي بن ربن الطبري (المتوفى سنة ٨٦١) كتاب فردوس الحكمة ، وهو موسوعة ثقافية للطب فيها الجانب الكبير . ثم ظهر أول الاطباء العظام ، أبو بكر الرازي (٣١١ / ٩٢٣) الذي يلقبونه جالينوس العرب . الاسم الطبي الاكبر من بعده هو ابن سينا (٤٢٨ / ١٠٢٦) الملقب بالشيخ الرئيس . كان فيلسوفا عظيما بقدر ما كان طبيبا عظيما . ما من كتاب طبي ظل



(٤) . ظهرت المشافي مبكرة في الاسلام . نجد ملامحها منذ القرن الهجري الأول . غير انها أصبحت مؤسسات رسمية ، ومن المعالم الاساسية للمدن اعتبارا من القرن الرابع الهجري . دعيت عند ذلك بالاسم الفارسي البيمارستان . انتشرت في العراق وفارس كما انتشرت في الشام ومصر وصارت بجانب التمريض مؤسسات لتعليم الطب . كانت تعتمد على الأوقاف ، في نفقاتها سواء للمرضى أو للأطباء أو للطلبة . سلاجقة الروم قلدوا البويهيين والأتابكة والأيوبيين والمماليك في المبارزة ببناء البيمارستانات ومنها هذا البيمارستان في الأناضول . في صورة لباحته الداخلية وأبهائه الواسعة .



العرب بعد ابن سينا . ألف ما يزيد على مائتي كتاب ورسالة معظمها في الطب . كان رئيس المستشفى العضدي في بغداد ، وهو أول من كتب عن الجدري والحصبة كتابة علمية دقيقة . وطور بذلك وبغيره الطب السريري . كتابه (الحاوي) يقع في ثلاثين مجلدة . ترجم الى اللاتينية وطبع عدة مرات في القرن السادس عشر بعد اختراع الطباعة . تحفل كتب الطب بعدد من الصور للفحص الطبي ، ومنها هذه الصورة .

(٥) . فحص المريض بجس النبض في هذه المنمنمة مأخوذ عن مخطوط طبي فارسي كتب وصور في القرن الرابع عشر (الثامن الهجري) . وعمليات الطب السريري تدين كثيرا لأبي بكر الرازي (ت سنة ٢٩٣) وهو من أشهر أطباء

المرجع الأوحى في الطب مدة أطول من كتابه في الطب : القانون . طبعه ظل يدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر . وبلغ الصين أيضا . لم يأت بعد ابن سينا من يبلغ شهرته . لكن موسوعة طبقات الأطباء التي كتبها الطبيب ابن أبي أصيبعة في القرن الثالث عشر م تزودنا بما يزيد على ٣٥٠ من أطباء العرب المشهورين حتى عهده في القرن الثالث عشر م . يتميز من هؤلاء خاصة : ابن النفيس الدمشقي (٦٨٧ - ١٢٨٨) الذي كان أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى وفهم تركيب الرئة والأوعية الشعرية . ويميز بين الشرايين والأوردة فيها (١) . في الأندلس أبو القاسم خلف الزهراوي مؤسس علم الجراحة . كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » ظل مرجع الجراحة في الغرب حتى القرن السادس عشر .

رغم وجود الطب الشعبي ، كانت مهنة الطب تدرس في البيمارستانات (٦) وتجري منذ أواخر القرن التاسع ، تحت رقابة الدولة . كان ثمة امتحان للطبيب يجتازه ليمارس الطب . وثمة قسم يقسمه لحفظ المهنة . وثمة آداب وقيود تحدد أعماله . وتحاسب أخطائه في الدواء أو التصرف . رقابة المحتسب كانت تشمل الأطباء الذين قد يمنعون العمل إن أساءوا إلى أدب المهنة . أو يغرمون إن نجم عن طبهم أضرار بالمريض .

الكحالة

ظهر لدى العرب الاختصاص الطبي . فثمة الجراح والمجبر للعظام . وطبيب الأسنان . والحجام . والفصاد . كما مارسوا الطب النفسي والوقائي . وعالجوا الأمراض

العقلية . واهتموا جدا بالبيطرة . من المؤلفين فيها . يعقوب بن أخي حزام (القرن ٤ / ١٠) الذي كتب أقدم مؤلف في هذا الفن . أبدعوا كذلك في الكحالة (طب العيون) . تشرح العين وعضلاتها وأعصابها وحركتها ووظائفها وأمراضها وجراحاتها كانت معروفة لديهم (٢) . أشهر كحالي العرب هو علي بن عيسى البغدادي (ت سنة ١٠١٠) . له ٣٢ كتابا في الرمد أهمها تذكرة الكحالين . وصف فيه مائة وثلاثين مرضا من أمراض العين . نقل إلى اللاتينية مرتين كما نقل إلى العبرية .

الصيدلة وعلم النبات :

اهتم العرب بتحضير الأدوية والعقاقير كمتهم لعلم الطب . ألفوا الكثير في هذا العلم وسموه الاقرباذين . استفادوا من التراث الاغريقي الذي يبرز فيه اسم ديسقوريدس كما استفادوا من اعمال الكيمياء لجابر بن حيان وغيره . اتجهوا خاصة الى دراسة النبات وخواصه بوصفه قوام الدواء والصيدلة . في القرن التاسع ، وضع الرازي كتابي الاقرباذين الكبير والصغير . وظهرت في القرن ١٢ رسائل محمد بن بهرام القلانسي أكثر المؤلفات شمولاً في هذا الموضوع وكتاب (منهج الدكان) لنجيب الدين السمرقندي ، ولا يقل عنها .

وصل العلم بالنبات درجة عالية على يدي ابن البيطار الأندلسي (٣) (المتوفى بدمشق سنة ١٢٤٨) ومن قبله رشيد الدين الصوري (ت سنة ١١٨٧) . ومن الباحثين في النبات أيضا موفق الدين البغدادي (سنة ١١٣٢) وأبو جعفر الغافقي القرطبي (سنة ١١٦٥) الذي كتب الأدوية المفردة . وهو أوفى وأدق ما في اللغة العربية في موضوعه .

الفلك والرياضيات عند العرب

الهيئة الحقيقي . احتاج المسلمون الى بعض المعلومات الفلكية لأمر الدين (القبلة ، وقت الصلاة ، هلال رمضان) فاهتموا بعلم الهيئة الذي كان يرتبط في ذلك العهد بالتنجيم (٣) . أول كتاب في الفلك والنجوم ترجم على يد خالد بن يزيد الامير الأموي (المتوفى سنة ٧٠٨ م) وهو كتاب : عرض مفتاح النجوم ، المنسوب الى هرمس . وقد صنعت كرة نحاسية للأرض كانت موجودة في

تراث المعارف الفلكية قديم في الشرق ، فقد كانت الشمس والنجوم موضع عبادة الاقدمين في المنطقة . عرب الجاهلية من بداءة وحضر كانت لديهم معرفة علمية واسعة بالنجوم . لكن لم يكن لهم شيء من علم



عديدة له منها (أ) اسطرلاب صنع في الاندلس (القرن ١٣) و (ب) جهاز آخر فارسي (القرن ١٧) ومنها الاسطرلاب الكروي .

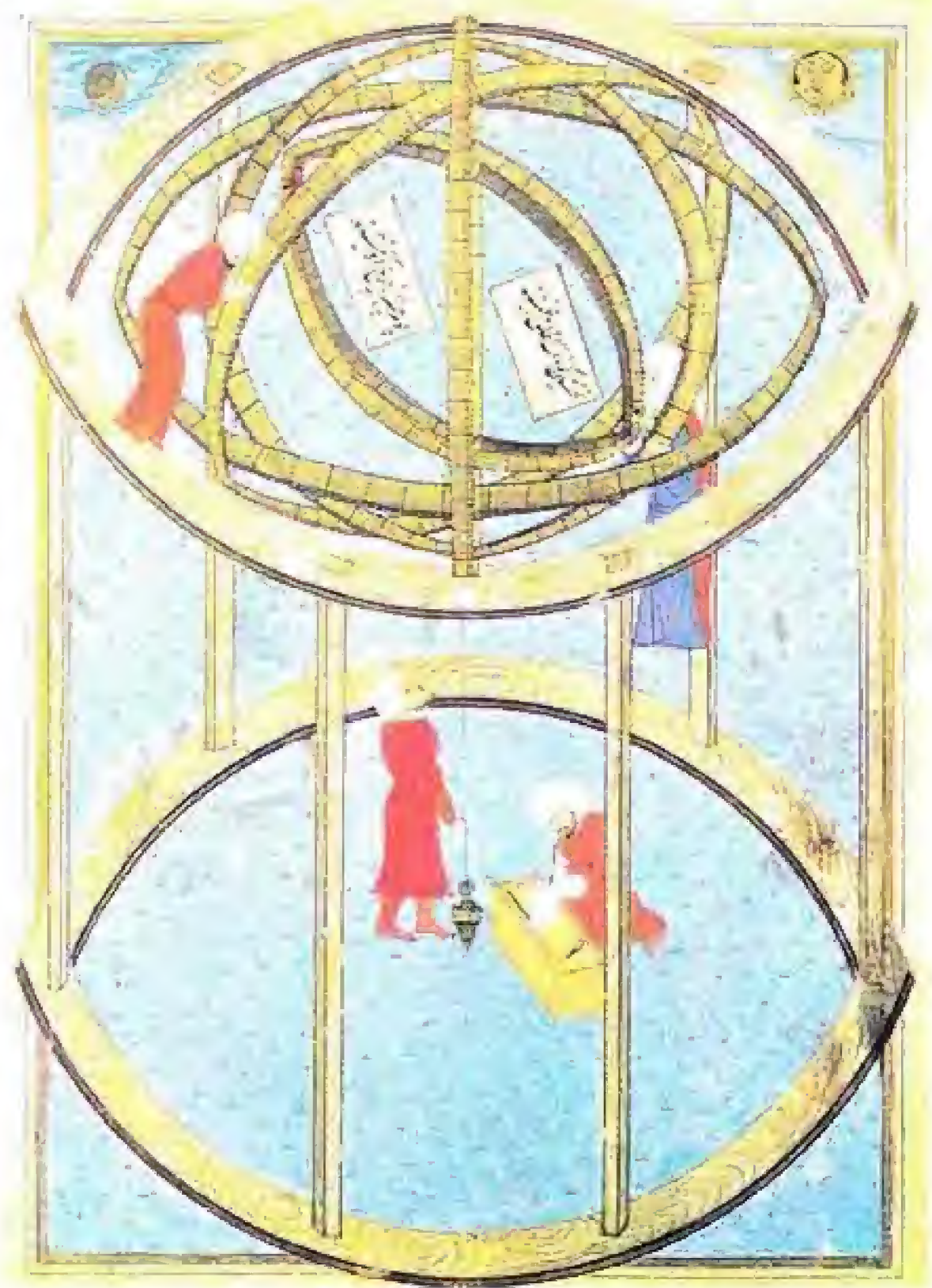
بينما تظهر الكواكب على الشبكة . هذا الجهاز متعدد الوظائف ومن عمله تحديد ارتفاع النجوم والكواكب . تفنن العرب في ابتكار أشكاله وتزيينه وتحسينه وصنع أنواع

الآلات الفلكية العربية . يشكل به الفلكي اسقاطاً مخروطياً للقبة السماوية على سطح خط الاستواء ابتداء من نقطة القطب وتظهر دائرة الليل الزاوي واحداثيات السمى على صفائح

(١) - أقدم كتاب عربي في الاسطرلاب كتبه ما شاء الله المنجم (في القرن التاسع) . أما أقدم جهاز موجود منه فيعود الى القرن العاشر وهو من صنع أصفهان . الاسطرلاب أهم

العهد الفاطمي . المنصور بعد ذلك شجع هذا العلم . محمد بن ابراهيم الفزاري المتوفى سنة ٧٧٧ م نقل له كتاب السند هنتا الى العربية (صار يعرف بالسند هند) ووضع اول اسطرلاب في الاسلام (آلة قياس ارتفاع النجوم) . ترجم ابو يحيى البطريق للمنصور كتاب الاربع مقالات في صناعة الفلك . كما قاس له العلماء في بغداد ودمشق طول درجة نصف النهار . في عهد الرشيد بعد ذلك

عربت التقاويم البهلوية التي عرفت بالزيج (٦) ووضع الخوارزمي زيجه الذي اشتهر به . والذي صححه فيما بعد مسلمة المجريطي المتوفى سنة ١٠٠٧ م ونقل الى اللاتينية سنة ١١٢٦ م . جاء التأثير اليوناني متأخرا الى علم الفلك بتعريب كتاب المجسطي لبطليموس الذي ترجم مرتين في فترة ثلاثين سنة . ولكنه صار بسرعة كتاب الفلك الاساسي لدى العلماء .



(٢) - من آلات العرب الفلكية . جهاز ذات الحلق . وهو ذو شكل كروي يحوي خمس دوائر نحاسية احداها لتصف النهار . وأخرى لمعدل النهار . وثالثة لمنطقة البروج . والرابعة لدائرة

الميل . ولها أنواع عديدة . وقد تصنع بشكل ضخيم ومن الخشب كما نرى في صورة من مخطوط شاهنشاه نامه (القرن السادس عشر) .

(٣) - رغم رفض علماء الدين للتنجيم . ظلت عملياته موجودة . الخلفاء العباسيون والفاطيون جعلوا للمنجمين مكانهم في البلاط . عدد من علماء الفلك المسلمين كانوا

يتنقلون بسهولة من علم الفلك الى التنجيم والتنبؤ الميتافيزيقي بالمستقبل . صور الأفلاك الاثني عشر رسمت على هذا الطبق للملك المعز الأيوبي (القرن ١٢) .

علماء الفلك العرب

في عهد المأمون مطلع القرن التاسع تمت أول الأرصاد المنظمة . استخدمت فيها أدوات على جانب من الدقة صنعت في جنديسابور . جرى ذلك في مرصد فلكي أقامه المأمون بجانب دار الحكمة . حيث قامت أرصاد منظمة لحركات الأجرام السماوية . بنى المأمون مرصدا آخر في جبل قاسيون بدمشق . حين جاءها سنة ٨٣٠ . مكانه لا يزال موجودا .

في الوقت نفسه كانت بعثتان فلكيتان تقيسان طول درجة العرض الأرضية قرب تدمر وفي بادية سنجار . بغية تحديد حجم الأرض ومحيطاتها . جاءت قياساتهم المسجلة قريبة كل القرب من القياسات العلمية اليوم . عمل في هذه المسألة نفسها بعد ذلك بنو موسى بن شاكر (أواسط القرن الثالث) الذين كان لهم في منزلهم ببغداد مرصدهم الخاص . اشتهر معهم معاصروهم أبو العباس



(٤) - كتاب (صور الكواكب الثابتة) لعبد الرحمن الصوفي (ت سنة ٩٨٦) من روائع كتب الفلك المصورة الملونة . ألهم الكثير من الفنانين لرسم الأفلاك بأشكال مختلفة منها الصورة المأخوذة من مخطوط كتب في القرن الرابع عشر .

(٥) - قياس الزمن آليا . كانت له دوما وسائله . العرب صنعوا الساعات المزولية كما صنعوا الساعات المائية ومنها ساعة مدرسة بوعنانية في فاس .

(٦) - الزيج . كلمة فارسية الأصل . استخدمها العرب للدلالة على الجداول التي كان

الفلكيون يحسبون بها سير الكواكب سنة بعد سنة . ويستخرجون التقاويم منها . وهي كثيرة ومتعددة . هنا الصفحة الأولى من زيج أولوغ بك الأيلخاني حفيد هولاكو في إيران (حكم ١٣٠٤ - ١٣١٦) . مأخوذة عن المخطوطة الأصلية لهذا الزيج وقد زينت بما يتفق

مع نسخ الكتب الملكية من تذهيب وتزيين .

(٧) - لغة الرياضيات العربية القديمة لها مصطلحاتها التي تستعجم على المحدثين . الصورة تتناول تصحيح نصير الدين الطوسي (ت ١١٧٣) لبديهيّة أقليدس في المتوازيين .

الفرغاني الذي أمره المتوكل (قتل سنة ٨٦١) بعمل مقياس النيل في الفسطاط بمصر سنة ٨٦١ . وقد كتب المدخل الى علم هيئة الافلاك الذي نقل الى اللاتينية والعبرية في القرن الثاني عشر .

اشتهر من علماء الفلك بعد ذلك عدد كبير (٤) ألفوا الكتب وعملوا الارصاد والأزياج الهامة . من أهمهم محمد بن جابر البتاني الصابيء الحراني (٨٥٠ - ٩١٨ أو سنة ٩٢٩) ولعله أعظم فلكي في الاسلام . أجرى ارصاده في الرقة واصلاح أخطاء بطليموس وضبط مقدار انحراف دائرة البروج وحساب أفلاك الكواكب . اثبت امكان كسوف الشمس الكامل .

ومن مشاهير الفلكيين ابو الوفاء البوزجاني (ت سنة ٩٩٨) وأبو الريحاني البيروني (سنة ١٠٤٨) . جاء بعده عمر الخيام الشاعر المعروف (١٠٤٨ - ١١٢٣) وكان من كبار الفلكيين والرياضيين . وجاء بعدهم نصير الدين الطوسي (١٢٠١ - ١١٧٣) .

أجهزة الفلك والمراصد

استخدم العرب في الرصد أنواعا من الآلات منها ذات الحلق (٢) والاسطرلاب (١) وذات السمات . والارتفاع . وذات الشعبتين وغيرها . بالاضافة الى المراصد التي كان منها المرصد البويهى في بغداد . والمرصد الحاكمي أقامه الفاطميون على جبل المقطم بمصر . ومرصد مراغة الذي بناه هولاءكو سنة ٦٥٧ وعمل فيه الطوسي . ومرصد الخيام في نيسابور ومرصد البتاني في دمشق وأولوغ بك في سمرقند . كانت تقوم بجانب هذه المراصد أحيانا مكتبات من أهمها مكتبة

المرصد الايلخاني التي كانت تحوي - كما قيل - ٤٠٠ ألف مجلد .

الرياضيات

تطور الحساب على أيدي العرب . بابتكارات ما تزال الأساس فيه . كان اليونان والعرب يرقمون بالحروف . يعطونها قيما عددية . اقتبس العرب عن الهند مجموعتين من الرموز للأرقام . وأقاموا منها سلسلتين عرفت احدهما بالهندية والأخرى بالعربية . انتشرتا تدريجيا . وخاصة في القرن ١١ م . فما تزالان أساس الترقيم العربي والاجنبي الى اليوم . نظم العرب المراتب العددية وابتكروا علامة الصفر بشكليها (٠ و 0) ولم يكن ذلك أقل شأنا من ابتكار الأجدية . عمل على تطوير الحساب محمد بن موسى الخوارزمي أيام المأمون . وهو نفسه الذي ابتكر علم الجبر . كتب سنة ٨٢٥ كتاب الحساب الهندي وسنة ٨٣٠ كتاب الجبر والمقابلة . ما يزال هذا العلم يحمل الاسم نفسه الى اليوم . لأنه أخذ منزلة اقليدس (٧) في الهندسة وبتليموس في الفلك . وكثرت شروحه وترجماته في مختلف العصور . وفي الكتاب لأول مرة وضع أساس الهندسة التحليلية . واللوغاريتمات التي تحمل اسمه . من اشهر الرياضيين بعده . الكرخي (توفي بين ١٠١٩ - ١٠٢٩) وعمر الخيام .

بالاضافة الى هذا كله . أوجد العرب علم التفاضل والتكامل . وعنوا بالجذور الصماء . أما علم المثلثات فيعتبر علما عربيا كاملا . لأن العرب فصلوه عن الفلك ونظموه . وأضافوا اليه الكثير من النظريات والمصطلحات .

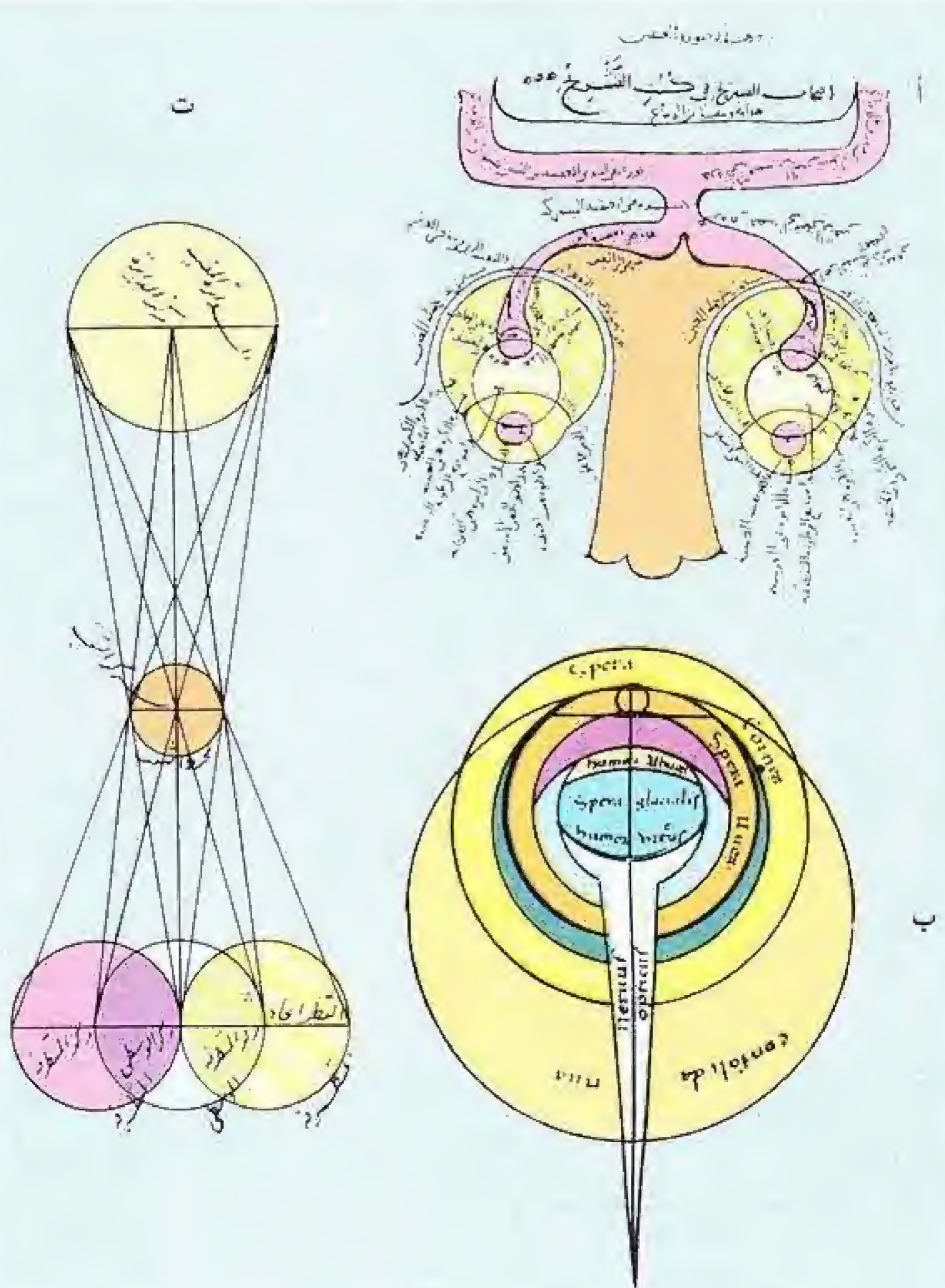
الكيمياء والفيزياء عند العرب

السحرية « التي يمكن بها تحويل المعادن الخسيسة الى معدن ثمين . هذا السر أعطى الكيمياء اسم « الصنعة » عند العرب . وضلل الكثيرين ممن عملوا بهذا العلم في القديم .

كانت كتب الكيمياء أول ما ترجم من تراث الأوائل في الاسلام . حفيد معاوية الأول خالد بن يزيد (المتوفى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م) كان أول من اهتم « بالصنعة » . يقولون انه اراد أن يغني أصحابه بدل

قبل الاسلام بقرون كان تراث الكيمياء قد اتصل بأفكار سحرية ونظريات ربطته بالأفلاك تارة وبالسحر تارة . وكان أهم الاسرار المغرية فيه هو ما سمي بحجر الفلاسفة أو « الاكسير » ويعني « المادة

(١) - « البصريات » كانت ميدان الحسن بن الهيثم غير منازع . هو أعظم باحث فيها ما بين اقليدس وكبلر . كتابه « المناظر » الذي كتبه في مصر في النصف الأول من القرن ١١ ونشر لأول مرة في مدينة بال سنة ١٥٧٢ هو أهم مؤلف في البصريات ظهر حتى العصر الحديث . يكشف فيه عن براعته الطبية في تشريح وفيزيولوجية العين بجانب براعته الفيزيائية في تحليل عملية الابصار والنظر . ابتكر مخرطة يصنع بها العدسات لتجاريه . كشف قوانين الانعكاس الضوئي ووضع جداوله بالتجربة والاستقراء . درس سمك الطبقة الجوية وأثرها في رصد الظواهر السماوية وفي الشفق والغسق . الصورة (أ) من مخطوط له كتب سنة ١٠٨٣ تمثل مقطع العينين وأهم الأعصاب . (ب) تمثل المقطع نفسه في ترجمة لاتينية للكتاب في القرن ١٤ . (ت) دراسة كمال الدين الفارسي في القرن ١٤ للمسير الضوء في خط مستقيم من خلال غرفة مظلمة . بحثها ابن الهيثم قبله



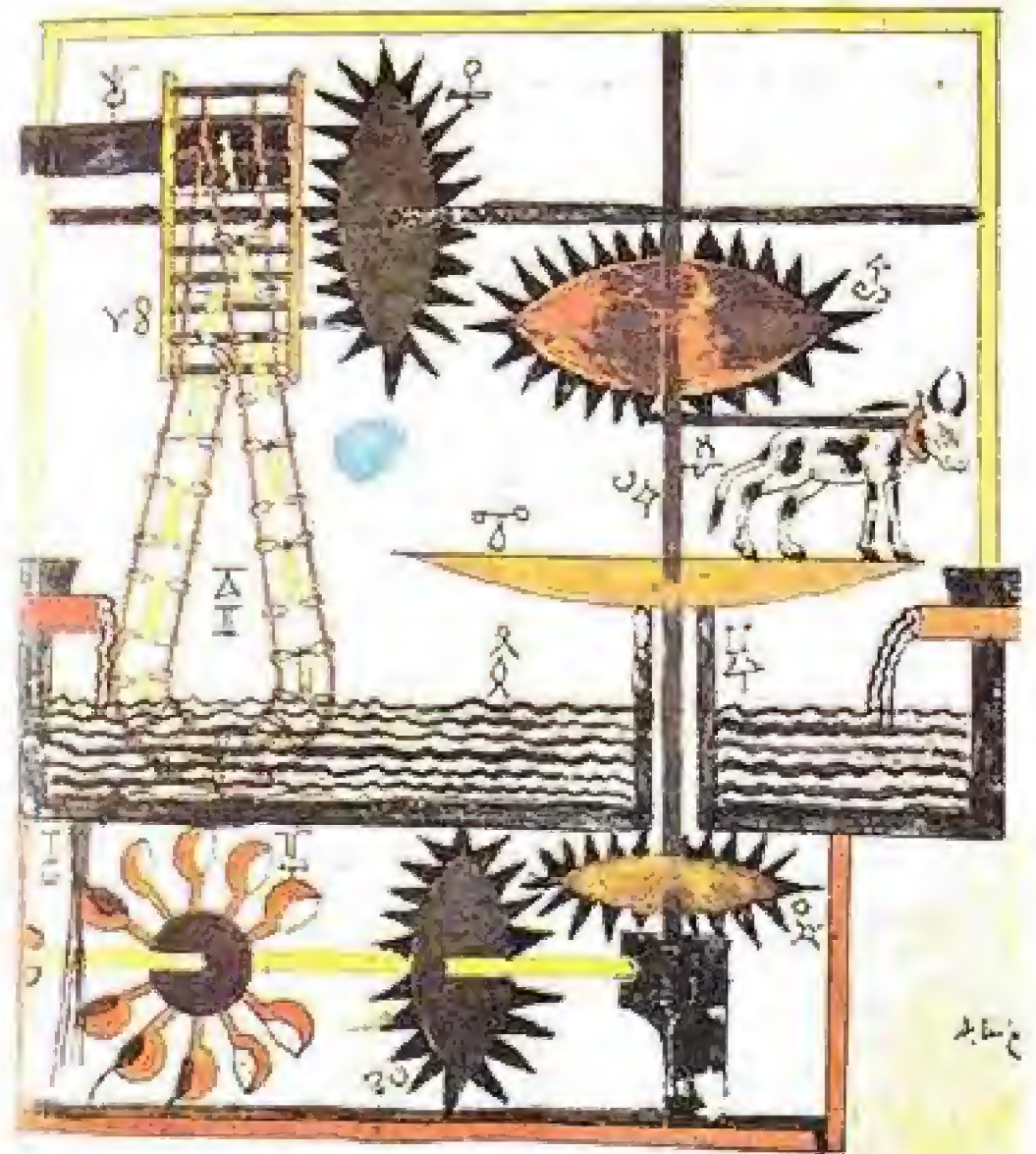
الخلافة . فترجم كتبها وعانى الكيمياء بنفسه . وعمل في تحلية مياه البحر . بجانب عمله في الفلك والعلوم الأخرى . يبدو انه لم يكن الوحيد . فانا نجد علم الكيمياء يتمخض في القرن الثاني للهجرة عن أكبر علمائها في التاريخ الاسلامي وغيره قبل العصر الحديث .

جابر بن حيان

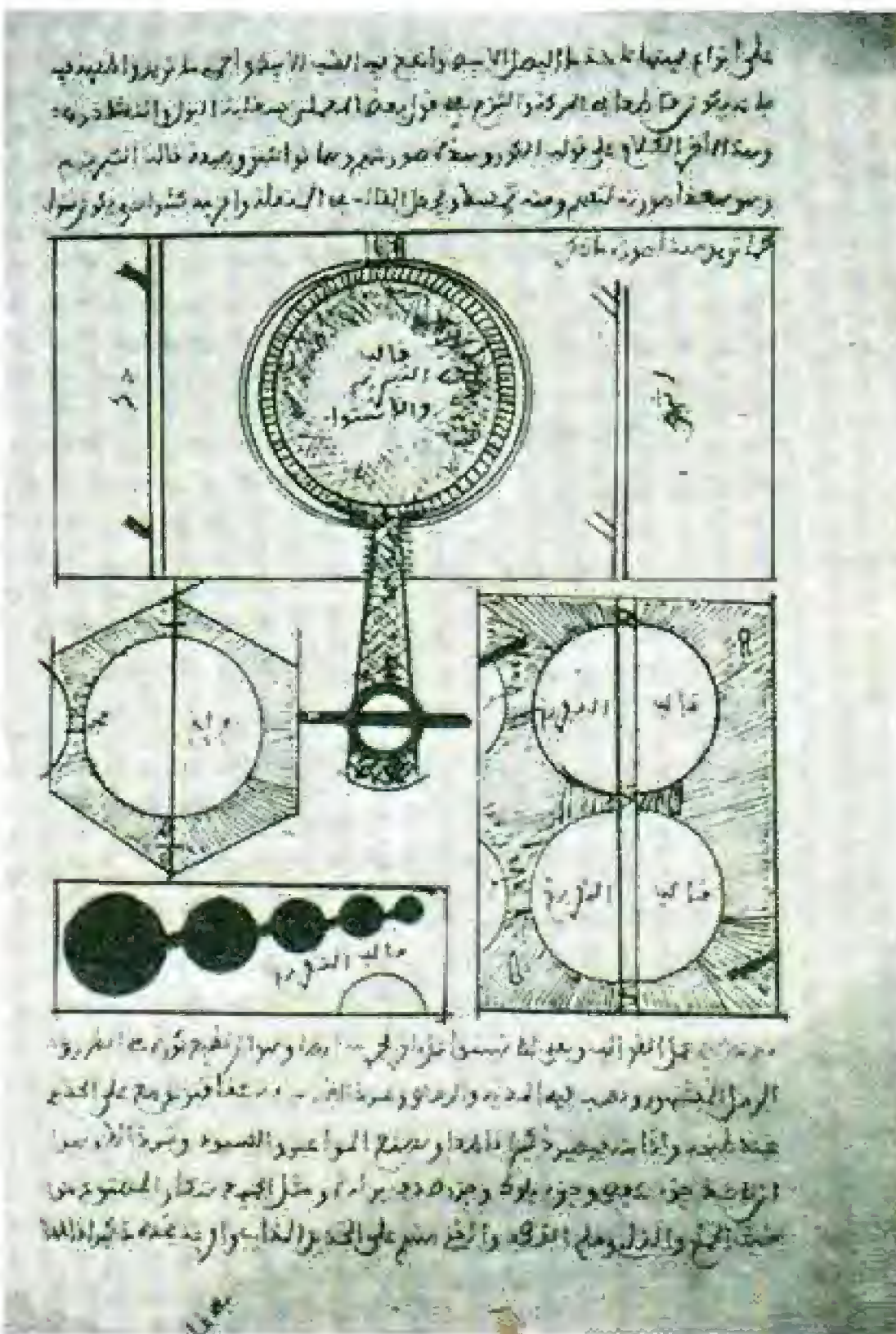
عاش أيام المنصور والمهدي والرشد (ما

بين حوالي سنة ١٣٠ وسنة ٢٠٠ هـ) . يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الكيمياء حتى سمي العلم : علم جابر . يعزى اليه تأليف (٢٥٠٠ كتاب و ١٥٠٠ رسالة . ثبت منها ٢٥٠ على الأقل . شأنه الهام هو في المنهج التجريبي (التدريب كما يسميه) الذي اتبعه وحاول فيه نقل الكيمياء من عمل سحري الى علم بالتجربة والملاحظة الموضوعية . أنزله ذلك من الكيمياء منزلة أرسطو من علم المنطق .

بمنزلة فلابد أن يكون له شأن في التاريخ
سيف زامن العبد والملك السيد وتليق الخزان والكبر الفخام



في



في

(٢) - ألف العرب في الآلات الميكانيكية الذاتية الحركة . وهم يسمونها علم الحيل . بلغ هذا النوع من المؤلفات ذروته في الكتاب الشهير الذي ألفه أبو العزاسماعيل بن الرزاز الجزري : « كتاب في معرفة

الحيل الهندية » . وهو يبيّن تنوع محتواه وجمال مخطوطه وما فيه من رسوم إيضاحية ملونة أصبح أشهر الكتب في مادته في الغرب . ورد فيه وصف خمسين آلة ميكانيكية منها هذه الآلة الرافعة للماء .

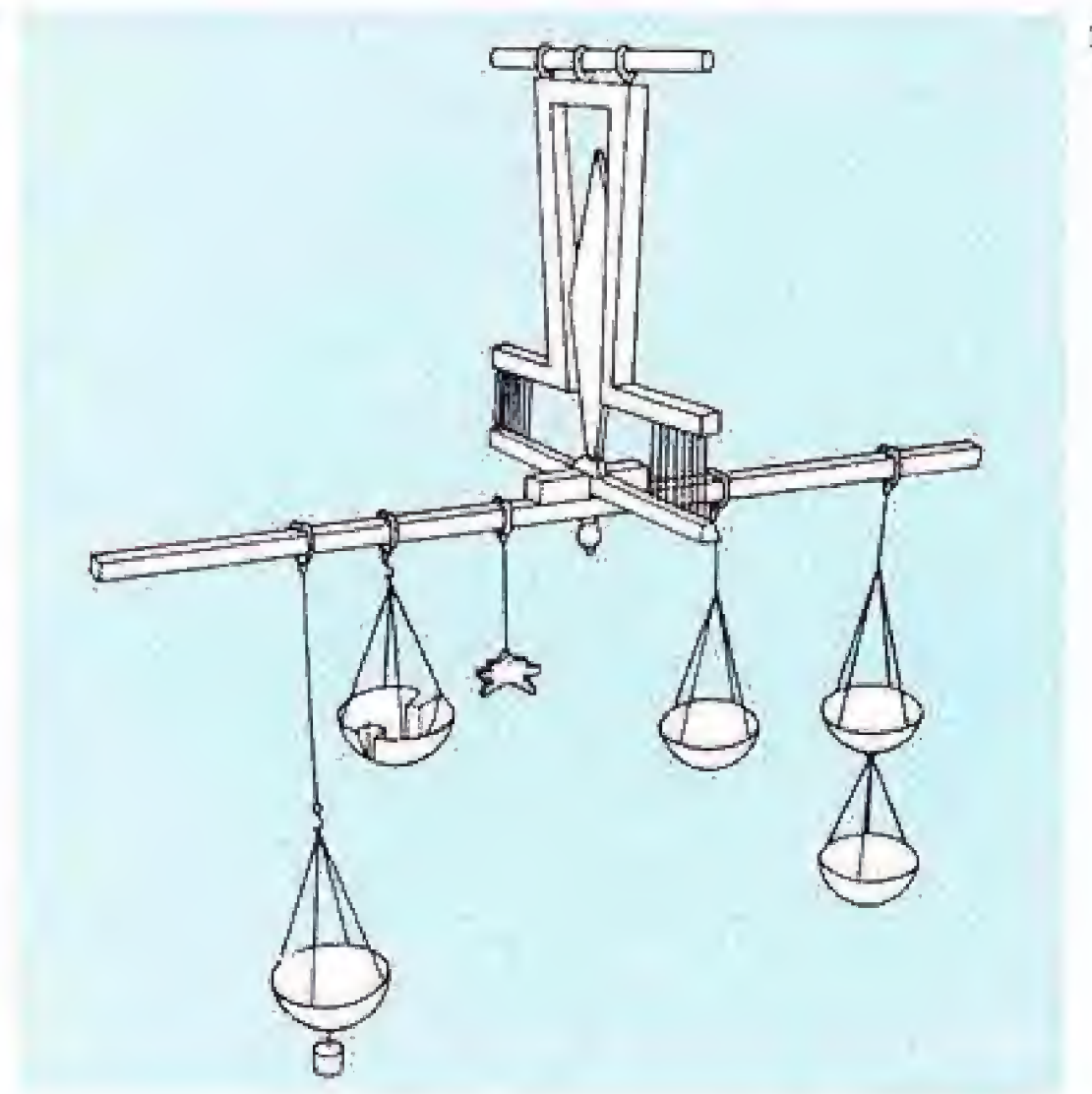
(٣) - عرف العرب وركبوا عددا من المواد الكيميائية المشتعلة . كما عرفوا البارود . نقلوا عن الصين ، الذين كانوا يستخدمون هذا المزيج من ملح التطرون مع نسب ملائمة من الكبريت والفحم في تفجيرات

استعراضية في الاحتفالات . منذ مطلع القرن الحادي عشر عرف في المغرب والأندلس استخدام البارود في صنع قذائف مدفعية . الصفحة مأخوذة من مخطوط مغربي (سنة ١٠٠٨) يشرح كيفية صنع المدفع .

جانب من الكتب التي تحمل اسمه ملفق . لكنها مع ذلك تمثل مدرسة جابر في الكيمياء . وهي المدرسة التي سادت من بعده في الكيمياء الإسلامية . ثم صارت بعد القرن الثامن هـ / ١٤ م ومن خلال ترجماتها اللاتينية . أشهر كتب الكيمياء وأشدّها أثرا في أوروبا وآسيا .

اشتغل بالكيمياء بعد جابر كثير من علماء المسلمين . منهم الرازي الفيلسوف

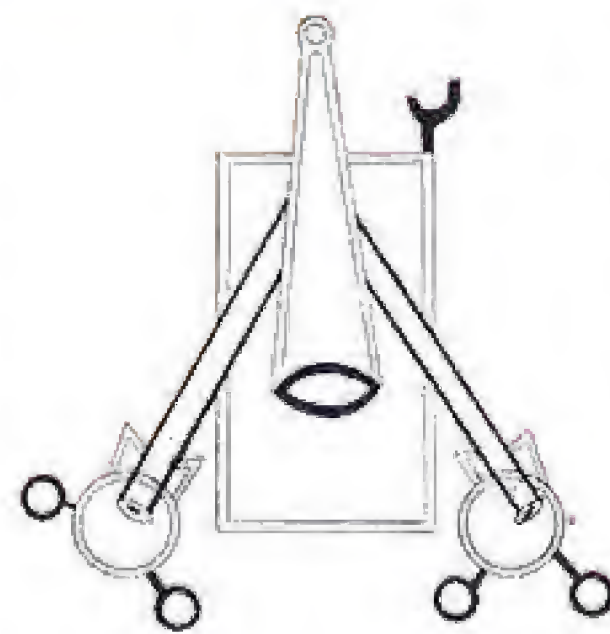
الطبيب (٨٦٥ - ٩٢٥) . وله في الكيمياء اثنا عشر كتابا ترجم معظمها الى اللاتينية . من أهمها (سر الأسرار) . ابتكر بدوره أجهزة كيميائية عديدة . منها المعدني ومنها الزجاجي . ووصف أكثر من عشرين منها . مع تفاصيل التجارب الكيماوية . اكتشف عددا من الحوامض . ممن جاء بعده أبو القاسم المجريطي (ت سنة ٤٠٠ / ١٠١٠) . كتابه في الكيمياء من أهم المصادر في تاريخها . وقد



(٤) - الفيزيائيون المسلمون أولوا عناية خاصة « للميزان » تفوق وظيفته كأداة وزن . أرادوه أداة عملية لتقدير الوزن النوعي للمعادن والسبائك . محاولاتهم بدأت منذ عصر المأمون . البيروني خطا خطوات كبيرة في هذا الميدان . قدر فيه الوزن النوعي لثمانية عشر عنصرا ومركبا من الأحجار الكريمة والمعادن . الصورة تخطيط هيكلبي لبعض الآلات التي ابتكرها البيروني في هذا السبيل .

(٥) - موسى بن شاكر المنجم كان في خدمة المأمون أولاده الثلاثة برزوا في الهندسة والفلسفة والموسيقى والنجوم

أهمهم محمد (توفي سنة ٨٧٣) . كتبهم في الحيل اشتهر



لمافييه من وصف آلات الغريبة منها كيفية صنع آلة يذهب صوتهما -تين ميلا - والرسم هنا

هيكلبي حسب وصف الآلة (المخطوط في الفاتيكان) .

(٦) - كانت الصيدلة . في بعض تراكيبها ترفد الكيمياء أو تتصل بها . لم يكن ثمة فاصل بينهما الا فيما يتصل بالأهداف . فالكيمياء فلسفية الهدف بينما هدف الطب والصيدلة عمل مباشر . لذلك كانت كتب هذه العلوم تراثا مشتركا للعاملين فيها . كتاب الدرياق المنسوب لجالينوس مثل لذلك في صفحة المصورة (سنة ١١٩٩)

كالساعات والاعوية السحرية المتحركة
والنوافير والآلات المطربة (٢) .

توازن السوائل والبصريات

بحث السوائل وتوازنها وضغطها وتجمع
مياه الآبار والينابيع . قام به عدد من العلماء
منهم أبو الريحان البيروني (المتوفى سنة
١٠٤٨) الذي كان من أهم بحوثه دراسة قوانين
الوزن النوعي (٤) . وبرز عبد الرحمن
الخازن (حوالي ١١٠٠ - ١١٥٠) مؤلف ميزان
الحكمة في بحوث الضغط الجوي والجاذبية
والثقل وغيرها في الصوت وسرعته . وفي
الموسيقى الرياضية .

أهم من كل ذلك أبحاث العرب في
الضوء : اشتهر بها الحسن بن الهيثم (١)
(٩٦٥ - ١٠٣٩) أعظم علماء الاسلام في علم
الطبيعة : عاش في العراق والشام ومصر زاهدا
يحترف الوراقة والنسخ . اقترح بناء سد
أسوان . ألف مائتي كتاب علمي منها كتاب
(المناظر) أهم المؤلفات استيفاء لبحوث
الضوء قبل العصر الحديث . بهذا الكتاب
وضع ابن الهيثم علم البصريات على أسس
جديدة منظمة استحق معها لقب أبي
البصريات .

لم يأت بعد ابن الهيثم من يوازيه بين
علماء المسلمين في هذا المجال . ولكن قطب
الدين الشيرازي (١٢٣٦ - ١٣١١) في مرصد
مراغة (في القرن ١٣) . هو الذي ناقش آراءه
في كتابه (نهاية الادراك) . وكان أول من
قدم تحليلا كيفيا لظاهرة قوس قزح .
وانتشار الضوء . وتبعه تلميذه كمال الدين
الفارسي (١٣٢٠) فكتب شرحا هاما على ابن
الهيثم في كتاب (تنقيح المناظر) .

ترجم الى اللاتينية . وعلي الجلدكي الذي
عاش في مصر والشام (ت حوالي سنة ٧٤٤ /
١٣٤٣) . قضى الحياة في جمع كتب الكيمياء
وتفسيرها كما ألف الكثير . جميع هؤلاء
استغرق « الاكسير » معظم جهودهم لكنهم
من خلال ذلك . طوروا العمليات الكيماوية .
وابتكروا الكثير من أدواتها . وحسنوا عددا من
الصناعات كالخزف والزجاج والصابون
والعطور واستخدام البارود (٣) ووطدوا مبدأ
التجربة في هذا العلم .

علم الحيل

ورث العرب بين ما ورثوا وترجموا من
علوم الاوائل مباحث كثيرة في الفيزياء . لعل
أهمها : كتاب (الطبيعة) لأرسطو وكتاب
الحيل الروحانية لأبرن وكتاب هيرون الصغير
في الآلات الرافعة . منذ القرن الثاني
استوعبت الثقافة العربية هذا التراث وتجاوزته .
وساعة الرشيد الدقاقة مشهورة . انها أحد
تطبيقات علم الحيل (التكنولوجيا
الميكانيكية) الذي يقسمه العرب الى مبحثين
الأول : جر الأثقال بالقوة اليسيرة والآلات
التي تقوم بذلك . والثاني في آلات الحركات
وصناعة الأواني العجيبة .

في هذا الميدان برز ابناء موسى بن
شاكر (أواسط القرن الثالث) . وضعوا في علم
الحيل كتابا يحوي مائة تركيب ميكانيكي .
عشرون منها ذات قيمة عملية (٥) . يبرز من
بعدهم رضوان بن محمد الساعاتي الذي كتب
حوالي سنة ١٢٠٤ كتابا في الساعات . في
ذلك الوقت سنة ٦٠٢ ترك لنا ابن الرزاز
الجزري كتابا هاما وصف فيه بعض اعمال
الميكانيكا والديناميكا التي قام بها

الفلسفة عند العرب^(١) القضايا الفكرية

نشأت الفلسفة بالمعنى المعروف للكلمة في أيونيا (على سواحل آسيا الصغرى) في القرن السادس ق. م. ثم كانت من أهم نشاطات الفكر الإغريقي ثم الهلنستي المشرقي من بعده. لفظة فلسفة (فيلو -

صوفيا) يونانية تعني حب الحكمة. العرب اقتبسوها. استعملوا أحيانا كلمة حكمة لبعض معاني الفلسفة.

اعتبارا من العهد الأموي بدأت بعض الأفكار والرسائل الفلسفية بالدخول إلى الثقافة العربية الناشئة. مع التوسع في ترجمة علوم الأوائل في العصر العباسي الأول، دخل إلى العربية بالتدريج كل تراث الفلسفة القديم تقريبا. نقله التراجمة علماء السريان



(١) - أبو الوفاء المبرور بن فاتك
الدمشقي (ت ١١٠٦) من قواد
الفاطميين ومن العلماء
الموسوعيين أيضا. شارك في الطب
والهيئة والرياضيات والفلسفة
والتاريخ. تتلمذ على يد
الحسن بن الهيثم. كتب
العديد من المؤلفات،
كتاباه مختار الحكم
ومحاسن الكلم. يجمع

أهل الشام والجزيرة والعراق . كما ساهم في ذلك الفرس . أدخلوا الى العربية أعمال أفلاطون وأرسطو (٢) وفيثاغورث وأفلوطين الاسكندري وغيرهم . مع كوكبة المصطلحات الفلسفية . ومجموعات المشاكل في المنطق وما وراء الطبيعة والأخلاق وغيرها . لم يترجم هذا التراث بأشكاله الاغريقية الأولى ، ولكن في الاشكال الأخيرة التي وصلها بعد ان تداولته المذاهب والآراء في المشرق أكثر

من اثني عشر قرنا . واختلطت فيه الشروح بالأفكار . بل نحتت فيه بعض الكتب لغير أصحابها (مثل كتاب الربوبية المنسوب لأرسطو باسم اثولوجيا . وهو مقتطفات من تاسوعات افلوطين والافلاطونية الحديثة) (٤) .

التوفيق بين العقل والنقل
من جهة أخرى ، دخل التراث الفلسفي

أفلاطون في هذه الفلسفة اختلطت بأفلوطين والافلاطونية الحديثة . أما صورة أرسطو فبقيت أكثر صحة . واعتبر دوما المعلم الأول . كتابه في المنطق (قاطيغوراس = المقولات) كان أشهر كتب الفلسفة . ويليه كتبه في الطبيعيات ، ويليه ذلك كتبه في الخلفيات .



(٣) - لم يكن سقراط صاحب نظام فلسفي . ولا يظهر كذلك في الفكر الاسلامي . وانما أخذ على أنه حكيم ، وصاحب آراء في الالهيات والطبيعيات والسياسة . ومن هنا كانت اضافته الى تراث الحكم . الذي تلقت فيه حكمة الهند وفارس بتراث الاغريق . نجده في مخطوطة مختار الحكم مرسوما . مع تلاميذه بملامح اسلامية . يقول القفطي عنه في أخبار الحكماء : « له وصايا شريفة وآداب فاضلة وحكم مشهورة ومذاهب في الصفات قريبة من مذاهب فيثاغورث وايبندقليس . الا انه له في شأن المعاد آراء ضعيفة بعيدة عن محض الفلسفة » .

(٤) - بسبب المنطق وقبول الفكر الاسلامي له أداة علم وحقيقة كان اسم أرسطو أكثر أسماء الفلاسفة الاغريق تداولوا وقبولاً في الفلسفة الاسلامية . صورة رسمت في القرن ١٣ في سوريا . نجد على غلافها صور عدد من هؤلاء الحكماء ومنهم فيثاغورث وجالينوس ووصولون .

أخبار الحكماء الاغريق وأقوالهم في مواضيع فلسفية وطبية وتاريخية . فهو يلخص الحكمة في عصره . نسخته المصورة الموجودة في طوبقو . التي

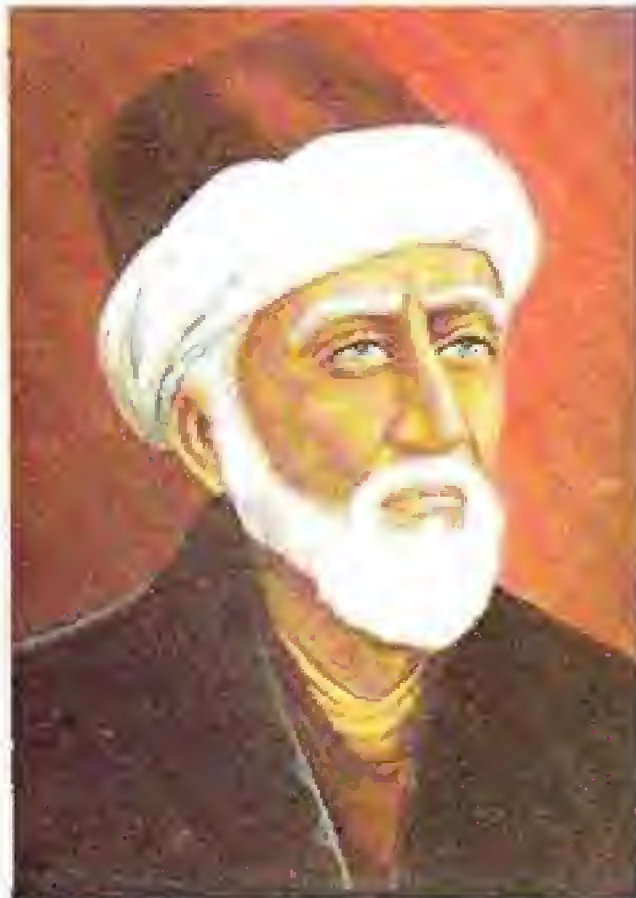
مختلطا بعلوم الأوائل . لأنه كان جزءا منها .
ولأن التراجمة كانوا مثل أسلافهم وأخلافهم
موسوعيين ، يرتبط الطب والفلك لديهم
بالكيمياء والفلسفة . ظل الأمر كذلك طوال
التاريخ الاسلامي . فصل العلوم عن الفلسفة
وهي « أم العلوم » إنما تم متأخرا جدا في
القرن السابع عشر . وإذا اهتم اصحاب الفلسفة
في الاسلام باحصاء العلوم وتبويبها . فلأنهم
كانوا يرمون الى الدفاع عن العلوم الدخيلة .

والى ايجاد الصلة بين العلوم النقلية . وبين
علوم الأوائل (ومنها الفلسفة) التي سماها
العلماء المسلمون بالعلوم « العقلية » الدخيلة .
ووضعوها منذ البدء . موضع الشبهة ورفضوها .
رغم استخدامهم أدواتها الفكرية . الصراع معها
ملأ تاريخ الفكر الاسلامي كله . بذل رجال
العلوم العقلية الكثير من الجهد للتوفيق بين
العقل والنقل . واقامة الجسور بين الدين
والفلسفة . كانت هذه القضية من أكبر هموم

نظرية الفيض (الأفلاطونية المحدثة)

(الواحد : الواجب الوجود أو الموجود الأول)

العقل الأول	الفلك الأقصى (أو المحيط)
العقل الثاني	فلك الكواكب الثابتة
العقل الثالث	فلك زحل
العقل الرابع	فلك المشتري
العقل الخامس	فلك المريخ
العقل السادس	فلك الشمس
العقل السابع	فلك الزهرة
العقل الثامن	فلك عطارد
العقل التاسع	فلك القمر
العقل العاشر	عالم ما تحت القمر
(أو النقال)	(أو عالم الكون والفساد) فيه التحريك / الصور الجوهرية / الصور العقلية



مقولة . وتحوي
مؤلفاته الكثير
من المقتطفات
المستفيضة من
محاورات أفلاطون
وغيرها فهرس
مؤلفاته كان
يملاها ورقة
وكان على
علاقة وثيقة
بابن سينا
وكبار
مفكري عصره .

بلوغه مرتبة الاتصال . لهذا
يدعى « بواهب الصور » .
(٥) - لم يكن أبو الريحان
البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨) فيلسوفا
بالمعنى المتعارف . لكنه كان
علما من أعلام الفكر العربي
الموسوعي . ومن اهتماماته
الفلسفة بدقائقها وما يتصل بها
من الفلك والرياضيات
والطب . درس معتقدات الهند
وقارنها بنظائرها اليونانية في
كتابه : تحقيق ما للهند من

(٤) - نظرية الفيض . ركن من
أركان الفلسفة العربية . لاسيما في
شكلها الأفلاطوني المحدث الذي
وضعه الفارابي وابن سينا . ترقى
النظرية الى أفلوطين (٢٨٠ م) .
وتقول انه يصدر عن الواحد سلسلة
من العقول (١٠) يحرك كل منها
فلكا من الأفلاك . أهمها العقل
الفعال . ومهمته تحريك العالم
الأرضي وافاضة الصور
الجوهرية (ومنها النفس) على
الموجودات لدى استعدادها .
والصور العقلية على العقل لدى

الفلاسفة منذ الكندي والفارابي حتى ابن رشد . لكنهم قاسوا في ذلك الكثير . كما اضطهدوا أحيانا أو قتلوا على الزندقة .

مع ذلك كله فإن النشاط الفلسفي لم يتوقف عبر التاريخ الفكري الاسلامي . ظلت مختلف المشاكل الفلسفية موضوع تأليف ودراسة . كانت لها أحيانا جماعات فكرية مثل جماعة (أخوان الصفا) التي ظهرت في البصرة أواسط القرن الرابع هـ (سنة ٩٧٠ م) ونشرت مجموعة من ٥٢ رسالة لخصت الفكر الفلسفي والعلمي للعصر . كانت متأثرة خاصة بالنظريات الفيثاغورثية وتحمل صبغة سياسية اسماعيلية . أهم القضايا التي عملت عليها الفلسفة الاسلامية ، بجانب التوفيق بين الفلسفة والدين . كانت : المنطق والميتافيزيقيا .

المنطق والأخلاق

يتصدر المنطق لائحة العلوم العقلية بوصفه - كما يقول فلاسفة العرب - آلة النظر . الغزالي يسميه معيار العلم . غايته تصحيح الأحكام . أهم ذرائعه القياس الذي يعتبر البرهان أعلى أشكاله . الفارابي كان أقوى منطقة الاسلام قبل أن يظهر ابن سينا وابن رشد .

الأخلاق ، تناولها أوائل الفلاسفة العرب ، كالفارابي والرازي . كان بين أيديهم مجموعة واسعة من الأقوال الحكمية المترجمة عن الفارسية والسريانية واليونانية مثل « مختار الحكم ومحاسن الكلم » (١) للمبشر بن فاتك (ت سنة ١٠٨٧ م) وتحمل من الناحية الفلسفية الطابع السقراطي (٢) والرواقي . ومثل كتاب الاخلاق النيقوماخية لأرسطو ، مع شروحه لفرفوريوس (ت سنة

٣٠٤ م) ، وكتاب الأخلاق لجالينوس (ت سنة ٢٠٠ م) . توفر الفلاسفة على شرحها وربطها بالفكر الاسلامي . أهمل ابن سينا الانتاج الاخلاقي . ولكن معاصره أحمد بن محمد مسكويه (ت سنة ٤٢١) صاحب (تهذيب الأخلاق) وغيره كان أعظم فلاسفة الاخلاق المسلمين . أسسها على قواعد نفسية وأفلاطونية متأثرة بأرسطو والرواقيين . ثم كان ابن رشد الوحيد بين فلاسفة الأندلس الذي كتب في الأخلاق . ألف فيها شرحا على الاخلاق النيقوماخية وصلنا في ترجمتين باللاتينية .

السياسة والالهيات

أهم من تناول السياسة أو العلم المدني . هو الفارابي الذي ألف عددا من المؤلفات السياسية أشهرها : آراء أهل المدينة الفاضلة « السياسات المدنية » . تأثر بمثالية أفلاطون في الجمهورية . وإن لم تكن تنطبق على واقع الحياة الاسلامية . فلسفته السياسية تنظر الى المجتمع او الدولة كنموذج مصغر عن العالم الأكبر (الكون) . فيما نظرت الى الفرد (النفس) كصورة مصغرة عن ذلك العالم . لذلك حاول الفارابي في مدينته تحليل صدور الموجودات عن الموجود الأول (الله) وارتباطها بعضها ببعض ولاسيما بالانسان . ابن رشد بعد ذلك وضع شرحا وتلخيصا لجمهورية أفلاطون سماه (جوامع سياسة افلاطون) . أما الالهيات (ما وراء الطبيعة) : فكانت القاسم المشترك بين جميع الفلاسفة . فالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد جميعا ، تشكل مواقفهم الميتافيزيقية لب فلسفتهم . على هذا الجانب من الفلسفة قامت الأفكار الاشراقية (٤) التي أسست الفكر الصوفي .

الفلسفة عند العرب^(٢) الفلاسفة

هذا بالإضافة الى الجدل المذهبي والسياسي ،
والى ترجمة بعض رسائل الفلسفة ، وخاصة
في المنطق ، الى العربية . في تلك الفترة
المبكرة ظهر « المتكلمون » في ذات الله
وصفاته وخلق القرآن ، وفي القدر وفي
مرتكب الكبيرة ، المصائر السيئة التي انتهى
اليها مشيرو هذه الافكار الدينية نجم عنها
أمران متباينان هما : علم الكلام وفصل علوم
الفلسفة عن الدين .

الملاحم الأولى للفكر الفلسفي في الاسلام
ظهرت أواخر القرن الأول الهجري (مطالع
٨ م) نتيجة تدبر القرآن من جهة ، والجدل
مع حملة التراث الفلسفي القديم ، في ما بين
النهرين والشام ومصر ، من جهة أخرى .

كبار رجال الفلسفة الاسلامية

٨٧٢ ت	رسائل فلسفية	الكندي (أبو يوسف يعقوب)
٩٣١ ت	كتاب التبصرة	ابن مسرة
٩٤٠ ت	استاذ الفارابي	متي بن يونس (أبو بشر)
٩٥٠ ت	أراء أهل المدينة الفاضلة	الفارابي (أبو نصر)
القرن ١٠	رسائل	أخوان الصفا
٨٩٢ - ٩٧٤	تلميذ الفارابي	يحيى بن عدي
٩٨٥ ت	صوان الحكمة	أبو سليمان المنطقي
١٠١٠ ت	المقاييس ، الامتاع والموازنة	أبو حيان التوحيددي
٩٨٠ - ١٠٣٧	الاشارات والتشبيهات ، الشفاء ، النجاة	ابن سينا
١٠٦٤ ت	بلوق الحمامة ، تأثر فيه بأفلاطون	ابن حزم
١١١١ ت	تهافت الفلاسفة ، المنقذ من الضلال ، احياء علوم الدين	الغزالي
١١٣٨ ت	تدبير المتوحد ، ومؤلفات طبية ورياضية	ابن باجة
١١٥٢ ت	كتاب الاعتبار	أبو البركات البغدادي
١١٨٥ ت	حي بن يقظان	ابن طفيل
١١٩٢ ت	فلسفته	السهروردي
١١٩٨ ت	تهافت التهافت ، شرح كتاب أرسطو	ابن رشد
١٢٠٤ ت	دلالة العائرين	ابن ميمون
١٢٤٤ ت		صنبر الدين الشيرازي

الاسماعيلي . حظيت الرسائل
بكثير من العناية وصورت
بعض مخطوطاتها . ومن ذلك
مخطوط السليمانية في
اسطنبول (الذي نرى غلافه) .
كتب في بغداد سنة ١٢٨٧ .

الحقيقة الدينية والفلسفية .
ووحدة الفلسفة والاسلام .
كانت الجماعة في نظامها
المتنافيزيقي الفيتاغورثي أكثر
الجماعات الدينية الفلسفية
تسامحا في الفكر . وتلتقي
أفكارها مع فلسفة المذهب

أخوان الصفا في ٥٢ رسالة تمثل
خلاصة الفكر العلمي والفلسفي
للعصر . كانوا يعتبرون
الرياضيات مفتاحا لأنفع
المعارف أي لمعرفة الذات التي
هي مقدمة لمعرفة الله . أخذوا
بتناسخ الأرواح وأعلنوا وحدة

(٢) - أخوان الصفا جماعة
فلسفية ، موسوعية الثقافة .
نذرت نفسها - كما قالت - للحق
وجدت في القرن ١٠ ولا يعرف
من اسمائها الا بضعة نفر . منهم
سليمان محمد بن مسعر البستي
الذي كتب باسم الجماعة رسائل

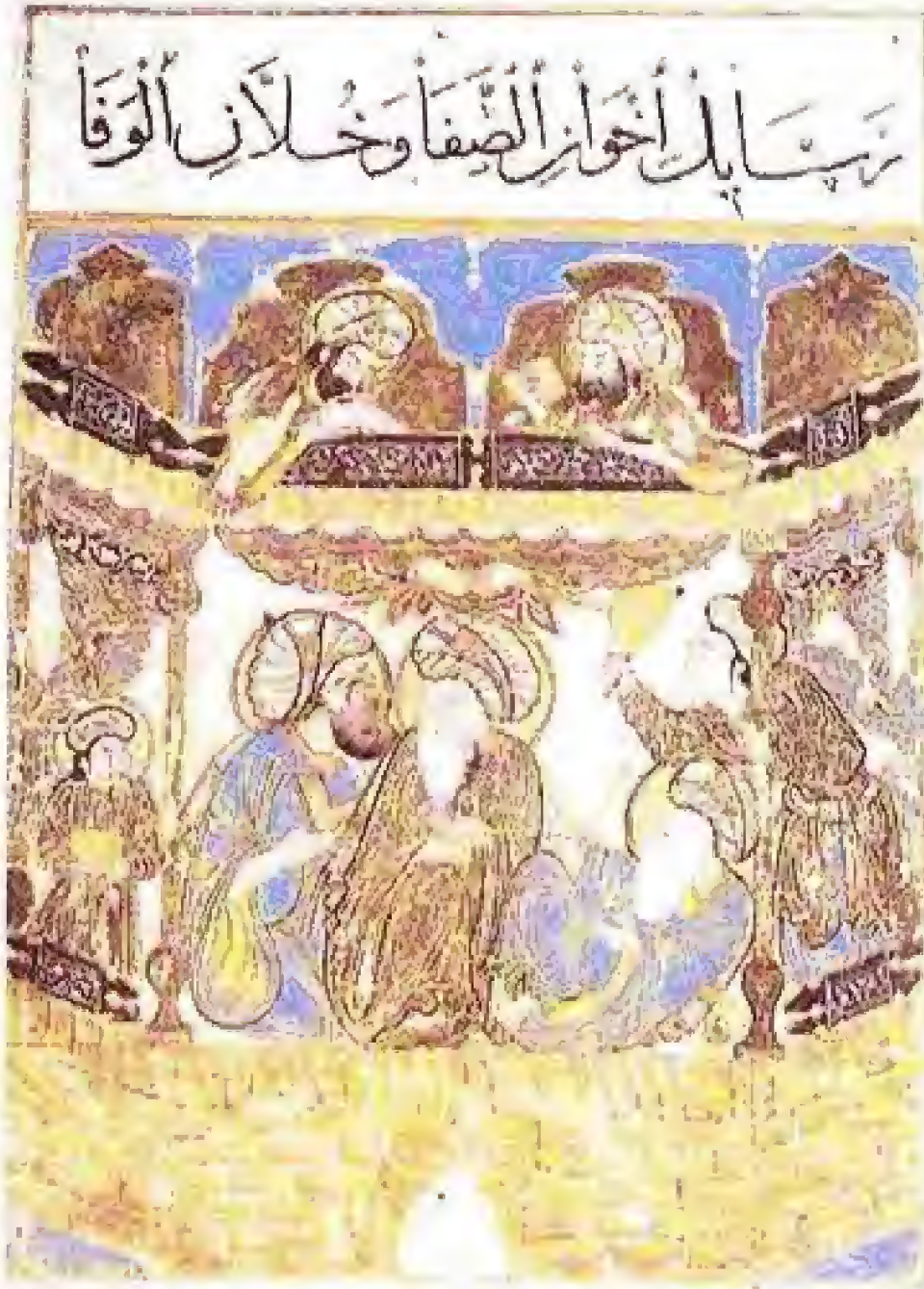
علم الكلام والاعتزال

ظهر علم الكلام للرد بالعقل والمنطق على الشبهات والشكوك الجدلية التي تثار في مسائل الدين . انه بعكس الفلسفة ينطلق من مسلمات العقيدة الدينية الاسلامية لتأييدها بالأدلة العقلية . ولكنه يستخدم الفلسفة نفسها لاثبات التوحيد . وقدم الصانع . وحدث العالم . وصفات الله وعدله . والنبوة . ومشكلة الجبر والاختيار . واكب هذا العلم تطورات

الفكر الديني الاسلامي كلها . وكان منه مذهب الاعتزال الذي طور مباحث علم الكلام وتوزع فرقا مختلفة قامت على أصول المذهب الخمسة : العدل ، التوحيد ، الوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف . انتشر الاعتزال خاصة في مطالع القرن التاسع وأصبح المذهب الرسمي للدولة العباسية آخر أيام المأمون وفي أيام المعتصم والواثق الذين أجبروا الناس على القول بخلق القرآن .

(٣) - الشيخ الرئيس

أبو علي الحسين ابن سينا (بخارى سنة ٩٨٠ - همدان سنة ١٠٣٧) من العقول الموسوعية الكبرى في الاسلام . برع في الطب والفلسفة رغم عمله السياسي . وله (١٠٠ مؤلف) من أهمها : كتاب الشفاء في الفلسفة وهو أربعة أقسام (المنطق ، الطبيعيات ، الرياضيات ، الالهيات) في ١٨ مجلدا . اختصرها ابن سينا نفسه في مجلد (النجاة) وللكتابين تراجم لاتينية وعبرية وشرقية وفرنسية وانكليزية قديمة . وشروح . كتابه الهام الآخر (القانون) في الطب (ب) ، أشهر كتاب طبي عربي عند العرب وفي الغرب حتى القرن السابع عشر . ترجم الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر . والى العبرية . طبع أواخر القرن الخامس عشر



سبع عشرة طبعة . بالإضافة الى طبعة عبرية . وطبعة بالعربية في روما سنة ١٤٧٦ في أربع مجلدات . (بعد اختراع



الطباعة بحوالي ثلاثين عاما) . بلغ تأثير ابن سينا الصين أيضا . وهناك حتى اليوم ترجمات صينية لبعض أعماله في الطب .

من كبار المعتزلة مؤسس المذهب واصل بن عطاء (ت ٧٤٩) وأبو الهذيل العلاف (٨٤١) وأبراهيم بن سيار النظام (٨٤٥) والجاحظ (٨٦٨) .

غير أن الموجة الاعتزالية اضمحلت تدريجيا ، وحمل الكلام بعدها عدد من علماء السنة أشهرهم أبو الحسن الأشعري (توفي سنة ٩٣٥) الذي وضع مذهب الأشعرية ، ونظم علم الكلام ، وقوض الاعتزال ، وإن ناهضه

الكثيرون من العلماء ، وبخاصة الحنابلة . تم بناء الأشعرية على يد الباقلاني (ت سنة ٤٠٣) ولكن الغزالي كان أقوى معبر عن هذا المذهب الذي ساد الفكر السني بعد تأسيس المدارس النظامية . وكان من أكبر انصاره الفخر الرازي الفيلسوف الطبيب (توفي سنة ٦٠٦) .

الفلسفة

في ميدان الفلسفة الخالصة اختلف

كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . ان يثبت ان لا تناقض بينهما . مع ذلك لقي ابن رشد الكثير من العنت بسبب افكاره الفلسفية . واضطهد أعنف الاضطهاد وأن يكن جانب من اضطهاده سياسيا . أحرقت مؤلفاته وكتبه وأبعد عن البلاط في قرطبة سنة ١١٩٤ ثم عفي عنه بعد سنتين . لكنه توفي بعد قليل . اشتهر ابن رشد في أوروبا شهرة كبيرة بسبب فكره الفلسفي وما قدمه من الشروح لأرسطو (٣٨ شرحا ترجمت مرتين الى اللاتينية في القرنين ١٢ و ١٣) ولهذا لقب بالشارح . ضاعت بعض كتبه بالعربية و بقيت في النصوص اللاتينية والعبرانية . نشأت من أفكاره مدرسة فلسفية في الغرب عرفت بالرشدية سيطرت حتى القرن ١٦ ودرست في الجامعات . المصورون الغربيون كانوا يصورونه مع فلاسفة الاغريق كما في هذا المخطوط اللاتيني من القرن الثالث عشر حيث نجد ابن رشد يتحدث مع بورفيروس .



سينا الذي اعتمد عليه الغزالي ، بإسائة فهم أرسطو أو تشويه آرائه . لأن ابن سينا في الواقع خلط بين مذهبي أرسطو وأفلاطون تحت تأثير كتاب « الربوبية » المنحول على أرسطو . فانهرف تماما على فلسفته الاصلية . بجانب كتب الطب . وضع ابن رشد عشرات التصانيف الفلسفية والشروح لمؤلفات أرسطو بالاضافة الى جمهورية افلاطون . وحاول في

عرض فيه بالهجوم الشديد لميتافيزيقيا الافلاطونية الحديثة ونظرتها الكونية ولل فلاسفة المسلمين وكبار اساتذتهم اليونان . وإن قبل المنطق فقط . ونهى عن الرياضيات . تصدى أبو الوليد ابن رشد (ت في مراكش سنة ١١٩٨) للرد على الغزالي في كتاب سماه تهافت التهافت . جعل همه فيه الدفاع عن أرسطو وفكره . واتهام ابن

(٤) . منذ أواسط القرن الحادي عشر ، ازداد التزمّت الفكري الديني . وازدادت الحملة على الفلسفة التي كانت قد تبنت بين المسلمين في الغالب الأفلاطونية الحديثة . أشد الحملات هي التي شنّها أبو حامد الغزالي (ت سنة ١١١١) . هذا المتكلم المتصوف الفذ . كان ذا ذهن متوقّد واستقلال فكري قل أن نجد لهما نظيرا . كتب كتاب تهافت الفلاسفة

التطور . بجانب ازدهار المنطق . كان العلم الرياضي يعتبر في الاسلام كما لدى أرسطو جزءا من الفلسفة .

تطرق معظم فلاسفة العرب الى الرياضيات ورأوا في علم العدد - كما لدى فيثاغورث - مفتاح جميع المعارف . بحثوا في علم المعادن والنبات والحيوان . اهتم كبارهم بعلم النفس خاصة وبالحس والخيال والارادة والحركة والعقل وتعبير الاحلام . كما كان يدخل في علم الطبيعة لديهم الظواهر الطبيعية . كانوا يربطونها بالأجرام السماوية . ويسبغون على هذه الاجرام (كما لدى الكندي واخوان الصفا) (٢) خواص شبه الهية . كان يتوج هذه البحوث كلها علم الالهيات أو علم ما وراء الطبيعة الذي يدعوه أمثال الكندي والفارابي بالفلسفة الاولى . أبرز الفلاسفة الذين أقاموا من هذه المواضيع هيكل الفلسفة الاسلامية هم :

- يعقوب بن اسحق الكندي (١٨٥ - ٢٥٦ / ٨٠١ - ٨٧٠) أول فلاسفة الاسلام . أسهم في الترجمة وفي التأليف الفلسفي (٢٣٨ رسالة) درس مشاكل الالهية والفلسفة الطبيعية وقوى النفس .

- أبو نصر محمد بن محمد الفارابي (٢٥٧ - ٣٢٩ / ٨٧٠ - ٩٥٠) ويسمونه بالمعلم الثاني (بعد ارسطو) درس وعاش في بغداد ٣٠ سنة ومات بدمشق زاهدا . له حوالي ٣١ مؤلفا تكشف تبحره في الرياضيات والكيمياء والفلك والموسيقى والالهيات والفقه والمنطق . حاول الجمع بين أفلاطون وأرسطو .

- ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ / ٩٨٠ - ١٠٣٧) الشيخ الرئيس الطبيب (٢) . له في الفلسفة كتاب الشفاء (١٨ مجلدا) . اختصره في

كتاب النجاة . وضع اساس الاتجاه الافلاطوني الذي سيظهر من بعده في المذهب الاشراقي .

- أبو حامد محمد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ / ١٠٥٨ - ١١١١) عاش مذاهب الفكر والتصوف والفلسفة . ترك من مؤلفاته مكتبة كاملة في العلوم الدينية والفلسفة . منها « تهافت الفلاسفة » و « احياء علوم الدين » .

الفلسفة في الأندلس

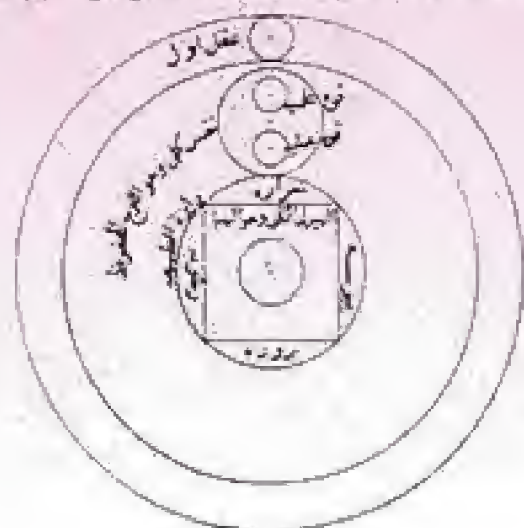
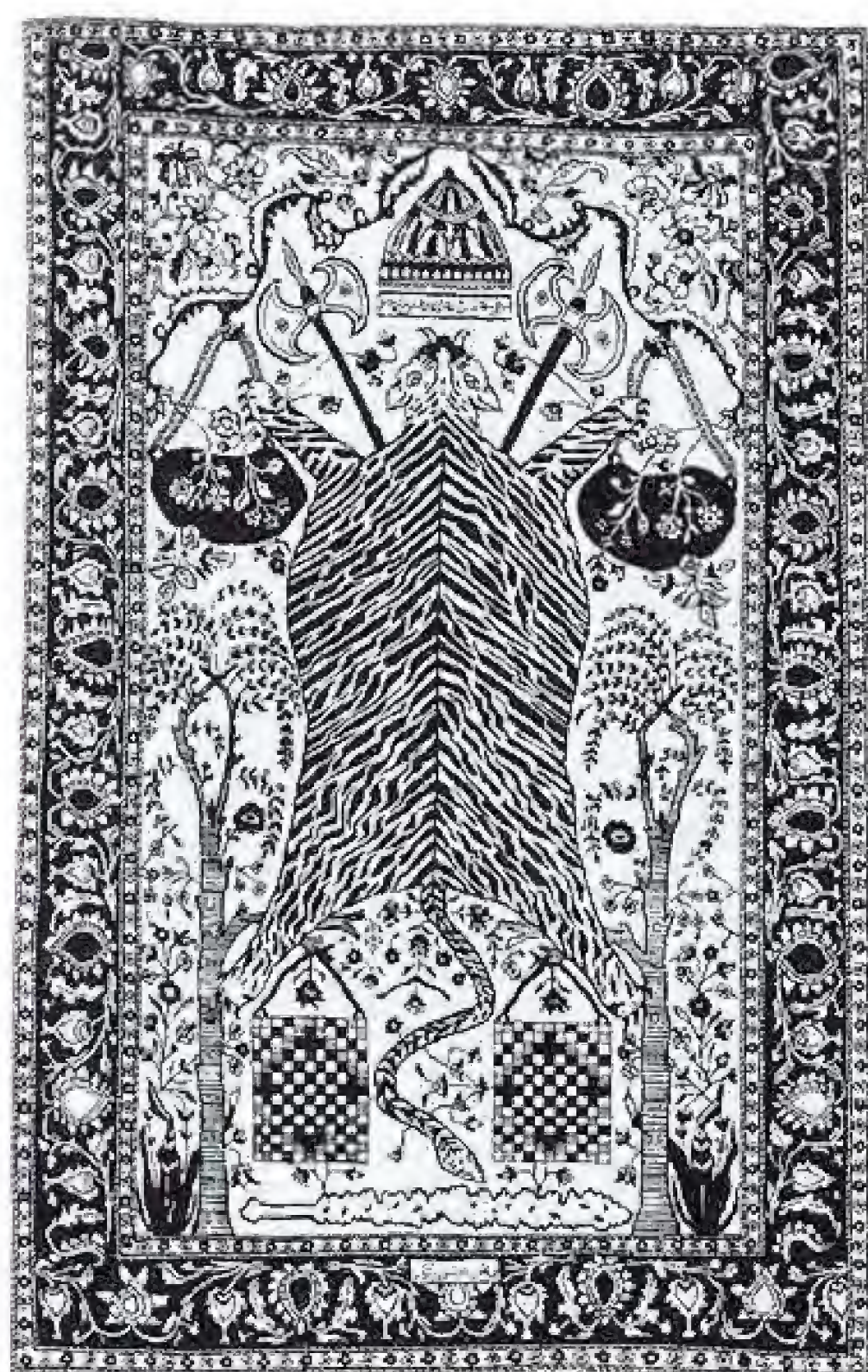
تميز الفكر الفلسفي هناك بالتوفر على التيار الاشراقي الذي استهله ابن سينا . والذود عن الفلسفة في شكلها الأرسطي . وأقدم فلاسفة الأندلس ابن مسرة (٨٨٣ - ٩٣١) المتأثر بالأفكار الغنوصية (العرفانية) والصوفية . والذي وجد الكثير من المقاومة . واضطر للفرار الى المشرق فترة . وقد انصرف كل من ابن باجة (محمد بن يحيى ١١٣٩) وابن الطفيل (محمد بن عبد الملك ١١٠٠ - ١١٨٥) الى مشكلة الاشراق (الحكمة المشرقية) . وبحثا طريق الوصول بالعقل وحده الى الله والحقائق الغيبية . كان طالب الحقيقة عند ابن باجة هو (المتوحد) الذي يصبو الى العزلة . ويسعى الى الاتصال بالعقل الفعال : وعند ابن الطفيل هو (حي بن يقظان) الذي نشأ وحيدا في احدى جزر المحيط الهندي . وانتهى الى أسمى المعارف دون مرشد . أما أهم فلاسفة الغرب الاسلامي فهو ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) من قرطبة (٤) . يلقب بدوره بالمعلم الثاني . انتصر لفلسفة أرسطو . وحاول التوفيق بين الفلسفة والدين . من خلال ابن رشد خاصة عرف الغرب ، منذ القرن الثاني عشر ، أرسطو والفلسفة الاسلامية .

التصوف في الاسرار السلام

كلمة التصوف التي اشتقت . على الأرجح . من لبس الصوف دلالة على الزهد ظهرت في الكوفة والبصرة . منذ أواسط الثاني الهجري (٨ م) . لتدل على بعض المتزهدين فيها . ما لبثت الكلمة بعد نصف

قرن . ان اوضحت تطلق على جميع المتصوفة
في العراق مقابل الملامتية . صوفية خراسان .
ثم انتشرت لتصبح بعد قرن من ذلك علما
على تيار من أهم تيارات الفكر في الاسلام .
وكانت رد فعل روحي وثورة ضمير على
المظالم الاجتماعية والتباين بين الدين
والعمل .

الأفكار الصوفية رغم التقائها في النهاية
في نقطة واحدة هي محاولة الاتصال بالله الا



(أ) - في العهد المغولي ، ظهر في المشرق عدد من كبار الشيعة النزاعيين إلى الصوفية الفكرية مثل آل طاووس والبهاء الأملي (ت بعد سنة ١٣٩٢) ، ثم ظهرت الحروفية في العهد التيموري مع فضل الله الاسترابادي (قتل سنة ١٤٠١) . تطورت الصوفية الشيعية من بعد وصار لها رموز خاصة نجدها على هذه السجادة (صنع إيران القرن ١٧) ومنها جلد النمر وانه الكدية والثوب المرقع . انه الكدية المزخرف (ب) نقش بآية الكرسي لبعض الكبراء (القرن ١٥) .

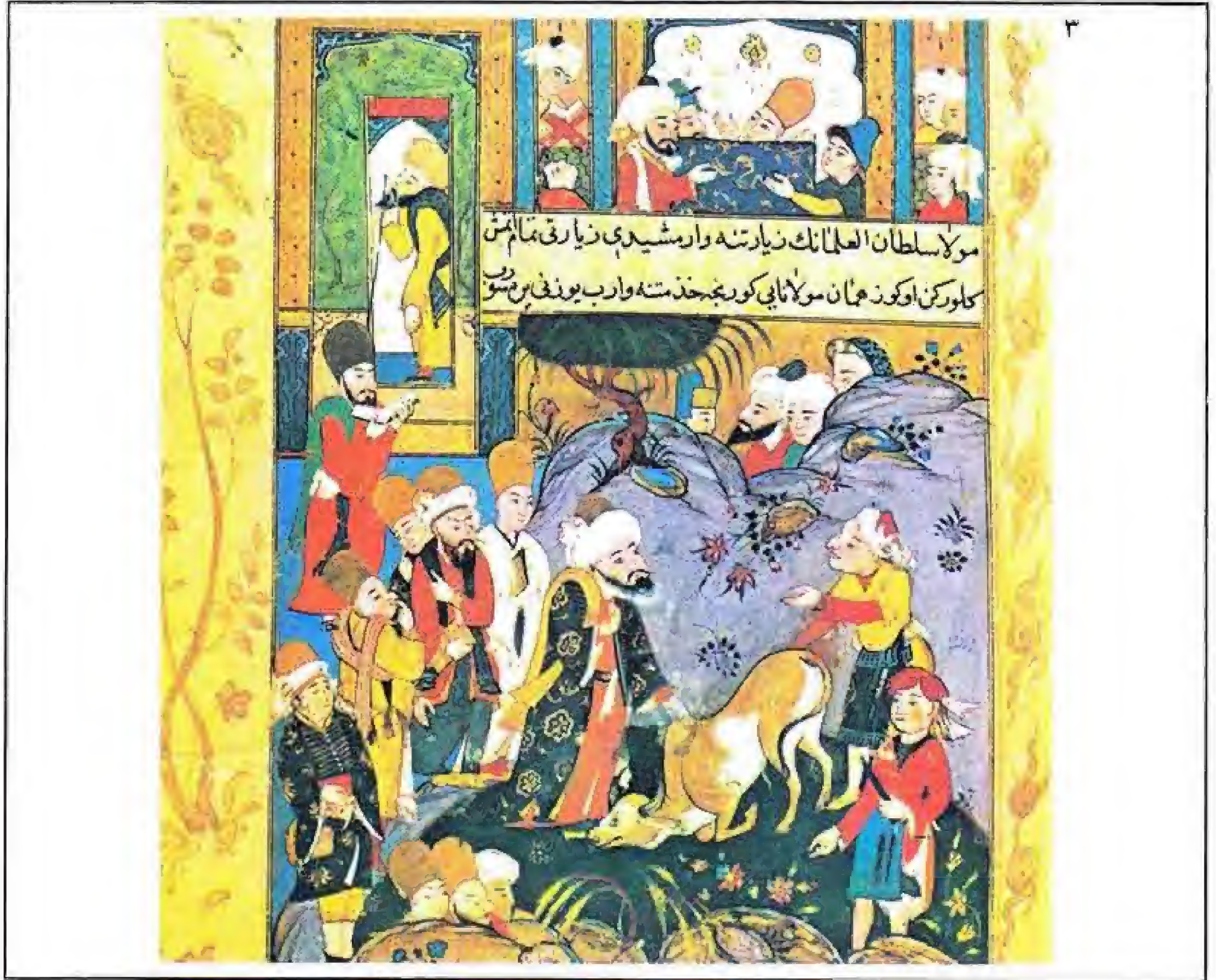
(٢) - محي الدين أبو بكر محمد الحاتمي الطائي الأندلسي . الصوفي المعروف بالشيخ الأكبر (١١٦٥ - ١٢٤٠) ولد بالأندلس ولكنه طاف المشرق حتى بغداد بعد أن حج وتزهد . اختلف الناس في عقيدته وكان قدوة القائلين بوحدة الوجود وفيض التعدد عن الواحد . توفي بدمشق . بنى السلطان سليم العثماني جامعاً فوق قبره . له حوالي ٤٠٠ كتاب ورسالة من أهمها الفتوحات المكية . ومنها هذان الرسمان اللذان يقدم فيهما بعض أفكاره بشكل هندسي متناظر .

ان هذه النقطة تختلف طريقة وتصورا وابعادا حسب زمان الصوفي ومكانه ومذهبه وأخلاقه لدرجة يصعب معها تعريف التصوف تعريفا واحدا واضحا .

أصول التصوف الاسلامي

أصوله متعددة ، لكن أولها وأهمها هو الذي يعود الى الدين نفسه . ظهر في تزهد ابي ذر الغفاري ، كما ظهر في الحسن البصري (توفي

٧٢٨) ومالك بن دينار ، حتى رابعة العدوية (سنة ٨٠١) في البصرة ، وظهر في تصوف ربيع بن خيثم (ت سنة ٦٧ / ٦٨٦) وجابر بن حيان وعبدك الصوفي (ت سنة ٢١٠ / ٨٢٥) في الكوفة (وكانوا على التشيع) . ولدى معروف الكرخي (سنة ٨١٥) . هذا الاصل يقوم على الزهد العملي والعبادة استنادا الى بعض آيات القرآن ، وبعض الاحاديث لا على الأفكار النظرية . كان أشبه



(٣) - كان كلام المتصوفة يشير عليهم غضب رجال الدين . منذ أواخر القرن الثالث كانوا يؤذون ويقتلون على الكفر ، على أن الفكر الصوفي الذي انتشر منذ القرن ١٣ في المشرق والمغرب ، تحول الى تنظيمات وطرق لا يظهر فيها الجدل الفلسفي . ولكن طقوس العبادة والحب لله وكرامات الشيوخ . جلال الدين الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣) مؤسس الطريقة المولوية ، رويت عنه كالفراعي والكيلاني وغيرهم ، كرامات منها ما تصوره هذه المنمنمة التركية العائدة الى القرن السادس عشر ، من ركوع بقرة أمام الرومي تطلب البركة منه .

برياضة النفس على التنسك . ابراهيم بن
أدهم وهو ابن ملك في بلخ (سنة ٧٧٩)
أمضى تسع سنوات في غار بنيسابور . بشر
الحافي (سنة ٨٤٢) قضى العمر حافيا . مالك
بن دينار قضى أربعين عاما في البصرة . بلد
التمر . ولم يتناول ثمرة ...
على أن تمازج الثقافات في عصر الترجمة
أتى الى التصوف بروافد وتأثيرات متنوعة
سواء في السلوك أو التنظير :

بعضها من الفكر الهندي وافكار وحدة
الوجود البوذية وعقائد الفيدا .
وبعضها من المسيحية والرهبة واللاهوت
النصراني المختلط بالفلسفة .
وبعضها من الفلسفة الافلاطونية المحدثة
التي تقول بالفيض الالهي .
وبعضها من الفلسفات الغنوصية (العرفانية
أو الأدرية) التي تؤمن بروحانية النفس
وامكان المعرفة التامة بالالهام والكشف .



(٥) - كان الشعر إحدى وسائل
التعبير الصوفية . اذا تركنا شعر
الزهد . كانت رابعة العدوية
(ت بالقدس سنة ٨٠١) أول
الأقطاب في شعر التصوف
الذي بلغ قمته لدى ابن الفارض
(عمر بن علي ١١٨١ - القاهرة
١٢٣٥) شاعر المتصوفة وصوفي
الشعراء المعاصر لابن عربي .
عاش فكره الصوفي وعبر عنه
أرق التعبير - كان يأوي الى
وادي المستضعفين بجبل
المقطم . حج واعتكف بمكة ١٥
سنة . نظم خلالها أكثر شعره
الذي شرحه كثيرون . وهو
مملوء برموز الحب الالهي .
كان يعشق الجمال المطلق
المتجلي في الوجود . لذلك
لقب بسلطان العاشقين .
واختلف الناس به كما اختلفوا
في كثير من رجال الصوفية
الآخرين . أشهر قصائده الثائية
الكبرى التي عرفت بنظم
السلوك . سجل فيها حياته
الروحية وعرض مذهبه
الصوفي . ثم الميمية في الخمرة
(ويقصد بها المعرفة الالهية) .
مذهبه الفني في الشعر ينجم
انجاما كاملا مع مذهبه
الروحي في وحدة الوجود .



(٤) - تشكلت حول كبار
الصوفية فرق بعد فرق من
المريدين (كالجيلانية
والرفاعية ثم المولوية) لها
أسرارها وطرقها في المجاهدة
ولها مراتب السلوك والوصول .
ومقامات الرياضة والأحوال .
استعان بعضها بالسماع .
والرقص . والطبول . والأذكار .
صارت الموسيقى تعين على
التركيز وعلى الوقوف في
حضرة الذات الالهية . بعض
الفرق استعانت بالرقص . ومنها

والمكاس وغيرها رموزا مجازية
في رباعيات الخيام والرومي
وحافظ .
المولوية التي تحاول بالدوران
المتصل مع الموسيقى الوصول
الى حالة الوجد . صار العشق

التصوف الفلسفي

هكذا صار للتصوف بالتدريج مصطلحاته الميتافيزيقية الخاصة المتباينة بين صوفي وآخر. تطورت في الوقت نفسه مفاهيمه لتأخذ الشكل الفلسفي بعد أن صبت فيها فلسفة الفارابي وابن سينا المتأثرة بدورها بالأفلاطونية المحدثة خاصة. منذ القرن الرابع / ١٠ م. كان شيوخ التصوف حيارى بين ضروب ثلاثة في تفسير الاتحاد الصوفي بالله تفسيراً فلسفياً.

أخوان الصفا والفارابي وابن مسرة يقولون بالاتحادية، أي أن الاتحاد يتم بتأليف المعاني تحت تأثير العقل الفعال (الذي هو الفيض الإلهي).

ابن سينا وابن طفيل وابن سبعين قالوا بالوصولية، أي بأن النفس تصل بالمجاهدة إلى موافقة الحق حيث لا تعدد ولا كثرة ولا تفرقة. شهاب الدين السهروردي (الشيخ المقتول بحلب سنة ١١٩١) وأتباعه (كالشيرازي سنة ١٢٤٤) قالوا بالإشراق أو بتجوهر النفس وتألق النور الإلهي في إشراقات العقل الفعال. بذور هذه الأفكار قال بها ابن سينا والأفلاطونية. جاء السهروردي والشيرازي فأبرزوا بوجه خاص الجانب القائم منها على الاتصال الإشراقي بالعقل الفعال. وجمعاً بين الطريقة البخشية (أي طريقة الاستدلال الفلسفية) والطريقة الذوقية (أي طريقة المتصوفة) في مؤلفاتهما. واعتبرا أن للفلسفة أصولاً مشرقية، فتاريخها عند السهروردي يبدأ بهرمس (وهو اخنوخ أو ادريس) ويمر بأفلاطون وأرسطو وفيثاغورث وزارادشت. وينتهي آخر الأمر بالبسطامي (٨٧٥) والحلاج (قتل ٩٢٢) حتى يبلغ إلى

السهروردي نفسه. شاع هذا المذهب المليء بالأسرار والغوصيات في إيران.

في القرن الثالث عشر دخل التصوف دوره الثالث بظهور المدرسة الوجودية أو الوجدانية القائلة بوحدة الوجود. كان ابن عربي الصوفي الأندلسي (ت بدمشق / ١٢٤٠ م) أول من صاغ هذا المذهب. قال إن وجود المخلوقات هو عين وجود الخالق. وإن ثبوت الأشياء في علم الله هو أرقى درجات وجودها. وهي تصدر عنه بفيض على مراتب خمس. وإن النفس تعود إلى الذات الإلهية الجامعة بانتقالها من الكثرة إلى الوحدة (٢). كبار المتصوفة الذين ظهروا بعد ذلك مثل فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي كانوا على هذا القول بأن الله هو الوجود من حيث هو كلي لا يقوم بشيء. وهذا الوجود هو الذي يفيض بالكائنات المشخصة، كما يفيض البحر من تحت الأمواج.

الفرق الصوفية

اعتباراً من القرن الثالث عشر انتشر التصوف بشكل شعبي متزايد، وصار فرقا ونظماً صوفية متعددة لكل منها طرائقها في مجاهدة النفس. أدى ذلك إلى الانحطاط التدريجي في الفكر الصوفي، بتحوله إلى مجرد طقوس. وبدخول جماعات عامية فيه. واساء كثير من أدعياء التصوف سمعته، وأكلوا أوقاف الخوانق والأربطة والزوايا التي أنشئت له.

مقابل ذلك نضيف أن جانباً كبيراً من نشر الإسلام في غرب إفريقيا وآسيا الصغرى وفي الهند واندونيسيا إنما يعود إلى رجال الفرق الصوفية، في هذه العهود المتأخرة.

الفن الاسلامي^(١) العمارة

الاسلامي شخصيته ، وله طابعه المميز بين فنون الامم . يظهر هذا الطابع في جميع فاعلياته الفنية ، من العمارة وزينتها الى الفنون الصغرى المختلفة . وذلك بالرغم من تعدد الشعوب التي انتجته . وتنوع حضاراتها القديمة . واختلاف المناخات والحاجات والاذواق التقليدية . استعار الفن الاسلامي العديد من العناصر من الحضارات السابقة له ، لكنه أعطاها طابعه الذي لا يخطئه النظر

الرقعة الجغرافية للفن الاسلامي شاسعة تمتد من اندونيسيا حتى الاندلس . بما في ذلك افريقيا الغربية . وقد ازدهر زمنيا منذ القرن السابع حتى السابع عشر . رغم هذين الامتدادين في الزمان والمكان . كان للفن

(١) - سامراء ، التي ظلت حاضرة الدنيا نصف قرن (أوسط القرن التاسع) هي مدينة من الآجر واللبن . أطلالها التي هجرت منذ أحد عشر قرنا ما تزال تعكس شيئا من ماضيها الضخم . أول ما كشف التنقيب بين سنتي ١٩١١ - ١٩١٣ عن بعض معالمها ظهر فيه جامعها الكبير الذي بناه المتوكل بين سنتي ٨٤٨ - ٨٥٣ ، ويعتبر من أكبر مساجد العالم الاسلامي في السعة (٢٤٠ × ١٥٦ م) لم يبق منه اليوم الا بقايا جدرانه الخارجية ومئذنته الملوية التي كان المؤذن يصعد على الخيل ليصل الى القمة التي ترتفع ٥٥ مترا . يذكرون انها تستوحى الزقرات القديمة في ما بين النهرين . وهي أولى المآذن المنفصلة عن الجامع . ومثلها مئذنة جامع ابي دلف في سامراء . ومئذنة ابن طولون في مصر . جدران الجامع نفسه من الآجر وترتفع ١٠ أمتار لهذا كانت سمكة (٢.٦٥ م) وتدعمها ابراج مستديرة . في الزوايا اربعة ابراج ضخمة (بقطر ٣.٦٠ م) .



أبدا ولغته التعبيرية المميزة .

العمارة الأموية

أهم ما في العمارة الإسلامية قبل العصر الأموي ناحية واحدة هي مخطط المسجد . مسجد الرسول هو الذي حدد معماريا ودينيا الخصائص الأساسية لمسجد المستقبل ، في الباحة الواسعة لاجتماع المصلين والمكان الظليل لوقايتهم ، واستقبال الكعبة للصلاة .

ومكان المنبر . المساجد في عهد الرسالة والعهد الراشد كانت مبسطة البناء دون زخرف . العهد الأموي الذي اتخذ الشام مقرا وفيها آثار الحضارات القديمة المعقدة والبازيليكات المزينة ، أضاف الى المسجد التزيين ، والبرج المرتفع للأذان (مما كان أساسا للمئذنة) .

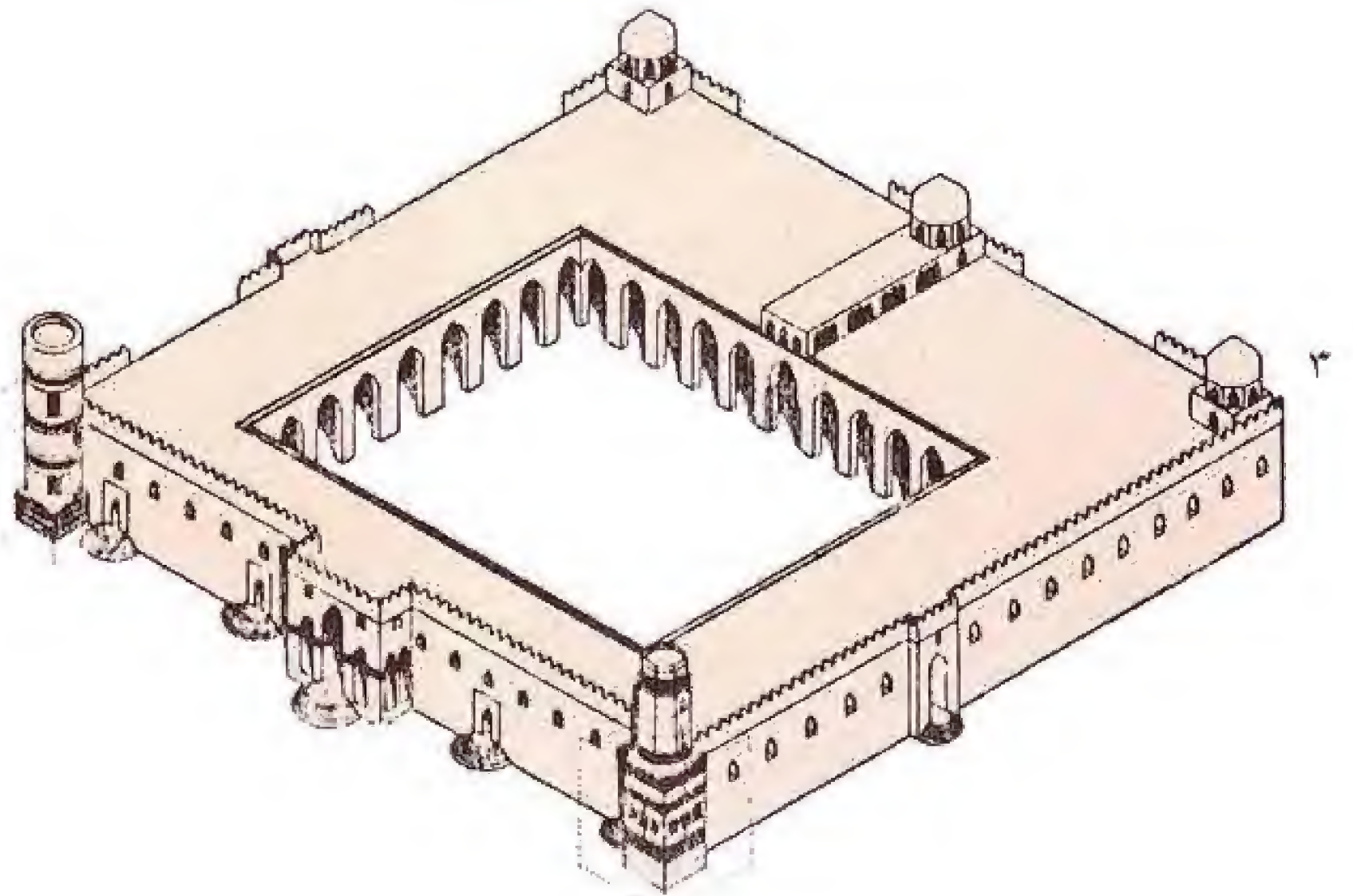
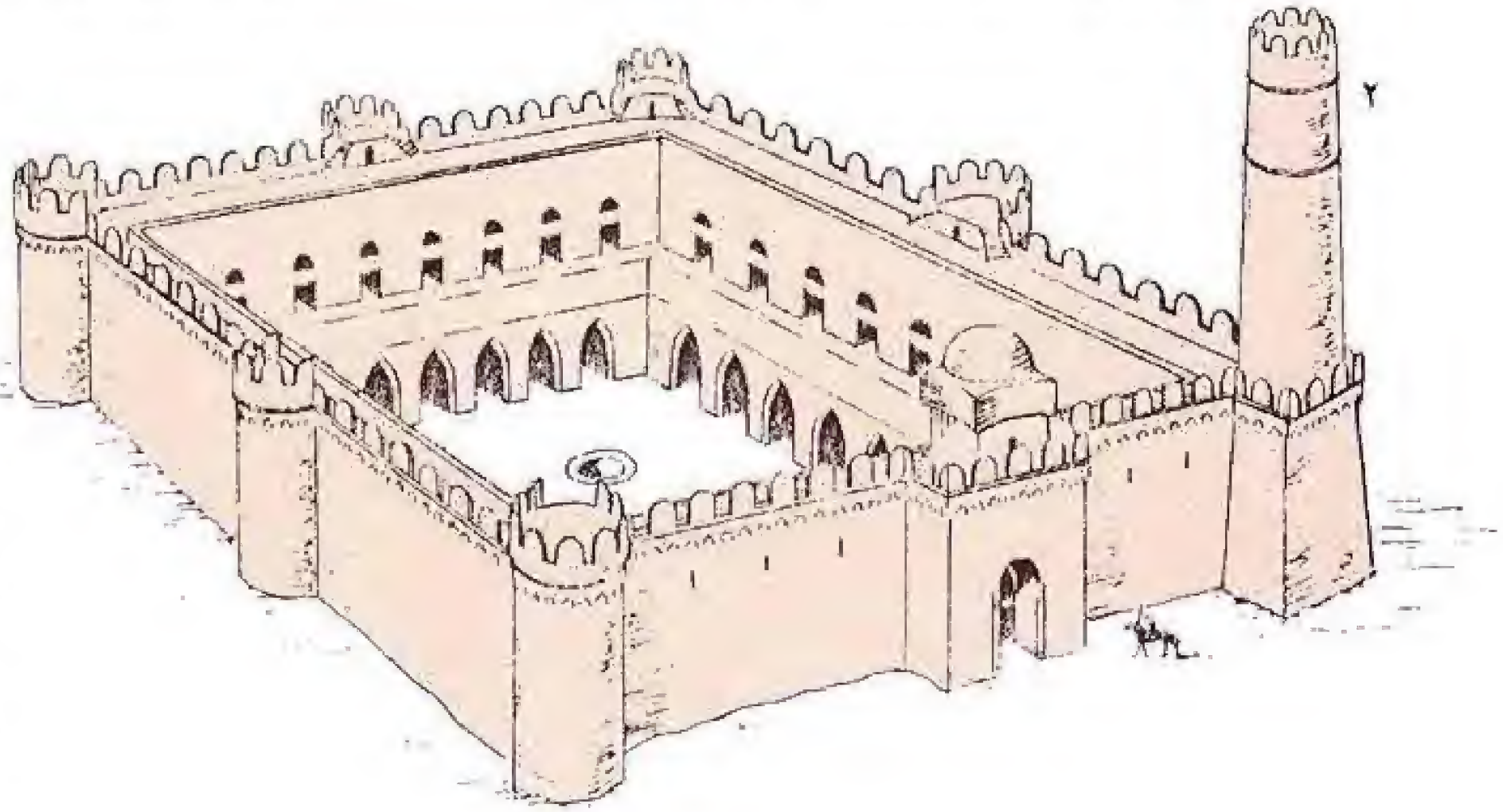
أهم المساجد التي بناها الأمويون هو الجامع الأموي في دمشق . أمر ببنائه الوليد

(٢) - لم يبد الفاطميون الاهتمام

نفسه الذي كان يوليه الأغلبة قبلهم لبعض المواقع الدفاعية مثل المستير التي يقوم فيها (حتى اليوم) رباط دفاعي متين ، ومثل سوسة التي نرى مخطط رباطها . بني هذا الرباط سنة ٨٤٤ - ٨٤٥ وفيه الكثير من التأثير البيزنطي ومن ملامح قصور الأمويين في الشام ، لأنه قام في مناطق الدفاع البيزنطي القديمة . تقوم في أركانه الأربعة أربعة أبراج ضخمة اسطوانية يرتفع واحد منها ليتحول الى مئذنة وبرج مراقبة معا .

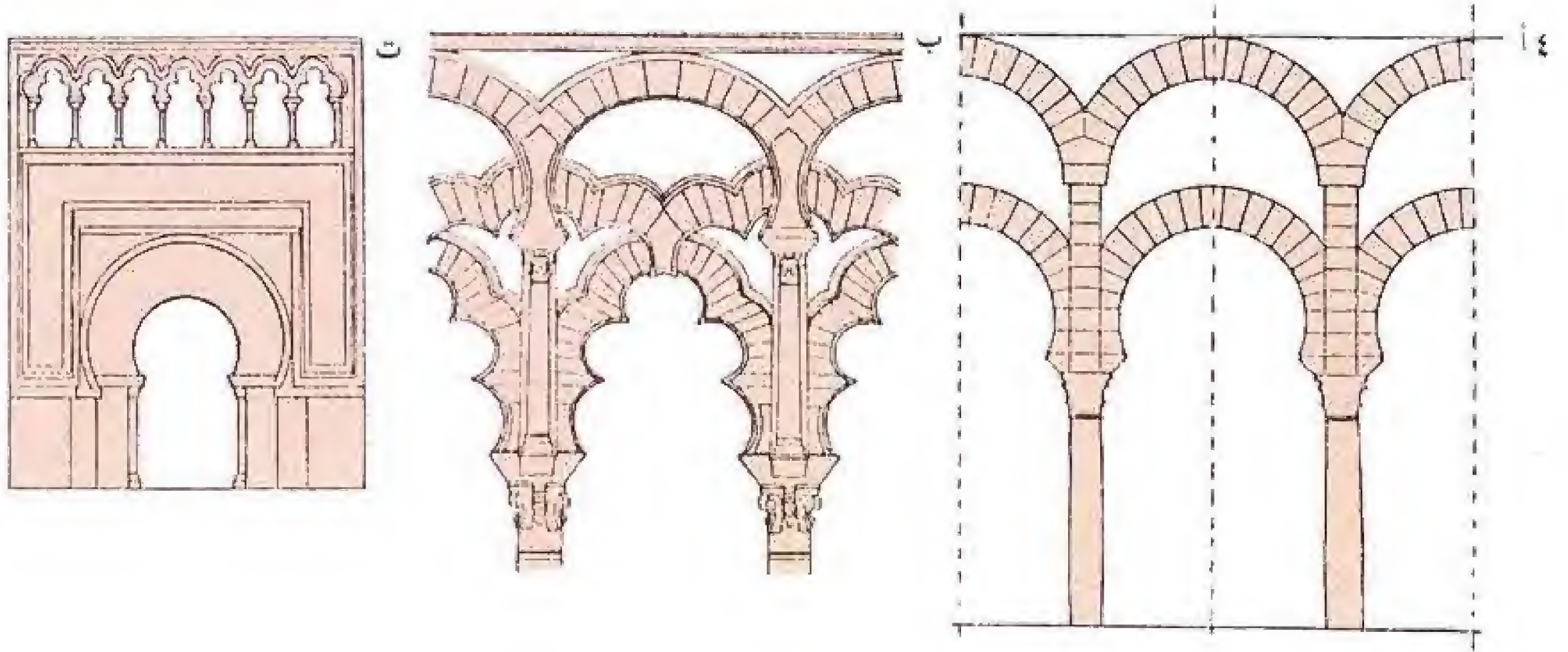
(٣) - بدأ بناء جامع الحاكم

بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) في عهد العزيز الفاطمي سنة ٩٩٠ وانتهى في عهد ابنه الحاكم سنة ١٠٠٣ . هو ثالث المساجد الفاطمية الهامة (مع الأزهر - والأقمر) الذي بني في عهد الأمر سنة ١٠٢٥ . عمارته متأثرة بالجامع الطولوني العباسي في المخطط ودعائم الأجر . أقيمت المئذنتان في ركنيه الأماميين كالأبراج . التجديد المعماري فيه هو مدخل الواجهة الرئيسية التي تبرز ٦ أمتار تقليدا لجامع المهدي في تونس .



ابن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) . بنى أيضا مسجد الرسول في المدينة بعد ان زاد كثيرا في سعته . كما بنى المسجد الأقصى . لم يدخل الأمويون على المسجد فكرة المئذنة فقط في الشام ومصر (جامع عمرو بالفسطاط) ولكن أدخلوا أيضا ثلاثة عناصر معمارية جديدة أو متطورة هي المحراب المجوف ، والمنبر المرتفع والمقصورة بجانب المحراب . البناء الديني الفرد الذي بناه الأمويون

ولم يبن مثله في الاسلام هو قبة الصخرة في القدس . بناها عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) . انتهت سنة ٧٢ هـ / ٦٩٢ م . لم يكن نشاط الأمويين في الأبنية المدنية اقل منه في الأبنية الدينية . اندثرت قصورهم في دمشق لكن آثار بعضها كشفت في القدس سنة ١٩٧٠ لصيقة بالأقصى . على انهم كانوا أكثر ميلا لسكنى البادية ، وقد أحصى لهم فيها ثلاثون قصرا تقريبا (٥) عدا



(٤) - غابة الأعمدة التي تملأ مسجد قرطبة تزيد على ٦٠٠ عمود وعمادة عدا المزدوج منها والثلاثي . معظمها أتت به جاهزا من عمائر أخرى قديمة متخفضة السقوف . المهندسون أوجدوا حلا رائعا لاستخدامها في الجامع المرتفع السقف جدا وللحفاظ على رشاقة المبنى وانفتاحه . أقاموا الأعمدة بعضها فوق بعض وربطوا بينها تارة بأقواس مزدوجة أحدها فوق الآخر (أ) وتارة أخرى جعلوا هذه الأقواس (ب) تلتقي وتنفرد في مجموعة من الأقواس الصغيرة المفرغة .

(٥) - بالرغم من أن عناصر التوريق والتزيين الهندسي والكتابي والنباتي قد سيطرت على الجدران في العمارة الإسلامية وخاصة منها الدينية . إلا أن الرسم الجداري ظل أيضا موجودا وبخاصة في الأبنية المدنية . نعرف ذلك خاصة من الأخبار المروية لأن معظم هذه العمائر قد اندثرت . كما نعرفه في الأطلال الباقية مثل سامراء وبعض بيوت القاهرة وفي قصر الحمراء . أقدم هذه الرسوم الجدارية الباقية ما رسم في قصر عمرة في العصر الأموي الصحراوي قبيل أواسط القرن ٨ .

مدينة عين جر في البقاع بالشام .

يظهر في العمارة الأموية ازدواج التأثير البيزنطي - الساساني سواء في الهندسة أو في الزخرف ، لكن فيها أيضا تلمسا لأسلوب معماري جديد لم يأخذ بعد شخصيته النهائية فهي أول مدارس الفن الاسلامي .

العمارة العباسية

انتقل مركز الدولة في العصر العباسي الى العراق وبخاصة الى بغداد التي بدأ بناؤها سنة ٧٦٣ . المنطقة السهلية . جعلت مادة البناء من اللبن والاجر بدلا من الحجارة (كما في الشام) . وكان الايوان من تقاليد العمارة في المنطقة (على مثال ايوان كسرى) فدخل استخدام الايوان على البناء العباسي . لم يكن الخلفاء العباسيون يألفون البادية . لذلك كانت قصورهم كلها ضمن المدن التي بنوها . لم يبق من آثارهم في بغداد العباسية الا القليل جدا ، ومنها المدرسة المستنصرية . عمرانهم الباقي يظهر في سامراء (١) ، التي اتخذها العباسيون حاضرة لهم حوالي نصف قرن .

نموذج العمارة الدينية فيها نراه في المسجد الجامع الذي بناه المتوكل (٨٤٦ - ٨٥٢) وفي مسجد ابي دلف . يتميز المسجد الجامع بين مساجد العالم الاسلامي كلها بمئذنته الملوية وسعته الكبرى . وزخارفه من الاجر . قلده ابن طولون بجامعه المعروف في مصر (سنة ٩٣١) . أما الاغالبية في افريقيا فقد توجهت عناية ثلاثة منهم الى المسجد الكبير في القيروان التي بني سنة ٨٣٦ وتوسع حرمة مرتين على حساب الصحن الذي ظل مع ذلك واسعا يشغل ثلثي العمق

الكلي البالغ ١٢٥ متر .

العمارة العباسية المدنية المتأثرة بنظام الايوان الواسع المقبب تظهر في أطلال قصور سامراء والمتوكلية كما تظهر في قصر الاخضر الذي يشكل مخططة حلقة الاتصال بين العمارة الاموية والعباسية . أما قصور الطولونيين فلم يبق منها شيء يذكر .

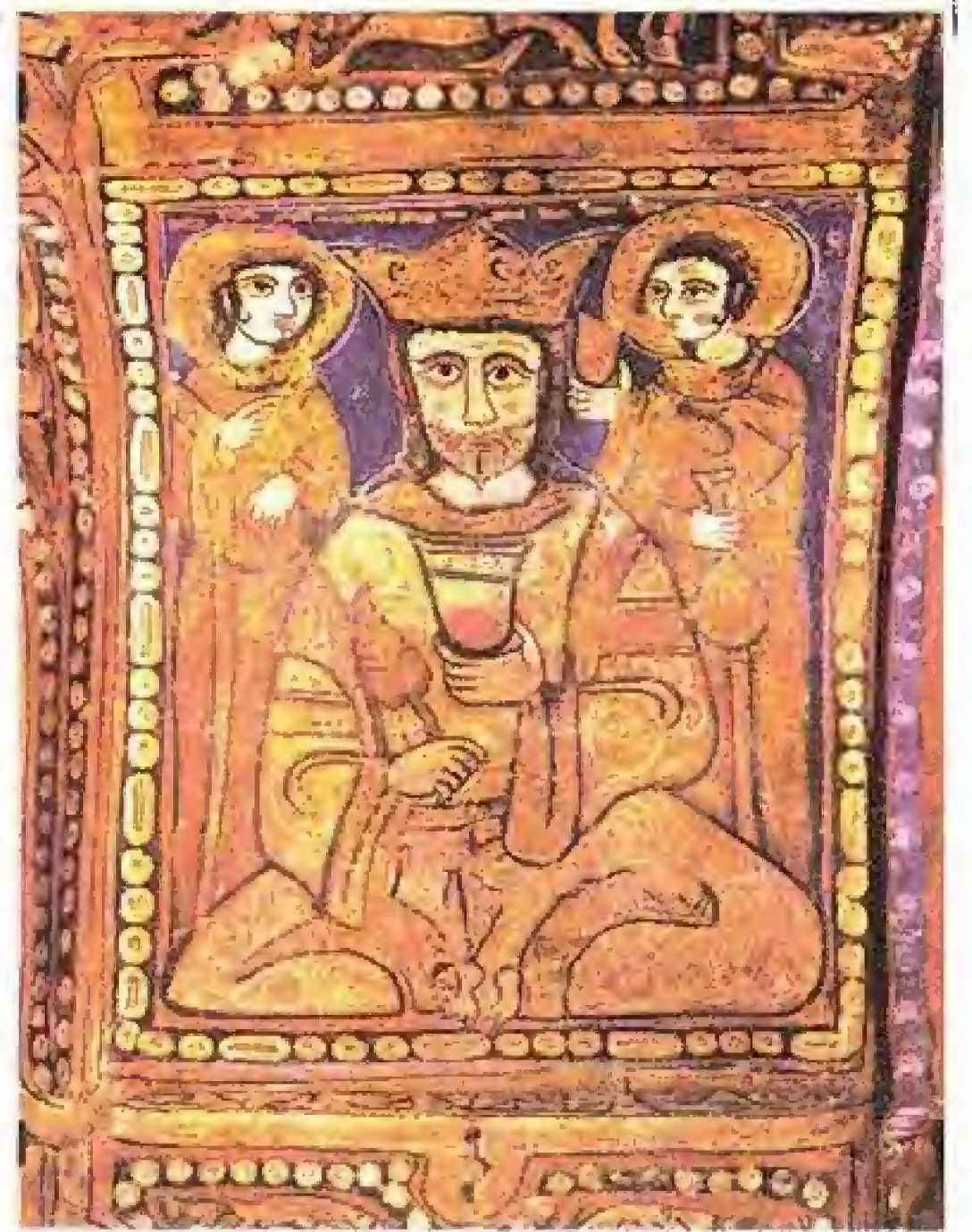
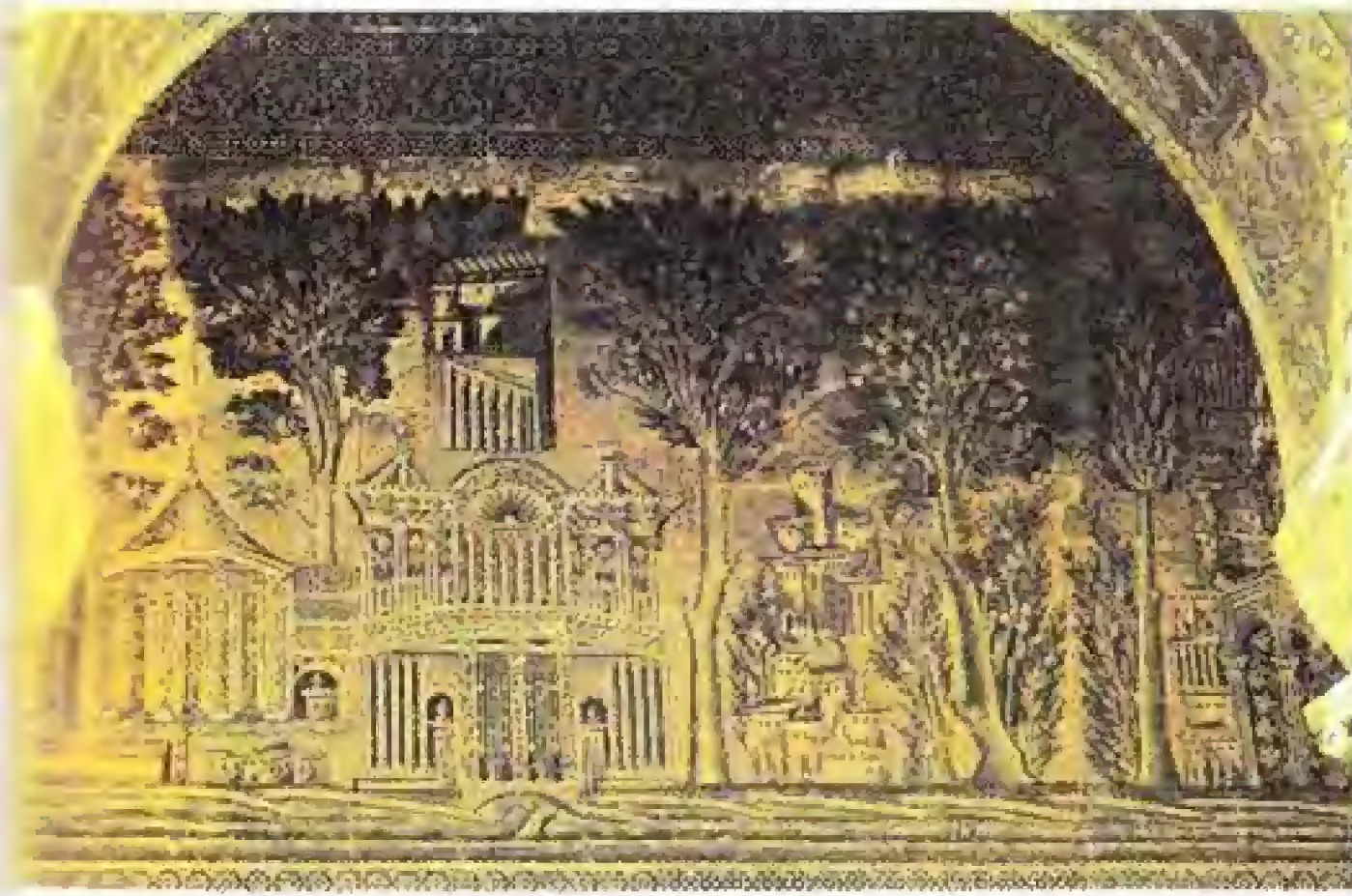
العمارة الفاطمية والأندلسية

لم تكن الخلافتان الفاطمية والاموية في الاندلس أقل نشاطا من الخلافة العباسية في الجهد المعماري . كان البناء الضخم جزءا من سمعة الدولة . منذ وصل الفاطميون الى حكم افريقيا ، بنوا لأنفسهم مدينة المهدية حصنا وقصورا وميناء (٢) . حين انتقلوا الى مصر بنوا القاهرة . لم تكن مدينة للناس ، ولكن مجموعة قصور للخليفة وأهله . لحقتها بعد ذلك أعداد من المساجد الضخمة . أهمها الجامع الأزهر (تم بناؤه سنة ٩٧٢) الذي اجتمعت فيه خصائص العمارة الافريقية مع العمارة الطولونية (٣) . عمارة الفاطميين المدنية لم يبق منها الا بعض الأبنية في المهدية والقاهرة . البقايا الأثرية تكشف تطور التزيين البنائي فيها الى ما عرف بالفن الفاطمي . في الأندلس أروع الأبنية الدينية كان مسجد قرطبة الكبير (٤) . أرسى عبد الرحمن الأول الداخل سنة ٧٨٥ أساسه على نسق الجامع الأموي بدمشق وبمقاييس كبيرة . بذل الأمراء ثم الخلفاء الأمويون حتى سنة ٩٨٧ الكثير من عنايتهم في توسعته المتكررة وفي اغناء زخرفته . أما في البناء المدني فكانت مدينة الزهراء (القرن ١٠) نموذجا لقصور الأموية في الأندلس .

الفن الاسلامي^(٣) الرسم والتزيين

انها تسجل وجود التصوير بشكل مبكر في الاسلام . وتسجل في الوقت نفسه تكثيف الفاعلية الفنية تدريجيا وتوجيهها لدى الفنان الاسلامي الى العمل الزخرفي . أكثر من التصوير الواقعي للأحياء . لم يكن السبب في هذا الاتجاه تحريما دينيا في الشرع . ولكنه نوع من التحرج شاع تحت تأثير المحدثين والفقهاء الذين سيطروا على الفكر . بين القرنين التاسع والثاني عشر (٣ - ٦ هـ) .

من أهم ما تكشف عنه بقايا القصور الاموية في الشام ، والعباسية في سامراء ، هو لوحات الرسوم الجدارية الملونة فيها ، والزخارف البارزة من الجص ، وبدء ظهور التوريق العربي (أو الرقش = الارابسك) .



(٢) - منذ عهد مبكر رفضت جدران العمارة الاسلامية ان تبقى عارية . وصارت تغطي بالتزيين (من القسيفساء والصور) . استمر هذا العصر المعماري يتوطد ويتعقد مع العصور حتى انتهى في المشرق الى التغطية الكاملة بالقاشاني وبالتزيينات الكتابية والهندسية من الاجر . وانتهى في المغرب والاندلس الى النقوش الجصية الملونة بالحمرة والصفرة والذهب والتي يختلط فيها الخط النسخي بالكوفي والرسم الهندسي بالغصن النباتي المحور . اندثرت صناعة



(١) - المصورون الفاطميون هم الذين رسموا هذه الصور (أ) و (ب) في كنيسة بالاتين في بالرمو (صقلية) بين ١١٣٢ - ١١٤٢ . الملك روجر الثاني النورماندي استدعاهم لتزيينها بالمقرنصات ورسموها بطابع اسلامي . صوروا الملك بشكل الخليفة في (أ) . سقطت صقلية بيد النورمان سنة ١٠٩١

استنتجوا من بعض القرائن عدم حب التصوير ، وعدم توافق التقى الديني مع رسم الكائنات الحية ، الذي كانت تفعله الحضارات الوثنية ، وتقبله الكنائس المسيحية . اعتبروا ان من مظاهر التمايز عنها ، اقضاء الصور والتماثيل عن المسجد والحياة العامة . وهكذا انكمش الرسم ، وان لم يمت ابدا ، وتحولت وجهة النحت . بينما نما التزيين وتطور وتنوع ، وصار السمة الاولى من سمات الفن الاسلامي .

التزيين المعماري (التزويق والتوريق)
عملية التزيين كانت أساسية في العمارة الاسلامية ، سواء منها الدينية (٢) والمدنية . زخارف قبة الصخرة (وعناصرها من النبات وشجر النخيل والفاكهة من العنب والرمان) هي أول وأقدم محاولة للزخرف المعماري . التسامح في الرسم الفسيفسائي كان أكثر في الجامع الأموي حيث تظهر المناظر الطبيعية من انهار وشجر ومنازل كالقصور . واذا خلت



الفسيفاء (أ) تدريجيا بعد العصر الأموي . سيطرت بدلا منها الزخارف الجصية التي تنقش بالقوالب في سامراء (ت) . وسرعان ما أخذ التوريق (الأرابيسك) يكتسح الجدران كلها وبخاصة في

الأبنية الدينية . عناصر التوريق من الزهور الى الغصن النباتي المحور الى الزخرفة والذي يقبل ان يشترك فيه الحيوان والانسان كما في (ب) من الخشب الفاطمي المحفور في القرن الحادي عشر ، تلتقي كلها

مع الكتابة في انسجام فني متكامل رغم التباين بينها . من الرقش والتوريق المعقد المتعدد العناصر . سوف يسيطر بعد ذلك في المشرق والمغرب . ويغشى الجدران فلا يترك فيها مساحة خالية حتى أضحي ذلك

من أهم مميزات الفن الاسلامي . شمل ذلك الأبنية المدنية (كقصور الحمراء) أو نصف الدينية (كمدارس المغرب) والأضرحة أو أبنية المساجد التي سيطر عليها الفاشاني خاصة في ايران .

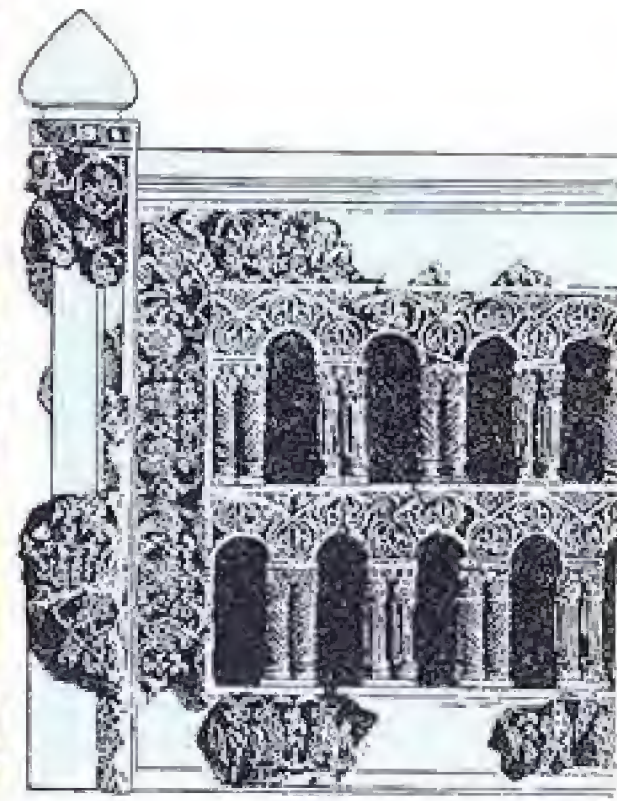
ايضا ظهور مطالع التزيين الهندسي والنباتي المطور عن رسم النبات الحي . مطالع التوريق (الارابسك) بدأت منذ العهد الأموي وان كانت مقتبسة في الأصل عن النقوش القديمة في ما بين النهرين .

التزيين العباسي والفاطمي في العصر العباسي . يغيب تماما عن الأبنية الدينية عنصر المناظر الطبيعية

من الصور الأدمية والحيوانية . فقد ظهرت هذه الصور في القصور الأموية . لا في لوحات الفسيفساء فقط ولكن بشكل رسوم جدارية تصور مناظر الصيد والاستحمام والرقص والموسيقى وبعض الحرف . كما في قصر عمرة وقصر الحير الغربي وخربة المفجر (٣) . كما نجد النحت في تماثيل آدمية نصف عارية . وفي النماذج الحيوانية . وفي النقوش البارزة بالجص . على اننا نلاحظ



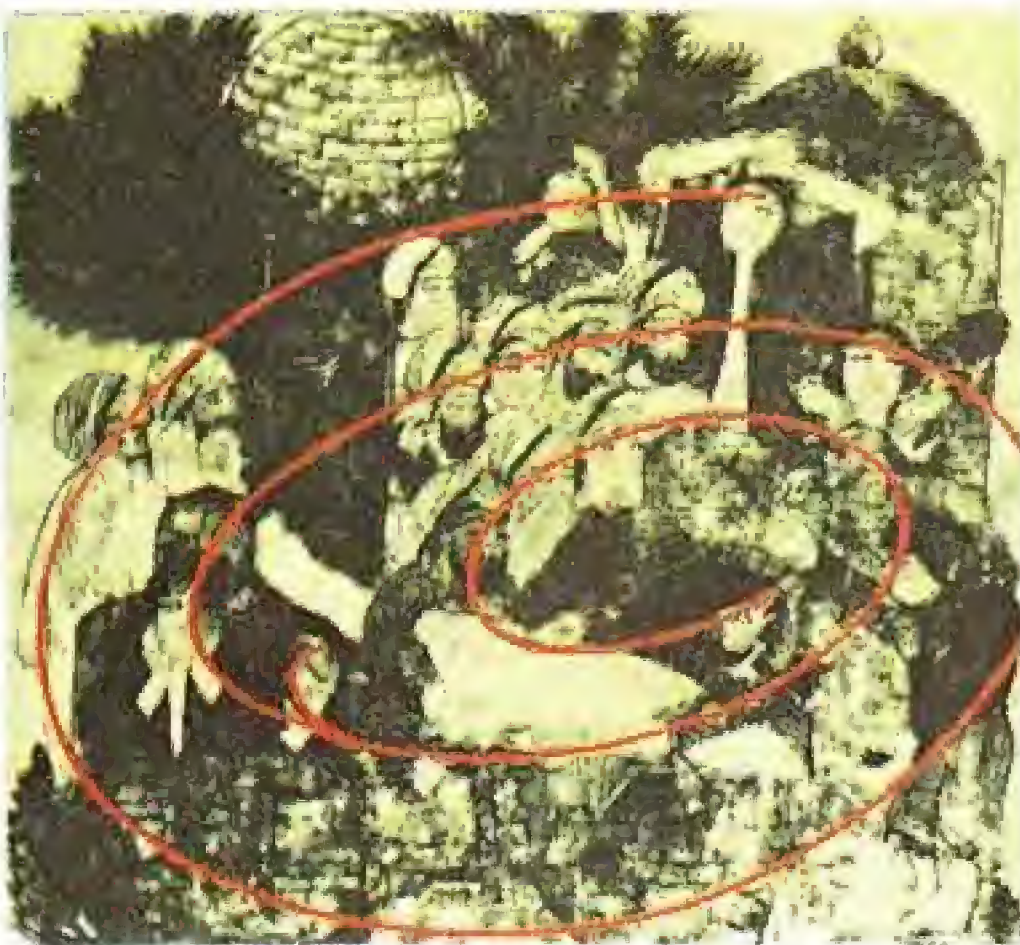
١٤



ب



١٣



ب

(٤) - تكامل فن التصوير الاسلامي في هدوء . ولكن في اصرار متصل . على أيدي رسامي الخزف والجدران والمخطوطات . ظهرت ثمار هذا التطور متأخرة منذ القرن ١١ في مدارس تصوير اسلامية واضحة المعالم على أيدي المصورين (المزوقين) من بغداد ودمشق والقاهرة . وبرزت فيما بعد ايران . تميزت هذه المدارس برفض محاكاة الطبيعة . وعدم التجسيم . واهمال المنظور . وكان سر المهنة (لاسيما لدى الواسطي) اعطاء الصورة مركزا

(٣) - قصر المفجر (الذي بناه الوليد الثاني الأموي حوالي سنة ٧٤٣) انجاز هندسي رائع سبق في مخططة الضخم وفي زخرفته القصور الأموية كلها والعباسية ايضا . حتى قصر الحمراء الأخير في الأندلس لم يتجاوز . في غير التلوين والتعقيد . أساليبه الزخرفية ومنحوتاته الجصية الملونة . التمثال (أ) لراقصة وجدت في أطلال القصر . وأما (ب) فهو قطعة من حاجز (درابزين) مؤلف من طبقتين من الأعمدة التوائمة الصغيرة يقوم حول باحة القصر .

تنطلق منه ويدور باقيها يمر بكل شخص من الرسم . أو حوله في خط لولبي خفي النقاط الأساسية من المشهد .

والنباتية . وتبدأ الفسيفساء في الغياب أيضا حتى في الشام وفي افريقيا . ويزداد بوضوح العنصر التزييني الهندسي والنباتي حفرا في الجص أو في الحجر . التخرج الذي أقصى الصورة والتمثال عن المسجد منذ العصر الأموي . ازداد مع سيطرة التخريج الفقهي في القرنين التاسع والعاشر . كما انه انسحب جزئيا على المباني المدنية وان لم يمنع عنها الصورة والتمثال . جدران القصور في سامراء ما تزال اطلالها تحمل بقايا الصور ذات الموضوعات الادمية . صور جدارية مماثلة كشفت في حفريات نيسابور . كما كشفت في اماكن مختلفة . وفي القصور الغزنوية . وجدت بعض التماثيل أيضا . ولكن بشكل محدود . التزيين بالجص المنقوش والزخارف النباتية والهندسية أخذ يسيطر . بل أخذ أيضا يبتلع الرسوم الحية . اندمج رسم الاحياء من نبات وحيوان خاصة وانسان ضمن هذا التزيين بالتدريج . وتحورت الاحياء فيه الى اشكال تزيينية . أهم ما اتى به الفن العباسي في مراحله المتأخرة . هو تغشية وجوه الجدران كلها بالزخارف الهندسية المكرورة بواسطة القوالب . هذا الاسلوب هو الذي سيطر من بعده على التزيين المعماري الاسلامي ووطد قواعد « التوريق » او الرقش . وبخاصة أيام العهد الفاطمي . في مصر . وفي المعمار الاندلسي والمغربي اللاحق .

على ان الأبنية المدنية كانت كثيرا ما تخرج على هذا الاسلوب « التجريدي » من التزيين الذي استأثر بالمعمار الديني . كانت تستخدم التزيين بدل التوريق أو معه . سواء في عمارة العصور العباسية التالية او في مصر الفاطمية او في الاندلس . « المزوقون » وهم

الرسامون - حسب المصطلح الاسلامي - كانوا آخر من يدخل للقصور والحمامات لتزيينها بالرسوم . ذكرت اخبار عن مصور العراق : القصير وزميله ابن عزيز مصور مصر (اواسط القرن الحادي عشر) . ووجدت تصاوير جدارية في بقايا الابنية الفاطمية في القاهرة وفيها صور شراب ورقص مع الزخارف النباتية والطيور . هذا اذا لم نذكر الرسوم التي صورها المسلمون في الكنائس والقصور النورمندية في صقلية (١) واستمدت عناصرها من التصوير الفاطمي . الفاطميون خاصة لم يكتثروا . خارج البناء الديني . بالخرج الشائع من الرسوم الادمية . واستخدموها في التزيين منذ عهدهم الأول في المهدي (حيث وجدت صور لأمير في يده كأس وأمامه عازفة على المزمار) حتى أيامهم الأخيرة . حتى الفنانون في العصور العباسية المتأخرة لم يهجروا الرسم . حين انقطع التصوير في الابنية انصرفوا الى رسم المخطوطات . وأبدعوا مدارس للتصوير الاسلامي (٤) .

التزيين بالخط

منذ القرن الرابع خاصة . بدأ يدخل على التزيين المعماري الاسلامي عنصر الكتابة . الخط العربي بأنواعه . وبخاصة الكوفي منه . كان عنصرا سهلا الاندماج في التزيين . ويظهر انه دخل أول ما دخل على تزيين المسجد بآيات قرآنية . ما لبث هذا العنصر ان انتشر وصار في كثير من العماثر . وخاصة منذ العصر الفاطمي والسلجوقي . مادة اساسية للتزيين . في الوقت نفسه ظهر أيام الفاطميين استخدام المقرنصات كأسلوب معماري يخلق من لقاء القبة مع زاويتي الجدار مجالا فنيا .

الفن الاسلامي^(٣) الفنون الصغرى

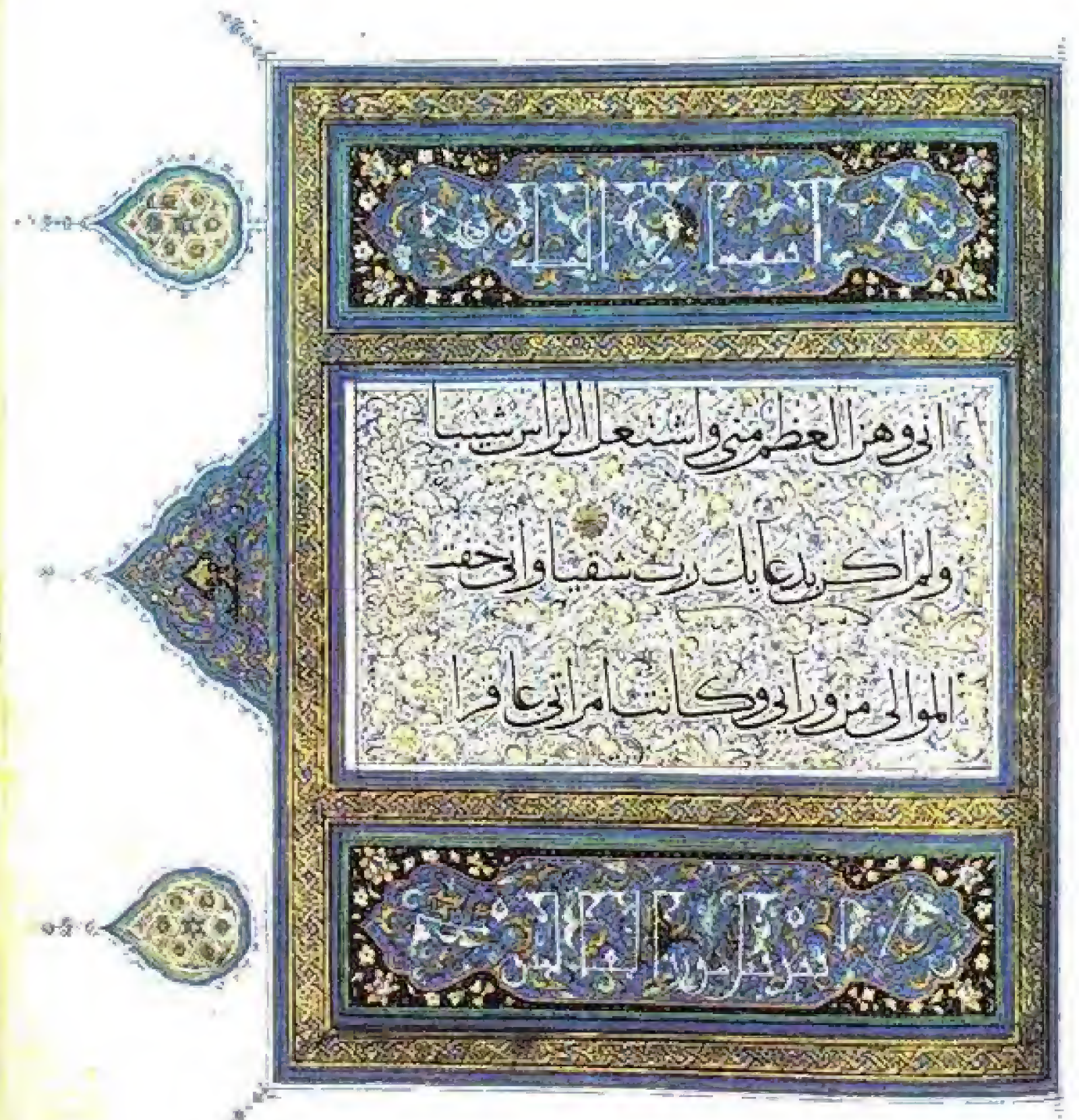
كان طبيعيا أن لا تموت الفنون في المناطق التي دخلها الفتح الاسلامي . كما كان طبيعيا . في الوقت نفسه . ان تتخذ الاشكال والمسارب التي تتفق مع الذوق الحضاري الجديد وحاجاته . وكما جرى في

الفنون الاساسية (العمارة والرسم) من تجاوب مع المعطيات الاسلامية . كذلك جرى في الفنون التطبيقية ذلك التجاوب نفسه . رغم تنوع موادها . وتعدد اساليبها التقليدية السابقة . واختلاف أنواعها . وبهذا الشكل ظهرت الفنون الاسلامية الصغرى .

لا نملك من العهد الأموي الا بعض القطع الفنية نلمح فيها جميعا مطالع الفن الاسلامي الجديد . أما من العصور التالية . فثمة العديد

(١) - منذ القرن التاسع صارت

كتابة المصحف وتزيينه فنا من الفنون الاسلامية . لم تزده القرون الارقيا وتطورا وتنوعا . الصفحة من مصحف خاص بالسلطان بايزيد . من سلاطين آل عثمان (١٤٨١ - ١٥١٢) . وهي الصفحة الثانية من سورة مريم . استخدم الخط في الكتابة عدة أنواع من الخط العربي . النص القرآني نفسه كتب بخط قديم هو الطراز المحقق . قواعد وضعها الخطاط التركي الكبير حميد الله (القرن السادس عشر م / ١٠ هـ) . بين السطور ترجمة للآيات بالفارسية المكتوبة بخط النسخ وهو (حرف المطابع) . اسم السورة كتب بالخط الكوفي القديم ولكنه يستخدم حتى الآن بمثابة زخرف . المصحف من مجموعة مصاحف تشتر بتي في دبلن . عملية التذهيب يتبعها التجليد . كان المصحف يحفظ أولا بين لوحين من الخشب المزين . ثم استبدل به الجلد . تميزت صناعة التجليد منذ القرن الثاني عشر وخاصة في المغرب .



من النماذج واللقى الأثرية التي تسمح بالحديث عن عدد من الفنون .

النسيج والزجاجيات

كانت « الخلعة » تقليدا معروفا منذ العهد الأموي . دار « الطراز » الملحقة بالبلاط (٢) كانت تنسج هذه الملابس الرسمية . لكننا لا نملك الا قطعة واحدة تحمل اسم أحد الامويين . بينما نملك ٥٨٨

قطعة تحمل اسماء الخلفاء العباسيين . وعليها كتابات كوفية بشكل اشربة طويلة مذهبة او ملونة تبرز فوق النسيج الحريري أو الكتاني . في العهد العباسي وفي العهد الفاطمي . كانت دور الطراز ومصانع بعض المدن في مصر مثل تنيس ودمياط تنتج الانواع الفاخرة المشهورة من النسيج الذي يصدر الى أنحاء العالم . التراث القبطي القديم في هذا المجال كان وراء ذلك . لكن ما بقي من نسيج العهد



(٢) - قطعة حرير صنع « دور الطراز » بمصر (القرن ١٢) . اشتهرت مصر بنسيج الكتان والحرير بخيوط الذهب (متحف برلين) .



(٣) - الخزف العباسي مجموعتان ، ذو لون أزرق أو أخضر رائق ، وذو بريق ذهبي (أ . ب) من هذا النوع (القرن ١٠) . الدورق (ت) صنع الأندلس (القرن ١٠) .



ت

(٤) - الأواني العباسية من الذهب نادرة جدا . الدورق (ب) بويه (القرن ١٠) أما (أ) فهو من البرونز المكفأ بالفضة صنع خراسان القرن ١٢ .



٢



ب



١٤

الفاطمي هو أقل نسبيا مما بقي من العهد العباسي . وهو يتميز بدقة الرسم . وانسجام الالوان . واستخدام التوشية بالذهب . ورسم الحيوانات بكثرة . مصانع المرية في الاندلس كانت من اكثر مصانع النسيج نشاطا بين القرن التاسع والثاني عشر . ينسج الحرير فيها ٨٠٠ مصنع . وثمة نقاب من الكتان المطرز بالحرير الملون يحمل اسم هشام الثاني (٩٧٦ - ١٠١٥) .

أما الزجاجيات : فقبل الاسلام بكثير كانت سوريا خاصة مشهورة بين بلاد المشرق بصنع الأواني الزجاجية الراقية . عثر في اطلال سامراء على عدد وفير من قوارير العطر . والمصاييح والطاسات والأكواب المتنوعة في التقنية واللون . وهي من الزجاج المقولب ، والمنقوش بالسكين ، أو بزخرفة الميناء . أو الملون كلياً ، أو المكفت بعجائن شفافة متعددة الالوان . في العهد الفاطمي راج



الملاح الواقعية بتحويل العناصر النباتية والحيوانية الى الشكل التزييني . نماذج الخشب المحفور في مصر . مع قطع العاج والتزيينات المعمارية الاسلامية . تكشف هذا التطور في التوريق ، وخاصة في الفترة الفاطمية . تتكامل فيه الرقة والشفافية مع التلوين والتزيين بقلم النسخ .

(٥) - في الفترة الأموية والعباسية الأولى كانت التزيينات ذات عناصر نباتية وواقعية كالمراوح النخلية وتفريعات أوراق العنب . من نماذجها هذا الباب الخشبي من المسجد الأقصى (أواخر القرن ٨) . بعد ذلك تختفي

الزجاج وراجت صناعته وتطورت . لدينا من هذا العهد اكواب وأقداح ومصاييح (٦) وقوارير عطرية مقولبة او بطريقة النفخ مزينة بالنقوش او الصور الحيوانية او الزجاج المبروم . واختصت بعض المصانع المصرية في الفسطاط والاسكندرية بالبلور الصخري (الكريستال) وثمة منه في بعض كنائس اوروبا ومتاحف العالم ١٣ كوبا ، تعود الى القرن العاشر . وعليها أسماء بعض الخلفاء الفاطميين .

الخزف والحفر

كان لصناعة الخزف دوما تقاليدھا في المناطق التي فتحها المسلمون وقد كشفت التنقيبات في سامراء وفي نيسابور عن شأن هذين المركزين في تطور وصنع الخزف . الذي عرف بعد ذلك في القرنين التاسع والعاشر . أساليب جديدة في تقنية الصناعة . منها رسم الزخارف تحت الطلاء . قلدوا بذلك البورسلين الصيني (من عهد أسرة تانغ ٦١٨ - ٩٠٨) لدرجة صار يصعب معها التمييز بينه وبين الصنع المحلي . كان الابتكار الهام الذي اهتمدى اليه الخزافون المسلمون في العراق هو اكساب الاناء الخزفي بريقا معدنيا مختلف الالوان (من الأحمر النحاسي الى الاصفر الضارب الى الخضرة) (٣) انتشر هذا الابتكار في العالم الاسلامي بسرعة . وثمة نماذج كثيرة منه . صنعت ما بين ايران والاندلس . اضيف الى ذلك فيما بعد . تلوين العناصر الزخرفية وتنوعها . بين نباتية وحيوانية وآدمية . استخدم اسلوب البريق المعدني نفسه في صنع البلاط الخزفي لكسوة الجدران . وجدت نماذجه في قصور سامراء

وفي محراب جامع القيروان وفي اطلال مدينة الزهراء التي عثر فيها على أقدم أنواع الخزف في الأندلس . على ان الخزافين المصريين هم الذين اتقنوا أرقى تقنيات القاشاني ذي البريق المعدني وامتلكوا سر اتقانه .

أما حفر الخشب والعاج فقد وجد منذ العصر الأموي . استمرارا للتقنيات السابقة للإسلام . ولكنه سرعان ما تحول . على الخشب خاصة . الى تزيينات متفقة مع الذوق الاسلامي الجديد . في العصر الفاطمي كان التطور المميز في تحوير التزيينات النباتية والهندسية . وبرعت مصر والأندلس بحفر العاج . وثمة قطع أثرية كثيرة من صنع البلدين .

التذهيب والمعدنيات :

كما دخل الخط مع الآية القرآنية في تزيين البناء الديني الاسلامي . فقد دخل ايضا على مخطوطات القرآن لتزيينها (١) . وتحلية صفحاتها الاولى والاخيرة خاصة مع عناوين السور بالكتابة والتزيين المذهب . بدأ ذلك في العصر العباسي الأول . زخارف المصاحف الباقية من القرن التاسع متأثرة بأساليب الفنين الساساني والسرياني . تجاوز التذهيب والرقش المصاحف أحيانا ليظهر على بعض الكتب الأخرى . كان الخطاط دوما هو الذي يكتب . ثم تأتي مهمة الرقش والتذهيب . على يده أو يد غيره . لتملاً الفراغات حول الكتابة .

نماذج الأعمال الفنية الأخرى من الأدوات النحاسية والبرونز (٤) ومن الحلى المختلفة وأدوات الزينة والجواهر الكريمة كثيرة . ولكن روحا واحدة تشيع فيها ولا يخطيء الناظر في ردها الى الفن الاسلامي .

الموسيقى العربية

وكان لأطراف الجزيرة في اليمن والشام والعراق موسيقى وغناء . وكان لها اتصال بالموسيقى والغناء لدى الساسانيين والروم وبالأناشيد الكنسية البيزنطية .

بعد الاسلام وهدوء الفتح وجدت في المدينة ، ومن حولها في الطائف ووادي العقيق وخيبر ووادي القرى ، أجواء من الرفاه اجتذبت عددا من المغنين والقيان ، وأوجدت مدرسة من الغناء والموسيقى فيها حتى

موسيقى العرب في الجاهلية غامضة المعالم . لكننا نعرف عن وجود « القينات » المغنيات وبعض الآلات الموسيقية كالبربط والطبل والبوق والمزهر والدف والمزمار ، وعن الحدا أمام الابل ، والتهليل ، وانشاد الشعر .



(٢) - كانت الموسيقى والغناء جزءا من حياة الخاصة ، لهذا كثر على الأنية الارستقراطية تزيينها بالرسوم الموسيقية المتناسبة مع استعمالها . هذا الطاس من الفضة (أ) صنع في العهد البويهى . في القرن العاشر ، ويحمل في الرسوم التي نقش عليه ، تقاليد الصناعة الساسانية ، ونرى عليه حفلة موسيقى ورقص فيها الضارب على العود والراقصة والنافخ بالمزامير في الزق والعاذف بالناي (ب) (الطاس موجود في متحف طهران) .

الأندلس (المتوفى سنة ٩٧٦) والبياسي (القرن ١١) الذي أدخل التحسينات على الأرغن ، والأرموي الذي اخترع ألتين وترتين هما النزهة والشرقة . هذا الصحن الخزفي (صنع في مصر في القرن الحادي عشر) . استخدم لتزيينه صورة عازف على العود . (محفوظ في المتحف الاسلامي بالقاهرة) . كانت الآلات الموسيقية أيضا جزءا من عدة الحرب ، ومتصا لأبهة الحكام . موكب العزيز الفاطمي مثلا للحرب كان يتقدمه فرقة عسكرية فيها ٥٠٠ طبل و ٥٠٠ بوق .

(١) - آلات الموسيقى العربية تفوق الحصر . فالآلات الوترية أسرة كبيرة كاملة . وآلات النفخ الخشبية أسرة أخرى ليست أقل عددا وتنوعا . وآلات الضرب أسرة ثلاثة . والآلات النحاسية أسرة رابعة . من مخترعي الآلات العرب : الفارابي (سنة ٩٥٠) الذي ابتكر القانون . والزنام (في عصر الرشيد) مبتكر آلة نفخ باسمه . وزلز الذي اخترع العود المعروف بالشبوط والذي حل محل العود الفارسي القديم . زرياب الذي أضاف وترا سادسا الى العود . هذا الى الحكم الثاني أمير

واضحاً تباين النظم الموسيقية العربية عن
الفارسية والبيزنطية .

انتقلت الموسيقى العباسية الى الاندلس
مع زرياب (توفي سنة ٨٥٢) ثالث
الموسيقيين الكبار في التاريخ العربي . الذي
أسس مدرسة الموسيقى الاندلسية . كان فلكيا
جغرافيا راوية . كما كان تلميذ اسحق
الموصلي في الغناء . احتفل به امراء الأندلس
وأهلها كما أشاع هناك اجواء الفن والذوق .

كتاباً في الموسيقى العملية وأخبار أهلها . في
الوقت نفسه كان زلزل الضارب (توفي سنة
٧٩١) وهو الأخ غير الشقيق لابراهيم قد أصلح
السلام الموسيقي وأحدث نغمة اليكاه في
العود (٣ / ٤ البعد) .

بعد قرون من ذلك . في أيام ابي الفرج
الاصفهاني . عادت نظرية المقام الخراساني
الفارسية القديمة فأثبتت وجودها . ثم أخذ
العرب عنها ولاسيما في الالحن . لكن صار



ت



رابعتها وخامستها . واستخدموا
الدرب . أي مرافقة الغناء بآلات
النفخ والوتر وضرب الايقاع بالدف
والطبل . هنا مغن يغني على
العود أمام إحدى الأميرات
وحاشيتها في مخطوط أندلسي
لقصة بياض ورياض .

(٦) - هذه الصورة لضارب العود
والجنك (أ) . (ب) مأخوذة عن
الرسوم الأثرية . أما (ت) . فهي
فرقة موسيقية على جمل مصنوعة
من الخزف في إيران في القرن ٨ .

(٥) - الموسيقى الصوتية (الغناء)
حظيت من العرب باهتمام فاق
اهتمامهم بموسيقى الآلة وحدها .
ازدوجت مع الشعر الذي قدم لها
مقطوعات الغزل . وابتكر لها
الموشحات . وقدم لها النظام العامي
ألوان الموالي والزجل . اعتمد العرب
على البعد الأفقي أي اللحني
(ميلودي) دون البعد التوافقي
(الهارموني) وكان لهم رأيهم في
درجة القرار والايقاع والزائدة
الموسيقية . أي زخرفة اللحن بضرب
الدرجة اللحنية مع جوابها أو مع

وهو الذي نقل « النوتة » الموسيقية للأندلس .
 في القرن الثالث عشر ظهر صفى الدين
 الأرموي (ت سنة ١٢٩٤) الذي غنى للمعتصم
 آخر خلفاء بني العباس ، ولهولاكو المغولي
 ووزيره الجويني . كان آخر الموسيقيين الكبار .
 أوجد الأرموي نظرية جديدة في الموسيقى
 العربية تعرف بالنظرية المقننة . سجل
 النوتة الموسيقية بالحروف والأرقام . كتب
 كتابيه المشهورين : « الأدوار » و « الرسالة
 الشرفية » . قبل أن يموت فقيرا سجيناً .
 بعد قرن من عصره شاع في الموسيقى العربية
 استعمال سلم آخر هو (نظام ربع النغمة) الذي
 ما يزال منتشر اليوم .

الغناء

كان الغناء (٥) يرافق العربي من المهد
 الى اللحد ، زغرودة وعويلا وجدا وهزلا وحربا
 وتهجدا . مجالس الطرب لدى الخلفاء (٣)
 والكبراء كان لها مكانها الخاص في حياتهم
 وتربيتهم (٢) . الخليفة الرشيد واخوته
 (ابراهيم وعليه) كانوا من كبار الموسيقيين
 والمغنيين . حفيده الواثق كان اعلم الناس
 بالموسيقى والضرب على العود . الطبقات
 العادية كانت بدورها تعطي الغناء مكانته .
 التخرج الذي أشاعه أهل الدين والتقوى ، منذ
 العصر الأموي ، لم يستطع أن يمنع الطرب
 الغنائي من أن ينتشر ويجد مكانه المريح
 في المجتمع .

منذ القرن التاسع ظهرت لدى الخلفاء
 العباسيين النوبة الموسيقية (١) وهي أعلى
 صورة فنية للموسيقى العربية . أصلها حضور
 المغني في نوبة معينة له ، ليعرض ما عنده ،
 ثم استعملت بمعنى تناوبه مع عازفي الآلات

في حفلة موسيقية متكاملة تتألف من أربع
 قطع (وصلات) ثم اضيفت اليها في اواخر
 القرن الرابع عشر قطعة خامسة . ثم صارت
 في العهد العثماني سبعا (منها التقسيم
 والبشرف) انتشرت النوبة في الأندلس وكان منها
 الحلية الغرناطية والاشبيلية والقرطبية وانتقلت
 الى المغرب العربي وما تزال موجودة .

دخلت الموسيقى أيضا على جو الوريح
 حين صارت ، بعد القرن ١٢ ، إحدى وسائل
 التصوف للوصول الى حالة « الوجد » . كما
 استخدمت وسيلة للراحة ولشفاء الأمراض .

مؤلفات الموسيقى

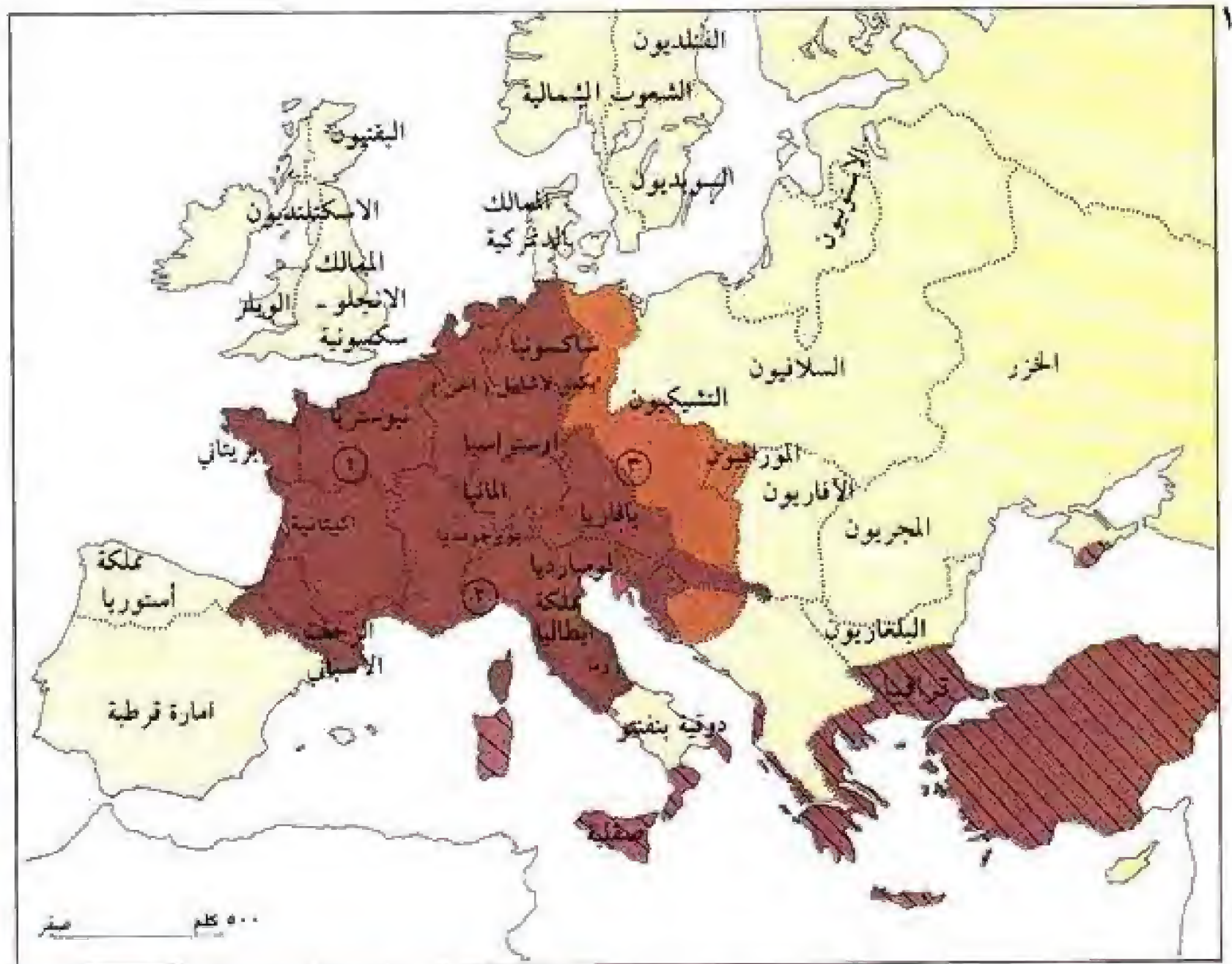
ألف العرب في الموسيقى والغناء ما يبلغ
 ٣٥٣ كتابا حتى القرن ١٧ . منها كتاب
 « الأغاني » لابي الفرج الاصبهاني (ت سنة
 ٩٦٧) في ٢١ مجلدا . واذا كان كثير منها أدبي
 الطابع فان فيها جانبا كبيرا للموسيقى العملية
 وللجانب النظري الرياضي ايضا . في هذا الباب
 ألف العلماء والفلاسفة (٤) ومنهم يونس
 الكاتب (ت حوالي سنة ٧٦٥) والخليل
 الفراهيدي (سنة ٧٩١) والموصليان (الأب
 والابن) والفارابي (ت سنة ٩٥٠) بكتابه
 الضخم الشامل « الموسيقى الكبير » . وأخوان
 الصفا « القرن ١٠ » . وابن سينا « سنة ١٠٣٧ »
 وتلميذه ابن زيلة « ت سنة ١٠٤٨ » صاحب
 الكافي في الموسيقى ، الى أن جاء علم الدين
 قيصر « ت سنة ١٢٥١ » أشهر من أنجبت الشام
 ومصر من الرياضيين وأصحاب النظريات
 الموسيقية . في الأندلس كان أول من ألف في
 الموسيقى عباس بن فرناس (سنة ٨٨٨) ثم ابن
 باجة (ت سنة ١١٣٨) وابن رشد (١١٨٨) وابن
 سبعين (ت سنة ١٢٦٩) وكلهم من الفلاسفة .

شارلمان

مارتيل (٦٨٨ - ٧٤١) الذي وُحد المملكة الفرنكية، وأوقف التقدم العربي في معركة بواتيه عام ٧٣٢، وبإداره بإنشاء علاقات سياسية مع الكرسي البابوي، وأدت الى تأسيس «الامبراطورية الرومانية المقدسة». بدأ ابن شارل مارتيل، ييبين (٧١٥ ؟ - ٧٦٨)، وهو أبو شارلمان، يحكم منذ عام ٧٤٧، الى ان كرس ملكا بموافقة البابا عام ٧٥٤. وفي عام ٧٥٣، استنجد البابا اسطفان

الكارولنجيون، وهم أسرة حاكمة نسبت الى شارل مارتيل وحفيده شارلمان، أصبحوا الأسرة الارستقراطية الرئيسية بين الفرنك في القرن السابع. تصاعدت سلطة هذه الاسرة ومكانتها تصاعدا عظيما. في عهد شارل

- الامبراطورية الكارولنجية ٨١٤
- الدول التابعة لشارلمان
- الامبراطورية البيزنطية
- تقسيم الامبراطورية الكارولنجية حسب معاهدة فردان عام ٨٤٣ بين
- ١ شارل
- ٢ لوتار
- ٣ لويس



بالفرنك ضد اللومباردين الذين استولوا على إيطاليا ، وأخذوا يهددون روما . من ذلك الحين ، أصبح ملك الفرنك حليفا تقليديا للبابا . فدعيت الأسرة الكارولنجية لاقتسام إيطاليا مع البابا .

السلالة الفرنكية

كان الفرنك تقليديا يعتبرون ملوكهم متحدرين من أصل الهى ، وينظرون الى

القبيلة كأنها من أملاك الأسرة الحاكمة . لم تظهر الدولة الفرنكية كدولة الا في ظل ملوك أقوياء ، مثل كلوفيس (٤٦٥ - ٥١١) وبيبين اللذين قضيا على جميع المناوئين . لدى وفاة بيبين ، خلفه ولداه شارلمان (٧٤٢ - ٨١٤) وكارلومان . لكن بعد وفاة كارلومان عام ٧٧١ ، استولى شارلمان على الحكم استيلاء تاما (٨) . وفي عام ٧٧٣ ، استجاب لنداء البابا ، وهزم اللومباردين ، ومنذ عام ٧٧٤

عليه . يفتقر الى تكريس مقش لمركزه الفعلي ، كإمبراطور . فأصبح بفضل هذا التتويج ، الوريث الشرعي للباطرة الرومانيين الغربيين .

(٥) - تبين هذه الصفحة ، من كتاب الطقوس لشارل الأصغر (٨٢٣ - ٨٧٧) ، تتويج أمير فرنجي . لعله شارل نفسه ، يحيط به رجلا دين ، ويبدو كأن الله يضع على رأسه التاج بيده . تمثل الصورة دور الكنيسة في دعم العرش ، واعتقاد الملك برسالته الالهية في أن واحد .

(٦) - كانت زعامة شارلمان العسكرية أساس قوته . كان العرف الفرنكي قائما على مبدأ التجنيد القبلي ، الذي يفرض على كل رجل حر واجب الخدمة العسكرية . وتجهيز نفسه بنفسه أثناء الحرب . بعد فترة ، تنازل أحرار الطبقة الوسطى عن أراضيهم للاقطاعيين المحليين . وحاربوا في حاشيتهم . فوفروا بذلك على انفسهم التكاليف اليومية ، لكنهم قوضوا وحدة الجيش .

(حكم ٨٥٥ - ٨٦٩) . تدل نوعية النقش على استمرار الانجازات الفنية . في الامبراطورية الكارولنجية .

(٣) - أذت وفاة رولان ، في معركة رونسفال عام ٧٧٨ ، الى تأليف احدى القصائد الملحمية الكبرى . المعروفة « بنشيد رولان » . تجعل هذه الملحمة من فرسان شارلمان ، حملة نبلاء للمسيحية ضد المسلمين . وهكذا وضع الكارولنجيون في الأدب ، كما في السياسة ، أساس الأساطير في العصور الوسطى . الواقع انه لدى تراجع قوات شارلمان ، بقيادة رولان ، خوفا من عيد الرحمن الداخل ، عبرت تلك القوات جبال البرانس ، فهاجمتها جماعة من الباسك والمسلمين أبادت فلولها في رونسفال ، وقتل رولان .

(٤) - حفلة تتويج شارلمان على يد البابا ليون الثالث في كنيسة القديس بطرس في عيد الميلاد عام ٨٠٠ ، كما رسمها جان فوكي . في القرن الخامس عشر ، كان شارلمان الذي أعاد روما للبابا اثر سحقه لثورتها



تلاشى من العالم الهرم كل شيء جميل ، ولم يبق أي اثر من قوته السابقة .

(٢) - « بلورة لوثار » . هي قطعة من البلور نقش عليها ببراعة مشاهد من الكتاب المقدس ، وقد صنعت في القرن التاسع . كانت هذه البلورة مئكاً للوثار الثاني حاكم اللورين

(١) - كانت مساحة امبراطورية شارلمان عند موته في ٨١٤ التقيض التام للتقسيم الذي تم التوصل اليه في فردان عام ٨٤٣ بعد ٣٠ سنة من النزاع بين خلفائه . كتب في ذلك الشاعر ثيودولف ، « أخذت الشقوق تظهر على الجدار المنيع الذي عرفت جمال زخرفته . أثناء شبابي . لقد

أخذ يحكم إيطاليا بالقوة . وأقسم اليمين على دعم البابا .

حكم شارلمان

مع الزمن ، أصبح الكرسي البابوي يخشى الفرنك خشيته اللومبارديين ، فراح يعمل على تقليص سلطة شارلمان . لكن المشكلة انتهت عام ٨٠٠ عندما توج ليون الثالث شارلمان امبراطورا (٤) وأنشأ « الامبراطورية

الرومانية المقدسة » . واضعا بذلك أسس الادعاء القائل بأن الامبراطور انما يستمد سلطته من الله ، وان البابا هو الذي يخلعها عليه (١) .

كان شارلمان أميا ولكنه كان محاربا ، فحاض المعارك ضد اللومبارديين في إيطاليا ، وضد زعماء الأجيلولفنج البافاريين . بالإضافة الى ذلك ، كانت له سلسلة مستمرة من المعارك ضد من كانوا يسمون

(٧) - كانت كنيسة قصر شارلمان في آخن التحفة المعمارية لأوروبا الكارولنجية ، ورمز السلطة الامبراطورية . بنيت على طراز كنيسة سان فيتالي في رافينا ، عاصمة الامبراطورية في إيطاليا ، بعد سقوط روما ، وصنمت كمعبد لايواء عرش شارلمان . يظهر في هندسة أرضية البهو الداخلي والأقواس والأعمدة تأثير الهندسة الاسلامية .

(٨) - كان شارلمان أقوى حاكم في تاريخ أوروبا ، في أوائل العصور الوسطى . كان طوله ١٩٣ سنتيمترا . وكان عريض المنكبين ، وذا مظهر مهيب . كانت شخصيته غامضة ، وإيمانه الشخصي متقلبا ، مع انه عمل على توطيد المسيحية ، في أرجاء مملكته . كان ذا طموح سياسي ، ونجح في تعيين وزراء قديرين ، وأدرك أهمية التربية والتعليم مع أنه لم يكن يجيد القراءة . وخذ أوروبا الغربية وأعاد بناء ما يشبه الامبراطورية الرومانية القديمة . الا أنه كان يعتبر

(٧) - كانت كنيسة قصر شارلمان في آخن التحفة المعمارية لأوروبا الكارولنجية ، ورمز السلطة الامبراطورية . بنيت على طراز كنيسة سان فيتالي في رافينا ، عاصمة الامبراطورية في إيطاليا ، بعد سقوط روما ، وصنمت كمعبد لايواء عرش شارلمان . يظهر في هندسة أرضية البهو الداخلي والأقواس والأعمدة تأثير الهندسة الاسلامية .



« بالبرابرة » على تخوم المملكة : مثل العرب والآفار والسلاف والساكسون والدنمركيين . لم تكن الحرب تدور لأسباب سياسية فقط . بل كان شارلمان غالبا ما يحارب من أجل الاستيلاء على الغنائم . كان شارلمان فقيرا أثناء سني حكمه الأولى ، وكانت سلطة الملك لدى الفرنك تعتمد على قدرته على الانعام على أتباعه .

حارب شارلمان العرب في الاندلس في حملة رئيسية بلغت حدود سرقسطة سنة ٧٧٨ . وانهزم عائدا عبر البيرنه . حيث أباد المسلمون والباسك فلول الحملة . وقتلوا الكونت رولان (٣) في هزيمة منكرة . بقيت ذكراها في « أنشودة رولان » الشهيرة .

أدت قوة شارلمان العسكرية الى قيام حكومة أوروبية مركزية كانت بحاجة الى جهاز اداري أكثر تعقيدا مما عرفه الفرنك من قبل . دشن شارلمان بلاطه الجديد في آخن (٧) ، بتشييد قصر اقتبس الكثير عن الهندسة الاسلامية . وكاتدرائية بنيت على نمط امبراطوري . فضلا عن ذلك ، استخدم طائفة من العلماء ، منهم ألكوين من نورثمبريا وتيودولف من اسبانيا ، لتدريب طبقة جديدة من الاداريين ، ولوضع كتابة جديدة سهلة القراءة ، ولإصلاح تقاليد الكنيسة وطقوسها ، ولوضع فلسفة امبراطورية تتماشى مع واقع السلطة الامبراطورية .

تنظيم المجتمع الفرنكي

حكم شارلمان ممتلكاته بواسطة نبلاء محليين ، بلغ عددهم أكثر من ٢٠٠ . كان كثير منهم من أصل ملكي ، فأدى تعيينهم من

قبل شارلمان ، الى وضع أسس ارستقراطية دولية ، استمر وجودها حتى بعد سقوط الامبراطورية الكارولنجية .

كانت الادارة الملكية تصدر في سلسلة من المراسيم الامبراطورية التي تميزت بالوضوح والقوة . لعبت الكنيسة دورا رئيسيا في الادارة ، عن طريق الخدمات التي كان يقدمها الاساقفة والكهنة المثقفون من جهة ، وتوحيد العقيدة والممارسة من جهة ثانية .

كان المجتمع الفرنكي ، قبل ذلك الوقت ، مبنيا على ولاء القبيلة الشخصي للملك وحسب . لكن شارلمان أخذ تدريجيا يأمر بيمين ولاء جديدة . كانت هذه الأيمان بداية الملكية الاقطاعية المبنية على يمين ولاء تقسمها طبقة من النبلاء الملاكين ، وهو مفهوم يختلف كل الاختلاف عن ولاء القبيلة الشخصي لرعيها .

أراد شارلمان أن يترك امبراطوريته مقسمة بين أولاده ، الا أن عهد ابنه لويس ، الذي بدأ عام ٨١٤ ، كان عبارة عن فترة من التنافس العائلي المرير ، بينما راحت الكنيسة تشد بقبضتها على الشؤون الدنيوية . ثم زادت في وهن الامبراطورية موجة جديدة من الهجمات الخارجية ، قام بها العرب والبريطانيون والفايكنج والنورمانديون . توفي لويس عام ٨٤٠ ، وبعد ثلاث سنوات من الصراع ، قضت معاهدة فردان بتجزئة الامبراطورية الى ثلاثة أقسام .

مع نهاية القرن التاسع ، كان الحكم الكارولنجي قد تلاشى ، الا أنه أعطى أوروبا نموذجا للحكم الامبراطوري ، وارستقراطية اقطاعية دولية ، وسلسلة من الروابط الاجتماعية الهامة .

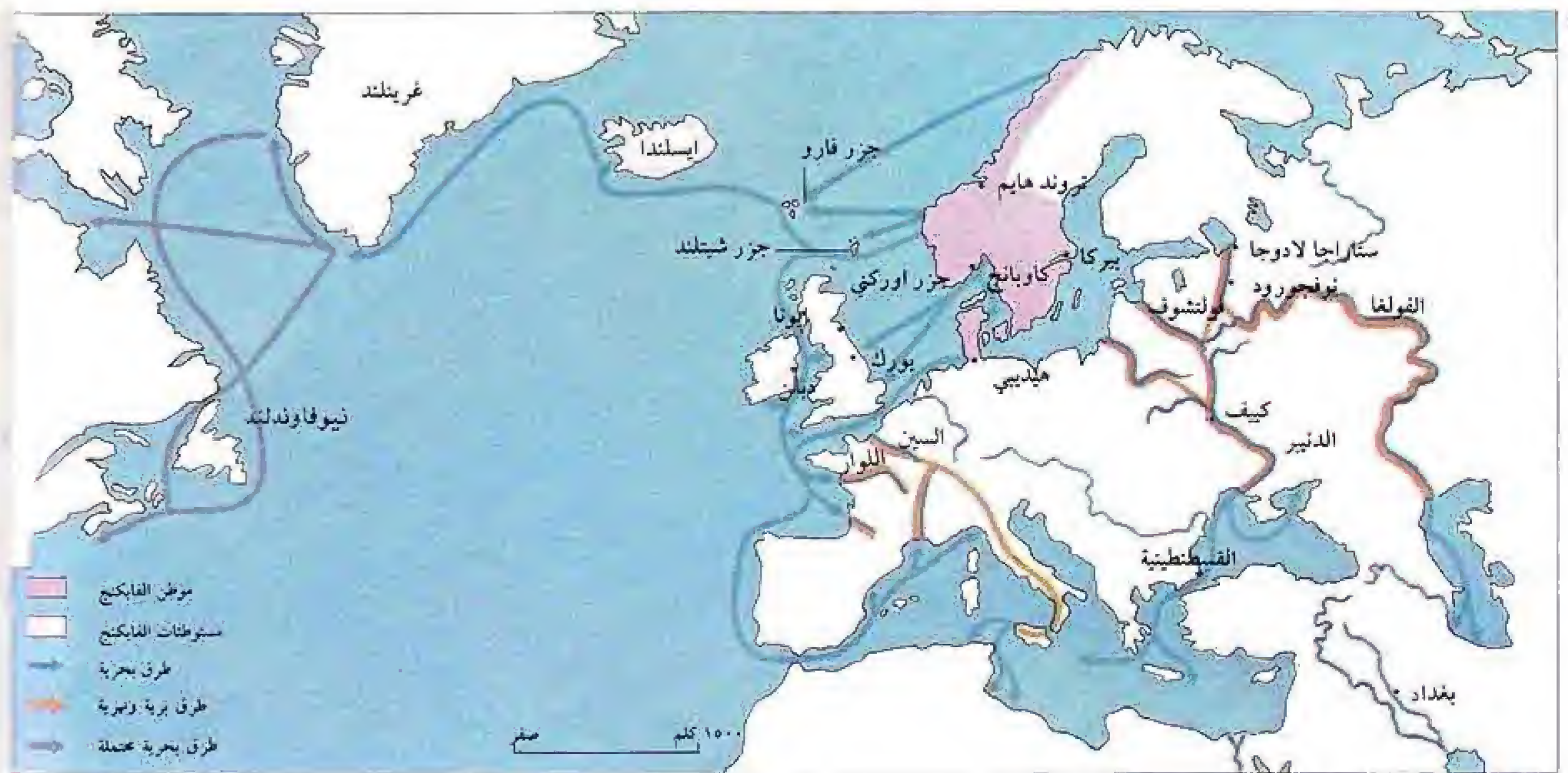
الفايكنج

السكان في بلادهم ، من الاسباب التي أدت الى توسعهم في هذه الفترة . شرعوا يهاجمون الأديرة الغنية غير المحمية ، وينهبون كنوزها ، ويقتلون ويستعبدون رجال الدين . كالهجوم الذي قاموا به على دير القديس كثر في لنديسفارن بنورثمبرلند (٢) .

استعمار بريطانيا

انصرف بعض هؤلاء القادمين من البلاد

في أواخر القرن الثامن . اندفع الاسكندنافيون الوثنيون الذين عرفوا باسم « فايكنج » عبر ممالك أوروبا الغربية الغنية . كانت التحسينات التي أدخلها الفايكنج على تصميم سفنهم الطويلة ، وتزايد



٣



٢ في الغرب . كانت أهم مناطق الاستيطان جزر بريطانيا الشمالية والغربية . وشمالي وشرقي إنجلترا . والموانئ الأيرلندية (التي أسسوها هم أيضا) . وعن طريق المسالك البحرية الغربية بلغوا أمريكا . لكنهم لم ينشئوا فيها مستوطنات .

(٢) - هذان المشهدان المأخوذان من لينديسفارن ،

(١) - استخدم الاسكندنافيون ، في عصر الفايكنج . هذه الطرق الرئيسية في بحثهم عن الثروة وعن اراض يقيمون فيها . تظهر في الشرق المدن التي أسسوها على ضفاف الأنهار كمراكز لهم . مثل كييف ونوفجورود . من هذه المراكز . وعلى طول الأنهار . وصل الاسكندنافيون الى مصادر التجارة والثروة في الشرق . وفي الامبراطورية البيزنطية .

الاسكندينية الى استعمار الاراضي للاقامة فيها . فالقبور ، في اسكتلندا الغربية وفي مناطق بريطانية أخرى ، وهي تزخر ، حسب التقاليد الاسكندينية الوثنية المتبعة في الوطن الأصلي ، بالأسلحة والأشياء المنزلية ، تدل على عملية استيطان تدريجية في هذه المناطق . وفي انجلترا تحولت الغزوات الاسكندينية الى عمليات استيطان . في العقد السادس من القرن التاسع ، ثم بعد

سلسلة من الحملات ضد الممالك الانجليزية ، اخذ الاسكندينيون يستوطنون رسميا كفاتحين ، وبموجب اتفاقية مع الفريد الكبير عام ٨٧٨ ، استوطن الاسكندينيون شرقي وشمال خط يمتد من نهر « لي » الى نهر « دي » . هنالك أسسوا مملكة واحدة على الأقل (قاعدتها يورك) ، بالإضافة الى كيانات سياسية أخرى في ايسلنديا ، ومنطقة ميدلاندز ، حيث كانت سلطتهم



يخيلان ذكرى الغزو الفايكنجي . يقول أحد النقوش على هذا الحجر ، « ٧٩٣ . في هذه السنة ظهر في سماء نورثمبريا نذير شؤم ... فقد دمرت هجمات الوثنيين كنيسة الله في لينديسفارن » .



(٤) - تمثال بوذا البرونزي هذا نقل من أفغانستان أو الهند ، الى السويد في عصر الفايكنج . تشمل الأشياء المستوردة الى اسكندينيا ، والتي عثر عليها أثناء الحفريات ، نقودا عربية وبيزنطية وانجليزية وفرنسية والمانيّة ، بالإضافة الى الحرير ، وجلود حيوانات أجنبية ، ومصنوعات معدنية من بريطانيا ، وفخار وزجاج من المانيا .

(٥) - « ثور » هو معبود الرعد والزراعة والحرب الاسكنديني ، ويرمز اليه عادة بالمطرقة . في هذا التمثال البرونزي الذي يبلغ طوله ٦,٧ سم ، تتخذ لحيته شكل المطرقة ، وهذا الرمز كثيرا ما كان يستعمل كتعويذة ، لحماية لابسها من الشر .

(٦) - هذا القيدوم (مقدمة السفينة) المحفور بشكل



جميل ، هو جزء من سفينة فايكنجية مستطيلة وجدت كاملة ، داخل قبر امرأة من نساء القرن التاسع ، في أوسبرج بالنرويج . يبلغ طول السفينة نفسها ، وهي مصنوعة من خشب السديان ، ٢٣ مترا ، وكانت بالدرجة الأولى سفينة شراعية ساحلية . يمكن أيضا تسييرها بالمجاديف . هذه السفينة هي من أكبر النماذج لسفن الفايكنج المستطيلة .

(٣) - هذا التصميم لأحد البيوت اكتشف في حفريات أئس - أو - ميدوز في نيوفاوندلند ، ويمكن رد تاريخه الى القرن الحادي عشر . يتصف بعدد من ملامح هندسة البيوت التي بناها الفايكنج في مستوطناتهم الاستعمارية ، في أيسلندا وجرينلندا .

تتركز في « المدن المستقلة الخمس » :
ليستر . ستامفورد . لينكولن . داربي .
ناتينهام . في منتصف القرن العاشر . كان
الانجليز قد استعادوا هذه المناطق . لكن
انجلترا بكاملها تعرضت ثانية لفتح
الاسكنديناويين وأصبح رجل دنمركي يدعى
كانوت (٩٩٤ - ١٠٣٥) ملكا على انجلترا
لفترة قصيرة .

استمرت المستوطنات الاسكنديناوية

قائمة . في اسكتلندا وجزيرة مان حتى
القرن الثالث عشر . (وفي جزيرتي أوركني
وشيتلند حتى القرن الخامس عشر) . لكن
في ايرلندا . لم يحاول الاسكنديناويون فتح
البلاد بكاملها . بل اكتفوا بتأسيس عدد من
المدن . كانت دبلن أكثرها أهمية . اذ كانوا
يستطيعون بواسطتها التأثير في تجارة
الساحل الأوروبي الغربي . كانت السلع
المستوردة من فرنسا واسبانيا تتقايز بالعبيد



(٧) - انتشل بدن سفينة نقل
صغيرة من قاع خليج روسكيلد
في الدنمرك وأعيد تركيبه .

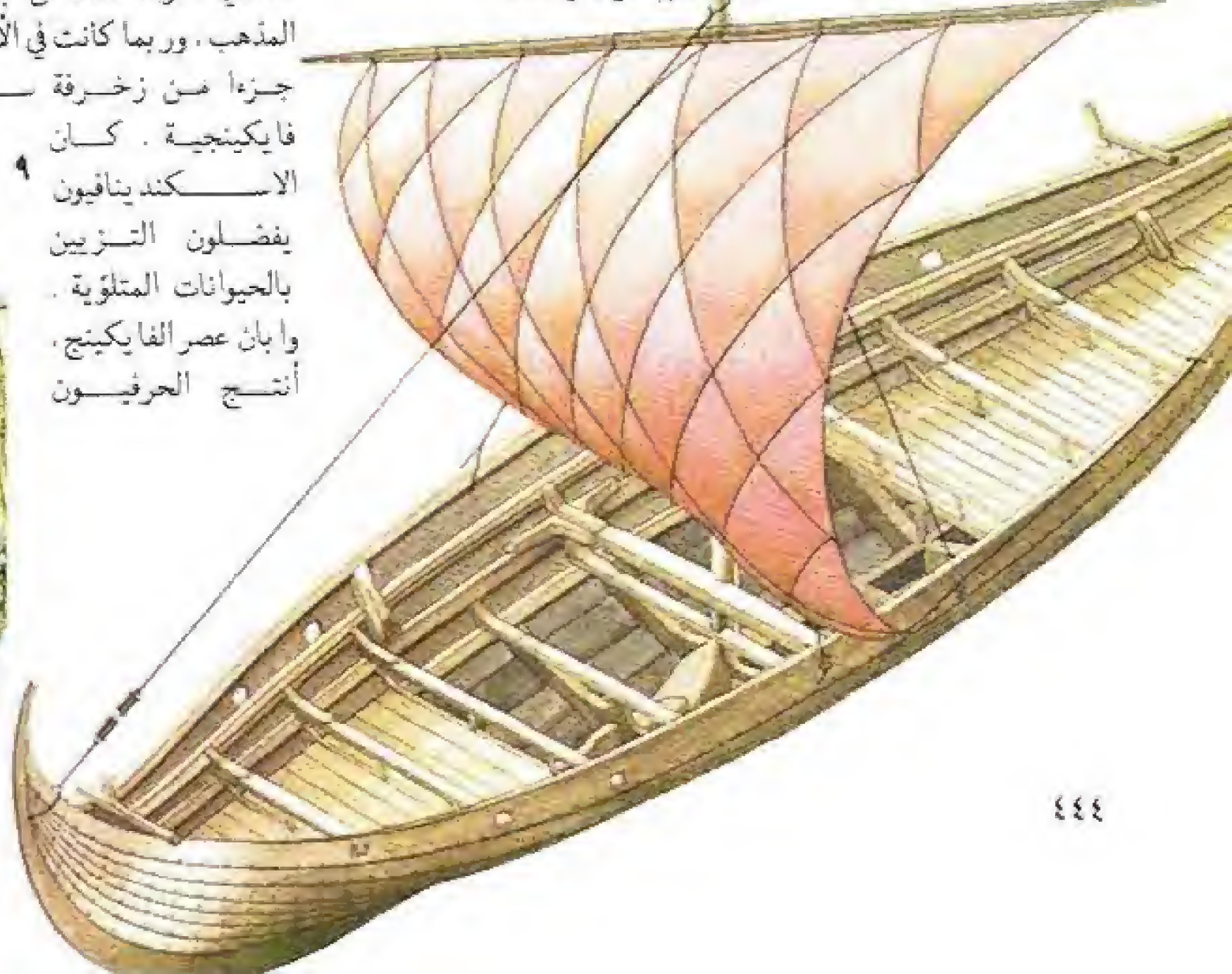
(٨) - كان الموقد المكشوف
في وسط هذا البيت . الذي أعيد
تركيبه في مدينة هيدبي
بجوتلندا الجنوبية . يؤمن
الحرارة اللازمة لتدفئة الغرفة
وللطبخ . كانت الأسرة تجلس
على مقاعد الطين الى جانبي
الغرفة . وتأكل على موائد
منخفضة . كانت الجدران
مصنوعة من الأغصان والطين .
وربما كانت تغطي بستائر .
على كل من الجانبين كانت
تقوم غرفة واحدة .

(٧) - انتشل بدن سفينة نقل
صغيرة من قاع خليج روسكيلد
في الدنمرك وأعيد تركيبه .
يبلغ طول السفينة ١٣,٥ م . ولها
ظهر في المقدمة والمؤخرة
وعنبر في الوسط . الساري
مثبت على قاعدة السفينة .
ويدعم الشراع الكبير الوحيد
صار واحد مستعرض . كان من
الممكن انزاله وحفظه في
المستودع في حالة عدم
استعماله . كذلك كان يمكن
دفع السفينة بواسطة مجاذيف
تدل عليها الثقوب المربعة
الظاهرة في السطح الجانبي
لها . كانت السفينة تدار

مصنوعات ممتازة . مزينة
بصور الحيوانات . جاءت
مستقلة في الغالب عن
تأثير الفن الأوروبي المعاصر
لها . تشهد الآثار الشبيهة بهذه
الدوائر على براعة المزخرفة .

(٩) - تشهد على اتقان حرف
الفايكنينج هذه الدائرة (دليل
اتجاه الرياح) التي تعود الى القرن
الحادي عشر . صنعت من البرونز
المذهب . وربما كانت في الأصل
جزءاً من زخرفة سفينة

فايكنينية . كان
الاسكنديناويون
يفضلون التزيين
بالحيوانات المتلوية .
وابان عصر الفايكنينج .
أنتج الحرفيون



والعاج وسواها . من منتجات الشمال .

في البلدان الأوروبية الغربية الأخرى كان الاسكنديناويون أقل نجاحا كمستعمرين أو فاتحين . فلم ينجحوا الا في نورمانديا . حيث منح رجل اسكنديناوي يدعى رولو عام ٩١١ الحق باستيطان وإدارة معظم تلك البقعة من فرنسا .

انتقل الاسكنديناويون أيضا الى شمالي الأطلسي بحثا عن الغنائم والأراضي الزراعية . فاستوطنوا جزر فارو التي كانت مجهولة . حتى ذلك الحين . ثم ايسلندا . وبلغوا جرينلاند حيث أسسوا مستوطنتين رئيسيتين . ويبدو أيضا أنهم نزلوا على ساحل أمريكا الشمالية .

أوروبا الشرقية

كان للاسكنديناويين نفوذ في أوروبا الشرقية أيضا . فمنذ الحقبة الرومانية ، كانوا يتاجرون ، بصورة متقطعة ، مع منطقة شرقي البحر المتوسط . سالكين طريق الأنهر البولونية والروسية . لكن في القرن الثامن . حدثت حركة تجارية أكثر اتساعا وتنظيما . فأسس السويديون محطات تجارية . وتقاضوا الجزية من القبائل الفينو - أوجريكية والبلطية والسلافية . في شرقي بحر البلطيق . وفي القرن التاسع . ساهم الاسكنديناويون بنمو المدن التجارية الروسية . في ستاراجا لادوجا ونوفجورود وكييف . وبقيت الطرق النهرية الممتدة على طول نهري الفولتشوف والدنيبر . (والتي كانت تؤدي من بحيرة لادوجا الى البحر الأسود والقسطنطينية) تحت سيطرة الاسكنديناويين الى حد كبير . من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر .

التجارة والتنظيم الاقتصادي

كانت صادرات الاسكنديناويين الرئيسية الفراء والعسل والعبيد . بينما كانت وارداتهم الرئيسية الفضة والبهارات وسواها من السلع الكمالية . يدل على كبر حجم هذه التجارة الشرقية وجود حوالي ٤٠٠٠٠ قطعة نقد عربية (على أقل تقدير) . عثر عليها في مواقع تعود الى عهد الفايكنج في جوتلندا والسويد .

تدل أيضا على هذه العلاقات مع الشرق . نقوش طويلة محفورة بأحرف رونية (أبجدية توتونية قديمة) على حجارة سويدية . بعض هذه النقوش يشير الى بعثات تجارية . كما يدل على وجود اسكنديناوي مسالم في روسيا . فيما يتحدث بعضها الآخر عن أحداث أكثر عنفا . كحملة عسكرية الى بلاد العرب مثلا . أو نزول مرتزقة اسكنديناويين في روسيا أو بيزنطة . كذلك تشهد المصادر اليونانية على وجود اسكنديناويين . بين حراس الامبراطور .

كانت الغزوات والاستعمار والتجارة . وسواها من نشاطات الفايكينج التي رسخت معالمهم في التاريخ الأوروبي . مبنية على اقتصاد منزلي حضاري . كانت الزراعة أساس هذا الاقتصاد . الذي توسع باستثمار أراض هامشية في اسكنديناويا ذاتها . وانشاء عدد من المباني التي لعبت دور محطات تجارية رئيسية . مثل بيركا في السويد وهيديبي في جوتلندا الجنوبية (٨) . وتشير المعلومات الأثرية وكتابات الرحالة التي عثر عليها في هذه المدن الى علاقات الاسكنديناويين الدولية . مع ذلك كان الاسكنديناوي . في عهد الفايكينج . مزارعا بالدرجة الأولى .

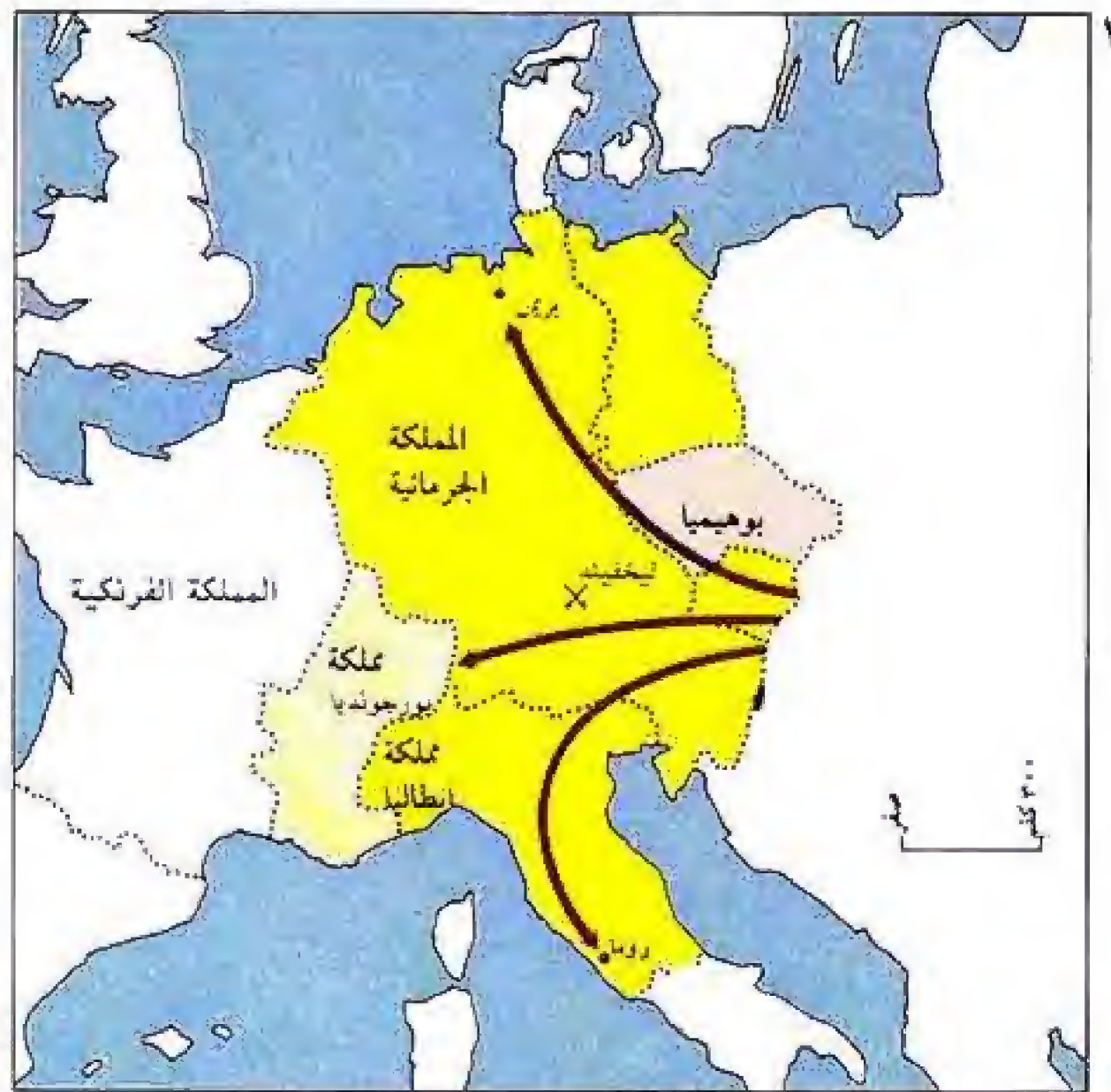
الامبراطورية الرومانية المقدسة

الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لأنها كانت مبنية على النظرية القائلة بأن البابا يتمتع بالسيادة في الشؤون الدينية ، وبأن الامبراطور هو الذراع المدني للكنيسة وحاميها ؛ ودعيت رومانية ، لأن روما كانت لمدة طويلة المركز السياسي للعالم (٧) .

حاولت « الامبراطورية الرومانية المقدسة » أن تبعث الى الحياة من جديد « غربا » مسيحيا موحدًا ، كمثل ذلك الغرب الذي عرفته ، نظريا ، السنوات الأخيرة من الامبراطورية الرومانية . وصفت هذه

الصراع على السلطة

لم تكن النظرية القائلة « بأن البابا هو



- | | | |
|--|--|--|
| <ul style="list-style-type: none"> دوقية هوهنشتاوفن الوحيدة ١١٥٢ امبراطورية فريدريك الأول مقاطعة متحدة مع الامبراطورية ١١٨٤ مقاطعة عاصمة لفريدريك الأول مقاطعة يحكمها هنري السادس وفريدريك الثاني الدول البابوية ١١٥٢ | <ul style="list-style-type: none"> الدول البابوية منذ ١٢١٣ مدن حلفي لومباردوا وليرونا | <ul style="list-style-type: none"> امبراطورية أوتو الأول ٩٦٢ دولة تابعة مقاطعة خاضعة بعد ٩٥٠ الغزو الذي قام به المجر حتى ٩٥٥ |
|--|--|--|

- (١) - بدأ توسع الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد تتويج رجل سكسوني عام ٩٣٦ ، هو أوتو الأول (٩١٢ - ٩٧٣) ، زعيما على الدوقيات القبلية الألمانية الخمس ، ساكسونيا وفرنكونيا
- وبافاريا وسوابيا ولوثارينجيا . أدت محاولات أوتو الأول لتوسيع سلطته الى صراع متواصل ، لكنها أدت ايضا الى تتويج البابا له امبراطورا عام ٩٦٢ ، وذلك بعد أن كان قد
- أصبح ملكا على اللومباردين عام ٩٥١ ، وبعد أن مهد بانتصاره على المجر في معركة ليخفيلد عام ٩٥٥ ، لامتداد الامبراطورية غربا .
- (٢) - كانت انجازات فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) الإقليمية ، وقد بلغت ذروتها في معركة بوفين (١٢١٤) التي هزم فيها آخر خصومه ، تحقيقا للطموح

ممثل سلطة الله الروحية على الأرض . وان الامبراطور هو ممثل السلطة الزمنية » ، حقيقة واقعة الا نادرا . فمن الناحية العملية . كان الأباطرة هم الاقوياء أحيانا . والباباوات أحيانا أخرى . كما كانت السلطة تتأرجح بين الاثنين في فترات أخرى . لكن منذ منتصف القرن الثامن . أخذ الكرسي البابوي يتطلع بصورة متزايدة نحو الفرنك . لتأمين حمايته من اللومبارديين . وبلغ هذا الاعتماد

ذروته عام ٨٠٠ عندما توج البابا ليون الثالث شارلمان امبراطورا في روما . ومع ان عبارة « الامبراطورية الرومانية المقدسة » لم تستعمل حتى القرن الثاني عشر . فالاعتراف البابوي بشارلمان يمكن اعتباره بداية هذه الامبراطورية .

النزاع على صلاحيات التنصيب
الا أن روحا اصلاحية جديدة منبثقة من

دير كلوني . و « ماتيلدا » التوسكانية . لطلب العفو من البابا . قد جرح الكبرياء الالمانى في الصميم . حتى أن خلاف بسمارك مع البابا في القرن التاسع عشر يعزى الى رغبة بسمارك في ان لا يذهب الى « كانوسا » أخرى .



(٥) - « قلعة ديل موتى » في ايطاليا الجنوبية هي أروع حلقة في سلسلة التحصينات الاستراتيجية التي صممها فريديريك الثاني . بتأثير من الأسلوب العربى . بنى هذا الامبراطور . في صقلية وأبوليا . جهازا دفاعيا واداريا . كان أكمل الأجهزة وافضلها في أوروبا .

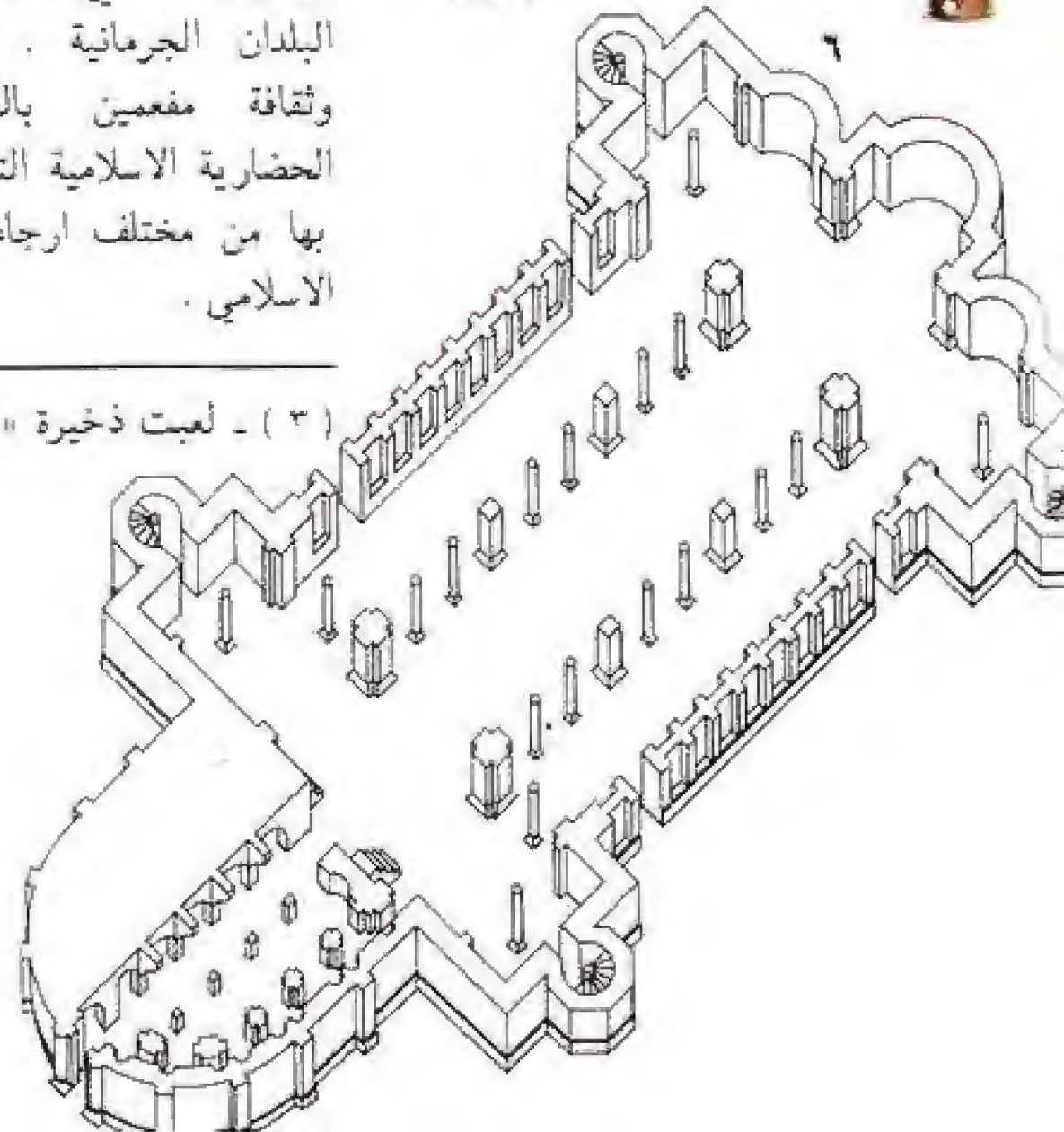
(٦) - بنيت كنيسة القديس ميخائيل . في هيلدهايم في ساكسونيا . في أوائل القرن الحادى عشر . تحت اشراف الأسقف بورنوارد . ودمرت أثناء الحرب العالمية الثانية . زينت بعد بنائها برسوم برونزية بديعة . وبسقف أفقى مطلى رائع . تغطيه برمته صورة « شجرة جيسى » .

المقدسة » التي يعتقد المسيحيون انها اخترقت خاصرة المسيح . دورا سياسيا خطيرا في العصور الوسطى . وذلك بسبب التقليد القائل ان القديسة هيلانة اعطتها لقسطنطين . ومنه آلت الى أوتو الأول .

(٤) - كانت حادثة « كانوسا » أكثر الأحداث عارا في تاريخ الامبراطورية . ومع ان نتائجها السياسية كانت في مصلحة هنري الرابع في آخر الأمر . فان مشهد امبراطور تائب يلتمس شفاعته « هيو » رئيس

فطوقت ممتلكاته الدولة البايوية تطويقا تاما . أنجز فريديريك الثاني تحالفا بين البلدان الجرمانية . ونظاما وثقافة مفعمين بالتأثيرات الحضارية الاسلامية التي جاء بها من مختلف ارجاء العالم الاسلامي .

(٣) - لعبت ذخيرة « الحربة



داخل البابوية ، أثارت مشكلة رئيسية حول قضية صلاحيات التنصيب . فالسؤال الذي أثير هو : من الذي ينصب الأساقفة ، البابا أم الامبراطور ؟ ولكن النزاع في أساسه كان يدور في الحقيقة حول الثروة والسلطة المرافقتين للمناصب المتنازع عليها .

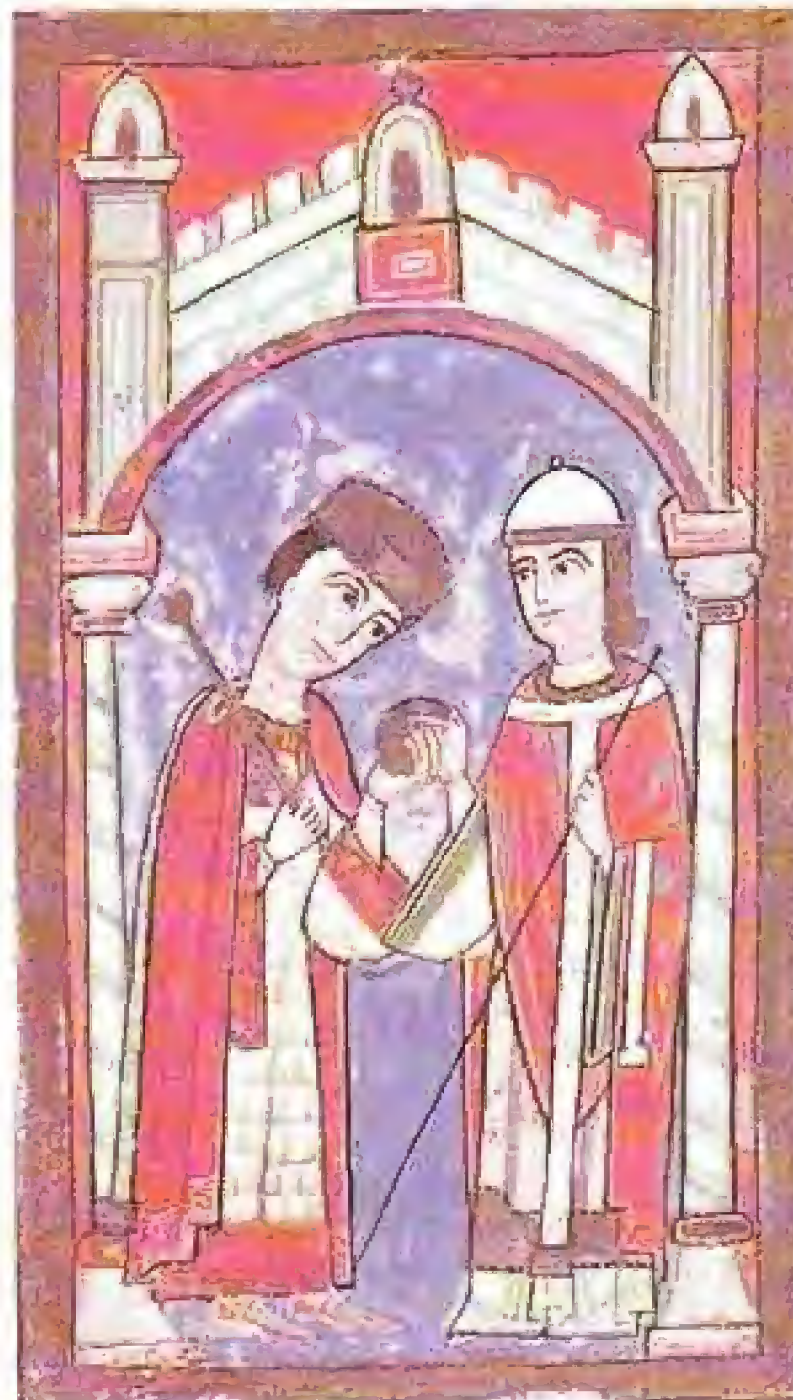
حين بلغ « النزاع على صلاحيات التنصيب » (كما سميت هذه المشكلة) ذروته ، أدى ذلك الى انهيار تام للعلاقات

الامبراطورية - البابوية ، مما اضعف المبررات النظرية التي قامت عليها الامبراطورية الرومانية المقدسة وسلطتها الفعلية . بلغت هذه المنافسة أوجها في عهد الامبراطور هنري الرابع (١٠٥٠ - ١١٠٦) الذي دعا الى مجمع امبراطوري في وورمس عام ١٠٧٦ وتوصل بواسطته الى خلع البابا غريغوريوس السابع . رد غريغوريوس بعمل مماثل ، فخلع هنري وحرمه من الكنيسة ، وبدأ بتشكيل

٩

٨

٧



١٠ جميع الشعارات والرموز الامبراطورية ، لابنه هنري الخامس ، عارض بعض أفراد عائلته قراره بخلع البابا غريغوريوس السابع ، وتنصيب

(١٠) - يبين رسم بيتر الايبولي لحصار نابولي (١١٩١) جيوش هنري السادس ، وهي تحاول بالقوة فرض حق زوجته في المملكة النورماندية الايطالية . على الرغم من نجاحه في المراحل الأولى ، فإن نابولي لم تسقط . لم يتوج هنري السادس ملكا على صقلية الا عام ١١٩٤ .

بابا جديد ، وانضم اليهم هنري الخامس بعد أن أصبح شريكا في الحكم عام ١٠٩٩ . ولم يلبث أن خلع والده عن العرش .

(٩) - صنع « بوق صيد شارلمان » . وهو أحد كنوز الأباطرة ، في القرن الحادي عشر على الأرجح . لكنه لم يكن له أية صلة بشارلمان .

الجانبين صور ملوك من الكتاب المقدس . يرمز التاج بمجمله الى وظيفة لابسه المزدوجة = حاكم زمني ، ووصي للمسيح على الأرض .

(٨) - جاء اذلال هنري الرابع النهائي ، والذي يبدو في هذه الصورة المعاصرة له ، عام ١١٠٥ ، عندما أجبر على التخلي عن

(٧) - صنع تاج أوتو الأول الامبراطوري بمناسبة تنصيبه على يد البابا عام ٩٦٢ . يظهر الصليب المسيحي في مقدمته . وهو مئمن الشكل ليرمز الى أورشليم السماوية ، وتعلوه قطعة نصف دائرية تمثل السيطرة على العالم . تحتوي كل من لوحته الأمامية والخلفية على ١٢ حجرا نفيسا كما تظهر على

حلف قوي ضد الامبراطورية . حين أدرك هنري خطورة وضعه . قبل أن يقضي ثلاثة أيام مؤتزرا قميصا من الشعر في كانوسا (٤) بانتظار غفران البابا . عند ذلك سحب غريغوريوس قرار الحرمان . لكنه أبقى قرار الخلع ساري المفعول . فرد هنري على ذلك بالزحف على روما عام ١٠٨٤ . وارسال غريغوريوس الى المنفى . حيث لاقى حتفه . أخيرا جاء حل « النزاع على صلاحيات التنصيب » عن طريق تسوية سمحت للامبراطور بأن ينصب الأساقفة بتسليمهم الصولجان . تمهيدا لتكريسهم من قبل السلطات الكنسية .

بلغت تطلعات الامبراطور الدينية والسياسية ذروتها في عهد أسرة هوهنشتاوفن (١١٣٨ - ١٢٥٤) . كان كل من فريدرىك الأول بارباروسا (١١٢٣ - ١١٩٠) وهنري السادس (١١٦٥ - ١١٩٧) يعتبر نفسه حاكما مقدسا لامبراطورية جرمانية أقامها الله . ارتكزت سلطة فريدرىك الأول على تحالف عقده مع هنري « أسد سكسونيا » ، ضد النورمانديين وأهالي روما . وعندما عارضه البابا في عام ١١٥٩ عين بابا آخر من عنده . هو فيكتور الرابع . منذ ذلك الوقت أخذ الكرسي البابوي يؤيد « الحلف اللومباردي » .

انهيار حلم

طالب الامبراطور هنري السادس بجميع أراضي النورمانديين . لاسيما صقلية (١٠) . وراح يحلم بالاستيلاء على تونس . بل حتى على القسطنطينية . وأنشأ أول اسطول امبراطوري . ترعرع ابنه فريدرىك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) في صقلية . فكان مواطنا من

مواطني البحر المتوسط أكثر مما كان ألمانيا . كان طموحا ورييا في آن واحد . ناصب الكرسي البابوي عداا مريرا . وحقق أعظم توسع للنفوذ الامبراطوري (١) و (٢) . كانت صقلية . في ظل أسرة هوهنشتاوفن . من الناحية الثقافية . عبارة عن مزيج من التأثيرات الايطالية والعربية واليونانية والنورماندية والجرمانية . كما كانت جزءا من ثقافة اسلامية أوسع ممتدة من تركستان حتى اسبانيا الغربية .

كان فريدرىك ينظر الى السياسة كفن . والى الحكم كمهارة بيروقراطية . وأهم من كل ذلك . أنه قام برعاية الفنون والعلوم . وجاء من العالم الاسلامي بالعلماء والمفكرين والأدباء والفنانين ليزين بهم بلاطه . ويزود الفكر الاوروبى باتجاههم . كما أسس جامعة نابولي لكي تنافس جامعة بولونيا . فكانت أول جامعة أوروبية حديثة أثرت تأثيرا قويا على الثقافة الأوروبية . بعد أن زودها الامبراطور باعداد كبيرة من الكتب والمخطوطات العربية ووضع في منهاجها أعمال ابن رشد وغيره من العلماء المسلمين . وكان توماس الأكويني أحد طلابها .

أغضبت المفاوضات التي أجراها مع المسلمين الغرب المسيحي . لكنها مكنته من تتويج نفسه في القدس . دون أن يربح حربا صليبية . أدانته الكنيسة عام ١٢٤٥ في مجمع ليون الذي حكم بخلعه عن العرش . وعندما توفي . وقضى الكرسي البابوي على سلطة أسرته . انهيار حلمه بمستقبل امبراطوريته العالمية . بقيت الامبراطورية على قيد الحياة . ولكن على شكل منظمة اسمية . حتى وصول نابليون بونابرت الى ألمانيا عام ١٨٠٦ .

التوسع الأوروبي شرقاً

أوروبا الغربية تستعد لتصبح مسرحاً لنشاط مجتمع يفيض بالحيوية . في المنطقة الواقعة بين البحر البلطقي والدانوب ومستنقعات بريبيت ونهر الالبيا كان يتجول الرعاة الكارباتيون ، والبدو الرحل القادمون من المروج الروسية الجنوبية لينزلوا في حوض الدانوب ، وشعوب الغابات المعروفة بالفيستولا (وهم أسلاف الرومانيين والهنجاريين والبولونيين الحاليين) .

في القرون التي سبقت عام ١٠٠٠ للميلاد ، كانت أوروبا الشرقية عبارة عن أراض شاسعة مؤلفة من غابات قليلة السكان ، ومراع ، وجبال منخفضة سهلة العبور مر بها عدد من الشعوب المختلفة ، بينما كانت قرى ومدن



البولونية الاولى . نتج عن حكمه . الذي دام ٣٠ سنة . توطيد نظام البلاد الداخلي . واقامة كنيسة بولونية مسيحية وطنية . وتوسع هام في الخارج . كل هذه التطورات حولت بولونيا من تحالف بين قبائل سلافية الى ملكية مركزية قوية . استطاع هذا الملك . بواسطة تحالفه مع بوهيميا وهنجاريا

٩١٩ - ٩٣٦) الذي أراد اخضاع الواند والسلاف فضلا عن البوهيميين . فأصبحت بوهيميا أقطاعاً جرمانياً (تدين بولاء شكلي للامبراطور) . لكن وينيسلاس اعتبر مسؤولاً عن الهزيمة . فقتله أخوه بوليسلاف وخلفه بأسم بوليسلاف الأول .

(٣) - كان « بوليسلاف الكبير » مؤسس المملكة

واسعا للتجارة المحلية . وأصبحت آخر الأمر مراكز لتصدير الحبوب الى الغرب .

(٢) - أصبح القديس وينيسلاس دوق بوهيميا والمعتنق المتحمس للمسيحية . شفيح هنجاريا وبولوتيا وبوهيميا . لم يجرؤ . كدوق . على مقاومة عدوان الملك الجرمانى هنري الأول (حكم

(١) - كانت كاتدرائية جنيزنو (جنيزين) مركز الدين المسيحي . في الدولة البولونية الجديدة . كانت تحتوي على ذخائر القديس أدلبرت البراغي . أحد رسل أوروبا الشرقية . كانت جنيزنو . وهي مركز بولوني قديم . أهم المدن « القلاع » للملك بوليسلاف الكبير . وهذه المدن كانت ثكنات مزدهرة أفسحت مجالا

على التلال أو جزر المستنقعات) التي كانت عواصم لهم . كانت مروج الدانوب الأوسط ملتقى لموجات متتالية من الرّحل العائشين على غزو الأراضي المجاورة . كانت آخر هذه الموجات . من المجر الأشداء الذين كانوا خليطاً من الفنلنديين والأتراك .

انتشار التأثير الألماني

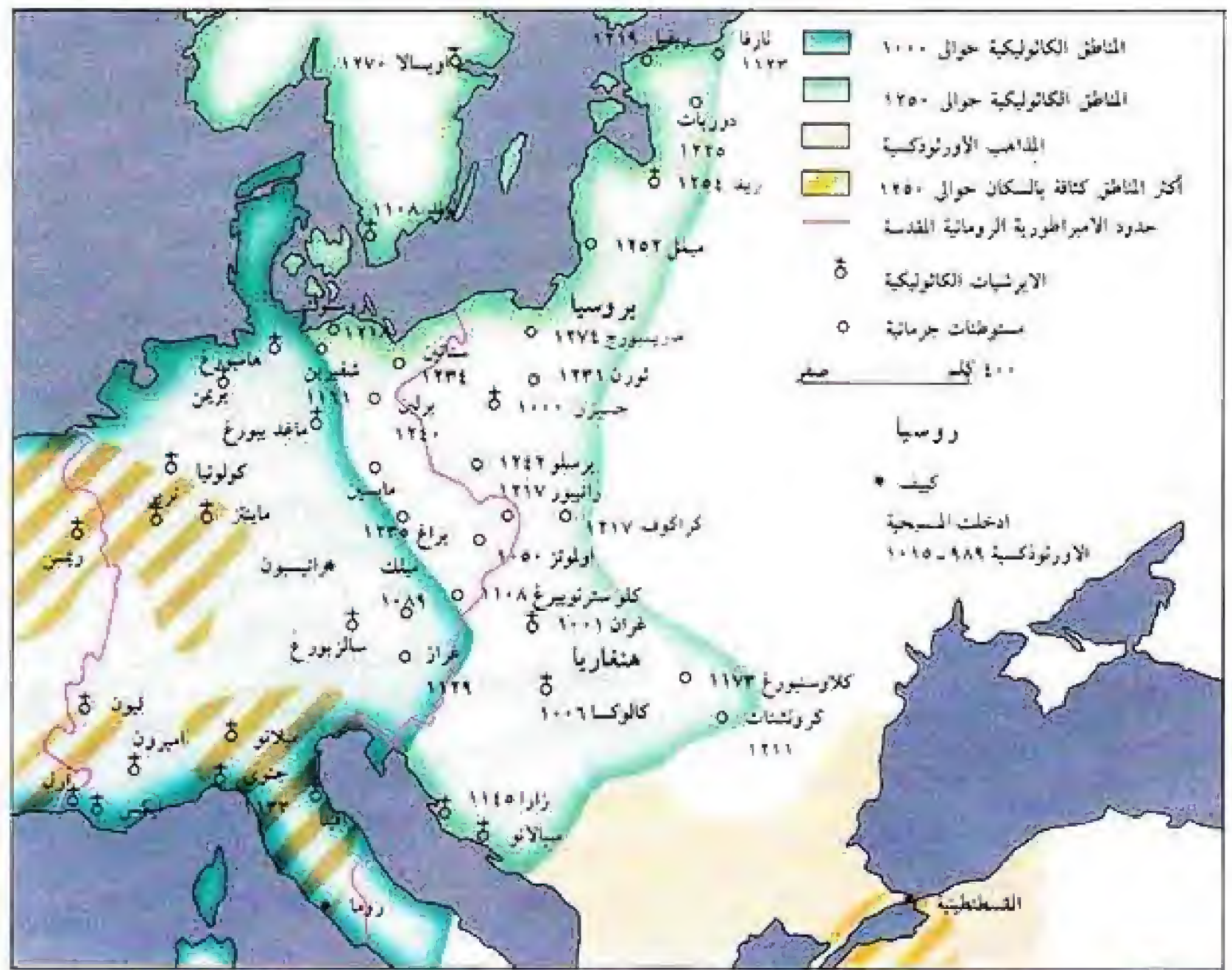
الى الغرب من هذه الشعوب . كانت

لم تتأثر هذه الشعوب بروابط الولاء السياسي أو الديني المصوّبة في المناطق المأهولة نحو الغرب والجنوب ، بل كانت ايضاً معزولة عن بعضها بعضاً من الناحية الثقافية .

يبدو أن شعوب الغابات ، وهم سلاف بولونيون أو تشيكيون ، كانوا يقسمون الى عدّة قبائل ، وقد تم اكتشاف عدد من « الغرودي » (المستوطنات المحصنة الواقعة

بوحدة النواة البولونية .
وجرى تنويع بوليسلاف
عام ١٠٢٤ .

(٤) - بدأت المسيحية بالانتشار في أوروبا الشرقية بين ١٠٠٠ و ١٢٥٠ . وكان تنصير السلاف والمجر سريعاً في ظاهره . لكن التنصير التام استغرق قروناً ، جاء أولاً المبشرون الجerman أو البيزنطيون الذين كان هدفهم الحقيقي تنصير الحكام واقامة أبرشيات . فلم تبلغ المسيحية الجماعات الريفية الا ابتداء من القرن الثاني عشر .



(٥) - كانت مارينبورج الشهيرة بقلعتها عاصمة منظمة الفرسان التوتونيين في بروسيا . تأسست جمعية الفرسان كرهينة عسكرية من النبلاء . من أجل الاحسان والتبشير عام ١١٩٠ . ثم تخلّت عن العمل في الأراضي المقدسة . ونزلت في الساحل البلطقي لفرض ارادتها في تنصير البروسيين الوثنيين . في عام ١٣٠٩ . أسس الفرسان مقر قيادتهم في مارينبورج .

وكيف . أن يجعل الأودير والفيستولا نهريين بولونيين بالفعل . كما استطاع اعلان الحرب على الامبراطور هنري الثامن (٩٧٣ - ١٠٢٤) بين ١٠٠٤ و ١٠٠٨ . واعترف الامبراطور . آخر الأمر .



تقطن الشعوب الجرمانية التي كانت هويتها القومية حديثة أيضا . كانت تربط الجرمان بالسلافين صلات وثيقة . صارت عدائية مرارا . لكنها كانت سلمية في معظم الأحيان . كان المجتمع الجرمانى يتألف من فئات حسنة التنظيم ، وكانت حضارتهم المسيحية مندمجة في الامبراطورية الرومانية المقدسة ، مما جعلها ذات تأثير دائم ومفيد . في ظل الملوك الاوتويين الأقوياء (٩١٩ -

١٠٢٤) ، الذين أصبحوا أباطرة بعد ٩٦٢ ، تسارع التقدم الألماني ، وظهرت لأول مرة بوادر التقارب والتوحيد بين القبائل المختلفة . مع حلول عام ١٠٠٠ ، كان المجر (الذين حذ من غزواتهم الانتصار الالمانى في معركة ليخفيلد عام ٩٥٥) والבוهميون والبولونيون (٣) قد اتحدوا كل بدوره تحت سلطة سلالة واحدة مستقلة . كان أول دلائل هذا التطور انتشار المسيحية (٤) . فمذ



(٦) - أعطى البابا عام ١٠٠٠ تاجا للدوق المجري اسطفان فيما أعطى الأمبراطور البيزنطى تاجا آخر للدوق البولونى بولسلاف الأول بعد ٧٥ سنة من ذلك . (٨) - مدينة بريمن ، الواقعة على ضفاف الويزر ، هي احدى الموانئ التجارية الالمانية الشمالية العظيمة . أسسها شارلمان فى القرن التاسع . فأنشأ تجارها مدينة ريجا عام ١١٥٨ . ثم فى عام ١٣٥٨ انضمت بريمن الى « الهانزا » طمعا بكسب الحماية .

القرن التاسع ، كان المبشرون البيزنطيون قد نصّروا المورافيين ، الذين قضى المجر على امبراطوريتهم المهلهلة ، فحلت محلها ، تحت التأثير الألماني ، دوقية بوهيميا التشيكية ، التي اعتنق أول حكامها المسيحية ، وعرف في التاريخ باسم القديس وينسيسلاس (حكم ٩٠٧ - ٩٢٩) وكان تابعا للملك الألماني .

كانت بوهيميا ، تحت الاشراف الجرمانى ، محور التطور السريع الذي شهدته بقية انحاء أوروبا الشرقية . فكان الدوق بوليسلاف الأول (حكم ٩٢٩ - ٩٦٣) حما لأول دوق بولوني هو ميشكو الأول (حكم ٩٦٣ - ٩٩٢) الذي اعتنق المسيحية على يده . كذلك أدى تأثير القديس أديلبرت ، أسقف براغ (١) ، الى تعميد الدوق الهنجاري اسطفان (حكم ٩٩٧ - ١٠٣٨) . الا ان التأثير الجرمانى كان يشكو من بعض الغموض والتناقض .

ظهور الهويات القومية

في القرن الحادي عشر ، صمد البوهيميون والبولونيون والهنجاريون في شخصيتهم الخاصة ، واكتسبوا حسا قوميا في ظل سلالاتهم الجديدة . لم يخلع على البريمسليين في بوهيميا اللقب الملكي حتى ١١٩٨ ، ومع أنهم كانوا جزءا من الامبراطورية الجرمانية ، فقد احتفظوا بلغتهم وعاداتهم السلافية دون تعديل . كانت أسرة بياست البولونية الحاكمة أشد أعداء الجرمان . فأصبح بلاطها في جنيزنو محور المقاومة لأطماع الأباطرة الساليين . الا أن وحدة الأراضي البولونية الشاسعة كانت ظاهرة فقط . فمذ ١٠٧٩ حتى نهاية القرن الثالث عشر ، اشترك في حكم البلاد

عدد من الأمراء البياسيين ، ثم اقتسموها فيما بينهم . لكن طيلة هذه الحقبة ، بقيت وحدة البولونيين وهويتهم القومية سليمتين . بفضل كنيستهم الوطنية وثقافتهم المشتركة .

كانت أسرة ارباد الهنجارية أوفر حظا في المحافظة على وحدتها ، بالتعاون الوثيق مع الأباطرة الجرمان . فازدهرت هنجاريا كجسر بين بيزنطة وروسيا وأوروبا الغربية .

الهجرة الجرمانية اللاحقة

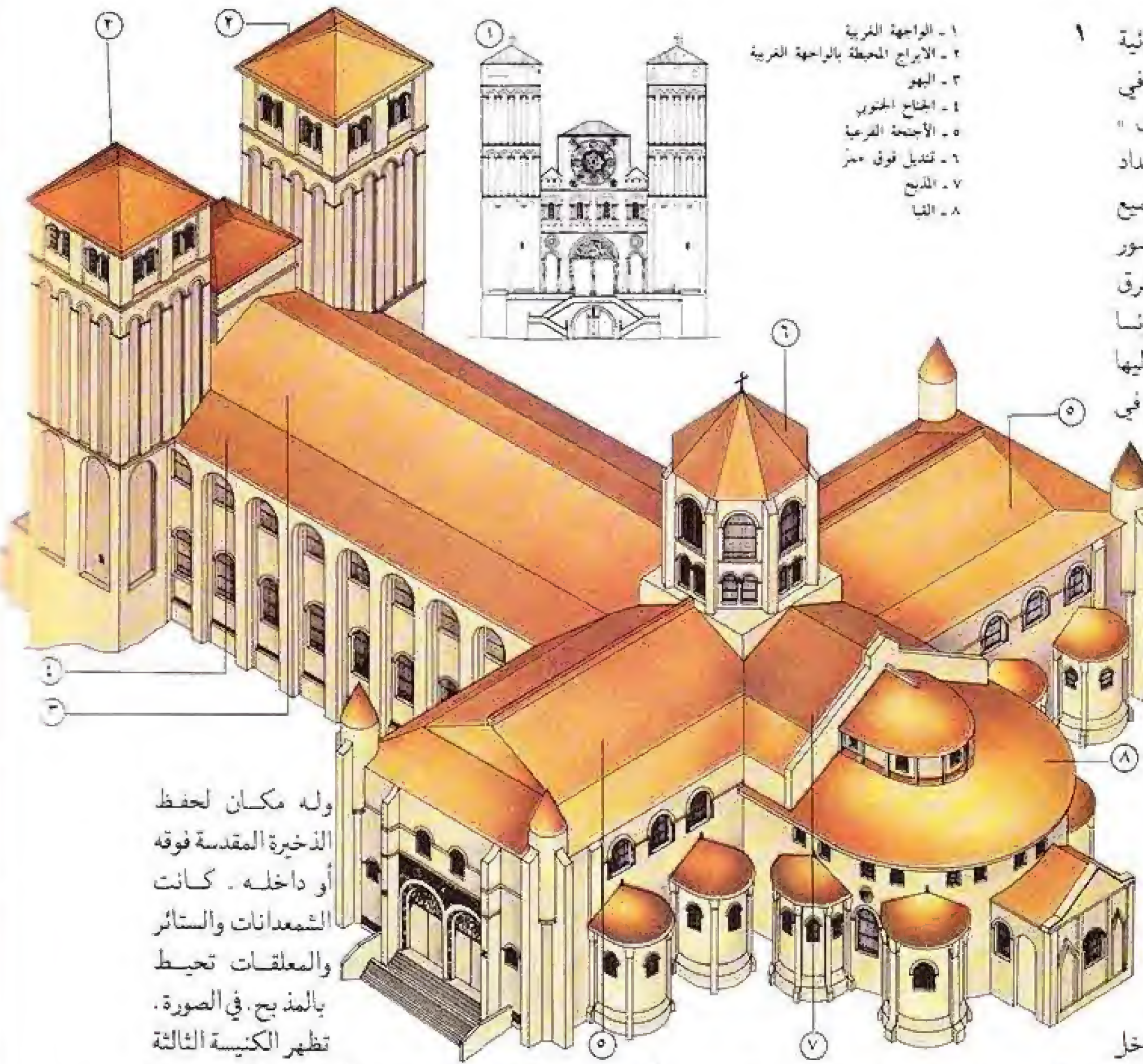
توقف زحف الشعوب الجرمانية شرقا بعد سنة ١٠٠٢ على أبواب بوميرانيا وبولونيا وهنجاريا ، لكنه استؤنف على نطاق واسع بعد عام ١١٠٠ . رحب الحكام السلاف والمجر بالجرمان الوافدين ، باعتبارهم مزارعين جددا لأراض كانت قليلة السكان . جاء أولا التجار ، فملأوا المدن الويندية والبولونية والبوهيمية ، لاسيما لوبيك ودانتريج على شاطئ البلطيق . تلت ذلك هجرة ضخمة من الفلاحين ، في القرن الثاني عشر ، فاحتلوا أراضي سيليزيا الخصبة ، وانتشروا في أنحاء بوهيميا ، وبعض أنحاء هنجاريا ومهدوا لفتح ترانسلفانيا . وأخيرا جاء « الفرسان » ، في الظاهر لتنصير الليثوانيين الوثنيين ، ولكن في الحقيقة لاقتطاع أراض جديدة على الساحل البلطقي أيضا .

أنشئت رهنات عسكرية ، توحدت عام ١٢٣٧ باسم « منظمة فرسان ليفونيا التوتونيين » ، فكان ذلك تدشينا للسيطرة الجرمانية على البلطيق ، ولم تلبث الجماعات البحرية أن أسست اتحادا عرف بالهانزا (٨) . لعبت الهانزا دورا ثقافيا وسياسيا هاما في أوروبا الشرقية الشمالية .

الفن الرومانسكي في القرن ١١

الفن . ولا سيما العمارة ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . بعد زوال الامبراطورية الرومانية الغربية . أدى الاضطراب السياسي والاقتصادي في أوروبا الغربية الى تقهقر الرعاية الواسعة الانتشار للفنون . وعلى الرغم من مظاهر الانتعاش الفني العظيمة في عهد الامبراطور شارلمان وخلفائه ، فالفضل في انتعاش الفنون في أنحاء أوروبا عام ١٠٠٠ ، يعود بكامله الى ظهور الحكومات القوية .

اقتبس بعض علماء الآثار ، في القرن التاسع عشر ، عبارة « رومانسكي » من كتب الأدب ، لوصف فن العمارة الذي كان سائدا قبل الفن القوطي . دلالة على شبهه بالفن الروماني . ويطلق هذا التعبير اليوم على



- ١ - الواجهة الغربية
- ٢ - الأبراج المحيطة بالواجهة الغربية
- ٣ - البهو
- ٤ - الجناح الجنوبي
- ٥ - الأجنحة الفرعية
- ٦ - تمثيل فوق المذبح
- ٧ - المذبح
- ٨ - القبة

(١) - اشتهرت كاتدرائية سانتياجو دي كومبوستيلا في اسبانيا بأنها مدفن « الرسول » يعقوب ، وكانت محجاً لأعداد كبيرة من الناس . من جميع أنحاء أوروبا في العصور الوسطى . كانت أربع طرق رئيسية للحج تنطلق من فرنسا لتصب في طريق واحدة اليها عبر شمالي اسبانيا . وكان في كل من هذه الطرق الأربع مزار هام . كانت أكبر خمس كنائس شيدت بين ١٠٥٠ و ١١٠٠ كنائس تور (سان مارتان) وليموج (سان مارتيال) وكونك (سانت فوا) وتولوز (سانت سرنين) وكومبوستيلا . لهذه الكنائس الخمس تصميم مشابه . وكان لها تأثير في نشر مفهوم تصميم الكنيسة الرومانكية الكبيرة أي البناء الكبير الشبيه بالصليب ، والذي له مدخل غربي رئيسي ذو أبراج (٢ ، ١) . وشرفات على المستوى الأعلى من القسم الداخلي . مع تركيز على

وله مكان لحفظ الذخيرة المقدسة فوقه أو داخله . كانت الشمعدانات والستائر والمعلقة تحيط بالمذبح . في الصورة . تظهر الكنيسة الثالثة

عند موقع كومبوستيلا . التي شيدها على الأرجح بناؤون فرنسيون . وأنجزت حوالي عام ١١٢٥ . ثم أدخلت عليها تعديلات عدة .

عديدة . ولكنها كانت تستعمل بالدرجة الأولى كمكان لاجتماع الفصلين . كان كل مذبح مكرماً لقديس معين .

الطرف الشرقي بعدد من أنصاف الدوائر التي تستعمل كمذابيح . كانت له أيضاً حول صحن الكنيسة (٣) مذابيح

والى الاصلاحات التي تمت داخل الكنيسة .

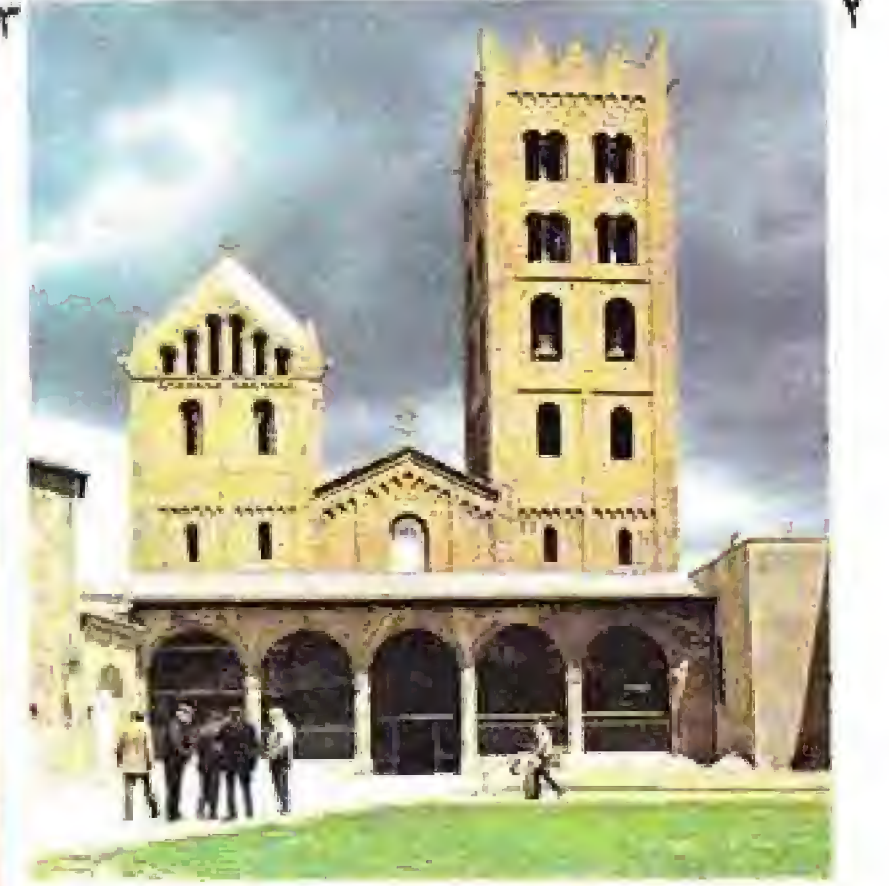
رعاية الكنيسة للفنون

كانت الأرض مصدر الدخل الرئيسي في العصور الوسطى . وكانت سلطة مالكي الأرض مطلقة . فرحبت الكنيسة بهبات الاراضي واصبحت من كبار المالكين الاقطاعيين . حتى أنها كانت تملك ما يناهز ثلث مساحة فرنسا الحالية . في القرن الحادي

عشر . كان المصدر الثاني للدخل هبات المؤمنين عند مزارات القديسين (٣) . التي كان الحج اليها شائعا بين الناس . من جميع الطبقات .

مع أن روما . وسانتياجو دي كومبوستيلا في اسبانيا (١) . كانتا المزارين الدينيين الرئيسيين . فقد كان الناس يشجعون على زيارة مزارات عديدة أخرى . كانت المزارات تحتوي على ذخائر مقدسة . يعتقد الكثيرون

(٣) - تمثال القديسة فوي هذا المغطى بالذهب صنع أصلا في القرن العاشر . الا أن الرواد الأتقياء لمزارها الواقع في كونك . رضعوا . على مر القرون . هذا الأثر المقدس بالحجارة النفيسة أو المنقوشة وبقطع البلور . صنعت معظم مستودعات الذخائر المقدسة على شكل نواويس أو مزارات . تحتوي على بقايا القديس . وكان يظهر أحيانا في أعلاها رسم لجزء معين من جسده .



(٤) - في الأسكفات (العتبات العليا) الرخامية في كنيسة سان جيني دي فونتان في جبال البرانس (البيرينه) الفرنسية (١٠٢٠ - ١٠٢١) يظهر المسيح جالسا على العرش (ب) تحمله الملائكة . يحيط القديسون (أ) بهذا الرسم . وهو من أوائل المنحوتات الحجرية المعروفة التي تعود الى العصور الوسطى . يدل التصميم العام والحفر الخفيف المشطى على أن النحاتين كانوا قد درسوا الرسوم الحجرية النافرة السابقة . والمصنوعات المعدنية المعاصرة .

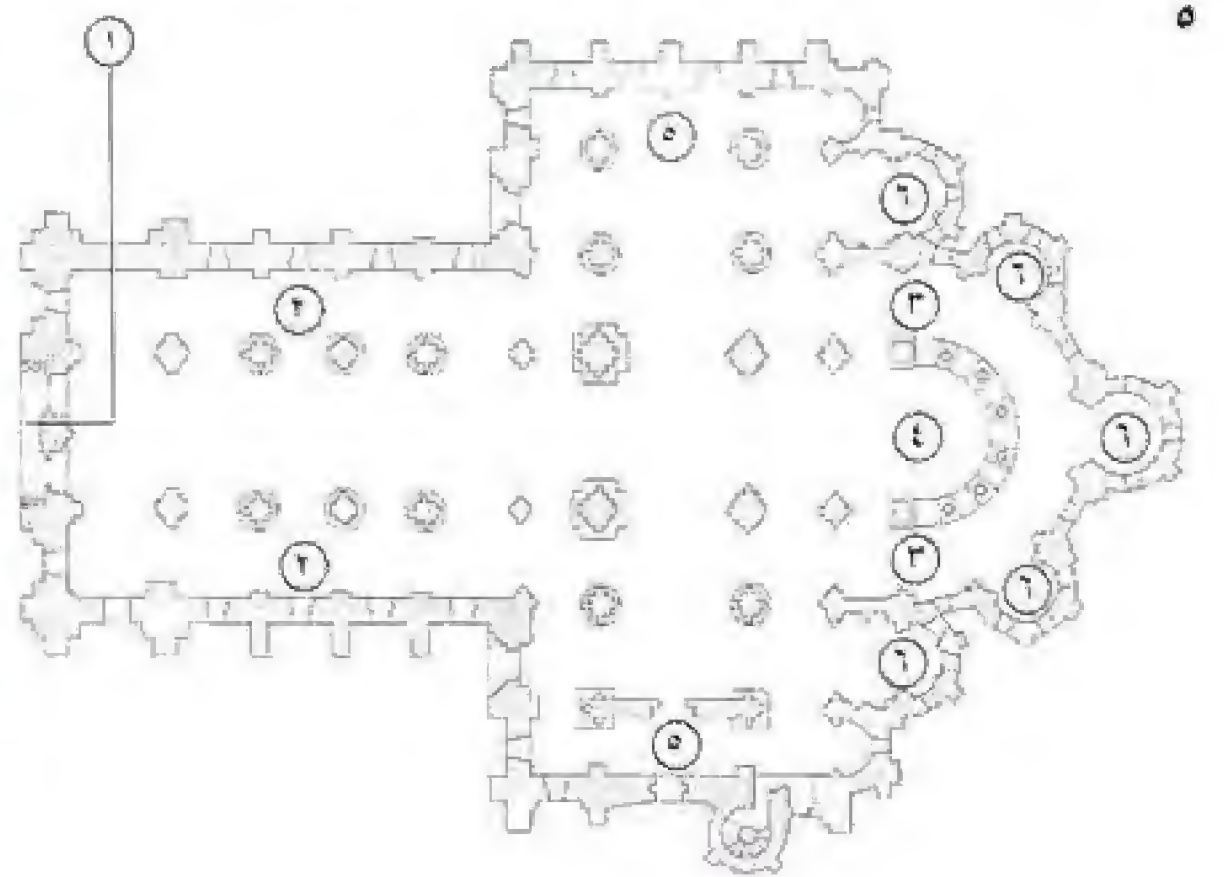
(٢) - أعيد بناء الواجهة الغربية للكنيسة الرهبانية في سانتاماريا في ريبول قرب جيرونا . بين عامي ١٠٢٠ و ١٠٣٢ . يشاهد هذا الطراز من الكنائس في جميع أنحاء أوروبا الجنوبية . ويتميز باستعماله لمواد بناء صغيرة . وبعقوده المرتفعة فوق الأقسام الداخلية . ولاسيما بذلك الاطار من الأقواس الصغيرة الممتد فوق الجدران الخارجية .



أن لها قوة شفائية عظيمة . وكان عرض هذه الذخائر أمام الحجاج حافزا لهم على التبرع لبناء كنيسة . كذلك شجع على إقامة المباني الدينية انشاء الأنظمة الرهبانية لحماية هذه الذخائر . وتأسيس الأديرة لإدارة الشؤون الروحية والزمنية للكنيسة .

هكذا أصبحت الكنيسة أعظم راعية للفنون فبنت منازل دينية . وزينت بالرسوم (٦) والمعلقات . وملأتها بالمذابح والحواجر

الخشبية أو الحديدية المزخرفة . ومع ازدياد طقوس العبادة الدينية تعقيدا ، ازداد اقتناء المخطوطات والمصنوعات اليدوية الدينية . لم يبق من القلاع والمنازل الحجرية من هذه الحقبة الا النادر ، مما يدل اما على أن هذه الأبنية لم تشيد بأعداد كبيرة . أو أنها على الأرجح كانت تستبدل بها بسرعة أبنية أفضل وأكثر رخاء . كان هم المعماري الديني الرئيسي بناء كنيسة تصلح



(٧) - صحن كنيسة سان ايتيان في نيفير (حوالي ١١٧٠) المتجه شرقا نحو المذبح الكبير . يبدو ضيقا ومظلما بسبب الحاجة الى دعم القباب الحجرية الاسطوانية الشكل . وراء الصف الأوسط من الأقواس . يربط عمود نصف اسطوانى القسم المرتفع الرئيسى بعضه مع بعض . ماعدا بذلك على دعم القبة الرئيسية وبناء نوافذ عليا صغيرة . تقسم الاسطوانات الجدرانى الارتفاع الى وحدات منفرجة عمودية وليس أفقية .

(٦) - في هذه الصورة الموجودة في كنيسة سان انجيلو . في فورميس بالقرب من كابوا (التي أعيد بناؤها عام ١١٧٢) يظهر المسيح يلمس عيني الأعمى الذي يغسل عينيه بعدئذ بمياه البئر ويصير ثانية . تدل البقع الظاهرة على الخدود . كما تدل ايضا التائر ذات الزوايا . على التأثير البيزنطى . وتمثل الرسوم مشاهد من العهدين القديم والجديد . وهي تغطي القسم الداخلى من الكنيسة بكامله . هذه المجموعة الكاملة هي اليوم نادرة جدا .

(٥) - بني الطابق الأرضي لكنيسة سانت فوا . في كونك بفرنسا (١١٥٠ ؟ - ١١٦٠) بتصميم يفى بأغراض الحجاج والرهبان معا . كان الحاج يدخل من الغرب (١) . ويعبر عن طريق الممرات (٢) الى الممشى الدائري (٣) ليشاهد الضريح الرئيسى داخل الهيكل (٤) . بينما كان الرهبان يلجئون الكنيسة عبر الجناح الجانبى (٥) . مرورا بالرواق الذي كانت أقسام الدير مبنية حوله . ثم يتجهون في موكب الى أماكنهم الخاصة خلف الحاجر . أو الى مذابح ثانوية (٦) .

للحاج وللراهب في آن واحد .

اشكال الكنائس الرومانسكية

كان في أوروبا الغربية نموذجان أساسيان شائعان من الكنائس : النوع الأول هو الكنيسة ذات السقف الخشبي والأجنحة ، والثاني هو المزار المقبب الصغير (الذي كان يشيد في موقع يمت الى الدين بصلة ما) . بنى النموذج الأول أصلا المسيحيون الرواد في روما ، واستمر مزدهرا دون تطوير يذكر في إيطاليا الوسطى حتى الفترة القوطية .

كان لكنائس هذا النموذج جناحان خاصان بالجوقة . على كلا الطرفين في بعض الأحيان ، وواجهات غربية متعددة الطوابق ، يعلوها عدد من الأبراج في كل من الطرفين . وكان يربط بين هذه الأقسام المعقدة البهو الطويل ، وتفصل بين أروقة الطابق الأول والنوافذ العليا مساحات مسطحة من الجدران ، تطلّى بالدهان أو تعلق عليها المطرقات (٥) . كانت جميع الكنائس الرومانسكية مدهونة بالألوان التي لم يبق منها أثر اليوم . لم يحدث مثل هذا التطور في إيطاليا الوسطى . ففي توسكانا ، غالبا ما كان يستعمل المرمر عوضا عن الرسوم الجدرانة . كما في سان مينيأتو آل مونتي بفلورنسا ، وفي بيزا ، كثيرا ما كانت أبراج الأجراس وأجران المعمودية تبنى منفصلة كليا عن البناء الرئيسي .

ليس بإمكاننا التعرف الى النموذج الثاني ، أي مزارات الشهداء بالسهولة التي يمكننا بها التعرف الى النموذج الروماني . مع أنه انتشر مع توسع الامبراطورية الرومانية ، في القرن الخامس ، في شمالي

وشرقي اسبانيا ، ونصف فرنسا الجنوبي وشمالي إيطاليا ويوغسلافيا وآسيا الصغرى . تعود جذور هذا النوع الى المباني الرومانية الريفية التي كانت تبنى من الحجر المحلي الصغير أو من الآجر ، بدلا من الأحجار المصقولة أو قطع المرمر التي كانت تبنى بها الصروح الامبراطورية . مع أن استعمال الأحجار الصغيرة كان يحد من حجم البناء ، فإنه كان يسهل تقبيب العقود الضيقة .

الكنائس الرومانسكية في فرنسا الريفية مع الزمن ، اندمج هذان النموذجان . وبعد تجارب كثيرة (لاسيما في فرنسا) ظهر تصميمان رئيسيان ، يتناسب كل منهما في كل منطقة مع ظروفها المحلية . فكنائس الحجاج الكبيرة (١) مثلا اتصفت « بالمشى الكنسي » الذي كان يسمح للحجاج برؤية الذخائر المقدسة المعروضة وراء المذبح الكبير ، أو في سرداب تحته ، دون اقلاق راحة الرهبان اثناء تأديتهم فروض العبادة .

أما الكنائس المرتبطة بنظام الرهبنة الكلونية ، لاسيما في بوجونيا فكانت لها اجزاء ناتئة نصف دائرية متوازية (سلسلة من فجوات نصف دائرية متفاوتة الارتفاع والعمق) تحيط بمكان جوقة الرهبان الرئيسية . وخلافا لتصميم المشى الكنسي ، ربما كان هذا التصميم من العوامل التي شجعت البنائين على تغطية المساحات الرئيسية بالقباب وذلك لوجود جدران ضخمة تدعم البناء . بقيت انارة هذه المساحات المقببة مشكلة لم تحل بصورة مقبولة ، حتى شاع استعمال الحجر المنحوت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

الحروب الصليبية^(١) بين سقوط القدس وتحريرها

الاسلامي (الاندلس) وضد الشرق الاسلامي على السواء . بدأ مقدماتها في النصف الثاني من القرن العاشر (٤ هـ) بهجوم بيزنطة على الشام ، (حملات حنا تزيمنسكس سنة ٩٧٢ - ٩٧٥) وهجوم دول الشمال الاسباني . مدعومة من البابوية ومن دول الفرنجة . منذ أواسط القرن الحادي عشر على الاندلس واحتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ ثم احتلال صقلية من قبل النورماند سنة ١٠٩١ . الصليبيات كانت اذن

يطلق اسم الحروب الصليبية في الاصطلاح الغربي على الحروب التي شنتها أوروبا ضد الشرق الاسلامي مدة قرنين . العرب يسمونها حروب الفرنجة . الواقع انها حروب فرنجية وأوروبية قامت ضد الغرب



١١٤٤ تلغى اماره
الرهمامن
الخارطة

الصليبية كمرحلة أولى ثم تنقلص الامارات كلها بعد حطين سنة ١١٨٧ فلا يبقى منها سوى الشريط الساحلي من المدن . المرحلة الثالثة تأخرت كثيراً بسبب الخطر المغولي من المشرق فلم تأت الا بعد سنة ١٢٦٠ واستمرت ثلاثين سنة .

(١) - هذه الخريطة للامارات الصليبية الأربع في الشام تمثلها حوالي ١١٢٠ - ١١٢٥ وهي في أوسع احتلالها وأوج قوتها . كونتية طرابلس كانت أصغرها وأضعفها . مملكة القدس كانت دينيا وسياسيا ومساحة هي الأولى وهي المشرفة على الامارات الأخرى والقائدة لتحالفاتها وسياساتها رغم المشاكل والتناقضات في كثير من الأحيان . اعتبارا من سنة

الهيكل) قامت لحماية طريق الحجاج . ثم صارت عسكرية بابوية . المؤسستان صارتا رافدا حريا للصليبيين وقامتا بالتجارة وامتلاك الحصون والحروب . كان ثمة مؤسسة ثالثة أقل شأنا هي فرسان التيوتون .

(٢) - ظهرت على هامش الاحتلال الصليبي للشام مؤسستان عسكريتان من الفرسان . عرفت احدهما بالاستبارية والثانية بالداوية . قامت الأولى في الأصل لضيافة الحجاج الأوروبيين ثم صارت للجرحى في نظام ديري بندكتي . الداوية (فرسان

حروبا اوروبية ذات ثلاث شعب . رافقتها في المشرق يقظة اسلامية تمثلت في السلاجقة (النصف الأول من القرن ١١) ، وفي المغرب يقظة مقابلة تمثلت في المرابطين (النصف الثاني من القرن ١١) ثم استمر النضال بين الجانبين الى ان سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين سنة ١٤٥٣ وسقطت غرناطة بالمقابل سنة ١٤٩١ .

الصليبيات الفرنجية في المشرق يعتبرونها

تقليديا ثماني حملات . الواقع انها لا تحصى كثرة . لأنه لم ينقطع ، وبخاصة في القرن الثاني عشر ، ورود المحاربين الصليبيين بمختلف الطرق الى المشرق الاسلامي .

أسباب الصليبيات والحملة الأولى

الأسباب الدافعة لهذه الحملات ليست واحدة ، لاسيما وقد امتدت قرنين من الزمن . اختلفت خلالهما الأوضاع والقوى والدوافع كل الاختلاف .



(٣) - ساعد الصليبيين الأوائل على النصر والاستقرار في المشرق . تمزق القوى السلجوقية في الشام ، وردود الفعل الضعيفة وغير الواعية ، التي وقفها كل من سلطان السلاجقة في اصبهان والخليفة الفاطمي في مصر . على انه منذ الأيام الأولى للاحتلال ، ظهر

في الجانب الاسلامي امراء يحاولون الوقوف للفرنجة ، منهم مودود صاحب الموصل (١١١٣) ، وطغتكين الاتابك في دمشق . (توفي سنة ١١٢٧) . والأمراء الارتقيون في الجزيرة وحلب . بقيت المقاومة محدودة حوالى ثلاثين سنة ، حتى ظهر الاتابك زنكي (١٠٨٥ - ١١٤٦) فجمع

سنة ١١٢٧ بين حكم الموصل وحلب مكونا محورا قويا للمقاومة والجهاد ، ومحاولا في الوقت نفسه ، توحيد القوى الاسلامية في الشام ، بجعل المحور ثلاثيا ، وضم دمشق الى امارته . ففشل مع ان موقعها الاستراتيجي بالنسبة للقدس ، والتجاري بالنسبة للشام كله

من الخطر بمكان . لكنه ضم عددا من املاكها حتى حمص . واستولى على جانب من امارة انطاكية الفرنجية ، ثم استطاع بذلك اعطاء أول جواب على احتلال القدس سنة ١٠٩٩ بفتح الرها والغناء امارتها سنة ١١٤٤ .

بدأت الحملة الأولى سنة ١٠٩٥ وهي .
تحمل في الظاهر الطابع الديني . حمل
المحاربون على طول اجسامهم علامة الصليب
لتكون حربا مقدسة . لكن اسبابا أخرى
أوروبية ودينية خالصة كانت هي التي
حركتها . ثم غذتها وقادتها . منها : حركة
الاصلاح في الرهبنة . تحقيق السياسة
الخارجية للبابوية بالانتصار على الملوك .
وتوحيد شطري الكنيسة . التكاثر السكاني

الاوروبي . وتزايد عدد الفرسان الذين لا
أرض لهم . توحيد السيوف الاقطاعية
المتخاصمة داخليا نحو عدو خارجي (لاقامة
السلام الالهي) . أطماع المدن التجارية
الايطالية . تكاثر المشاكل الاقتصادية في
الغرب من مجاعات وديون . أضيف الى ذلك
كله شائعة اضطهاد الحجاج الغربيين لبيت
المقدس والخطر السلجوقي . حين صاح البابا
أوربان الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩) في مجمع



١٤



١٥



ب



ب

(٤) - ملأت الحروب الصليبية
بلاد الشام بالقلاع . كانت قلعة
الحصن (الاكراد) أهمها . في
شمالها سلسلة قلاع منها قلعة
المرقب (ب) . بناها العرب
سنة ١٠٦٣ . وبقيت بيد
الصليبيين منذ سنة ١١١٧ حتى
استردها قلاوون سنة ١٣٨٥ .

قلعة مصيف (أ) كانت
للاسماعيلية . الذين كانوا
تنظيما عسكريا مرهوبا
في الفترة الصليبية .
قام بعدد من الاغتيالات
في الجانبين الاسلامي
والصليبي .

(٥) - مجمع كلرمونت
(نوفمبر سنة ١٠٩٥) كان نقطة
انطلاق الصليبيات (أ) الكلمة
التي ختم بها البابا أوربان
الثاني خطابه فيه « هكذا أراد
الله » كانت صيحة الحرب التي
احتلت القدس سنة ١٠٩٩ .
وظلت توقدها قرنين على

الأقل . رسم الأوروبيون الجواب
الاسلامي على هذه الصيحة .
في صورة « ب » تمثل صلاح
الدين الأيوبي وهو يأخذ
خشبة الصليب من غي
لوسينيان . ملك القدس
في حطين سنة ١١٨٧ .

كليرمونت سنة ١٠٩٥ : هذه ارادة الله (٥)
داعيا الى تحرير « القبر المقدس » من أيدي
الاسلام وضرب موعدا محددا للقاء المحاربين
عند القسطنطينية . استجابت له الكثير من
القوى الأوروبية العاطلة عن العمل .

كان المشرق الاسلامي . في تلك الفترة .
قد عرف صحوة حربية بدخول جموع
السلاجقة الترك اراضي الخلافة العباسية .
وحملهم اعباء الحكم والحروب فيها . منذ سنة
١٠٥٥ . أخطر ما فعلوه انهم هزموا
الامبراطورية البيزنطية وأسروا امبراطورها في
موقعة ملازكرد سنة ١٠٧١ وأخذوا منها معظم
آسيا الصغرى . كما صاروا حكام الشام . بما
فيه القدس . بعد أن أخذوه من الفاطميين .

عبرت جموع الصليبيين بعد القسطنطينية
آسيا الصغرى . هزمت السلاجقة في دوريليوم
سنة ١٠٩٧ . وقفت طويلا عند انطاكية حتى
احتلتها سنة ١٠٩٨ . ثم انحدرت جنوبا
فاحتلت القدس في مجزرة رهيبة (٧٠ ألف
قتيل . يوليو سنة ١٠٩٩) . أسس الصليبيون منذ
الأيام الأولى لوصولهم امارة في الرها (في
الشمال) . ثم امارة في انطاكية . ثم مملكة
في القدس . وقبل أن تسقط طرابلس سنة ١١٠٩
أقاموا باسمها الامارة الفرنجية الرابعة (١) .

المقاومة للاحتلال الصليبي بدأت منذ
أيامه الأولى (٢) . ظلت في تصاعد وبناء
قلاع (٤) حوالى ثلاثين سنة حتى ظهر
الأتابك زنكي (١٠٨٥ - ١١٤٦) الذي بدأ
توحيد القوى الاسلامية . انجازه الكبير انه
استطاع احتلال الرها سنة ١١٤٤ فألغى أول
امارة صليبية في المشرق . كان ذلك نقطة
التحول في تاريخ الصليبيات وبدء توازن
القوى بين الطرفين .

الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩)
كانت ردود الفعل على سقوط الرها
عنيفة . اشترك فيها لأول مرة ملوك
أوروبيون : ملك فرنسا (لويس السابع ١١٣١ -
١١٨٠) وامبراطور المانيا (١٠٩٣ - ١١٥٢)
كونراد الثالث . ملك المانيا سحقت قواته
الكثيفة على أيدي السلاجقة (معركة
دوريليوم سنة ١١٤٧) . لويس السابع وصل
انطاكية بحرا . في اجتماع عكا سنة ١١٤٨ .
تقرر مهاجمة دمشق . كاد الحصار الذي ضرب
عليها أن ينجح . لكن خلافات الملوك حول
الغنيمة سببت الهزيمة . وفشلت الحملة .

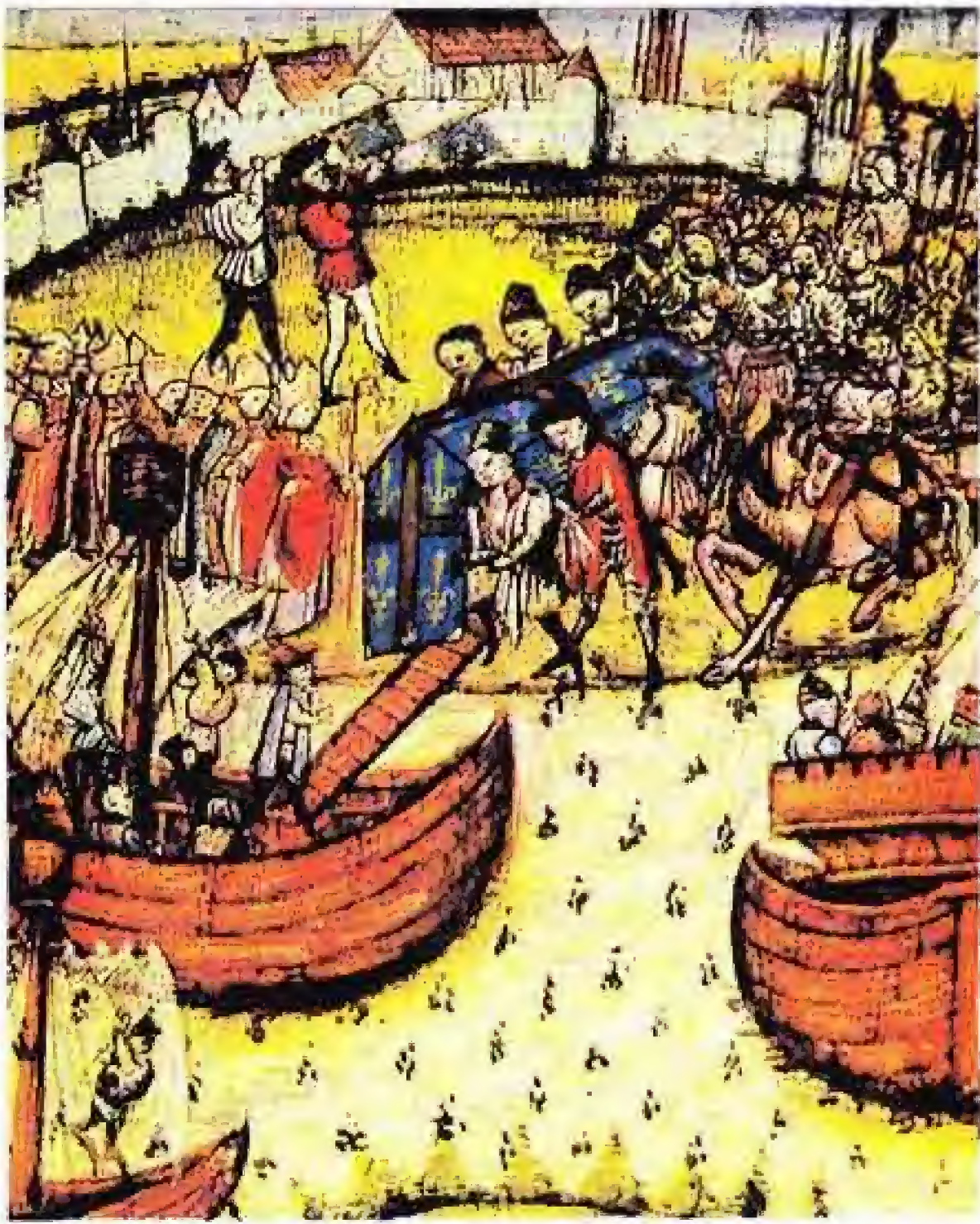
توحيد القوى الاسلامية

كان زنكي قد توفي . فقطف الثمرة نور
الدين محمود ابنه (١١١٨ - ١١٧٤) الذي
استطاع ضم دمشق سنة ١١٥٤ الى مملكته في
حلب . وأن يحقق خطوات هامة في توحيد
القوى الاسلامية . كان أهمها انه ربح السباق
مع مملكة القدس الصليبية للاستيلاء على
مصر . كانت الخلافة الفاطمية هناك في
منتهى الضعف . نتيجة خصومات الوزراء
والجيش . استنجد بعضهم بنور الدين وآخرون
بالصليبيين . حين تمكن قائده صلاح الدين
الايوبي (١١٣٧ - ١١٩٣) من الحكم ألغى
الخطبة للخليفة الفاطمي الأخير (العاضد)
الذي توفي في تلك الأثناء . (سنة ١١٧١) .
أضحت مصر الجناح الغربي لمملكة نور
الدين التي صارت تطوق الامارات الصليبية
من الشرق في الشام ومن الغرب في مصر .
وفاته السريعة بعد ذلك . تركت لصلاح
الدين مهمة تسديد الضربة القاتلة للفرنجة
بهذه المملكة الموحدة .

الحروب الصليبية^(٢) « في القرن الثالث عشر »

كان صلاح الدين الأيوبي هو الوارث الروحي والعملية لنور الدين . استطاع بالحرب والسياسة ، أن يجمع في يديه قوى المنطقة الإسلامية ، من شمال الجزيرة والشام ، حتى أقاصي مصر واليمن و برقة .

كان ذلك نذير النهاية لمملكة القدس والامارات الفرنجية الأخرى في طرابلس وانطاكية . عند (حطين) غربي طبرية في (يوليو) سنة ١١٨٧ كانت المعركة الفاصلة بين قواها مجتمعة وقوى صلاح الدين . سحقت القوى الصليبية وأسر ملك القدس مع جمهور أمرائه . في أكتوبر من تلك السنة ، فتحت بيت المقدس (١) . لم تنته سنة ١١٨٧ حتى لم يبق للصليبيين سوى مدينة صور من



حين أطلق من الأسر سنة ١٢٥٠ .
ليدعو من جديد الى الصليبيات .
عاود المحاولة سنة ١٢٦٩ فقاد
ألف فارس و ٣٠ ألف محارب في
٥٥ سفينة ، فافترس الطاعون
الحملة عند قرطاجة كما افترس
لويس التاسع نفسه سنة ١٢٧٠ .
نقل تابوته الى المركب (أ)
مصور عن مخطوط (شاتورو) .

(٢) - يرتبط اسم لويس
السابع بالحملة الصليبية الثانية .
أما لويس التاسع فيرتبط اسمه
بحملتين فاشلتين هما السابعة
والثامنة . كان يعيش عيشة
الرهبان وتعتريه أحيانا لحظات
تشنج وغيوبة . أسر في الحملة
السابعة التي استعد لها أربع
سنوات . مع ذلك عاد الى عكا

لكن كل عصر كان يصورها من
خلال مفاهيمه . في كتاب
(انتقام القدس) الذي كتبه
جاكوب فان مايرلان سنة ١٣٣٢
(في مكتبة جامعة غورينغن)
رسمت القدس على شكل حصن
من حصون القرن الرابع عشر
في أوروبا .

(١) - بقيت القدس منذ بدء
الصليبيات سنة ١٠٩٥ هي
المدخل لتحريك القوى
العسكرية الغربية ضد الاسلام
عدة قرون . كما بقيت صورة
احتلال القدس سنة ١٠٩٩
(لا استردادها سنة ١١٨٧) هي
الصورة المسيطرة وكانت
موضوع عدد كبير من الرسوم .

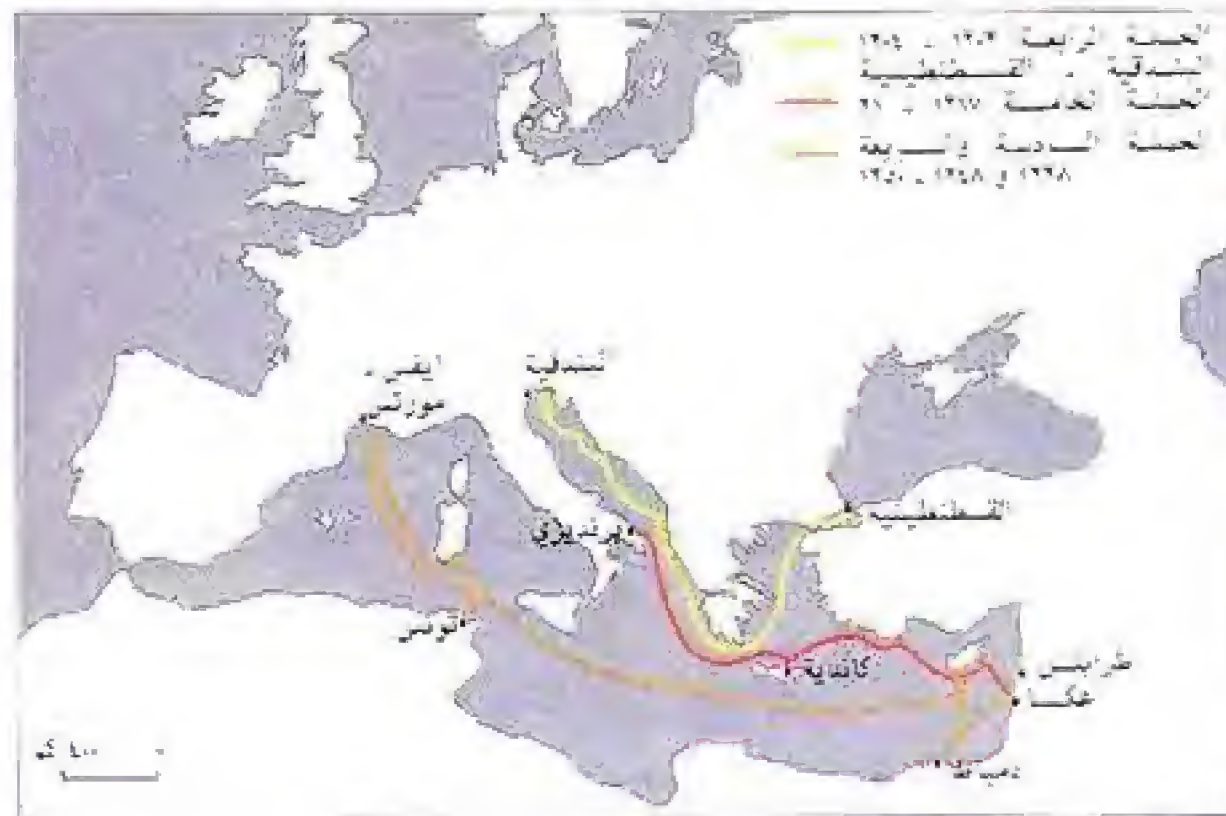
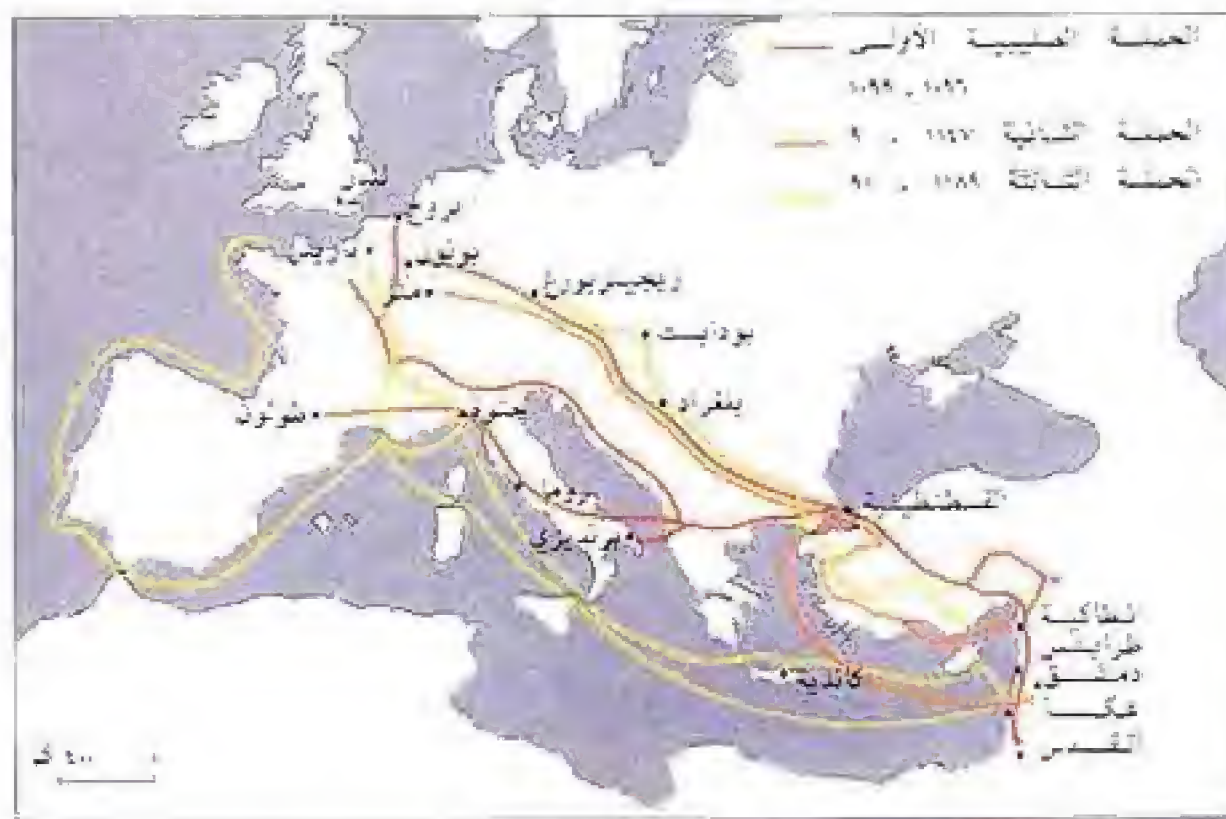
مملكة القدس . ومدينتي طرابلس و انطاكية
مع بعض الحصون المجاورة .

الحملة الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢)

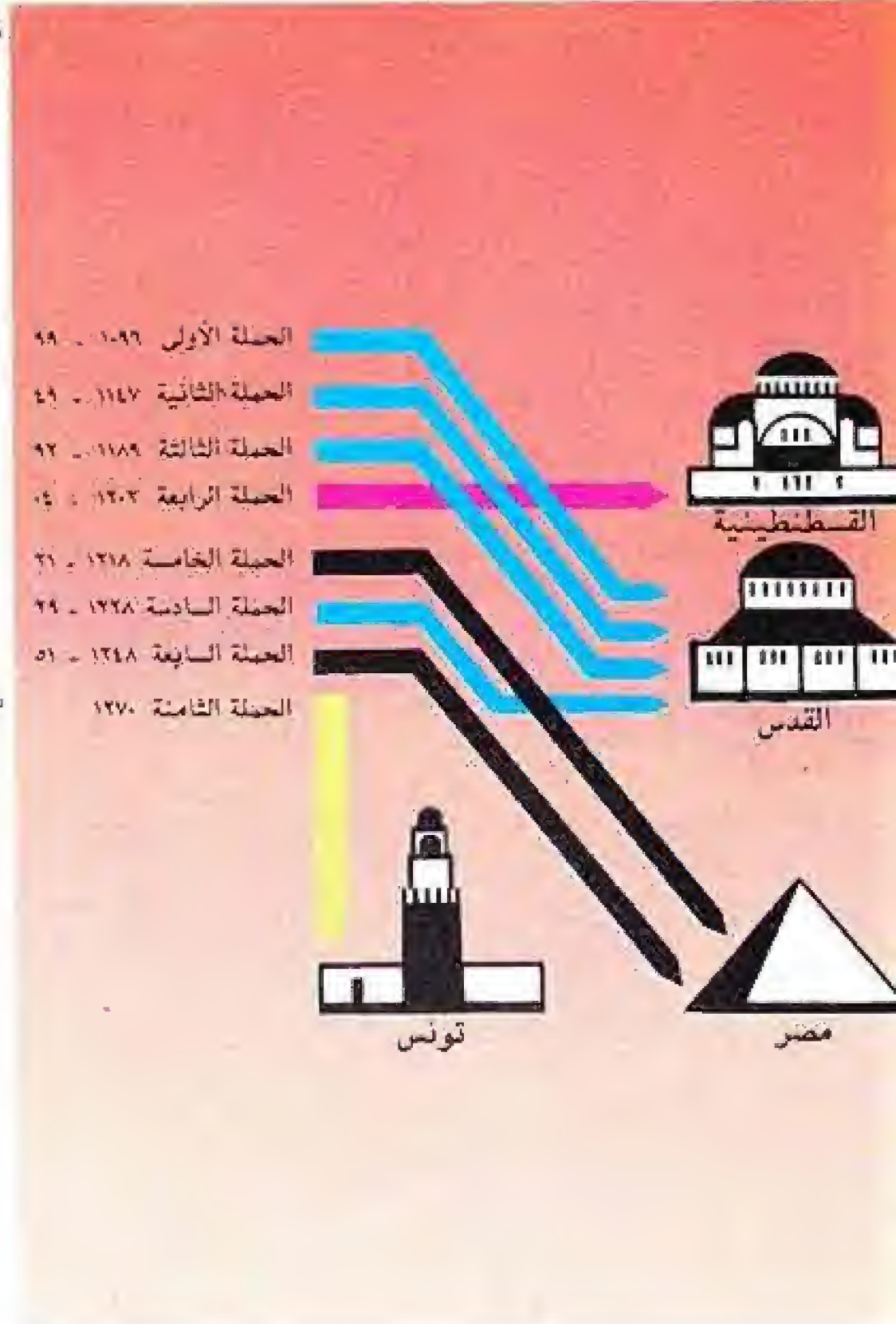
اهتزت أوروبا كلها لهذه العملية
الكاسحة . المعاملة الانسانية التي عامل بها
صلاح الدين أسراه والطلاقاء (٥) ، لم تخفف
من الغضب الذي تبلور في شكل حملة حربية
دعيت بالحملة الثالثة . اشترك فيها امبراطور

المانيا (فريدريك بربروسا ١١٢٣ - ١١٩٠)
وملك انجلترا (ريتشارد قلب الاسد ١١٥٧ -
١١٩٩) وملك فرنسا (فيليب اوغسطس
١١٦٥ - ١٢٢٣) .

الجيش الالمانى انتهى في آسيا الصغرى .
بالجوع والعطش . لم ينج منه سوى ألف
رجل . وغرق الامبراطور في نهر السالف
بأرمينيا . الملكان الانجليزي والفرنسي وصلا
بحرا الى عكا . بعد خصومات بينهما . لاحقا



٤



ب

الحملة الأولى (أ) وحملة
الرعاة مثلا ، وكثير منها استغل
لأغراض أخرى كما في الحملة
الرابعة (ب) .

(٤) - تحركت القوى الصليبية
من أوروبا الى الشرق على كل
الطرق المتاحة في البر والبحر .
كثير منها سحق على الطرقات
الأوروبية نفسها . كما جرى في

اثنان الى مصر ، وواحدة الى
القسطنطينية . وأخرى الى
تونس . كانت الصليبيات عنوانا
لمطامع دنيوية لبست الرداء
الديني .

(٣) - رغم ما كانت تعلنه
الصليبيات من تحرير القبر
المقدس . فإن أربعة من
الحملات الصليبية (التي تعتبر
ثمانيا) قد توجهت الى غيرها .

بالقوى الصليبية التي تجمعت فيها يقودها ملك القدس (بعد ان أطلقه صلاح الدين من الأسر) . نجم عن هذه الحملة دعم امارتي انطاكية وطرابلس ، واسترداد الفرنج بعض مدن الساحل الفلسطيني من صور حتى عسقلان . بعد ان كان الملك الفرنسي قد انسحب الى بلاده . فشلت الحملة في مهمتها الاصلية وهي استرداد القدس . لكن أهم نتائجها ان قيادة الصليبيات أفلتت من أيدي

البابوية . الحملات التالية (٤) كانت سياسية - اقتصادية ، وليس اللون الديني فيها سوى مظلة دعائية . توفي صلاح الدين سنة ١١٩٣ وخلفه ، بعد فترة من النزاع ، أخوه الملك العادل (حكم ١١٩٦ - ١٢١٨) الذي استمرت الدولة الايوبية به . كما توزعتها الاسرة حوالى ستين سنة في مصر (حتى سنة ١٢٥٠) ، وسبعين أو اكثر في الشام (١٢٦٠) وفي اليمن . الايوبيون هم الذين واجهوا الحملات



(٥) - اسم صلاح الدين يحمل

لدى القريبيين مرارتين . الأولى استرداده القدس وانهائه المملكة الصليبية فيها ، والثانية ، سمعته الرائعة بالتسامح والفروسية . صار ، وهو العدو ، المثل الأعلى لعدد كبير من فرسان الفرنجة . حاول بطريق القدس وهو يستثير الناس في أوروبا (بصورة للقبر المقدس يدنسها المسلمون) أن يشوه سمعة صلاح الدين . ولكن الوقائع التي رواها العائدون من الشرق كذبت الدعاية الزائفة . بدأ صلاح الدين (يوسف بن أيوب ١١٣٧ - ١١٩٣) الاهتمام بالحرب والسياسة في الثامنة والعشرين من العمر حين أرسله نور الدين زنكي مع الحملات الى مصر . ثم صار الرجل الأول في الشام ومصر بعد وفاة نور الدين . شملت سلطنته ما بين برقة وأرمينية واليمن . بنى عددا من الحصون والمدارس والبيمارستانات . امتد حكمه لمصر ٢٤ سنة وللشام ١٩ . توفي بدمشق . مخطوط لاتيني (من القرن ١٣) رسم مندوبيه وهم يفاضون الأسرى على الفداء .



(٦) - انحراف الحملات الصليبية عن الغايات الدينية المعلنة كان مما يفضح مطامعها الدنيوية . بعد فشل الحملتين الثالثة والخامسة في استرداد القدس شاع في أوروبا أنه لا ينقذ القبر المقدس الا الأطفال الأبرياء . تشكلت حملة من مئات الألوف منهم . رحفوا من ألمانيا وفرنسا الى سواحل المتوسط سنة ١٢١٨ - ١٢٢١ . تبرعت أساطيل المدن الايطالية بإيصالهم فانتهت بهم الى أسواق النخالة . حملة الرعاة التي تشكلت في المجر بعد فشل الحملة السابعة سنة ١٢٥٠ . سقطت في قلب أوروبا

نفسها . أهل البندقية كانوا أكثر صراحة حين حولوا الحملة الرابعة لفتح بيزنطة واحتلال مركزها التجاري ونهب ثرواتها . ما يزال في ساحة سان ماركو الى اليوم . تلك الخيول البرونزية الأربعة التي نهبها منها .

الصليبية التي توجهت الى المشرق في هذه الفترة . بعضها انحرف الى وجهة أخرى (٣) .

الحملتان الرابعة والخامسة

الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) كان هدفها في الأصل مصر . تبرعت البندقية بأسطولها لنقلها شريطة فتح القسطنطينية أولا . كان الهدف الحقيقي احتلال مركزها التجاري . بفتحها سنة ١٢٠٤ انتهت الحملة (٦) .

كانت الحملة الخامسة (١٢١٨ - ١٢٢١) آخر حملة للبابوية نشاط فيها . اجتمعت جيوشها من وسط أوروبا خاصة في عكا . قرر مجلس الحرب الهجوم على مصر والاستيلاء على تجارتها . احتلوا دمياط (آخر سنة ١٢١٩) . حاول الملك الكامل (حكم ١٢١٨ - ١٢٢٨) المساومة على التهادن بسبب ظهور الخطر المغولي في الشرق . لكن الحملة زحفت نحو القاهرة . فأغرق المسلمون الاراضي بمياه النيل . وكان في الفيضان . فغرق الجيش الصليبي في الوحول . واستسلم مقابل الانسحاب .

الحملتان السادسة والسابعة

كانت السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩) حملة لعنتها البابوية باعلان الحرمان لصاحبها . مع ذلك أحرزت من النجاح قدر ما أحرزت الحملة الخامسة من الفشل . صاحبها فريدريك الثاني . امبراطور المانيا وصقلية . استطاع باستغلال المنافسات الأيوبية أن يأخذ القدس من الملك الكامل بمعاهدة ١٢٢٩ ويتوج نفسه فيها . ظلت المدينة للصليبيين ١٥ سنة (١٢٢٩ - ١٢٤٤) . حتى استردها المسلمون ثانية .

أما الحملة السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٠) فكانت فرنسية خالصة . قادها لويس التاسع ضد مصر ايضا . كان طابعها استعماريا اقتصاديا . قام الملك بالاتصال مع المغول للضغط على الشرق الاسلامي من الجانبين . سقطت دمياط بيده سنة ١٢٤٩ . لكنه هزم عند المنصورة ووقع في الأسر . دفع ثمن خلاصه الجلاء مع ٨٠٠ ألف قطعة ذهبية .

من الجهة الاسلامية جرى انقلابان بعد ذلك : توفي الملك الصالح أيوب أثناء المعركة فقاد مماليكه الحرب . وبدأت بهم الدولة المملوكية . من جهة أخرى زحف المغول عبر المشرق الاسلامي فسقطت بغداد بأيديهم سنة (١٢٥٨) . هزيمة هؤلاء أمام المماليك (في عين جالوت سنة ١٢٦٠) حررت المماليك من خطرهم . فانصرفوا لتصفية الصليبيين . الملك الظاهر بيبرس (حكم ١٢٦٠ - ١٢٧٧) استرد يافا وانطاكية (سنة ١٢٦٨) وقلعة الحصن وغيرها . بينما كان لويس التاسع . يهاجم الحفصيين في تونس في الحملة التي عرفت بالحملة الثامنة سنة ١٢٧٠ . وقد توفي هناك وفشلت الحملة (٢) .

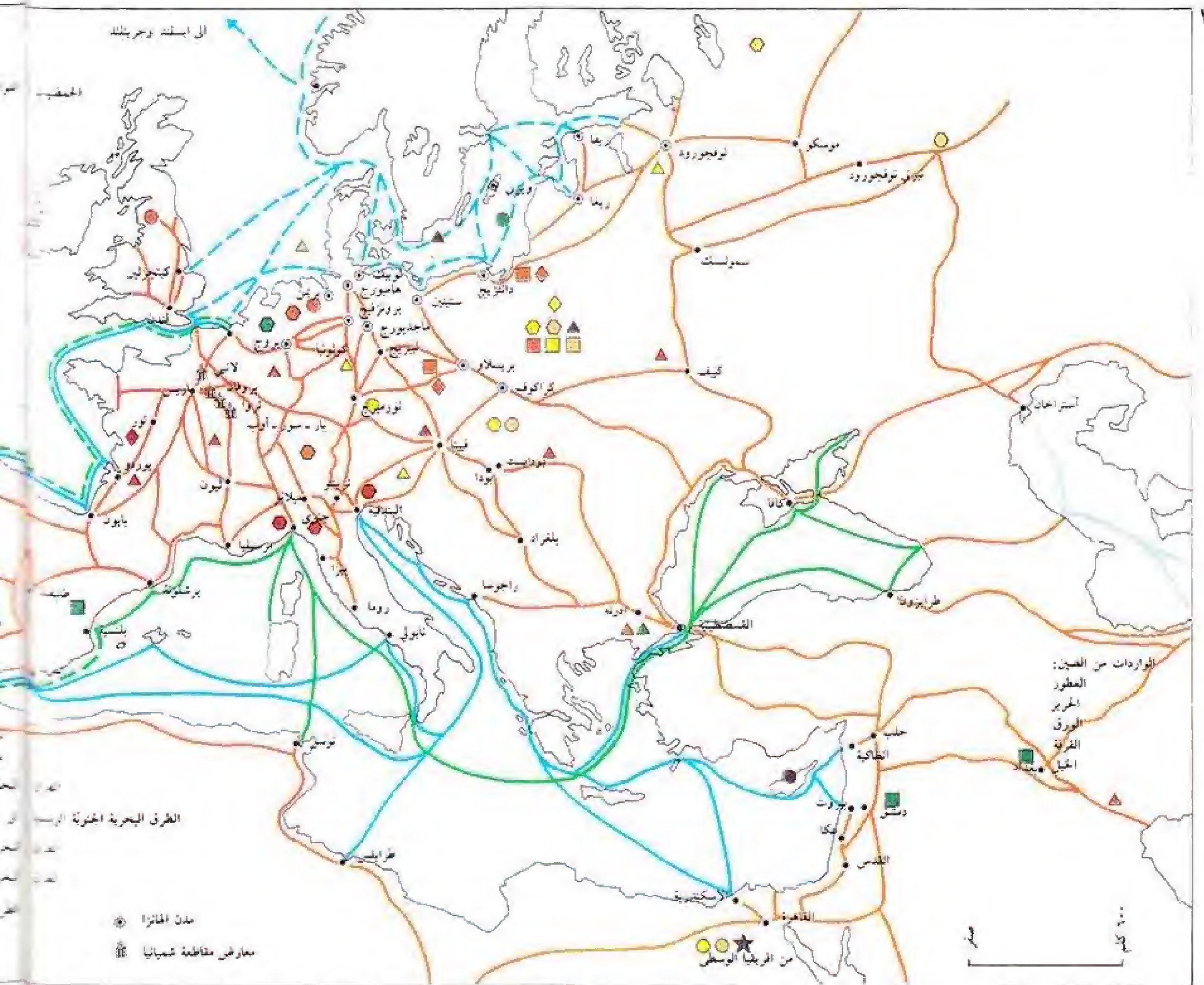
تمت تصفية الوجود الصليبي في الشام بعد ذلك على يد السلطان قلاوون (حكم ١٢٧٩ - ١٢٩٠) الذي استولى على طرابلس . ثم على يد ابنه خليل الذي استولى أخيرا على عكا وأخرج منها سنة ١٢٩١ آخر القوى الصليبية في الشام . رحلت تلك القوى الى قبرص . لتتابع عبثا العمل الصليبي قرنين آخرين .

كانت الصليبيات مناسبة مأسوية للقاء الشرق والغرب . ولكنها سمحت لأوروبا أن تفيد كل الفائدة من الحضارة الاسلامية .

اقتصاد أوروبا الغربية
 " بين سنتي ٨٠٠ - ١٢٥٠ م "

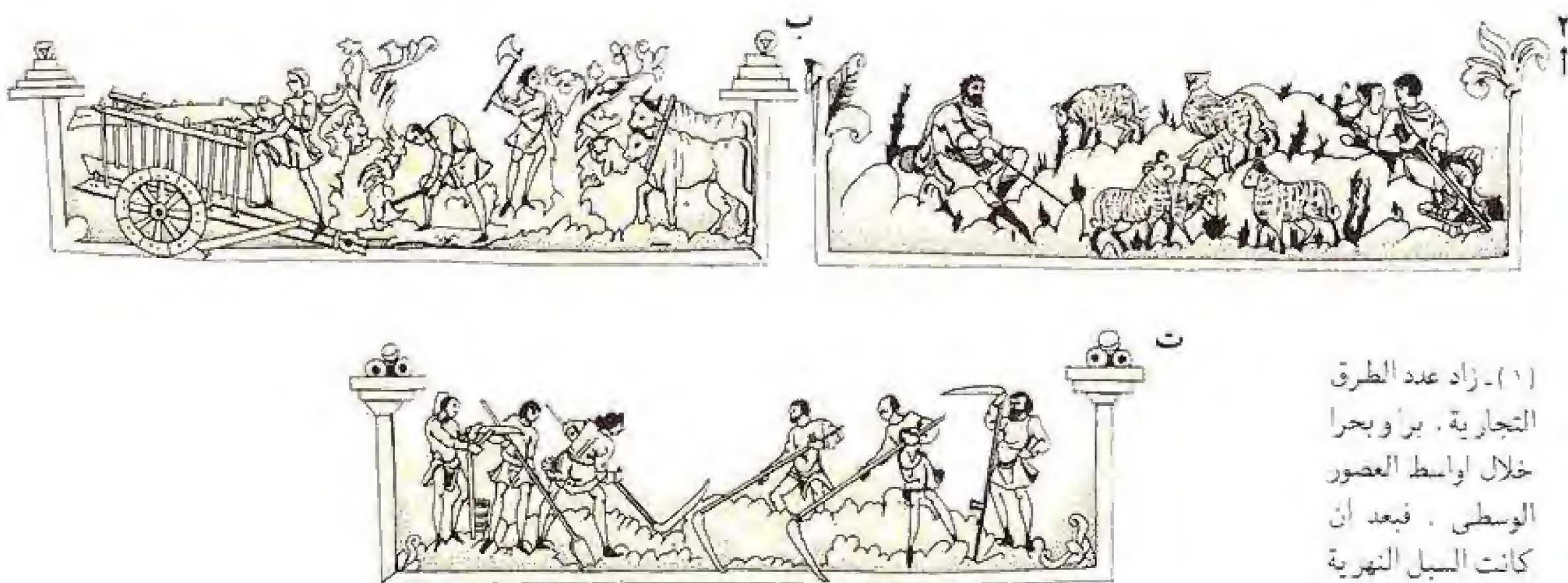
كانت أوروبا الغربية ، في القرنين التاسع
والعاشر ، أشبه بالنسيب الفقير بالنسبة الى
العالمين العربي والبيزنطي . كانت فقيرة في
استثمار الموارد الطبيعية ، وفي المهارة
التقنية ، والتماسك السياسي ، والانجاز

الثقافي . وكانت تهددها . بجانب ذلك ،
جحافل المجر المندفعين من الشرق ، وغزوات
متواصلة من جانب الفايكنغ الزاحفين من
البلاد الاسكندنافية نحو الجنوب ، الوحدة
السياسية الظاهرية التي أقامتها الامبراطورية
الكارولنجية (شارلمان وخلفاؤه) حركت
الركود الاقتصادي على نحو محدود . حاول
شارلمان أن يوجد عملة موحدة لامبراطوريته
بديناره الفضي (بني) . بدل المقايضة



المواصلات دفعها الى نظام الاكتفاء الذاتي بشكل متزايد . في الفترة ما بين عامي ١٠٠٠ و ١٢٥٠ انتقل مركز الاقتصاد الأوروبي الى الشمال . جاءت الثروة مع الزراعة المتسارعة النمو في السهل الأوروبي الشمالي الممتد بين نهري اللوار والبا . كان هذا السهل أيام الرومان أحراجا قليلة السكان . لكن التكاثر السكاني أدى الى التوسع في قطع غاباتها ، واستصلاح أرضها ، وإنشاء القرى والطرق فيها

كانت الوحدة الفعلية للإنتاج في أوروبا الغربية عامة هي الملكية الإقطاعية الكبيرة على النهج الروماني الموروث . لكن تدهور



(٢) . قامت بذلك أسر مستنفذة ، ومجموعات من الفلاحين أو من أعضاء الرهبانات . كان التجفيف التدريجي لمستنقعات لينكو لانشير ، وفلاندر وحوض البو من أبرز انجازات هذه القرون . فقد زادت موارد الثروة في أوروبا ، وتحول البحر المتوسط الى منطقة حدودية ، واتجهت مدن الجنوب في أوروبا الى النشاط التجاري المتزايد تلبية لحاجات الشمال النامي .

تحسنت في الوقت نفسه التقنية الزراعية تدريجيا ، نتيجة ادخال المحارث الثقيلة المركبة على عجلات في حراثة الأراضي الشمالية . وظهر المسحاة ومدراس الحنطة اليدوي ، وشد حيوانات الجر في صفوف ، وتطوير الرحى المائية لطحن الحبوب (شاعت تدريجيا منذ سنة ١٠٠٠ م) . وتنظيم دورة المحاصيل الفصلية ، وشيوع حدو الخيل ، والسروج ذات الأطواق مما ساعد النقل .



تخفيض في تصميم هذه العملة وعيارها المعدني . كانت النقود الشبيهة « بصولد » (ب) « لويس التقي » الذهبي (٧٧٨ - ٨٤٠) تلك في عدة مدن . ولكن تحت اشراف الملك . لم يكن بوسع أي نظام اقتصادي غربي . في هذه الحقبة . أن يتحمل عملات ثابتة كالنوميسما البيزنطية الجوستينيانية (ج) أو الدينار الذهبي العربي (د) . بقيت هاتان العملتان النقد الرئيسيتان المتداولتين في التجارة الدولية . في العصور الوسطى . الى أن سك « الفلورين » الفلورنسي في القرن الرابع عشر .

(٣) . كانت مشاكل النقود في العصور الوسطى تقسم الى نوعين . المحافظة على عملة مقبولة لدى جميع الشركاء المتعاملين . والقيام بالمبادلة . عوضا عن المقايضة . بواسطة عملة مقبولة . قطعة نقد كلوفيس الثاني (أ) مثال على المحاولة الميروفنجية التي بذلت للمحافظة على صيغة تضيف أهمية على العملة الرومانية . لكنها أدت الى

(٤) . كانت أمالفي . بفضل مينائها الطبيعي . إحدى الحلقات التجارية الرئيسية . بين العالمين الغربي والبيزنطي . قبل ظهور البندقية . عادت الحياة الى التجارة الغربية في المتوسط . بفضل المدن العربية في شمال افريقيا والأندلس والمدن الإيطالية . مثل أمالفي و نابولي .

نمو المدن

ارتكز نمو المدن الأوروبية ، حتى القرن العاشر ، على المدن الرومانية القديمة في إيطاليا والجنوب ، وعلى الثكنات والقصور الملكية العائدة للكارولنجيليين وأسلافهم الميروفانجيليين في الشمال ، هكذا نمت مدن آخن (ايكس لاشايل) ، وورمس ، فرانكفورت ، راتيسبون ، نيغميغن ، ونشأت كذلك مدن أخرى ، وضواحي تجارية لمدن قديمة ، مثل باريس التي كانت أهم مراكز إنتاج وتبادل السلع المتوفرة للبيع ، لكن التطور الزراعي والتكاثر السكاني ، أديا الى تصاعد شأن المدن ونموها بوصفها مراكز للحرف ، ولتبادل الإنتاج ، معظم المدن الجديدة ، انما نشأ لسد الحاجات المحلية ، فهي اما حصون قامت عندها الأسواق الزراعية أو موانئ لاستيراد البضائع وتصديرها ، ومع تزايد استيطان الأرض واستصلاحها ، كان يزداد اتساع المدن وعددها ، ويوحى عددها في الفلاندر وشمال شرقي فرنسا بوفرة أعداد السكان في هذه المناطق الزراعية ، وتزايد حاجاتهم الاستهلاكية ، أدى التخصص الحرفي في المدن الى نشوء نقابات مستقلة ، أول نقابة معروفة للتجار ، وهي نقابة (تيل) في هولندا ظهرت قبل سنة ١٠٠٠ ، الا ان نقابة التجار ، كأداة تنظيم الجماعة التجارية لم تصبح شائعة حتى القرن الثاني عشر ، مع ذلك ، فقد ازدهرت المدن نتيجة لازدياد حجم السوق الاستهلاكية التي أخذت تزداد بوضوح مع حلول القرن الثالث عشر .

التوسع التجاري

التجارة الأوروبية عبر البحر كانت ، حتى

القرن الثامن ، تعتمد بصورة اساسية على بيزنطة التي تسيطر على الموانئ الجنوبية الرئيسية بأوروبا ، وقد أوقفت حركة التجارة في البحر المتوسط بمنعها التجارة العالمية الا مع طرابزون على البحر الأسود ، ومع القسطنطينية ، وذلك للتضييق على التجارة الاسلامية . أفقر الاحتكار البيزنطي أوروبا حتى فقدت منها العملة الذهبية تماما في القرن الثامن ، وتحولت مراكز التجارة ، من مقاطعات البروفانس واللانجدوك ، الى المواقع الزراعية الجديدة في شمال أوروبا . قيام الدول الاسلامية في شمال افريقيا والاندلس هو الذي أوجد لأوروبا أبوابا جديدة للتجارة والمبادلة ، وأخذ ذهب افريقيا يصلها منذ القرن التاسع ، كما تحركت بضائعها من الفرو والخشب والرقيق نحو البلاد الاسلامية ، وبدأ انتعاش الموانئ الإيطالية والفرنجية على البحر المتوسط ، وبرزت أمالفي (٤) ، جنوة ، بيزا وخاصة البندقية . مع حلول القرن ١١ كانت أوروبا قد أنشأت علاقات متقطعة مع الشرق عن طريق بحر البلطيق وروسيا . كما كانت الموانئ الإيطالية قد وطدت صلاتها مع مصر (١) الفاطمية . تزايد غناها التجاري مع زيادة الطلب على بضائع الشرق في المناطق الشمالية ، جعلها ذات أساطيل قوية وأطماع واسعة . وكان ذلك أحد أسباب الحروب الصليبية . مستعمرات الصليبيين ودويلاتهم في شواطئ الشام زادت من استيراد الحرير والتوابل ، وفتحت الباب لاقتباس التقنيات المتطورة من العالم الاسلامي . في أواسط القرن ١٣ كانت المدن التجارية الإيطالية وشرواتها أحد أعمدة الاقتصاد الأوروبي .

الفن القوطي

« بين ١١٤٠ - ١٢٠٠ م »

هذا التعبير فقد دلالة السيئة تدريجيا . أما إطلاقه على النحت وفنون الرسم ، فهو ظاهرة حديثة نسبيا .

بداية الفن القوطي

اثناء الحقبة القوطية المبكرة ، كانت المشاريع الفنية الرئيسية ، كما كانت في اوائل العصور الوسطى ، تتركز على بناء الأديرة والكاتدرائيات الكبيرة وتزيينها . لم

استعمل تعبير « القوطي » اثناء النهضة الايطالية للدلالة على طراز معماري معين كان بربريا لدرجة لم يكن من الممكن معها اسناده الا الى القبائل القوطية ، التي حطمت روما الكلاسيكية ، في القرن الخامس . لكن



(٤) - تمثل هذه الاشكال الظاهرة على عضائد الباب في كاتدرائية شارتر (البوابة الغربية الوسطى) شخصيات من العهد القديم . على الأرجح . يتم شكل المسيح . الجالس فوق البوابة . عن نيل هادى . يختلف عن اشكال المسيح - الديان المربعة . التي تظهر على كثير من البوابات الرومانسكية . وتنعكس فيها روح العصر الديني . والمثل الروحية الشديدة الجدة .

للعمارية القوطية بحلول عام ١١٦٠ في أديرة شمالي إنجلترا السيترسية . الا ان اقتباس الفن القوطي بكامله بدأ عند إعادة بناء مذبح كانتربري . حوالي عام ١١٧٥ . على يد المعمار الفرنسي وليام السانسي . انصف تصميم هذا المذبح بعدة ملامح لم تكن مألوفة في فرنسا . لاسيما الأعمدة الرخامية السوداء التي شاعت في الفن القوطي الانجليزي . اثناء القرن التالي .

(٢) - بقيت كاتدرائية لاون دون تغيير يذكر . اذا استثنينا المطاف الدائري الذي استبدل به . في اوائل القرن الثالث عشر . طرف شرقي منبسط . تزوده بالنور نافذة وردية . في البهو . جرت محاولة صغيرة لتوسيع تناوب العقود . باتجاه الأسفل . وذلك باضافة شعاع اضافي الى واحد من كل عمودين في الرواق .

(٣) - ظهر شكل مبسط

(١) - كاتدرائية « سينس » هي أقدم كاتدرائية فرنسية ما زالت قائمة (شرع بنائها عام ١١٥٣) . وقد شيدت على نموذج سان دينيس . يستعمل فيها العقد المضلع المصنوع على نطاق شامل . تسنده في معظمه . أعمدة ذات تيجان مزخرفة بمنحوتات الازهار . هذا المنظر المتجه نحو الشمال الشرقي هو منظر المطاف الدائري . ويظهر معه الى اليمين البعيد احد المعابد النصف دائرية .

يستحدث البناؤون القوطيون الأوائل أشكال كنائس جديدة ، إلا أنهم أدخلوا تعديلات كبيرة على الطراز المعماري السائد حينئذ وعلى تقنية البناء ، مما يسمح بالقول أن الأسلوب القوطي كان ، من بين الأنماط المعمارية السابقة للقرن العشرين ، أكثرها استقلالا عن التقاليد الكلاسيكية للعصور القديمة (١) .

كان فن العمارة القوطية ، طيلة الثلاثين

سنة الأولى لظهوره ، تطورا فرنسيا محضا ، إلا أنه انتشر في أواخر القرن الثاني عشر خارج فرنسا ، وفي حوالى عام ١٢٥٠ حل محل الأساليب الرومانسكية المحلية ، في معظم مناطق أوروبا الغربية .

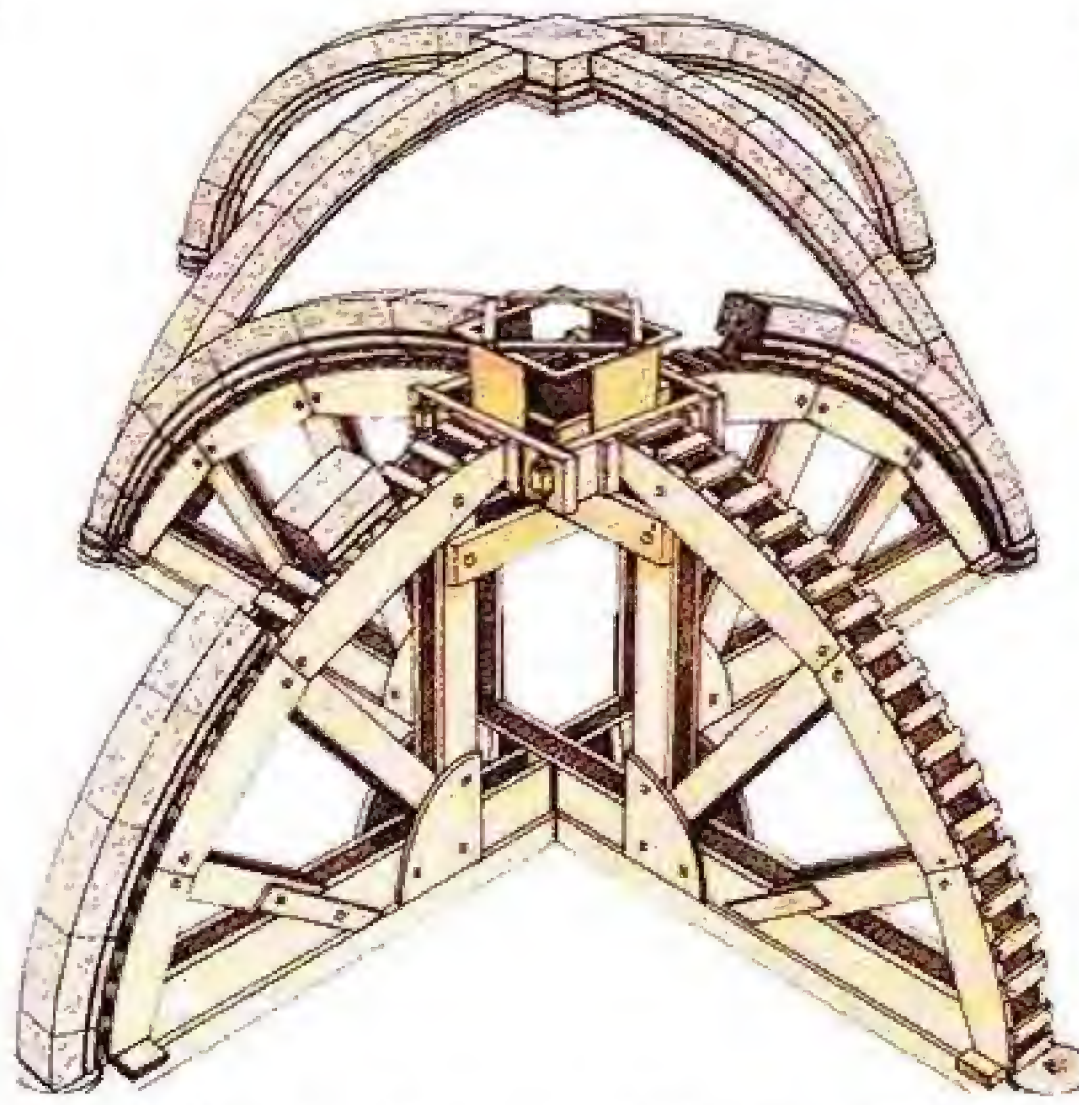
كان جناح الجوقة في دير سان دينيس ، الذي شرع ببنائه عام ١١٤٠ بالقرب من باريس ، بناء تتساوى فيه الإصالة الفائقة ، مع الاتساق التام في التنفيذ . إلا أن



(٥) - موضوع هذه المنحوتة في كاتدرائية سينلس (البوابة الغربية) هو تتويج العذراء ، وهو واحد من عدة مشاهد شاعت في القرن الثاني عشر .

نتيجة لانتشار تقليد تكريم العذراء ، لا تزال آثار الطلاء الأصلي ظاهرة في هذه المنحوتة .

(٦) - تعرض جناح الجوقة الجنوبي ، في كاتدرائية إيكسستر (حوالى ١٣٠٠) للقصف عام ١٩٤٢ . ثم أعيد بناؤه عام ١٩٤٩ . يبين هذا المشهد القالة الخشبية أو « المركزة » التي كانت تستعمل لبناء الأضلاع . تظهر بعض الأضلاع مثبتة في مواضعها ، فيما لا تزال أي من الركائز الأساسية المنحوتة غير



موضوعة . بعد اكمال الأضلاع ، تأتي المرحلة التالية ، وهي ملء المساحات المثلثة المقوسة القائمة بين الأضلاع بصفوف أفقية من الحجر ، لا تحتاج هذه العملية الى سقالة . لأن الأضلاع تقي بهذا الغرض . عند الوصول الى هذه المرحلة ، يكون السقف الخشبي الدائم قد شيد .

(٧) - ظهرت العقود الواقعة تحت أضلاع نصف دائرية في إنجلترا وتورماندي حوالى عام ١١٩٠ . كانت المشكلة الرئيسية ، في تصميم الأضلاع النصف

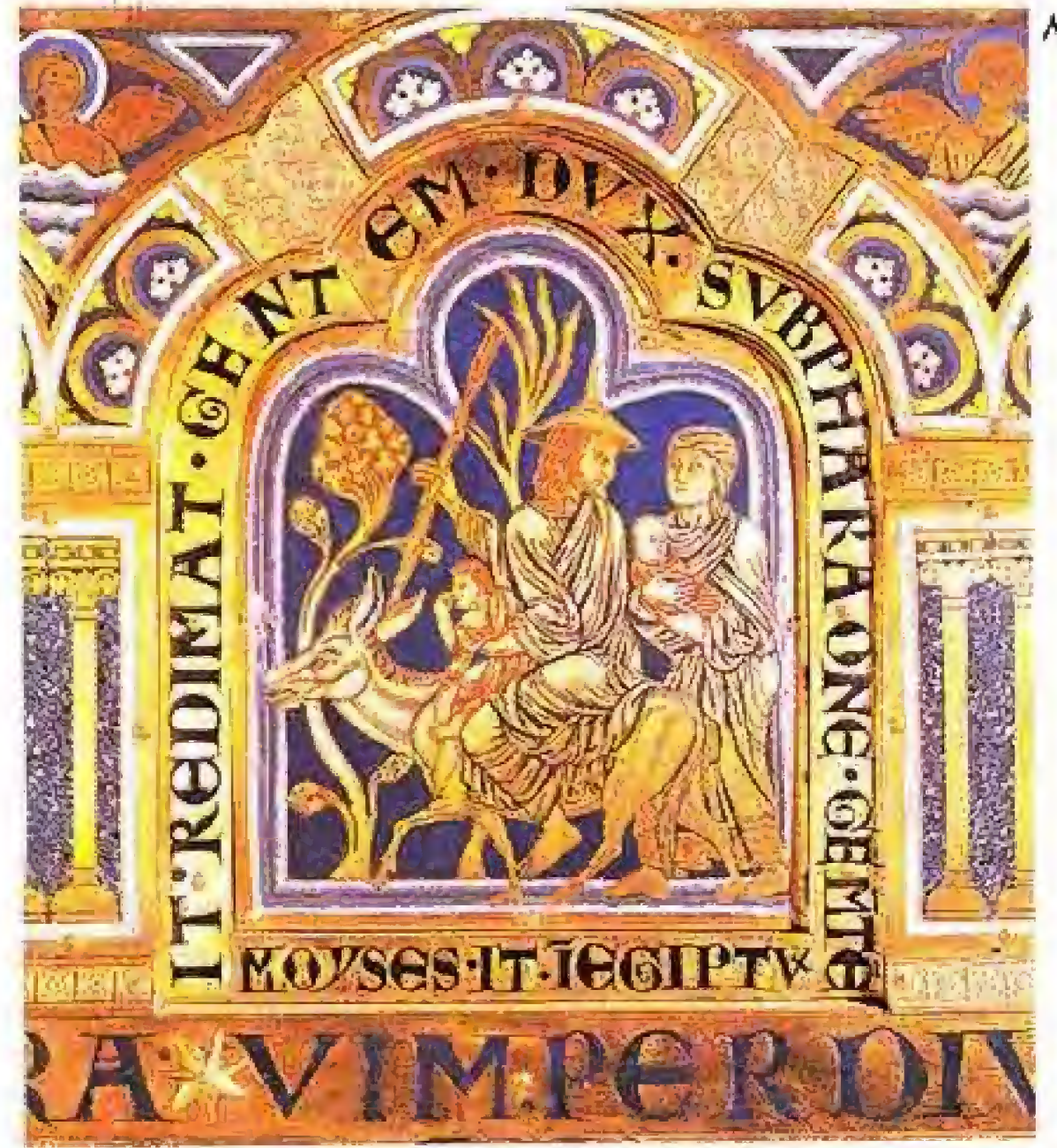


دائرية ، أنه كان من الضروري خفض الأضلاع القطرية الكبيرة ورفع أضلاع الجدران وجعلها عمودية ، كي تصل جميعها الى ارتفاع الأضلاع المستعرضة . حلّ المعماريون القوطيون هذه المشكلة باستعمال الأضلاع المسننة . تنبثق هذه الأضلاع عن مركزين اثنين ، مما يعني أن ارتفاعها لم يعد متوقفا على عرضها .

الخصائص المميزة له تنبثق جميعها عن أسلوب تقني واحد اقتبس عن فن العمارة الإسلامي الظاهر مثلاً في الجامع الأموي بدمشق ، وانتقل إلى الغرب عبر الأندلس . وهو دمج العقود المضلعة بالأقواس المسننة .

العقود المضلعة والدعامات الحاملة للشقل تتمتع العقود المضلعة بصفات كثيرة .

تميزها عن أنواع العقود الأخرى (٣) و (٧) . فأزواج الأقواس (الأضلاع) . المتقاطعة فيها بشكل مائل ، توفر لها إطاراً يجعل من الممكن ملء تجاويف العقد فيما بعد . لذلك لم تكن المركزة (السقالة المنحنية التي تركز عليها العقود) ضرورية إلا للأضلاع وليس للعقد بكامله . كذلك كانت العقود المضلعة خفيفة نسبياً ، إذ كانت تصنع من حجارة تنحت بعناية ، عوضاً عن حجارة



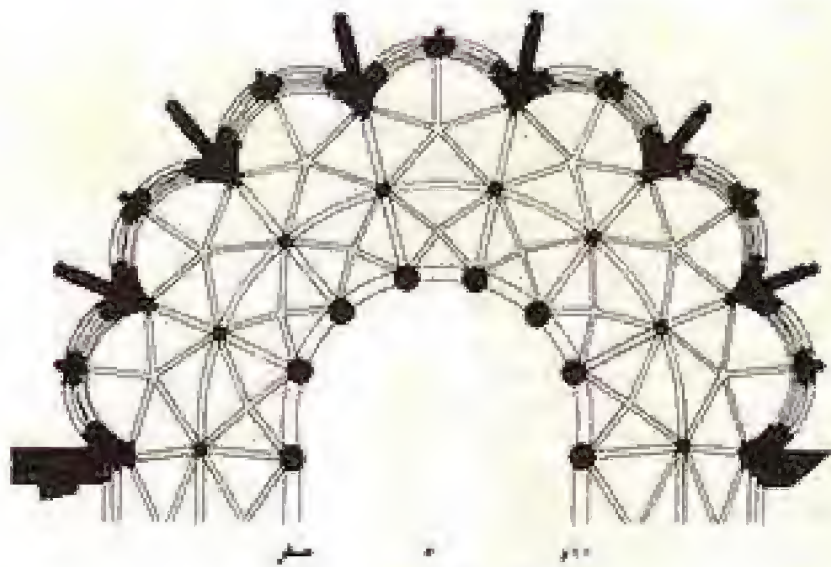
(٨) - كانت صناعة المعادن الكنسية من أكثر الأعمال الفنية احتراماً ، في العصور الوسطى . سطر الأب سوجير رئيس دير سان دينيس شروحا مستطيلة تصف الكنوز التي جمعها ، من أجل ديره ، لكنه لم يأت على ذكر المنحوتات الحجرية للبوابات الغربية الجديدة ، التي تعتبر اليوم بداية النحت القوطي ، صنعت أصلاً واجهة مذبح كلوستر نو بوج (١١٨١)

لتكون منبراً ، مما يفسر عدم استعمال المواد الثمينة فيها . لكن خلافاً لجميع العادات ، سمح للفنان ١٠ نقولا الفيرداني أن يوقع بأسمه عليها . تتصف هذه الأشكال الكلاسيكية بأنها ثلاثية الأبعاد ، في صلابتها ووزنها ، مما لا علاقة له بالمنحوتة السطرية للفن الرومانسكي .

(٩) - النوافذ المحيطة بهضريح القديس توماس أ. بيكيت ، في كاتدرائية كانتربري . مليئة بالزجاج الملون الذي تظهر فيه صور المعجزات التي تمت على يده . وهي تذكرنا بتزيين الكتب الملون الذي شاع في أواخر القرن الثاني عشر .

(١٠) - هدم الطرف الشرقي لكنيسة سان دينيس العائدة إلى القرن الثامن ، واستبدل به ، في القرن الثاني عشر هذا البناء المعقد ، الذي كان فيه ممشي نصف دائري موكبي لأن المطاف الدائري يمكن الزوار الحجاج من مشاهدة ضريح القديس دينيس . دون التشويش على الطقوس الدينية . تتفرع عن الممشى الدائري هذا سبعة معابد ، كل

منها يقع جزئياً في زاوية نصف دائرية ناتئة قليلاً . تشكل نوافذ هذه المعابد صفاً متصلاً ، وتصل بينها مساحات صغيرة من الجدران ودعامات رقيقة وعميقة . تدل الخطوط المتقاطعة على أماكن أضلاع القباب ، والصلبان على مواقع المذبح .



الدبش المدفونة في الطين . كما كان استعمال الأقواس المنتظمة هندسياً يسهل عملية مدها فوق أمكنة مختلفة الاشكال . لكن نقطة ضعف الأضلاع النصف دائرية . المستعملة في لسي وغيرها . تتلخص في ان ارتفاعها (الشعاع) يجب ان يعادل بالضرورة نصف باعها (قطرها) . بمعنى أن الأضلاع المائلة في عقد مستطيل . وأضلاع الجدران . كانت بحاجة الى بعض التعديلات الاعتبارية لجعلها مساوية في الارتفاع للأضلاع المستعرضة .

استطاع البناء الذي بنى سان دينيس أن يبني عقوداً متساوية الارتفاع . على سلسلة معقدة من المساحات والأشكال المختلفة . وذلك بفضل دمج العقود المضلعة والأقواس المسننة دمجاً يحافظ على الارتفاع الواحد . مهما كان الباع . كذلك توصل هذا البناء الى إبراز خفة العقود . بتثبيتها على أعمدة منفردة نحيفة . ثم انه طبق مبدأ هيكل العقود المضلعة على الجدران الخارجية لجناح الجوقة . وحين تبين له ان العقود المضلعة لا تحدث ضغطاً مستمراً باتجاه الخارج . وهو الضغط الذي كان يوجب في السابق بناء جدران سميكة لتحمل الضغط . عمد الى بناء دعائم بارزة جدا عن النقاط التي ينحصر فيها الضغط . ولما تحررت الجدران هكذا من وظيفة حمل العبء الرئيسي . أصبحت منفوحة . وأخذت تبدو كصف من النوافذ المتصلة . فأمنت بذلك انارة رائعة لجناح الجوقة بكنيسة سان دينيس .

كاتدرائية لاون

لم يلبث دير سان دينيس ان أصبح

مصدر احياء لعدد من الكاتدرائيات الفرنسية الشمالية . ويمكن اعتبار كاتدرائية لاون (٢) . التي شرع بنائها حوالي عام ١١٦٠ . النموذج الكلاسيكي لتلك الكنائس من عدة نواح : فالارتفاع الداخلي يتألف من أربعة أدوار . بما فيها شرفة فسيحة او منبر . ويتألف العقد من ستة أقسام ورتبت اعمدته فرادى وثلاثاً بالتناوب . غير ان النسب الضيقة . السائدة في كنائس هذه الحقبة . والتي تعتبر قوطية بكل معنى الكلمة . لا تختلف عن نسب بعض الكنائس الرومانسكية الكبيرة .

كانت التعرجات الخارجية الملساء . لكنائس القرن الثاني عشر القوطية . تكتسب شيئاً من الحيوية بفضل الأبراج . وهذه كانت تتراوح بين الاثنين المعتادين في الطرف الغربي . وبين السبعة البارزة في لاون . ومن ناحية أخرى . كانت توجد في الواجهات الغربية بوابات ضخمة استعملت فيها منحوتات نافرة جدا . ليس فقط في الجزء العلوي منها (القوسرة أو المساحة الفاصلة بين اعلى الباب والقوس الواقع فوقه) . بل ايضاً في اقواس الاطار وعضادات الباب أو الرواق . أصبحت الاشكال الضخمة المنحوتة فوق العضادات (٤) علامة فارقة للاستلوب القوطي .

تميزت ايضا الأبنية القوطية الباكرة بأن اقسامها الداخلية لم تكن الا على مقدار قليل من الزخرفة المنحوتة . اذا استثنينا التيجان المنحوتة ازهاراً فوق الأعمدة . الا ان خشونة اقواسها واضلعتها وأعمدتها كان يخفف منها الى حد ما الاستعمال السخي للزجاج الملون والاقبال من الألوان المطلية .

النظام الاقطاعي

في حضارة بدائية، كالحضارة السائدة في أوروبا في أوائل العصور الوسطى والتي كانت تفتقر الى جهاز حكومي اداري، وشرطة، وهيئة قانونية، كان من الطبيعي ان تكون المؤسسات المتينتان الوحيدتان هما:

العائلة، وخصوصا تلك المؤسسة التي عنها تنبثق الثروة والقوة، الجماعة العسكرية وزعيمها، كانت الرابطة بين الزعيم والمحاربين، هي أساس المجتمع «الاقطاعي» في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا، اثناء القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكانت أخلاق المحارب في العصور الوسطى، تتطلب ولاء قويا من التابع، وكرما لا حدود له من سيده.

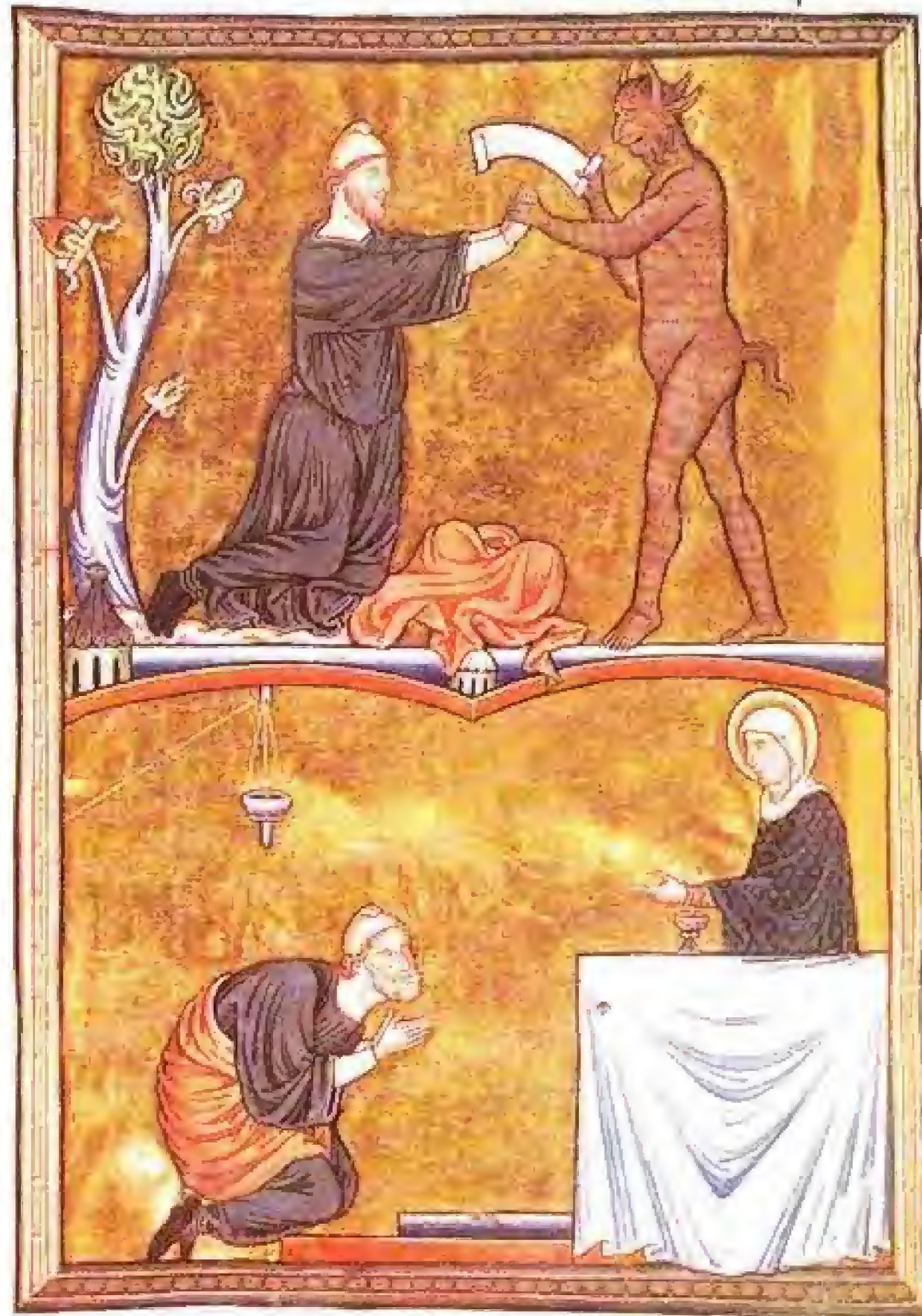


اندفاعهم على الركائب، كما كانت السروج العالية تشكل نقطة ارتكاز لهم، كانت الغاية من الرمح اسقاط الفرسان المنافسين عن مطيقتهم، كان الأسياد الذين يملكون خيولا كثيرة قليلي العدد، لكن هناك أدلة تشير الى أن طرق التكاثر الفعالة التي استعملت اخذت تزيد في عددها، ففي كورفي بياكسوني، كان اسطبل واحد يمد الجيوش الألمانية الامبراطورية بالخيول.

(٣) - امتاز الفرسان النورمانديون باستعمال ادوات القتال العملية، عندما ازداد طول السيف (خ) والفأس

الضروري، بسبب قلة عدد الذين يفرؤون ويكتبون في عصور الاقطاعية الأولى، ابرام عقود قانونية، أمام شهود يمكن الاعتماد على ذاكرتهم، كان مرسوم الخضوع يتم بأن يأخذ السيد يدي تابعه بين يديه، وأن يتعاقبا بعد ذلك عربونا للصدقة والتعاون الحربي.

(٢) - فارس من القرن الرابع عشر، هو السير جيفري لوتريل، يتسلم خوذته ورمحه (هذا المشهد مأخوذ من مزامير لوتريل) - كان الفرسان يعتبرون ابطالا، وكانت مبارزاتهم تتصف بالأناقة والفخامة، اعتمدت قوة



(١) - تبدو «حفلة الولاء» هذه العائدة الى القرن الثاني عشر، مجازية، اذ تمثل ثيوفيلوس يقدم واجب الطاعة للشيطان الحامل وثيقة خطية، الا أن الهدف الحقيقي من طقوس الولاء كان جعل العقد علنيا، وبصورة تبقى ذكراه محفورة في الذاكرة، دون حاجة الى وثيقة مكتوبة، فقد كان من

الملكية الاقطاعية للأرض

كان من شأن الرابطة الشخصية بين المحارب وسيدّه ، وفيما بعد ، بين مستغل الأرض والمالك (المتجلية حينئذ في الولاء والتبعية والالتزام وهي درجات متصاعدة من التقيد بالواجب) أنها اخذت تنعكس في نطاق علاقات ملكية الأرض . لم تكن الملكية المطلقة للأرض معروفة في العصور الوسطى ، بل كان الملك يمنح الممتلكات أو

الاقطاعات من الأرض ، مقابل خدمات معينة ، عسكرية على الأغلب ، يتعهد بتأديتها المقطع بحلف اليمين ، وكان هؤلاء الملاكون الرئيسيون أيضا يقطعون بدورهم الاراضي للفرسان ، لقاء يمين الولاء لهم . لم تكن حفلة مراسيم الولاء (١) تنطوي بالضرورة على ارتباط دائم أو مقتصر على شخص واحد ، بل كان من الشائع أن يدين الفارس بالولاء ، بالنسبة الى قطعة واحدة من



(٥) - كانت قلعة كارنافون في بلاد الويلز (١٢٨٣ - ١٢٩٢) إحدى القلاع الضخمة التي بناها أدوارد الأول ، بعد أن فتح ويلز . مع حلول عام ١٣٠٠ تقريباً ، كان الحصن البدائي قد تطور حتى أصبح عبارة عن مجمع محصن ، يبلغ من الضخامة والقوة حداً يمكنه من إيواء وحماية حكومة أقليمية ، وراء حصون مبتكرة تقنياً .

القرن العاشر (أ) خوذة ذات منظار (ب) وقلنسوة محبوكة من الزرد (ت) بإحكام

(٤) - كان الفارس المسلح محور المجتمع الاقطاعي . وكان افراد من نخبة المجتمع وحدهم يستطيعون تأمين الأدوات الباهظة الثمن اللازمة للفروسية .

(ح) . أصبح من الضروري زيادة الوقاية ، باستعمال التروس الثقيلة (ث ، ج) . كذلك حلت محل خوذة

الأرض ، لعدد من الاسياد ، أو حتى لمن دونه اجتماعيا .

مع ذلك فإن الحقبة الممتدة من عام ٩٥٠ حتى عام ١٢٥٠ قد دُعيت « بالاقطاعية » بمعنى الكلمة الحقيقي ، وذلك بسبب سيطرة الطبقة الارستقراطية المحاربة في اوروبا الغربية ، وفي فلسطين تحت الاحتلال الصليبي . كان يجمع بين اعضاء هذه الطبقة طريقة خاصة للتدريب والقتال ، هي اسلوب

« الفارس المحارب » ، وعرف سلوكي مشترك قائم على المثل العليا « للفروسية » . نشأت الارستقراطية انطلاقا من تفوق الخيالة التقني على الجنود المشاة ، وظهرت الى الوجود في عهد شارلمان تقريبا . لم تكن أوروبا قديما تعرف « الركاب » و « حدوة الفرس » ، وقد كان لادخالهما ، وبخاصة الركاب ، من آسيا الوسطى ، حوالي عام ٧٥٠ ، نتائج ثورية . فقد أصبح الفارس يستطيع ، وهو حامل رمحه ،



نورمبورج . هو رمز للمثال الأعلى لطبقة الأشراف الأوروبية ، في أواخر فترة النظام الاقطاعي ، أي المحارب المسيحي . فمبدأ الحملة الصليبية الأولى ظهر كما لو اتخذ القتال شكلا مثاليا ، فيما ادعى الأوروبيون أنه دفاع عن العالم المسيحي ضد المسلمين . اشتركت اعداد كبيرة في الحملات الاستعمارية على القدس ، وانضم المتحمسون منهم الى رهبانات عسكرية مثل

أهم المناقب التي كانت تنسب الى الفارس المثالي هي الدفاع عن المسيحية ضد المسلمين . غير ان واجبي صيانة شرف المرأة ونصرة الضعيف والمظلوم كانا يحتلان في هذا القانون مركزا خاصا . فغدا تطبيقهما واجبا تجاه أي انسان مهما كان معتقده الديني .

(٧) - تمثال الصليبي ايكارد وزوجته يوتا من القرن الثالث عشر ، الموجود في كاتدرائية

(٦) - أصبحت الفروسية مؤسسة أوروبية جلييلة في العصور الوسطى . وقد تجلّت بشكل رائع في هذه الصورة التي تمثل القديس لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٧٠) وهو ينقذ سيدة مسلمة وطفلها من الموت اثناء المعركة . أقام الفارس الاقطاعي لنفسه في تلك الحقبة ، قانونا للتصرف الشخصي المثالي يتعدى حتى انتماءه المسيحي . مع أن من



« فرسان الهيكل » (الداوية) و « فرسان الضيافة » (الأسبتارية) ، وبالإضافة الى الحملات الصليبية الاستعمارية الكبرى ، خرج عدد من الفرسان فرادى ، لكسب الشهرة ، أو التكفير عن خطاياهم . بالحرب في فلسطين أو الأندلس العربيتين أو ليتوانيا الوثنية .

الاندفاع بقوة . بفضل سرعة الحصان . دون ان يتعرض للسقوط عند الاصطدام بهدفه (٢) . وقد زاد ذلك من أهمية الخيالة المقاتلين (٤) . ولكن قبل حوالي ٩٥٠ . كانت الخيل قليلة العدد ، لذا فان وفرتها النسبية عند الفرنك تفسر انتصارات شارلمان .

ظهور الفرسان

ثمة أدلة تشير الى ازدياد عدد الخيول بسرعة بعد عام ٩٥٠ . وفي القرن التالي ، كان الخيالة ، في كل مكان . هم الذين يقررون مجرى الحروب . كان عددهم قليلا ، وأجهزتهم باهظة الثمن ، وتدريبهم طويل الأمد . الا أن ذلك زاد من كبريائهم . كانت طبقات الفرسان ، والحالة هذه ، تسيطر على المجتمع المحلي . كان الفرسان يقومون بمهام عديدة : فالكثيرون منهم كانوا دون زعيم دائم ، لذا كانوا يبيعون خدماتهم . كمرتزقة ، لمن يدفع أعلى ثمن لهم ، أما الآخرون ، لاسيما في مطلع حياتهم ، فكانوا يلتحقون بخدمة أحد كبار النبلاء كفرسان في قصره .

ربما كانت أشد مهارات الفارس القتالية تأثيرا هي الغارة التي تشنها فرقة الفرسان في دفعة واحدة . وهو أسلوب استعمل في الحملة الصليبية الأولى . لكن الفرسان كمحترفين ، تعلموا أيضا مهارات دفاعية . كان أبرزها تطوير القلعة ، من برج بسيط في القرن الحادي عشر ، الى القلعة المحصنة في حوالي عام ١٢٠٠ (٥) . ولا شك أن تطوير اساليب وتصاميم بناء القلاع تأثر كثيرا بما تعلمه الصليبيون من العرب ، أثناء احتلالهم لأجزاء من الساحل الشرقي للبحر المتوسط .

نظام الفروسية وملكية الأراضي كانت مثل نظام الفروسية تقضي بأن يقاتل الفرسان في سبيل الانتقام للمظلوم ، والدفاع عن شرف السيدات (يظهر موضوع الحب الرومنطيقى للمرة الأولى في أوساط الفرسان في جنوب فرنسا في القرن الثاني عشر) . وفي سبيل نصره الدين المسيحي ضد المسلمين (٦ ، ٧) . وقد ادعى « فرسان الهيكل » (الداوية) و « فرسان الضيافة » (الاسبتارية) انهم جمعوا بين قوة الفرسان ، وطهارة الرهبان ، في حروبهم من أجل الأراضي المقدسة .

كانت حياة الفارس القتالية قصيرة نسبيا ، ما لم يصبح قيما ، أو موظفا مرموقا . عند أحد النبلاء ، لذا كان الفارس يطمع عادة بأن يحصل على اقطاع وينصرف الى زراعته . عندما كان الفرسان يستقرون على أرضهم ، كان معظمهم يعيش ببساطة ، في حصون صغيرة ، مؤلفة من غرفة في طابق أرضي يعيشون وينامون فيها ، ومن مستودع للذخيرة تحتها . ومع أن الفرسان كانوا يتمتعون بحقوق معترف بها على المستأجرين للأرض عندهم . فلم يكن سكان القرية يعيشون دوما في ظل اسيادهم الفرسان . بل ان انتشار نظام الزراعة « ذي الحقول الثلاثة » المعقد ، وظهور التعاونيات القروية في فرنسا ، يدلان على أن عددا من القرى كانت تتمتع بحياة جماعية مستقلة . مع انها كانت تدفع الضرائب المستحقة . كان الفارس يساهم ، في هذه الحياة ، بتأمين الزعامة والحماية ، وفي الكثير من الأحيان ، بالمبادرة الى احياء الأرض الموات المجاورة .

الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعتماد

البحرينية العربية للنشر والتوزيع
طرابلس

هذه الموسوعة

لأول مرة في لغتنا العربية .
لأول مرة في تاريخنا بأسره ،
تصدر لدينا موسوعة مصورة
ومعدة فعلاً على مستوى العمل
الموسوعي .

لم يكن بوسعنا ان نتجاهل هذا النقص
في مكتبتنا العربية . ولم يكن
من خطتنا أن نؤيد بأي عمل لا يجاري
مستويات الموسوعات الحديثة
في أكثر لغات العالم تقدماً .
وقد أنفقنا بعض الوقت ونحن
نبحث جاهدين عما يدعى عادة باسم
"الحل الوسط" ، لكن البحث نفسه
لم يعلمنا شيئاً سوى انه ليس ثمة
حل وسط لأداء أي عمل جدي .
فماذا فعلنا ؟

سؤال بسيط جداً ، لكن اجابته
الصحيحة لا تقع في نطاق هذه
المقدمة وعدها أو هذا الكتاب
كله ، انها تقع في عشرة مجلدات
تضم حوالى أربعة آلاف صفحة
وأكثر من عشرة آلاف صورة ، وجمود
خمسائة محرر ورشام طوال أربع
سنوات كاملة .

الصداق لنينوم

المجموعة الثانية

